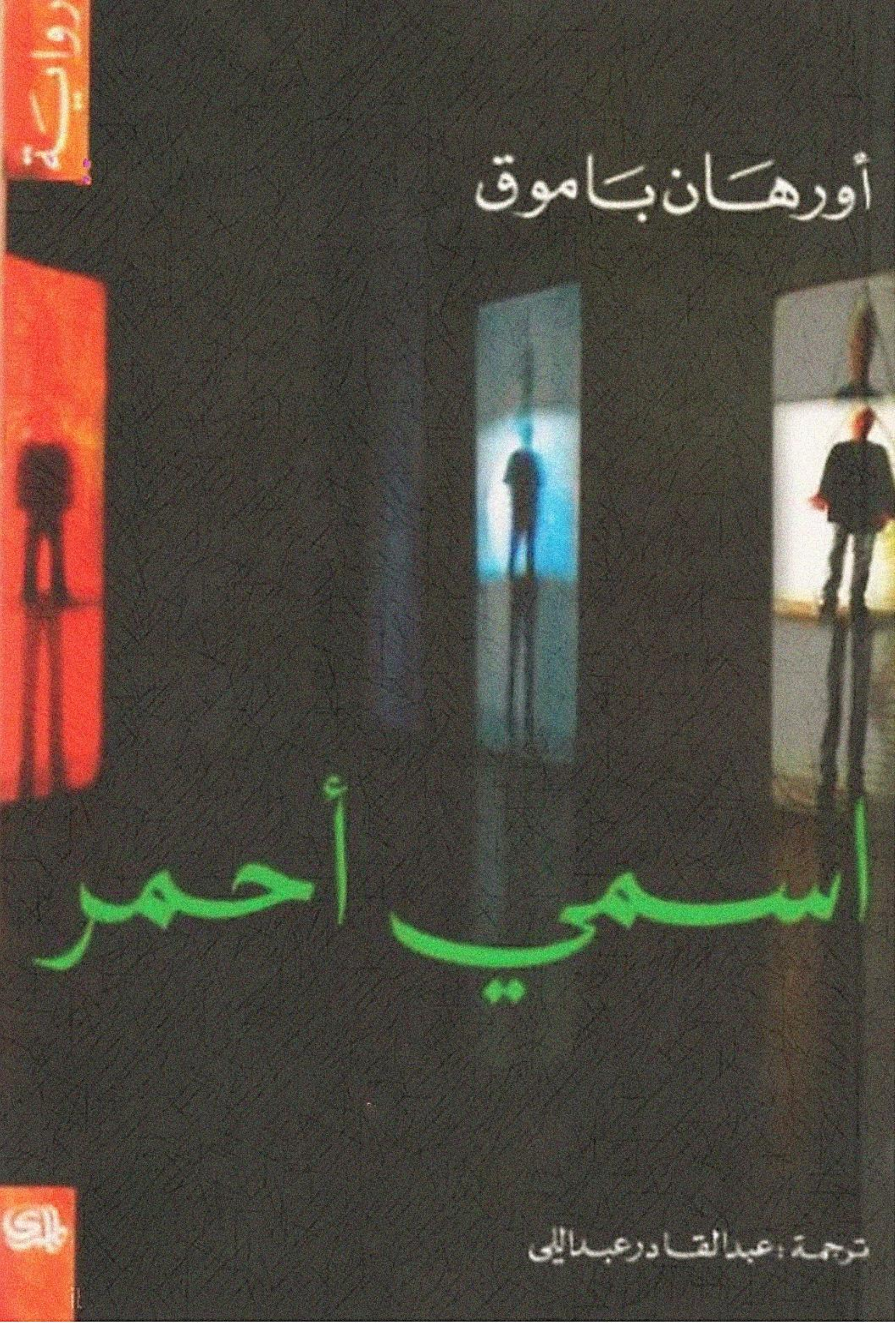

رواية
أورهان باموق
اسمي أحمر
ترجمة: عبدالقادر عبداللي

Author : Orhan Bamuk — اسم المؤلف : اورهان باموق
Title : My name is red — عنوان الكتاب : اسمي أحمر
Translator : Abdul Kader Abdelli — ترجمة : عبد القادر عبد اللي
Al- Mada :P.C. — الناشر : المدى
First Edition : 2000 — الطبعة الأولى : ٢٠٠٠
Second Edition : 2004 — الطبعة الثانية : ٢٠٠٤

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان - بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- ابو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

اورهان باموق

اسمي أحمر

ترجمة
عبد القادر عبد اللي

مقدمة

أورهان باموق (Orhan Pamuk) (مواليد اسطنبول ٧ حزيران ١٩٥٢) لمع نجم الروائي التركي أورهان باموق فور دخوله عالم الأدب . فقد لفت الأنظار إليه بقوة إثر صدور روايته الأولى « جودت بيك وأولاده » .

بدأ يُتَرْجَمُ إلى أهم لغات العالم بعد صدور روايته الثانية : «البيت الصامت » .

وضعته روايته الثالثة « القلعة البيضاء » في مصاف الكتاب العالميين ، وشكلت منعطفاً في مسيرته الأدبية باستخدامه الرواية التاريخية .

لم يستمر في كتابة الرواية التاريخية في روايتيه الرابعة والخامسة : «الكتاب الأسود » و«الحياة الجديدة » ولكنه حقق من خلالهما مزيداً من الشهرة العالمية إذ بلغ عدد اللغات التي ترجم إليها ثلاث عشرة لغة .

في روايته : «اسمي أحمر» يعود مرة أخرى إلى الرواية التاريخية متناولاً موضوعاً مثيراً هو : «الفن التشكيلي الإسلامي» إذ يستمد عنوانها من اللون الأحمر الأكثر استخداماً في الرسم الإسلامي . وتعتبر هذه الرواية الصادرة في الشهر الأخير من عام ١٩٩٨ من أهم الروايات التي صدرت في العقد الأخير من القرن الماضي . ورفعت عدد اللغات التي ترجم إليها باموق إلى تسع عشرة لغة . واحتلت المركز الأول في عدد مبيع نسخها إثر صدورها

مدة طويلة . بلغ عدد النسخ المباعة من هذه الرواية في التركية مائتي ألف نسخة ، من غير حساب النسخ التي تطبع بطريقة غير مشروعة وعلى نطاق واسع .

اهتمت به الصحافة العالمية ، وتناول رواياته كبار النقاد . قالت «فرانكفورت اللغماين» : «أورهان باموق روائي تركي شاب يعلّم أوربا كيف تكتب الرواية» . وقالت «نيو ستيتس مان» الانكليزية : «على الجميع أن يقرأ أورهان باموق» . وتقول : «ABC كلتورا» الاسبانية : «الخيال الأكمل الذي شهدته المكتبات» . . .

في ترجمة هذه الرواية استخدمت المصطلحات العثمانية كما وردت في النص ، وهي مفهومة للقارئ العربي من السياق أكثر من فهمها من قبل القارئ التركي ، مثل : «سرنامة ، قيافة نامه ، شاه نامة ، سفرنامة . . . الخ» . حورت مصطلح «نقاش خانة» إلى «نقش خانة» لأننا عموماً ننسب المكان إلى المهنة ، وليس إلى المهني ، والأمانة تقتضي هذا التنويه .

عبدالقادر عبداللي .

1

أنا ميّت

الآن أنا ميت . جثة في قعر جب . مضى كثير من الوقت على لفظي نفسي الأخير . وتوقف قلبي منذ زمن طويل ولكن لا أحد يعرف ما جرى لي غير قاتلي السافل . إنه رذيل مقرف . أصغى إلى تَنَفَسي للتأكد من موتي ، وجسّ نبضي ، ثم رفسني على بطني ، بعد ذلك حملني إلى الجب ، ورفعني ، وألقاني . رأسي الذي كسره بالحجر تفتت في الجب . انسحق وجهي ، وجبيني ، وخداي ولم يبق منها أثر . تكسرت عظامي . امتلأ فمي دماً .

أربعة أيام مضت على غيابي عن البيت . زوجتي وأولادي بحثوا عني . ابنتي انهارت لشدة البكاء ، هي تنظر إلى باب الحديقة . عيون الجميع على الباب والطريق .

ترى هل عيونهم على الباب ؟ هذا أيضاً لا أعرفه . لعلهم اعتادوا . ما أسوأ هذا! لأن الإنسان وهو هنا يشعر بأن الحياة التي تركها خلفه تسير كما تركها ، وكما كانت في الماضي . كان خلفي زمنٌ لا محدود حتى قبل أن أولد ، وبعد أن مت أيضاً ، زمن لا ينتهي! لم أفكر بهذا وأنا حي . كنت أعيش وسط ضوء بين زمنين مظلمين .

كنت سعيداً . الآن أفهم أنني كنت سعيداً . كنت أعمل أفضل تذهيب في نقش خانة السلطان ، وليس هنالك مذهّب يستطيع الاقتراب من مهارتي .

كان يدخلني في الشهر تسعمائة قرش أبيض من عملي في الخارج . وهذا بالطبع يجعل موتي لا يطاق .

كنت أعمل تذهيباً ونقوشاً فقط . أزيّن أطراف الصفحة ، وألون وسطها راسماً أوراقاً ، وأغصاناً ، وورودا ، وأزهاراً ، وطيوراً : غيوماً متلوية بالأسلوب الصيني ، وأوراقاً متداخلة ، غابات ملونة في داخلها يختبئ غزلان ، وزوارق ، وسلاطين ، وأشجار ، وقصور ، وخيول ، وصيادون . . . قديماً كنت أنقش على الصحون أحياناً ، وعلى خلف مرآة أحياناً ، وعلى ملعقة أحياناً ، وعلى سقف فيلا أو شاليه في منطقة البوسفور أحياناً ، وعلى صندوق أحياناً . . . أما في الفترة الأخيرة فلا أعمل إلا على صفحات الكتب ، لأن سلطاننا يدفع الكثير على الكتب المنقوشة . لن أقول إنني عندما واجهت الموت فهمت أن النقود غير مهمة أبداً في الحياة .

أعرف أنكم تنظرون إلى هذا كمعجزة كونكم تسمعون صوتي في هذا الوضع ، وتفكرون على النحو التالي : دع الآن كم كنت تكسب وأنت حي ، واحك لنا عما تراه هناك . ماذا يوجد بعد الموت ؟ أين روحك ؟ كيف حال الجنة وجهنم ؟ ماذا ترى هناك ؟ كيف هو الموت ؟ هل تتألم ؟ إنكم على حق . أعرف أن الإنسان فضولي لمعرفة ما يجري بعد الموت . حكوا لي عن شخص كان يتجوّل بين الجثث في ساحة الحرب بدافع هذا الفضول فقط . . . مات وبُعث بين المحاربين الجرحى وهم يتنازعون الروح ، وبينما كان يبحث عنه جنود تيمور آملين أن يعطيهم أسرار العالم الآخر ، ظنوه عدواً ، فشطروه نصفين بضربة سيف ، فاعتقد أن الإنسان يشطر إلى نصفين في العالم الآخر .

ليس ثمة شيء كهذا . حتى إنه يمكنني القول إن الذين يشطرون في الدنيا تلتئم أرواحهم هنا . ولكن لله الشكر أن الكفار الذين لا دين لهم ، والزناديق ، والخاضعين للشيطان موجودون ، عكس ما يُزعم . وندائي لكم

من هناك إثبات لهذا . مت ولكن كما ترون لم أزل . من جهة أخرى أنا مضطر للقول إنني لم أصادف قصور الجنة الفضية التي تجري من تحتها الأنهار ، والأشجار الكبيرة الأوراق والدانية القطوف ، والحوريات البكر . مع أنني الآن أتذكر جيداً كم كنت أستمتع برسم الحوريات الواسعات العيون التي جاء ذكرها في سورة الواقعة . وبالطبع أيضاً لم أصادف ما جاء تفصيله ليس في القرآن الكريم ، ولكن عند أمثال ابن عربي عن الأنهار الأربعة ، تلك التي يجري في واحد منها لبن ، وفي الثاني خمر ، وفي الثالث ماء عذب ، وفي الرابع عسلٌ . ولأنني لا أريد دفع الكثيرين ممن يعيشون على آمال الدنيا الآخرة وخيالاتها وهم محقون ، إلى عدم الإيمان ، أريد أن أوضح وبسرعة أن هذا الأمر يتعلق بوضعي الخاص . كل مؤمن حتى ولو كان قليل المعلومات حول الدنيا والآخرة يقبل أن واحداً مثلي لا بد وأن يجد صعوبة برؤية أنهار الجنة .

باختصار ، أنا المدعو بين النقاشين والأساتذة ظريف أفندي مت ، ولكنني لم أدفن . لهذا السبب لم تستطع روحي ترك جسدي تماماً . الجنة أو جهنم قدري ، ولكي تقترب روحي منها لا بد أن تخرج من قذارة جسدي . يؤلمني جداً وضعي الاستثنائي هذا الذي يمكن أن يقع لآخرين . أنا لا أشعر برأسي المتحطم ، وبتفسخ جسدي المجرّح والمكسّر الذي يغط نصفه في ماء بارد مثل الثلج ، ولكنني أشعر بالعذاب الشديد الذي تتعذبه روحي المخفّقة من أجل ترك جسدي . أشعر بتضيق وكأن العالم كله حشر في داخلي .

لا يمكنني سوى مقارنة شعوري هذا بالضيق مع شعوري بالتوسع المدهش في لحظة موتي الفريد هذا . عندما كسرت جمجمتي من طرفها بضربة الحجر غير المتوقعة تلك ، فهمت بسرعة أن ذلك السافل يريد قتلي ، ولكنني لم أصدّق أنه يستطيع . كنت مفعماً بالآمال ، ولكنني لم أنتبه لهذا عندما كنت

أعيش حياتي الشاحبة تلك بين النقش خانة وبيتي . كنت أتمسك بالحياة بأصابعي وأظافري وأسناني . لن أضايقكم بآلام الضربة الأخرى التي نزلت على رأسي .

عندما فهمت بأسى أنني سأموت لفني شعور بتوسع لا يصدق . عشت لحظة الانتقال بشعور التوسع هذا : تحقق انتقالي إلى هذا الطرف بلطافة كما الإنسان يرى أنه نائم في حلمه . في النهاية رأيت حذاء قاتلي السافل الملوث بالطين والثلج . أغمضت عيني كأني أنام ، ووصلت إلى هذا الطرف بعبور لذيذ .

شكايتي الآن ليست من تساقط أسناني مثل الحمص الهش في فمي المدمى ، وليس من سحق وجهي إلى حد عدم معرفته ، وليس من استعصائي في قعر جب ، بل من شعوري بأنني ما زلت حياً . تخيّلُ محبيَّ الذين يفكرون بي كثيراً - أنني ما زلت ألهي نفسي بشغلة جنونية ، أو أنني ذهبت وراء امرأة أخرى - يعذب روحي القلقة إلى أقصى حد . عليهم أن يجدوا جثتي في أسرع وقت ، ويصلّوا عليّ ، ويشيعوني ، ويدفنوني! والأهم من هذا عليهم أن يجدوا قاتلي! عليكم معرفة أنه إذا لم يلق القبض على ذلك السافل ، لن أهدأ في قبري حتى لو دفنوني في قبر رائع ، وسأبقى أبثكم اللا إيمان . جدوا ابن القحبة قاتلي ، وأنا أحكي لكم وبالتفصيل عما رأيته في الحياة الآخرة ، ولكن بعد أن تقبضوا على قاتلي عليكم أن تعذبوه (بالمنغنة) وأن تكسّروا عظامه الثمانية عشرة ، وتفصّل عظام الصدر ، وجعلها تطقطق ببطء ، بعد ذلك تثقبون جلدة رأسه ذات الشعر الطويل المزيّت ، والمقرف ، بالسياخ الخاصة بالجلادين ، واقتلعوا ذلك الشعر شعرة شعرة وهو يصرخ .

قبل كل شيء من هو قاتلي هذا الذي أغضب منه كل هذا الغضب ؟ ولماذا قتلني بهذا الشكل غير المتوقع ؟ توقوا لمعرفة هذه الأمور . أتقولون إن

العالم مليء بالقتلة الذين لا يساوون خمسة قروش ، ولا فرق بين هذا وذاك ؟ عندئذ عليّ أن أنبهكم من الآن : وراء موتي مؤامرة مقرفة على ديننا ، وتقاليدنا ، ورؤيتنا للعالم . افتحوا أعينكم ، واعرفوا لماذا قتلني أعداء الإسلام الذي تؤمنون به ، وتعيشونه ، ولماذا يمكن أن يقتلوكم في يوم ما . أقوال الواعظ الكبير الشيخ نصرت الأرضرومي كلها التي كنت استمع إليها باكياً تتحقق قولاً قولاً . سأقول لكم إننا لو حوّلنا ما جرى إلى حكاية ، وكتبت في كتاب ، فلن يستطيع أمهر النقاشين رسمها . إن قوة هذا الكتاب المزلزلة مثل القرآن الكريم - حاشا لله ، لا تفهموا الأمر خطأ - تأتي من عدم إمكانية رسمه . أنا أشك بفهمكم لهذا .

اسمعوا ، أنا عندما كنت تلميذاً متدرباً كنت أخاف من حقيقة الأعماق ، ومن الصوت القادم من البعيد ، ولا أدقق فيها ، وأسخر من أمور كهذه . وصارت نهايتي في قعر الجب السافل هذا! يمكن أن يقع هذا لكم ، لذلك افتحوا أعينكم جيداً . والآن أملي الوحيد بإيجادي هو أنني إذا تفسختُ جيداً ، وفاحت مني رائحة نتنة يمكن أن يجدوني ، ويجدوا قاتلي السافل ، وليس أمامي سوى تخيل العذاب الذي سيذيقه له فاعل خير .

* * *

٢

اسمي قرة

دخلت إلى اسطنبول المدينة التي ولدت وترعرت فيها بعد غياب اثني عشر عاماً مثل الماشي في نومه . يقال عمن هو على حافة الموت : جذبه التراب ، وأنا جذبني الموت . أول دخولي إلى المدينة اعتقدت أن ثمة موتاً فقط فيها ، بعد ذلك وجدت العشق . ولكن العشق في تلك اللحظة ، أي لحظة دخولي إلى اسطنبول ، أمر بعيد ومنسي مثل ذكرياتي عن المدينة .

بعد أن تركتُ اسطنبول بأربع سنوات فقط ، وفي أثناء تجوالي في سهول دولة العجم المترامية ، وفي جبالها المغطاة بالثلج ، ومدنها المهمومة حاملاً الرسائل ، وجامعاً الضرائب انتبهت إلى أنني بدأت أنسى وجه حبيبتي الصغيرة التي بقيت في اسطنبول . اضطربت ، وبذلت الكثير من أجل تذكر ذلك الوجه ، وفهمت أن الإنسان لا بد أن ينسى الوجه الذي لم يره مهما كان يحبه . في سنتي السادسة التي قضيتها أخدم الباشاوات في الكتابة والسفر في الشرق ، أصبحت أدرك أن الوجه الذي أتخيله ليس وجه حبيبتي التي في اسطنبول . في السنة الثامنة ، كنت أعرف أن الوجه الآخر الذي تخيلته لحبيبتي هو في السنة السادسة ، وبدأت أتذكر وجهاً آخر تماماً . عندما عدت إلى المدينة بعد اثنتي عشرة سنة ، وأنا في السادسة والثلاثين أدركت أنني أتألم لنسياني وجه حبيبتي من زمن .

أكثر أصدقائي وأقربائي ومعارفي في الحي ماتوا خلال هذه السنوات الاثنتي عشرة . ذهبت إلى المقبرة المطلّة على الخليج ، ودعوت من أجل أمي وأعمامي الذين ماتوا في أثناء غيابي . تداخلت رائحة التراب المبتل مع ذكرياتي . أحدهم كسر جرة ماء بجانب قبر أمي . لسبب لا أعرفه صرت أبكي وأنا أنظر إلى حطام الجرّة . لا أعرف إن كنت أبكي على الأموات أم على بقائي في بداية حياتي بعد كل هذه السنوات ، أم لشعوري بعكس هذا ، أي وصولي إلى نهاية سفري في الحياة . كان قد بدأ ثلج خفيف يندف . غطيّت بندف الثلج المتبعثرة هنا وهناك . ضللت طريقي في متاهة الحياة . نظرت ، فرأيت في زاوية مظلمة من زوايا المقبرة كلباً مظلماً ينظر إلي .

هدأت دموعي ، ومسحت أنفي . عندما خرجت من المقبرة رأيت الكلب الأسود يهزّ ذيله لي تحبباً . بعد ذلك استأجرت بيتاً كان يسكنه أحد أقرباء والدي قديماً ، وسكنت في الحارة . شبهتني المرأة صاحبة البيت بابنها الذي قتله جنود الصفويين . اتفقت معها على أن ترتب البيت ، وتعدّ طعامي .

كأنني لم أسكن في اسطنبول ، بل أسكن مؤقتاً في إحدى المدن العربية البعيدة . ولفضولي خرجت إلى الأزقة ، ومشيت طويلاً لأسد حاجة في نفسي . هل ضاقت الأزقة ، أم بدا لي هذا ؟ في بعض الأمكنة ، في بعض الأزقة المحصورة بين صفين متقابلين من البيوت المتطاولة اضطررت للمسير وأنا أنمسح بالجدار والأبواب لكي لا أصطدم بأحمال الخيول . هل ازداد عدد الأغنياء ، أم بدا لي هذا ؟ رأيت عربة مظهرها فخم لا يوجد مثلها في بلاد العرب أو العجم ، وكأن خيولاً مغرورة تجر قلعة . وهنالك عند منطقة (تشمبرلي طاش) رأيت متسولين بأسمال ممزقة يتدافعون وسط الرائحة القذرة المنبعثة من سوق الدجاج . أحدهم أعمى ينظر إلى الثلج النادف مبتسماً .

لو قالوا لي إن اسطنبول قديماً كانت أفقر وأصغر ، يمكن ألا أصدق ، ولكن قلبي يقول هذا . بيت حبيبتي التي تركتها كان وسط أشجار (الأهلامور) و(الكستناء) سألت من الباب فوجدت آخرين يسكنون فيه . ماتت أمُّ حبيبتي ، أي خالتي ، وانتقل زوج خالتي مع ابنته إلى مكان آخر . والرجل الواقف بالباب لا يدرك أنه يكسر قلبكم دون رحمة في موقف كهذا بقوله : وقعت لهم بعض المصائب . لن أحكي لكم الآن عن هذه الأمور ، سأحكي لكم عن قطع الجليد بحجم بنصر يدي ، المتدلية من الأشجار ، وعن الحديقة التي أتذكرها في أيام الصيف خضراء مشمسة ، تذكر الإنسان بالموت من الهمّ والثلج والإهمال .

علمت ببعض المصائب التي وقعت لأقاربي من خلال رسالة أرسلها لي زوج خالتي إلى تبريز . وطلب مني في الرسالة أن أعود إلى اسطنبول لمساعدته في كتاب سري حضّره لسلطاننا . كان زوج خالتي قد سمع أنني أحضَر كتباً في تبريز لوسطاء من أجل تقديمها للسلاطين العثمانيين ، والولاة . ما كنت أعمله في تبريز هو أنني أقبض النقود سلفاً من الوسطاء ، وأبحث عن الخطاطين والنقاشين المتذمرين من الحروب ومن جنود العثمانيين ، ولم يذهبوا بعد إلى قزوين ومدن العجم الأخرى ، وأجعل هؤلاء المعلمين الكبار المعانين من نقص الموارد وعدم الاهتمام يكتبون الصفحات ، ويرسمونها ، ويجلّدونها ، ثم أرسلها إلى اسطنبول . ولولا عشق الكتاب الجميل ، والنقش الذي نقله لي زوج خالتي لما استطعت الدخول في هذا العمل .

في نهاية الزقاق الذي كان يسكنه زوج خالتي ، المفتوح على السوق ، ثمة حلاق ما زال في دكانه وسط المرايا والأمواس والأباريق ، وخيوط الصابون نفسها . تقابلت عيوننا ، ولا أدري إن كان قد عرفني . أمتعتني

رؤية وعاء الماء الساخن لغسيل الرأس ينوس معلقاً برأس سلسلة مربوطة إلى السقف راسماً القوس نفسها .

بعض الأحياء والأزقة التي كنت أسير فيها أيام شبابي احترقت خلال السنوات الاثنتي عشرة ، وصارت رماداً ، وبعض أمكنتها التي يقطع الكلاب الطريق فيها ، ويخيف المجاذيب الأطفال ، فُتحت وأنشئ فيها قصور تدهش أمثالي القادمين من أمكنة بعيدة . منهم من ركّب لنوافذها زجاجاً بندقياً ملوناً غالياً . ومن المشربيات المتدلية من الجدران العالية عرفتُ أن كثيراً من الأبنية الفخمة أنشئت في اسطنبول أثناء غيابي .

وكما في كثير من المدن الأخرى لم تبق قيمة للنقود في اسطنبول . عندما ذهبت إلى الشرق كنت أشتري بقرش أبيض رغيفاً ضخماً وزنه أربعمائة درهم من المخبز ، والآن يعطون نصفه بالنقود نفسها ، وفوق هذا لا طعم له ، ولا يذكّر بالطفولة أبداً . لو رأت المرحومة أمي أننا مضطرون لعد ثلاثة قروش بيضاء مقابل اثنتي عشرة بيضة لقالت : علينا أن نهرب إلى ديار أخرى قبل أن يتدلل الدجاج ويعملها على رؤوسنا ، ولكنني أعرف أن هذه النقود القليلة القيمة سيطرت على كل مكان . يقال إن الصناديق الكثيرة التي كان يجلبها تجار الفلمنك والبندقية في السفن مليئة بهذه النقود المزورة . قديماً كان يُصك من مائة درهم فضة في الضرب خانة ، خمسمائة قرش ، والآن بسبب الحروب التي لا تنتهي مع الصفويين صاروا يصكون منها ثمانمائة قرش ، عندما وجد الإنكشاريون أن القرش الذي يتقاضونه يطوف في مياه الخليج كما تطوف حبات الفاصولياء اليابسة عند رصيف الخضروات ، تمردوا ، وحاصروا قصر سلطاننا كأنه قلعة للعدو .

استمر الواعظ المدعو نصرت – والمقدم عظاته في جامع بيازيد ، والمدعي أنه سيّدٌ من سلالة حضرة محمد – في فترة تفشي التفسخ الخلقي

والغلاء والجرائم والنهب ، بعزو المصائب التي تكوي اسطنبول في السنوات الأخيرة ، والحرائق في أحياء (بهتشة قابي) و(قطانجيلر) ، والوباء الذي يأخذ أرواح عشرات آلاف البشر كلما دخل إلى اسطنبول ، وعدم الوصول إلى نتيجة مع الصفويين على الرغم من تقديم كل تلك الأرواح ، والتمردات المسيحية في الغرب التي استردت قلاع العثمانيين الصغيرة ، إلى الانحراف عن نهج حضرة محمد ، والابتعاد عن فروض القرآن الكريم ، والتسامح مع المسيحيين وإطلاق أيديهم في بيع الخمر ، والسماح بالعزف على الآلات الموسيقية في الزوايا .

بائع المخلل الذي حكى لي بهيجان كبير عن هذا الواعظ الأرضرومي قال إن الدوكات الجديدة ، والفلورينات المزورة ، والقروش المتناقصة فضتها المالئة الأسواق هي تماماً مثل الشراكس ، والأباظ ، والمنغيزيين ، والبوشناق ، والجيورجيين ، والأرمن يجب ذبحهم لأنهم جرّوا البلاد إلى تفسخ أخلاقي يصعب التخلص منه . يدّعي أن عديمي الأخلاق والعصاة يجتمعون في المقاهي ، ويتبادلون الشائعات حتى الصباح . وبعد أن يرقص الذين لا تعرف قرعة أبيهم ، والحشاشون ، والمجذوبون في الزوايا على أنغام الموسيقى حتى الصباح على أن هذا هو طريق الله يتنايكون ، وينيكون الأولاد الصغار .

سمعت عزف عود حلواً ، ولا أدري إن كنت بحثت عنه وتبعته ، أم أن ذكرياتي ، ومتطلباتي أشعرتني بمخرج للتخلص من خربطة العقل الناتجة عن سمّ بائع المخلل . والذي أعرفه أنكم إذا أحببتم مدينة تتجولون فيها كثيراً ، وبعد سنوات طويلة لا تعود روحكم وحدها تعرف المدينة ، بل جسمكم أيضاً ، حتى إن رجليكم تُصعدكم تلقائياً إلى قمة تلة تحبّونها في لحظة كدر تحت ثلج يتناثر بكدر .

وهكذا خرجت من سوق البيطارين ، وبدأت أتابع الثلج المتساقط على

الخليج من جانب جامع السليمانية . كان الثلج قد تراكم على السقوف المنحدرة باتجاه الشمال ، وعلى أطراف القباب التي تتلقى الريح . حيتني أشرعة سفينة تدخل المدينة باهتزازها وهي تُنزل ، وكانت رصاصية بلون الضباب على سطح الخليج . وجدت مناظر أشجار السرو والدلب ، ومشهد الأسقف ، وحزن المساء ، والأصوات الداخلية للأحياء الواطئة ، ونداءات البائعين ، وصراخ الأولاد الذين يلعبون في باحة الجامع محفورة في ذاكرتي ، وأشعرتني دون تردد أنني لن أستطيع العيش خارج المدينة . فجأة شعرت أن وجه حبيبتي الذي نسيته منذ سنوات طويلة سيظهر أمام عيني .

نزلت عن المرتفع . دخلت الزحام . وبعد أذان المغرب دخلت إلى دكان «شواء أكباد» وملأت معدتي . استمعت باهتمام لما حكاه لي صاحب الدكان الذي كان يراقبني بشفقة ، ويتابع وضعي اللقمة في فمي بحنان كأنني أطعم قطة . وبالإلهام والتعريف الذي أخذته منه ، انحرفت إلى أحد الأزقة الضيقة خلف سوق النخاسة ، وهناك وجدت مقهى .

المقهى مزدحم وحار . كان هنالك حكواتي رأيت مثله في تبريز وفي كثير من مدن العجم يسمى «صاحب الستارة» هو ليس (مداحاً)* . يجلس على مرتفع بجانب الموقد ، ويعلق وراءه رسماً واحداً ، وقد وضع هذا رسمَ كلب على ورق سميك ، رسم على عجل ولكن بمهارة ، والحكواتي يشير إلى الكلب في الرسم ويحكي الحكاية بلسان الكلب .

* * *

المداح : شكل من أشكال الحكواتي في الدولة العثمانية . يحكي الحكاية مؤدياً أدوار شخصياتها تمثيلاً مستخدماً بعض قطع الاكسوار المدللة على شخصية . وهو من مظاهر المسرح الشعبي التركي . . (المترجم) .

٣

أنا كلب

أنيابي حادة وطويلة كما ترون ، حتى إن فمي يتسع لها بصعوبة . أعرف أنها تعطيني منظراً مخيفاً ، ولكنني مسرور منها . في إحدى المرات نظر قصاب إلى أنيابي الضخمة ، وقال :

«ياااا . هذا ليس كلباً ، إنه خنزير»

عضضته من رجله حتى أحسست بأن أنيابي المغروزة في لحمه المدهن اصطدمت بعظمه . وهذا ليس أمراً بالنسبة إلى كلب . ليس هنالك أمتع من غرز أنيابه في لحم عدو سيئ بحرص وغضب نابع من داخله . عندما تسنح لي فرصة كهذه ، ويمرّ أمامي واحد كهذا ، تسودُّ عيناي تلذذاً ، وتلمع أنيابي كأنها تتململ ، ودون أن أنتبه أخرج من بلعومي شخيراً يخيفكم .

أنا كلب ، ولأنكم لستم مخلوقات معقولة مثلي تقولون : وهل يتكلم الكلب ؟ ولكنكم تبدون أنكم تصدقون حكاية يتكلم فيها الأموات ، ويستخدم أبطالها كلماتٍ لا تعرفونها . الكلاب تتكلم ، ولكنها تعرف كيف تستمع .

كان يا ما كان ، في قديم الزمان ، كان الغربال في التبّان ، وكان هنالك عاصمة فيها جامع ضخم ، لنفترض أنه جامع البيازيد ، وهنالك واعظ لا يعرف أصول العلاقات أتى من مدينة ريفية . لعله كان مضطراً لإخفاء اسمه ،

ولنفترض أنه الشيخ حصرت . ولكن عليه ألا يكذب في موضوع آخر غير الاسم ، وهذا الرجل واعظ عنيد . في لسانه قوة تعادل ما في عقله ما شاء الله . كان كل جمعة يهيّج المصلين ، ويبكيهم حتى أن هنالك من تجف عيناه ، ويغمى عليه ، وينصرع . ولكن انتبهوا ، ولا تخطئوا ، فهو لا يَبكي مثل بقية الوعاظ الأقوياء اللسان ، بل على العكس ، فهو يُبكي الجميع ولا يرف له جفن ، وحديثه المؤنب للجماعة يعطيه قوة إضافية . يبدو أنهم لحبهم التأنيب فإن غلمان الخاصة والحلوانيين ، وبقية السابلة ، ووعاظاً كثيرين مثله صاروا بين يديه خدماً وعبيداً . إنه ليس كلباً ، إنه من بني البشر راضعي الحليب . داخ بإعجاب الجمهور . كما أن لإبكاء الناس طعماً لا يقل عن طعم التخويف ، انزلق معه العيار كثيراً ، وبدأ يقول :

«السبب الوحيد للغلاء والوباء والهزائم هو نسيان الإسلام كما كان في زمن حضرة نبينا ، وانخداعنا بكتب أخرى ، وأحابيل مختلفة على أنها الإسلام . هل كان في زمن حضرة محمد قراءة مولد ؟ هل كان يُعمل أربعينية للميت توزع فيها الحلاوة والعوامات عن روحه ؟ ؟ هل كان يقرأ القرآن الكريم حسب المقامات الموسيقية مثل الأغاني ؟ هل كان هنالك من يخرج إلى المئذنة قائلاً لنفسه ما أجمل صوتي ، وعربيتي مثل عربية العرب ، متعالياً ، ويرفع الأذان مرجفاً صوته مثل قيْنة ؟ يذهبون إلى المزارات ويندبون ، ويطلبون من الموتى مدداً ، ويذهبون إلى التُرب ويسجدون للحجارة مثل الوثنيين ، ويربطون عليها قطعة قماش ، ويقدمون لها القرابين . هل كان في زمن محمد أصحاب طريقة يقترحون هذا ؟ مُلهِم أصحاب الطريقة هو ابن عربي الذي كفر لأنه أقسم على أن فرعون مات على الإيمان . أصحاب الطريقة ، والمولويون ، والمعتكفون ، والدراويش الذين يقرؤون القرآن على أنغام الموسيقى ، ويرقصون أطفالاً وكباراً على أنهم يدعون إلى الله هم كفرة . يجب هدم

الزوايا ، وحفر أساساتها سبعة أشبار ، ورمي التراب الناتج عن هذا الحفر في البحر ، وفي هذه الحالة فقط يمكن إقامة الصلاة هناك » .

ويقال إن الشيخ حصرت عندما يشتد انفعاله ، ويتطاير اللعاب من فمه يصرخ : يا أيها المؤمنون! شرب القهوة حرام ، ولأن حضرة نبينا يعرف أنها تخدر العقل ، وتثقب المعدة ، وتسبب الفتق والعقم ، ولأنها حيلة شيطانية لم يكن يشرب القهوة . إن المقاهي أمكنة يقصدها أهل الكيف ، والأغنياء أسرى الملذات الذين يجلسون متقابلين مقدمين على أنواع قلة الأدب كلها ، لهذا يجب إغلاق المقاهي قبل الزوايا . ثم هل لدى الفقراء ثمن قهوة يشربونها ؟ إنهم يذهبون إلى المقاهي ويدوخون بها ، ويخرجون عن الأصول ، ويستمعون إلى ما يحكيه الكلاب والجراء ويعتقدون أنه صحيح ، وهكذا يطلق الشيخ حصرت لفظة كلب عليّ ، وعلى الكفرة بديننا .

عن إذنكم أريد الرد على جملة هذا الواعظ الأفندي الأخيرة . بالتأكيد تعرفون عدم حب جماعة الحجاج والمشايخ والوعاظ والأئمة لنا نحن الكلاب . أنا أرى أن أصل هذه القضية هو قيام حضرة محمد بقص طرف ثوبه الذي تنام عليه قطة لكي لا يوقظها . ويُذكر أن هذه الظرافة التي عوملت بها القطة لم نعامل بها نحن . وبسبب حربنا الأزلية مع هذه المخلوقة التي يعرفها حتى أغبى بني الإنسان ، يراد استنتاج أن رسول الله يعادي الكلاب . وما أكلناه من ضرب على مدى قرون بمكانس القيمين على الجوامع ذات العصي الطويلة هو نتيجة التفسير الخاطئ المقدم بنيّة سيئة .

أريد أن أذكركم بواحدة من أجمل سور القرآن الكريم ، وهي سورة الكهف ، وليس لاعتقادي أن في هذا المقهى من لا كتاب له ، ولكن لأجدد ذاكرتكم فقط أقول : تقدم هذه السورة قصة سبعة فتية سئموا العيش بين الوثنيين . لجأ هؤلاء إلى مغارة وناموا . لقد ضرب الله على آذانهم ، وألبثهم

ثلاثمائة وتسع سنين . وفهم أحد هؤلاء الفتية أنهم ناموا كل هذه المدة من العملة الباطلة بين يديه عندما اختلط بالناس ودهشوا منه كثيراً . وفي الآية الثامنة عشرة من هذه السورة التي تحكي عن الإخلاص لله ، ومعجزاته ، ومرحلية الزمان ، ولذة النوم العميق ، أذكركم - بعد طلب عفوكم - أنها تحكي عن وجود كلب في مدخل تلك المغارة التي نام فيها السبعة أصحاب الكهف . طبعاً كل مخلوق يتباهى بذكره في القرآن الكريم ، أنا ككلب أتباهى بهذه السورة ، وأقول : إن شاء الله يعقل الأرضروميون الذين يقولون عن عدوهم : « كلب شارد » .

إذن ما هو أصل وأساس هذا العداء ؟ لماذا الكلب نجس برأيكم ؟ لماذا عندما يدخل كلب إلى بيتكم تغسلونه من سقفه إلى أرضه ؟ لماذا إذا لامسنا أحداً يفسد وضوؤه ؟ لماذا إذا لامسَ وبرنا الرطب قفطان أحدكم لمساً بسيطاً جداً ، وضعتم شرط غسله سبع مرات مثل النساء المعانيات من العصاب ؟ وكذبة رمي القدر إذا لعقه كلب أو تبييضه لا يمكن أن يطلقها إلا مبيّض أو قطّ .

عندما سُكنت المدن ، وتُرك الترحال والهجرة من القرى والسهول ، وبقيت كلاب الرعاة في القرى ، صرنا نحن الكلاب نجسين . كان الكلب اسم أحد الأشهر الاثني عشر قبل الإسلام . أما الآن فقد صار الكلب نجساً . لا أريد إزعاجكم أيها الأصدقاء . أنتم يا من أتيتم هذا المساء للاستماع إلى همومي متلقين حكاية أحياناً ، وموعظة أحياناً أخرى ، أنا أغضب بسبب قذف الأفندي الواعظ على مقاهينا .

إذا قلت إن قرعة أبي حصرت الأرضرومي غير معروفة فماذا سيقال ؟ سيقال : أي كلب أنت ؟ معلمك علق رسماً في المقهى ، وهو (مداح) يحكي حكاية ، ولحمايته تطوّل لسانك على الأفندي الواعظ . حاشا! أنا لا أطوّل

لساني . أنا أحب مقاهينا كثيراً . أتعرفون ؟ أنا لا أحزن لأن رسمي منقوش على ورق رخيص كهذا . ولا لأنني كلب ، أنا مسرور لعدم جلوسي بينكم مثل رجل وشربي القهوة . نحن نموت من أجل قهوتنا ومقاهينا . . . ولكن ما هذا ؟ انظر يا معلمي ، إنه يقدم لي قهوة من الغلاية . وهل يشرب الرسم قهوة ؟ لا تقولوا هذا! انظروا ، انظروا! إنه يشرب القهوة . . .

أوه ، أفادتني كثيراً وأدفأت داخلي ، وجعلت نظري أكثر حدة ، وفتحت عقلي . اسمعوا ما خطر ببالي! أتعرفون ماذا أرسل دوق البندقية كهدية إلى السلطانة نور حياة ابنة حضرة سلطاننا غير لفات أقمشة الحرير الصيني ، والمواعين الخزفية الصينية المنقوش عليها أزهار زرقاء ؟ لقد أرسل كلبة أفرنجية مدللة ، وبرها أنعم من الحرير ، ومن وبر السمور . كانت تلك الكلبة مدللة إلى حدَ أن لها ألبسة من الحرير الأحمر . أنا أعرف هذا من صديق لنا ناكها . إن تلك الكلبة لا تقدم على المعاشرة دون ألبسة . يقال إن كلاب بلاد الأفرنج كلها هكذا ترتدي ألبسة . ويحكون عن امرأة أكابر أفرنجية زوجة أفرنجي ، ولا أدري إن كانت رأت كلباً عارياً ، أم أنها رأت آلته ، فقالت : «واخ الحيوان عار . . .» وسقطت مغمياً عليها .

يقال إن لكل كلب صاحباً في بلاد الأفرنج الكافرة . في رقاب الكلاب المسكينة هناك سلاسل ، ومثل العبيد الأكثر بؤساً تسحب فرادى لتُنزّه في الشوارع . بعد ذلك يُدخِلُ أولئك الرجال كلابهم إلى بيوتهم بالقوة ، وحتى يقال إنهم ينيمونها في فرشهم . لا يستطيع كلب أن يشمشم كلبة ويعاشرها . حتى إن الكلاب لا تستطيع التجول زوجاً زوجاً . إذا صادفت بعضها البعض في الشارع مكبلة بالسلاسل ، بحالتها البائسة تلك ، تتبادل العيون نظرات حزينة من بعيد ، وليس ثمة أكثر من هذا . أما تجوالنا في اسطنبول جماعات وقطعاناً بحريّة ، وقطعُنا الطريق عند الضرورة دون اعتراف

بسيدٍ أو صاحب ، ونومنا متكورين في زاوية دافئة ، أو في ظل ، وتبرّزنا حيث نريد ، وعضّنا لمن نريد فأمور لا يستطيع الكفار استيعابها . هنالك معجبون بالأرضرومي يقفون في الشوارع داعين من أجل الناس للحصول على صدقة ، وهؤلاء يعارضون رمي قطعة لحم للكلاب وتأسيس جمعيات لهذا الغرض . فكرت فيهم . إذا كانت نية هؤلاء غير العداء للكلاب هي عدم جعلها من ملة الكفار ، فلأذكركم أن أعداء الكلاب هم الكفار أنفسهم وليس سواهم . أملي غير البعيد لهؤلاء السفلة ، أن يناديني الأصدقاء الجلادون لرمي قطعة منهم لي ليكونوا عبرة لمن يعتبر على ما عملوا .

لأحكي لكم هذا أخيراً : سيدي الذي قبل هذا رجلٌ عادلٌ جداً . عندما كنا نخرج إلى السلب ليلاً ، نتقاسم المهمات . عندما أبدأ بالنباح ، يقطع هو رقبة الضحية ، وهكذا لا يسمع صراخ الرجل . ومقابل هذا يذبح المذنبين الذين عاقبهم ، ويسلقهم ، ويقدمهم لي لآكلهم . أنا لا أحب اللحم النيئ . إن شاء الله يفكر جلاد الأرضرومي بهذا لكي لا أضطر لأكل لحم ذلك القذر نيئاً ، وأخرب معدتي .

* * *

4

سيقولون عني قاتل

لو قالوا لي قبل أن أقتل ذلك الغبي بقليل إنني سأسلب واحداً روحه لما صدّقت . لهذا السبب فإن العملة التي عملتها تبد لي مثل باخرة شحن أجنبية تضيع في الأفق مبتعدة عني بالتدريج . أحياناً أشعر وكأنني لم أرتكب أية جريمة . مضت أربعة أيام على قتلي أخي ظريف المسكين دون إرادتي ، واعتدت على هذا الوضع منذ الآن .

كنت أريد حل المسألة التي اعترضتني دن قتل ، ولكنني فهمت بسرعة أيضاً أنه ليس ثمة طريق آخر . أنهيت الأمر بسرعة هناك . تحملت المسؤولية كلها . لم أسمعْ بتعرض جماعة النقاشين إلى المخاطر بسبب افتراء قليل عقل .

ولكن الاعتياد على مسألة ارتكاب الجريمة صعب . لا أستطيع الجلوس في البيت ، والخروج إلى الزقاق ، ولا الوقوف في الزقاق ، فأمشي في الزقاق الاخر . ثم أمشي في الزقاق الذي بعده ، عندما أنظر إلى وجوه الناس أرى أن كثيراً منهم يعتقدون أنهم أبرياء لأن فرصة ارتكاب جريمة لم تسنح لهم . من الصعب التصديق أن غالبية الناس خير مني خلقاً ، أو أفضل مني بسبب القَدَر والنحس . مهما كانوا فهم يبدون أغبياء الوجوه أكثر قليلاً لعدم ارتكابهم جريمة . الأغبياء كلهم يبدون أصحاب نية حسنة . وكي أفهم أن كل شخص

يتلألأ في عينيه بريق الذكاء وفي وجهه ظل يعكس روحه هو قاتل خفي ، كفاني التجول في أزقة اسطنبول أربعة أيام بعد أن قتلت ذلك المسكين . الأغبياء فقط أبرياء .

في هذا المساء مثلاً ، بينما كنت أدفئ جوفي بفنجان قهوة في المقهى الذي خلف سوق النخاسة ، أنظر إلى رسم الكلب في صدر المكان ، وأسمع ما يحكيه ، وأضحك مع الجميع ، سيطر عليَّ شعور أن الرجل الجالس بجانبي هو قاتل مثلي . وهو مثلي يمكنه أن يضحك للمداح ، ولكن لا أدري إن كان بسبب محاذاة ذراعي لذراعه مثل شقيقتين ، أو بسبب قلق أصابعه المرتجفة الماسكة فنجان القهوة ، حكمت أن هذا الرجل من سلالتي ، وفجأة التفتَّ ونظرت إليه مباشرة . ذعر فوراً ، وامتقع وجهه . عندما خرج الناس من المقهى تأبطه أحد معارفه من ذراعه ، هو يقول :

«أصبح من الممكن أن يداهم أتباع الشيخ نصرت هذا المكان»

أسكته الآخر بحركات العين والحاجب . انتقلت مخاوفهما إليَّ . لا أحد يثق بأحد . كل شخص يتوقع سفالة من الآخر في كل لحظة .

اشتدت برودة الجو ، وبنى الثلج عالياً في زوايا الأزقة ، وعند أسفل الجدران . بصعوبة يستطيع جسدي إيجاد طريقه في الأزقة الضيقة وسط الظلام . أحياناً أكتشف طريقي من خلال ضوء قنديل ما زال يضيء في أحد البيوت متسللاً من نافذة لينعكس على ندف الثلج بجانب الأبواب المنسدلة ، والنوافذ المغلقة بخشب أسود فاحم ، وفي أكثر الأحيان لا أرى ضوءاً ، ولا شيئاً فأكتشف طريقي على صوت عصي الحراس الليليين عندما تصطدم بالحجارة ، ونباح قطعان الكلاب المسعورة ، والأنين المنبعث من البيوت . وأحياناً ، في منتصف الليل ، كأن أزقة المدينة الضيقة والمخيفة تنار بضوء رائع ينبعث من قلب ندف الثلج ، وأحياناً أعتقد أنني أرى بين الخرابات والأشجار

أشباحاً جعلت اسطنبول منبوذة على مدى مئات السنين . وأحياناً ينبعث من البيوت أنين التعساء ، أو سعالهم غير المنقطع ، أو صوت شد أنوفهم ، أو بكائهم وصراخهم في أحلامهم ، أو محاولة إمساك الأزواج بخناق بعضهم بعضاً بجانب أولادهم الباكين .

أتيت إلى المقهى مرة أو مرتين للاستماع إلى المدّاح وتذكر حياتي السعيدة وأسعد . أغلب أخوتي النقاشين الذين قضيت معهم عمري يأتون كل مساء . وبعد أن قتلت نقّاشاً غبياً عملت معه في النقش منذ طفولتي ، لم أعد أريد رؤية أحد . ثمة أشياء كثيرة تخجلني في حياة أخوتي الذين لا يستطيعون غير القيل والقال عندما يلتقون ، وفي جو التسلية السافلة هنا . ولكي لا يغمز المداح عليَ لكبر أنفي ، عملت له رسماً أو اثنين ، ولكنني لا أعتقد أن هذا سيوقف الغيرة .

ولكنهم على حق بغيرتهم . لأنني الأمهر في مزج الألوان ، واستخدام المسطرة وترتيب الصفحة ، واختيار الموضوع ، ورسم الوجه ، وتوزيع مشاهد الحرب والصيد المزدحمة ، ورسم الحيوانات والسلاطين والسفن والخيول والمحاربين والعاشقين ، وحتى التذهيب . ولا أقول هذا لأتفاخر أمامكم ، بل أقوله لكي تفهموني . تصبح الغيرة في حياة النقاش مع الزمن أداة لا يستغنى عنها مثل الألوان في حياته .

ووسط مسيري الطويل المتزايد طولاً مع زيادة قلقي التقت عيناي بعيني أحد أخوتي في الدين البادين في أشد حالات الصفاء والبراءة ، وفجأة تبلورت في ذهني فكرة غريبة : إذا فكرت بأنني قاتل سيفهم هذا الذي يقابلني .

وهكذا كنت أُدفع بالقوة للتفكير بأمور أخرى . تماماً كما كنت أتلوى محملاً وأنا أجبر نفسي على التفكير بأمور أخرى عندما كنت أفكر بالنساء

في أثناء الصلاة أيام شبابي الأولى . ولكنني هنا أستطيع نسيان الجريمة التي ارتكبتها على عكس فشلي بطرد التفكير بممارسة الجنس من عقلي .

إنكم تدركون أنني أشرح كل هذه الأمور لأن لها علاقة بوضعي . إذا مرَّرت فكرة ما من عقلي ستفهمون كل شيء . وهذا يخرجني من كوني مجرد قاتل دون اسم أو هوية يتجول بينكم مثل شبح ، ويوقعني في وضع يجعلني قاتلاً عادياً واضح الملامح ، فضح نفسه وسيوضع في القفص . اسمحوا لي بألا أفكر بكل شيء ، وبأن أخبئ بعض الأمور . وكما يفعل أمثالكم من الأشخاص اللطفاء بمتابعة آثار الأقدام من أجل القبض على اللص ، عليهم أن يعملوا على كشفي من خلال كلماتي وألواني . وهذا يجرّنا إلى موضوع الأسلوب الأكثر رواجاً . هل للنقاش أسلوبه الشخصي ولونه الخاص ، وصوته ؟ وهل يجب أن يكون له هذا ؟

لنتناول رسماً لمعلم المعلمين النقاش بيري بهزاد . لأنه رسم جريمة فهو مناسب ورائع لوضعي ، وقد صادفت هذا الرسم في كتاب كامل مكمل يقع في تسعين صفحة بأسلوب (هرات) ، ويروي قصة خسرو وشيرين ، وخرج هذا الكتاب من مكتبة أمير عجم كان قد قُتل في صراع لا هوادة فيه على العرش . تعرفون نهاية خسرو وشيرين ، ليست تلك النهاية التي قدمها الفردوسي ، بل النهاية التي قدمها نظامي :

بعد عواصف ومغامرات كثيرة ، تزوج العاشقان ، ولكن ابن خسرو من زوجته السابقة الشاب شيرويه مثل الشيطان لم يدعهما يرتاحان . عين هذا الأمير على عرش والده وامرأة أبيه . ويتمكن شيرويه ، الذي يصفه نظامي بقوله : «فمه مثل أفواه السباع يفوح قذارة» من إيجاد طريقة يأسر فيها والده ، ويجلس على عرشه . في إحدى الليالي ، يدخل إلى الغرفة التي ينام فيها أبوه مع شيرين ، يجدهما في الظلام متحسساً طريقه بيديه ، ويطعن

أباه بخنجره في كبده . وينزف دم أبيه حتى الصباح ، ويموت على السرير الذي يتقاسمه مع شيرين الجميلة النائمة براحة إلى جانبه .

يحفر رسم المعلم الكبير بهزاد في نفسي خوفاً حقيقياً لا يقل عن خوف الحكاية نفسها منذ سنوات طويلة : أستيقظ في منتصف الليل مندهشاً لوجود شخص آخر يرسل أصواتاً خفيفة في الغرفة المظلمة التي لا ترى العين فيها أمامها! فكروا بأن هذا الرجل يحمل خنجراً بيد ، وفي الأخرى يمسك رقابكم ، تزيينات الجدران ، والنافذة ، والإطارات المشغولة بنعومة ، والصراخ المكبوت الخارج من بلعومكم المعصور بلون السجادة الحمراء ، والتدويرات والمنحنيات والأزهار الصفراء والبنفسجية المشغولة بفرح ونعومة لا تصدق على اللحاف الرائع الذي يدوسه القاتل بقدمه الحافية المقرفة ، كلها تخدم الهدف نفسه : تعكس جمال الرسم الذي تنظرون إليه من جهة ، وتذكركم بجمال الغرفة التي تموتون فيها وجمال الحياة التي تتركونها من جهة أخرى . المعنى الأصلي الذي يصلكم عند النظر إلى الرسم هو لا مبالاة جمال الرسم والحياة بموتكم ، وكونكم وحيدين عندما تموتون حتى لو كانت أزواجكم بجانبكم .

قال لي المعلم العجوز الناظر إلى الكتاب معي وهو يحمله بيديه المرتجفتين قبل عشرين سنة : « إنها لبهزاد » أشرق وجهه ليس بفعل الشمعة المنارة بجانبنا ، بل بفعل لذة الرؤية : « إنها لبهزاد بحيث لا ضرورة لتوقيعه » .

ولأن بهزاد يعرف هذا لم يوقع حتى في زاوية سرية من زوايا الرسم . وحسب المعلم العجوز فإن موقف بهزاد هذا ناتج عن الخجل والضيق . المهارة والمعلمية هي رسوم رائعة لا تطال من جهة ، وعدم ترك أي أثر يشي بهوية الصانع في هذه الرائعة .

قتلت ضحيتي بأسلوب فظ عند شعوره بحلاوة الروح . كلما أتيت إلى مكان الحريق هذا ليلاً للبحث عما إذا كانت هنالك أية آثار شخصية تشي

بي ، تبدأ أسئلة الأسلوب تتطاير في رأسي . إن الأمر الذي يسمونه أسلوباً هو خطأ يؤدي إلى تركنا أثراً ما فقط .

سأجد هذا المكان حتى دون إضاءة الثلج المتساقط . إنه مكان الحريق الذي قتلت فيه صديقي على مدى خمسة عشرين عاماً . غطى الثلج الآثار التي من الممكن أن تكون توقيعي كلها . وهذا يثبت أن رؤيتي ورؤية بهزاد لهذا الموضوع هي رؤية الله نفسها . ما كان الله ليرينا نحن النقاشين هذه المحبة لو نقشنا ذاك الذي سماه المغفل معصية لا تغتفر في الكتاب ولو عن غير قصد قبل أربع ليال .

في تلك الليلة عندما دخلنا إلى مكان الحريق هذا ، ظريف أفندي وأنا ، لم يكن يتساقط الثلج . كنا نسمع أصداء نباح الكلاب قادمة من بعيد .

سأل المسكين : «لماذا جئنا إلى هنا ؟ ماذا ستريني هنا ، وفي هذا الوقت ؟ »

قلت : «هنالك جبّ ، وهنالك نقود دفنتها على مبعدة اثنتي عشرة خطوة منه . إذا لم تبح بما قلته لك لأحد سنسعدك أنا والأفندي زوج خالتك .

قال بفضول : «يعني أنت تقبل بأنك لم تكن تعرف ما تعمله في البداية» .

قلت له كاذباً ولا حيلة لي : «أقبل» .

قال ببراءة : «إن الرسم الذي تعملونه حرام عظيم ، أتعرفون هذا ؟ إنه كفر لا يجرؤ عليه أحد ، إنه زندقة ، ستحرقون في قعر جهنم . لن يهدأ عذابكم ، ولن تخف آلامكم . وقد أشركتموني في هذا» .

عندما كنت أسمع كلماته هذه كنت أفهم مدهوشاً أن هنالك كثيراً من الأشخاص سيصدقون . لماذا ؟ لأن لهذه الكلمات قوة وجاذبية تجعل الإنسان يهتم بها شاء أم أبى ، ويريد أن تظهر الحقيقة بحق سافلين آخرين . وفي

الحقيقة كان هنالك كثير من الشائعات حول السيد زوج الخالة وسرية الكتاب الذي يعمله ، والنقود التي دفعها . غير هذا كان الأستاذ عثمان كبير النقاشين يكرهه كثيراً . حتى إني فكرت بأن الافتراءات التي أطلقها أخونا المذهّب جعلها تلبسه وهو مدرك لهذا . كم كان صادقاً ؟ .

جعلته يكرر الادعاءات التي أوقعتنا ضد بعضنا البعض . لم يدوّر الكلام ويلُكْهُ . كأنه دعاني للتستر على عملة سيئة لحماية الأستاذ عثمان الذي اعتمد علينا عندما كنا متدربين . كنت أؤمن بصدقه . كان يحملق في فترة تدريبه ولكن عينيه لم تكونا قد صغرتا من التذهيب بعد . لكنني لم أرد أن أحبه أبداً ، لأنه مستعد للبوح بكل شيء للآخرين .

وبنضج مصطنع قلت له : «اسمع! نحن نذهّب ، نبتكر إطاراً تزيينياً ، نسطّر ، نزين الصفحات بذهب ملوّن ، ونعمل أجمل الرسوم ، ونجعل الخزائن والصناديق مفرحة . إننا نعمل منذ سنين طويلة . هذه شغلتنا . يكلفوننا برسم . يقولون لنا : ارسم داخل هذا الإطار سفينة أو غزالاً ، أو أجلسْ هنا سلطاناً ، وارسم طيوراً كهذه ، وليكن هنالك رجال أمثال هذا ، أو الموقف الفلاني من هذه الحكاية ، وليقف فلان بهذا الشكل . اسمع! هذه المرة قال زوج الخالة : ارسم هنا الحصان الذي يمليه عليك داخلك . ولكي أفهم الحصان الذي يمليه داخلي رسمت مئات الخيول ككبار الأساتذة على مدى ثلاثة أيام . أخرجت مجموعة الخيول التي رسمتها على الورق السمرقندي الخشن مدرباً يدي . اهتمّ بالأمر ، وأخذ الورق من يدي ، وقرّب عينيه من الورق في ضوء القمر الخافت ، وبدأ ينظر إلى الخيول البيضاء والسوداء . قلت له : إنها عن الأساتذة الشيرازيين والهراتيين القدماء . . قال لي : يحتاج النقّاش إلى خمسين سنة تدريب متواصل من أجل رسم حصان مثل الذي خلقه الله ، وأضاف : طبعاً إن أفضل رسم لحصان هو ذاك الذي يرسم في الظلام . لأن

النقاش الحقيقي يعمى خلال خمسين سنة لكثرة عمله ، وتحفظ يده الحصان الذي رسمه » .

غاصت نظرته البريئة التي رأيتها عندما كان طفلاً في الخيول التي رسمتها ، وغابت .

« يطلبون منا ، ونحن نعمل على رسم الحصان الأكثر سرية ، والأعلى مستوى كما رسمه الأساتذة الكبار ، وهذا كل شيء ، ومن الظلم اعتبارنا مسؤولين عما يكلفوننا به »

قال : « أعرف ، هل هذا صحيح ؟ لنا نحن مسؤولياتنا وإرادتنا . أنا لا أخاف إلا من الله . وهو أعطانا عقلاً نميز به الجيد من السيئ »

كان الجواب بمكانه .

قلت له بالعربية : « إن الله عليم بصير » ثم أضفت : « يدرك الله أنك ، وأنني ، وأننا جميعاً نعمل هذا دون علم . لمن ستبلغ عن الأفندي زوج الخالة ؟ ألا تصدق أن وراء هذا العمل إرادة حضرة سلطاننا ؟ »

سكت .

فكرت : هل كان صغير العقل إلى هذا الحد ؟ أم أنه فقد برودة أعصابه لخوفه القلبي من الله ، وهذا ما جعله يطلق هراء ؟ »

وقفنا بجانب الجب . شعرت للحظة أنني أرى عينيه في الظلام ، وفهمت أنه خائف . أشفقت عليه . لقد انفلت السهم من القوس . دعوت إلى الله لكي يثبت لي أن هذا الذي أمامي مجرد سافل ، وليس خوافاً غبياً فقط .

قلت له : « ستعد من هنا اثنتي عشرة خطوة وتحفر »

« بعد ذلك ماذا ستفعلون أنتم ؟ »

« سأقول للأفندي زوج الخالة أن يحرق الرسوم ، ماذا يمكننا أن نعمل غير هذا ؟ لو سمعت جماعة الشيخ نصرت الأرضرومي بهذا الكلام فلن

تتركنا أحياء ، ولن تبقى هنالك نقش خانة . هل تعرف أحداً من تلك الجماعة ؟ اقبل الآن أنت هذه النقود لنفهم أنك لن تبلغ عنا . »

« بماذا توضع النقود ؟ »

« في وعاء مخلل قديم . هنالك خمس وسبعون قطعة ذهب بندقي »

أن تخطر ببالي دوقية البندقية فهذا معقول ، ولكن ما الذي ذكرني بوعاء المخلل ؟ كان كلاماً فارغاً إلى حد أنه مقنع . وهكذا فهمت مرة أخرى أن الله معي ، لأن صديقي من فترة التدريب المتحول كل سنة إلى محب للنقود حباً أكثر بدأ يعد الاثنتي عشرة خطوة باهتمام .

شغل عقلي في تلك اللحظة شيئان : لا يوجد تحت التراب ذهبٌ بندقي ولا (مهب)! وإذا لم أعط هذا السافل نقوداً سيمحوننا . شعرت بحاجة أن أحتضن ذلك السافل الغبي ، وأقبله كما كنت أفعل أيام كنا متدربين ، ولكن السنين أبعدتنا عن بعضنا بعضاً إلى حد كبير . . . وتوقفت عند حفر التراب . أبأظافرنا ؟ كان عليَ أن أفكر بهذا إذا سميَ تفكيراً ، لأنه مر كلمح البصر .

أمسكت الصخرة الموضوعة بجانب البئر بانهماك . وبينما كان يعد خطوته السابعة أو الثامنة ، لحقت به ، ونزلت بالحجر على رأسه من الخلف بكل قوتي . هوى الحجر على رأسه بقوة وسرعة أخافتني ، وحتى أنني أشفقت عليه .

ولكنني أريد إنهاء الأمر الذي بدأته ، وهذا أفضل من الشكاية مما قمت به لأنه بدأ يتخبط على الأرض ، هذا ما يجعل الإنسان يضطرب أكثر شاء أم أبى .

بعد أن رميته في الجب بزمن طويل استطعت التفكير بأن ما قمت به كانت فظ لا يليق أبداً بحساسية نقاش .

٥

أنا زوج خالتكم

أنا الأفندي زوج خالة قرة ، ولكن الآخرين أيضاً ينادونني يا زوج الخالة . قديماً كانت أم قرة تريد منه أن يناديني هكذا . فيما بعد ليس قرة فقط صار يناديني بهذا الاسم ، بل الجميع . بدأ قرة يتردد علينا قبل ثلاثين سنة عندما سكنّا في الزقاق المظلم والرطب الذي تظلله أشجار (الإهلامور) و(الكستناء) خلف ساحة (الأقسراي) . وذلك كان بيتنا قبل هذا . كنت أخرج إلى الحرب مع محمود باشا في الصيف ، عندما أعود إلى اسطنبول في الخريف أجد قرة لاجئاً مع أمه إلى بيتنا . المرحومة أمه أخت المرحومة زوجتي الكبرى . وأحياناً عندما أعود إلى البيت في أمسيات الشتاءأجدهما تلفّان بعضهما بعضاً ، وعيونهما دامعة تفضفضان عن همومهما . كان أبوه مدرساً لم يستطع الثبات في أية مدرسة من المدارس الصغيرة والبعيدة ، مزاجياً ، وغضوباً ، وشروباً . في تلك الأيام كان في السادسة من عمره ، يبكي إذا بكت أمه ، ويسكت إذا سكتت ، وينظر إليّ ، أي إلى زوج خالته ، بخوف .

والآن أنا مسرور لأنه أمامي ، ابن أخت واثق من نفسه ، وكامل ، ومحترم . الاحترام الذي يبديه لي ، وانتباهه عند تقبيل يدي ، وقوله : « للحبر الأحمر فقط » عندما قدم لي الحقة المغولية هدية ، وجلستُه المؤدبة التي يجمع فيها ركبتيه لا تقول إنه يريد الظهور بمظهر رجل بالغ عاقل ، بل

تذكّر مرة أخرى أنني رجل عجوز كما أريد أن أظهر .

يشبه أباه الذي رأيته مرة أو اثنتين : طويل ونحيل وله حركات يدين عصبية قليلاً ، ولكنها تليق به . وتأتي بمكانها حركات وضعه يديه على ركبتيه ، ونظراته التي تقول : «مفهوم ، أنا مصغ إليكم» ونظرته إلى عيني ، وهزّ رأسه على نغمة مقام سري حسب وزن كلماتي . وصلتُ إلى هذا العمر وأنا أعتقد أن الاحترام الحقيقي ليس ذاك النابع من القلب ، بل النابع من القواعد البسيطة ومن طأطأة الرأس .

اكتشافي حبه للكتب عندما كانت أمه تجلبه إلى بيتنا في كل فرصة لأنها رأت مستقبله هنا قربنا من بعضنا بعضاً ، وعمل صانعاً لدي بشكل رضي عنه أفراد الأسرة . شرحت له كيف أن رسامي شيراز رفعوا خط الأفق إلى أعلى اللوحة موجدين أسلوباً جديداً . كما شرحت له كيف رسم الجميع مجنون ليلى منهكاً في الصحارى ، بينما رسمه المعلم الكبير بهزاد يطبخ ، وينفخ على الحطب محاولاً إشعاله ، يمشي وسط جمع النساء مع استطاعة إظهاره وحيداً . كما شرحت له أن أكثر النقاشين الذين رسموا خسرو في لحظة نظره إلى شيرين وهي تغتسل في البحيرة لم يقرؤوا شعر نظامي ، وكم هو مضحك رسم خيول العاشقين وألبستهم بألوان كثيرة لا تخطر ببال ، وأن النقاش الذي لا يقرأ النص الذي يرسمه بدقة وتَفتّح عقل فإن سبب إمساكه القلم والفرشاة لا يمكن أن يكون سوى النقود .

بفرح شديد أرى قرة حصل على معلومات أساسية أخرى : إذا أردت ألا تخيب الظنون في النقش والفن ، احذر أن ترى هذا العمل مهنة . ابحث عن النقود في مكان آخر مهما كان لديك موهبة ومهارة ، لكي لا تقاطع الفن عندما لا تحصل على مقابل جهدك ومهارتك .

حكى لي عن فقر وحرمان ولا مبالاة أساتذة النقش والخط في تبريز

الذين يعرفهم من خلال تكليفهم بإنجاز كتب لباشاوات اسطنبول والريف . ليس في تبريز وحدها ، بل في مشهد وحلب أيضاً أكثر النقاشين تركوا نقش الكتب نتيجة الفقر وعدم الاهتمام ، وبدؤوا بإنجاز رسوم على ورقة واحدة متناولين عراة ، وأعاجيبَ تفرح الرحالة الأفرنج . وسمع أن الكتاب الذي قدمه الشاه عباس لسلطاننا بمناسبة توقيع معاهدة الصلح ، قد نزعت صفحاته منه الآن لتستعمل في كتب أخرى . وقد بدأ سلطان الهند (أكبر) بنثر النقود من أجل كتاب جديد ضخم ، وهذا ما جعل ألمع نجوم النقش في تبريز وقزوين يتركون ما بين أيديهم من عمل ويهرعون إلى قصره .

وككل شاب يدخل بيتنا ، أو يسمع بنا ، أو يعرف بوجود ابنتنا الوحيدة شكورة ولو من بعيد عشقها قرة . لعل عشق الجميع لابنتي جميلة الجميلات لم يكن أمراً خطيراً يحتاج التوقف عنده . ولكن قرة الذي تتاح له فرصة الدخول إلى البيت ورؤية شكورة كان هائماً بها . لم ينجح بدفن هيامه بداخله كما كنت آمل ، ارتكب خطيئة التعبير عن حريق قلبه مباشرة لابنتي .

إثر هذا اضطر لقطع رجله عن بيتنا .

بعد ثلاث سنوات من تركه اسطنبول ، وفي أحلى عمر ابنتي زوجتها لفارس ، وبعد أن جعل هذا المحارب ابنتي تلد صبيين ذهب إلى الحرب ولم يعد ، ومنذ أربع سنوات لم نأخذ عنه خبراً ، وكنت أعتقد أن قرة يعرف هذا . وليس لأن مثل هذه الحوادث والقيل والقال تدور في اسطنبول بسرعة ، ولكن نظرته إلى بؤبؤ عيني في لحظات الصمت أشعرتني بأنه علم بكل شيء ومنذ زمن . حتى إنه في هذه اللحظة وهو يلقي نظرة إلى « كتاب الروح » المفتوح على (الرحلة) أدركتُ أنه يعرف هذا من خلال إصغائه لأصوات الأولاد المنبعثة من داخل البيت ، لأن ابنتي عادت مع ابنيها إلى بيت أبيها

منذ سنتين .

لم نذكر هذا قبل أن أنشئ هذا البيت في غياب قرة . واحتمال كبير أن قرة كأي شاب وضع في عقله أن يصبح صاحب ثروة وجاه يرى أن فتح هذه المواضيع الآن أمر معيب جداً . ولكن فور دخولي إلى البيت وفي أثناء صعودي الدرج كنت أقول إن انتقالنا إلى الطابق الثاني أفضل لعظامي لأنه أكثر جفافاً . عندما أذكر الطابق الثاني أشعر بالخجل ، ولكنني أريدكم أن تعرفوا هذا : إن الأقل ثراء مني بكثير جداً ، وأصحاب الأعطيات الصغيرة من الفرسان سيستطيعون بعد مدة قصيرة بناء بيت من طابقين .

كنا في الغرفة التي نستخدمها في الشتاء للنقش . شعرت أن قرة أحس بوجود شكورة في الغرفة المجاورة . دخلتُ فوراً إلى الموضوع الأساسي الذي كتبت له من أجله إلى تبريز .

قلت له : أنا أحضّر كتاباً كما كنت تكلف الخطاطين والنقاشين في تبريز بتحضير الكتب . طالب هذا الكتاب هو أساس العالم حضرة سلطاننا . ولأن الكتاب سرّي سحب سلطاننا من كبير المحاسبين مبلغاً سرياً لأجلي . اتفقت مع أمهر نقاشي النقش خانة السلطانية : أكلف واحداً منهم برسم كلب ، وآخر شجرة ، وآخر إطار مع غيمات في الأفق ، وآخر خيول . الأمور التي كلفتهم برسمها هي كتلك التي رسمها أساتذة البندقية . أردت أن يمثل سلطاننا العالم كله . ولكنني لن أتناول المال والملك كما يعمل البندقيون ، سأتناول غنى النفس ، ومفرحات ومخيفات عالم سلطاننا . وإذا جعلتهم يرسمون النقود فمن أجل الاستصغار بها ، ووضعت الشيطان والموت لأننا نخافهما . أعرف ما تقوله الشائعات . الأشجار تعني الخلود ، والخيول تعني التعب ، والكلاب تعني الشرف ، وهذه أريدها أن تمثل حضرة سلطاننا وعالمه . وأردت أن يختار النقاشون المدعوون بأسماء : لقلق ، زيتون ،

ظريف ، فراشة المستعارة ، مواضيع على هواهم . وفي أكثر ليالي الشتاء ظلمة وشوقاً كان يأتيني أحد نقاشي السلطان هؤلاء سراً ليفرجني على ما رسمه من أجل الكتاب » .

« لا أستطيع أن أقول لك منذ الآن أية رسوم نرسم ، ولماذا نرسم هكذا . لا لأنني أخفيه عنك ، أو لا أستطيع البوح لك به ، بل لأنني أنا نفسي لا أعرف ما تعبّر عنه الرسوم بدقة ، ولكنني أعرف كيف يجب أن تكون » .

سمعت من الحلاق الذي في حارتنا السابقة أن قرة عاد إلى اسطنبول بعد أربعة أشهر من رسالتي ، وأنا دعوته إلى البيت . أعرف أن في حكايتي ما يربطنا من وعد بالهم والسعادة .

قلت : « كل رسم يحكي حكاية . ولتجميل الكتاب الذي نقرؤه يرسم النقاش أجمل مواقف الحكاية : التقاء العاشقين لأول مرة ، قطع البطل رستم الرأس الوحشي للشيطان ، قدر رستم الذي أدرك أن الغريب الذي قتله هو ابنه ، مجنون ليلى الذي فقد عقله لعشقه وسط الطبيعة الوحشية بين الأسود والفهود والوعول وبنات آوى ، وحزن الاسكندر عندما ذهب إلى الغابة لمعرفة المستقبل من الطيور ، فوجد أن صقراً ضخماً مزّق حجلته الخاصة . . . هذه الحكايات التي تتعب عيوننا لكثرة قراءتها تُسمع ونحن ننظر إلى الرسوم . وإذا وجد في هذه الحكايات ما يصعب على عقلنا وقوة خيالنا تصوره ، تنجدنا الرسوم . الرسم هو تزهير الحكاية بالألوان . لا أحد يستطيع التفكير برسم دون حكاية » .

ثم صححت : « كنت أعتقد أن لا أحد يستطيع . . . » وكأنها قيلت بندم ، ثم أضفت : « ولكن هذا يمكن أن يعمل . قبل سنتين ذهبت مرة أخرى سفيراً لسلطاننا إلى البندقية . كنت دائماً أنظر إلى رسوم الشخصيات التي يقدمها الأساتذة الإيطاليون . لا أعرف إن كانت الرسوم تمثل موقفاً معيناً من

حكاية معينة ، ولكنني كنت أحاول استنتاج حكاية من خلال النظر إلى الرسم . وفي أحد الأيام شاهدت رسماً جدارياً في قصر ، فتجمّدت .

الرسم قبل كل شيء هو رسم شخص مثلي . إنه بالتأكيد رسم كافر ، وليس واحداً منا . ولكن كلما نظرت إليه أشعر أنه يشبهني . فوق هذا إنه لا يشبهني أبداً . وجهه مدوَّر عظامه غير بارزة . ليس له عظمتا وجنتين أبداً ، ثم إنه لا أثر نهائياً لذقني الضخمة في الرسم . إنه لا يشبهني أبداً ، ولكن لا أدري لماذا عندما أنظر إليه يخفق قلبي وكأن الرسم لي .

علمت من السيد البندقي الذي يجول بي في القصر أن الرسم لصديق له ، وهو رسم لسيد نبيل مثله دفع كل ما لديه من أجله . ثمة غابة ومزرعة وقرية وألوان متداخلة بادية من النافذة . هنالك على الطاولة أمامه ساعة وكتب إضافة إلى التعبير عن الزمان ، والسوء ، والحياة ، وهنالك قلم وخريطة وبوصلة وصناديق فيها نقود ذهبية وأشياء أخرى كما في كل الرسوم لم أفهمها ، ولكنني شعرت بها . . . هنالك خيال الجن والشيطان ، ثم إن هنالك إلى جانب الأب ابنته جميلة الجميلات مثل الحلم .

لتزيين وإكمال أية حكاية عمل هذا الرسم ؟ في أثناء نظري إلى الرسم كنت أدرك أن حكايته هي ذاته . الرسم ليس استمراراً لحكاية . إنه شيء من أجل ذاته .

بقيت أمام الرسم مندهشاً وأنا أنظر إليه . خرجت من القصر وعدت إلى البيت الذي استضفت فيه ، وأمضيت الليل مفكراً في ذلك الرسم . أردت أن أُرسم هكذا . لا ، أنا لا أطول أن يكون لي رسم بهذا الشكل . يجب أن يُرسم سلطاننا هكذا! يجب رسم ما لسلطاننا مع كل ما يبدي عالمه وما يحيط به . وفكرت برسم كتاب انطلاقاً من هذه الفكرة .

لقد أنجز الأستاذ الإيطالي رسمَ ذلك السيد بحيث إذا نظرت إليه تدرك

فوراً أن هذا الرسم لذلك السيد . إذا لم تكن قد رأيت ذاك السيد الذي في الرسم أبداً ، وقالوا لك جده في ذلك الزحام ، يمكنك بفضل ذلك الرسم أن تجده بين ألف رجل . لقد أوجد الأساتذة الإيطاليون أسلوباً ومهارة لتمييز الأشخاص من خلال شكل الوجه ، وليس من خلال ألبسته وأوسمته . وهذا ما يسمونه :(پورتريه) .

إذا رسم وجهك مرة بهذا الشكل فليس ثمة ما يجعلك تُنسى . عندما ينظر إلى رسمك أحدهم ، حتى عندما تكون بعيداً ، يشعر بداخله أنك قربه . ويمكن حتى لمن لم يروك نهائياً وأنت حي أن يشعروا أنك أمامهم بعد سنوات طويلة » .

سكتنا مدة طويلة . ثمة ضوء يسبب رعشة ينبعث من القسم العلوي للنافذة الصغيرة التي سترناها بقماش عسلي ، ولم نفتح سحاب قسمها السفلي .

قلت : « كان لديَ نقاش يأتيني سراً مثل بقية النقاشين من أجل كتاب سلطاننا السري ، ونعمل حتى الصباح . إنه أفضل المذهِّبين . ظريف أفندي المسكين خرج من هنا في إحدى الليالي ولم يعد إلى بيته . أخشى أن يكونوا قد قتلوا مذهبي المعلم » .

* * *

٦

أنا أورهان

قال قرة : «هل قتلوه ؟»

قرة هذا طويل نحيل يبعث الرهبة قليلاً . عندما كنت ذاهباً إليهما ، قال جدي : «لا بد أنهم قتلوه» وعندما رآني قال : «ماذا تعمل أنت هنا» .

ولكنه كان ينظر إليَ بحيث لم أتردد بأن أقفز إلى حضنه وأجلس ، ولكنه أنزلني بسرعة .

قال : «قبّل يد قرة!»

قبلت يده . لا رائحة لها .

قبلني قرة من وجنتي وقال : «إنه محبب ، سيكون مثل السبع في المستقبل»

«هذا أورهان . في السادسة من عمره . وهنالك أكبر منه . إنه شوكت . في السابعة من عمره ، وعنيد جداً» .

قال قرة : «ذهبت إلى الزقاق في آقسراي . كان الجو بارداً . والثلج والجليد مغطياً كل شيء ، إنما كأن شيئاً لم يتغيّر .»

قال جدي : «كل شيء تغيّر ، وخرب ، وخرب كثيراً جداً» ثم التفت إليَ : «أين أخوك الأكبر ؟» .

«عند المعلم»

«لماذا أنت هنا ؟»

«قال لي معلمي : عفاك ، اذهب أنت!»

قال جدي : «وهل قطعت الطريق وحدك ؟ كان يجب أن يجلبك أخوك الأكبر» ثم قال لقرة : «لدي صديق مجلّد ، بعد مدرسة القرآن يذهبان يومين إليه ، ويتدربان عنده . يتعلمان التجليد» .

قال قرة : «هل تحب عمل النقش مثل جدك ؟»

سكتُ .

قال جدي : «حسنٌ ، اذهب أنت الآن!»

كانت الحرارة المنبعثة من الموقد لذيذة إلي حد أنني لم أرد الذهاب من جانبهما . بينما كنت أشم رائحة الألوان والصمغ توقفت فجأة . كانت تنبعث رائحة قهوة .

قال جدي : «هل النقش بأسلوب مختلف يعني رؤية مختلفة ؟ لهذا السبب قتلوا المذهب المسكين . فوق هذا كان تذهيبه على الأصول القديمة . حتى إنني لا أعرف إن كان قد قُتل ، إنه مفقود فقط . إن هؤلاء يرسمون (سرنامة)* من أجل سلطاننا بإشراف كبير النقاشين الأستاذ عثمان . كلهم يعملون في بيوتهم . والأستاذ عثمان في النقش خانة . أريدك أن تذهب إلى هناك أولاً ، وترى كل شيء بعينيك . أنا أخاف لأن الآخرين تجادلوا فيما بينهم ، وقتل بعضهم بعضاً . كبير النقاشين أستاذهم عثمان منحهم ألقاباً قبل سنوات : فراشة ، زيتون ، لقلق . . . يمكنك الذهاب إليهم ورؤيتهم في بيوتهم» .

لم أنزل الدرج ، وعدت إلى الخلف . كانت تصدر قرقعة خفيفة من

---

* سرنامة : وقائع احتفال رسمي في كتاب مرسوم .

الغرفة ذات الخزانة المخفية في جدارها التي تنام فيها خيرية ليلاً . دخلت إليها . لم تكن خيرية هناك ، بل أمي . عندما رأتني خجلتْ . كان نصف جسمها داخل الخزانة .

قالت : «أين كنت ؟»

لكنها تعرف أين كنت . ثمة ثقب داخل الخزانة . وهناك غرفة نقش جدي . إذا كان الثقب مفتوحاً تظهر الصالة ، وبعدها يظهر داخل غرفة نوم جدي ، وطبعاً إذا كان بابها مفتوحاً .

قلت : «كنت عند جدي . ماذا تفعلين هنا يا أمي ؟»

صرخت بي : «ألم أقل لك هنالك ضيف ، عليك ألا تذهب!» ولكنها لم تصرخ بصوت مرتفع لأنها لم ترد إسماع الضيف . بعد ذلك سألت بصوت حلو : «ماذا كانا يعملان ؟»

«كيف جلس ؟»

فجأة جلستُ على الأرض مقلّداً الضيف : أنا الآن رجل جادّ جداً يا أمي ، قطّبت حاجبي أستمع إلى جدي ، أهز رأسي حسب المقام كأنني أستمع إلى مولد مثل ذلك الضيف .

قالت أمي : «انزل ، ناد لي خيرية بسرعة»

جلستْ ، وبدأت تكتب على ورقة صغيرة موضوعة على مسند كتابة خشبي .

«ماذا تكتبين يا أمي ؟»

«ألم أقل لك انزل بسرعة ، وناد لي خيرية ؟»

ذهبتُ إلى المطبخ . كان أخي الأكبر قد وصل ، ووضعتْ خيرية أمامه صحناً من أرز الضيف .

قال أخي الكبير : «غدّار . تركتني مع المعلم وذهبت . ثنيت كل

الأطراف ، أصبحت أصابعي زرقاء » .

« خيرية! أمي تريدك »

قال أخي الكبير : « عندما ينتهي طعامي سأخبرك . عليك أن تتحمل عقوبة الكسل والغدر » .

عندما خرجت خيرية نهض أخي وجاء نحوي قبل أن ينهي طعامه . لم أستطع الهرب ، أمسكني من ذراعي ، وبدأ يلويه . . .

« لا يا شوكت لا . . . إنها توجعني »

« هل ستترك العمل لغيرك وتهرب مرة أخرى ؟ »

« لن أهرب »

« اقسم! »

« أُقسم »

« اقسم على القرآن! »

« أُقسم على القرآن » .

لكنه لم يتركني . جرني إلى جانب سفرة الطعام ، وأقعدني . كان يأكل بالملعقة من جهة ، ويلوي ذراعي أكثر لأنه أقوى مني ، من جهة أخرى .

قالت خيرية : « لا تعذب أخاك يا ظالم! » تلفلفت ، وكانت خارجة إلى الزقاق : « اتركه! »

قال أخي الكبير : « لا تتدخلي يا ابنة العبد » ما زال يلوي ذراعي « إلى أين أنت ذاهبة ؟ »

قالت خيرية : « سأشتري ليموناً »

قال أخي الكبير : « كذّابة ، الخزانة مليئة بالليمون »

ولأنه أرخى ذراعي ، خلّصت نفسي فجأة ، ورفسته ، ومسكت الشمعدان من عموده ، لكنه وثب عليّ ، وطرحني تحته ، ورمى الشمعدان ،

وانقلبت السفرة .

قالت أمي : « أنتما بليتان بلاني بهما الله » لم تصرخ لكي لا يسمع الضيف . كيف عبرتْ الصالة ، ونزلت السلم دون أن تبدو لقرة ؟ فصلتنا « أنتما تفضحان الإنسان يا أولاد الحرام » .

قال شوكت : « أورهان كذب اليوم . تركني عند المعلم ، وترك الشغل كله وهرب » .

قالت أمي : « اسكت » وصفعته .

صفعته صفعة خفيفة ، ولم يبك أخي . وقال : « أنا أريد أبي . عندما يعود أبي سيستل سيف عمي الأحمر حسن ، ونحن سنترك هذا البيت ونذهب إلى بيت عمي حسن »

قالت أمي : « اسكت » وفجأة غضبت ، وأمسكت أخي شوكت من ذراعه وجرّته إلى الظلمة في آخر الممر المبلط . وأنا ذهبت خلفهما . فتحت أمي الباب ، وعندما رأتني قالت : « ادخلا إلى هنا! »

قلت : « ولكن يا أمي ، افتحي الباب ، أنا بردان »

قال شوكت : « لا تبك يا خوّاف ، الآن تفتحه »

فتحت أمي الباب قالت : « هل ستقعدان عاقلين حتى يذهب الضيف ؟ حسنٌ ، إذن اجلسا بجانب الموقد في المطبخ حتى يذهب قرة لن تصعدا إلى فوق »

قال شوكت : « نتضايق هناك ، إلى أين ذهبت خيرية ؟ »

قالت أمي : « أنت تتدخل في كل شيء ، إنك تزيدها »

سمعنا صوت صهيل خفيف ينبعث من الاسطبل . سمعناه مرة أخرى . لم يكن هذا حصان جدي . إنه حصان قرة . سيطر علينا شعور مرح كأنه يوم مهرجان أو صباح عيد . ابتسمت أمي وكأنها تريدنا أن نبتسم أيضاً . خطت

خطوتين ، وفتحت باب الإسطبل الذي يطلّ على هذه الجهة .

أصدرت صوتاً : «هس س س . . .»

التفتت ، أدخلتنا خيرية إلى المطبخ الذي تفوح منه رائحة الزيت «احذرا من الخروج قبل أن يخرج الضيف ، لا تتقاتلا ، يجب ألا يعتقد أحد أنكما ولدان مدلّلان» .

وقبل أن تغلق الباب قلت : «أمي! أمي ، سأقول لك شيئاً : قتلوا مذهّب جدي المسكين» .

* * *

٧

اسمي قرة

لحظة رؤيتي للطفل أدركت خطأي بتذكر وجه شكورة عبر كل هذه السنين . كان وجه شكورة مطاولاً مثل وجه أورهان ، وذقنها مدببة أكثر مما كنت أتصور . لهذا السبب يجب أن يكون فم حبيبتي أصغر مما كنت أتذكر طوال هذه السنين ، وشفتاها أدق . في أثناء تجوالي من مدينة إلى أخرى طوال اثنتي عشرة سنة ، يبدو أنني وسّعت فم شكورة ، وجعلت شفتيها ملمومتين أكثر ، ضخمتين ، مكتنزتين لامعتين مثل الكرز ، لا تقاوم في خيالي .

لو كان معي رسم لوجه شكورة حسب أصول الأساتذة الإيطاليين ، هذا يعني أنني لم أشعر خلال سفري على مدى اثنتي عشرة سنة بعدم وجود وطن لي أو سكن لعدم تذكري وجه حبيبتي التي خلّفتها . إذا كان نقش وجه حبيبتكم يعيش داخلكم في قلبكم ، ستبقى الدنيا بيتكم .

رؤية ابن شكورة ، وتبادل الاحاديث معه ، والتمعن في وجهه عن قرب ، وتقبيله أوجد فيّ قلقاً خاصاً كذاك الذي لدى المنحوسين والمجرمين والكفار . انبعث صوت من داخلي يقول لي : «هيا ، إذهب إلى شكورة الآن ، وشاهدها »

في لحظة فكرتُ بالخروج دون قول شيء لزوج خالتي ، وبفتح الأبواب

المطلة على الصالة كلها – عددتها بطرف عيني ، كانت خمسة إضافة إلى باب الدرج – إلى أن أجد شكورة . ولكنني بقيت بعيداً عن حبيبتي اثنتي عشرة سنة لأنني بحتُ بما في قلبي في وقت غير مناسب ، ودون حساب . انتظرتُ بصمت ومكر مستمعاً إلى زوج الخالة ، ناظراً إلى الفرش التي طالما جلستُ عليها ، وإلى الأشياء التي لامستها مراراً .

قال لي : إنه يريد إتمام كتاب السلطان بمناسبة الذكرى الألفية للهجرة . يريد سلطان العالم إظهار نفسه ودولته بأنهما يستطيعان استخدام الأساليب الإفرنجية بما لا يقل عن الإفرنج بمناسبة العام الألف للتقويم . غير هذا لأن السلطان أمر بإنجاز سرنامة ، أمر بعدم خروج معلمي النقش المعروفين من بيوتهم لشغلهم الكثير ، وليعملوا هناك بعيداً عن النقش خانة . وبالطبع هو يعلم بمجيئهم سراً إلى بيت زوج خالتي .

قال زوج خالتي : « اذهب إلى كبير النقاشين الأستاذ عثمان ، يقال إنه فقد بصره ، ويقال إنه خرف : أنا أعتقد أنه عمي وخرف .

إن إشراف زوج خالتي على إعداد كتاب بإذن السلطان ، وتشجيعه على الرغم من كونه ليس معلماً في النقش ، وحتى إنه ليس فناناً ، يُحدث شقاقاً بينه وبين كبير النقاشين الأستاذ عثمان .

تذكرت طفولتي ، ووجهت اهتمامي لأغراض البيت . تذكرت البساط الأزرق شغل ضاحية قولا ، والإبريق النحاسي ، وصينية القهوة ،والصبّاب ، وفناجين القهوة التي سمعتُ خالتي تباهي بها عدة مرات على أنها جلبت من الصين عن طريق البرتغال . هذه الأشياء (كالرَحلَة) المطعمة بالصدف في الزاوية ، وعلاّقة القبعات الصوفية على الجدار ، والمخدات المخملية الحمراء التي أتذكر نعومتها هي من أغراض بيت الأقسراي الذي أمضيت فيه طفولتي مع شكورة ، وما زالت تحمل بريق أيام الرسم والسعادة في ذلك البيت .

الرسم والسعادة يشكلان نقطة البداية لعالمي الذي أريد من أحبائي القراء الانتباه إليها في حكايتي وقدري ، وأريد منهم تذكرها دائماً . في وقت مضى كنت سعيداً جداً هنا بين الكتب والأقلام والرسوم . بعد ذلك عشقت فطُردت من هذه الجنة . فكرت كثيراً أيام منفى العشق بأنني مدين بالكثير لشكورة لأنها فتحت الطريق لانحيازي نحو التفاؤل بالحياة والعالم أيام شبابي . بصفاء طفل لم أشك بتلقيَ ردٍ إيجابي لعشقي . هذا ما جعلني متفائلاً جداً ، وأنظر إلى العالم بتفاؤل ، وأراه مكاناً جميلاً . بهذا التفاؤل أحببت الكتب ، وما كان يعطيني إياه زوج خالتي لأقرأه في ذلك الوقت ، والتعاليم التي تلقيتها في المدرسة ، والنقش ، والرسم . وكما أنني مدين لعشق شكورة بجعل الجزء الأول والأغنى من تعليمي مشمساً واحتفالياً ، فأنا مدين له بالمثل برفض المعلومات الظلامية التي أساءت للجزء الآخر . إرادتي الزوال مع ألسنة لهب الحطب المشتعل في غرف الخانات في الليالي الباردة مثل الجليد ، شعوري بعد ممارسة الحب أنني أسقط عن منحدر مقفر وأنني « رجل لا يساوي خمس بارات » ما انتقل إلي من إرث شكورة .

بعد ذلك بكثير قال زوج خالتي : « أتعرف أن أرواحنا بعد الموت تلتقي مع أرواح الذين ينامون ملء أجفانهم في هذه الدنيا ؟ » .

« لم أكن أعرف »

« هنالك سفر طويل بعد الموت ، لهذا لا أخاف منه . ما أخافه هو الموت قبل إنهاء كتاب السلطان »

جانب من عقلي يجدني قوياً وناضجاً وسليماً نسبة إلى زوج خالتي ، والجانب الآخر يركز على القفطان الغالي الذي اشتريته قبل أن آتي إلى هذا الرجل ، وعلى تفضيض لجام ورسن الحصان الذي سأركبه بعد قليل ، وعلى السرج المطرز .

قلت إنني سأنقل له كل ما تعلمته من حياتي بين النقاشين . قبّلت يده ، ونزلت الدرج ، وخرجت إلى باحة الدار . شعرت ببرودة الثلج فتذكرت أنني لا طفل ، ولا عجوز . بشرتي أشعرتني بالعالم بسعادة . هبت ريح عندما كنت أغلق باب الاسطبل . كنت وحصاني الأبيض الذي أمسكه من عنانه متوجسين في أثناء عبورنا الفسحة المبلطة إلى باحة الدار . اعتقدت أن عروقه الواسعة ، وقوائمه القوية ، وتململه ، وحالته التي يصعب ضبطها هي لي . وفور خروجي إلى الزقاق ، وفي لحظة محاولتي القفز على ظهر الحصان بمحاولة واحدة لأغيب في ذلك الزقاق الضيق بطريقة حكائية ظهرت امرأة ضخمة جداً من حيث لا أدري . إنها يهودية تلبس ثياباً زهرية ، وتحمل صرتها متوجهة نحوي . كانت ضخمة وعريضة إلى حد أنها تشبه الخزانة ، ولكنها حيوية ، وحركتها لا تهدأ ، وحتى إنها مغناج .

قالت : «يا سبعي ، يا شاب . فعلاً إنك وسيم كما قالوا عنك . هل أنت متزوج أم عازب ؟ هل تشتري منديلاً حريرياً من إستر أمَ الصرة لحبيبتك بالسر ؟»

«لا»

«زنار من الأطلس الأحمر ؟»

«لا»

«لا تقل لا! أيمكن لسبع مثلك ألا يكون له خطيبة أو عشيقة بالسر ؟ من يعلم ، من يعلم كم فتاة دامعة العينين تتحرق من أجلك ؟»

بلحظة استطال جسدها ليغدو مثل جسد بهلوان ، واندست قربي بشكل مدهش . وفي الوقت نفسه ، وبمهارة لاعب خفة يوجد أشياء من لا شيء . أوجدت رسالة بيدها . اختطفتُ الرسالة بلمح البصر ودسستُها بزناري وكأنني متدرب لسنوات طويلة من أجل هذه اللحظة . رسالة كبيرة . لحظتئذ

شعرت وكأنها جمر على جسمي بين خصري وبطني الذي كان مثل الثلج .

قالت البائعة إستر : «اركب حصانك ، وسقه خبباً . اذهب بجانب هذا الجدار ، ثم انعطف إلى اليمين ، ولا تحرف طريقك ، وعندما تصل إلى شجرة الرمان التفت ، وانظر إلى البيت الذي خرجت منه ، إلى النافذة التي تقابلك» .

تابعت طريقها وبلحظة غابت . تاهت يداي عن رسن الحصان ، ولكن رجليَّ تضغطان على جسمه بقوة ، وهذا ما جعل العقل والمهارة مسيطرين على الحصان . جرى حصاني الذكي كما قالت إستر خبباً ، وانعطفنا إلى اليمين في الزقاق ، ما أجمل هذا .

لعلني في تلك اللحظة فقط شعرت بوسامتي . وكما في الحكايات شعرت أن وراء كل نافذة وشبك امرأة تنظر إليّ ، وأنا أحترق بالحريق نفسه . أهذا ما أريده ؟ وهل أعود إلى مرضي الذي مضى عليه كل هذه السنين ؟ فجأة انقشعت الغيوم عن الشمس ، فدهشت .

أين شجرة الرمان ؟ أهي تلك الضعيفة المهمومة ؟ نعم هي! التفتُ بشكل خفيف وأنا على ظهر حصاني .ثمة نافذة مقابلي تماماً . ولكن ليس هنالك أحد . خدعتني إستر الثرثارة!

قلت لنفسي هذا ، وفجأة فتح سحاب النافذة المغطى بالجليد وكأنه ينفجر ، وهناك رأيت وسط إطار النافذة المتلامعة تحت أشعة الشمس وجه جميلتي الحبيبة . بعد اثنتي عشرة سنة ها هو وجهها بين الأغصان المغطاة بالثلج . هل تنظر ذات العينين السوداوين إليّ أم إلى حياة أخرى هناك ؟ هل كانت حزينة أم مبتسمة ، أم مبتسمة بحزن ؟ هذا ما لم أفهمه . لا تطاوع قلبي يا حصاني الأحمق ، إهدأ! ولكنني التفتُ بشكل سافر على سرج الحصان ، ونظرت إلى النهاية بشوق ، حتى الوجه المليء بالأسرار ، الظريف

المطاول وراء الأغصان البيضاء .

وَضْعُنا ، هي في النافذة ، وأنا على حصاني يشبه موقف خسرو على حصانه وشيرين في نافذتها - ولكن بيننا شجرة مهمومة قليلاً - المرسوم آلاف المرات ، وفهمت بعد أن فتحت الرسالة التي أعطتني إياها ورأيت الرسم داخلها أنني أحترق عشقاً كما في تلك الكتب التي أحببناها ، ودخنا بها .

* * *

٨

اسمي إستر

أعرف أنكم تتوقون لمعرفة ما كتب في الرسالة التي أعطيتها لقرة . ولأن هذا التوق لدي أيضاً ، عرفت بكل شيء . إذا أردتم ، اعملوا كأنكم تقلبون صفحات الحكاية إلى الخلف ، وسأحكي لكم ما جرى قبل أن أعطيه تلك الرسالة .

الوقت مساء ، أجلس مع زوجي نسيم في بيتنا في حي اليهود عند مخرج منطقة الخليج ، نئن بجانب الموقد ، ونرمي إليه الحطب في محاولة لندفأ . لا تقفوا عند قولي عجوز عن نفسي الآن . إذا وضعت المناديل الحريرية ، والقفازات ، والأغطية ، والقمصان الملونة التي تخرج من السفن البرتغالية ، وما يثير النساء من خواتم ، وأقراط ، وعقود غالية ورخيصة ، خرز ، ولوَاحات في صرتي ، وعلّقتها بذراعي تغدو إسطنبول قِدراً وإستر مغرفة . ليس هنالك زقاق لا أدخله . وليس هنالك شائعة أو رسالة إلا نقلتها من باب إلى باب . نصف بنات إسطنبول أنا زوّجتهن . لا أفتح هذا الموضوع مباهاة . قلت كنا جالسين عند المساء . تك ، تك ، نُقِر الباب . وجدت أمامي تلك الجارية المخبولة خيرية . في يدها رسالة . أبلغتني بما تريده شكورتي مرتجفة لا أدري إن كان من البرد أو الانفعال .

بداية اعتقدت أنَ الرسالة لحسن ، دهشت . أليس زوج شكورة الجميلة

لم يعد من الحرب - أنا برأيي أن المنحوس ضرب بالنار من زمن - وللمحارب غير العائد أخ سعران اسمه حسن . ولكنني فهمت أن رسالة شكورة لآخر . ماذا كُتب في الرسالة ؟ إستر ستجنُّ من الفضول . في النهاية نجحت بقراءة الرسالة .

ليس بيني وبينكم معرفة زيادة عن اللزوم . بصراحة ، في البداية سيطر عليَ شعور بالخجل والضيق . لن أقول لكم كيف قرأت الرسالة . لعلكم تجدون فضولي عيباً ، وأمراً مهيناً - وكأنكم لستم فضوليين كالحلاقين - أنا سأقول لكم ما سمعته في أثناء قراءتها فقط . كتبت شكورة السكَرة :

« قرة أفندي . أنت تأتي إلى بيتي اعتماداً على قربك من أبي . لا تتوقع أن تحظى مني بإشارة . حدثت أمور كثيرة بعد ذهابك . تزوجت ، ولديَ ولدان كسبعين . أحدهما أورهان ، قبل قليل دخل ورأيته . أنا منذ أربع سنوات أنتظر زوجي ، ولا أفكر بأمر آخر . يمكن أن أشعر بوجودي مع ولدين وأب عجوز أن لا أحد لنا ، ولا مناص ، وأننا ضعفاء . ويمكن أن أكون بحاجة إلى قوة رجل وحمايته . ولكن يجب ألا يفكر أحد باستغلال هذا الوضع . لهذا السبب ، لطفاً لا تطرق بابنا مرة أخرى . أحرجتني مرة ، كم تعذبت لإثبات براءتي أمام أبي . أُعيد لك مع هذه الرسالة الرسم الذي نقشته عندما كنت شاباً وأنفك في الهواء ، وأرسلته لي . هذا لكي لا تتأمل ، ولا تفهم الإشارة خطأ . من الخطأ الاعتقاد أن الناس يمكن أن يعشقوا بالنظر إلى الرسم . اقطع رجلك عن بيتنا ، وهذا أفضل »

المسكينة شكورة ليست رجلاً أو سيداً أو باشا لتختم الرسالة خاتماً مبهرجاً وضعت تحت الرسالة أول حرف من اسمها صغيراً ، وبخوف ، وكأنها عصفورة .

قلتُ خاتماً . لا بد أنكم تتوقون لمعرفة كيفية فتحي وإغلاقي الرسائل

المختومة . الرسائل لا تُختم . تعتقد عزيزتي شكورة أن إستر هذه يهودية لا تستطيع فك حروفنا . صحيح أنا لا أستطيع قراءة كتابكم ، ولكنني أقرئها لآخرين . أما رسالتكم فأقرؤها بنفسي . هل اختلط الأمر عليكم ؟

سأشرح لكم هذا بحيث يفهمه صاحب العقل الأسمك .

ما تعتبرونه رسالة ليس بالضرورة مكتوباً . الرسالة مثل الكتاب تماماً ، يمكن قراءتها بالشم واللمس . لهذا السبب فإن العاقلين يقولون اقرني لنسمع ما تقوله الرسالة . أما المخبولون فيقولون اقرني المتكوب في الرسالة! المهارة ليست بقراءة المكتوب فقط ، بل بقراءة الرسالة كلها . اسمعوا ما قالته شكورة غير ذلك :

١- تقول : إذا كنتُ قد أرسلتُ الرسالة سراً ، فإرسالي إياها مع إستر الممتهنة والهاوية نقل الرسائل لا يجعل السرية هدفاً .

٢- طيّ ورقة الرسالة كثيراً مثل الحرز يعني السرية ، لكن الرسالة مفتوحة ، فوق هذا مرفقة برسم كبير ، القصد هو التظاهر بقول : علينا أن نخفي سرنا عن الجميع . وهذا يناسب رسالة تدعو إلى العشق أكثر مما تدعو إلى رفضه .

٣- رائحة الرسالة تثبت صحة هذا . الرسالة غير واضحة بحيث تجعل الذي يتسلمها متردداً (ترى هل عطرتها قصداً ؟) ولكنها جذابة لا يمكن بقاء متسلمها محايداً (هل هذه رائحة عطر ، أم رائحة يديها ؟) كانت هذه الرائحة كافية لتَجْنين المسكين الذي قرأ لي الرسالة ، أعتقد أنها ستفقد قرة عقله بالشكل نفسه .

٤- على الرغم من محاولة خطها وقلمها قول أرجوك أنا مستعجلة أكتب دون اهتمام وانتباه ، ولكن حتى أنا إستر التي لا تعرف القراءة والكتابة أفهم عكس هذا تماماً من رجفة الحروف الظريفة معاً وكأنها في مهب نسيم عليل .

وعلى الرغم أنها عندما ذكرت أورهان قالت : « قبل قليل » مومئة إلى أنها كتبت الرسالة الآن ، ولكن من الواضح أنها كتبت مسودة ، لأنه يمكن الإحساس بالانتباه في كل سطر .

٥- حتى أنا إستر اليهودية أعرف أن الرسم المرسل يحكي عن شيرين الجميلة كيف نظرت إلى رسم خسرو الوسيم وعشقته . نساء إسطنبول الخياليات كلهن يَدْخُلن في هذه الحكاية ، وهذه المرة الأولى التي أرى فيها إرسال رسم .

كثيراً ما يحدث معكم أنتم عارفي القراءة والكتابة : غير عارفة القراءة تتوسل إليكم لتقرؤوا لها رسالة أرسلت إليها ، والمكتوب يهز ، ويهيّج ، ويقلق ، وصاحبة الرسالة متضايقة من إشراككم في خصوصية الرسالة ، وترجوكم أن تعيدوا قراءتها مرة أخرى . تقرؤونها من جديد ، وتقرؤونها إلى أن تحفظ الرسالة غيباً . بعد ذلك تأخذ الرسالة ، وتسألكم هل العبارة الفلانية مكتوبة هنا ؟ وهنا قال كذا ؟ ناظرة إلى الحروف التي أشرتم إليها برأس إصبعكم هناك دون أن تفهمها . في أثناء النظر إلى تعرجات الحروف التي لا تستطيع قراءتها ولكنها حفظتها غيباً أحزن على موقفها هذا ، حتى إنني أنسى عدم معرفتي القراءة والكتابة ، وأتمنى تقبيل اللواتي لا يعرفن وهن يصببن الدموع على الرسائل .

هنالك بعض المنحوسين - احذروا أن تتشبهوا بهم - عندما تطلب الفتاة إعادة قراءة الرسالة ، وتريد النظر إلى الكلمات ومعرفة مواقعها دون فهمها يقولون كالحمير : « ماذا ستفعلين ؟ لماذا ستنظرين ؟ » وبعضهم يعتبر الرسالة له فلا يعيدها ، وأحياناً يقع عليَ أنا إستر الشجار معهم ، واستعادة الرسالة . أنا إستر امرأة جيدة . أساعدكم إن أحببتم .

***

٩

أنا شكورة

لماذا وقفت في النافذة عندما كان قرة ماراً أمامي على حصان أبيض ؟ لماذا فتحتُ سحاب النافذة بدافع داخلي ونظرت إليه عندما كان وراء شجرة الرمان ؟ لا أستطيع الإجابة بدقة على هذا . أنا أرسلت الخبر إلى إستر مع خيرية . بالتأكيد أعرف أن قرة سيمر من هناك . أنا كنت قد صعدتُ إلى الغرفة ذات الخزانة المخفية في الجدار وحدي من أجل النظر إلى الأغطية في الصناديق . وبدافعٍ داخلي فتحت بكل قوتي وبجيشان سحاب النافذة ، فملأت الشمس الغرفة . وقفت مقابل النافذة ، فالتقت عيناي المرفرفة جفونها بتأثير الشمس بعيني قرة . كان أمراً جميلاً جداً .

إنه يكبرني باثنتي عشرة سنة ، ولكنني أعرف أنني أنضج منه عندما كنت في الثانية عشرة . وبدل وقوفه أمامي كرجل وقوله : سأعمل كذا ، وسأقفز هذا ، وسأصعد من هنا ، اختبأ دافناً نفسه في الكتاب الذي أمامه خجلاً من كل شيء . بعد ذلك هو أيضاً عشقني . رسم رسمة يعبر فيها عن عشقه . كلانا كبرنا . عندما صرت في الثانية عشرة كان قرة لا يستطيع النظر في عيني ، وشعرت باعتقاده أنه إذا التقت عيوننا سأفهم عشقه لي . مثلاً إذا قال : « اعطِني لو سمحت السكين ذات المقبض العاجي؟ » كان ينظر إلى السكين ولا يستطيع رفع عينيه والنظر إلى عيني . إذا سألته : « هل سلة

الكرز جميلة ؟ » كان لا يستطيع رفع رأسه بابتسامة حلوة ملء فمه ، والتعبير عن جمالها بتقاطيع وجهه كما نفعل جميعاً . كان يصرخ بقوته كلها : « نعم » وكأنه يتكلم مع بكماء ، وهو لا يستطيع النظر إلى وجهي من الخوف . كنت في ذلك الوقت جميلة جداً . كل الشباب ، حتى الذين رأوني مرة واحدة حتى ولو كانت من بعيد ، أو من خلف الستائر والأبواب ، ومن بين أكوام القماش ، عشقوني فوراً . لا أقول للتفاخر بل لكي تشعرون بهمّي .

هنالك موقف في قصة خسرو وشيرين تحدثنا حوله كثيراً قرة وأنا . نَوَتْ شابور أن تجعل شيرين تعشق خسرو . في أحد الأيام خرجت شيرين مع وصيفاتها في نزهة إلى الحقول . علقت شابور رسم خسرو سراً على غصن شجرة ترتاح تحتها شيرين . عندما رأت شيرين رسم خسرو الوسيم معلقاً على غصن في تلك الحديقة الجميلة عشقته . كثيراً ما رسمت هذه اللحظة ، أو حسب تعبير النقاشين : « هذا الموقف » مبينين نظرة شيرين إلى الرسم المعلق على الشجرة بإعجاب ودهشة . عندما كان قرة يعمل مع أبي رأى هذا الرسم كثيراً ، وحاول استنساخه عدة مرات . بعد ذلك عندما عشقني أنجز رسماً من أجله هو ، ولكنه رسم نفسه مكان خسرو ، ورسمني مكان شيرين . لقد رسم قرة وشكورة . لولا الكتابة تحت الرسمين لكنت وحدي من يفهم أن الشاب والفتاة في الرسم هما نحن ، لأنه كان يرسم كل منا بخطوط وألوان معينة مازحاً في بعض الأحيان : أنا بالأزرق ، هو بالأحمر . وكأن هذا لم يكف ، فقد كتب اسمينا تحت خسرو وشيرين في الرسم . ترك الرسم في مكان أستطيع رؤيته وهرب كأن الذي عمله جريمة . أتذكر أنه كان يراقبني عند رؤيتي للرسم ليعرف ما سأفعله .

في البداية لم أُبدِ أية ردة فعل لمعرفتي جيداً أنني لا أستطيع أن أعشقه .

في مساء أحد أيام الصيف التي كنا نحاول فيها تبريد أنفسنا بشراب الكرز المبرّد بالجليد الذي يقال إنه جُلب من جبل (أولو) ، وبعد عودة قرة إلى بيته ، قلت لأبي إن قرة فاتحني بعشقه لي . كان قرة عندئذ قد تخرج من المدرسة قبل فترة قصيرة ، ويدرّس في أحد الأحياء المتطرفة ، ويعمل - ليس بإرادته بل بضغط من والدي على الأكثر - للتقرب من نعيم باشا القوي جداً ، وصاحب المكانة المعتبرة . حسب رأي أبي كان أنفه في العالي . وبعد أن كان أبي يشتكي من لا مبالاة قرة في عملية تقريبه من نعيم باشا الذي يجب البدء عنده كاتباً في الأقل ، قال في ذلك المساء : «وجدنا أن عين ابن الأخت على أعلى مما توقعنا» وأضاف لا مبالياً بأمي : «تجاوز تذاكيه توقعنا» .

أتذكر بأسى ما فعله أبي في الأيام التالية ، وكيف ابتعدت عن قرة وكيف قُطعتْ رجله عن بيتنا في البداية ، وعن حيِّنا في ما بعد ، ولكنني لا أريد أن أحكي لكم هذا خشية ألا تحبونا أبي وأنا . صدقوني لم يكن بيدي غير هذا . عندما تُفهم استحالة عشق ما ، ويُدرك القلب اللامعترف بقواعد الحياة هذا ، يقول الناس الطبيعيون : «لم يجدونا مناسبين لبعضنا البعض» قاطعين الطريق أمام تطور الأمور ، أو يقولون وهم على حق : «صار الذي صار» . أذكركم أن أمي قالت عدة مرات : «لا تكسروا قلب الولد» . قرة الذي تقول عنه أمي ولداً ، كان قد بلغ الرابعة والعشرين من عمره ، وأنا في الثانية عشرة . اعتبر أبي مفاتحة قرة بعشقه تطاولاً لذلك رفض توسل أمي .

عندما تلقينا خبر مغادرته اسطنبول كان قد خرج من قلوبنا ، ولكننا لم ننسه نهائياً ، ولأننا لم نتلق منه خبراً من أية مدينة . فكرت أن احتفاظي بالرسم الذي رسمه وأرانيه ، سيبقيه مجرد ذكرى للطفولة ، ولصداقتنا الطفلية . ولكي لا يرى الرسم أبي في البداية ، وزوجي المحارب فيما بعد فيغار عليّ ، وضعت قطرات من حبر (حسان باشا) الذي كان عند أبي فوق

اسميّ قرة وشكورة ، وجعلت هذه القطرات بمهارةٍ أزهاراً تغطي الاسمين . إذا كان هنالك من يفسّر إعادة الرسم له هذا اليوم ، ثم ظهوري أمامه في النافذة ، ضدي ، فعليهم أن يخجلوا قليلاً ، ويفكروا قليلاً .

عندما ظهرتُ أمامه هناك فجأة بعد اثنتي عشرة سنة وراء النافذة ، ووقفت أمامه وسط أشعة شمس المغيب الحمراء ، بقيت أنظر بدهشة إلى اللون الأحمر المائل إلى البرتقالي المهيمن على الحديقة حتى شعرت بالبرد . لم يكن ثمة ريح . لم أبال لما سيقوله من يمر من الزقاق ، أو أبي فيما لو رآني ، أو قرة فيما لو عاد على ظهر حصانه . في إحدى مرات ذهابي إلى الحمام للتسلية مع بنات زيوار باشا قالت إحداهن ، وتدعى مسرورة التي تبدو ضاحكة وميالة للهو دائماً ، وتطلق فجأة عبارات مدهشة جداً : إن الإنسان لا يعرف ما يفكر فيه بدقة في أي وقت . أنا أفكر على النحو التالي : أقول عبارة ما أحياناً ، وفي أثناء قولي تلك العبارة أجد أنني فهمتها ، ولكنني عندما أفهمها أفكر بعكسها واثقة .

حزنت لفقدان المسكين ظريف أفندي ، أحد النقاشين الذين يطلبهم والدي إلى البيت ، ولن أخفي عنكم أنني كنت أراقبهم جميعاً ، وهذا كان أبشعهم ، وأفقرهم روحاً .

أغلقت النافذة ، وخرجت من الغرفة ، ونزلت إلى المطبخ .

قال أورهان : «يا أمي ، شوكت لم يسمع كلمتك . خرج من المطبخ عندما كان قرة يأخذ حصانه من الاسطبل ، ونظر من الثقب»

قال شوكت وفي يده مقبض المدق : «ماذا يعني ؟ أمي أيضاً كانت تنظر إليه من ثقب الخزانة»

قلت : «خيرية! . . . اقلي الخبز بالسكر ومسحوق اللوز بقليل من السمن من أجل المساء!»

حرك أورهان رجليه في الهواء فرحاً ، ولكن شوكت لم ينبس . وفي أثناء صعودي السلم لحقا بي فرحين ، صارخين ، ضاحكين ، متدافعين ، وعندما مرّا بجانبي قلت لهما : «بهدوء» وقهقهت ثم أضفت : «يبعث لكما العمى» ثم لكمتهما بشكل خفيف جداً على ظهريهما الرقيقين .

كم هو جميل البقاء في البيت مساء مع الأولاد . غاص أبي في كتابه بهدوء .

قلت : «ذهب ضيفك ؟ أتمنى ألا يكون ضايقك»

قال : «لا! . . . سلاّني . يحترم زوج خالته كما كان»

«حسنٌ»

«لكنه حريص ، ودقيق»

قال هذا مستهيناً بقرة ، لإغلاق الموضوع ، أكثر مما قاله لقياس ردة فعلي . لو كان الوقت غير هذا ، لناولته جواباً من لساني الحاد . في تلك اللحظة كنت أشعر بذهابه على الحصان الأبيض ، وأفكر فيه ، ولهذا ارتعشت .

بعد ذلك ، لا أدري كيف وجدت نفسي أحتضن أورهان في الغرفة ذات الخزانة المخفية . اندس شوكت أيضاً . وفي لحظة صارا يتدافعان . اعتقدت أنهما يتشاجران ، فوجدت أننا نتدحرج على الديوانة الطويلة . أحببتهما كما تحب الكلبة جراءها ، وقبلتهما من قفا رأسيهما ومن شعرهما . ضغطت بهما على صدري . شعرت بثقلهما على ثديي .

قلت : «آآآه! . . . لشعركما رائحة . غداً تذهبان مع خيرية إلى الحمام» .

قال شوكت : «أنا بعد الآن لا أريد الذهاب إلى الحمام مع خيرية»

قلت : «هل كبرتَ كثيراً ؟»

قال شوكت : «لماذا لبست هذا القميص البنفسجي الجميل يا أمي ؟»

ذهبت إلى الغرفة الداخلية ، وخلعت القميص البنفسجي ، ولبستُ الأخضر الكالح الذي ألبسه دائماً . بردتُ عندما كنت ألبس ، وارتعشت ، ولكنني شعرت أن جسمي مثل النار ، والأصح شعرت بحيوية جسدي . كان على خديّ قليل من الحمرة ، مُسحت ، وزالت في أثناء التدافع مع الأولاد ، وعلى الرغم من هذا بصقت في كفي ومسحتها جيداً . أتعرفون أن الأقارب جميعاً ، والنساء اللواتي يرينني في الحمام ، وكل من يراني يقولون إنني لا أبدو امرأة في الرابعة والعشرين من عمرها وأم ولدين ، بل فتاة شابة في السادسة عشرة من عمرها . أريدكم أن تصدقوهم ، وأن تصدقوا هذا ، وإلا لن أحكي لكم شيئاً .

لا تستهجنوا كلامي! . أنا على مدى سنوات طويلة أتصفح كتبَ أبي ، باحثة عن رسوم النساء عموماً والجميلات خصوصاً . وهن قليلات ويظهرهن خجولات ينظرن أمامهن ، أو إلى بعضهن بعضاً كأنهن يعتذرن . ليس هنالك من تنظر إلى الحياة برأس مرفوع كالرجال والمحاربين والسلاطين . ولكن في الكتب الرخيصة المنقوشة على عجل ، وبسبب عدم دقة الرسامين وانتباههم هنالك بعض النساء ينظرن إلى الأرض أو إلى شيء آخر في الرسم ، إلى كأس مثلاً ، أو ينظرن إلى القارئ مباشرة وليس إلى حبيب .

أشعر برعشة عندما أتذكر الكتب من زمن تيمور التي مضى عليها مائتا عام ، ودفع الكفار المحبين لها ذهبهم ثمناً لها ، وأخذوها إلى بلادهم . لعل واحداً من أولئك البعيدين يستمع إلى حكايتي هذه . أليست هذه رغبة دخول الكتب ؟ أليس من أجل هذه الرعشة يدفع السلاطين والوزراء كلهم أكياسَ نقود لإعداد كتب تحكي عنهم ، أو تهدى إليهم ؟ عندما أشعر بهذه الرعشة أغدو مثل نساء الكتب الجميلات اللواتي إحدى عينيهن على الحياة التي داخل

الكتاب ، والأخرى على خارجه . أريد أن أتحدث معكم أنتم الذين تنظرون إليّ الآن ولا أعرف أين ومتى . أنا جميلة وذكية ، وأستمتع بفرجتكم عليّ . وإذا كذبت مرة أو اثنتين فلكي لا تأخذوا فكرة خاطئة عني .

لعلكم شعرتم أن أبي يحبني كثيراً . جاءه ثلاثة أولاد قبلي ، ولكن الله أخذهم واحداً واحداً ، وتركني أنا البنت . يهتم بي كثيراً جداً ، ولكنني لم أتزوج من رجل اختاره هو ، بل تزوجت من فارس رأيته بنفسي وأعجبني . لو بقي الأمر لوالدي لكان خياره رجلاً من أكبر العائلات ويفهم في النقش والفن ، وقوياً وصاحبَ جاه ، وغنياً مثل قارون . ولأن رجلاً كهذا غير موجود حتى في كتبه ، كنت سأبقى في البيت منتظرة . وسامة زوجي أسطورية تتبادلها الألسن . أرسلت له خبراً عن طريق وسطاء ، ووجدت فرصة فبرز أمامي في طريق عودتي من الحمام . عيناه تقدحان شرراً . عشقته فوراً ، جسمه أبيض ، ووجهه مائل إلى السمرة ، وعيناه خضراوان ، وذراعاه قويتان ولكنه يبدو بريئاً ، وهو صامت كطفل نائم . ممكن أن يبذل قوته كلها في الحروب لقتل الرجال وجمع الغنائم ، ويبدو لي في البيت خوافاً من منظر الدم ، هو في البيت لطيف كامرأة ، وهادئ . رَفَضَهُ والدي في البداية لأنه محارب فقير ، ورضي بتزويجي له عندما قلت : سأقتل نفسي . ثم رمى نفسه في الحروب ، وقدم أكبر البطولات ، وصار صاحب أعطية سنوية قدرها عشرة آلاف قرش أبيض ، وصار الجميع يغارون منا .

في البداية لم أهتم عندما لم يعد إثر معركة مع الصفويين . لأنه كلما حارب ، تمرس أكثر ، وعمل أعمالاً وحده ، وأتى بغنائم أكثر ، وارتقى مراتب أعلى ، ودرّب جنوداً أكثر . ثمة شهود قالوا إنهم رأوه ينفصل عن مسار الجيش صاعداً الجبال مع جنوده . في البداية كنت آمل بعودته ، ولكنني خلال سنتين اعتدت على غيابه . وعندما عرفت كم امرأة في اسطنبول ،

زوجها المحارب مفقود ، تقبلت الوضع .

في الليل نلتف ، الأولاد وأنا ، في فراشنا ونبكي . ولكي لا يبكيا أكذب عليهما مثلاً : قال فلان ، ولديه دليل ، إن أباكما سيعود قبل الربيع القادم . وتنتقل الكذبة من لسانهما إلى آذان الآخرين ، وتدور لتعود لي «بشارة» وأصدقها قبل الجميع .

كنت أسكن مع زوجي وأبيه أباظا الفقير ذي النفس السامية ، وأخيه الأصغر ذي العينين الخضراوين مثله في بيت مستأجر في منطقة (تشارشي قابي) . بدأت المتاعب بعد فقدان عمود البيت زوجي . عاد حَماي إلى عمله في هذا العمر بائعاً للمرايا ، بعد أن تركه إثر ثراء ابنه الأكبر بانتقاله من حرب إلى حرب . عندما ازدادت النقود التي كان يجلبها شقيق زوجي الأصغر ، حسن ، الموظف في مصلحة الضرائب ، إلى البيت ، صار يتراجل علينا . وخوفاً من عدم استطاعتهما دفع أجرة البيت كانا قد باعا الجارية التي تقوم بأعمال المنزل في سوق النخاسة ، وطلبا مني القيام بأعمال الطبخ والغسيل ، وحتى الذهاب إلى السوق وشراء الحاجيات مما كانت تعمله تلك الجارية . لم أقل : وهل أنا امرأة تعمل هذا ؟ ورصصت حجراً على قلبي ، وعملت كل تلك الأعمال . ولكن عندما لم يجد ابن حمي حسن جارية تدخل غرفته في الليل ، بدأ بمداهمة بابي ، احترت فيما سأفعل .

من المؤكد أنني أستطيع العودة إلى هنا ، أي إلى بيت أبي ، ولكن بما أن زوجي حسب القاضي وحسب القانون حي ، فبإمكانهما أذا أغضبتهما ألاّ يكتفيا بإعادتي إلى بيت حماي ، إلى بيت زوجي ، بل يمكنهما أن يهيناني ، ويهينا والدي بحجة أنه منعني من العودة . في الحقيقة كان يمكنني أن أمارس الجنس مع حسن الأكثر إنسانية من زوجي ، والذي أجده معقولاً ، وهو يهيم بي . ولكن القيام بهذا العمل لا يؤدي بي في النهاية إلى أن أكون زوجة له ،

بل – وقانا الله – يؤدي بي إلى أن أكون جارية . لا يرضيان بتمويت زوجي لدى القاضي خشية مطالبتي بحصتي من الميراث ، وعودتي مع الطفلين إلى بيت والدي . وإذا كان زوجي ليس ميتاً بالنسبة للقاضي فلا أستطيع الزواج من حسن طبعاً ، كما لا أستطيع الزواج من آخر أيضاً . لهذا فإن استمرار وضع زوجي «مفقوداً» خيار مناسب لهما ، لأنه يربطني بالبيت ، ويمنعني من الزواج . ولا تنسوا أنني أقوم بأعمالهما المنزلية ، وكل ما يتعلق بإعداد الطعام والغسيل ، وأحدهما يعشقني مثل المجانين .

الحل الأفضل لحماي وابنه هو زواجي من حسن ، ولكن لإنجاز هذا يجب تدبر الشهود ، ثم إقناع القاضي . إذا لم يعارض أقرب المقربين لزوجي المفقود : والده ، وأخوه اعتبار زوجي ميتاً ، وبإعطاء ثلاثة أو أربعة قروش لشهود زور يقولون للقاضي : رأيناه مات في الحرب ، سيقنع القاضي . المشكلة الأكبر هي إقناع حسن أنني لن أترك البيت بعد أن أصبح أرملة ، ولن أطالب بحقي من الإرث ، أو بمهر للزواج ، الأهم من هذا قبولي الزواج من حسن طوعياً . فهمت أن منح الثقة لحسن يتم بممارستي الجنس معه ، ولكن بالتأكيد يجب ألا أبدو أنني أعمل هذا لكي أطلّق ، بل لأنني أعشقه ، وأن أقنعه بهذا .

لو بذلت مجهوداً يمكنني أن أعشق حسن . هو أصغر من زوجي المفقود بثماني سنوات . عندما كان زوجي في البيت كنت أشعر بحسن كأخي ، وهذا قرّبني منه . أحب فيه تكوينه غير المثالي ، المصمم ، وحبه اللعب مع ولديّ ، وظهوره وهو يموت من العطش وأنا كأس شراب كرز بارد . ولكن عليّ بذل الكثير من أجل أن أعشق الرجل الذي جعلني غسّالة ، ولم يتردد بإرسالي إلى السوق لشراء الأغراض كالجاريات والعبيد . ولكن حسناً لم يمنحني هذه الفرصة أيام كنت أذهب إلى بيت والدي وأنظر إلى القدور

والصحون والفناجين وأبكي ، وفي الليل أحتضن الصغيرين وأنام معهما لكي ندعم بعضنا بعضاً . ولعدم إيمانه بإمكانية عشقي له ، وإمكانية تحقيق هذا الأمر الوحيد الضروري لزواجنا ، لعدم ثقته بنفسه أقدم على قلة الأدب . حاول عدة مرات مضايقتي ، تقبيلي ، مداعبتي بيديه ، وقال إن زوجي لن يعود أبداً ، وهددني ، وقال إنه سيقتلني ، وبكى مثل طفل ، ولأنه عجول وفوضوي ولم يعط فرصة للعشق النبيل والحقيقي الذي تحكي عنه الملاحم ، فهمت أنني لن أستطيع الزواج منه .

في إحدى الليالي ، عندما حاول الضغط على باب غرفتي التي أنام فيها مع ولديَ ، نهضتُ فوراً ، ودون اهتمام لخوف الأولاد صرخت بأعلى صوتي ، وقلت إن الجان الشريرة دخلت بيتنا . وبين الصراخ ومخاوف الجان أيقظت حماي ، وفضحت حسناً الذي لم يذهب عنه هوسه بعد أمام أبيه . بين صراخي اللاواعي ، وعباراتي غير المقنعة عن الجان أدرك العجوز العاقل ، بخجل ، الحقيقة المرة وهي أن ابنه ثمل ، واقترب من زوجة ابنه الآخر أم الولدين بقلة أدب . لم ينبس عندما قلت له إنني لن أنام ، وسأجلس وراء الباب لحماية ولديَ من الجان . في الصباح قَبِلَ الهزيمة عندما أعلنت أنني سأذهب مع الولدين إلى بيت أبي المريض لأرعاه مدة طويلة . أخذت الساعة المنبهة التي غنمها زوجي من حرب المجر ، وجلبها لي دون أن يبيعها ، والسوط المصنوع من عصب حصان عربي جموح ، والشطرنج العاجي التبريزي الذي يلعب الولدان فيه لعبة الحرب ، والشمعدان الذي غنمه من حرب نخجوان ، وتشاجرت معِه كثيراً لكي لا يبيعه كذكريات لحياتي الزوجية ، وذهبت إلى بيت أبي .

تركي بيت زوجي الغائب حوّل عقدة حسن نحوي وعشقه غير المحترم إلى يأس ، وحوله إلى رجل يحترق ولكنه محترم باعتقادي . ولمعرفته أن

والده لن يؤيده ، أحلَّ محل التهديد رسائل العشق المرسوم في زواياها طيور وأسود باكية وغزلان حزينة . لن أخفي أنني في الفترة الأخيرة كثيراً ما قرأت تلك الرسائل التي تظهر عالمه الخيالي الغني والذي لم أكتشفه عندما كنت أعيش معه تحت سقف واحد ، هذا إذا لم يكن له صديق نقاش وشاعر يكتب له الرسائل ويرسمها . رسائل حسن الأخيرة تقول إنه لن يستعبدني بأعمال البيت ، وأنه بدأ يكسب نقوداً كثيرة ؛ ولغته المحترمة والحلوة والمرحة ، ومشاجرات الولدين وطلباتهما غير المنتهية ، وشكايات والدي جعلت رأسي يغلي مثل المرجل ، ويمكن أن أكون فتحت النافذة لأقول للحياة «أوف» .

قبل أن تضع خيرية سفرة العشاء ، حضرت لأبي كأسَ مقوٍ من مغليً أفضل زهور التمر في الجزيرة العربية ، وخلطة مع ملعقة عسل وقليل من عصير الليمون . اقتربت منه بصمت ، في أثناء قراءته كتاب الروح ، وضعته أمامه كشبح دون أن أشعره بوجودي كما يريد تماماً .

سألني بصوت ضعيف ومهموم : «هل يتساقط الثلج ؟» وبسرعة فهمت أن هذه آخر ثلجة سيشهدها أبي المسكين في حياته .

* * *

١٠

أنا شجرة

أنا شجرة في غاية الوحدة . كلما هطل المطر أبكي . كرمى لله اصغوا لما سأحكيه لكم! اشربوا قهوتكم لتصحوا ، ولتفتح عيونكم ، وحملقوا لأحكي لكم سبب وحدتي .

١- يقولون ، إنني رسمت على عجل ، وعلى رق غير مصقول لأن الأستاذ المداح أراد خلفه رسم شجرة . صحيح أنه لا يوجد الآن أمامي شجرات فتية أخرى ، ولا أعشاب السهول ذات السبع أوراق ، ولا الصخور المتلألئة الشبيهة بالأنس أحياناً وبالجان أحياناً ، ولا الغيوم الصينية المتلوية في السماء ، أي أرض وسماء وخط أفق وحسب ، ولكن حكايتي أكثر تعقيداً .

٢- لو كنت شجرة فليس شرطاً أن أكون جزءاً من كتاب . ولكنني قلقة لأنني رسم شجرة ولست صفحة في كتاب . ولأنني لا أعبّر عن أمر ما في كتاب ، يخطر ببالي أنني سأعلق على جدار ويُسجد لي وأعبد كما يعمل الوثنيون والكفار . أخشى من سماع الشيوخ الأرضروميين ، إنني أفخر سراً بوضعي هذا ، وبعد ذلك أخاف جداً شاعرة بالخجل .

٣- السبب الأساسي لوحدتي هو عدم معرفتي لأي جزء سأشكله من الحكاية . سأكون جزءاً من حكاية ، ولكنني سقطت مثل ورقة شجرة . سأحكي لكم عن هذا :

حكاية سقوطي من الحكاية
كورقة ساقطة من شجرة

كان شاه العجم (طهماسب) أكبر أعداء العثمانيين من جهة ، وأكثر محبي النقش في العالم من جهة أخرى . قبل هذا بأربعين سنة عندما بدأ الخرف عنده ، برد حبه الأول للهو والشرب والموسيقى والشعر والنقش ، وتوقف عقله تماماً عندما ترك القهوة . وبوجه عابس وأوهام عجائز نقل بيت عرش العجم الذي كان يومئذ في تبريز إلى قزوين ليكون بعيداً عن جنود العثمانيين . في أحد الأيام بعد أن امتد به العمر أكثر سيطر عليه شعور أن الجان تلبسته ، تاب توبة قطعية عن الشرب ، واللهو والنقش . وإقلاعه عن القهوة دليل جيد على فقدانه صوابه .

وهكذا تفرّق المجلّدون والخطاطون والمذهّبون والنقاشون أصحاب الأيدي المعجزة الذي كانوا يعملون على مدى عشرين سنة أروع روائع العالم في تبريز ، تفرّق فراخ الحجل من مدينة إلى مدينة . طلب صاحب السمو السلطاني إبراهيم ميرزا ابن أخي الشاه طهماسب وصهره ألمع هؤلاء إلى مشهد التي كان واليها ، وأدخلهم نقش خانته ، وكلف جامي أكبر شعراء هِرات في زمن تيمور بكتابة سبع قصائد عن (هفت أورنگ) وبدأ بإعداد كتاب منقوش رائع . عندما سمع الشاه طهماسب المحب لابن أخيه ، والحاسد له والنادم على تزويجه ابنته غضب منه ، ولم يعد يطيقه ، فنقله من ولاية مشهد إلى ولاية قاين . بعد ذلك نقله غضباً إلى مدينة أصغر هي (سبزوار) . وهكذا توزع نقاشو مشهد وخطاطوها إلى مدن أخرى ، ودول أخرى ، ونقش خانات سلاطين وأمراء آخرين .

ولكن حدثت معجزة ، ولم يبق كتاب السلطان إبراهيم ميرزا معلقاً بسبب وجود كتبيَ حقيقي . ركب هذا الرجل حصانه وذهب إلى شيراز لأن

فيها أمهر مهرة التذهيب ، ومن هناك أخذ صفحتين إلى أفضل من يكتب خط النستعليق الموجود في أصفهان ، بعد ذلك قطع الجبال صاعداً إلى بخارى ليكلف أستاذ النقش الأكبر الذي ينقش لخان الأوزبك بتحديد مفردات الرسم ، ورسم الأشخاص ، ثم نزل إلى هرات وكلف أحد أساتذة النقش القدماء وهو شبه أعمى برسم تلوي الأوراق والأعشاب من الذاكرة ، ومر بخطاط آخر في هرات وكلفه بكتابة اللوحة التي تعلو باباً داخل الرسم بخط الرقعة الذهبي ، ثم عاد من جديد جنوباً إلى قاين ، وعرض الصفحات التي استطاع إنجاز قسم منها على السلطان إبراهيم .

أدركوا أن الكتاب لن ينتهي أبداً حسب هذا السير ، فاستأجروا سعاة من التتار ، وأعطي كل ساع صفحة من الكتاب مع رسالة تبين المطلوب من الفنان . وهكذا عَبَرَ السعاة الحاملون صفحات الكتاب طرق دولة العجم وخراسان ومملكة الأوزبك ، وما وراء النهر كلها . مع سرعة السعاة تسرَع إنجاز الكتاب . أحياناً تلتقي الصفحة التاسعة والخمسون مع الصفحة الثانية والستين بعد المائة في استراحة قوافل يسمع منها عواء الذئاب في ليلة ثلجية . ومن خلال تبادل الحديث يفهمان أنهما يعملان من أجل الكتاب نفسه ، فيخرج كل منهما صفحته ، ويعملان على إيجاد موقع بيت الشعر من الكتاب حسب كل منهما .

كنت سأغدو إحدى صفحات هذا الكتاب الذي علمت اليوم بأسى أنه انتهى . في ليلة شتوية باردة قطع اللصوص طريق الساعي التتاري الذي يحملني عابراً الممرات الصخرية مع الأسف . قبل كل شيء ضربوا التتاري المسكين ، ثم سلبوه حسب أصول اللصوص . بعد ذلك اغتصبوه ، ثم قتلوه دون رأفة . لهذا السبب لا أعرف من أية صفحة سقطت . أرجوكم أن تنظروا إليَ وتقولوا لي هذا : ترى هل كنت سأظلل مجنون ليلى الذي يزورها في

خيمتها بهينة راع ؟ أم كنت سألتقيه ليلاً لأحكي عن يأسه وروحه غير الواثقة ؟ كنت أود الهروب من العالم كله ، وعبور البحار ، وحمل الفاكهة والطيور في جزيرة لأرافق سعادة عاشقين وجدوا الراحة فيها! كنت أود تظليل الإسكندر في لحظاته الأخيرة عندما أصيب بضربة شمس في أثناء فتح ديار الهند ، ونزف أنفه ، ومات من هذا النزف . أم كنت سأفيد معنى حياة الأب وقوته عند تقديم نصائح العشق والحياة لابنه ؟ لأية حكاية كنتُ سأضيف معنى وظرافة ؟

أحد اللصوص الذين قتلوا الساعي أخذني ، وجاب بي مدناً وجبالاً ، أحياناً كان يقدر قيمتي ، ويبدي رقة النظر إلى رسم شجرة ويدرك أن النظر إليها يمنحه سعادة أكثر من النظر إلى شجرة حقيقية ، ولكنه كان يملّ مني لعدم معرفته الجزء الذي أكونه من الحكاية . لم يمزقني هذا الحرامي كما كنت أخشى وهو ينتقل بي من مدينة إلى أخرى ، وفي أحد الخانات بادلني بجرة خمر لرجل رقيق . كان هذا الرجل الرقيق المسكين ينظر إليّ على ضوء الشمعة في الليل ، ويبكي أحياناً . عندما مات هماً باعوا أغراضه . وبفضل الأستاذ المداح وصلت حتى ى ى ى . . . إسطنبول . والآن أنا سعيدة جداً لكوني هذا المساء هنا بينكم أنتم نقاشي سلطان السلاطين وخطاطيه أصحاب الأيدي الإعجازية ، والعيون الصقرية ، والإرادة الفولاذية ، والأذرع الظريفة ، والأرواح الحساسة ، وأعتز بهذا ، وكرمى لله أرجوكم ألا تصدقوا قول قائل إن أستاذ نقش رسمني على عجل لكي أعلق على الجدار .

انظروا ليس هنالك كذب ، ولا افتراء ، ولا تشبيهات فظة . لقد علق الأستاذ هنا رسم كلب غير مؤدب حكى لكم حكايته مساء البارحة ، وفي هذه الأثناء حكى لكم حكاية شيخ أرضرومي دعاه هصرت! الآن فهم محبو حضرة الشيخ نصرت الأرضرومي الموضوع خطأ . نحن هل نستطيع القول عن

الواعظ الكبير حضرة أفندينا : قرعة أبوه غير معروفة ؟ حاشا! وهل بخطر ببالنا هذا مجرد خاطر ؟ يا لهذه الفتنة! يا لفظاظة هذا التشبيه! وإذا كان من الممكن الخلط بين هصرت الأرضرومي ، ونصرت الأرضرومي ، فأنا سأحكي لكم حكاية شجرة الشيخ ندرت الأحول السيواسي .

الشيخ ندرت الأحول السيواسي يلعن حب الغلمان الحلوين ، وحب النقش ، إضافة إلى ذلك يقول : إن شرب القهوة من عمل الشيطان ، وشاربها في جهنم . إيه يا سيواسي! أنسيت كيف انحنى غصني الغليظ هذا ؟ سأحكي لكم . ولكن اقسموا أنكم لن تبوحوا بهذا لأحد ، الله يحمينا من الافتراء . فتحت عيني صباح يوم فوجدت واحداً ما شاء الله عليه مع رجل بطول مئذنة ، له مخالب سبع ، ضخم مثل عملاق ، صعدا غصني المذكور هذا ، واختفيا بين أوراقي الكبيرة ، وراح يعمل له عملة عدم المؤاخذة . ولكن في أثناء عمل العملاق الذي اعتقدت أنه شيطان للآخر ، كان يقبّل أذنه برقة ، ويهمس بها : «القهوة حرام . . . القهوة خطيئة . . . » من لا يؤمن بضرر القهوة فهو يؤمن بالشيطان وليس بتعاليم ديننا الجميل .

في النهاية سأعرج على ذكر النقاشين الإفرنج ، وليكن عبرة من يحاول التشبه بهم . ينقش النقاشون الأفرنج وجوه ملوكهم وخوارنتهم وسادتهم ، وحتى سيداتهم بشكل إذا نظرت إلى رسم ذلك الشخص يمكنك معرفته في الشارع . ونساء هؤلاء أصلاً يتجولن في الشوارع على هواهن ، وأنتم اعرفوا ما يحدث بعد هذا . ولكن هذا لم يكفهم فذهبوا إلى أبعد منه ، لا أقصد القوادة ، أقول في النقش .

كان هنالك أستاذ نقش إفرنجي كبير يسير في سهل إفرنجي مع معلم نقش كبير آخر ، ويتحدثان في المهارة والنقش . وجدا أمامهما غابة . قال الأكثر مهارة للآخر : «إن الرسم حسب الأصول الجديدة يتطلب مهارة بحيث

إذا رسمت إحدى أشجار هذه الغابة يستطيع محب الرسم الذي ينظر إلى الشجرة أن يأتي إلى هنا ، ويميز الشجرة المرسومة عن الأخريات» .

أنا رسم الشجرة الفقير الذي ترونه أشكر الله لأنني لم أُرسم بفكرة كهذه . ليس خوفاً من اعتقاد كلاب إسطنبول كلها أنني شجرة حقيقية ، ومجيئها للتبول عليَّ إذا رسمت حسب الأصول الإفرنجية ، بل لأنني لا أريد أن أكون الشجرة ذاتها ، بل معناها .

* * *

11

اسمي قوة

بدأ الثلج يندف في ساعة متأخرة ، واستمر حتى الصباح . طوال الليل وأنا أقرأ رسالة شكورة وأعيدها . قطعتُ الصعود والنزول في المنزل الفارغ والسير بعصبية في الغرفة مندساً قرب الشمعدان لكي أنظر في ضوئه المرتجف إلى ارتعاشة الغضب العصبية لحروف حبيبتي ، والتواءاتها من أجل الكذب عليّ ، وتقديمها الحروف مائلة من اليمين إلى اليسار . فجأة بدا أمام عيني فتح سحاب النافذة المفاجئ ، ووجه حبيبتي الذي ظهر أمامي ، وابتسامتها المكدرة . عندما رأيت وجهها الحقيقي نسيت الوجوه التي تخيلتها لها على مدى ست أو سبع السنوات الأخيرة ، وغيّرتُها دائماً موسعاً فمها الكرزي اللون .

في الليل انسقت حيناً وراء خيالات الزواج . لم أشتبه بخيالي المساني وبحصولي على رد إيجابي أيضاً . تزوجنا بسعادة كبيرة ، ولكن سعادتي تتحطم في بيت خيالي ذي الدرج . لم أستطع إيجاد عمل جيد ، وأتقاتل مع زوجتي ، ولا أستطيع فرض كلمتي عليها .

عندما فهمت أن قسم أضرار الزواج من «إحياء العلوم» للغزالي ، الذي قرأته في ليالي الجزيرة العربية البكر ، هو الذي جرفني إلى هذه الخيالات السوداوية ، خطر ببالي في منتصف الليل أن هنالك حديثاً أطول عن فوائد

الزواج في الصفحات نفسها . ولكن على الرغم من قراءتي المتعددة ، والضغط على ذاكرتي لم أتذكر سوى فاندتين فقط ، الأولى تنظيم أعمال البيت إثر الزواج . ولكن في بيت خيالي ذي الدرج ليس ثمة تنظيم . والثانية : التخلص من العادة السرية واللهاث وراء القوادين في الأزقة المظلمة مثل المجرمين .

فكرة التخلص هذه أحضرت إلى عقلي ممارسة العادة السرية في ساعة متأخرة . وبحاجة بريئة ، ولكي أدفع عني هذه الفكرة الملحاحة ، انزويت في زاوية الغرفة باعتياد ولكن بعد مدة فهمت أنني لن أستطيع الاستمناء . أصبحتُ عاشقاً من جديد بعد اثنتي عشرة سنة .

دفع هذا الدليل الثابت إلى قلبي هيجاناً وخوفاً جعلني أسير في الغرفة مرتجفاً مثل ضوء الشمعة . إذا كانت ستخرج شكورة إلى النافذة ، وترى نفسها ، فما الضرورة للتصرف بمنطق معاكس تماماً ؟ إذا كانت ابنته ترفضني إلى هذا الحد ، فلماذا دعاني زوج خالتي ؟ هل يلعب الأب والبنت لعبة عليَّ ؟ أمشي صاعداً ونازلاً بين الغرفة والباب والجدار ، وخشب الأرض يحاول الإجابة على أسئلتي صريراً ، فأشعر أنه يتأتئ مثلي .

نظرت إلى الرسم الذي رسمته قبل سنين طويلة والمعبر عن رؤية شيرين رسمَ خسرو المعلق على غصن الشجرة وتعلقها به . لقد رسمتُه بإيحاء كتاب وسط وصل من تبريز إلى زوج خالتي فيه الموقف نفسه . لم يخجلني النظر إلى الرسم كما كان يحدث لي في السنوات التالية لرسمه عندما أتذكره (بسبب سذاجة الرسم وإعلان العشق) كما لم يُعدني إلى ذكريات الشباب السعيدة . ومع بزوغ الصباح سيطر عقلي على الوضع ، ورأيت أن إعادة شكورة الرسمَ حملةً ماهرة في لعبة شطرنج الحب . جلست ، وكتبت رسالة جوابية لشكورة في ضوء الشمعدان .

بعد قليل من النوم دسست الرسالة في صدري ، خرجت إلى الأزقة ، ومشيت طويلاً . لقد وسّع الثلج أزقة إسطنبول . وخلّص المدينة من ازدحامها . كل شيء صامت وثابت كما كان في طفولتي . تهيأ لي أن الغربان غطت أسطح اسطنبول وقبابها وحدائقها في الأيام الثلجية كما كنت أعتقد أيام طفولتي . أسير بسرعة مستمعاً إلى وقع أقدامي على الثلج ، ومتأملاً البخار المتصاعد من فمي ، منفعلاً بفكرة احتمال كون نقش خانة القصر التي طلب مني زوج خالتي الذهاب إليها صامتة كالأزقة . بعثت مع طفل خبراً إلى إستر التي ستوصل الرسالة إلى شكورة قبل دخولي حي اليهود ، وحددت مكاناً للقاء قبل صلاة الظهر .

ذهبتُ إلى مبنى النقش خانة خلف أياصوفيا مبكراً . لم يتغير شيء في المبنى الذي كنت أدخله مع زوج خالتي عندما كنت تلميذه أيام طفولتي سوى الجليد المتدلي من أطراف السقف .

عبرتُ وراء تلميذ شاب وسيم وسط رائحة الصمغ ومسحوق الغراء بين معلّمي التجليد المصروعين ومعلّمي النقش المتحدبة ظهورهم في عمر مبكر ، والشباب الذين يخلطون الأصباغ في كؤوس على ركبهم دون النظر إليها لتعلق عيونهم بألسنة لهب الموقد بكدر . رأيت في إحدى الزوايا عجوزاً يلوّن بيضة نعام بدقة في حضنه ، وآخر ينقش درجاً بفرح ، وتلميذاً شاباً ينظر إليهما باحترام . عبر باب مفتوح رأيت معلمين يؤنبون تلاميذَ شباناً للأخطاء التي ارتكبوها مقرّبين وجوههم الحمراء حتى تكاد تلامس الورق لإفهامهم موضع الخطأ . وفي حجرة أخرى ثمة تلميذ حزين ومهموم نسي الأصباغَ والأوراقَ والنقشَ متطلعاً إلى الزقاق الذي مشيتُ فيه منفعلاً قبل قليل . نظر إليَ النقاشون ، الذين ينسخون نقوشاً أو يحضرون قوالبَ وألواناً ويبرون أقلاماً أمام أبواب الحجرات المفتوحة ، بعداء كوني غريباً .

صعدنا الدرج ذا الجليد . سرنا تحت الرواق الذي يلف الطابق الثاني من جهاته الأربع . في الباحة الداخلية المغطاة بالثلج في الأسفل ثمة تلميذان فتيّان يرتجفان من البرد على الرغم من ارتدائهما جبتين من قماش العباءات السميك ، ينتظران أمراً ما . لعلها عقوبة . تذكرت العقوبات والضرب على باطن الأقدام بالعصي حتى تدمى عقوبةً للتلاميذ الكسالى أو مبددي الأصباغ الغالية الثمن .

دخلنا إلى غرفة دافئة . رأيتُ نقاشين جالسين على ركبهم براحة ، ولكنهم ليسوا المعلمين الذين أتخيلهم ، هم شبان تخرجوا من تعلم الصنعة للتو . كانت هذه الغرفة تثير فيَ هيجاناً واحتراماً شديدين في يوم ما ، ولأن النقاشين المعلمين الذين أطلق عليهم الأستاذ المعلم النقاش عثمان أسماءَ مستعارة يعملون في بيوتهم ، فقد فقدتْ صفتها باعتبارها نقش خانة سلطانية كبيرة وغنية ، وهي الآن تشبه غرفة كبيرة لاستراحة قوافل في الشرق وسط الجبال القفراء .

بدا لي الأستاذ عثمان كبير النقاشين شبحاً أكثر مما هو ظل . وهذه أول مرة أراه فيها بعد خمس عشرة سنة . كلما حلمت بالنقش والرسم في أسفاري تبدى الأستاذ الكبير في خيالي معجباً ببهزاد ممتزجاً مع أرواح الحياة الآخرة بلباسه الأبيض وراء النافذة المطلة على أياصوفيا وسط بياض الثلج . قبلت يده ، ورأيتها مغطاة بالشامات ، وذكّرته بنفسي . قلت له : كان زوج الخالة يجلبني إلى هذا المكان في صغري ، ولكنني اخترت الوظيفة وخرجت ، وقضيت عمري على الطرق وفي مدن الشرق كاتباً ومحاسباً لدى الباشاوات ، وتعرفت مع سرهاد باشا والباشاوات الآخرين على خطاطي تبريز ونقاشيها ، وكلّفتهم بتحضير الكتب ، وزرت بغداد وحلب وڤان وتفليس ، وشهدت حروباً .

قال : «آه . . . تفليس » ثم أضاف ناظراً إلى الضوء المنبعث من الحديقة المغطاة بالثلج عبر النايلون : «هل يتساقط الثلج هناك الآن ؟ »

كان يتصرف مثل أساتذة العجم القدماء الذين فقدوا بصرهم في أثناء التمرس في الفن والعائشين حياة نصفها ولاية ونصفها خرف والقاصين ملاحمَ لا تنتهي ، ولكنني انتبهت بسرعة أنه يكره بشدة زوج خالتي ويشتبه بي . قلت له إن الثلج لا يتساقط في صحراء العرب كما عند جامع أياصوفيا ، وإنما يتساقط في المخيلة . وحكيت له عن النسوة المغنيات أغاني بلون الأزهار وهن يغسلن الثياب عندما يتساقط الثلج على قلعة تفليس ، وعن الأولاد الذين يخبئون المثلجات تحت المخدة لأيام الصيف .

قال : «احك لنا عما يرسمه الرسامون وينقشه النقاشون في البلاد التي ذهبت إليها »

رَفَعَ رأسَه النقاشُ الشاب الذي كان غارقاً في أحلامه السعيدة وهو يسطِّر صفحة في زاوية الغرفة ، ونظر إليَّ مع الآخرين كأنه يقول لي : احك الحكاية الأكثر واقعية الآن . هؤلاء الناس الذين لا يعرفون غالباً من هو بقال حيّهم ، ولماذا هو مخاصم جاره الخضري ، وبكم أوقية الخبز ، يعرفون من ينقش وماذا في تبريز وقزوين وشيراز وبغداد ، وكم دفع الخان الفلاني والشاه أو السلطان أو الأمير العلاني من أجل كتاب . ولا أشكّ أن آخر الشائعات تنتشر بين هؤلاء مثل الوباء ، وسمعوها مرات عديدة ، ولكن على الرغم من هذا حكيت لهم لأنني قادم من هناك ، من الشرق ، من دولة العجم حيث تحارب الجيوش ويمسك الأمراء بخناق بعضهم البعض ويسلبون المدن ويحرقونها ، ويُحكى يومياً عن الحرب والسلم ، ويُكتب أفضل الشعر على مدى عصور ، ويعمل كذلك أفضل الرسم والنقش .

قلت : «في سنواته الأخيرة نسي الشاه طهماسب الذي جلس على

العرش اثنتين وخمسين سنة عشق الكتب والنقش والرسم ، وأدار ظهره للشعراء والنقاشين والخطاطين ، واعتكف على العبادة قبل أن يموت ، وجلس مكانه ابنه إسماعيل . ولأن أباه يعرف أنه مزاجيّ وميّال للشجار أبقى عليه سجيناً عشرين سنة . إثر جلوسه على العرش فوراً سعر ، وأمر بخنقِ أخوته وفقء عيون بعضهم لإبعادهم عنه . ولكن أعداءه في النهاية خدّروه وسمموه وتخلصوا منه ، وأجلسوا مكانه أخاه الأكبر ذي نصف العقل محمد خدا بنده . وفي عهده تمرد أبناء الشاه وأخوته والولاة والأوزبك مشعلين حرباً فيما بينهم من جهة ، وضد سرهاد باشانا من جهة أخرى ، وهذا جعل دولة العجم عاجّة بالغبار والدخان ، ولا طاقة للشاه الحالي بتكتيب كتاب أو ترسيمه لأنه لا نقود لديه ولا عقل ، وهو شبه أعمى . وهكذا أصبح نقاشو قزوين وهرات الأسطوريون ومبدعو الروائع في نقش خانة الشاه طهماسب ، وصناعهم ، والرسامون الذين تجعل فراشيهم الخيول المرسومة تنطلق على نعالها الأربعة والفراشات يطرن من الصفحات ، والملونون ، ومعلمو التجليد ، والخطاطون عاطلين عن العمل ليس معهم شروى نقير ، ومشردين ، بعضهم هاجر إلى الشمال عند الشيبانيين ، وبعضهم إلى الهند ، وبعضهم إلى هنا – إسطنبول – وبعضهم عمل في أعمال أخرى مستهلكاً نفسه وكرامته ، وبعضهم ذهب إلى أحد الأمراء الأبناء أو الولاة الصغار المتعادين وبدأ بإعداد كتب بقدّ الكف ذات أربع أو خمس صفحات مرسومة ، وانتشرت الكتب المنقوشة من قفا اليد ، المكتوبة على عجل إرضاءً لذوق الجنود العاديين والباشاوات الفظين والأمراء المدللين » .

سأل الأستاذ عثمان : « بكم تباع ؟ »

« يقال : إن صادقي بيك العظيم رسم عجائب المخلوقات لفارسٍ أوزبكي بأربعين ذهبية فقط . رأيت في خيمة باشا فظ عائد إلى أرضروم من حملة في

الشرق كتاباً مرقعاً فيه رسوم للأستاذ الكبير سياووش مع رسوم خلاعية . بعض الأساتذة الكبار الذين لم يستطيعوا ترك الرسم يعملون رسوماً فردية لا تشكل جزءاً من حكاية ، ويبيعونها . وعندما تنظر إلى ذلك الرسم المفرد ، لا تقول : أي موقف يمثل ، ومن أية حكاية ؟ بل تنظر إليه من أجل إرضاء ذوق النظر ، ويقال مثلاً : يا سلام ، إنه حصان حقيقي ، ما أجمله ، وتدفع النقود للرسام . تطلب رسوم الحرب ورسوم المنايكة كثيراً . وقد نزل سعر موقف حربي مزدحم إلى ثلاثمائة قرش أبيض وليس هنالك من يطلب تقريباً . بعضهم يرسم على ورق غير مصقول وغير ملمّع ، وحتى لا يدهن أصباغاً . ويرسم أحياناً بالأسود والأبيض لتقديم رسوم أرخص وإيجاد مشترين » .

قال الأستاذ عثمان : « كان لدي مذهّب ماهر نفسه مفعمة بالسعادة يعمل بظرافة فائقة فناديناه ظريف أفندي . ولكن هذا أيضاً تركنا وذهب . مضت ستة أيام ولم يظهر . سرٌّ مخبوء » .

قلت : « كيف لإنسان أن يترك النقش خانة هذه والبيت الأبوي الحنون هذا ؟ »

قال الأستاذ عثمان : « أربعة شبان أساتذة ربّيتهم مذ كانوا صنّاعاً هم فراشة وزيتون ولقلق وظريف يعملون في بيوتهم بأمر سلطاننا » .

يبدو أن هذا لإراحة النقش خانة بشغلها في السرنامة . لم يفتح السلطان هذه المرة زاوية خاصة في ساحة القصر لنقاشيه من أجل كتاب خاص ، وأمر بأن يعملوا في بيوتهم . عندما خطر ببالي أن أمر السلطان هذا صدر بخصوص كتاب زوج خالتي سكتُّ . كم كان يتكلم الأستاذ عثمان بالألغاز ؟ .

نادى نقاشاً شاحباً محدباً : «نوري أفندي! اعط وضعية للچلبي(*) قرة ..!»

«الوضعية» هي مراسم تعمل كل شهرين في وقت عصيب هو زيارة سلطاننا إلى النقش خانة لمتابعة ما يجري عن قرب برفقة خازن المال ومؤرخ السلطان لقمان وكبير النقاشين الأستاذ عثمان لتقديم شرح عن الكتاب الذي يعمله النقاشون - مذهبين ورسامين وملونين ومسطِّرين - وعن الجزء الذي يعمل عليه النقاشون المعلمون والمذهبون المتعددو المهارات بعدد أصابع اليدين .

ولأن لقمان أفندي مؤرخ السلطان وكاتب أغلب الكتب المنقوشة طريحُ الفراش لا يستطيع الخروج من البيت وكبير النقاشين عثمان ضائع وسط أبخرة الغضب والقطيعة دائماً والنقاشين ذوي الأسماء المستعارة : فراشة وزيتون ولقلق وظريف يعملون في بيوتهم ، وعدم تحقيق النقش خانة إثارة طفلية لسلطاننا . لم تعد تُنفَذ هذه المراسم ، وأزعجني عمل تقليد لها . لم يعش نوري أفندي حياته مثل أكثر النقاشين ، وكبر بالسن دون أن يصبح أستاذاً في الفن ، ولكنه لم يحدودب ظهره لانحنائه على اللوح الخشبي دون جدوى ، فقد انتبه دائماً لما يجري في النقش خانة ولمن يعمل الصفحة الأجمل .

وهكذا لأول مرة استعرضت منفعلاً صفحات السرنامة الأسطورية التي تحكي عن وقائع احتفالات ختان الأمراء أولاد سلطاننا . سمعت بحكاية احتفالات الختان هذه التي استمرت اثنين وخمسين يوماً ، وشاركتْ فيها إسطنبول بمهنييها كلهم وعروض باعتها عندما كنت في بلاد العجم ، كما

(*) چلبي : لقب بمعنى محترم أو سيد .

سمعت بالكتاب الذي يحكي عنها وهو ماز ال في طور الإعداد .

في الرسم الأول الموضوع أمامي يظهر أساس العالم سلطاننا جالساً في شرفة قصر إبراهيم باشا متابعاً الاحتفالات الجارية تحته في ساحة الخيول بنظرة متسامحة . وإذا كان وجهه لا يتضمن تفاصيل تميّزه عن الآخرين ولكنه مرسوم بشكل جيد ومحترم . وفي رسم مؤلف من صفحتين هنالك على يمين سلطاننا الوزراء والباشاوات وسفراء العجم والتتار والإفرنج والبندقية في النوافذ والأكشاك الخاصة . ولأنهم ليسوا سلاطين فقد رُسموا على عجل ودون تركيز ناظرين جميعاً إلى الحركة في الساحة وعيونهم ليست على الهدف . وفي الرسوم الأخرى رأيت التوزيع نفسه مكرراً على الرغم من تغيير زخارف الجدران والأشجار والقرميد والألوان . عندما ينهي الخطاطون الكتابة وتستكمل الرسوم وتُجلد السرنامة فإن القارئ المقلب صفحاتها يجد موقفاً واحداً ، وتحت نظرة السلطان ومدعويه نفسها نقوش أخرى وحركة متجددة في ساحة الخيل .

أنا أيضاً رأيتها : ثمة متدافعون للحصول على واحد من مئات صحون الأرز وخائفون من الأرانب والطيور المنطلقة من داخل عجل مشوي عندما هرعوا إليه لنهش قطع منه . وعلى عربة عليها قفص مارة من أمام سلطاننا ثمة رجل ممدد عاري الصدر عليه سندان ذي رؤوس مختلفة الأشكال ومعلم يطرق النحاس دون إصابة الرجل العاري . ورأيت الزجاجين على عربات يشتغلون على الزجاج قرنفلاً وسرواً ، وثمة جِمال محملة بأكياس السكر وبأقفاص فيها ببغاوات من السكر وبائعو السكر يلقون شعراً ، هنالك صانع أقفال عجوز يعرض أنواعاً من الأقفال ذات اللسان والمعلقة وذات الحافظة المعدنية ، وذات المسننات مشتكياً من سوء الزمان الجديد والأبواب الجديدة ، والجميع يمرون من أمام سلطاننا . يعرض معلمو النقش فراشة ولقلق

وزيتون لاعبي الخفة : حاو يمشّي بيضاً على عصا طويلة وكأنها مرمر عريض فلا يسقط ، وبجانبه ضارب رق . عَملَ السيف علي باشا قبطان البحار من الكفار الذين أسرهم جبلاً طينياً ووضعه على العربة ، وفجر البارود وسط الجبل أمام السلطان عارضاً كيف جعل مملكة الكفار بمدافعها تئن . ورأيت قصابين حليقي اللحى والشوارب بوجوه نسائية وألبسة بألون الورد والباذنجان مبتسمين للخراف الزهرية اللون المذبوحة والمسلوخة . يُثار أسد مكبّل بالسلاسل أمام سلطاننا ويُسخر منه فتدمع عيناه دماً من الغضب وسط تصفيق المتفرجين . وفي صفحة أخرى ثمة أسد يمثل الإسلام يطرد خنزيراً ملوناً بالزهري والرمادي يمثل الكفار . تأملت كثيراً الرسم الرائع الذي يتضمن دكان حلاق منصوباً على عربة مارة أمام السلطان ، والحلاق متعلق بالسقف يحلق للزبون وصانعه ممسك وعاء الصابون المعطر الفضي والمرآة مرتدٍ ألبسة حمراء منتظر أخذ البقشيش ، ثم سألت عن نقّاشها المدهش .

«ليست هوية النقاش هي المهمة ، بل دعوة جمال الرسم الإنسانَ إلى إثراء حياته والحب احترام الألوان التي خلقها الله وعالم الإنسان الداخلي والإيمان»

هل فهم النقاش نوري أن زوج خالتي أرسلني إلى هنا للتحقيق فتصرف بحذر ، أم أنه أكثر رقة مما توقعت ، أم أنه يكرر كلمات كبير النقاشين الأستاذ عثمان ؟

سألتُ : «هل ظريف أفندي عمل كل هذا التذهيب ؟ من يذهّب مكانه الآن ؟»

بدأ يُسمع صراخ ولد من الباب المفتوح على الفسحة المطلة على الباحة الداخلية . احتمال كبير أنه وجد في جيب أحد المعزولين مسحوقاً لماعاً أو ورق ذهب ملفوف ، ويبدو أن الاثنين المنتظرين المرتجفين من البرد في

الأسفل قبل قليل قد بُطحا للفلقة . تراكض النقاشون الشباب المتحينين الفرصة للتعليق على الآخرين نحو الباب للفرجة .

قال نوري أفندي محتاطاً : «أمر أستاذنا عثمان بتلوين أرض الساحة بلون وردي فاتح ، وريثما يُنهونها يكون ظريف أفندي قد عاد وأنهى تذهيب هاتين الصفحتين إن شاء الله . طلب أستاذنا النقاش عثمان من ظريف أفندي تلوين أرضية ساحة الخيل بلون مختلف في كل رسم : وردي كاشف ، أخضر هندي ، أصفر المرارة ، لون سقط الإوز . لأن عين الناظر من الرسم الأول تدرك أن هذا المكان أرض من لون التراب ، وهي تريد في الرسم الثاني والثالث ألواناً أخرى للتسلية . النقش يُعمل لجعل الصفحة أمتع»

رأينا في إحدى الزوايا ورقة مرسومة تركها تلميذ متخرج . قيل إنه يعمل على صفحة واحدة من أجل (نصرنامة) معبراً عن انطلاق الأسطول إلى الحرب ، لكنه يبدو أنه ركض إلى الفرجة عندما سمع صراخ أصدقائه المتمزقة أقدامهم من أسفلها تحت ضرب العصي . يبدو أن الأسطول الذي كوّنه من تكرار رسم عن قالب سفينة لا علاقة له بالبحر ، والتركيب المصطنع ، وعدم وجود الهواء على الأشرعة غير ناجم عن القالب بل عن عدم موهبة النقاش الشاب . القالب مأخوذ من كتاب قديم لم أعرفه . ورأيت مع الأسف أنه منزوع بشكل وحشي من كتاب مرقع . يبدو أن الأستاذ عثمان لم يعد يعير اهتماماً لأشياء كهذه .

عندما وصلنا إلى لوح عمله قال نوري أفندي مباهياً إنه أنهى تذهيب طغراء عمل عليها منذ ثلاثة أسابيع . نظرت باحترام إلى تذهيب الطغراء المرسومة على ورقة فارغة لكي لا يفهم إلى من سترسل ولأي هدف . أعرف أن كثيراً من الباشاوات والسلاطين في الشرق تخلوا عن تمردهم بعد أن شاهدوا جمال طغراء السلطان الممتلئة أصالة وقوة .

بعد ذلك رأينا آخر الروائع التي أنهاها الخطاط جمال . مررنا عليها بسرعة لكي لا نؤيد أعداء النقش القائلين إن أصل الفن هو الخط ، وليس النقش سوى أداة لإبراز الخط .

انزعج المسطّر ناصر لأنني رممت رسم خسرو وشيرين المستحمةِ عاريةً وهي صفحة من خماسية نظامي العائدة إلى عهد أبناء تيمور .

نقاش في الثانية والتسعين من عمره ليس لديه سوى حكاية تقبيله يد الأستاذ بهزاد في تبريز قبل ستين سنة ، ويدّعي أن الأستاذ الكبير المعجزة كان أعمى وثملاً ، وأرانا علبة الأقلام التي سيهديها إلى سلطاننا بمناسبة العيد بعد ثلاثة أشهر ، وقد زخرفها بيديه المرتجفتين .

خيّم الصمت على النقش خانة التي يتواجد في غرفها الضيقة في الطابق السفلي حوالي ثمانين تلميذاً ومتدرباً ونقاشاً . كثيراً ما سمعت شبيه صمت بعد القتلة هذا ، يُقطع أحياناً بقهقهة مخربة للأعصاب أو ممازحة أو مشاغبة تذكّر بسنوات العمل تلميذاً ، أو بأنين ما قبل البكاء ، وهذا يذكر النقاشين المعلمين بالضرب الذي ضربوه أيام كانوا تلاميذ . قال لي المعلم العجوز شبه الأعمى الذي بلغ الثانية والتسعين من عمره أمراً أعجبني وأشعرني بأن الحروب الناشبة هنا كلها وانقلاب الأمور رأساً على عقب تبين أن كل شيء في البعيد ينتهي ، وأن صمتاً كهذا سيخيم قبل قيام القيامة .

النقش هو صمت العقل وموسيقى العين .

عندما قبلت يد الأستاذ عثمان مودعاً لم أشعر بالاحترام له فقط ، بل شعرت بما قَلَبَ روحي رأساً على عقب : إنه شعور الإعجاب بوليٍّ ممزوج بالشفقة . شعور غريب بالذنب . لعل هذا ناتج عن منافسة زوج خالتي له ، بعمله سراً وعلناً على تقليد أساليب الأساتذة الإفرنج .

في الوقت نفسه قررت أن هذه هي المرة الأخيرة التي أرى فيها الأستاذ

الكبير في الحياة ، فسألته منهمكاً بتحبيبه بنفسي وإسعاده :

« ما الذي يميّز النقاش الخاص عن النقاش العادي ؟ »

كنت أعتقد أن هذا السؤال نوع من المحاباة ، وأن كبير النقاشين معتاد على هذا النوع من الأسئلة ، وأنه سيجيب إجابة عادية ، ونسيني منذ هذه اللحظة .

قال بجدية : « ليس هنالك مقياس واحد للتمييز بين النقاش الخاص والنقاش غير الماهر وغير المؤمن . هذا يتغيّر حسب الوقت . من المهم تحديد أخلاق النقاش ومهارته ضد المخاطر التي تهدد فننا . ولأفهم مقدار خصوصية النقاش الشاب أسأله عن ثلاثة أمور »

« ما هي ؟ »

« يماشي العادة الجديدة بتأثير الصينيين والأفرنج ، ولكن هل يقول : ليكن لي أصولي وأسلوبي ؟ هل يريد أن يكون له أداء مختلف عن الجميع معبّراً عن هذا بوضع توقيعه في مكان ما من الرسم ؟ من أجل هذا أسأله عن التوقيع والأسلوب أولاً »

وباحترام سألته قائلاً : « بعد ذلك ؟ »

« بعد موت الأشخاص والسلاطين طالبي الكتب وانتقال المجلدات من يد إلى يد ، بماذا يشعر النقاش إذا مُزِّق كتابه ، واستخدمت رسومه في كتب أخرى ؟ أريد معرفة هذا . إنه أمر حساس بحيث لا يمكن التعبير عنه بحزن أو فرح . لهذا السبب أسأل النقاش عن الزمن ، عن زمن النقش والزمن الذي خلقه الله . هل تفهم يا بني ؟ »

لا ، ولكنني لم أقل هذا ، وسألته قائلاً : « الثالث ؟ »

قال الأستاذ النقاش الكبير : « الثالث هو العمى! » ثم سكت وكأن هذا واضح لا يحتاج تفسيراً .

قلت خجلاً : «أي عمى»

«عمى الصمت . إذا دمجت ما قلته أولاً وثانياً يظهر لك العمى . إنه أعمق ما في النقش . في العمى الذي فرضه الله رؤية الواضح»

سكتُ ، وخرجت ، ونزلت الدرج المتجلد بهدوء . سأسأل الأسئلة الثلاثة الكبرى التي طرحها الأستاذ الكبير على فراشة وزيتون ولقلق ، وليس لفتح حديث فقط ، بل لفهم أولئك الذين أصبحوا أساطيرَ وهم أحياء بعمري .

لم أذهب فوراً إلى بيوت معلمي النقش . التقيت إستر قرب حي اليهود في مكان السوق الأسبوعي المطل على التقاء البوسفور بالخليج من علٍ . ووسط ازدحام الإماء ونساء الأحياء الفقيرة المرتديات قفطانات واسعة وكالحة ، والغائصين في الجزر والسفرجل والبصل وباقات الفجل . كانت إستر متلامعة بردائها اليهودي الزهري وجسمها المتحرك ، وحنكها غير المتوقف وعينيها اللتين تغزلان في كل الاتجاهات ، وحاجبيها المتحركين المرسلين الإشارات .

أعطيتها الرسالة وبحركات ماهرة وسرية دستها في سروالها وكأن السوق كله يراقبنا . قالت إن شكورة تفكر بي . أخذت بقشيشها ، وإثر قولي : «بسرعة ، خذيه فوراً» أشارت إلى صرتها معبرة عن كثرة شغلها الآن ، وعدم استطاعتها إيصال الرسالة حتى وقت الظهيرة . لهذا قلت لها أن تخبر شكورة عن ذهابي لمقابلة الأساتذة الثلاثة الشباب العظماء .

* * *

١٣

ينادونني فراشة

كان الوقت قبل أذان الظهر . قرع الباب . فتحت فرأيت السيد قرة . بقي فترة بيننا أيام كنا تلاميذ . تعانقنا . كنت فضولياً لمعرفة إذا كان يجلب خبراً من زوج خالته ، فقال إنه جاء لرؤية الصفحات التي أنقشها ، ومن أجل الصداقة وإنه سيمتحنني باسم سلطاننا بطرح سؤال .

قلت : « حسنٌ ، ما هو السؤال ؟ » فقال : « حسنٌ »

الأسلوب والتوقيع

قلت إنه مع ازدياد غير الأصليين الناقشين من أجل المال والشهرة لا من أجل المتعة البصرية والإيمان ، سنرى مزيداً من البشاعة والحرص غير المركز على قضية الأسلوب والتوقيع . لا أقول هذا إيماناً ، بل لأن الأسس والأصول تقول هذا . الموهبة الحقيقية والمهارة لا يخربها حبّ الذهب والشهرة . إذا كان من الضرورة قول الحق فأنا أرى أن المال والشهرة من حق صاحب المهارة ، وهذا يؤدي به إلى العشق . ولكنني إذا قلت هذا فإن جماعة النقاشين ، والنقاشين المسعورين بالغيرة سيهاجمونني لأنني فتحت مجالاً بكلامي ، وسأضطر لرسم شجرة على حبة أرز من أجل إثبات أنني أحب هذا العمل أكثر منهم . أنا أعرف أنه بتأثير بعض الأساتذة الصينيين المساكين المنحرفين

عن طريقهم بانخداعهم بالرسوم ذات التأثير الأفرنجي التي نقلها الخوارنة اليسوعيون من الغرب وُلد هوس الشخصية والتوقيع في الأسلوب . ووصل إلى عند أنفنا . سأحكي لكم ثلاث حكايات يمكن أن تكون عبرة في هذا الموضوع .

مثل الأساليب الثلاثة والتوقيع

ألف

في أحد الأيام كان هنالك خان شاب يحب النقش والرسم يعيش في قلعته وسط جبال شمال هرات . أحبّ هذا الخان امرأة واحدة فقط من نساء حرمه . وهذه الفتاة جميلة الجميلات تتارية عشقت الخان الذي كان يحبها بجنون . كانا يمارسان الحب حتى الصباح ، ويتصببان عرقاً ، ويسعدان إلى حد تمنيهما استمرار الحياة على هذا المنوال ، . واكتشفا أن أفضل الطرق لتحقيق أمنيتهما هذه هي فتح الكتب والنظر لساعات وأيام دون انقطاع إلى الروائع والرسوم التي لا يعيبها شيء . وكلما كرر أحدهما للآخر حكاية مطابقة لحكايتهما ، ونظرا إلى رسومها التي لا يعيبها شيء شعرا بتوقف الزمن وسعادة العصر الذهبي المحكي عنه في الحكاية . في نقش خانة الخان ثمة نقّاش معلّم معلّمين يعمل الرسوم نفسها ، ويكرر نقش صفحات الكتب مرات ومرات بالكمال نفسه . اعتاد معلم النقش على رسم الخان وجميلة الجميلات التتارية مكان العاشقين على صفحات الكتب مثل موقف شعور فرهاد بالألم نتيجة عشقه لشيرين ، ونظرات الإعجاب والشوق المتبادلة بين ليلى والمجنون عند لقائهما ، ونظرات المعنى المزدوج التي يتبادلها خسرو وشيرين في حدائق حكائية مثل الجنة . عندما ينظر الخان وحبيبته إلى هذه الرسوم يؤمنان بأن سعادتهما لن تنتهي ، ويغرقان معلم النقش بالمديح

والذهب . كثرة المديح والذهب أخرجت معلم النقش عن الطريق الصحيح ، ونتيجة وسوسة الشيطان نسي أنه مدين لأساتذة النقش بكمال رسومه ، واعتد بغرور أن إضافته شيئاً من شخصيته إلى الرسم يجعله أكثر إعجاباً . ولكن الخان وحبيبته وجدا أن تجديدات النقاش هذه ، وآثار الأسلوب الشخصي عيوب . عندما شعر الخان بتشويش سعادته إثر النظر مطولاً إلى الرسوم بدأ يغار من الجميلة التتارية لأنها هي المرسومة فيها ، بعد ذلك ضاجع جارية أخرى ليجعلها تغار . كدر الجميلة التتارية سماع هذا الأمر من ناقلات القيل والقال في جناح الحرم فشنقت نفسها على شجرة الأرز في باحة هذا القسم . وعندما انتبه الخان إلى الخطأ الذي ارتكبه النقاش ، وعرف أنه جاء نتيجة تعلق هذا النقاش بالأسلوب ، قلع عينيه في اليوم نفسه الذي وسوس فيه الشيطان له بقضية الأسلوب .

باء

كان هنالك في إحدى ممالك الشرق سلطان سعيد عجوز محب للنقش . وعاش بسعادة بالغة مع عروسه الصينية الجميلة جداً . فجأة تجاذب قلب ابن السلطان الوسيم ، من امرأته السابقة ، مع قلب الزوجة الشابة . ارتعد الولد من خيانته لأبيه ، ولكي ينسى عشقه المحرّم هذا أغلق على نفسه النقش خانة وانخرط في الرسم . ولأنه رسم الرسوم بقوة العشق وهمه بلغت رسومه جمالاً لم يستطع الناظرون معه تمييزها عن أعمال الأساتذة القدماء ، وفخر السلطان الأب بابنه كثيراً . أما زوجته الصينية الشابة فكانت تنظر إلى الرسوم وتقول : «نعم ، جميلة جداً ، ولكن مع مرور السنين لن يعرف أحد أنه عمل هذا الجمال إذا لم يوقعه» قال السلطان : «إذا وقّع ابني على الرسوم ألن يعتبر أن رسوم الأساتذة القدماء التي قلدها هي له ؟ فوق هذا ، إذا وقعها ألا

يقول : إن هذا الرسم لي وهو يحمل نقصي ؟ » عندما أدركت الزوجة الصينية أنها لن تستطيع إقناع زوجها العجوز نجحت في النهاية بإسماع ابنه الشاب المغلق على نفسه باب النقش خانة حديثَ التوقيع الملح هذا . انخدع الابن المجروح الكرامة لاضطراره دفن عشقه داخله بمشورة زوجة أبيه الجميلة الشابة ، وبتشجيع الشيطان ووضع توقيعه بين الجدار والأعشاب في زاوية اعتقد أنه لن يراها أحد . أول رسم وقّعه هو موقف من حكاية خسرو وشيرين . إنكم تعرفونه : بعد زواج خسرو من شيرين يعشق ابنه شيرويه من زوجته الأولى شيرين ، وفي ليلة من الليالي يدخل من النافذة ويغرز الخنجر في كبد أبيه النائم بجانب شيرين . عندما نظر السلطان العجوز إلى الرسم الذي يمثل هذا الموقف شعر فجأة بأن ثمة عيباً في الرسم . رأى التوقيع ولكنه لم ينتبه إلى أنه رآه ، فعمل كما يعمل غالبيتنا ، قال لنفسه : « هذا رسم معاب » فقط . ولأن هذا أمر لا يعمله الأساتذة القدماء ارتبك السلطان العجوز ، لأن هذا المجلد الذي يقرؤه ليس حكاية أو أسطورة وبالتالي هذا أسوأ ما يعمل ليس لكتاب بل لحقيقة ، . خاف العجوز من شعوره هذا . وفي الوقت نفسه دخل ابنه النقاش من النافذة كما في الرسم ، وغرز خنجره الكبير كبر خنجر الرسم في صدر أبيه دون النظر إلى عينيه المحملقتين رعباً .

جيم

كتب راشد الدين القزويني في تأريخه بمتعة عظيمة أنه قبل مائتين وخمسين سنةً من الآن كان تزيين الكتب والخطَ والنقش من أكثر الفنون اعتباراً وحباً ، وفي ذلك الوقت كان يجلس على عرش قزوين شاه يحكم أربعين مملكة من بيزنطة حتى الصين (يمكن أن يكون حب النقش هو سر هذه القوة) ولكن مع الأسف ليس لهذا الشاه ولد . وعندما قرر تزويج ابنته

الجميلة من نقاش ذكي لكي لا تتفتت الممالك التي فتحها بعد موته ، أجرى مسابقة بين ثلاثة نقاشين عظماء شباب في نقش خاتمه ، والثلاثة عازبون . وحسب تاريخ راشد الدين فإن موضوع المسابقة بسيط جداً : من سيعمل الرسم الأجمل ؟ ولأن الثلاثة كراشد الدين يعرفون أن هذا يعني الرسم كالأساتذة الكبار القدماء ، رسمَ الثلاثةُ أعظم مواقف الحب . حديقة كالجنة ، أشجار سرو وصنوبر ، أرانب متوجسة ، وسنونو متخبطة ، ووسطها فتاة جميلة غريقة بالهم عشقاً ، عيناها على الأرض . واحد من النقاشين الراسمين للموقف نفسه دون علم أراد التميز عنهم ، ولتبني جمال الرسم أخفى توقيعه ين أزهار النرجس في أكثر مواقع الرسم ظلمة . ولكن بسبب هذه الفظاظة الغبية التي أبعدته عن تواضع الأساتذة القدماء نفي فوراً من قزوين إلى الصين . وهكذا أقيمت مسابقة جديدة بين النقاشين الآخرين . هذه المرة رسم الاثنان تلك الفتاة في تلك الحديقة الرائعة على حصان في رسم بجمال الشعر . أحد النقاشين عندما رسم حصان الفتاة ذات العينين المرفوعتي الطرفين والبارزة عظمتي الخدين أعطى أنفه قليلاً من الغرابة لا أدري إن كان بسبب زلة فرشاة أو عن قصد . واعتبر الأب والبنت هذا عيباً . لم يوقّع هذا النقاش ولكنه وضع عيباً بمهارة في أنف الحصان في رسم رائع لكي يُميّز . قال الشاه إن العيب أبو الأسلوب ، ونفى هذا النقاش إلى بيزنطة . وبينما كانت تعمل التحضيرات لزواج النقاش الأمهر الذي رسم دون توقيع أو عيب كما رسم الأساتذة الكبار من ابنة الشاه ، حدث تطور أخير حسب رواية راشد الدين القزويني : بقيت ابنة الشاه طوال اليوم الذي يسبق العرس تنظر إلى الرسم الذي أنجزه الأستاذ الكبير الشاب الوسيم الذي سيغدو زوجها في اليوم التالي وهي مهمومة . وعندما حلت ظلمة المساء ذهبت إلى أبيها ، وقالت : «رسم الأساتذة القدماء في روائعهم الفتيات الجميلات على طريقة الصينيين ، وهذه

قاعدة لا تناقش جاءتنا من الشرق . صحيح ، ولكن عندما يحبون واحدة يضعون أثراً ما على حاجب أو عين أو شفة أو شعر أو ابتسامة أو حتى رموش الفتاة التي يحبونها . وهذا العيب السري الذي يضعونه في رسومهم إشارة عشقهم يعرفونها هم وحبيباتهم فقط . نظرت طوال اليوم إلى رسم الفتاة الجميلة الراكبة الحصان ، ليس فيها أثر مني يا أبي العزيز! يمكن أن يكون هذا النقاش معلماً عظيماً أو شاباً وسيماً ولكنه لا يحبني » وبهذا ألغى الشاه العرس فوراً ، وعاش الأب وابنته معاً إلى آخر عمرهما .

قال قرة بظرافة شديدة واحترام كبير : « العيب هو الذي يطلق ما يدعى الأسلوب ، في هذه الحالة سيظهر النقاش في الحكاية الثالثة أنه عاشق من الإشارة السرية في وجه أو عين أو ابتسامة الفتاة التي يعشقها ؟! »

قلتُ واثقاً بنفسي ، وبلهجة فيها غرور : « لا ، الشيء الذي ينقله الأستاذ النقاش من البنت التي يحبها إلى الرسم لا يُعدُّ عيباً ، بل يصبح في النهاية قاعدة . لأن الجميع بعد فترة يبدؤون برسم وجوه الفتيات كتلك الجميلة مقلدين الأستاذ » .

سكتنا قليلاً . عندما أنصت قرة إلى قرقعة زوجتي الجميلة في الغرفة المجاورة والموزع بعد استماعه بمنتهى الدقة لحكاياتي الثلاث ، ركزت عيني على بؤبؤ عينيه .

قلت : « ترينا الحكاية الأولى أن الأسلوب عيب ، والثانية أن الرسم الذي لا عيب فيه لا يحتاج إلى توقيع ، أما الثالثة فتوحد فكرتي الأولى والثانية ، وبالتالي فهي ترينا أن التوقيع والأسلوب ليسا سوى تفاخر غبي فظ بالعيب »

قال « أدركت » ولكنه لم يكن مقتنعاً أبداً .

ولكي لا تعملوا على فهمي من نظرته وإدراكه سأخبركم مباشرة من

أكون . أستطيع عمل كل شيء . أرسم وألوّن مثل الأساتذة القزوينيين القدماء لاهياً وضاحكاً . أتكلم باسماً . وإذا كان إحساسي صحيحاً فإن سبب مجيء أسود إلى هنا فقدان المذهّب ظريف أفندي الذي لا علاقة لي به أبداً .

سألني قرة عن الجمع بين الزواج والفن .

أعمل كثيراً وبحب . تزوجتُ من أجمل بنات الحي قبل مدة قصيرة . إذا كنت لا أنقش فأنا أضاجعها مثل المجانين . بعد ذلك أعمل من جديد . لم أقل له هذا . قلت إنها مشكلة كبيرة . إذا كان النقاش يسكب من فرشاته على الورق روائع فلا يستطيع انتزاع الفرح نفسه عندما يدخل على زوجته . وأضفت : العكس صحيح أيضاً ، إذا كانت قصبة النقاش تسعد المرأة فتكون القصبة الأخرى خابية على الورق . وككل الذين يغارون من مهارة النقاش صدّق قرة هذا الكذب ، وفرح .

قال إنه يريد رؤية آخر الصفحات التي نقشتها . أجلسته خلف خشبة العمل بين الأصباغ والحقاق وممسدات الورق الزجاجية ، والفراشي والأقلام والمشارط . عندما كان أسود ينظر إلى رسم صفحتين من أجل السرنامة التي تعرض احتفالات الختان لابن سلطاننا ، جلست على البساط الأحمر بجانبه . ذكرني دفء البساط بأن مؤخرة زوجتي الجميلة كانت تجلس هنا . وبينما كنت أرسم كدر المحكومين المنحوسين أمام سلطاننا بالقصبة كانت زوجتي تمسك بقصبتي .

الموقف الذي أرسمه على صفحتين يعرض المحكومين المدانين وغير القادرين على الدفع وعائلاتهم وخلاصهم نتيجة إحسان السلطان . رسمت السلطان كما رأيته في أثناء الاحتفال تماماً يجلس على طرف سجادة مليئة بصرر القروش الفضية وإلى ورائه بقليل محاسبه يناوله الدفتر الذي قرأ منه قيود الدين ، ومحكومو الدين مربوطون بالسلاسل والزرد من رقابهم ويظهر

عليهم الألم والعذاب من خلال حواجبهم المقطبة وعبوس وجوههم ودموعهم ، ثم يبتهلون له بالدعاء عند إعطائه الإحسان الذي خلصهم من السجن ، ويلقون الشعر برفقة العود والطنبور بألبسة حمراء ووجوه وسيمة . ولكي أعبّر عن ألم وخجل الغرق في الدين رسمت دون حساب مسبق آخر المحكومين التعساء بجانبه زوجته المتبشعة من التعب بألبسة بنفسجية ، وابنته الجميلة بمعطف فضفاض طويلة الشعر مهمومة باكية . كنت سأشرح لقرة العابس كيف نشرت المدانين المكبلين صفوفاً على الصفحتين ، والمنطق السري للأحمر في الرسم ، وما لم يستطع الأساتذة القدماء عمله ، وتلويني الكلب الذي نقشته في الزاوية مستمتعاً بلون قفطان السلطان المصنوع من الأطلس ، وما حكيناه زوجتي وأنا متضاحكين لكي يفهم أن النقش يعني حب الحياة ولكنه سألني سؤالاً معيباً جداً .

هل أعرف أين يمكن أن يكون ظريف أفندي المسكين ؟

لم أقل أي مسكين ، وإنه مقلد لا يساوي خمسة قروش يذهب من أجل النقود فقط ، وغبي جف نبع إلهامه . قلت : «لا ، لا أعرف»

هل فكرتَ بأن العدوانيين الملتفين حول الواعظ الأرضرومي يمكن أن يكونوا أساؤوا لظريف أفندي ؟

أمسكت نفسي ، ولم أقل إنه منهم ، وقلت : «لا ، لماذا ؟»

لا يمكن تفسير وقوعنا تحت أسر الفقر والوباء واللا أخلاق والسفالة في مدينة اسطنبول بغير ابتعادنا عن الإسلام الذي كان في زمن نبينا رسول الله ، وتسرب عادات جديدة بشعة إلينا ، وعادات الإفرنج . هذا ما يقوله الواعظ الأرضرومي ، ولكن أعداءه يقولون إن أتباعه هاجموا الزوايا التي تعزف فيها الموسيقى ، وخربوا مزارات الأولياء عاملين على خداع السلطان . ولأنهم يعرفون عدم معاداتي لحضرة الأرضرومي مثلهم ، يريدون الآن وبشكل

مهذب قول : «هل أنت قتلت ظريف أفندي ؟»

فجأة خطر ببالي أن هذه الإشاعات انتشرت بين النقاشين منذ زمن طويل . طاقم عديمي الإلهام والمهارة والموهبة ينشرون أنني سافل أقتل بمتعة كبيرة . وددت لو أنزل بالحقة على رأس قرة الشركسي هذا لمجرد أن الغبي يأخذ افتراءات النقاشين الحسودين على محمل الجد .

استعرض قرة بدقة غرفة النقش حافراً في ذاكرته كل ما تقع عليه عينه . نظر إلى مقصاتي للورق الطويل ، وصحون الزرنيخ وكاسات الأصباغ والتفاحة التي أقضم منها كل برهة وأنا أعمل والغلاية بجانب الموقد في الخلف وفناجين القهوة والبسط والضوء المتسلل من فرجة النافذة المواربة والمرآة التي أستخدمها لضبط أبعاد الصفحة وقمصاني وحزام زوجتي الأحمر الذي أسقطته وهي خارجة على عجل بعد طرق الباب يشخص هناك في الزاوية مثل ذنب .

على الرغم من إخفاء أفكاري عنه استسلمت أمام نظراته المباشرة والعدوانية للرسوم التي أنجزتُها والغرفة التي أعيش فيها . أعرف أن غروري سيذهلكم ، ولكنني أكثر النقاشين كسباً وهذا يعني أفضلهم! أراد الله أن يكون النقش فرحاً لكي يُرينا من يعرفُ النظرَ إلى العالم أن النقش فرح .

* * *

١٣
ينادوني لقلقاً

كان وقت صلاة الظهر . طُرق الباب . نظرت وإذ بقرّة الذي أعرفه من أيام الطفولة . تعانقنا . يبدو بردانياً . أدخلته . لم أسأله عن سبب مجيئه ولا كيف عرفت البيت ؟ لا بد أن زوج خالته أرسله في محاولة للحصول على معلومات مني عن فقد ظريف أفندي ، وأين يمكن أن يكون . ولكن ليس هذا فقط . معه خبر من الأستاذ عثمان ، وقال إن لديه سؤالاً . وحسب رأي الأستاذ عثمان فإن الزمن يميز النقاش عن الآخرين : زمن النقش . ما الذي أراه ؟ اسمعوا!

النقش والزمن

كما يعلم الجميع كان نقاشو عالمنا - معلمو العرب القدماء مثلاً - يرون الفن كما يراه الإفرنج الكفرة اليوم ، وكانوا ينظرون إلى المتشرد في الزقاق والكلب والبائع في الدكان وخضرته ويرسمونها . ولأنهم لا يعلمون بأسلوب المنظور الذي يفخر فيه معلمو الإفرنج بغرور يرون عالمهم محدداً في حدود الكلب والخضار . بعد ذلك حدث شيء وتغيّر عالم النقش كله . سأحكي لكم بدءاً من هذا . . .

حكايات النقش والزمن الثلاث

ألف

في يوم شباطي بارد قبل ثلاثمائة وثلاثين سنة سقطت بغداد في أيدي المغول ، ونهبت دون رحمة ، وكان ابن شاكر ليس الخطاط الأشهر في العالم العربي فقط ، بل الأشهر في العالم الإسلامي كله ، وعلى الرغم من كونه شاباً ففي مكتبة بغداد المشهورة عالمياً اثنان وعشرون كتاباً بخطه ، أغلبها قرآن كريم . ولاعتقاد ابن شاكر أن هذه الكتب ستعيش حتى يوم القيامة فقد عاش يفكر الزمن الأعمق واللامتناهي . وخلال عدة أيام مزّق جنود هولاكو هذه الكتب الأسطورية الجمال ، والتي لا نعرف عنها شيئاً اليوم ، وأحرقوها ورموها في نهر دجلة ، وفي هذه الأثناء كان ابن شاكر ينهي آخر كتاب عاملاً طوال الليل ببطولة في ضوء الشمعدان المرتجف . ولأن الوقوفَ عكسَ الشمس في الشروق والنظر إلى الأفق غرباً مرتبط بالتقاليد وفكرِ الخلود ، فهذه الطريقة هي الأسلوب الذي اتبعه الخطاطون العرب على مدى خمسة قرون من أجل إراحة العين ومقاومة العمى ، وبناء على هذا التقليد صعد ابن شاكر في برودة الصباح إلى مئذنة جامع الخليفة ، ورأى من الشرفة كل ما ينهي تقليد الخطاطين المستمر من خمسمائة سنة . لقد رأى أولاً دخول جنود هولاكو الذين لا رحمة في قلوبهم إلى بغداد فبقي أعلى المئذنة ، ورأى العبث في المدينة وإحراقها وقطع رقاب مئات الألوف بالسيوف ، وقتل آخر الخلفاء الذين حكموا بغداد خمسمائة عام ، والاعتداء على أعراض الناس وإحراق المكتبات ورمي عشرات آلاف الكتب في دجلة . بعد يومين في أثناء فرجته على مسيل مياه دجلة المخضبة بالأحمر بتأثير لون حبر الكتب الملقاة فيه وسط رائحة الجثث وصراخ الموت ، فكر بعدم إفادة كل هذا العدد من الكتب التي كتبها بخط جميل في إيقاف هذه المجزرة الفظيعة والتخريب ، وأقسم ألا

يكتب مرة أخرى . والأكثر من هذا أنه وجد في نفسه دافعاً للتعبير عن ألمه والكارثة التي رآها تحل بفن الرسم الذي كان يستهين به . ويعتبره تمرداً على الله حتى ذلك اليوم ، وعلى الورق الذي كان لا يخرج دونه أبداً رسم ما رآه من المئذنة . ونحن مدينون لهذه المعجزة باستمرار قوة الرسم الإسلامي على مدى ثلاثة قرون وتميّزه عن رسم الوثنيين والمسيحيين برسم العالم من حيث يراه الله من الأعلى ، أي وضع خط أفق والرسم بأسى . وبعد المجزرة سار ابن شاكر نحو الشمال حاملاً الرسم في يده والتمسك بالنقش في قلبه ، أي نحو الجهة التي جاء منها جيش المغول ، نحو تعلّم رسم المعلمين الصينيين . وهكذا فهم الخطاطون العرب أن فكرة الزمن الخالد ليست في الخط كما اعتقدوا على مدى خمسة قرون بل في الرسم ، ودليل هذا تمزيق الكتب والمجلدات وزوالها . ولكن الصفحات المرسومة يمكن أن تدخل كتباً أخرى ومجلدات ، وتعيش إلى ما لا نهاية مستمرة بعرض عالم الله .

باء

في قديم الزمان وجديده حيث كل شيء يكرر كل شيء ، ولا يشعر الإنسان بالزمن لولا كبره وموته ، والعالم يكرر الحكايات والرسوم نفسها وكأنه لا وجود للزمن ، وحسب رواية سليم السمرقندي في تاريخه المختصر فإن جيش الشاه فاخر الصغير «شتت» جنود الخان صلاح الدين . وبعد أن عذّب الشاه فاخر المظفّر الخانَ صلاح الدين الأسير وقتله ، وحسب العادات زار مكتبة المرحوم وحرمه لكي يختمها بخاتمه . في المكتبة كان المجلّد الخبير ينزع صفحات كتب الشاه الميت ويخلط صفحاتها ، والكتبة والخطاطون يغيرون اسم صلاح الدين ويضعون مكانه (كما في كل وقت) اسم الشاه فاخر «المظفّر» ومنذ تلك اللحظة بدأ النقاشون ينسون المرحوم الخان صلاح

الدين المنقوش بمهارة في أجمل الرسوم ويمسحونها وأخذوا يرسمون وجه الشاه فاخر الأشبّ مكانها . عندما دخل الشاه فاخر إلى الحرم لم يلق صعوبة في العثور على أجمل نسائه ، ولأنها تفهم في الكتب والنَقْش لم يعمل للوصول إليها قسراً بل قرر كسب قلبها والتحدث إليها . وهكذا كان لجميلة الجميلات السلطانة نرمين أرملة المرحوم الخان صلاح الدين طلب واحد من الشاه فاخر الذي سيصبح زوجها الجديد . طلبت ألا يمحى رسم وجه زوجها المرحوم الخان صلاح الدين من الكتاب الذي يحكي قصة مجنون ليلى ، وهو مرسوم مكان وجه مجنون مقابل السلطانة نرمين على أنها ليلى . عليها ألا تحرم زوجها من حق تخليد نفسه ولو في صفحة واحدة بعد أن عمل سنوات طويلة . قَبِلَ الشاه فاخر المظفر هذا الطلب البسيط بكرم ، ولم يمس النقاشون ذلك الرسم ، وهكذا تضاجع فاخر ونرمين فوراً ، وخلال فترة قصيرة أحبّا بعضهما البعض ، ونسيا مخاوف الماضي . ولكن الشاه فاخر لم ينس ذلك الرسم في مجلد مجنون ليلى . ما أقلقه هو عدم رسمه في ذلك الكتاب الرائع وعدم دخوله تلك الأساطير ، الزمن اللامتناهي وعالم الخالدين مع زوجته . وبعد أن أكلته دودة الشبهة على مدى خمس سنوات ، وفي نهاية ليلة سعيدة ضاجع فيها الشاه فاخر نرمين مطولاً ، أمسك شمعداناً ، ودخل سراً كاللص إلى مكتبته ، وفتح مجلد مجنون ليلى ، وحاول رسم وجهه مكان وجه المرحوم زوج نرمين باعتباره المجنون . ولكنه كأكثر الخانات محبي النقش هو نقاش فاشل لم يستطع رسم وجهه جيداً . عندما فتح أمين المكتبة الكتاب صباحاً لاشتباهه به ظهر أمامه وجه جديد مكان وجه المرحوم الخان صلاح الدين مقابل ليلى ذات وجه نرمين ، ولكنه لم يعلن أن هذا الوجه هو وجه الشاه فاخر ، بل وجه الشاه عبدالله الشاب الوسيم عدوه الأكبر ، وكما خربت هذه الشائعة معنويات جنود الشاه فاخر ، فإنها جرّات الشاه عبدالله الحاكمَ

الجديدَ للمملكةِ الجارة وهو شاب عدواني ، وهزم الشاه فاخراً في المعركة الأول ، وقتله ، وضرب خاتمه على مكتبته وحرمه ، وصار زوج السلطانة نرمين الدائمة الجمال .

جيم

حكاية النقاش المدعو في اسطنبول محمد الطويل والمدعو في بلاد العجم محمد الخراساني تروى بين النقاشين مثالاً على العمر المديد والعمى ، ولكنها في الحقيقة مثال في موضوع النقش والزمن . إذا أخذنا بعين الاعتبار دخوله إلى المهنة تلميذاً عندما كان في التاسعة من عمره ، فإن الخصوصية الأهم لهذا الأستاذ الذي عمل في النقش مبصراً على مدى مائة وعشر سنوات هي اللاخصوصية . أنا هنا لا أتلاعب بالألفاظ بل أقول كلمة مديح . كان كالجميع يرسم كل شيء على طراز الأساتذة الكبار القدماء . ولهذا كان أكبر الأساتذة . تواضعه وارتباطه الكامل بالنقش كخدمة لله مكنّه من الابتعاد عن الصراعات بين النقاشين ، وعن العمل ليكون كبير النقاشين على الرغم من أن عمره مساعد لهذا . طوال حياته في النقش تجنب الآخرين راسماً بصبر تفاصيل وأعشاباً مالئاً زوايا صفحات ، وآلاف أوراق الأشجار ، وتلويات الغيوم وشعر رقاب الخيول ممشوطة بالواحدة وأحجار الجدران التي تتكرر نفسها دائماً ، وآلافَ الوجوه المتشابهة ذات العيون المرفوعة إلى أعلى من طرفيها والذقون المدببة ، كان سعيداً جداً وصامتاً ، لم يحاول إظهار نفسه أو السعي إلى أسلوب وشخصية فنية . وعندما يعمل من أجل خان أو أمير يعتبر نقش خانة ذاك المكان بيتاً ، ويعتبر نفسه جزءاً من هذا البيت . وعندما صار الشاهات والخانات يمسكون بخناق بعضهم بعضاً ، ويذهب النقاشون مثل الحرم إلى سادة جدد ، ويساقون من مدينة إلى أخرى ظهر في النقش

خانات أسلوبه في رسم الورق والعشب وتعرجات الصخور كما ظهر صبره في التلويات السرية . عندما بلغ الثمانين من عمره نسي أنه من الفنانين واعتقد أنه يعيش في الأساطير التي رسمها . ولعل هذا جعل بعضهم يقول إنه خارج الزمان ويتقدم في السن ولن يموت أبداً . ثمة من فسّر عدمَ فقدانه البصرَ على الرغم من قضائه معظم حياته في غرف النقش خانات ونومه في الخيام دون بيت أو وطن وقضائه معظمَ وقته محدقاً إلى الورق بمعجزة أن الزمان بالنسبة إليه متوقف ، والبعض يقول إنه أعمى ولأنه يرسم كل شيء من ذاكرته فلا حاجة له بالرؤية . لم يتزوج هذا الأستاذ الأسطوري ، ولم يضاجع امرأة في حياته ، ولكنه عندما صادف في نقش خانة (طهماسب) مثالَ الشابِ الجميل المرفوع العينين من طرفيهما والمدبب الذقن والقمري الوجه ، التلميذ الذي يفيض حيوية وهو في السادسة عشرة من عمره ، الهجين بين صيني وكرواتي عشقه فوراً وهو في التاسعة عشرة بعد المائة ، وكان على حق ، ومن أجل الوصول إلى هذا التلميذ الغلام الجميل تدخل كعاشق حقيقي في صراعات النقاشين على الهيمنة ، حانكاً الحبائل ، منجرفاً وراء الكذب والخداع والحيلة . عَمَلُ الأستاذ النقاش الخراساني على تحقيق المطالب اليومية التي نجح بالابتعاد عنها على مدى قرن أعطاه حيوية في البداية ، ولكنه قَطَعَهُ عن لا نهائية الزمن الأسطوري القديم . في عصر أحد الأيام عندما كان يتملى بعينيه من التلميذ الجميل أصيب بنزلة برد جراء وقوفه مقابل نافذة مفتوحة يهب منها هواء تبريز البارد ، وفي اليوم التالي عندما عطس فقد بصره ، وبعد يومين سقط من درج النقش خانة الحجري العالي ومات .

قال قرة : «سمعت باسم محمد الطويل الخراساني ولكنني لا أعرف هذه الحكاية»

قال هذه الكلمات بظرافة للتعبير عن فهمه أن الحكاية انتهت ، وأن رأسه

مليء بما شرحت له . سكت قليلاً ليتملى مني . ولأنني أشعر بالقلق عندما تكون يداي فارغتين ، استمريت بالنقش من حيث تركت ، عندما قرع الباب بعد بدئي بالحكاية الثانية . تلميذي الجميل محمود الذي يجلس بجانب ركبتي دائماً يخلط الأصباغ ويبري الأقلام ويمحو الأخطاء التي أخطئها أحياناً وهو جالس صامت يستمع إليَ ويتأملني ، ومن الداخل تنبعث قرقعة تحدثها زوجتي .

قال قرة : «أوووه . . . السلطان واقف»

عندما نظر إلى الرسم بإعجاب تصرّفت وكأنني لا أعير سبب الإعجاب اهتماماً . ولكنني سأقول لكم صراحة : في كتاب السرنامة الذي نصور فيه احتفالات الختان الجارية أسفل الشرفة يبدو سلطاننا على مدى الأيام الاثنين والخمسين جالساً يستعرض مرور الباعة والعربات والأهالي والجنود واللصوص في مئتي رسم . في هذا الرسم فقط رسمته واقفاً ينثر النقود من أكياس مليئة بالفلورينات . ورسمت الناس يتدافعون متلاكمين مترافسين رافعين مؤخراتهم إلى السماء وهم يجمعون النقود من الأرض لكي أعبّر عن الاستغراب والسعادة .

قلت : «إذا كان ثمة حب في الرسم علينا أن نرسم بحب ، وإذا كان ثمة ألم يجب أن يتدفق الألم من الرسم ولكن لا يُعبّر عن هذا من خلال الأشخاص في الرسم أو دموعهم ، وحتى إنه لا يبدو من النظرة الأولى للرسم ، ولكن يُشعر به ، ويجب أن يستنتج من انسجامه الداخلي . أنا لم أرسم الدهشة على شكل شخص يدور فمه ، ويدخل سبابته فيه كما رسمها مئات الأساتذة عبر عصور طويلة ، بل جعلت الرسم كله دهشة ، وهذا يتم بإيقاف سلطان السلاطين على قدميه» .

هنالك رسوم قصور وحمامات وقلاع كانت ترسم في تبريز وشيراز في

فترة من الفترات ، ويضع النقاش باعتباره التوازي مع أن الله يرى كل شيء ويعلم به فيظهر القصر الذي رسمه وكأن ساطوراً إعجازياً قسمه من منتصفه راسماً كل ما بداخله من مواعين وكؤوس وزخارف جدران لا تظهر أبداً من الخارج ، وستائر وحتى ببغاء في قفص وصولاً إلى أكثر الزوايا حرمة ، إلى المخدات وجميلة الجميلات الجالسة عليها ولم ير وجهها الشمس . وكما ينظر القارئ الفضولي بدهشة إلى تلك الرسوم ، كان أسود ينظر إلى أصباغي وأوراقي وكتبي وتلميذي الجميل والكتب المرقعة وكتاب الأزياء الذي عملته لرحالة أفرنجي ، ورسوم المنايكة التي عملتها سراً بسرعة وصفحات غير مؤدبة من أجل أحد الباشوات ، والحقاق الملونة والمنوعة من الزجاج والبرونز والخزف وبرايات الأقلام العاجية والأقلام ذات المقابض الذهبية ، ونظرات التلميذ الجميل .

ولملء الصمت بوجودي قلت : «أنا شهدت حروباً كثيرة على عكس المعلمين القدماء ، ورأيت آلات حرب ومدافعَ وجيوشاً وأمواتاً . أنا نقشت دائماً خيام الحرب لسلطاننا وباشاواتنا . وعندما نعود إلى اسطنبول بعد الحرب أرسم أدوات الحرب التي سينساها الجميع ، والأجساد المشروخة من منتصفها ، والجيوش المختلطة مع بعضها بعضاً وجنود الكفار الذين ينظرون بهلع من أبراج قلاعهم إلى مدافعنا وجيوشنا والمتمردين المقطوعة رؤوسهم وهيجان الخيول المهاجمة . كل ما أراه يبقى في ذاكرتي : طاحونة قهوة حديثة ، حلقة نافذة من نوع لم أر مثله ، مدفع ، زناد بندقية إفرنجية من نوع جديد ، ما يلبس كل شخص في دعوة ولونه وما يأكل ، يد كل شخص وأين يضعها وكيف . . .»

سأل قرة ملخصاً كل شيء وبنبرة محاسبة : «ما هو مغزى الحكايات الثلاث التي حكيتها ؟»

قلت : «ألف : الحكاية الأولى ذات المئذنة تبين لنا أنه مهما بلغت مهارة الرسام فإن الزمن هو الذي يجعل الرسم كاملاً دون عيب . باء : الحكاية الثانية ذات الحرم والكتب تبين لنا أن الطريق الوحيد للخروج خارج الزمن هو النقش والمهارة . أما مغزى الثالثة فقله أنت»

قال قرة واثقاً من نفسه : «جيم ، الحكاية الثالثة ، حكاية النقاش الذي بلغ التاسعة عشرة بعد المائة من عمره توحد بين ألف وباء وتعني أن فصل الكمال عن الحياة ينهي الزمن ويميت» .

* * *

١٤

ينادونني زيتوناً

بعد صلاة الظهر كنت أرسم بمتعة وجوه غلمان جميلين على عجل عندما طرق الباب . ارتجفت يداي انفعالاً ، فتركت القلم . أخذت خشبة العمل من حضني ووضعتها جانباً بدقة ، وركضت كأنني أطير . قبل أن أفتح الباب دعوت الله . . . . . . أنتم الذين تسمعون ما أحكيه في هذا الكتاب ونحن لقربنا إلى الله أكثر من قرب هذه الدنيا القذرة والدنيئة ومن قرب عبيد سلطاننا السفلة لن أخفي عنكم شيئاً . يقال إن سلطان الهند أغنى سلاطين الأرض ، الخان الأكبر ، أمر بعمل كتاب يكون أسطورة على الألسن . أرسل خبراً إلى أرجاء الدولة الإسلامية كلها لكي يأتيه ألمع نقاشي العالم . جاءني البارحة الرجال الذين أرسلهم إلى اسطنبول ، ودعوني إلى ديار الهند . فتحت الباب وإذ ليسوا هم هذه المرة ، إنه قرة الذي نسيته منذ الطفولة . قديماً كان لا يستطيع الدخول بيننا ، ويغار منّا . نعم ؟

قال إنه أتى للحديث ولأنه صديقي وليرى نقشي . دعوته لكي يرى ما عندي . وقال إنه قبّل يد الأستاذ عثمان كبير النقاشين لتوه ، وإن الأستاذ العظيم قال له عبارة عظيمة : يفهم النقاش الخاص من حديثه عن العمى والذاكرة . افهموا عندئذ! . . .

العمى والذاكرة

ألف

جاء في النسخة التي ترجمها إلى التركية لمعي چلبي لكتاب «نفحة الفنون» التي دوّن فيها الشاعر جامي مناقب الأولياء أن الأستاذ الشيخ علي التبريزي المشهور في نقش خانة شاه جهان حاكم ديار (الغنم الأسود) نقش نسخة رائعة من خسرو وشيرين . وبحسب ما سمعت ففي هذا الكتاب الأسطوري ، الذي استغرق في رسمه أستاذ الأساتذة النقّاش الشيخ علي أحد عشر عاماً ، من المهارة بحيث لا يستطيع أحد نقش ما سكبه على الصفحات سوى أكبر النقاشين القدماء بهزاد ، وأدرك الشاه جيهان أنه على وشك امتلاك رائعة لامثيل لها في العالم قبل أن ينتصف الكتاب . نتيجة خوف وغيرة حاكم ديار الغنم الأسود الشاه جيهان من حاكم ديار الغنم الأبيض حسن الطويل واعتباره له أكبر أعدائه فطن الى أنه نتيجة المكانة التي سيكسبها بعد إنجاز هذا الكتاب الرائع يمكن أن يرسم النقاش واحداً لحسن الطويل من ديار الغنم الأبيض . ونتيجة الغيرة الحقيقية خشي من سعادة الآخرين بهذا القدر ، وهذا ما سمم سعادته ، وجعله يشعر بأن الأستاذ النقاش إذا رسم كتاباً آخر مثله ، أو أفضل منه فلا يمكن أن يكون هذا الكتاب إلا لعدوه الأول حسن الطويل . ولكي لايمتلك أحد غيره هذا الكتاب الرائع قرر قتل الأستاذ النقاش الشيخ علي بعد أن ينهي الكتاب . ولكن جميلة شركسية طيبة القلب في حرمه ذكّرته أن قلع عينيه يكفي ، أعجب الشاه جيهان بهذه الفكرة ، وعرض قراره الذكي على المرائين من حوله ، ووصل الأمر الى أذن الأستاذ النقاش الشيخ علي ، ولكنه لم يعمل كما يعمل النقاشون العاديون بأن يترك الكتاب في منتصفه ويغادر تبريز ، كما أنه لم يبطىء وتيرة عمله لكي يؤخر عماه ، ولم ينحرف نحو عمل الرسم بحيث يجعل الكتاب معيباً بل عمل بدأب

واندفاع وإيمان أكثر من أي وقت مضى . وبدأ يعمل بعد صلاة الصبح في بيته الذي يسكنه وحده ، ويرسم الخيول والسرو والعشاق والتنّينات والأمراء الوسيمين أنفسهم حتى مابعد منتصف الليل الى أن تتعب عيناه في ضوء الشمعدان ، وتسيل منهما الدموع بحرقة . في أغلب الأحيان يقضي أياماً بالنظر الى صفحة عملها كبار أساتذة هيرات القدماء ، وفي الوقت نفسه يرسم ذاته على صفحة دون النظر إليها . في النهاية أكمل الكتاب الذي عمله من أجل الشاه جيهان من ديار الغنم الأسود ، وكما كان ينتظر الأستاذ النقاش بداية مُدِحَ وأُغرِقَ بالذهب ، بعد ذلك أعمي بإبرة كبيرة ذات رأس حاد . وقبل أن يهدأ ألمه ترك الشيخ علي هيرات قاصداً حسن الطويل حاكم ديار الغنم الأبيض ، وقال له : «نعم ، أنا أعمى ، ولكن جماليات الكتاب الذي نقشته في الإحدى عشرة سنة الأخيرة ، وكل ضربة قلم وفرشاة في ذاكرتي ، وتعرف يدي رسْمَها حفظاً دون أن أراها . ياسيدي الخاقان أنا يمكنني أن أنقش لكم أجمل كتاب عرفته الناس . ولأن عيني لن تقع على قذارة هذه الدنيا وتضيّع وقتاً يمكنني أن أرسم كل الجماليات التي خلقها الله بشكلها الأصفى من ذاكرتي» صدّق حسن الطويل الأستاذ النقاش فوراً ، ووفى الأستاذ بوعده ، ورسم لخاقان ديار الخروف الأبيض من الذاكرة الكتاب الأروع . فيما بعد تغلّب حسن الطويل من ديار الغنم الأبيض على شاه جهان من ديار الغنم الأسود في غزوة قرب منطقة الألف بحيرة ، وبعد أن قتله أصبح الجميع يعرفون أن كتاب الخاقان المظفر الجديد شكل له قوة معنوية . وعندما هُزم حسن الطويل المظفر أمام المرحوم السلطان محمد الفاتح خان في معركة (أوظلوق بيلي)وضع كتابه مع الكتاب الذي نقشه الأستاذ الشيخ علي التبريزي للمرحوم شاه جهان في خزانة سلطاننا . والذين شهدوا يعرفون .

باء

لأن (جنة مكان ، السلطان سليمان القانوني خان)* أعطى الخطاطين أهمية أكبر ، يحكي نقاشو ذلك الزمان المنحوسون هذه الحكاية التي سأحكيها مثالاً لإثبات أن النقش أهم من الخط ، ولكن حذار أن يستنتج هذا كل مستمع ، فإن هذه الحكاية حول العمى والذاكرة . بعد موت حاكم الدنيا تيمور اختلف أولاده وأحفاده ، ودارت فيما بينهم حروب ضارية ، وعندما يفتح أحدهم مدينة الآخر فإذا كان أول عمل له هو سكّ عملة باسمه والخطبة في الجامع ، فإن العمل الثاني هو فك الكتب التي غنمها ووضع إهداء جديد وعبارات مديح مثل : « حاكم الدنيا » وتجليدها من جديد ، ولكي يؤمن الذي يراها بأن هذا الحاكم هو حاكم الدنيا بحق . عندما احتل حفيد تيمور عبد اللطيف بن أولوغ هرات استنفر النقاشين والخطاطين والمجلدين من أجل عمل كتاب مهدى إلى أبيه ، واستعجلهم حتى أن الصفحات المكتوبة والمنقوشة المنزوعة من الكتب اختلطت مع التي ستحرق . ولأنّ تناولَ صفحات لا على التعيين ، كل صفحة منها من حكاية وعملها كتاباً مرقعاً لا يليق بأولوغ بيك المحب للنقش جُمع نقاشو هرات كلهم وطُلب منهم أن يحكوا حكايات من أجل تنسيق الرسوم . ولكن كل شخص حكى حكاية جعلت الصفحات تزداد فوضى ، عندئذ بُحث عن آخر كبير نقاشين عجوز نسي بعد أن صبَّ نور عينيه في كتب الشاهات والأمراء الذين حكموا هرات على مدى أربع وخمسين سنة ووُجد . عندما فُهم أن الأستاذ القديم الذي ينظر إلى الرسوم أعمى دبت فوضى ، وهنالك من ضحك ، ولكن الأستاذ العجوز طلب ولداً ذكياً في السابعة من عمره لا يعرف القراءة والكتابة . وجدوه فوراً ،

* (جنة مكان) لقب عثماني يعني : سكنه الجنة أو مكانه الجنة .

وجلبوه ، وضع النقاش العجوز أمام الولد رسماً وقال له : اشرح لي ما تراه! . وفي أثناء شرح الولد لما يراه في الرسم ركّز العجوز النقاش عينيه المعميتين إلى السماء واستمع له ، بعد ذلك قال : «احتضان الإسكندر لدارا الميت من الشاهنامة للفردوسي . . . حكاية المعلم الذي عشق تلميذته من الوردستان لسعدي . . . مسابقة الحكماء من مخزن الأسرار لنظامي » قال النقاشون الآخرون الغاضبون من العجوز الأعمى : «نحن أيضاً نستطيع قول هذا . هذه أشهر المواقف في أشهر الحكايات» هذه المرة طلب العجوز الأعمى وضع أصعب الرسوم أمام الولد ، عاد إلى الاستماع بدقة ، قال مرة أخرى وهو ينظر إلى السماء : «تسميم هرمز للخطاطين وقتلهم واحداً واحداً من شاهنامة الفردوسي . . . حكاية سيئة ورسم رخيص لمشهد الزوج القابض على زوجته وعشيقها في رأس شجرة الإجاص عن مثنويات مولانا . . . » وهكذا عرف كل الرسوم التي لم يرها من شرح الولد ، وساعد في تجليد الكتب . عندما دخل أولوغ بيك مع جيشه إلى هرات سأل النقاش العجوز عن سر الحكايات التي لم يستطع النقاشون الآخرون معرفتها مبصرين . قال النقاش العجوز : «سبب هذا لا كما يُعتقد بأن ذاكرتي قويت لفقدي بصري . أنا لا أنسى أن الحكاية تستذكر بالكلمات أيضاً وليس بالخيال فقط» قال أولوغ بيك إن نقاشيه يعرفون تلك الحكايات والكلمات ولكنهم لم يستطيعوا ترتيبها . قال النقاش العجوز : «لأن هؤلاء يفكرون كثيراً بالنقاش الأمهر والأقوى فنياً ، ولكنهم لا يعرفون أن الأساتذة القدماء عملوا هذه الرسوم بإلهام من الله» سأل أولوغ بيك : كيف عرف هذا ولد ؟ فقال النقاش العجوز : «الولد لا يعرف . ولكنني باعتباري نقاشاً عجوزاً أعمى أعرف أن الله خلق الدنيا كما يريد رؤيتها طفل ذكي في السابعة من عمره . لأن الله خلق العالم لنرى أولاً ، بعد ذلك أعطانا الكلمات لنتكلم ونشترك فيما نراه ،

ولكننا عملنا من الكلمات حكايات ، واعتقدنا أن الرسوم تنقش من أجل هذه الحكايات . مع أن النقش هو بحث مباشر عن إلهام الله ورؤية كما يريد الله » .

جيم

بسبب خوف معشر النقاشين الحق والأزلي من العمى ، كان العرب منهم في فترة من الفترات يتأملون الأفق في الجهة الغربية عند الفجر مطولاً ، بعد عصر عُرِف عن أكثر نقاشي شيراز أنهم يأكلون على الريق مسحوق قلب الجوز مع ورق الورد . وفي الفترة نفسها اعتبر النقاشون الأصفهانيون أن سبب عماهم بالدور هو سقوط أشعة الشمس مباشرة على خشبة عملهم ، ولكي لا تسقط هكذا عملوا في غرف مظلمة ، ومعظم الوقت في ضوء الشمعدانات ، أما النقاشون الأوزبك في بخارى فكانوا يغسلون عيونهم بماء قرأ عليه مشايخهم . والنظرة الأصفى للعمى بين هذه الأساليب وجدها الأستاذ النقاش سيد ميراك معلم بهزاد أستاذ هرات الكبير . حسب رأي الأستاذ النقاش ميراك فإن العمى ليس بلاء بل هو السعادة الأخيرة التي يمنحها الله للنقاش الذي وهب حياته كلها للجمال . لأن النقش هو بحث النقاش عن الرؤية الإلهية للعالم ، ويتحقق المنظر الفريد بالتذكر بعد انهيار النقاش تماماً ووصوله إلى العمى . هذا يعني عدم إمكانية فهم الرؤية الإلهية إلا من خلال ذاكرة النقاش الأعمى . يقضي النقاش العجوز حياته كلها مدرباً يده لتنطلق تلقائياً بالرسم على الورق عندما يأتيه الخيال ، أي عندما يتبدى أمام عينيه المنظر الذي خلقه الله في ذاكرته وظلمة عماه حسب رواية المؤرخ المرزا محمد حيدر دوغلات الذي كتب عن نقاشي عصره في هرات ومناقبهم أن الأستاذ سيد ميراك ضرب مَثَلَ النقاش الذي أراد رسم حصان لتبيان

مفهومه هذا . وحسب مثل سيد ميراك فإن النقاش غير الموهوب وحتى الفارغ العقل تماماً الذي يرسم الحصان على طريقة الرسامين الإفرنج بالنظر إليه فيرسمه من الذاكرة ، لأنه لا أحد يستطيع أن ينظر إلى الحصان والورقة التي يرسم عليها في آن واحد . النقاش أولاً ينظر إلى الحصان ثم يرسم بسرعة على الورق ما في ذاكرته ، وما بينهما حتى ولو كان وقت غمضة عين ، فما نفذه الرسام على الورق هو ليس الحصان الذي يراه بل ذكرى الحصان الذي رآه قبل قليل ، وهذا إثبات أن الرسم غير ممكن إلا من الذاكرة حتى بالنسبة لأقل النقاشين قيمة . ونتيجة رؤية النقاش لحياته المهنية الفعالة تحضيراً للعمى السعيد الذي سيأتي فيما بعد وذكريات حالة العمى يرى أساتذة العصر في هرات أن الرسوم التي يعملونها من أجل الشاهات وأبنائهم محبي الكتب عبارة عن تمارين يد ، ويعتبرون العمل والرسم دون توقف والنظر لأيام طويلة وفي ضوء الشمعدانات إلى صفحات الكتب هو عمل ممتع يقودهم إلى العمى . عمل الأستاذ النقاش ميراك طوال حياته على الاقتراب المقصود من العمى أحياناً برسم شجرة بأوراقها كلها على إظفر أو حبة أرز أو حتى على شعرة ، وفي أحيان أخرى يعمل على تأجيل الظلام احتياطاً برسمه حدائق مشمسة ومفرحة ، وهذا يعني بحثه عن الزمن الأنسب للوصول إلى النهاية الأسعد . عندما وصل إلى سن السبعين ، ولمكافأة هذا الأستاذ الكبير ، فتح له السلطان حسين بايقرة خزينته المضروب عليها أكثر من قفل والحاوية آلاف صفحات الكتب . بعد أن نظر الأستاذ ميراك في غرفة الخزينة المليئة بالأسلحة والحرير والمخمل والذهب وعلى ضوء الشمعدانات الذهبية إلى صفحات الكتب الرائعة المعتبرة كل واحدة منها أسطورة لأساتذة هرات القدماء على مدى ثلاثة أيام ، أصيب بالعمى . بعد هذا الوضع الجديد الذي استقبله الأستاذ الكبير استقبال ملائكة الله بنضج وتوكل ، لم يتكلم أو يرسم أبداً .

ويفسر الميرزا محمد حيدر دوغلات كاتب التاريخ الراشدي هذا الأمر أنه عدم العودة إلى صفحات الكتب العادية من أجل موت عادي بعد الوصول إلى مشاهد الوقت الخالد التي خلقها الله ، ويقول : حيث يصل النقاش الأعمى بذاكرته إلى الله ثمة مطلق وظلام ممتع وفراغ لا نهائي لصفحة .

أعرف بالتأكيد أن قرة نقل إليَ سؤال الأستاذ عثمان عن العمى والذاكرة لكي ينظر براحة إلى أغراضي وغرفتي ورسومي أكثر مما يريد جوابي . ولكنني سعدت لرؤيتي أن الحكايات التي حكيتها له أثرت فيه ، فقلت له : «العمى عالم سعيد لا يستطيع دخوله الشيطان والذنب»

قال قرة : «ما زال بعض النقاشين العاملين على الأصول القديمة في تبريز وتحت تأثير ميراك يرون العمى قيمة عظمى يهبها الله ، ولهذا يخجلون عندما يتقدم بهم العمر ولا يعمون ، ولأنهم يرون هذا دليلاً على عدم المهارة والموهبة يقلّدون العميان . ونتيجة هذه العقيدة المنتقلة من جمال الدين القزويني هنالك من يجلس بين المرايا في الظلام وفي نور قنديل شاحب ناظراً إلى صفحات الأساتذة الهراتيين القدماء أسابيع دون طعام أو شراب لتعلم الرؤية للعالم كالعميان» .

قرع الباب . فتحتُ ، وإذ بتلميذ وسيمٍ فتح عينيه الواسعتين إلى أقصى حد وقال : «إن جسد أخينا المذهب ظريف أفندي وجد في جب ، وإن جنازته ستشيّع من جامع مهرماه عند العصر» وركض ذاهباً لتوصيل الخبر إلى الآخرين . . . اللهم احمنا .

* * *

١٥
اسمي إستر

هل العشق يجعل الإنسان غبياً أم أن الأغبياء فقط يعشقون . منذ سنوات طويلة وأنا أعمل بائعة صرة ووسيطة زواج ولم أستطع معرفة الجواب . كم أردت التعرف على رجل أو زوجين يصبحان أذكى وأمكر كلما تعلقا ببعضهما أكثر . ما أعرفه أن الرجل الماكر والمعد للمكائد والحيل لا يعشق أبداً . أما قرة أفندي فيظهر أنه فقد برودة أعصابه منذ الآن ، ويفقد توازنه تماماً عندما يتحدث عن شكورة منذ الآن .

ردَدت على سمعه النغمة التي أحفظها وأردَدها للجميع . مثل : إن شكورة تفكر فيه دائماً ، وتسألني عن الجواب ، وأنني لم أرها على هذا النحو أبداً . نظر إليَ نظرة جعلتني أشفق عليه . طلب مني إيصال الرسالة التي أعطاني إياها إلى شكورة «عاجلاً وفوراً» والمهبولون كلهم يعتقدون أن هنالك وضعاً خاصاً جداً يتطلب السرعة في عشقهم فيعبرون عن شدته وكأن سلاحاً بيدهم ، ولو كانوا أذكياء لأخّروا الجواب . النتيجة : العجلة تؤخر الأمور في العشق .

لهذا السبب لو عرف قرة أفندي أنني أخذت الرسالة التي قال لي عنها «عاجلة جداً» إلى مكان آخر لشكرني . كدت أتجمد من البرد وأنا أنتظره في السوق . قلت لنفسي أمر على إحدى بناتي في طريقي . أنا اسمي التي

نقلتُ رسائلها وزوّجتها ابنتي . هذه البنت الدميمة تشكرني بأن تدور حولي مثل عجلة كلما زرتها ، وتدس في يدي عدة قروش بيضاء . قالت إنها حامل وهي مسرورة . قدمت لي مغلي (الأهلامور) وشربته باستمتاع ، وعندما بقيت وحدي عددت النقود التي أعطاني إياها قرة أفندي ، إنها عشرون قرشاً أبيض ،

تابعت طريقي من جديد . عبرت من أزقة فرعية ومن معابر سيئة تجمد طينها فلم يعد يُمشى منها . عندما طرقت الباب نطَّ عرق المزاح لديّ .

قلت : «بائعة الصرة . . . جاءتكم بائعة الصرة . . . عندنا قماشات (توليبنت) ناعمة و(رقصبندية) تليق بالسلاطين . . . شالات كشميرية ، أحزمة مخملية بورصية ، قمصان مخرَجة من أفخر الحرائر المصرية . . . أغطية من قماش (التوليبنت) ، أغطية فرش ، مناديل ملونة . . . بائعة الصرة . . . »

فتح الباب ودخلت . البيت كما هو دائماً تفوح منه روائح الفرش والنوم وقلي الزيت والرطوبة ، إنها رائحة بيوت العازبين المتقدمين بالسن المخيفة

قال : «هيه ، ثرثارة . . . لماذا تصرخين ؟ »

دون أن أقول له شيئاً أخرجت الرسالة وناولته إياها . وفي غرفة شبه مظلمة فجأة اقترب مني كظل واختطفها من يدي . انتقل إلى غرفة جانبية لأن هناك مصباحاً مناراً دائماً . وقفت في عتبة الباب .

قلت : «الأفندي والدك غير موجود ؟ »

لم يجب ، قرأ الرسالة مبهوتاً ، تركته يقرؤها . لم أر وجهه لأنه خلف المصباح ، عندما أنهى قراءتها أعادها .

قلت له : «نعم ، ماذا كتب ؟ »

قرأ حسن :

«شكورة خانم الحبيبة . لأنني عشت سنوات طويلة على خيال شخص واحد أتفهم بإكبار انتظارك زوجك وعدم تفكيرك بغيره . ما الذي يمكن توقعه من امرأة مثلك غير الاستقامة والعفة (ضحك حسن مقهقهاً) ولكن مجيني إلى أبيك من أجل النقش لا يعني أنني سأضايقه . هذا لا يخطر ببالي أبداً . كما أنني لن أقول إنك أعطيتني إشارة أو منحتني جرأة . عندما بدا لي وجهك من النافذة كالنور لم أفكر سوى أن هذا عطاء من الله لي ، لأن سعادتي لرؤية وجهك تكفيني (تدخل هنا غاضباً قائلاً : «أخذ هذا عن نظامي») أما وأنك تقولين لا تقترب مني . فهل أنت ملاك ليكون الاقتراب منك مخيفاً إلى هذا الحد ؟ اسمعيني ، اسمعي هذا : في منتصف إحدى الليالي عندما كنت أتطلع إلى أشعة ضوء القمر الساقطة على الجبال العارية من نافذة محطة قوافل ملعونة في مكان مقفر وليس فيها سوى القائم عليها اليائس ونزلاء لصوص محكومون بالإعدام ، وأحاول النوم وأنا أستمع إلى عواء الذئاب الأكثر مني وحدة وسوء حظ ، اعتقدت أنني رأيت ما رأيت في النافذة ذلك اليوم . اسمعي! . . . عندما عدت إلى أبيك من أجل الكتاب أعدتِ لي الرسم الذي رسمته في صباي . أنا أعرف أن هذه إشارة إيجادي لك من جديد وليس موتك . رأيت أحد ابنيك أورهان . المسكين يتيم . سأكون له أباً»

قلت : «ما شاء الله ، كتب جيداً ، وصار شاعراً»

قال : «سرق عبارة : هل أنت ملاك ليكون الاقتراب منك مخيفاً ، من ابن زرهاني . أنا أكتب أفضل من هذا (أخرج من جيبه رسالته) خذي هذه لشكورة»

لأول مرة أشعرتني النقود التي أعطاني إياها مع الرسالتين بالقلق . شعرت أن تعلق هذا الرجل بشكل طائش بعشق لا يلقى استجابة أمر يدعو

إلى القرف . لأول مرة بعد زمن طويل قال بفظاظة كأنه يريد تصديق إحساسي تاركاً رقته :

« قولي لها إننا نستطيع جلبها إلى البيت بقوة القاضي »

« أأقول لها هذا بجدّ ؟ »

خيّم صمت ، وقال : « لا تقولي لها! » سقط نور مصباح الغرفة على وجهه فرأيته كطفل مطرق يعرف أنه أذنب . ولمعرفة أحواله هذه أحترم عشقه وأنقل رسائله ، وليس من أجل النقود كما يعتقد .

لحظة خروجي من البيت أوقفني حسن عند الباب وسألني بهيجان وسذاجة : « هل تقولين لشكورة كم أحبها ؟ »

« ألا تكتب هذا في رسائلك ؟ »

أخبريني كيف يمكنني أن أقنعها وأقنع أباها ؟ »

قلت له : « كإنسان جيد » ومشيت نحو الباب .

وبألم عميق قال : « الوقت متأخر جداً بعد هذا العمر . . . »

قلت : « بدأت تكسب نقوداً كثيرة يا جاويش حسن ، وهذا يجعل الإنسان جيداً . . . »

وخرجت .

كان داخل البيت مظلماً وقاسياً إلى حد تهيأ لي أن الجو قد دَفِئَ في الخارج . سقطت أشعة الشمس على وجهي . فكرت أنني أريد سعادة شكورة ولكنني بشكل من الأشكال أحترم ذلك الرجل الذي رأيته في البيت الرطب البارد المظلم . انعطفت دون تفكير نحو سوق البهارات في حي (اللااللي) لمجرد أنني أحسست بضرورة الانعطاف ، واعتقدت أن رائحة القرفة والعصفر والفلفل تعيد إليّ نفسي ولكنني أخطأت .

في البيت بعد أن أخذت شكورة الرسالتين سألت عن قرة أولاً . قلت لها

إن حريق العشق يلفه من كل طرف . فسرّت لهذا .

غيرتِ الحديث بعد ذلك قائلة : «الجميع بمن في ذلك النساء اللواتي يحكن في البيوت يتحدّثن عن سبب مقتل المسكين ظريف أفندي»

قالت شكورة : «يا خيرية ، اعملي حلاوة وخذيها لقلبية زوجة المسكين ظريف أفندي»

قلت : «يقال إن الأرضروميين كلهم وأناساً كثيرين سيحضرون الجنازة . أقرباؤه يقولون إن دمه لن يذهب هدراً»

بدأت شكورة تقرأ رسالة قرة . نظرت إلى وجهها بكل توفزي وغضب . إن هذه المرأة صاحبة تجربة حياتية إلى حدّ تتمكن فيه من ضبط انعكاسات انفعالاتها على وجهها . شعرت أنها سرَت لصمتي في أثناء قراءتها الرسالة ، وهذا يعني موافقتي على إعطائها أهمية خاصة لرسالة قرة . عندما أنهت قراءة الرسالة وابتسمت لي اضطررت لسؤالها هذا السؤال لكي تسرّ به :

«ماذا يقول ؟»

«كما في صغره . . . يعشقني»

«بماذا تفكرين ؟»

«أنا متزوجة وأنتظر زوجي»

على عكس توقعكم لم أغضب لكذبتها هذه بعد أن أرادت مني أن أهتم بالموضوع ، حتى إنني أستطيع القول إنها أراحتني . لو أبدت فتاة أو امرأة شابة ممن أحمل لهن الرسائل وأنصحهن حول الحياة الانتباه الذي أبدته شكورة سيسهلن عملي وعملهن إلى النصف تقريباً ، حتى إن بعضهن يمكن أن يتوصلن إلى أزواج أفضل بكثير .

سألتها من جديد : «ماذا يقول الآخر ؟»

أجابت قائلة : «لا أريد الآن قراءة رسالة حسن . هل علم حسن بعودة

قرة إلى اسطنبول ؟ »

« لا علم له حتى بوجوده »

فتحت عينيها السوداوين الجميلتين وسألت : « هل تتحدثين مع حسن ؟ »

« لأنك تريدين هذا »

« نعم ؟ »

« يتخبط في الآلام ويحبك كثيراً . من الصعب جداً أن تتخلصي منه حتى لو مال قلبك لآخر . قبولك رسائله يثير لديه آمالاً كبيرة . عليك أن تخافي منه . لأنه لا يحضَر نفسه لإعادتك إلى البيت بل لجعل موت أخيه الأكبر مقبولاً والزواج منك » وابتسمت لأوازن الجانب التهديدي في عبارتي الأخيرة ولئلا أقع في وضع الناطقة باسمه .

سألتْ قائلة : « حسنٌ ، ماذا يقول الآخر ؟ » ولكنها هل تعرف عمن تسأل ؟

« النقاش ؟ »

قالت فجأة : « عقلي ملخبط تماماً » ولعله لخوفها من أفكارها أضافت : « يتهيأ لي أن كل شيء سيزداد تعقيداً . أبي يتقدم في السن . ماذا سيحصل لنا ؟ لهذين الطفلين اليتيمين في المستقبل ؟ أنا أشعر أن سوءاً يتربص بنا جميعاً ، وأن الشيطان يحضّر لنا مصائب كبيرة . قولي لي يا إستر هل سأسعد ؟ » .

قلت لها وقلبي يرتجف : « لا تقلقي يا شكورتي ، أنت حقيقة ذكية وجميلة جداً . في يوم ما ستنامين في فراش واحد مع زوجك الوسيم وسيحتضنك وتنسين همومك كلها وتسعدين . أنا أقرأ هذا في عينيك »

غمرت داخلي سعادة جعلت عينيَ تغرورقان .

«حسنٌ ، من سيكون ذلك الزوج ؟»

«ألا يقول لك قلبك الذكي من سيكون ؟»

«أنا تعيسة لأنني لا أفهم ما يقول قلبي»

خيّم صمت . فكرت لحظة أن شكورة لا تثق بي أبداً ، وتخفي عدم ثقتها بمهارة كبيرة من أجل أن تجرني إلى الحديث . تستنطقني وتثير شفقتي . عندما فهمت أنها لن تعطيني رداً قلت لها ما أقوله لبناتي كلهن حتى لو كن تائهات وأنا خارجة إلى الساحة مغادرة حاملة صرتي :

«إذا فتحت عينيك الجميلتين هاتين فلن يصيبك مكروه ، لا تقلقي»

* * *

١٦

أنا شكورة

كلما تأتي إستر بائعة الصرة كنت كالفتيات الذكيات الجميلات المتربيات والأرامل الشريفات أمثالي كلهن ، يخفق قلبي وأتخيل أن عاشقي في النهاية تحرّك وكتب رسالته وأرسلها . وعندما أرى أن الرسائل قادمة من الطالبين الدائمين أكسب على الأقل قوة وصبراً على احتمال انتظار زوجي . أما الآن فإن عقلي يزداد اضطراباً ، وأشعر بالمسكنة في نفسي إثر كل زيارة .

استمعت إلى أصوات الحياة . ينبعث من المطبخ صوت غليان ورائحة ليمون وبصل . أعرف أن خيرية تغلي يقطيناً . شوكت وأورهان يتدافعان عند شجرة الرمان ويلعبان بالسيوف وأسمع صراخهما . أبي في الغرفة الجانبية صامت . فتحت رسالة حسن وقرأتها ، وفهمت مرة أخرى أنه ليس ثمة جديد يدعو إلى الانشغال به . ولكنني خفت منه أكثر ، وهنأت نفسي على مقاومة محاولاته الدخول إلى حضني عندما كنا في بيت واحد . بعد ذلك أمسكت رسالة قرة بعناية وكأنها شيء سيكسر وقرأتها فاختلطت عليّ الأمور . لم أقرأ الرسائل مرة أخرى ، ظهرت الشمس وفكرت على نحو : لو أنني في إحدى الليالي دخلت حضن حسن وضاجعته لن يعرف بهذا أحد غير الله ، إنه يشبه زوجي المفقود لا فرق . أحياناً يخطر ببالي خواطر غبية

وغريبة مثل هذه . كانت الشمس قد ظهرت وكان الدفء المفاجئ أشعرني بجسدي وبالعرق على رقبتي وحتى على حلمتي ثديي . وعندما كانت أشعة الشمس ساقطة على الباب دخل أورهان فجأة :

قال : « ماذا تقرأين يا أمي ؟ »

حسن ، قبل قليل قلت لكم إنني لم أقرأ الرسالتين اللتين جَلَبَتهما إستر ولكنني كذبت عليكم . قرأتهما مرة أخرى . ولكن هذه المرة طويت الرسالتين ودسستهما في عبي ، وقلت لأورهان :

« تعال إلى حضني » أتى « أووف ما شاء الله ، كم أنت ثقيل ، أصبحت ضخماً . . . » وقبلته ، وعندما قلت له : « أنت مثل الثلج »

قال : « كم أنت دافئة يا أمي » وأسند ظهره إلى صدري .

استنادنا إلى بعضنا البعض بقوة . وجلوسنا دون كلام كان يسعدنا كلينا شممت رقبته ، وقبلته ، واحتضنته بقوة كبرى ، خيّم صمت وبقينا هكذا .

بعد مدة طويلة قال : « إنني أتدغدغ »

قلت له بصوت جديّ : « احك لنر ، إذا أتى ملك الجان وقال : اطلب وتمنَّ ، فماذا تريد ؟ »

« أريد أن يكون شوكت معنا »

« غير هذا ماذا تريد ؟ ألا تريد أن يكون لك أب ؟ »

« لا ، عندما أكبر سأتزوجك أنا »

فكرت في أن أسوأ ما في الحياة ليس التقدم في العمر والبشاعة والعيش الفقير دون زوج بل عدم الغيرة . أنزلت جسم أورهان المتدفئ من حضني ، ذهبت إلى أبي وأنا أفكر بضرورة الزواج من شخص جيد وسيئ الروح مثلي .

قلتُ : « سيرى حضرة سلطاننا بعينيه أن الكتاب انتهى ويكافئكم

وتذهبون إلى البندقية مرة أخرى »

قال أبي : « لا أعرف . أخافتني هذه الجريمة ، لا بد أن أعداءنا أقوياء »

« أنا أعرف أن وضعي هذا يجرئهم ويفتح الطريق لفهم خاطئ وآمال لا أساس لها »

« كيف ؟ »

« يجب أن أتزوج بأسرع ما يمكن »

قال أبي : « ماذا ؟ من ؟ ولكنك متزوجة ، من أين طلع لنا هذا ؟ من يطلبك ؟ » وأضاف بمعقولية : « حتى لو كان هنالك طالب معقول ولا يُحتمل رفضه » ثم اعترض بجملة : « وليس من السهل وجود أحد كهذا وإعجابنا به » ثم لخص وضعنا قائلاً : « تعرفين أن هنالك قضايا كبيرة بحاجة إلى حل قبل أن تتزوجي » وبعد صمت طويل قال : « هل تريدين تركي والذهاب يا روحي ؟ »

قلت له : « البارحة حلمت بأن زوجي مات » ولكنني لم أبك كامرأة حلمت بموت زوجها .

« يجب معرفة قراءة الأحلام مثل الذين ينظرون إلى النقش ويقرؤونه »

« هل تجدون أنه من المناسب أن أقصَ عليكم رؤياي ؟ »

توقفنا فجأة ، وتبادلنا الابتسام كما يفعل الأذكياء الذين يعيدون النظر في النتائج التي تناقشوا بها كلها بسرعة .

« يمكنني تفسير رؤياك وأن أؤمن أنه مات ولكن حماك وابنه والقاضي المضطر لسماعهما سيطلبون أدلّة أخرى »

« مضى على أخذي الأولاد وعودتي إلى البيت سنتان وحماي وابنه لم يعيداني »

قال أبي : « لأنهما يعرفان جيداً تقصيرهما ، ولكن هذا لا يعني أنهما

يرضيان عن طلاقك»

قلت : «لو كان مذهبنا مالكياً أو حنبلياً سيرى القاضي أن أربع سنوات مرت ، ويطلقني ، وفوق هذا يخصص لي نفقة ، ولكن لأننا والحمد أحناف لا نستطيع عمل هذا»

«لا تذكري لي نائب قاضي منطقة الأسكدار الشافعي ، هذه أعمال سيئة»

«نساء إسطنبول الفاقدات أزواجهن كلهن يذهبن إليه مع الشهود ، ولأنه شافعي يسأل : زوجك مفقود ؟ منذ متى ؟ هل تعانين من شظف العيش ؟ هل هؤلاء شهودك ؟ ويطلقها فوراً» .

قال : «من يُدخل هذه الأمور في عقلك يا روحي ؟ من يطيّر عقلك من رأسك ؟»

«إذا كان هنالك من سيطيّر لي عقلي من رأسي ، أنتم من سيقول لي عنه طبعاً بعد طلاقي ، ولن أخرج أبداً على قراركم حول اختيار الذي أتزوجه»

والدي الماكر رأى أن ابنته لا تقلُّ عنه مكراً فبدأ يرف بعينيه . وفي الحقيقة إن أبي يرف بعينيه هكذا بسرعة لثلاثة أسباب : ١- في الأوقات الحرجة لتشغيل عقله بسرعة وإيجاد مخرج . ٢- وفي أوقات بكائه نتيجة التأزم والكدر . ٣- يرفهما بمكر عندما يحرج دامجاً السببين الأول والثاني مقدماً انطباع إمكانية بكائه كدراً .

«هل ستأخذين الأولاد وتذهبين تاركة والدك العجوز وحيداً ؟ تعرفين أنني أخاف القتل بسبب كتابنا - نعم ، قال : كتابنا - ولكنك إذا أخذت الأولاد وذهبت فأنا سأطلب الموت»

«ألستم يا أبي تقولون دائماً إنه يجب عليَ أن أُطَلَّق للتخلص من حماي

حسن العاطل ؟ »

« لا أريدك أن تتركيني ، يمكن لزوجك أن يعود ، وإن لم يعد لا ضرر من بقائك متزوجة ، ويكفي أن تسكني في هذا البيت مع أبيك » .

« أنا لا أريد غير السكن معكم في هذا البيت » .

« يا روحي! . . . أما قلتِ قبل قليلا إنك تريدين أن تتزوجي ؟ »

النِقاش مع الأب هكذا ، في النهاية أنا أيضاً أؤمن أنني لست محقة .

قلت مطرقة : « نعم ، قلت » وبعد ذلك بينما كنت أمسك نفسي لكي لا أبكي ، فجأة خطر ببالي أمر ، استمديت من حقانيتي جرأة وقلت :

« حسنٌ ، ألن أتزوج أبداً ؟ »

« للرجل الذي لن يأخذك مني ويذهب بك بعيداً مكان على رأسي . من الذي يطلبك ؟ هل يمكن أن يسكن معنا في هذا البيت ؟ »

سكتُ . كلانا بالتأكيد نعرف أن أبي لن يحترم الصهر الذي سيسكن معنا في هذا البيت ، وسيهينه تدريجياً ، وسيستهين أبي بمكر وشطارة بالعريس قائلاً : صهر بيت . . . حتي يجعلني أرفض ذلك الرجل .

« أنت تعرفين أنه دون موافقة الأب يكاد يكون زواجك مستحيلاً في وضعك هذا ، أليس كذلك ؟ أنا لا أريدك أن تتزوجي ، ولا أسمح بذلك »

« أنا لا أريد الزواج بل الطلاق »

« لأنه يمكن لحيوان لا يفكر بشيء سوى مصاهرة الخاصة أن يهينك . يا بنتي ، يا روحي ، أنت تعرفين كم أحبك أليس كذلك ؟ وعلينا أن ننهي هذا الكتاب »

سكتُ لأنني لو بدأت بالكلام سيغويني الشيطان المدرك غضبي وأصفعه في وجهه بقولي إنني أعرف بإدخاله خيرية إلى فراشه في الليل ، ولكن أيليق بفتاة مثلي أن تقول لأبيها العجوز إنه يضاجع جاريته ؟

«من يريد أن يتزوجك ؟»

أطرقتُ ساكتة ولكن ليس خجلاً بل غضباً . والأسوأ من هذا عدم إجابتي بأي شكل على الرغم من إدراكي لما أنا فيه من غضب ، غضبت كثيراً . عندئذ كنت أفكر بوضع أبي وخيرية المضحك والمقرف في الفراش ، ولحظة شعوري أنني سأبكي أطرقت قائلة :

«هنالك يقطين على النار ، لئلا يحترق»

دخلت إلى الغرفة الواقعة بجانب الدرج ذات النافذة المطلّة على البئر والتي لا تُفتح أبداً ، وجدت الفراش في الظلام متحسسة بيدي ، وفتحته بسرعة وألقيت بنفسي فوقه . في أيام الطفولة كم كان التمدد على الفراش جميلاً عند التعرض لظلم ، ثم البكاء حتى الغرق في النوم! أنا وحدي ، وأحب نفسي ، وهذه الوحدة مؤلمة حتى إنكم تسمعون بكائي ونواحي وتهبون لمساعدتي .

بعد قليل ، نظرت وإذ بأورهان تمدد على فراشي ، وأدخل رأسه بين ثديي وهو يشهشه صاباً دموعه . سحبته نحوي بقوة وأنا أضغط على جسمه .

سكت . ولكنني أحببت حالته هذه فضغطت به على صدري وهذا ما جعلني أنسى كل مضايقاتي . وفي أثناء احتضاني أورهان ذا العظام الدقيقة والجسد الرقيق كنت أشعر بهمّ واحد قبل أن يغوص في النوم ، لأخبركم به : أنا نادمة لما قلته لكم وأنا غضبانة قبل قليل عن أبي وخيرية . ما قلته ليس كذباً ولكنني أخجل مما قلت ، لذلك انسوا ما قلته ، واعتبروا أنني لم أقل لكم شيئاً ، وأن أبي وخيرية لا يعملان شيئاً ، ألا يمكن هذا ؟

* * *

١٧

أنا زوج خالتكم

صعب أن يكون للواحد بنت ، صعب . إنها تبكي في الداخل وأنا أسمع شهشهتها ولكنني لا أعمل شيئاً سوى النظر إلى صفحات الكتاب الذي بين يدي . ما أقرؤه من المجلد هو صفحة من (أهوال القيامة) . جاء في الكتاب أن الروح تستأذن الله بزيارة جسدها الذي كانت تعيش فيه بعد ثلاثة أيام من مغادرتها له . . . وعندما ترى الروح جسدها السابق في المقبرة وسط الدم والمياه القذرة بحالة مؤلمة تحزن وتبكي قائلة : « يا للجسد المسكين ، يا لجسدي السابق المسكين » وتعلن الحداد عليه . فكرت بنهاية ظريف أفندي المؤلمة في قعر الجب ، واحتمال زيارة روحه لجسده في الجب وليس في القبر وحزنها الشديد عليه .

عندما هدأ بكاء شكورة تركت كتب الموت ، وارتديت قميصاً صوفياً إضافياً ، وشددت وسطي بحزام من جلد الماعز السميك ليدفئه ، وارتديت سروالي ذا فراء الأرنب ، وخرجت من البيت . لحظتئذ رأيت شوكت عند الباب .

« إلى أين يا جدي ؟ »

« ادخل أنت ، إلى الجنازة »

عبرتُ الأزقة الخاوية المغطاة بالثلج بين البيوت الفقيرة المتصدعة من كل

طرف والواقفة بصعوبة والأمكنة المحروقة ، وسرت طويلاً ومفكراً بخطوات عجوز حذرة من الأحياء الجانبية وسط الحقول والبساتين ومن أمام الدكاكين التي تبيع لوازم العربات والعجلات والحدادين والسرّاجين وبائعي الأعنة والبياطرة نحو الأسوار .

لا أدري لماذا سيشيعون الجنازة من جامع مهرماه البعيد عند باب أدرنة . في الجامع عانقت أخوته البادين غاضبين ومنتصبين وكبيري الرؤوس ومندهشين . تبادلت العناق والبكاء مع النقاشين والخطاطين . تعلقت عيناي بالتابوت الموضوع على حجر المصلى في أثناء صلاة الجنازة وسط الضباب الداكن الهابط فجأة ، وشعرت بغضب شديد نحو مرتكب هذه العملة إلى حد أنني تهت في قراءة دعاء : «اللهم بارك» .

بعد الصلاة ، وعندما حمل الناس التابوت على الأكتاف كنت بين النقاشين والخطاطين . نسيت حديثنا أنا ولقلق في أثناء جلوسنا حتى الصباح في ضوء المصباح الشاحب من أجل كتابي ، وتعرضه لبخاسة تذهيب ظريف أفندي ومحاولته إقناعي بأنه يصبغ باللون النيلي كل طرف في محاولة لإغناء العمل لونياً ، وموافقتي له قائلاً : «ولكن ليس هنالك غيره» وبكيت معه مشهشهاً وتعانقنا . سرّتني نظرة زيتون المحببة والمحترمة ، ثم عناقه لي - الرجل المعانق جيداً رجل جيد - وفكرت مرة أخرى أنه أكثر المؤمنين بكتابي بين النقاشين والخطاطين كلهم .

صادفت كبير النقاشين الأستاذ عثمان بجانبي ونحن على الدرج عند باب الباحة ، ولم نعرف ماذا سنقول . كانت لحظة غريبة ومتوترة . أحد أخوة المرحوم بدأ يبكي نواحاً ، وأحد محبي المظاهر رفع تكبيراً .

سألني قائلاً : «إلى أية مقبرة ؟» ولكن من أجل فتح حديث .

ولأن إجابة «لا أعرف» تعطي انطباعاً بالمخاصمة لم أدر ماذا أقول ،

ودون تفكير سألت الذي بجانبي على الدرج قائلاً : « إلى أية مقبرة ؟ مقبرة باب أدرنة يا ترى ؟ »

قال شاب ملتح وغاضب ويبدو عليه الغباء : « مقبرة أيوب »

التفتُ نحو الأستاذ وقلت له : « أيوب » ولكنه كان قد سمع الشاب الملتحي الغاضب الغبي ، وهكذا نظر إليّ نظرة تقول : « فهمت » وأنا أدركت فوراً أنه لا يريد أن يطول لقاؤنا .

توجيه سلطاننا لي من أجل كتابة الكتاب « السري » ونقشه ورسمه بالتأكيد يغضب الأستاذ عثمان . غير هذا هنالك حب سلطاننا لأصول النقش الإفرنجي بتأثيري . في إحدى المرات أجبر السلطانُ الأستاذ عثمان على تقليد رسم شخصي له نفذه إيطالي . ويحمّلني الأستاذ عثمان محقاً مسؤولية ذلك الرسم العجيب الذي نفذه قرفاً ، وقال إن النقل عن الرسام الإيطالي « تعذيب » .

توقفت في منتصف الدرج ونظرت إلي السماء برهة ، وعندما تأكدت أنني تخلّفت عنهم جيداً بدأت أنزل الدرج المتجمد . نزلت درجة أو اثنتين بهدوء وإذ بأحدهم يتأبط ذراعي ثم يحتضنني . إنه قرة .

قال : « الجو بارد جداً ، هل أنت بردان ؟ »

ليس لدي شبهة بأنه سالب شكورة عقلها . ثقته بنفسه وهو يتأبط ذراعي تثبت هذا . موقفه يقول : إنني اشتغلت اثنتي عشرة سنة وصرت رجلاً . . . انتهى الدرج . ليشرح لي ما علم به في النقش خانة فيما بعد .

قلت له : « اذهب إلى الأمام يا بني ، اذهب والحق الجماعة »

دهش ولكنه لم يُبد شيئاً . حتى إنني سررت لتأبطه ذراعي ومسيره باتزان . لو أعطيته شكورة هل يسكن معنا في البيت ؟

عند خروجنا من باب أدرنة خارج المدينة رأيت في الأسفل النقاشين

والخطاطين وتلاميذهم حاملين التابوت على الأكتاف نازلين نحو الخليج يكادون يضيعون وسط الضباب . يسيرون بسرعة إلى حد أنهم تجاوزوا منذ الآن نصف الطريق المغطى بالثلج والطين من أيوب إلى الوادي . كانت مدخنة ورشة الشمع التابعة لأوقاف السلطانة الخانم تنفث دخانها متراقصاً وسط الصمت والضباب . ثمة مذبح يعمل بطاقته كلها للجزارين الروم والدباغين في أيوب تحت السور . رائحة اللحم المتفسخ منتشرة من هنا عبر الوادي من قباب جامع أيوب الذي يظهر بصعوبة وإلى أشجار السرو المدببة في المقبرة . بعد أن مشيت قليلاً وخرجت من حي اليهود الجديد في (بلاط) سمعت صياح الأولاد المتلاعبين .

عندما نزلت إلى سهل أيوب اندس بجانبي فراشة . دخل مندفعاً إلى الموضوع بحالته النارية كما هو دائماً .

قال : «هذه العملة عملة زيتون ولقلق . كما يعرف الجميع أنه ليس بيني وبين المرحوم شيء هما أيضاً يعرفان هذا جيداً . صحيح أن هنالك غيرة تنافسية حول الشخص الذي سيخلف الأستاذ عثمان ليصبح كبير النقاشين ، وحتى إن هنالك كلمات ومشاعر عدوانية لذلك سيتهمونني ، ويعتقدون بهذا أنهم سيبعدون خازن المال وبإيحائه يبعدون السلطان عني ، لا بل عنا»

«ماذا تقصد بعنا ، أي بأنتم ؟»

«نحن الذين نقول : يجب الإبقاء على الأخلاق القديمة في النقش خانة والسير على طريق المعلمين العجم وعدم رسم أي شيء من أجل المال . نحن نقول : لتدخل كتب الأساطير القديمة والمناقب والحكايات مكان رسم الأسلحة والجيوش والأسرى والفتوحات ، ويجب عدم ترك القوالب القديمة وعدم رسم النقاشين الخاصين أيّ موضوع لأي كان مقابل بضعة قروش في دكاكين السوق ، وسيعطينا حضرة سلطاننا الحق بهذا»

ولكي أبتر الموضوع قلت : «أنت تفتري على نفس للا شيء . أنا واثق أن النقش خانة لا تؤوي من يعمل هذا العمل . كلكم أخوة . ليس هنالك سوء من رسم أربعة أو خمسة مواضيع لم ترسم قديماً »

في الوقت نفسه فهمت حقيقة مؤكدة ، وتصرفت كما تصرفت يوم تلقيت الخبر أول مرة . قاتل ظريف أفندي هو أحد المعلمين البارزين في نقش خانة السلطان ، وهو وسط الزحام الصاعد نحو المقبرة . في تلك اللحظة وثقت أن القاتل سيستمر بأعمال الشيطان والفساد وهو معاد للكتاب الذي أعمله ، ومن المحتمل أنه جاءني إلى البيت وأخذ شغلَ نقش من أجل كتابي . هل عشق فراشة ابنتي ككل النقاشين والرسامين الذين يترددون إلى بيتي ؟ هل نسي أنني كنت أطلب منه رسوماً معاكسة تماماً لرؤاه أم أنه يلمّح حول المعلمية ؟

لا ، بعد قليل فكرت أنه لا يمكن أن يكون يلمّح في الكلام . فراشة كمعلّمي النقش الآخرين يشعر بالامتنان لي بشكل واضح . عند نقص النقود والهدايا الممنوحة للنقاشين من الخزينة بسبب الحروب وعدم اهتمام سلطاننا فإن دخلهم الإضافي الوحيد لمدة قد حققوه من كتابي . أنا أعرف أنهم يغارون مني أكثر مما يغارون من بعضهم بعضاً ولهذا السبب - ليس هو السبب الوحيد - التقيتهم واحداً واحداً في بيتي ، ولكن هذا لا يعني أبداً أنهم يعادونني . نقاشيَ كلهم مضطرون لحب شخص من أجل مصالحهم ، وهم أشخاص ناضجون إلى حد إيجادهم سبباً إنسانياً لحبهم بإخلاص .

ولكي لا يطول الصمت ولا نعود إلى الموضوع نفسه قلت : «ما شاء الله إنهم يصعدون بالتابوت بالسرعة التي نزلوا بها من المرتفع»

ابتسم فراشة مظهراً أسنانه كلها بشكل محبب ، وقال : «من البرد »

فكرت قائلاً لنفسي : «هل يمكن لهذا أن يقتل رجلاً ؟ من الغيرة مثلاً .

بعد ذلك هل يقتلني ؟ يمكن أن يلفّق ذريعة : هذا الرجل يكفر بديني . ولكن لماذا يُقتل أستاذٌ كبير وماهرٌ ؟ التقدم في السن لا يظهر في الصعود فقط ، يجب أن يظهر بعدم الخوف من الموت ، وعدم الرغبة في إدخال الجارية الفراش ، وإدخالها لتمرير محظور فقط دون انفعال . وفي تلك اللحظة صفعته بالقرار الذي اتخذته فجأة :

«لن أستمر بعد الآن بكتابي»

التفت فراشة قائلاً : «كيف ؟»

«فيه نحس . وسلطاننا قطع النقود . أخبر زيتون ولقلق بهذا»

لعله كان سيستمر بالسؤال ولكننا فجأة وجدنا أنفسنا على السفح في المقبرة وسط أشجار السرو الكثيفة والأعشاب السامقة . فهمت من خلال ترديد : بسم الله وعلى ملة رسول الله . . . وارتفاع صوت البكاء في الصفوف المتحلقة حول القبر أن الجثة تنزل إلى القبر في تلك اللحظة .

قال أحدهم : «اكشفوا وجهه جيداً . . . جيداً» .

إنهم يرفعون طرف الكفن ، وإذا كانت قد بقيت عينٌ في الرأس المسحوق فإن أعينهم الآن تلتقي بعينه ولكنني لا أرى شيئاً لأنني بقيت في الخلف . لم أنظر إلى القبر ، كانت عيناي على مكان آخر .

ذكرى : قبل ثلاثين سنة قرر جد سلطاننا الساكن الجنة أخذ جزيرة قبرص من البندقيين فذكّر شيخ الإسلام أبو السعود أفندي أن سلاطين مصر في يوم ما خصصوا هذه الجزيرة لإعاشة مكة والمدينة ، وأصدر فتوى بعدم جواز بقاء هذه الجزيرة المغذية للأماكن المقدسة بيد الكفار المسيحيين حسب ديننا . وهكذا كُلّفتُ بأول مهمة سفير ، ووقع على عاتقي مهمة صعبة هي إبلاغ البندقيين بهذا القرار المفاجئ وضرورة إعطائهم الجزيرة لنا . وفي البندقية زرت الكنائس ودهشتُ بالجسور والقصور ، وسحرتُ بالرسوم في

البيوت الأغنى ، ووسط هذه الدهشة والإعجاب وبالجرأة التي استمديتها من كرم ضيافتهم قدمت لهم الرسالة الملينة بالتهديد مبلغهم على طريقة سلطاننا في التعالي باللهجة بأنه يريد قبرص . يومئذ غضب البندقيون كثيراً وصدر عن المجلس المجتمع فوراً قرار ينصّ على عدم جواز مناقشة رسالة كهذه أبداً . وقد حاصرتني الجموع الغاضبة في قصر الدوق ، وحاول البعض ممن استطاع تجاوز الحراس والبوابين خنقي ، وهرّبني اثنان من حراس الدوق الخاصين عبر دهاليز القصر ، وأخرجاني من باب خلفي مفتوح على قنال . وهناك اعتقدت أن سائق الجندول الطويل المرتدي الأبيض والذي تأبطني من ذراعي هو الموت ، ورأيت نفسي وأنا أنظر إلى عينيه .

حلمت بإنهاء كتابي سراً والذهاب إلى البندقية مرة أخرى . اقتربت من القبر المغطى بعناية : الآن يسأله الملكان عن جنسه ودينه ونبيه . فكرت بموتي .

ذرق غرابٌ قَذَرَه قربي . نظرت بلطافة إلى عيني قرة ، وطلبت منه أن يتأبطني ، ويرافقني في العودة ، وقلت له إنني أنتظره في اليوم التالي باكراً في البيت من أجل العمل على كتابي ، لأنني فور تفكيري بموتي فهمت مرة أخرى أنني يجب أن أنهي كتابي مهما كلف الثمن .

* * *

١٨

سيقولون عني قاتل

كنت أكثر الباكين عندما كان يردم التراب البارد الرطب فوق جسد ظريف أفندي المسكين المتفتت . كنت أصرخ قائلاً : دعوني أمتْ وأدفنْ معه ، وأمسكوني من خصري كي لا أقع في القبر . وعندما كدت أختنق ضغطوا براحات كفوفهم على جبيني دافعين رأسي إلى الخلف لكي أستطيع التنفس . فهمت من نظرات أقرباء المرحوم أن بكائي وعويلي زاد عن حده فضبطت نفسي ، بدأ يعتقد ثرثارو النقش خانة أن بيني وبين ظريف أفندي علاقة صميمية .

ولكي لا ألفت إليّ الانتباه كثيراً تراجعت إلى خلف الجنازة ، واختبأت خلف شجرة دلب . أحد أقرباء المرحوم الأكثر خبلاً من المرحوم ، الذي أرسلته إلى جهنم ، لحق بي إلى وراء الشجرة ، ونظر إلى عيني نظرة أعتقد أنها تحمل معنى كبيراً ثم احتضنني طويلاً جداً ، ثم قال الأحمق : «هل أنت السبت أم الأربعاء ؟» قلت له : «الأربعاء اسم المرحوم في زمن ما» فاندهش .

حكاية الألقاب التي تربطنا ببعضنا البعض ، مثل سر ، بسيطة . أيام كنا تلاميذ متدربين كان احترامنا وإعجابنا وعشقنا للنقاش عثمان كبيراً جداً أيام ارتقائه إلى درجة معلم . إنه نقاش كبير وهو علمنا كل شيء لأن الله

أعطاه مهارة تسحر وعقلاً مثل عقل الجان . كل صباح كان أحد التلاميذ من بيننا يجب أن يذهب إلى بيت الأستاذ ويحمل صندوق أقلامه وحقيبته وحافظة أوراقه المليئة بالورق ويسير خلفه إلى النقش خانة . ولكي نكون قريبين منه كنا نتبارى يومياً لكسب الذهاب إليه .

كان للنقاش عثمان تلميذ محبب له ، ولأن ذهابه كل يوم يؤجج شانعات لا تنتهي وممازحات غير مؤدبة قرر الأستاذ الكبير أن يذهب كل يوم واحد منا . الأستاذ الكبير يعمل أيام الجمعة ولا يأتي أيام السبت إلى النقش خانة . كان ابنه التلميذ مثلنا – وابنه المدلل هذا خان أباه وخاننا بتركه الفن بعد سنوات – يرافق أباه مثل أي تلميذ منا أيام الاثنين ، ثمة موهوب أبرع منا جميعاً نحيل طويل هو أخونا الخميس ، ولكنه أصيب بمرض لا نعرفه ، ومات شاباً يعاني من ارتفاع درجة الحرارة . كان المرحوم ظريف أفندي يذهب يوم الأربعاء . لهذا السبب كان اسمه الأربعاء . ولكن فيما بعد غيّر الأستاذ الكبير أسماءنا من الثلاثاء إلى زيتون ومن الجمعة إلى لقلق ومن الأحد إلى فراشة لتكون ذات عشق ومعنى ، وللتلميح إلى ظرافة تذهيبه أسماه ظريفاً . وكما كان الأستاذ الكبير يعمل معنا كل صباح لا بد أن يقول في فترة معيّنة :

« أهلاً وسهلاً يا أربعاء ، كيف حالك ؟ »

وعندما أتذكر كيف كان يناديني أعتقد أن عيني ستدمعان . على الرغم من القتلات التي أكلناها عندما كنا تلاميذ كان الأستاذ عثمان يحبنا وتدمع عيناه لجمال نقشنا ، ويقبّل أيدينا وأذرعنا ومع تقبيله لنا كانت تزهر مهارتنا بالعشق ، لهذا شعرنا وكأننا في الجنة . في تلك الفترة كان لون هذه الغيرة التي ألقت بظلالها على تلك السنوات السعيدة مختلفاً .

وكما ترون أنني قُسمت تماماً إلى قسمين ، الرأس والأيدي لأستاذ

كالآخرين ، والجذع والألبسة لمعلم آخر يرسم ويلون . وعندما يصير واحد مثلي يخاف الله قاتلاً دون حسبان لا يستطيع التعود على هذا بسرعة . اكتسبت صوتاً ثانياً مناسباً لقاتل لكي أستطيع التصرف وكأن حياتي السابقة مستمرة . الآن أنا أتكلم بصوتي الثاني الساخر والخائن الذي لا دخل له بحياتي السابقة . لولا أنني قاتل كنتم ستسمعون صوتي السابق ذاك القديم المعروف ، ولكن ليس بعنوان «أنا قاتل» ولكن بلقبي . يجب ألا يحاول أحد توحيد هذين الجانبين لأنه ليس لدي أسلوب أو عيب شخصي يشي بي ، أنا أؤمن أن الأسلوب أو ما يميز النقاش عن غيره هو عيب ، وليس سمة شخصية كما يدعي البعض ، ولكن في وضعي الخاص هذا أعترف أنه يخلق مشكلة . لن أذكر الأسماء المستعارة التي منحنا إياها الأستاذ عثمان بعشق واستخدمها الأفندي زوج الخالة ، لأنني لا أريد لكم أن تعرفوا إن كنت فراشة أو زيتوناً أو لقلقاً . إذا عرفتم فمن المرجح أنكم ستسلمونني إلى جلادي آمر الحامية .

لهذا السبب لا أستطيع البوح بكل ما أفكر فيه . في الحقيقة أنا منتبه إلى أنكم تلاحقونني حتى وأنا أكلّم نفسي . لن أمرر بشكل أهوج في خاطري جزئيات حياتي وأفكاري التي تشي بي ، حتى إنني عندما حكيت ثلاث حكايات أسميتها ألفاً ، وباء وجيماً كنت ألحظ نظراتكم وأضع هذا في اعتباري .

في ما رسمته عشرات آلاف المرات من محاربين وعاشقين وأبناء سلاطين وأبطال أسطوريين جانبٌ مني يأخذ بعين الاعتبار زمن المحاربين وأعداءهم ومصارعي التنينات والفتيات الجميلات الصابات دموعهن وجانبٌ آخر من جسمي يتناول محبي النقش الناظرين إلى الرسوم . إن كان ثمة أسلوب وشخصية فنية لي فهذه ليست في نقشي فقط ، بل إنها في جريمتي

وكلماتي أيضاً . اعرفوا ولنر من أكون من لون كلماتي .

أعتقد أن قبضكم عليّ سيمنح الراحة لروح ظريف أفندي المسكين التعيسة . أنا الآن تحت الأشجار وسط زقزقة العصافير أنظر إلى مياه الخليج الذهبية وقباب إسطنبول وأعي مرة أخرى كم العيش جميل وهم يهيلون التراب فوقه جواريف جواريف . بعد أن أصبح ظريف أفندي المسكين يقوم ويقعد مع رجال الواعظ الأرضرومي المقطب الحاجبين في الفترة الأخيرة . لم يعد يحبني ولكننا على مدى خمس وعشرين سنة نقشنا فيها كتباً لسلطاننا مرت فترات شعرنا بتقارب فيما بيننا . أصبحنا صديقين قبل عشرين سنة في أثناء عملنا سيرةَ شخصية المرحوم والد سلطاننا ، لكن اقترابنا الأكبر حصل عندما كنا نعمل ثماني صفحات منقوشة من أجل ديوان «فضولي» . وقد أتيت إلى هنا لموافقته على متطلباته الحقة وغير المنطقية (يدعي أنه على النقاش أن يشعر بروحه في النص الذي يرسمه) وبينما كانت أسراب السنونو تتطاير فوقنا بشكل جنوني في مساء يوم صيفي اضطررت للاستماع إليه صابراً وهو يلقي بشكل استعراضي أبياتاً من ديوان فضولي . وبقي من ذلك المساء بيت : «أنا لست أنا ، ما أقصده بأنا هو أنت دائماً» . كما أنني فكرت بيني وبين نفسي دائماً كيف يمكن أن يُرسم هذا البيت .

فور علمي بأن جسده وُجد هرعت إلى بيته وشعرت بأن حديقته الصغيرة التي كنا نجلس فيها ونقرأ الشعر وقد غطاها الثلج ، وأنها ككل الحدائق التي نراها بعد سنوات قد صغرت . والبيت أيضاً هكذا . كان ينبعث من الغرفة الجانبية صوت عويل النساء وكأنهن يتسابقن ، وندبهن المبالغ به . استمعت إلى أخيه الكبير وهو يحكي بانتباه : وجه أخينا ظريف المسكين مقطع تقريباً ، ورأسه مسحوق . عندما أخرجوه من قعر الجب الذي بقي فيه أربعة أيام صعب على أخوته التعرف عليه ، وعندما جلبوا زوجته المسكينة

قلبية من البيت اضطرت لتشخيصه من ألبسته المقطعة . تجلى أمامي إخراج التجار الميديانيين ليوسف من الجب عندما ألقاه فيه أخوته الحاسدون له . أنا أسرُّ كثيراً من رسم هذا الموقف في قصة يوسف وزليخا لتذكيره بأن الإحساس الأرسخ في الحياة هو حسد الأخوة .

صرخ أخوه الأكبر : «من يستطيع الإقدام على سفالة كهذه ؟ أي عديم وجدان يستطيع قتل أخينا الذي لا يقدم على إيذاء نملة ؟»

وأنا أيضاً ساهمت معطياً انطباع مشاركة قلبية في الجواب الباكي على هذا السؤال ، وبحثت بيني وبين نفسي عن جواب ، من هم أعداء ظريف ؟ لو لم أقتله من كان سيقتله يا ترى ؟ في أحد الأيام - سنوات تحضير كتاب مهارة نامة على ما أعتقد - أذكر أنه كان يتشاجر معنا نحن الرسامين لعدم التزامنا بأصول المعلمين القدماء وعدم صرفنا الجهد اللازم ولعملنا تذهيباً أرخص وأسرع . من هم أولئك ؟ ولكن فيما بعد ، قيل إن العداوة لم تكن لهذا السبب بل شاعت أقاويل بأن السبب هو عشق تلميذ مجلد جميل في الطابق السفلي ولكن هذه حكاية قديمة جداً . كما أن هنالك من يغضب من ظرافة ظريف ودقته وحالته الأنيقة الناعمة ، ولأسباب أخرى : ارتباط ظريف بالأساليب القديمة إلى حد العبودية وعدم السماح باللا توافق اللوني بين الرسم والتذهيب ولو بمقدار شعرة وذكره عيوب النقاشين - وخاصة أنا - غير الموجودة بأكابرية غبية في حضرة الأستاذ عثمان . . . مشاجرته الأخيرة كانت حول موضوع يتحسس منه جداً الأستاذ عثمان وهو إنجاز نقاشي القصر بعض الأعمال الخاصة للخارج وقبول بعض التكليفات الصغيرة سراً ، وبسبب نقص اهتمام سلطاننا ونقص نقود خازن المال المرسلة إلينا في السنوات الأخيرة بدأ النقاشون بزيارة فيلات الباشوات محدثي النعمة ذات الطابقين ، والنقاشون الأمهر يزورون زوج الخالة ليلاً .

لم أزعل أبداً من قرار زوج الخالة بعدم الاستمرار بكتابه أو كتابنا بذريعة النحس . لا بد أنه يعتقد أن أحدنا نحن مزيّني الكتاب قد قتل ظريف أفندي صغير العقل . لو كنتم مكانه هل يمكن لكم أن تدْعوا قاتلاً إلى بيتكم ليلاً مرة كل أسبوعين لعمل النقش ؟ من هو القاتل الحقيقي ؟ أم أنكم قررتم من هو النقاش الأفضل أولاً ؟ ليس لدي شك أبداً أنه خلال فترة قصيرة سيعرف من هو النقاش الأمهر في التلوين والتذهيب واستخدام المسطرة والرسم ورسم الوجوه وتنظيم الصفحات بين النقاشين الذين يأتون إلى بيته ، وبعد ذلك سيستمر معي وحدي فقط . ولا أعتقد أبداً أن تبلغ به السفالة حداً يعتقد معه أنني مجرد قاتل عادي ولست نقاشاً حقيقياً ماهراً .

أنا أتابع بطرف عيني ذلك الغبي قرة أفندي الذي اصطحبه . غادرا المقبرة مع جمع الجنازة ، وعندما نزلا نحو رصيف أيوب للمراكب ، وذهبت خلفهما . ركبا في مركب ذي أربعة مجاديف من الرصيف ، وأنا نسيت تماماً الميت والجنازة وركبت في مركب ذي ستة مجاديف مع مجموعة من الشبان المتضاحكين بينهم تلاميذ . ومرة أمام ساحل باب الفنار اقترب قاربانا من بعضهما بعضاً ، ورأيت عن قرب قرة يهمس في أذن زوج الخالة ، وفجأة فكرت مرة أخرى كم أن قتل رجل أمر سهل . يالله لقد منحتنا جميعنا هذه القوة ولكنك أخفتنا لكي لا نستعملها .

ولكن الإنسان إذا تغلب على الخوف مرة وتحرك يتحول فوراً إلى شخص آخر . قديماً كنت أرتعد خوفاً ليس من الشيطان فقط بل من أصغر ظواهر السوء . أما الآن فأشعر أن الإساءة أمر محتمل حتى إنها ضرورية من أجل النقاش . بعد الجريمة إذا تركنا جانباً ارتجاف يدي مدة قصيرة فقد أصبحت بعد أن قتلت ذلك السافل أرسم رسماً أفضل وألوّن بجرأة وبألوان أكثر بريقاً ، والأهم من هذا فإن قوة خيالي باتت تبدع أعمالاً رائعة . ولكن كم

شخصاً في إسطنبول يستطيع تقدير الروائع التي أنقشها ؟!

من أمام ساحل (جبالي) وسط الخليج نظرت إلى إسطنبول غاضباً . برقت القباب المغطاة بالثلج بتأثير أشعة الشمس التي ظهرت فجأة . كلما كانت المدينة أكبر وأكثر تلويناً فإن فيها زوايا أكثر لإخفاء جرائمكم وذنوبكم ، وكلما كانت مزدحمة فهذا يعني أن فيها أناساً تمتزجون بهم مع جريمتكم . يجب ألا يقاس ذكاء المدن بعدد الجرائم المرتكبة بغدر ومكر فيها على مدى آلاف السنين وماتخفيه من العلماء والمكتبات والنقاشين الخطاطين والمدارس التي تضمها ، بل يجب أن يقاس بعدد أزقتها المعتمة . وحسب هذا المنطق لا أشك بأن اسطنبول أذكى مدينة في العالم .

في رصيف (أون قباني) نزل قرة . وزوج الخالة ، ثم نزلت أنا من المركب . في أثناء صعودهما المرتفع مستندين إلى بعضهما البعض كنت خلفهما . توقفا عند مكان محروق خلف جامع السلطان محمد ، وتحدثا للمرة الأخيرة قبل أن يفترقا . عندما بقي الأفندي زوج الخالة وحده بدا لي عجوزاً في تلك اللحظة . أحسست بضرورة أن أهرع إليه راكضاً وأخبره بافتراءات السافل الذي أتينا من جنازته ، وأن أشرح له أن ما عملتُه من أجل حماية أنفسنا جميعاً ، وأسأله : «هل ما قاله ظريف أفندي صحيح ، وأن في ما نرسمه سوء استخدام لثقة سلطاننا وخيانة لأصول النقش وكفراً بديننا ؟ هل أنهيتم الرسم الأخير الكبير ؟ »

وقفت وسط الزقاق المغطى بالثلج مساء ، ونظرت إلى نهاية الزقاق المظلم الذي تركه الأولاد وآباؤهم للجانّ واللصوص وقطاع الطرق والأشجار الثلجية والهمّ ولي ، وعادوا إلى بيوتهم . في نهاية الزقاق ، وفي بيت الأفندي زوج الخالة الفخم ذي الطابقين ، وبين أغصان شجرة الكستناء العارية تحت ذاك السقف أجمل فتاة في العالم . ولكنني لا أريد أن أفقد عقلي .

١٩

أنا نقود

أنا ذهبية سلطانية عثمانية عياري اثنان وعشرون . عليّ طغراء حضرة سلطاننا سلطان العالم . يمكنكم أن تكملوا الرسم في عقولكم ، هنا في هذا المقهى الجميل والحزين بعد الجنازة لأنني لم أدهن بماء الذهب لأن الأستاذ السلطاني لقلق رسمني في منتصف الليل . صورتي هنا ، ولكن أصلي في كيس أخينا الأستاذ الكبير النقاش لقلق . والآن ينهض على قدميه ويخرجني من كيسه ويعرضني عليكم . مرحباً ، مرحباً ، السلام عليكم أيها الفنانون المعلمون والضيوف . بريقي يجعلكم تحملقون ، ويعكس على عيونكم ألسنة لهب وتنفعلون لهذا ، وفي النهاية تغارون من صاحبي الأستاذ لقلق . أنتم على حق لأنه لا يوجد سواي ليقيس مهارة النقاش .

لقد كسب الأستاذ لقلق في الأشهر الثلاثة الأخيرة سبعاً وأربعين واحدة مثلي ، وكلنا في هذا الكيس ، ولقلق أفندي لا يخفي هذا عن أحد ، ويعرف أنه لا يوجد بين النقاشين من يكسب بهذا القدر . أنا أفخر كثيراً بقبولي مقياساً لهذا وإنهاء المناقشات غير اللازمة . قديماً قبل شرب القهوة وتفتح العقول كان النقاشون الأغبياء في الأمسيات لا يكتفون بالجدال حول الأمهر والملون الحقيقي والملون الأصلي ، فكلما اجتمعوا كانوا يتشاجرون ويحطمون أسنان بعضهم بعضاً . والآن سيطرة منطقي على كل شيء أعطى تناغماً لذيذاً

لنظام العمل في النقش خانة ، حتى إنه أعطى قيمة عظمى تليق بكبار أساتذة هرات .

حسب هذا المنطق وتناغمه أعدُّ لكم ما يمكن الحصول عليه مقابلي : قَدَمُ جارية شابة وجميلة يعادل واحداً بالخمسين منها ، مرآة حلاق جيدة ذات إطار من خشب الجوز مطعم بالعظم ، صندوق مدهون جيداً ومطعَم بتسعين ورقة فضية له نقش بشكل شمس ودرج ، مائة وعشرون رغيف خبز طازج ، تابوت وأرض لثلاثة قبور ، حزام فضي ، عشرُ حصان ، رجلا جارية سمينة عجوز ، عجل ، صحنان صينيان جيدان ، أجر شهرٍ لنقاش في نقش خانة السلطان من أمثال العجمي درويش محمد التبريزي ، صقر صيد جيد مع قفصه ، عشر جرار نبيذ ، قضاء ساعة لذة مع الغلام اللوطي الشهير محمود ، وإمكانات أخرى لا تحصى .

قبل أن آتي إلى هنا قضيت عشرة أيام في جورب صانع حذّاء فقير وسخ . المسكين كل ليلة ينام وهو يحصي ما يمكن له الحصول عليه مقابلي . وقد أثبت لي من خلال ذلك الشِعر الذي يردده كالهذيان أنه ليس ثمة ثقب لا تدخله النقود .

على سبيل ذكر الثقب ، لو حكيت لكم عن مغامراتي قبل مجيئي إلى هنا لغدوت مجلدات عديدة . سأبوح لكم بسر على أن يبقى بيننا ولا تبوحوا به لأحد ، هذا إذا كان سيدي لقلق لا يزعل . أتقسمون على هذا ؟

حسنٌ ، سأعترف . أنا لست ذهبية سلطانية عثمانية عيارها اثنان وعشرون قيراطاً إصدار ضرب خانة (تشمبرلي طاش) . أنا نقد مزوّر . صنعوني من ذهب عياره قليل في البندقية ، وجلبوني إلى هنا ، ودفعوني إلى التداول على أساس أنني ذهب . أشكركم على تفهمكم وضعي .

حسبما فهمته من (الضرب خانة) في البندقية أنهم يعملون هذا منذ

سنوات ، وحتى زمن قريب كان كفار البندقية يسكّون ذهبيات ذات عيار خفيف ويأخذونها إلى الشرق ، وهم يسكون دوقاتهم في الضرب خانة نفسها . والعثمانيون يحترمون منطق المكتوب ، أي أن الشيء كما كتب عليه ، لهذا لم يعيروا اهتماماً لعيار الذهب الموجود في الدوقات طالما أن الكتابة نفسها ، فملأت إسطنبول . بعد ذلك بدؤوا بفرز النقود المزورة بواسطة عضّها ، لأن النقود التي ذهبها أقل ونحاسها أكثر تكون أقسى . مثلاً إنك تكتوي بنار العشق فتهرع إلى الفرخ الجميل محمود الذي يعشقه العالم كله . بداية يضع النقود في فمه ولا يضع الشيء الآخر ، ويعضها ، بعد ذلك يقول إن هذه مزوّرة ويمتّعك نصف ساعة فقط وليس ساعة . نظر كفار البندقية فوجدوا أن نهاية عملتهم فجيعة ، عندئذ قالوا لأنفسهم : لنعمل نقوداً عثمانية مزورة لأن هؤلاء لا يميزونها .

والآن لألفت نظركم إلى هذا الوضع الغريب . أصبح الكافر البندقي إذا أراد أن يرسم فلا يرسم ، بل يعمل الشيء الحقيقي الذي يرسمه ، ولكنه عندما يعمل نقوداً فلا يعملها حقيقية بل يعمل تقليداً لها .

وُضِعْنا داخل صناديق حديدية في البندقية ، وأُركِبنا السفن ، وجئنا متمايلين مهتزين إلى اسطنبول . وجدت نفسي في فم معلم صراف تفوح منه رائحة الثوم . بعد قليل من الانتظار أتى قروي أبله يريد تصريف ذهبية . قال المعلم الصراف الخبيث : هات لنر هل ذهبيتك مزورة ، وألقى ذهبية القروي في فمه .

عندما تقابلنا في الفم رأيت أن ذهبية القروي حقيقية سلطانية عثمانية . عندما رأتني وسط روائح الثوم قالت لي : « أنت مزورة » وكانت على حق . ولأن كلامها المتكبر جرح كبريائي كذبت عليها قائلة : « أنت المزورة » .

في هذه الأثناء قال القروي الأبله متفاخراً : « وهل يمكن أن تكون

ذهبيتي مزورة ؟! أنا دفنتها في التراب قبل عشرين سنة ، وهل كان في تلك الأيام سوء أخلاق كما اليوم ؟! »

وبينما أنا تواقة لمعرفة ما سيجري لم يخرج الصرّاف ذهبية القروي بل أخرجني وقال : خذ هذه ذهبيتك . إنها نقود الكافر البندقي السافل المزورة ، لا أريدها » ثم أضاف موبخاً القروي الأبله : « ألا تخجل أنت ؟! » ردّ عليه القروي ثم أخذني وذهب . وعندما سمع من الصرّاف الآخر كلمات مشابهة كُسر قلبه ، وصرفني بتسعين قرشاً فضياً على أنني ذهب رخيص ، وبهذا بدأت رحلاتي المتتالية من يد إلى يد على مدى سبع سنوات .

لا بد من تفاخري بنفسي لأنني قضيت أكثر وقتي في اسطنبول متجولة من كيس إلى كيس ، ومن زنار إلى جيب كما يجب على النقود الذكية أن تفعل . كابوسي المخيف هو وضعي في جرة أو صرة ،ودفني تحت حجر لسنوات . وقع لي هذا ولكن لم يدم طويلاً ذلك الوقت الممل . أكثر الذين أقع بأيديهم - خاصة إذا عرفوني مزورة - يحاولون التخلص مني في أقرب فرصة . لم أصادف من نبّه زبونه إلى أنني مزورة . أما الذي لم ينتبهوا إلى أنني مزورة ودفعوا قيمتي مائة عشرين قرشاً أبيض وأدركوا أنهم (تخوزقوا) كانوا يقضون وقتهم وسط أبخرة الغضب حزينين نافذي الصبر حتى يتخلصوا مني . ووسط أبخرة الغضب تلك يحاولون مرات عديدة خوزقة الآخرين . (دائماً كانوا يتعرضون للفشل بسبب غضبهم) ومن يأخذني (مخوزقاً) بي يقول عن الذي أعطاني « عديم أخلاق » ويشتمه من كل قلبه .

خلال سبع السنوات هذه غيَرت خمسمائة وستين يداً ، ولم يبق بيت أو دكان أو سوق أو جامع أو كنيسة أو كيس لم أدخله . كلما تجولت أكثر أجد أن هنالك شائعات تدور حولي أكثر مما توقعت ، وتلفق حولي أساطير وأكاذيب . وصفعت على وجهي دائماً بقول : إنه لا قيمة لشيء غيري ،

وإنني ظالمة ، وعمياء ، ومادية وإن الدنيا تأسست عليَ وإمكانية شرائي كل شيء وبقذارتي وسفالتي . أما الذين يدركون أنني مزورة فيتصرفون بغضب أشد ويتكلمون بحقي أشياء أسوأ . وكلما نزلت قيمتي الحقيقية تزداد قيمتي المجازية . ولكن على الرغم من هذه المجازات الظالمة والافتراءات غير المسؤولة رأيت أن الناس يحبونني ملء قلوبهم . وفكرت بأن هذا يجب أن يفرحنا ملء قلوبنا أيضاً وإلى درجة كبيرة جداً في هذا الزمن الخاوي من المحبة .

رأيت اسطنبول حياً حياً وزقاقاً زقاقاً ، وتعرفت على الجميع من اليهود إلى الأباظيين ، ومن العرب إلى المنغازيين ، وخرجت خارج اسطنبول مرة في كيس شيخ من أدرنة ذهب إلى (مانيسا) ، وعندما اعترضنا قطاع الطرق ، وصاحوا : إما روحك أو مالك ، زقني المسكين في ثقبه الخلفي مخفياً إياي ، وهناك كانت تفوح رائحة أسوأ من رائحة فم الرجل الذي يأكل الثوم . ولكن بعد قليل أصبحت الأمور أسوأ مما كانت عليه لأن قطاع الطرق ألم يقولوا : « إما مالك أو روحك » لكنهم في هذه المرة غيّروا كلامهم وقالوا : « إما مالك أو عرضك ؟! » ثم اصطفوا بالدور على الشيخ . وعليَ ألا أشرح لكم ما جرى في ذلك الثقب . لهذا السبب لم أسرّ من الخروج خارج اسطنبول .

أُحببتُ في اسطنبول دائماً . قبلتني فتيات كأنني الزوج الذي في خيالهن ، وأخفينني في أكياس مخملية وتحت المخدات وبين أثدائهن الضخام وفي سراويلهن الداخلية وجسسنني في نومهن فيما إذا كنت هناك . خُبئت في طرف موقد حمام ، وفي جزمة ، وفي قعر زجاجة تفوح برائحة رائعة في دكان عطار ، وفي جيب كيس عدس لطباخ ، وتجولت في اسطنبول كلها داخل جيوب سرية لأحزمة من جلد الجمل أو من بطانة مصرية ملونة ، وفي أحذية مبطنة بالحور ، وفي زوايا سرية لسراويل ملونة ، ووضعني المعلم الساعاتي بترو في قلب الساعة ذات البندول ، ووضعني سمان رومي داخل

قالب جبنة ، واختبأت مع الأختام والمفاتيح في لفة قماش خام في المداخن وداخل المواقد ، وتحت حافة نافذة ، وفي قلب فراش من التبن ، وفي أقسام سرية من خزائن أرضية وصناديق ؛ ورأيت آباء يقومون عن المائدة مرات لتفقدي إذا كنت في مكاني ، وأطفالاً زقوني في أنوفهم ليشموني ، وعجائز لهم رجل في الدنيا وأخرى في القبر لا يرتاحون دون تفقدي سبع مرات في الكأس السنديانية ؛ ثمة امرأة شركسية موسوسة بالنظافة ، بعد أن تنظف البيت طوال النهار تخرجنا من الكيس وتنظفنا بفرشاة خشبية ، وثمة صراف أعور يعمل منا قلاعاً كل يوم ، وحمّال تفوح منه رائحة الحبق كان ينظر إليّ كأنه ينظر إلى عائلته في القبر ، ومذهب ليس بيننا الآن - لا ضرورة لذكر اسمه - كان يرصفنا يومياً بمختلف الأشكال ؛ وتنزهت في قوارب من خشب الزان ، ودخلت إلى القصر وخرجت ، واختبأت في جلود شغل هرات وفي أكعاب أحذية تفوح منها رائحة الورد ، وتحت غطاء سرج ، ورأيت مئات الأيدي القذرة والمشعرة والسمينة والمدهنة والمرتجفة والعجوزة ، وتشبّعت برائحة مجالس الأفيون وورشات صنع الشمع و(البصطرمة) وعرق اسطنبول كلها . وبعد أن مررت من هذا الهيجان والحركة كلها وأخذني قاطع طريق منحوس بعد قطعه رقبة صاحبي بصق عليّ وقال : «تفوو ، كل هذا بسببك» زعلت وتمنيت ألا أكون موجودة .

لولا وجودي لما استطاع أحد التمييز بين النقّاش الجيد والسيئ ، ولهذا السبب لم أزل لأن النقاشين سيقتلون بعضهم البعض من أجلي ، ودخلت كيس أمهر النقاشين وأذكاهم آتية إلى هنا .

إذا كان بينكم أفضل منه فليحصل عليّ .

* * *

٣٠

اسمي قرة

ماذا يعلم أبو شكورة من الرسائل التي تبادلتها معي ؟ لو نظرت إلى أسلوب شكورة الخائفة من أبيها عليَ أن أستنتج أنهما لم يتحدثا بكلمة واحدة حولي ، ولكنني أحس أن وضعي ليس هكذا . يقلقني المكر في نظرة إستر بائعة الصرة ، والسحر في ظهور شكورة وراء النافذة ، وتصميم زوج الخالة في إرسالي إلى النقاشين ، والعجز الذي قابلني به هذا الصباح .

عندما جلس أمامي زوج الخالة صباحاً بدأ فوراً يحكي لي عن الرسوم الشخصية التي رآها في البندقية . قال إنه زار كثيراً من القصور والبيوت الفخمة والكنائس بصفته سفير سلطاننا حاكم الدنيا . ووقف أياماً طويلة أمام آلاف الصور الشخصية ، ورأى آلاف الوجوه المرسومة على القماش المشدود أو الخشب وداخل إطارات وعلى جدران ، وقال : « تختلف عن بعضها بعضاً ، وكل واحدة وحدها تمثل وجوهاً إنسانية لا شبيه لها » وقال إنه داخ من تنوعها وتلوينها وتدرج الضوء الساقط عليها وجماله ، وحتى قساوته ، والمعنى الذي تعطيه عيونها .

قال : « كل منهم يوصي على صورة شخصية وكأن الأمر مرض معدٍ . أهالي البندقية كلهم ، وكل من لديه نقود أو قوة يعمل صورة شخصية لتكون شاهداً على حياته وذكرى من جهة ، وإشارة لثروته وقوته وسلطته من جهة

أخرى ، ومن أجل الإشارة إلى أنهم دائماً أمامنا وإشعار بعضهم بعضاً بوجودهم واختلافهم عن الآخرين أيضاً » .

حملت كلماته استصغاراً كأنه ناتج عن غيرة وحرص وجوع عين ، ولكنه عندما تحدّث عن الرسوم الشخصية التي رآها في البندقية نوّر وجهه وكأنه يحكي عن ذكرى طفولته ودبّت فيه الحياة .

وقد حوّل رعاة الرسم والأغنياء والأمراء والعائلات الكبيرة اغتنام كل فرصة لرسم وجوههم إلى حالة من الوباء إلى حد اشتراط هؤلاء الكفار وضع وجوههم في الرسوم التي يوصون عليها من أجل الكنائس وتتضمن مواقف دينية من الإنجيل . وهكذا تنظر إلى رسم دفن القديس استيفان فتجد إلى جانب القبر بين الباكين الأمير الذي يريك الرسوم وهو في ذروة السعادة . بعد ذلك ترى في رسم جداري يمثل القديس بترو وهو يشفي المرضى وفي ظله شخص يتلوى ألماً في الزاوية فتنتبه إلى أن هذا أخو صاحب البيت الأسلم من خنزير . وفي اليوم التالي ترى في الرسم الممثل بعث الموتى جارك على مائدة الغداء الذي ملأ معدته إلى آخرها في حالة موته .

قال زوج الخالة خائفاً كأنه يتحدث عن جذب الشيطان : « هنالك من تمادى في هذا الموضوع إلى حد رضائه أن يكون خادماً يملأ الكؤوس في ازدحام أو ظالماً يرمي الحجارة على امرأة زنجية أو قاتلاً ملطخة يديه بالدماء داخل الرسم » .

قلت متظاهراً بعدم الفهم : « كما في الكتب المتناولة أساطير العجم القديمة ، وكجلوس الشاه إسماعيل على العرش ، أو كما في حكاية خسرو وشيرين إذ يمكن أن نصادف في مكان خسرو رسم تيمور الذي حكم بعده بزمن طويل »

هل ثمة قرقعة في مكان ما من البيت ؟

بعد ذلك قال زوج الخالة : «ولكن رسوم الإفرنج تلك كأنها تُعمل من أجل إخافتنا . لا يخيفوننا بقوة من يوصي عليها وغناه بل بإقناعنا أن هذه الوجوه في الدنيا أمر خاص ومدهش . الوجوه لا شبيه لها والعيون والوقفات والألبسة التي لها ظل في كل ثنية من ثنياتها تغدو مخلوقاً مدهشاً يريدون إخافتنا به» .

حكى لي عن ضياعه في غرف قصر ثري مهووس بحب الرسم يقع وسط اقطاعيته الواسعة على شاطئ بحيرة (كومو) وجَمَعَ رسوم مشاهير تاريخ الأفرنج كلهم من ملوك وكاردينالات وضباط وشعراء . قال : «عندما تركني صاحب البيت المضياف أتجول على هواي في البيت بعد أن جوّلني في قسم منه رأيت أن أكثر رسوم شخصيات الكفار الذي يدعي أنهم مهمون تبدو حقيقة مثلي تماماً تنظر في بؤبؤ عيني ، وأن تلك الشخصيات تحولت إلى شخصيات تملأ مكاناً أكبر في هذه الدنيا لمجرد أنها رسمت . عمل رسم شخصي أَسرى بينهم سحراً ، وجعلهم لا شبيه لهم ، وهذا ما أشعرني لحظة وأنا بين الرسوم بالنقص والضعف ، وكأنني سأفهم سبب وجودي في هذا العالم أفضل إذا رسمت بهذا الأسلوب» .

ولكنه فهم بسرعة أن حب رسم الشخصيات سينهي النقش الإسلامي الذي أوصله نقاشو هرات القدماء إلى درجة الكمال ووضعوا له قواعد لا تتغير لهذا توجس فقال : «أشعر وكأنني مختلف عن الجميع ولا يشبهني أحد» وهكذا ستوجد لحظات يدفعنا فيها الشيطان إلى ارتكاب الحرام ، وفي الوقت نفسه شعر بإرادة قوية تجره نحو الشيء الذي يخاف منه : «كيف أعبّر عن هذا ؟ كأنه إرادة ارتكاب المحرّم والتكبر على الله واعتقاد أنفسنا مهمين ووضعنا في مركز العالم» .

فيما بعد خطر بباله أن ما تحوّل بين أيدي الأساتذة الأفرنج إلى لعبة ولد

مغرور سيتجاوز السحر بتوجيه سلطاننا المعظم ويفرض الإيمان بالقوة الحق ويتحول إلى خدمة ديننا .

وقال إن فكرة تحضير كتاب يضم رسم سلطاننا وما يمثله ظهرت في هذه الأثناء ، لأن زوج خالتي بعد أن عاد إلى اسطنبول وقال لسلطاننا إنه من الجميل أن يرسم على طريقة الأساتذة الأفرنج ، اعترض .

وقال : «الحكاية هي الأصل ، والرسم الجميل يكمل حكاية بشكل ظريف ، عندما أفكر برسم غير مكمل لحكاية سيغدو ذلك الرسم في ما بعد صنماً . طالما أننا لن نؤمن بحكاية غير موجودة فسنؤمن بالرسم أو ذلك الشيء ، وهذا يشبه الأصنام التي كانت في الكعبة قبل أن يأمر رسولنا بتحطيمها . كيف يمكن رسم هذه القرنفلة أو هذا القزم الأبله مثلاً إذا لم يكن جزءاً من حكاية ؟!»

«جمال القرنفلة وإظهار أنه لا شبيه لها» .

«ثم بعد ذلك هل ستضعه في مركز العالم من خلال توزيع الصفحة ؟»

قال لي زوج خالتي : «خفت أن يرى سلطاننا إلى أين ستؤدي بي الأفكار فتلخبطت»

شعرت أن خوفه هو عدم إمكانية وضع شيء في مركز العالم وبالتالي مركز الورقة سوى النية لله .

بعد ذلك قال سلطاننا : «فيما بعد سيُعلّق الرسم الذي مركزت فيه قزماً على الجدار ، والرسم لا يعلق على الجدار لأنه مهما كان هدفنا من تعليق هذا الرسم على الجدار سنبدأ بعبادته بعد فترة . لو آمنت - حاشا - كما يؤمن الكفار بأن حضرة عيسى هو الله عندئذ يمكن لنا أن نرى الله على الأرض ، وحتى إنه يمكن ظهوره على شكل إنسان ، وبالتالي يُعمل رسم إنسان وأقبل تعليقه على الجدار . إنكم تدركون أن الإنسان في النهاية سيعبد أي رسم

يعلق على الجدار دون انتباه » وهذا ما أعتقد أن زوج خالتي يخشاه .

قال لي زوج خالتي : « كنت أفهمه إلى حد خوفي مما كنا نفكر فيه كلانا ، ولهذا السبب قال سلطاننا :« أنا لا أرضى بتعليق صورتي على الجدار » .

ولكن زوج خالتي قال لي هامساً مبتسماً ابتسامة شيطانية : « ولكنه يريد هذا » والآن جاء دوري بالخوف .

قال سلطاننا : « ولكنني أريد أن يُعمل لي رسم حسب الأصول الأفرنجية ، ولكن يجب إخفاء هذا الرسم بين صفحات كتاب ، وأنت ستقول لي ما هو موضوع الكتاب » .

قال زوج خالتي : « فكرت لحظة بدهشة وإعجاب » ثم بعد ذلك ابتسم لي ابتسامة شيطانية شبيهة بتلك التي ابتسمها قبل قليل ، تهيأ لي أن زوج خالتي تحول إلى شخص آخر في لحظة .

« أمرني سلطاننا بالبدء في الكتاب فوراً ، ودخت من الفرح . وأمر بإعداد هدية لدوق البندقية . أراد للكتاب أن يكون شاهداً على قوة سلطاننا المعظم خليفة المسلمين المظفر بمناسبة الذكرى الألف للهجرة ، ولكنه أراد مني إعداد هذا الكتاب بسرية وألا يعرف أنني أنوي الاتفاق مع البندقيين ولكي لا تحدث غيرة ومشاجرات في النقش خانة . وأنا بدأت بتكليف الرسوم بسعادة وسرية » .

* * *

٣١

أنا زوج خالتكم

صباح يوم الجمعة بدأت أشرح له كيف سيكون الكتاب المتضمن رسم سلطاننا على طراز الأساتذة الأفرنج . نقطة بدايتي هي كيف حكيت الحكاية لسلطاننا وأقنعته بعمل الكتاب . ولكن هدفي السرّي هو جعل قرة يكتب الحكاية مقابل الرسوم ولم نبدأ بهذا بعد .

قلت له إن أغلب رسوم الكتاب أنجزت ، ويكاد ينجز الرسم الأخير ، وقلت : «هنالك رسم الموت . ولكي يظهر عالم سلطاننا في غاية الطمأنينة في كتابي هنالك رسم شجرة كلفت بها لقلق ، وهنالك رسم الشيطان ورسم الذهب الذي يؤدي بنا إلى البعيد جداً ، ورسم كلب عالم وماكر دائماً ، ورسم نقود . . . جعلت رسامي النقش خانة يرسمونها بجمال لا يوصف ، إذا رأيتها ستقول فوراً ما هي كتابتها ، أنا أعرف تماماً أن الشعر شقيق الرسم ، واللون شقيق الكلمة»

في برهة فكرت بالقول له إنني يمكن أن أزوّجه ابنتي ، وهل يمكن أن يسكن معنا في هذا البيت ؟ بعد ذلك قلت لنفسي دعه يستمع إليك بكل دقة ولا تنخدع بطفولية تعابير وجهه ، ثم إنه يأمل بأخذ شكورة والذهاب . ولكن ليس لدي من يستطيع إنهاء كتابي غيره .

في أثناء عودتنا من صلاة الجمعة حدّثته عن الظل باعتباره أهم اكتشاف

في رسوم الأساتذة الإيطاليين ، وقلت له إذا كنا نعمل رسماً للزقاق ونسير فيه ونقف ونتحدث وكأننا ننظر إلى الدنيا . فعلينا أن نتعلم كيف ندخل أكثر شيء يُرى في الأزقة داخل رسمنا كما يعمل الأساتذة الأفرنج وهو الظل .

سأل قرة : « كيف يمكن أن يُرسم الظل ؟ »

رأيت أن قريبي نافذ الصبر وهو يستمع إليَ فيلعب بالحقة المغولية التي جلبها هو ، وأحياناً يتناول المحراك الحديدي ويحرك الموقد . وأحياناً أتخيّل أنه سيرفع ذلك القضيب وينزل به على رأسي ويقتلني لأنني سأبعد النقش عن رؤية الله ، ولأنني سأخرج بالرسم من أحلام أساتذة هرات وأخون تقاليد النقش كلها ، ولأنني خدعت سلطاننا بهذا . وأحياناً كان يجلس مطولاً دون حركة ولا يرفع نظره عن عيني . اعتقدت أنه يفكر بأن يكون عبدي حتى يأخذ ابنتي . وفي إحدى المرات أخرجته إلى الحديقة وجربت أن أشرح له بأبوية كما في طفولته سقوط أشعة الشمس على الأشجار والأوراق ، وذوبان الثلج ، ومنطق رؤية البيوت في الحي أصغر كلما ابتعدت . ولكن ما عملته كان خطأ . كفاني بهذا القدر أن يريني أن علاقة الأب والابن القديمة التي كانت بيننا قد انتهت منذ زمن طويل . ذهب عنه التوق والفضول للمعرفة وحل محله احتمال استماع تخريفات عجوز وضع عينه على ابنته . لقد عشعش في نفس قريبي ثقل غبار المدن والممالك التي زارها على مدى اثنتي عشرة سنة ، وكان متعباً أكثر مني ، لهذا أشفقت عليه وليس بسبب عدم تزويجي شكورة له قبل اثنتي عشرة سنة - كان هذا مستحيلاً - بل لأنني أحلم بالخروج على أصول النقاشين المسلمين وأساتذة هرات الأسطوريين ، لأنني مصرٌ على شرح هذا له . هكذا تخيلت أن موتي سيكون على يده .

لم أخف منه بل على العكس جرّبت تخويفه لأنني شعرت بأن الخوف مناسب للكتابة التي طلبت منه أن يكتبها . قلت له يجب على الإنسان أن

يضع نفسه في مركز العالم كما في الرسم ، وأضفت : «أحد نقاشيَ رسم لي الموت بشكل رائع جداً ، هل تريد أن تراه ؟»

وهكذا بدأت أريه الرسوم التي أجعل النقاشين يرسمونها منذ سنة . كان خجولاً في البداية وحتى خائفاً . عندما رأى أن الموقف مستوحى من مواقف الموت في نصوص كثير من (الشاه نامات) مثل قطع الرأس لدى (إفراسياب) أو (سياووش) أو قتل (رستم) و(سهراب) لابنيهما دون معرفة ، استطاع الدخول إلى الموضوع فوراً . في الرسم الحزين والوقور الذي جعلتهم يعملونه لجنازة المرحوم السلطان سليمان توزيع صفحة حسب الأصول الأفرنجية ومحاولة تظليل عملتها بقلمي . أشرت إلى العمق الشيطاني الذي يمزج بين الغيوم وخط الأفق . ذكّرته أن الموت مرسوم بشخصية متفردة على طريقة الكفار المتخبطين من أجل التفرد في الرسوم التي رأيتها في قصور البندقية ، فقلت : «إنهم يريدون التفرد بشدة وعدم التشبه بأحد . انظر ، انظر في وسط عين الموت ، فالإنسان لا يخاف من الموت بل يخاف من شدة الرغبة بالتفرد والاستثناء . انظر إلى هذا الرسم واكتب حكايته . انطق الموت ، وها هو الورق وطقم الكتابة ، وما تكتبه سنعطيه للخطاط فوراً» .

نظر فترة إلى الرسم صامتاً ، وبعد قليل سأل : «من رسم هذا ؟» .

«فراشة ، هو الأكثر موهبة ، والأستاذ عثمان منذ سنين طويلة يعشقه ومعجب به» .

قال قرة : «رأيت شبيه هذا الكلب ولكن بخطوط أسرع في المقهى الذي يحكي فيه المداح حكايات» .

أكثر نقاشيَ يرتبطون روحياً بالأستاذ عثمان والنقش خانة ، ولا يؤمنون بما ينقشونه من أجل كتابي . أستطيع تخيلهم بعد أن يخرجوا من هنا في منتصف الليل يهزؤون بشكل غير مؤدب بالرسوم التي عملوها من أجل

النقود وبي في المقهى . في إحدى المرات أمر سلطاننا رساماً بندقياً شاباً جُلِبَ سفيراً بناءً على إلحاحي أن يعمل له رسوماً خاصة به . بعد ذلك أمر الأستاذ عثمان أن يعمل مثيلاً للرسم الزيتي وفق أصوله الخاصة . واعتبرني الأستاذ عثمان مسؤولاً عن إنجاز ذلك الرسم المخجل الذي أجبر على عمله تقليداً للرسام البندقي ، وهو محقّ .

عرضت عليه طوال النهار الرسوم كلها عدا ذلك الذي لم أكمله بعد ، وحفزته لكتابة الحكاية ، وحكيت له عن تصرفات النقاشين وعن مقدار النقود التي دفعتها لهم . وكما تحدثنا عن المنظور وعما إذا كان صغر الأشياء في الرسم كلما ابتعدت خروج عن الدين أم لا ، تحدثنا أيضاً عن ظريف أفندي المسكين وإمكان أن تكون غيرته وحرصه على النقود سبب قتله .

عندما ذهب قرة إلى بيته ليلاً كنت واثقاً أنه سيأتي في الصباح التالي كما وعد للاستماع إلى حكايات كتابي . وفي أثناء إصغائي إلى ابتعاد وقع خطاه أمام الباب المفتوح كان ثمة شيء في قلب الليل البارد يجعل الأرق والقلق من القتل أقوى مني ومن كتابي وأكثر شيطانية .

أغلقت الباب خلفه بحذر وأقفلته ووضعت خلفه جرة ماء قديمة أستخدمها أصيصاً للحبق ، وقبل إطفاء الموقد والدخول إلى الفراش نظرت إلى شكورة فوجدتها أمامي لابسة جلباباً أبيض يظهرها كشبح في الظلمة .

سألتها قائلاً : «هل أنت مصممة إلى النهاية على الزواج من هذا الرجل ؟»

«لا يا أبي العزيز ، أنا تخليت عن فكرة الزواج من زمن طويل ، فوق هذا أنا متزوجة»

«إذا كنتِ تريدين الزواج من هذا الرجل يمكن أن أسمح لك»

«لا أريد الزواج منه»

«لماذا ؟»

«لأنكم لا تريدون . أنا لا أريد ومن كل قلبي الزواج من رجل لا تريدونه» .

وفي ضوء جمر الموقد انعكست عيناها لحظة وسط الظلمة ، كانت دامعتين من الغضب وليس من الأسى ولكن ليس في صوتها أي زعل .

قلت وكأنني أبوح لها بسرّ : «قرة يحبك كثيراً»

«أعرف»

«استمع طوال اليوم لما حكيته له ليس لعشقه النقش بل لعشقه لك»

«سينهي كتابكم ياه . . . هذا هو المهم»

قلت : «سيعود زوجك في يوم ما»

«لا أدري لماذا ، ولا السبب . ولعله الصمت . فهمت جيداً هذه الليلة أن زوجي لن يعود أبداً . يجب أن يكون ما رأيته في حلمي صحيحاً . لقد قتلوه . لقد أصبح طعاماً للذئاب والطيور منذ زمن» همستْ في الجملة الأخيرة وكأنها تخشى من سماع الأولاد النائمين لها ، ولكنها قالتها بغضب غريب .

قلت : «إذا قتلوني أريدك أن تنهي هذا الكتاب الذي أعطيته كل ما لدي . أقسمي أنك ستعملين هذا!»

«أقسم . . . ولكن من سينهي كتابكم ؟»

«قرة ، وأنت تستطيعين جعله يعمل هذا»

قالت : «أنتم تجعلونه يعمله يا أبي العزيز ، لستم بحاجة إليّ»

«صحيح ، ولكنه يتحملني بسببك . إذا قتلوني يمكن أن يخاف ويتخلى عن الكتاب»

عندئذ قالت ابنتي الذكية باسمة : «عندئذ لا يتزوجني»

من أين اخترع أنها ابتسمت ؟ طوال مدة حديثنا هذا لم أر في عينيها سوى بريق دمعة في بعض الأحيان . كنا واقفيْن وسط الغرفة متقابلين متوترين .

لم أستطع إمساك نفسي عن سؤالها : «هل تتراسلان ، أو تشيران لبعضكما البعض ؟ »

« كيف يمكنكم التفكير بأمر كهذا ؟ »

خيّم صمت طويل ومتقلّب ، نبح كلب في البعيد جداً . شعرت ببرد خفيف فارتعشت . غدت الغرفة مظلمة إلى حد لم نعد نرى فيه بعضنا البعض ، ولكننا نشعر بوجودنا ، بعد ذلك فجأة تعانقنا ، وكل منا احتضن الآخر بقوته كلها ، وبدأت تبكي ، وقالت إنها اشتاقت إلى أمها ، وقبلتُها من شعرها الذي تفوح منه رائحة شبيهة برائحة شعر أمها ، ومسدته بيدي . اصطحبتها إلى جانب ابنيها النائمين ملتفين ونومتها . عندما فكرت بمجريات اليومين السابقين لم يبق لدي شبهة بأن شكورة وقرة يتراسلان .

* * *

٣٣
اسمي قرة

بعد أن عدت إلى البيت ليلاً تخلصت من صاحبة البيت التي بدأت تظن أنها أمي ، وأغلقتُ على نفسي باب الغرفة ، وتمددتُ على الفراش أفكر في شكورة .

لأبدأ بالضجة التي انشددتُ إليها بانتباه واستمتعت بها كلعبة . لم تظهر لي أبداً عند زيارتي الثانية لهم بعد غياب اثنتي عشرة سنة ، ومن جانب آخر فقد نجحت بتطويقي بشكل سحري ، وتأكدت أنها تراني باستمرار ، وتنظر إليّ متفحصة كخاطب ، تشعر بسعادة لعبة منطقية . لهذا السبب كنت أعتقد باستمرار أنني أراها . وهكذا فهمت أكثر كلمات ابن عربي في حديثه عن مكان رؤية غير المرئي والشعور بوجود غير الموجود بجانبك دائماً في العشق .

كنت أستنتج من أصوات البيت الداخلية وصرير أخشاب الأرض التي انتصتُ إليها بدقة أن شكورة تتابعني باستمرار . في إحدى الفترات فهمت أنها مع الولدين في الغرفة الجانبية المفتوحة على الموزع ، لأنني سمعت تدافعَ الولدين وشجارهما بعد ذلك محاولتهما خفض صوتيهما إثر نظرات أمهما المهددة وتقطيب الحاجبين . أحياناً كنت أسمع همساً ليس كذاك الذي يُهمس من أجل عدم تشتيت وعي المصلي بل استعراضياً ، وبعده أسمع ضحكات

مصحوبة بقهقهة خفيفة .

في مرة أخرى دخل الولدان شوكت وأورهان عندما كان جدهما يحدثني عن روعة النور والظل ، وقدما لنا القهوة في صينية بحركات مدروسة ودقيقة ومخططة مسبقاً . لا بد أن أمهما جعلتهما يقومان بهذا العمل الذي يجب أن تعمله خيرية لإعطائهما فرصة التعرف على الرجل الذي يمكن أن يكون بمثابة أب لهما عن قرب ، ولخلق فرصة للتحدث عنه بالتفصيل . قلت لشوكت : « ما أجمل عينيك ؟ » وأدركت بسرعة إمكانية أن يغار أورهان فقلت له : « وأنت أيضاً » وبسرعة أخرجت زهرة قرنفل ذابلة ، وبعد أن وضعت ورقة منها في الصينية قبّلتُ الولدين من خديهما . بعد ذلك صدر من داخل البيت صوت ضحك وقهقهة .

أحياناً كان يدفعني الفضول لمعرفة المكان أو الثقب في الباب المغلق أو الجدار الذي ترصدني منه العين المراقبة فانظر إلى فواصل الخشب والشقوق ، وأسوق تخمينات ، وأتخيل كيف تتابعني شكورة من خلف ذلك الباب ، وفجأة أعتقد أن شبهتي من تلك النقطة المظلمة فارغة ، ولكي أتأكد من شبهتي ومن حقيقتها أنهض من مكاني الذي أجلس فيه حتى ولو كان في هذا قلة احترام لزوج خالتي الذي يشرح لي ، ولأحاول إظهار نفسي مستمعاً جيداً ومشغولاً ومندهشاً ومفكراً بالحكاية التي يحكيها أسير في الغرفة متصنّعاً الشرود ، وأقترب من النقطة أو الظلمة التي اشتبهت بها .

وهناك عند المكان الذي اعتقدته نقطة مراقبة ، كان يحبطني عدم رؤية عين شكورة . وفي لحظة يسيطر عليّ شعور غريب بالوحدة ، وأتململ كإنسان لا يعرف ما يعمله في الحياة .

أحياناً أشعر في داخلي أن شكورة تتابعني وأنني تحت نظراتها ، وأؤمن بهذا إلى حد أنني أتصرف تصرفات متنوعة معطياً لنفسي انطباعاً يوحي

بالعمق والقوة والسيطرة من أجل التأثير على الفتاة التي أحبها . وأحياناً يخطر ببالي أن شكورة وولديها يقارنونني بذلك الزوج الذي لم يعد وذلك الأب المفقود ، فيتوقف تفكيري عند النوع الجديد من مشاهير البندقية الذين يشرح لي زوج خالتي عن رسومهم . إنهم لم يشتهروا بسبب الآلام التي ذاقوها في غرف التعذيب كالقديسين أو بسبب الرؤوس التي طيّروها بقوة زنودهم ورؤوس سيوفهم مثل الزوج المفقود ، إنهم اشتهروا بسبب كتاب كتبوه أو صفحة واحدة رسموها أو نقشوها ، ولأن شكورة لا بد وأنها سمعت بهذا من أبيها أردت أن أتشبه بهم . لقد بذلت جهداً كبيراً من أجل استحضار تلك الرسوم أمام عيني وهي حسب قول زوج خالتي - رآها ويحكي لي عنها ، وأنا لم أرها - معمولة بقوة إلهام مستمدة من ظلمات الدنيا التي يمكن رؤيتها بالعين ومن الزوايا السحرية ، ولكنني في النهاية لم أستطع استحضارها وشعرت بنوع من الهزيمة ورأيت نفسي صغيراً .

في برهة أخرى فوجئت بشوكت أمامي ، وفي لحظة اندساسه بي وسط الظلام اعتقدت أنه سيقبّل يدي على طريقة القبائل العربية التي تعيش فيما وراء النهر وعادة بعض الأقوام الشركسية إذ يقبّل أكبر ذكر في البيت يد الضيف عند الدخول وعند الخروج إلى الزقاق ، وفي حالة ذهول مددت له يدي ليقبلها ويرفعها إلى جبينه ، وفي الوقت نفسه سمعت ضحكة شكورة من مكان ليس بعيداً . هل تضحك عليَ ؟ احترت في أمري ، وكنوع من الخلاص وأن هذا الذي يمكن أن يُتوقع مني احتضنت شوكت وقبلته من خده . وعند عملي هذا أعرف أنني قطعتُ كلام زوج خالتي ولهذا ابتسمت له بشكل يشعره بأنني لا أريد أن أبدي حركة عدم احترام من جهة وشمشمت الولد بانتباه لمعرفة إن كان يحمل أثراً من رائحة أمه من جهة أخرى . وعندما انتبهت إلى أنه دس بيدي ورقة صغيرة كان شوكت قد التفت وبدأ يبتعد .

أطبقت أصابعي تماماً على الورقة وخبأتها كجوهرة ، وعندما أدركت جيداً أنها رسالة صغيرة مرسلة إليّ من شكورة كدت أبتسم لزوج خالتي بسفاهة لشدة فرحي . ألا يشكل هذا فقط دليلاً قاطعاً على إرادة شكورة لي بقوة ؟ وفجأة ودون توقع رأيت في خيالي أنني أضاجع شكورة بجنون ، وقد آمنت أن الأمر غير المعقول الذي أتخيله سيحدث في وقت قريب جدا فانتبهت إلى أن شيئي ينتصب بشكل غير مناسب أمام زوج خالتي . هل رأت هذا شكورة ؟ ولكي أوجه انتباهي إلى نقطة أخرى استمعت إلى ما كان يحكيه زوج خالتي منذ فترة طويلة .

بعد وقت طويل عندما كان زوج خالتي يمد جسمه ليريني صفحة أخرى مرسومة من الكتاب فتحت الورقة التي تفوح منها رائحة طيب فرأيت أنها غير مكتوبة ، ولأنني لم أؤمن بإمكانية أن تكون الورقة فارغة قلبتها في يدي .

« نافذة » قال زوج خالتي ثم أضاف : « استخدام طريقة المنظور يشبه النظر إلى العالم من خلال نافذة . . . ما هذه الورقة ؟ »

قلت له : « لا شيء يا زوج الخالة » ولكنني فيما بعد شممت الورقة مطولاً .

بعد الغداء لم أرد استخدام مقعدة زوج خالتي فاستأذنته وخرجت إلى بيت الخلاء في الحديقة وكان بارداً مثل الجليد . وقبل أن تبرد مؤخرتي عملت بسرعة وخرجت فوجدت شوكت كأنه يقطع طريقي ولكنه صامت بمكر وفي يده مقعدة جده المليئة وما زال البخار ينبعث منها . دخل بيت الخلاء وأفرغها ثم خرج حاملاً المقعدة الفارغة نافخاً خديه السمينين مركزاً عينيه الجميلتين على عيني .

قال : « هل رأيت قطة ميتة ؟ » أنفه كأنف أمه تماماً ، هل تنظر أمه

إلينا ؟ نظرت وإذ بسحاب النافذة الخيالية في الطابق الثاني التي رأيت منها وجه شكورة بعد كل هذه السنين للمرة الأولى مغلقة .

« لا »

« هل أريك القطة الميتة في بيت اليهودي المشنوق ؟ »

وقبل أن يتلقى جوابي خرج إلى الزقاق ، وذهبت خلفه . مشينا أربعين أو خمسين خطوة في الطريق المتجلد ثم دخلنا إلى حديقة فوضوية . حولنا رطوبة وأوراق متفسخة ورائحة عفن خفيفة جداً . دخل الولد إلى البيت الأصفر المختبئ خلف أشجار التين واللوز الحزينة في الظلمة بخطوات واثقة كمن يعرف المكان جيداً .

كان البيت فارغاً تماماً ولكن يبدو من جفافه ودفنه كأنه يعاش فيه .

سألته : « بيت من هذا ؟ »

« بيت اليهود . عندما مات الرجل ذهبت زوجته وأولاده إلى حي اليهود عند رصيف (يميش) والآن يحاولون بيعه لإستر بائعة الصرة » ذهب إلى زاوية الغرفة وعاد ثم قال : « ذهبت . القطة غير موجودة »

« وهل تذهب القطة الميتة ؟ »

« جدي يقول إن الأموات يتجولون »

قلت : « ليسوا هم ، ولكن أرواحهم تتجول »

« من أين تعرف ؟ » قال هذا بجد وهو يمسك بالمقعدة في حضنه بقوة وانتباه .

« أعرف . . . هل تأتي دائماً إلى هنا ؟ »

« أمي تأتي مع إستر . يقال إن الجان يأتون إلى هنا في الليل ولكنني لا أخاف . هل قتلت أحداً ؟ »

« نعم »

« كم واحد ؟ »

« ليس كثيراً ، اثنان »

« بالسيف ؟ »

« بالسيف »

« هل تتجول أرواحهم ؟ »

« لا أعرف ، حسب الكتب يجب أن تتجول »

عند عمي حسن سيف أحمر إذا لمسته يقطع ، وعنده خنجر مقبضه مطعَم بالياقوت . هل أنت قتلت أبي ؟ »

عملت برأسي حركة لا تفيد معنى الموافقة أو الرفض .

« من أين تعرف أن أباك مات ؟ »

« أمي البارحة قالت هذا . لن يعود بعد الآن . رأت هذا في حلمها »

ألا نريد دائماً تسخير الأعمال السيئة التي نحضّر أنفسنا لعملها من أجل مصالحنا السافلة وأحاسيس شهواتنا المتأججة وعشقنا الذي يحول الإنسان إلى كسير القلب في سبيل أهداف أقدس ؟ وأنا قررت مرة أخرى أن أكون أباً لهذين اليتيمين ، ولهذا السبب عندما عدت إلى البيت استمعت إلى جده بانتباه أكبر .

لأبدأ بالرسوم التي أراني إياها زوج خالتي ، وليكن من الحصان : على الرغم من عدم وجود إنسان في هذا الرسم ووجود فراغ حول الحصان لا أستطيع القول إن هذا رسم حصان فقط . الحصان هناك ولكن من الواضح أن فارسه ذهب جانباً ، أو من يعلم لعله هناك في البعيد وسيخرج من وسط دغل مرسوم حسب الأصول القزوينية ولا بد لك أن تدرك هذا من خلال السرج على الحصان ونقوشه الخاصة بالسادة . ولعله سيظهر من جانب الحصان تماماً بعض حملة السيوف .

لعل زوج خالتي طلب من المعلم الذي استدعاه سراً من النقش خانة أن يرسم حصاناً ، وبدأ النقاش القادم ليلاً برسم الحصان من قالب مدفون في ذاكرته غيباً وكأنه جزء من حكاية ، وبعد أن نقل هذا إلى الورق بدأ يظهره بهذا الشكل . ولا بد أن زوج خالتي تدخل لدى النقاش بإلهام من أساتذة الافرنج في مكان ما من رسم الحصان الذي رأى مثله النقاش آلاف المرات وهو مأخوذ عن مواقف الحرب أو العشق ، قائلاً : «لا ترسم الفارس . . . وهناك ارسم شجرة ، ولكن ارسمها صغيرة وفي الخلف» .

والنقاش القادم ليلاً يجلس مع زوج خالتي خلف خشبة النقش ويرسم مقابل نقود جيدة هذا الرسم الغريب غير الخاضع للقواعد والذي لا يشبه أي حصان في أي موقف ، كما أن النقاش وجد العمل جذّاباً فأنجزه في ضوء الشمعة . ولكن النقاش مثل زوج خالتي لا يعرف أية حكاية وأي موقف سيزيّن رسم الحصان هذا . الشيء الذي يريده زوج خالتي مني أن أنظر إلى الرسم الذي نصفه أسلوب بندقي ، ونصفه الآخر أسلوب عجمي وكتابة قصة مناسبة له في الصفحة المقابلة . لا بد لي من كتابة هذه الحكاية من أجل الوصول إلى شكورة ، ولكن لم يخطر ببالي غير الذي كان يحكيه المداح في المقهى .

* * *

٢٣

سيقولون عني قاتل

ساعتي المتكتكة مسنناتها تقول إن الوقت مساء . لم يرفع الأذان بعد ولكنني أشعلت الشمعدان بجانبي رَحْلَتي منذ زمن . مدّدت حبر حسن باشا الأسود ، وعلى ورق صقيل جداً وملمَع أنهيت بسرعة ومن ذاكرتي رسم حشاش بتمرير القلم على الورقة ، وعندئذ سمعت في داخلي ذلك الصوت الذي يناديني كل مساء من الزقاق ، ولكنني أمسكت نفسي ، وكنت مصمماً على عدم الخروج مساء والعمل في البيت حتى إنني جرّبت دقّ مسامير للباب من الداخل .

طلب هذا الكتاب الذي رسمته على عجل أرمني طرق بابي صباحاً قبل أن يستيقظ أحد ، وجاءني من حي (غلاطا سراي) . على الرغم من كون هذا الرجل يتأتئ فهو مترجم ودليل ، إذا طلب أحد الرحالة الأفرنج الإيطاليين (قيافة نامة) يجدني فوراً ويدخل معي في مساومة حادة . ولأننا اتفقنا على (قيافة نامة) وسط تتضمن عشرين رسماً بمائة وعشرين قرشاً أبيض صباحاً ، وفي جلسة عند أذان المغرب رسمت مجموعة اسطنبوليين بألبستهم بعناية وسرعة : شيخ الإسلام ، رئيس البوابين ، إمام ، إنكشاري ، درويش ، فارس ، قاضي ، شواء معاليق ، جلاّد - يفضّل الجلاد أكثر إذا كان قائماً على التعذيب - متسول ، امرأة ذاهبة إلى الحمام ، حشّاش . كنت أخترع

ألعاباً ألعبها وحدي في أثناء الرسم لأبدد الملل الذي يصيبني في أثناء عمل هذا النوع من الكتب لكثرة ما عملتها من أجل كسب بضعة قروش ، مثلاً أقول سأرسم هذا القاضي دون رفع رأس الفرشاة عن الورقة ، أو سأرسم هذا المتسول وأنا مغمض العينين .

ينهض جان وشياطين اللصوص والشعراء والمنحوسين كلهم بعد أذان المغرب . ويهبّون دفعة واحدة فارزين أنفسهم . يقول اللصوص : القلق داخلنا هيا إلى الخارج ، أركض إلى الناس الآخرين والظلام والبؤس والسفالة . صرفت عمري من أجل تهدئة هؤلاء الجان والشياطين . لقد نقشت يدي رسومي التي يراها كثير من الناس معجزة بمساعدة هؤلاء الجان والشياطين . ولكن بعد أن قتلت ذلك السافل قبل سبعة أيام لم أعد أستطع ضبط جان وشياطين داخلي عند المساء . إنهم يرفسون في داخلي حتى يجعلونني أقول لنفسي : إذا خرجت قليلاً لعلهم يهدؤون .

بعد أن أقول هذه العبارة أجد نفسي في الأزقة دون أن أعرف كيف . سرت بسرعة ، وقطعتُ الأزقةَ المغطاة بالثلج والمعابرَ الطينية والطرقات الصاعدة المتجلدة دون توقف . وكلما مشيت وذهبت إلى أقصى زوايا المدينة القفرة أتخلّص من ذنوبي ببطء ، ومع صدور صدى وقع أقدامي في الأزقة الضيقة عند جدران الخانات والمدارس والجوامع الحجرية تنخفض حدة مخاوفي .

تقودني قدماي تلقائياً إلى هذا الحي المتطرف كل ليلة وإلى هذه الأزقة المتروكة التي لا تدخلها حتى الأشباح والجان دون خوف . سمعت أن نصف رجال هذا الحي ماتوا في حرب العجم ونصفهم الآخر هاجر بسبب النحس ، ولكنني لا أؤمن بأمور كهذه . المصيبة الوحيدة التي حلت بهذا الحي الجميل بسبب حرب العجم قبل أربعين سنة هو ضرب السلاسل على باب التكية

القلندرية بذريعة أنها مأوى الأعداء .

انعطفت من خلف الدغلات التي تصدر حفيفاً وأشجار الغار التي تفوح منها رائحة زكية في أبرد الأجواء . نظّمت الخشبات الساقطات بين المدخنة الخربة والنافذة الساقط بابها السحاب بعنايتي المعهودة ، ودخلت مستنشقاً دخان عصر كامل ورائحته وعفنة . وجودي هنا أسعدني إلى حد اعتقدت معه أن دموعي ستنهمر من عيني .

إذا كنت لم أقل حتى الآن إنني لا أخاف أحداً غير الله وإن العقوبة التي ستنفذ في هذه الدنيا لا قيمة لها عندي أريد قول هذا الآن . خوفي من العذاب الذي سيتعرض له المجرمون أمثالي يوم القيامة والمتضاعف أضعافاً كما جاء بوضوح شديد في سورة الفرقان . هذا العذاب يذكرني بصورة جهنم المرسومة على رقاع الجلد في الكتب القديمة جداً والتي نادراً ما تقع بيدي ، ومشاهد تعذيب الشياطين التي رسمها أساتذة المغول والصين ، وعندما يتبدى لون هذا العذاب وشدته أمام عيني لا أستطيع التخلي عن هذا المنطق والتصورات . ماذا تقول الآية الثالثة والثلاثون من سورة الإسراء ؟ ألا تقول : «ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق» ؟ حسنٌ ، في هذه الحالة إن السافل الذي أرسلته إلى جهنم ليس مؤمناً ممن حرّم الله قتلهم ، ولي أسبابي الحقة الكثيرة التي جعلتني أحطم رأسه بالحجر .

تطاول هذا الرجل بلسانه على العاملين في الكتاب الذي طلبه سلطاننا . ولولا أنني أخفيت صوته لأعلن أن الأفندي زوج الخالة والنقاشين كلهم حتى الأستاذ عثمان زناديق ويرمي بنا أمام رجال الشيخ الأرضرومي الذين لا يرون أمامهم . لو حاول أحد ما تجريب شدة صوته بعبارة أن النقاشين ملحدون ، فإن الأرضروميين الباحثين عن حجة لاستعراض قوتهم لن يكتفوا بنا بل سيهدّون النقش خانة كلها ، ويجعلونها أرضاً مستوية ، وسلطاننا

سينظر إليهم دون أن ينبس .

كنست الأرض ومسحتها بمكنسة وممسحة أخفيهما في زاوية هنا كما أفعل كلما جئت . شعرت بدفء في داخلي وأنا أعمل ، كما شعرت أنني عبد من عباد الله الصالحين . ثم دعوت إلى الله مطولاً لكي لا يحرمني شعور الصلاح هذا . البرد الذي (يخري الثعالب نحاساً) يتغلغل حتى نخاع عظامي ، وبدأت أشعر بألم داخل بلعومي .

بعد هذا فوراً وبنفسيتي الغريبة تلك وجدت نفسي في حي آخر . لا أعرف ماذا حدث بين الحارة المتروكة التكية تلك وهذه ، ولا بماذا فكرت ، وكيف حدث أن وجدت أشجار السرو مصطفة على الجانبين هنا .

ولكن مهما مشيت هنالك فكرة تلاحقني لا أعرف التخلص منها وتطحن داخلي ، ولعلي إذا أخبرتكم بها يخف حملي .إن قلنا عنه المفتري السافل ، أو قلنا ظريف أفندي المسكين- لأن كلاهما يؤديان إلى النتيجة نفسها- فقد قال لي شيئاً آخر قبل أن يرتحم وفي أثناء اتهامه الشديد لزوج الخالة . عندما رآني غير متأثر بحديث زوج الخالة حول استخدام أسلوب الكفار المنظوري ، قال السافل : «هنالك رسم أخير . وفي ذلك الرسم يكفر زوج الخالة بكل ما نؤمن به . إن ما نعمله الآن لم يعد زندقة فقط ، إنه كفر بكل معنى الكلمة» . قبل افتراء هذا السافل بثلاثة أسابيع كان قد طلب مني الأفندي زوج الخالة أن أرسم على ورقة وبنسب مختلفة إلى حد مدهش أشياء مختلفة مثل حصان ونقود وموت مع أن الصفحة التي طلب مني الرسم عليها مسطَّرة ، وقسم كبير منها ذهّبه ظريف أفندي المسكين ، ونقشه نقاشون آخرون مغطى وكأنه يريد إخفاء شيء ما عن بقية النقاشين .

أنا لا أريد سؤال زوج الخالة عما رسم في تلك الصفحة الكبيرة لأن هنالك أموراً كثيرة تمسكني . إذا سألته سيشتبه أنني قتلت ظريف أفندي

وسينشر شبهته على الجميع . الأمر الآخر الذي يقلقني هو أنني إذا سألت زوج الخالة ، أن يجيبني بما يؤكد صحة ادعاء ظريف أفندي . أحياناً يخطر ببالي أن أسأل أنا وليس بالشكل المسيطر علي بتأثير ظريف أفندي ولكن هذا لا يخفف مخاوفي . ليس مخيفاً جداً أن يخرج الإنسان عن دينه دون أن يدري ، ولكن عندما أسأل سأعرف كل شيء .

قادتني قدماي الذكيتان أكثر من رأسي إلى زقاق بيت الأفندي زوج الخالة . اختبأت في زاوية ونظرت إلى البيت مطولاً بقدر ما أستطيع رؤيته في الظلام . إنه بيت ذو طابقين غني وغريب وسط الأشجار . لا أدري في أي مكان من البيت شكورة . آه لو بدا لي البيت على طريقة بعض رسوم تبريز في زمن الشاه طهماسب مشطوراً من منتصفه بسكين . بدأت أرسم في خيالي كيف تبدو شكورة وخلف أية نافذة .

فُتح الباب ، ورأيت قرة خارجاً من البيت ثم أغلق زوج الخالة باب الباحة بعد أن ألقى نظرة مشفقة على قرة .

عقلي المنجرف وراء خيالات بلهاء أنتج وبألم ثلاث نتائج :

الأولى : لأن قرة أرخص وأقل خطورة سيجعله الأفندي زوج الخالة ينهي كتابنا .

الثانية : ستتزوج شكورة الجميلة من قرة .

الثالثة : أقوال ظريف أفندي المسكين صحيحة ، وأنا قتلته للا شيء .

في مواقف كهذه ، أي فور استنتاج عقلنا النتيجة المؤلمة التي لا يريد قلبنا استنتاجها يتمرد جسدنا كله عليه . ومنذ اللحظة الأولى وقف نصف عقلي بقوته كلها ضد النتيجة الثالثة أي أنني قاتل قذر . في هذه الأثناء أيضاً تصرفت قدماي أسرع من عقلي وأكثر منطقية ووضعتاني خلف قرة أفندي .

عبر عدة أزقة فكرت بسهولة قتل قرة الذي يسير أمامي مسروراً من

حياته ومن نفسه ، وهذا سيخلصني من مواجهة النتيجتين الأولى والثانية اللتين تضايقانني . وبهذا ألن أحصر في وضع يدفعني إلى كسر رأس ظريف أفندي من أجل لا شيء . الآن لو ركضت ثماني أو عشر خطوات لاحقاً به ونزلت على رأسه بضربة أفرغ فيها قوتي كلها ستسير الأمور كلها كما كانت في الماضي ، وسيطلبني الأفندي زوج الخالة لإنهاء كتابنا . ولكن الجانب الأكثر صدقاً وتمكناً (الصدق في أغلب الحالات ماذا يمكن أن يكون سوى الخوف ؟) يقول لي إن السافل الذي قتلته وألقيته في الجب هو مفتر بجد . وإذا كان هذا صحيحاً فيعني أنني لم أقتله للا شيء وأن زوج الخالة سيدعونني إلى بيته لأنه لا يوجد ما يخفيه عني في الكتاب الذي يعمله .

ولكنني عندما أنظر إلى قرة الماشي أمامي أفهم بسرعة أن لا شيء من هذا سيحدث وكله خيال وقرة حقيقة أكثر مني . ثمة ما يحدث لنا جميعاً : بعد أن نبني خيالات على مدى أسابيع وسنوات على أننا نفكر بمنطق نرى شيئاً ما في يوم ما وليكن وجهاً أو لباساً أو إنساناً سعيداً فندرك أن خيالاتنا لن تتحقق ، مثلاً إنه لن يعطيني تلك الفتاة ، ولن أصل إلى ذلك الموقع . . .

كنت أنظر إلى رأس قرة ورقبته وصعود كتفيه ونزولهما ومشيته المخربة للأعصاب - كأنه يتلطف على العالم بخطواته - فيلف قلبي كره عميق . إن أمثال قرة البعيدين عند عذاب الضمير والذين أمامهم مستقبل سعيد يعتقدون أن العالم كله بيتهم ويفتحون أي باب كسلاطين يفتحون أبواب حظائرهم ويستصغروننا نحن الذين في الحظائر . أمسكت نفسي بصعوبة لكي لا أتناول حجراً من الأرض وأركض ثم أنزل به على رأسه .

نحن شابان عاشقان لفتاة واحدة ، هو في الأمام وأنا خلفه دون أن ينتبه إليَ أبداً . وفي أثناء التفافنا وعبورنا وصعودنا ونزولنا - كشقيقين -أزقة اسطنبول القفرة المخصصة لحروب قطعان الكلاب وأماكن الحرائق التي يقبع

فيها الجان وباحات الجوامع التي تسند رأسها الملائكة على قبابها غاطة في النوم وجانب أشجار السرو المتبادلة الحوار همساً مع الأرواح وأطراف المقابر المغطاة بالثلج المتوحدة مع الأشباح وعلى مبعدة من قطاع الطرق الذين يذبحون الناس وبين جدران الدكاكين والاسطبلات والزوايا وورشات صناعة الشمع والسقيفات وأنا لا أتعقبه بل أفكر أنني أقلده .

* * *

٢٤

اسمي موت

كما ترون أنا أموت ولكن لا تخافوا لأنني رسم أيضاً ، ولكنني أقرأ في عيونكم أنكم تخافون . إنني مسرور لسيطرة الدهشة عليكم كالأطفال المدموجين باللعبة التي يلعبونها وكأنكم تلتقون الموت نفسه . إنكم تشعرون عندما تنظرون إلي بأنكم ستعملونها تحتكم من الخوف عندما يحل ذلك الوقت الذي لا مفر منه . هذا ليس مزاحاً . عند مواجهة غالبية الرجال – وحتى المستأسدين منهم – الموت يعملونها في ثيابهم . لهذا السبب فإن رسوم ساحات الحرب المغطاة بالأجساد والتي نقشتموها آلاف المرات لا تفوح منها رائحة الدم والبارود والدروع الحامية بل تفوح منها رائحة الخراء والأجساد المتفسخة .

أعرف أنها المرة الأولى التي ترون فيها رسماً للموت .

قبل سنة دعا عجوز طويل نحيل غامض الأستاذ النقاش الشاب الذي نقشني ، وفي غرفة نقش شبه مظلمة في بيته ذي الطابقين قدّم للنقاش قهوة رائعة رائحتها عنبر وقوامها حرير ، وفتح عقل النقاش . وبعد ذلك في غرفة ذات باب أزرق ووسط الظلال عرض على النقاش أفضل أنواع الورق الهندي والفراشي المصنوعة من وبر السنجاب وأوراق الذهب وأنواعاً من الأقلام والبرّايات ذات المقابض المرجانية وأومأ بدفع نقود كثيرة فجعل النقاش

مهووساً بالأمر .

قال النقاش ذو اليد الرائعة التي سترسمني في ما بعد : «لا أستطيع رسم الموت دون أن أكون رأيت رسم موت في حياتي»

قال العجوز النحيل الشديد الرغبة : «إذا أردت رسم شيء ليس من الضروري أن ترى رسمه قبل ذلك»

قال الأستاذ النقاش الذي رسمني : «نعم ، لعله ليس ضرورياً ، ولكن إذا أردته متكاملاً كما يعمل الأساتذة القدماء يجب أن أكون قد رسمته آلاف المرات . مهما كان النقاش معلماً فإن رسمه لموضوع أول مرة يكون مثل رسم تلميذ يتعلم ، وهذا لا يليق بي . لا أستطيع ترك معلميتي جانباً لأن هذا بالنسبة إليّ يعني موتاً »

قال العجوز : «لعل هذا الموت يقربك من الموضوع »

« ما يجعلنا معلمين مهرة ليس عيش الموضوع بل عدم عيشه نهائياً »

« وهذا يعني تعرّف المعلمين على الموت»

وهكذا دخلا في حوار لائق بالنقاشين المحترمين عن الأساتذة القدماء ومهاراتهم مليء بالكلمات المزدوجة الدلالة والكناية والجناس والتلميح . ولأن وجودي هو الموضوع استمعت بانتباه شديد إلى هذا النقاش عارفاً دفء نقاشينا الممتازين في مقهانا . ووصل سياق الحديث إلى قول النقاش ذي اليد المعجزة والعينين الجميلتين والذكاء :

« هل مقياس مهارة النقاش هو رسمه كل شيء حسب مثالية الأساتذة القدماء أم أنه إدخال ما لم يره أحد في الرسم ؟ » وكان محتاطاً على الرغم من معرفته جواب هذا السؤال .

قال العجوز صاحب الادعاء : «يقيس البندقيون قوة النقاش بإيجاد المواضيع التي لم ترسم أبداً ، والأساليب التي لم تطرق من قبل»

قال النقاش الذي سيرسمني : «البندقيون يموتون بندقيين»
قال العجوز : «ولكن موت الجميع متشابه»
قال النقاش الذكي : «لا تحكي الأسطورة والنقش حكايات تشابه الناس بل حكايات عدم تشابههم . الأستاذ النقاش يصبح أستاذاً بنقشه الأساطير غير المتشابهة وتقديمها لنا كأنها متشابهة»

وهكذا وصل الحديث إلى عدم إمكان تشابه البندقيين والمسلمين بموتهم ، ولا خلط عزرائيل وملائكة الله الآخرين برسوم الكفار . تضايق الأستاذ الشاب الذي سيرسمني بعد ذلك بقليل وينظر إلي الآن بعينيه الجميلتين في مقهانا العزيز هذا من العبارات الفضفاضة تلك ، وكانت يده تتململ برغبة رسمي ولكنه لا يعرف كيف يمكن أن أكون .

شعر بهذا العجوز الذي أراد الإيقاع بالأستاذ الشاب بمكر ، وركز بصره على الأستاذ ذي اليد المعجزة بعينيه المتلامعتين بتأثير القنديل المضاء دون سبب في الغرفة الماثلة وسط الظلال .

قال : «الموت الذي يرسمه البندقيون مثل إنسان هو ملاك مثل عزرائيل بالنسبة إلينا ولكنه في هيئة إنسان ، كما ظهر جبرائيل في هيئة إنسان على نبينا عندما أنزل عليه القرآن الكريم» .

فهمت أن الأستاذ الشاب الذي منحه الله موهبة لا محدودة تململ توقاً ويريد رسمي ، لأن العجوز الشيطان نجح بإيقاظ هذا الفكر الشيطاني فيه : إننا لا نريد رسم شيء نعرفه حقيقة بأضوانه كلها بل رسم ما نعرّف به عبر شبه ظلمة .

قال النقاش الذي سيرسمني بعد برهة : «أنا لا أعرف الموت أبداً» .
قال العجوز : «كلنا نعرف الموت»
«نخشاه ولا نعرفه»

قال العجوز : «ارسم أنت هذا الخوف»

كاد في تلك اللحظة أن يرسمني . شعرت أن رقبة النقاش تملت وعضلات ذراعه تشنجت ورؤوس أصابعه عن القلم بحثت ، ولأنه معلم كبير حقيقي أمسك نفسه لإحساسه أن هذا التشنج سيعمق عشق النقش في روحه .

ولأن العجوز الماكر فهم هذا ، وليكوّن إلهاماً لرسمي الواثق من إنجازه بعد قليل قرأ له مقطوعات من كتاب الروح للجوزية وكتاب أهوال القيامة للغزالي وحول الموت للسيوطي .

وهكذا فإن الأستاذ النقاش ذا اليد المعجزة عندما كان ينجز رسمي الذي ترونه الآن خائفين أدرك أن لملاك الموت آلاف الأجنحة الممتدة من الجنة إلى الأرض ومن أبعد نقطة في الشرق إلى أقصى نقطة في الغرب وهي محتضنة برفق لكاملي الدين ولكنها مسامير كاوية للكافرين ، ولأنكم أنتم معشر النقاشين من أصحاب جهنم أغلبكم فقد رسمني مغطى بالمسامير . استمع النقاش إلى أنه سيكون بيد الملاك الذي يقبض أرواحكم دفتر كتبت فيه أسماؤكم وأحيطت أسماء بعضكم بدائرة سوداء ، ولكنّ زمن الموت لا يعرفه إلا الله ، وعندما يحل هذا الوقت ستسقط ورقة من شجرة تحت العرش وسيلتقط هذه الورقة ويُعرف دور من في الموت لهذا السبب رسمني مخيفاً ولكنني مفكرٌ أفهم بالحساب والكتاب . لأن العجوز المضروب برأسه قرأ أن ملاك الموت القادم بهيئة إنسان يمد يده للإنسان الذي انتهى وقته ، وبعد أن يقبض روحه يلفه نور شبيه بأشعة الشمس ، رسمني النقاش الذكي وسط النور لأنه يعرف أن هذا النور لا يراه من هم حول الموت . ولأن العجوز الجائع العين قرأ في كتاب الروح حسب شهادات لصوص المقابر القدماء أنهم شاهدوا جثثاً مغروزة فيها المسامير ، وأحياناً ألسنة لهب مكان الجسد المدفون للتو وجماجم صب فيها رصاص ، لهذا وضع النقاش الرائع المستمع بكل انتباه

ما يخيف الناظر إليّ .

ولكن فيما بعد ندم . ليس بسبب الخوف الذي وضعه في الرسم بل لأنه رسمني عموماً ، وأنا ، وأشعر بنفسي كمن يتذكر أباه بخجل وندم ، لماذا ندم الأستاذ النقاش صاحب اليد الرائعة لأنه رسمني ؟

١- لأنني - رسم الموت - لم أرسم بمهارة كافية . كما ترون لست على درجة كمال رسم أساتذة البندقية الكبار ولا كما رسم أساتذة هرات الكبار . وأنا أيضاً أخجل من حالتي المهلهلة هذه غير اللائقة بوقار الموت التي رسمني بها الأستاذ الكبير .

٢- يعاني الأستاذ النقاش الذي أوقع به العجوز بطريقة شيطانية من عذاب نفسيّ لأنه وجد نفسه فجأة يقلد أصول الأساتذة الأفرنج دون تفكير ، وهذا نوع من عدم الاحترام للأساتذة القدماء ونوع من الشعور بانعدام الشرف .

٣- على المخبولين ، الذين اعتادوا على رؤيتي هنا وبدؤوا يبتسمون ، أن ينتبهوا إلى أنفسهم : لا مزاح مع الموت .

الآن يسير النقاش الذي رسمني في الليل عابراً الأزقة على غير هدى نادماً كبعض الأساتذة الصينيين الذين يعتقدون أن ما رسموه هو أنفسهم .

* * *

٣٥

اسمي استر

كانت نساء حيّي (قزل منارة لي) و(قرة كدي لي) قد طلبت قماشاً بنفسجياً وأحمرَ من أجل اللحف . وضعتها في صرتي منذ الصباح الباكر . وضعتُ القماش الحريري الصيني الأزرق الجديد المجلوب من السفينة البرتغالية ، وتركتُ الأخضر . طويت بعناية : الجوارب الصوفية ، والأحزمة الصوفية السميكة ، والصدارات الصوفية الثقيلة الملونة أيضاً ، لأن الشتاءَ لم ينته والثلجَ لم يتوقف عن الندف ، ووضعتها وسط الصرة حتى إن غير المباليات من النساء تخفق قلوبهن عندما أفتحها . ثم وضعت مناديل حريرية خفيفة وغالية ، وأكياسَ نقود ، وأكياسَ حمام مطرزة من أجل النساء اللواتي ينادينني للقيل والقال وليس من أجل الشراء . عندما حملتها وجدت أن الصرة صارت ثقيلة كادت تكسر ظهري . وضعتها على الأرض . فتحتها ، وبينما كنت أنظر إلى ما يمكنني إخراجه منها وإذ بالباب يقرع . فتح الباب نسيم ، وناداني .

كانت الجارية خيرية عند الباب وحالتها حالة . بيدها رسالة .

همست قائلة : «أرسلتني شكورة خانم» كانت مضطربة إلى حدّ إعطاء انطباع أنها هي العاشقة التي ستتزوج .

أخذتُ الرسالة بجدية كبيرة ، ونبهتُ الفتاة الغبية إلى إخفاء شخصيتها

في طريق عودتها إلى البيت . كان نسيم ينظر إليَ بعينين متسائلتين . حملت الصرة الكبيرة الخفيفة المخاتلة التي أحملها عند نقل الرسائل عادة .

قلتُ : « شكورة بنت السيد زوج الخالة تتحرق عشقاً . مسكينة . طار عقلها من رأسها » .

قهقهت وأنا خارجة ، ولكن سيطر عليَ شعور بالخجل المفاجئ . في الحقيقة لم أرد الهزء بمغامرة شكورة في العشق ، بل أريد أن أذرف دموعي على كدر حياتها . يا لجمال فتاتي المهمومة ذات العينين السوداوين .

سرت مسرعة أمام بيوت حينا اليهودي التي تبدو في برودة الصباح أرحب وأكثر تواضعاً وتصدعاً . وبعد وقت طويل ، عندما رأيت المتسوّل الأعمى القابع دائماً عند أول زقاق بيت حسن متوفزاً للعابرين ، صرخت بأعلى صوتي : « بائعة الصررررة » .

قال : يا سمينة ومخبولة! أعرفك من وقع خطواتك لو ما صرختِ»

قلتُ : « يا أعمى وسخ ، ويا منحوس تتاري! العميان بليات أطلقها الله . يبعث لك البلاء » .

كنت أغضب سابقاً دون أن أبالي لهذه الأمور . فتحَ باب بيت حسن السيد والده . إنه أنيق ومهذب وأكابر .

قال : « ماذا جلبتِ لنا هذه المرة ؟ »

« ابنك الكسول نائم ؟ »

« أينام ؟! عيناه ترصدان الطريق بانتظار أخبارك »

هذا البيت مظلم إلى حدّ شعوري أنني أدخل إلى المقبرة كلما دخلت إليه . شكورة لا تسأل أبداً عما يفعلانه ولكنني أحكي لها دائماً عن هذا البيت كي لا تفكر بالعودة إلى هذا القبر أبداً . من الصعب مجرد تخيّل أن شكورة الجميلة كانت في وقت ما سيدة هذا البيت ، وأنها كانت تعيش هنا

مع ابنيها المشاغبين . تفوح من داخل البيت رائحة السكون والموت . دخلت إلى الغرفة التالية حيث الظلمة الأعتم .

العين لا ترى ما أمامها الأقرب . وحين شرعتُ أخرج الرسالة ظهر حسن وسط الظلام واختطف الرسالة . تركته يقرؤها وحده مثلما أفعل دائماً ليخفف فضوله . رفع رأسه عن الورقة بسرعة .

قال : « أليس هنالك شيء آخر ؟ » لكنه يعرف أنه لا يوجد شيء آخر .
قال : « هذه رسالة قصيرة جداً » ثم قرأها :

« السيد قرة ، إنك تأتي إلى بيتنا ، وتجلس طوال اليوم . سمعت أنك لم تكتب حتى الآن سطراً واحداً من أجل كتاب أبي . احذر أن تؤمّلَ نفسك بشيء قبل إنهاء كتاب أبي »

الرسالة بيده ، وينظر إليّ كأنني المسؤولة عما يجري . أنا لا أحب هذا الصمت في هذا البيت .

قال : « لم تعد تذكر في رسائلها أنها متزوجة وتنتظر زوجها الذي سيعود من الحرب . لماذا ؟ »

قلت : « من أين سأعرف ؟ أنا لا أكتب هذه الرسائل » .

قال : « أحياناً أشك في هذا » ثم أعاد إليّ الرسالة مع خمسة عشر قرشاً أبيض .

قلتُ : « بعض الرجال يزدادون بخلاً كلما كسبوا أكثر . أنت لست منهم »

في هذا الرجل جانب شيطاني وذكي وهذا ما يفسر سبب قبول شكورة رسائله على الرغم من أحواله المظلمة والسيئة هذه .

« ما هو كتاب أبي شكورة هذا ؟ »

« أنت تعرف . يقولون إن سلطاننا يدفع تكاليفه كلها »

قال : «يقتل النقاشون بعضهم البعض بسبب الرسوم التي في ذلك الكتاب . أمن أجل نقوده ، أم لأنه - حاشا - يكفر بديننا ؟ يقال إن من ينظر إلى ذلك الكتاب يعمى فوراً» .

قال هذا مبتسماً ، ففهمت أنني يجب ألاّ آخذ هذا الكلام مأخذ جدّ . وإذا كان كلاماً يؤخذ مأخذ جد فإنه يجب ألاّ يؤخذ هكذا على الأقل بالنسبة إليه ، وكذلك بالنسبة إليّ . وحسن مثل كثير من الرجال الذين يحتاجونني لنقل رسائلهم يستهينون بي كلما سحقت كرامتهم ، وأنا أتظاهر بالحزن حسب متطلبات عملي . أما الفتيات فعندما تنسحق كرامتهن تماماً يحتضنني ويبكين .

ومن أجل مداعبة مشاعري ، التي اعتقدَ أنها جرحت ، قال حسن : «أنت امرأة ذكية . خذي هذه الرسالة بسرعة . أتوق لمعرفة جواب ذلك المخبول» .

في آن شعرتُ أنني سأقول : «قرة ليس مخبولاً إلى هذا الحد» في أحوال كهذه فإن استفزاز الرجال ضد بعضهم البعض يكسب إستر ناقلة الرسائل نقوداً أكثر . ولكنني خفت من موجة غضب مفاجئة .

قلت : «هنالك متسول تتاري عند أول الزقاق ياه ، إنه غير مؤدب» . كي لا أتجادل مع الأعمى مشيت نحو الطرف الآخر من الزقاق ، وعبرت سوق الدجاج في الصباح الباكر . لماذا لا تأكل ملّة الإسلام رؤوس الدجاج وقوائمه ؟ حكت لي جدتي طيّب الله ثراها أنها كانت تغلي قوائم الدجاج كثيراً لرخص ثمنها .

عند فتحة السور رأيتُ امرأة تمتطي حصاناً وهي منتصبة كالرجال ، شديدة الغرور ، يسير بجانبها العبيد ، تبدو زوجة باشا أو ابنته ، فتأوّهت . يمكن لشكورة أن تعيش مثل هذه المرأة المغرورة لولا أن عقل أبيها في

السماء ، ووهب نفسه للكتب ، ولو عاد زوجها من حرب الصفويين بالغنائم . وهذا يليق بها أكثر من الجميع .

آنَ دخلت إلى زقاق بيت قرة تسـرّعت خفقات قلبي . هل أريد أن تتزوج شكورة من هذا الرجل ؟ أنا أنجح بالمحافظة على شكورة بعيدة عن حسن وعلى صلة به في آن واحد . ولكن ماذا عن قرة ؟ أموره كلها في نصابها عدا عشقه لشكورة .

« بائعة الصرررررةةة . . . »

أنا لا أبادل تسليم الرسائل لعشاق فقدوا صوابهم نتيجة الوحدة أو عدم وجود زوجة أو زوج بأي شيء . ترتعش قلوبهم أملاً عند البدء بقراءة الرسالة ولو كانوا واثقين من تلقيهم أسوأ الأخبار .

بالطبع سيكون قرة محقاً بأمله بشكورة لأنها لم تذكر عودة زوجها ، وربطت عبارة : « لا تأمل » بشرط . تأملته مستمتعة وهو يقرأ الرسالة . ارتبك نتيجة سعادته ، حتى إنه خاف . وعندما انسحب ليكتب رسالة تصرفت تصرّف بائعة صرة ذكية . فتحتُ صرتي المخاتلة ، وأخرجت كيس نقود أسود ، وعرضته على صاحبة بيت قرة الفضولية .

قلت : « من أفضل المخامل العجمية »

قالت : « ابني مات في حرب العجم . ممن تجلبين الرسائل إلى قرة وتأخذينها ؟ »

كنت أرى أنها تحاول إلصاق ابنتها أو ابنة لا أدري من ، بقرّة الشبيه بالأسد . قلت لها : « ليس هنالك أحد . . . قريب له يسكن غرفة في حي بيرم باشا مريض على فراش الموت يطلب نقوداً »

قال غير مصدقة : « واخ ، واخ ، . . . من هذا المنحوس ؟ »

سألتها معاندة : « كيف مات ابنك في الحرب ؟ »

بدأنا نتبادل نظرات عدائية . يا لصعوبة حياة أرملة وحيدة! لو كنتم مكان بائعة الصرة إستر سترون كيف يجعل الناس حكايات عشق الأغنياء وأصحاب السطوة غير المعقولة في ذروة التشويق ، وما عداها هي حكايات كدر ، وهمّ ، وفراق ، وغيرة ، ووحدة ، وعداوة ، ودموع ، وشائعات ، وفقر لا ينتهي متشابهة تشابه أغراض هذا البيت : بساط قديم كلح لونه ، صينية رقائق فارغة عليها مغرفة وصحن ، ملقط وصندوق رماد بجانب الموقد ، صندوقان متداعيان أحدهما كبير والآخر صغير ، طربوش يحافظ عليه في البيت كي لا يفهم أن المرأة أرملة تعيش وحدها . وسيف قديم لتخويف اللصوص .

عاد قرة وأطراف ثيابه تتراقص حاملاً كيساً . نَدَهَ : « يا بائعة الصرة » ولكي يُسمِعَ صاحبة البيت الفضولية قال : « خذي هذه للمريض المسكين ، وإذا كان لديه جواب هاته بسرعة . سأقضي يومي كله في بيت السيد زوج الخالة »

ليس ثمة ضرورة لهذه الألاعيب كلها ، كما أنه ليس ثمة ضرورة لشاب شهم مثل قرة أن يخفي تلقّي الإشارات وإرسال الرسائل والمناديل لاختيار فتاة لنفسه . أم أن عينه على ابنة صاحبة البيت ؟ أحياناً لا أثق بقرة ، وأخشى كثيراً من خداعه لشكورة . على الرغم من قضائه اليوم بكامله في بيت شكورة فهو عاجز عن إرسال إشارة لها .

فتحت الكيس في الزقاق فوجدت فيه اثني عشر قرشاً أبيضَ ورسالة . كنت فضولية لمعرفة ما في الرسالة إلى جدّ أنني ذهبت إلى بيت حسن راكضة . كان الخضريون قد فرشوا الملفوف والجزر أمام دكاكينهم . ولكنني لا أطيق لمس الخضار الناضجة التي تصرخ : تعالي المسيني يا إستر .

عندما دخلت الزقاق سمَعني التاري كلاماً فبصقت نحوه فقط . لماذا لا

يجمَد هذا البرد هؤلاء السافلين ويميتهم ؟

بصعوبة صبرت على حسن وهو يقرأ الرسالة في داخله . في النهاية لم أستطع الإمساك بنفسي ، فقلت له : « نعم ؟ » وقرأ لي :

« عزيزتي شكورة خانم . تطلبين مني إنهاء كتاب أبيك . اعلمي أن لا هدف لي غير هذا . وأنا ذاهب إلى ذلك البيت لهذا الهدف وليس لإقلاقك كما ذكرتِ من قبل . أنا مدرك أن عشقي لكِ هو همي الخاص . ولكنني بسبب هذا العشق لم أستطع بأي شكل كتابة النص اللازم للكتاب كما يريد أبوك زوج خالتي . كلما شعرت بوجودك في البيت أتجمد ولا أستطيع مساعدة أبيك . فكرتُ كثيراً فوجدت أن السبب الوحيد هو خشيتي من فقدان خيال وجهك الذي رأيته مرة واحدة عندما ظهرت من النافذة بعد اثنتي عشرة سنة . لو رأيت وجهك عن قرب فلا أخاف من فقدانه ، وسأنهي كتاب أبيك بسهولة . لقد اصطحبني شوكت البارحة إلى بيت اليهودي المشنوق الفارغ . لا أحد يرانا في ذلك البيت . اليوم يمكنك الذهاب في الوقت الذي تشائين . سأنتظرك هناك . قال لي شوكت البارحة إنك حلمت أن زوجك مات » .

قرأ حسن الرسالة مرققاً صوته كالنساء ببشاعة في بعض المواضع ، ومقهقهاً وبما يشبه التوسل مرتجفاً كعاشق فقد صوابه في مواضع أخرى . وسخر من طلب قرة رؤيتها مرة واحدة بإعادة الجملة بالفارسية . وقال : « بدأ قرة يساوم عندما أعطته شكورة أملاً . هذه ليست حسابات عاشق حقيقي » .

قلت له ببراءة : « إنه عاشق حقيقي لشكورة » .

قال : « عبارتك هذه تثبت أنك في صفه . قولها إنها رأت في حلمها أن أخي الكبير مات يعني قبولها بوفاة زوجها » .

قلت له كالمجنونة : «ولكن هذا مجرد حلم» .

«أنا أعرف شوكت وذكاءه وأحابيله . كم سنة عشنا معاً في هذا البيت ؟ لولا إذن أمه وضغطها عليه لما اصطحب قرة إلى بيت اليهودي المشنوق . إذا كانت شكورة تعتقد أنها تستطيع أزاحة أخي ، وإزاحتنا من طريقها فهي مخطئة! أخي حي وسيعود من الحرب»

وقبل أن ينهي حديثه دخل إلى الغرفة الداخلية . حاول إشعال شمعة من الموقد فأحرق يده ، وصرخ . ثم أشعل الشمعة وهو يلعق يده . ثبتها بجانب (الرحلة) وأخرج قلماً جاهزاً من علبة ، وغطّه في المحبرة ، وكتب بسرعة على ورقة . أدركت فوراً أنه مسرور من فرجتي عليه وهو يكتب . حاولت بكل قوتي أن أبتسم كي أريه أنني غير خائفة .

«من هو اليهودي المشنوق ؟ أنت تعرفين» .

«هنالك بيت أصفر بجوار بيتهم . يقولون : إن (موشي هاموت) الفاحش الغنى حكيم السلطان السابق قد خبأ أخاه مع عشيقته سنوات طويلة . وقبل سنوات ، فُقد روميٌ في حي اليهود في اليوم السابق لعيد الفطيرة(*) ، وأشيع أنه ذُبح لإعداد فطيرة العيد بدمه . عندما ظهر شهود زور بدؤوا بالإعدامات . هرَبوا حكيم السلطان وأخاه والمرأة الجميلة ، وخُبئوا بإذن من السلطان . عندما مات السلطان لم يستطع أعداء موشي القبض على الفتاة الجميلة ، ولكنهم شنقوا الرجل الذي كان يعيش وحده» .

قال حسن : «إذا لم تنتظر شكورة عودة أخي من الحرب سيعاقبونها» وأعطاني الرسالة .

لم يُبد الغضب والأنانية على وجهه ، ولكن يقرأ منه التعاسةُ والنحسُ

(*) يحيي اليهود سنوياً ذكرى هجرتهم من مصر بعمل خبز فطيرة دون خميرة . ويقال إنهم كانوا يعجنونها قديماً بدم مسيحي . . . (المترجم) .

الخاصان بالعشاق الحقيقيين . رأيت في عينيه لحظتئذ أن العشق حوّل هذا الرجل إلى عجوز . لم تجعله النقود التي بدأ يكسبها من جباية الضرائب أكثر شباباً . وأوحت إليّ نظرته الحزينة أنه سيسألني عن كيفية إقناعه شكورة بعد كل هذه التهديدات . ولكنه اقترب كلياً من إنسان شرير لا يسأل عن هذا . إذا قَبِلَ المرء على نفسه صفة الشرير - ورفض العشق سبب هام لهذا القبول - تأتي الوحشية بعد هذا ببساطة شديدة . وخفت كثيراً من السيف الأحمر الذي طالما يذكره الولدان ، والقاطع لما يمسه ، ومما خطر ببالي ، فألقيت نفسي إلى الزقاق بصعوبة كأنني أريد الهرب .

لهذا فوجئت بشتائم المتسول التتاري . ولكنني استجمعت قواي ، تناولت حجراً صغيراً من الأرض ووضعته بهدوء على منديله قائلة ، «خذ يا تتاري جربان»

نظرت إلى يده وهي تمتد إلى الحجر الذي ظنه نقوداً دون أن أضحك . وقبل أن أسمع شتائمه قصدت فتاةً زوّجتها إلى زوج جيد .

قدمت لي فتاتي الحلوة رقائق العجين بالسبانخ الباقية لديها من الأمس ، ولكنها محافظة على طزاجتها . كانت تحضّر ملفوفاً بلحم الخروف والبهارات والسماق كثير البيض قليل التحمير على النار كما أحبّه تماماً من أجل الغداء . ولكي لا أكسر خاطرها انتظرت وأكلت مقدار مغرفتين مع الخبز الطازج . وكانت قد حضرت مغلي زبيب العنب ، فطلبت منها دون تردد معقود الورد وخلطته مع ملعقة من مغليّ الزبيب وشربته ثم أخذت رسالتيّ شكورتي الحزينة .

* * *

٣٦

أنا شكورة

كنت سأقول إنني أرتب الغسيل الذي غسلته البارحة وجف في الصندوق عندما قالت خيرية إن إستر قد أتت . . . ولكن لِمَ أكذب عليكم ؟ حسنٌ ، عندما جاءت إستر كنت أنظر إلى أبي وقرة من ثقب الخزانة ، وعقلي عند استر لأنني أتوق للرسالتين اللتين ستحضرهما من قرة وحسن . أشعر أن أبي يسند مخاوفه من الموت إلى شكوك محققة ، وأعرف أن اهتمام قرة بي لن يستمر إلى ما لا نهاية . فبقدر عشق قرة لي ، بقدر ما يريد الزواج . ولأنه يريد أن يتزوج فمن السهل أن يعشق . إن لم يتزوجني سيتزوج غيري ويعشق تلك المرأة بسرعة قبل أن يتزوجها .

أجلست خيرية إستر في زاوية من زوايا المطبخ ، وقدمت لها كأساً من شراب الورد ، وبدأت تنظر إليّ كأنني مذنبة . يخطر ببالي أن خيرية تنقل إلى أبي كل ما يجري منذ أن بدأت تدخل فراشه ، وهذا ما يخيفني .

قالت إستر : «يا ذات العينين السوداوين ، يا من حظك أسود ، يا جميلة الجميلات ، تأخرت عليك لأن زوجي الخنزير نسيم لم يتركني بأي شكل . ليس لك زوج يعد عليك أنفاسك . اعرفي قيمة هذا» .

عندما أخرجت الرسالتين اختطفتهما من يدها . انسحبت خيرية من بيننا ولكنها وقفت في زاوية يُسمع منها كل شيء . ولكي لا ترى إستر

وجهي أدرت لها ظهري ، وقرأت أولاً رسالة قرة . عندما فكرت ببيت اليهودي المشنوق ارتجفت لحظة ، ثم قلت لنفسي لا تخافي يا شكورة أنت تستطيعين الخروج من أي مأزق ، ثم بدأت بقراءة رسالة حسن . وهذا أيضاً كان علي وشك أن يصبح مسعوراً .

« شكورة خانم . أنا أحترق مثل الجمر وأعلم أن هذا لا يهمك . عندما أنام أحلم أنني أطارد خيالك في الهضاب القفراء . كلما تتركين دون جواب رسالة تتلقينها مني أعرف أنك تقرئينها ينغرز في قلبي سهم في نهايته ثلاث ريشات . أكتب هذه الرسالة لعلك تجيبين عليها . يسمع من حديث يدور على الألسن نقلاً عن ولديك : أنك رأيتِ في حلمك زوجك ميتاً ، وأنكِ أصبحتِ غير مرتبطة . لا أدري إن كان هذا صحيحاً . ما أعرفه أنك ما زلت متزوجة من أخي الكبير ، ومرتبطة بهذا البيت . ولأن أبي أيضاً وافقني فإننا سنذهب اليوم إلى القاضي . سنأتي مع رجال نجمعهم . وليعلم أبوك بهذا . حضّري صرتك ، إنك عائدة إلى البيت . وجوابك ترسلينه مع إستر» .

عندما قرأتُ الرسالة للمرة الثانية استجمعت قواي ، ونظرتُ إلى عيني إستر المتسائلة . ولكنها لم تقل لي شيئاً حول حسن ولا حول قرة .

أخرجت من خزانة القدور قلماً كنت قد خبأته هناك ، ووضعت ورقة على دفّة تقطيع الخبز ، وعندما بدأت بكتابة رسالة إلى قرة ، توقفت .

خطر ببالي شيء . التفتُ ونظرت إلى إستر . إنها فرحة بشراب الورد مثل طفل سمين ، وفجأة أدركت أن من غير المعقول أن تعرف إستر ما أُفكر فيه . تركت القلم والورقة ، وابتسمت لإستر .

قالت لي : «ما أجمل ابتسامتك يا حلوتي . لا تقلقي ، في النهاية سيغدو كل شيء جيداً . اسطنبول تغصّ بالسادة والباشوات الأغنياء التواقين للزواج من جميلة مثلك معارفها بعدد أصابع يديها »

تعلمون أنكم أحياناً تؤمنون بأمر ما تطرحونه ، بعد ذلك تسألون أنفسكم : «على الرغم من إيماني الشديد بهذا الأمر ، لماذا لم أطرحه بإيمان ؟» وأنا قلت هذا :

«ولكن يا إستر! كرمى لله من يريد الزواج من أرملة أم لطفلين ؟»

قالت : «هنالك كثير . . . كثير من الرجال يريدون الزواج من واحدة مثلك» وأشارت بيدها إشارة تفيد معنى الكثرة .

كنتُ أنظر إلى عينيها . فكرت بأنني لا أحبها . ثم سكتُّ لإفهامها أنني لن أعطيها رسالة ، وأنها يجب أن تذهب . بعد ذهابها شعرت بالصمت بشكل مختلف . كيف أشرحه لكم ؟ شعرت به في روحي ، فانسحبت إلى زاويتي .

استندت إلى الجدار . ووقفت مدة طويلة في الظلام دون عمل شيء . فكرت بنفسي ، وبما سأفعله وبالخوف المتنامي داخلي . وطوال هذا الوقت أستطيع سماع شوكت وأورهان يتحدثان .

قال شوكت : أنت خواف مثل امرأة ، لهذا تهاجم من الخلف»

قال أورهان : «سنّي تتخلخع»

ولكنني من جهة أخرى أتابع بجزء من عقلي ما يدور بين أبي وقرة

أستطيع بسهولة سماع حديثهما لأن باب غرفة النقش الأزرق مفتوح .

قال أبي : «يفهم الإنسان وبرهبة من الصور الشخصية التي يرسمها الأساتذة الإيطاليون أن العيون لم تعد كما كانت ترسم عبارة عن دوائر أو ثقوب صغيرة مشتابهة كلها ، بل إنها مثل عيوننا تعكس الضوء مثل المرآة ، وواثقة مثل جب تنظر إليها . والأفواه ليست عبارة عن شقوق وسط وجوه مستوية مثل ورقة ، بل تُرخى أو تُشد لتعبر عنا وعن أرواحنا حزينة أو فرحة ، ولكل واحد منها أحمر مختلف ، وكتلة معنى . وأنوفنا لم تعد عبارة عن جدار مقعر

يقسم وجوهنا إلى قسمين ، بل عبارة عن أداة حية فضولية ذات شكل مختلف لكل منا » .

ترى هل يدهش قرة مثلي لاستعمال أبي ضمير « نحن » في حديثه عن الرسوم التي يطلب عملها سادة الكفار ؟ عندما نظرت من الثقب ورأيت أن وجه قرة ذابل خفت للحظة . يا روحي الأسمر هل فقدت حيوية لونك لأنك تفكر بي طوال الليل ولعدم نومك . ؟

لعلكم لا تعرفون أن قرة طويل ونحيل ووسيم . لقرة جبين عريض ، وعيناه لوزيتان ، وأنف قوي وظريف . يداه طويلتان ورفيعتان ، وأصابعه ملتوية ودائمة الحركة كما كانت في طفولته . عندما ينهض على قدميه يبدو مثل عارضة خشبية عمودياً وعريض الكتفين قليلاً ، ولكنه ليس عريضاً جداً مثل عارضة حمّال خشبية . في طفولته لم يكن جسمه مناسباً لوجهه ، وعندما نظرت إليه بعد اثنتي عشرة سنة من زاويتي المظلمة هذه أدركت ومن النظرة الأولى أنه تكامل .

والآن . عندما أضع عيني على الثقب جيداً في الظلام أرى وجه قرة مكدراً كما رأيته بعد اثنتي عشرة سنة . أشعر بالفخر والذنب لأنه يعاني من هذا الكدَر بسببي . يبدو وجه قرّة أسود في منتهى البراءة والطفولة في أثناء إصغائه إلى أبي وهو ينظر إلى رسم من أجل الكتاب . في تلك اللحظة عندما فتح فمه الزهري كطفل تمنيت أن أدخل حلمة ثديي فيه . وعندما سأدخل أصابعي بين شعره في مؤخرة رأسه ، يُدخل قرة رأسه في تجويف ما بين ثدييَ ، عندما يأخذ حلمتي كطفل ستذبل عيناه سعادةً ، وسيدرك أنه لن يجد الراحة إلا في ظل شفقتي مثل الأولاد المساكين التعساء .

استمتعتُ بهذا الخيال ، وبدأت أرتجف بشكل خفيف ، وشعرت بأن قرة لا يندهش لرسم الشيطان الذي يفرجه عليه أبي ، بل لكبر ثدييَ وهو ينظر

إليهما بدقة . كان لا ينظر إلى ثدييَ فقط بل كان يسكر بفرجته على شعري ورقبتي وكل جزء مني . كان معجباً إلى حدّ أنه سيقول لي كل ما لم يستطع قوله أيام شبابه الأولى من كلمات حلوة ، وأرى من خلال وجهه ونظراته إعجابه بحالتي المغرورة ، وكبريائي ، وتربيتي ، وانتظاري زوجي بصبر وجرأة ، وجمال رسائلي .

فجأة غضبت من أبي لإعداده المخططات لتزويجي من جديد . وسئمت من الرسوم التي يجعل النقاشين يرسمونها بتأثير الأساتذة الأفرنج ، ومن ذكرياته في البندقية .

أغمضت عينيَ مرة أخرى . يا الله لم أعمل هذا بإرادتي ، اقترب قرة مني في خيالي ، وشعرت في الظلام بأنه قربي ، وظهر فجأة خلفي يقبل رقبتي من الخلف ومن الجانب ووراء أذني وأنا واثقة من نفسي لأنني أقاومه على الرغم من قوته وضخامته وقسوته . كانت رقبتي تُداعب ، وحلمتي ثدييَ ترتجفان ، ثم شعرت بأن شيئاً كبيراً يقترب إليَ من الخلف في الظلام وأنا مغمضة العينين فدخت . كيف شيء قرة يا ترى ؟

أحياناً تريني أحلامي أن زوجي يتلوى من الألم وقد نهض بجسمه المدمى ، وحراب جنود الصفويين وسهامهم مغروزة في جسده ، يحاول المسير مقترباً منا ، ولكن مع الأسف يفصل بيننا نهر ، وبينما يناديني وهو مدمى ويتلوى ألماً أنظر إلى قدامه فأرى شيئه قد كبر . إذا كان كلام العروس الجيورجية والعجائز في الحمام صحيحاً بقولهن : «نعم ، يصبح بهذا القد» فإن شيء زوجي ليس كبيراً جداً . إذا كان شيء قرة أكبر ، وهو ذاك الشيء الضخم الذي بدا تحت سرواله بعد أن أرسلت له الورقة الفارغة مع شوكت - وبالفعل هو - أخاف من عدم اتساع داخلي له ، ومن تألمي كثيراً .

«ماما ، شوكت يقلدني»

خرجت من زاوية الخزانة المظلمة ، عبرتُ بهدوء إلى الغرفة الأخرى ، وأخذت السترة الحمراء من الصندوق . كان الولدان قد أخرجا فراشي ، ويتدافعان فوقه صارخين .

« أما قلت لكما لا تصرخا عندما يأتي قرة إلى البيت ؟ »

قال شوكت" « ماما ، لماذا لبست هذه السترة الحمراء ؟ »

قال أورهان : « ولكن يا ماما شوكت يقلّدني »

« ألم أقل لك لا تقلده ؟ ما هذا الشيء القذر ؟ » كان ثمة قطعة جلد في الزاوية .

قال أورهان : « إنه متفسخ ، أخذه شوكت من الطريق »

« اذهبا بسرعة وارمياه حيث أخذتماه »

« ليأخذه شوكت »

« أقول لكما : هيا »

عندما بدأت أعضّ طرف شفتي كما أفعل قبل ضربهما من الغضب قرأا التصميم على وجهي فخافا وذهبا . إن شاء الله يعودان بسرعة ولا يصابان بالبرد .

كنت معجبة بقرّة أكثر من النقاشين الآخرين ، لأنه أحبني أكثر من الجميع ، وأنا أعرف نفسي . أخرجت ورقة وقلماً . وكتبت دون تفكير ودفعة واحدة ما يلي :

« حسنٌ ، قبل أذان المغرب سأراك في بيت اليهودي المشنوق . انهِ كتاب أبي بأسرع وقت ممكن » .

لم أجب على حسن لأنه إذا ذهب حقيقة إلى القاضي فأنا واثقة أنه سيداهم بيتنا مع أبيه وبعض الرجال الذين سيجمعهم . ولو كان سيفعل لما كتب رسالة . الآن ينتظر مني رسالة ، إذا لم تصله سيجن جنونه . وسيجمع

الرجال ويتدخل عندئذ بالمداهمة . احذروا من الاعتقاد بأنني لا أخاف منه! . في الحقيقة أنا أثق بقرّة كي يحميني منه . وما أشعر فيه بقلبي الآن هو : غالباً أنا لا أخاف كثيراً من حسن لأنني أحبه أيضاً .

إذا قلتم : ماذا تعنين بقولكِ أنكِ تحبينه ؟ فلن أغضب منكم ، وسأعطيكم الحق ، ما عميت عن سفالته ، وانتهازيته ، وضعفه ، عندما كنا تحت سقف واحد في سنوات انتظار عودة زوجي . ولكن إستر تقول : إنه يكسب كثيراً . وأفهم أنها لا تكذب من حاجبيها اللذين ينطان إلى الأعلى عندما تقول هذا . نقوده وثقته بنفسه تزيل كلّ الجوانب التي تجعله منفراً . أعتقد أن ما يجذبني إليه جانبه الغريب والمظلم الشبيه بالجان ، واكتشفت جانبه هذا من عناده بإرسال الرسائل .

حسن وقرة يتألمان لأنهما عشقاني . قرة ذهب مدة اثنتي عشرة سنة بعيداً وانقطع ، وزال . وحسن يرسل إليّ يومياً رسائل منقوشاً في زواياها رسوم طيور وغزلان . ولكثرة قراءة هذه الرسائل بدأت أخاف منه بداية ، ومن ثم تعلمتُ كيف أشعر بالفضول نحوه .

ولمعرفتي جيداً أن حسناً فضولي للاطلاع على ما يخصني لم أدهش لمعرفته بالأمر . شككت أن إستر تقرئه الرسائل التي أُرسلها إلى قرة . لهذا السبب لم أرسل إلى قرة جواباً مع إستر . أنتم تعلمون فيما إذا كانت شكوكي في محلها .

قلتُ للولدين عندما عادا : «أين كنتما ؟ تأخرتما»

ولكنهما فهما أنني لم أقل هذا بغضب حقيقي . سحبت شوكت بشكل خفي عن أورهان إلى طرف ، عند حافة الخزانة المظلمة ، ووضعته في حضني ، وقبلت رقبته وشعره .

قلت له : أنت بردان يا روحي ، هات يديك الجميلتين لتدفئهما يدا

أمك » .

كانت تفوح من يديه رائحة التفسخ ، ولكنني لم أنبس ، احتضنته ضاغطة به على صدري . بعد قليل شعر بالدفء ، وترك نفسه في حضني مثل قطة تموء سعادةً .

« هل تحب أمك كثيراً جداً جداً ؟ »

« هم م م م م »

« هذا يعني نعم ؟ »

« نعم »

« أكثر من الجميع ؟ »

« نعم »

قلت له : « إذن سأقول لك شيئاً » ثم أضفت كأنني أعطيه سراً : « ولكن لا تقل هذا لأحد أبداً ، ممكن ؟ » ثم همست في أذنه : « أنا أحبك أكثر من أي شخص آخر ، فهمت ؟ »

« أكثر من أورهان ؟ »

« أكثر من أورهان . أورهان صغير ، مثل عصفور ، لا يفهم شيئاً ، أنت أذكى منه ، وفهمان » . وقبلته من رأسه بعد أن شمشمت شعره « لهذا سأطلب منك شيئاً الآن . البارحة أعطيت ورقة فارغة للسيد قرة سراً ياه . . . والآن ستعطيه واحدة أخرى! ممكن ؟ »

« هو الذي قتل أبي »

« ماذا ؟ »

« هو الذي قتل إبي . هو قال لي هذا البارحة في بيت اليهودي المشتوق »

« ماذا قال ؟ »

« قال : أنا قتلتُ أباك ، وقال : أنا قتلت كثيراً من الرجال »

فجأة حدث أمر . نزل شوكت من حضني فوراً ، وبدأ يبكي . لماذا يبكي الآن هذا الولد ؟ حسنٌ ، لعلي لم أستطع الإمساك بنفسي قبل قليل ، وصفعته على وجهه . لا أريد لأحد الاعتقاد أن قلبي متحجر . ولكنني غضبت من قوله هذا عن الرجل الذي أفكر بالزواج منه لأجلهما .

استمرار اليتيم المسكين بالبكاء أجج مشاعري فجأة ، وكدت أن أبكي أيضاً . تحاضنّا . كان يشهشه أحياناً ، ولكن هل تُبكي هذه الصفعة إلى هذا الحد ؟ داعبتُ شعره .

كل شيء بدا على النحو التالي : أنتم تعرفون أنني أول البارحة قلتُ لأبي في أثناء الحديث إنني حلمت بموت زوجي . وهذا تكرر كثيراً على مدى السنوات الأربع التي لم يعد فيها زوجي من حرب العجم . وقد رأيته في حلمي ، وكان ثمة ميت ، ولكن لم يكن واضحاً إذا كان الميت هو زوجي .

الأحلام دائماً تفيد في أمور أخرى . حسب ادعاء جدة إستر فإن أحلامها أفادتها كثيراً عندما كانت في البرتغال ، فقد حلمت بأن الشياطين تلتقي الزناديق وتمارس الحب معهم . في تلك الأثناء أنكرت أسرة إستر دينها ، وقالت إنها مسيحية كاثوليكية . لم يصدق جلادو الكنيسة هذا ، وأخرجوا الجان والشياطين من أحلامها ، وجعلوها تحلم أحلاماً أخرى تحت التعذيب ، وألقوا القبض على اليهود ، هذا يعني أن تزاوج الإنسان من الشيطان يفيد بإلقاء القبض على الشيطان وإحراقه .

الأحلام تفيد في ثلاثة أمور :

ألف : تريد شيئاً ما ولكن الآخرين لا يسمحون لك بمجرد طلبه ، عندئذ تقول إنك رأيت هذا في حلمك . وهكذا تطلب ما تريد وكأنك لا تطلبه .

باء : تريد الإساءة لأحد ما . مثلاً تريد أن تفتري على شخص ما . عندئذ تقول رأيت في حلمي فلانة خانم تزني ، أو رأيت في حلمي الباشا

الفلاني يشرب الخمر طاسات طاسات . وبهذا يدخل جزء من الإساءة في الحساب فوراً وإن لم يؤمن الآخرون بهذا .

جيم : تريد شيئاً ، ولكنك لا تعرف ما تريد . تحكي عن حلم متداخل فيفسرونه بسرعة مخبرينك بما تطلبه ، وبما يمكن لهم تقديمه لك . مثلاً يقولون لك : إنك بحاجة إلى زوج ، أو ولد ، أو بيت . . .

في الحقيقة إن هذه الأحلام ليست تلك التي نراها في أثناء نومنا . كل شخص يحكي عن حلم يراه في وضح النهارعلى أنه حلم نائم ليستفيد من شيء . المخبولون فقط يحكون عن أحلامهم الحقيقية التي يرونها وهم نيام . في هذه الحالة إما أن يقع المرء في حالة المستهزأ به ، أو يفسرون لك حلمك في كل مرة بشكل مختلف . الأحلام الحقيقية لا يأخذها أحد على محمل الجد بمن في ذلك الذين يرونها . أم أنكم تأخذونها على محمل الجد ؟ .

عندما أومأت بشكل موارب ، عبر حلم ، إلى موت زوجي ، قال والدي : لا يمكن اعتبار هذا الحلم إشارة إلى حقيقة ، ولكنه عندما عاد من الجنازة استنتج من حلمي أن موت زوجي حقيقة . وهكذا فإن زوجي الذي لم يمت بأي شكل خلال أربع سنوات ، مات بتصديق الجميع لهذا الحلم ، وتمت الموافقة على هذا الموت وكأنه أُشهر فعلاً ، وفي تلك اللحظة فهم الولدان أنهما أصبحا يتيمين ، وحزنا .

سألتُ شوكت : «هل تحلم وأنت نائم ؟ »

قال مبتسماً : «نعم ، أحلم بعدم عودة أبي ، وزواجي منك في النهاية»

يشبهني أنا ولا يشبه أباه من خلال أنفه المدبب وعينيه السوداوين ، وكتفيه العريضين . أحياناً أشعر بالذنب لأنني لم أهب رأسي ولديَّ الشبيهين بالطاسة جبين والدهما العريض والعالي .

«هيا اذهب ، والعب مع أخيك بالسيف»

« بسيف والدي القديم ؟ »

« نعم »

نظرت إلى السقف مطولاً وأنا أستمع إلى صوت السيف وقرقعة الخشب عاملة على كبت مخاوفي وهلعي المتنامي داخلي . نزلت إلى المطبخ قلت لخيرية :

« منذ مدة طويلة أبي يشتهي حساء السمك . يمكن أن أرسلك إلى (قدرغة) أخرجي بعض رقائق الفواكه المجففة التي يحبها شوكت من حيث تخبئينها ، وأعطيها للولدين »

عندما كان شوكت في المطبخ يأكل خرجت مع أورهان إلى الطابق الثاني . وضعته في حضني ، وقبلته من رقبته .

قلت له : « أنت تتصبب عرقاً . ماذا حدث لك هنا ؟ »

« ضربني شوكت على أنه يطعنني بسيف عمي الأحمر »

قلت له : « أصبحت زرقاء » ثم لمستها : « هل تؤلمك ؟ يا لطيش شوكت ؟ اسمع ما سأقوله لك . أنت ذكي جداً ، ولطيف . أريد منك شيئاً . إذا عملته سأعطيك سراً لم أعطه لشوكت أو لغيره »

« ما هو ؟ »

« هل ترى هذه الورقة ؟ ستدخل إلى عند جدك وتعطيها للسيد قرة دون أن يراك جدك . هل فهمت ؟ »

« فهمت »

هل تعمل هذا ؟ »

« ما السر الذي ستعطيني إياه ؟ »

قلت له « خذ الورقة أولاً » وقبلت رقبته التي تفوح منها رائحة المسك مرة أخرى . وكلمة مسك هنا جاءت ضمن الكلام . منذ متى لم تأخذ خيرية

الولدين إلى الحمام ؟ لم تأخذهما منذ بدأ شيء شوكت ينتصب أمام نساء الحمام «السر أقوله لك فيما بعد» وقبلته «أنت ذكي جداً . شوكت مشاغب ، إنه يرفع يده على الجميع حتى أمه» .

قال : «لن آخذها . أنا أخاف من السيد قرة . هو الذي قتل أبي»

قلت : «شوكت قال لك هذا ، أليس كذلك ؟ انزل إلى تحت بسرعة وانده له!»

ولأنه رأى على وجهي ملامح الحدّة نزل من حضني خائفاً وركض . لعله كان مسروراً قليلاً لمعرفته أن الواقعة ستقع على رأس شوكت . بعد قليل جاء الاثنان ، وحالتهما سيئة . في يد شوكت رقائق الفواكه المجففة ، وفي يد الثاني سيف .

قلت : «أخوك أخبرني بأنك قلت له إن السيد قرة قتل أباك . لن يقال شيء كهذا في البيت بعدالآن . عليكما أن تحبا السيد قرة وتحترمانه . مفهوم ؟ لا يمكنكما أن تقضيا حياتكما كلها دون أب»

قال شوكت بفظاظة : «أنا لا أريده . أنا أعود إلى بيتنا عند عمي حسن ، وأنتظر أبي هناك»

تأجج غضبي في لحظة فصفعته على وجهه . كان السيف في يده حتى تلك اللحظة ، فسقط .

قال باكياً : «أريد أبي»

وأنا أبكي أكثر منه .

قلتُ باكية : «لم يعد لكما أب . لن يعود . بقيتما دون أب ، فهمتما يا ابني الحرام ؟» وبكيت بشكل جعلني أخشى من سماع الذين داخل البيت .

قال شوكت باكياً : «نحن لسنا ابني حرام» ثم بكينا جميعاً مطولاً .

بعد مدة رققَ البكاء قلبي فصرت إنسانة جيدة . احتضن بعضنا بعضاً ونحن نبكي . اندس شوكت جيداً بين ثدييَ . عندما يلتصق بي هكذا في بعض الأحيان أشعر أنه لا ينام حقيقة . لعلني كنت أنام معهما ، ولكن عقلي كان في الأسفل . كانت تنبعث رائحة لذيذة من مغلي النارنج . قفزت فجأة محدثة جلبة أيقظت الولدين .

« انزلا إلى تحت لتطعمكما خيرية »

أنا في الغرفة وحدي . كان الثلج قد بدأ يندف . توسلت إلى الله ليعينني ، بعد ذلك فتحتُ القرآن الكريم وقرأتُ مرة أخرى ما تيسر من سورة آل عمران حول الذين يقتلون في سبيل الله ، وكيف أنهم يحشرون عند الله ، عن روح زوجي لأريحه . هل فرّج أبي صورة سلطاننا غير المنتهية لقرة ؟ قال إنه سيكون مقنعاً إلى حدَ جعل الناظر إليه يقع له ما يقع للناظر مباشرة إلى عيني سلطاننا ، فيخاف ويشيح بوجهه عنه .

ناديت أورهان ، وقبل أن أضعه في حضني قبلته مطولاً من وجنتيه « الآن ستعطي هذه الورقة لقرة دون خوف ، ودون أن يراك جدك . مفهوم ؟ »

« سني تتخلخع »

قلت : « أقلعها لك عندما تعود إن أردت . تندس به ، وهو سيحتضنك مندهشاً عندئذ تترك الورقة بيده ، مفهوم ؟ »

« أنا خائف »

« ليس هنالك ما يدعو إلى الخوف . إذا لم يغدُن قرة أباً لكما ، أتعرفان من سيكون ؟ عمك حسن! هل تريد أن يكون عمك حسن أباً لك ؟ »

« لا أريد »

قلت : « هيا يا أورهاني الذكي الوسيم . ثم إنني سأغضب . . وإذا بكيت سأغضب أكثر » .

مد يده بيأس وتهذيب ودسست فيها الرسالة بعد أن طويتها كثيراً . يا الله ساعدني لأن كل هذا لكي لا يبقى هذان اليتيمان معلقين هكذا . أمسكته من يده وقدته إلى الباب عند عتبة الباب نظر إليَ نظرة أخيرة بخوف .

عدتُ إلى زاويتي ورأيته من الثقب كيف اقترب من الصالة بخطوات خجولة ، واقترب من أبي وقرة ، ثم توقف ، وبقي لحظة لا يدري ماذا يفعل ، بعد ذلك بحث عني ، وألقى نظرة إلى الثقب . بدأ يبكي . ولكنه بمحاولة أخيرة نجح بالقاء نفسه في حضن قرة . لأن قرة ذكي إلى حدَ استحقاقه أن يكون أباً لولدي فتّش يد الولد دون شعور بالحيرة بعدما ألقى بنفسه أورهان الباكي في حضنه دون معرفة السبب .

فور عودة أورهان تحت وطأة نظرات أبي المندهشة ، هرعت إليه واحتضنته ، وقبلته طويلاً ثم أنزلته إلى المطبخ ، وملأت فمه بزبيب العنب الذي يحبه ، وقلت :

«خيرية ، خذي الولدين إلى ميناء (قدرغة) واشتري من محل كوستا سمكاً من أجل الحساء لأبي . وخذي هذه العشرين قرشاً أبيض واشتري لأورهان – مما يزيد عن ثمن السمك – في طريق العودة تيناً يابساً أصفر ، وزبيب الخوخ الأحمر الذي يحبه ، واشتري لشوكت ملبناً بالجوز والحمّص ، ونزهيهما حتى أذان المغرب كما يشاءان ، وانتبهي لهما كي لا يصابا بالبرد .

بعد أن ذهب الجميع سررت بالصمت المخيّم على البيت . صعدت إلى الأعلى وأخرجت المرآة التي صنعها حموي وأهداها لي زوجي من مخبئها بين أغطية المخدات التي تفوح منها رائحة عطرة ، وعلّقتها . وقفت أمامها بعيداً بحيث إذا تحركت قليلاً أرى جسمي كله مجزءاً في المرآة . كانت السترة الحمراء جيدة عليَ ، ولكنني أردت أن أكون داخل القميص البنفسجي الذي

أخرجته من صندوق جهاز أمي . أخرجت الكنزة الفستقية التي طرّزت عليها جدتي بيديها أزهاراً . ارتديتها ، لكنني لم أقتنع . شعرت بالبرد وأنا ألبس القميص البنفسجي . ارتجفت ومع ارتجافي ارتجفت شعلة الشمعة . كنت متأكدة أنني سألبس فوق ثيابي معطفي الأحمر ذا فراء الثعلب من داخله ، ولكنني في اللحظة الأخيرة غيرت رأيي ، وعبرت إلى الصالة بهدوء ، وأخرجت من الصندوق المعطف الصوفي الطويل والعريض جداً الذي أعطتنيه أمي ، ولبسته . شعرت بالهلع لحظة عندما سمعت أصواتاً عند الباب . قرة يذهب . خلعت معطف أمي القديم بسرعة وارتديت المعطف الأحمر ذي الفراء . إنه يضغط على ثدييَ ولكنني مسرورة به . وضعت على رأسي الغطاء الأكثر بياضاً ونعومة ، وأنزلته جيداً على وجهي .

لم يخرج السيد قرة بعد ، فقد أخطأت نتيجة الانفعال . إذا خرجتُ الآن سأقول لأبي إنني ذهبت مع الولدين لشراء السمك . نزلت الدرج مثل قطة .

كالشبح أغلقت الباب بخفة . عبرت الباحة بصمت . عندما خرجتُ إلى الزقاق توقفت لحظة ونظرت إلى الخلف فتهيأ لي من وراء غطاء وجهي أن البيت ليس بيتنا .

ليس ثمة أحد في الشوارع . ولا القطط . كانت تتناثر بشكل خفيف ندف الثلج . دخلتُ متوجسة إلى الحديقة المتروكة التي لم تر الشمس قط . كانت تفوح منها رائحة الأوراق المتفسخة والرطوبة والموت ، ولكنني شعرت بالإلفة وكأنني في بيتي بعد أن دخلت إلى بيت اليهودي المشنوق . يقال إن الجان يلتقون هنا في الليل ويشعلون الموقد ويحتفلون بصخب . استماعي لوقع قدمي في البيت الفارغ أمر مخيف . حدثت جلبة في الحديقة . ولكن بعد ذلك دفن الصمت كل شيء . نبح كلبٌ في مكان قريب . أنا أعرف كلاب حيّنا كلها من نباحها ، ولكنني لم أعرف هذا .

في الصمت الذي تلا هذا شعرت وكأن ثمة شخصاً آخر في البيت ، ولم أتحرك أبداً كي لا يسمع ذلك الشخص وقع قدميَ . مر جماعة من الزقاق وهم يتكلمون . فكرت بخيرية والولدين . إن شاء الله لا يصابون ببردية . وفي الصمت الذي تلا ذلك سيطر عليَ الشعور بالندم . لن يأتي قرة ، لقد أخطأت . عليَ أن أعود إلى البيت قبل جرح كرامتي أكثر . ولحظة تخيلي بخوف أن حسناً يراقبني شعرت بجلبة في الحديقة ، وفتح الباب .

فجأة غيرت مكاني بسرعة . لا أعرف سبب عملي هذا . وعندما غدت النافذة التي تتلقى الضوء على يميني ، وأنا وسط الضوء الساقط عليَ فهمت أن قرة يراني وسط أسرار الظلال كما يصف أبي ، أنزلت غطاء وجهي ، وانتظرت مستمعة إلى وقع قدميه .

عندما عبر قرة عتبة البيت ورآني ، خطا عدة خطوات ووقف . وهكذا تبادلنا النظر وتفصل بيننا مسافة خمس أو ست خطوات . إنه أكثر قوة وسلامة مما رأيته عليه عبر الثقب . بدأ يخيم صمت .

قال هامساً : « ارفعي غطاء وجهك ، أرجوك »

« أنا متزوجة ، وأنتظر زوجي »

وبالصوت نفسه قال : « لن يعود أبداً ، ارفعي غطاء وجهك! » .

« هل طلبتني إلى هنا لتقول هذا ؟ »

« لا ، من أجل أن أراك . أنا أفكر فيك على مدى اثنتي عشرة سنة . ارفعي غطاء رأسك يا روحي كي أراك مرة أخرى » .

رفعتُ غطاء وجهي . استمتعتُ بنظرته المباشرة إلى وجهي وعينيَ دون أن ينبس .

« الزواج والإنجاب جعلاك أجمل ، صار وجهك مختلفاً تماماً عما كان عليه في ذاكرتي » .

« كيف كنت تتذكرني ؟ »

« بألم ، لأنني عندما كنت أتذكرك فإن ما أتذكره هو ليس أنت بل ما أعتقد أنه خيالك . إنك تتذكرين أحاديثنا عن خسرو وشيرين اللذين عشقا بعضهما بعضاً إثر رؤيتهما صورهما أليس كذلك ؟ لماذا عشقت شيرين خسرو الوسيم عندما رأت رسمه معلقاً على جذع الشجرة ومن النظرة الأولى بينما كان يجب أن تراه ثلاث مرات لتعشقه ؟ كنت تقولين إن كل شيء يغدو ثلاث مرات في الحكايات ، وأنا كنت أقول إن العشق يجب أن يتأجج من النظرة الأولى . ولكن من يستطيع رسم خسرو بشكل حقيقي إلى حدّ عشقه ، وبشكل صحيح إلى حدّ معرفته ؟ لم نتكلم بهذا أبداً . لو كان معي طوال الاثنتي عشرة سنة هذه رسم حقيقي لوجهك الذي لا مثيل له لما تعذبت كل هذا العذاب » .

بهذا المعنى حكى عبارات جميلة جداً وكثيرة ، حكى عن النظر إلى الرسم والوقوع في العشق ، وعن تحمله العذاب من أجلي . لأن انتباهي في تلك الأثناء كان مركزاً على اقترابه مني خطوة خطوة فإنني لا أذكر جيداً ما قاله بالكلمة فقد تداخل في ذاكرتي . سأحاول تذكره ، والتفكير فيه لاحقاً . الآن لا أشعر سوى بسحر وقع كلماته في داخلي ، وهذا ما يربطني به . شعرت بالذنب لأنني عذبته على مدى اثنتي عشرة سنة . يا لقرة ، ويا لجمال عباراته التي يقولها ، ويا لحسن هذا الإنسان! إنه مثل طفل بريء ، أقرأ هذا في عينيه . حبّه لي كل هذا القدر يمنحني الأمان .

تحاضنا . استمتعت بهذا إلى حدّ أنني لم أشعر بالذنب . وبشعور ممتع أحلى من العسل فقدتُ صوابي . اندسست فيه أكثر ، وسمحت له بتقبيلي ، وأنا قبلتُه . وبينما كنا نتبادل القبل شعرت بأن العالم كله دخل في ظلام لذيذ . أردت للجميع أن يتحاضنوا مثلنا . كأنني أتذكر أن العشق أمر

كهذا . أدخل لسانه في فمي . كنت مستمتعة بما أعمله إلى حدّ شعوري بأن العالم كله يغرق في جمال برّاق ، ولم يخطر ببالي أي سوء .

إذا دخلت حكايتي المتواضعة هذه الكتب في يوم ما ، ونقشها النقاشون الهراتيون الأسطوريون ، فكيف سيرسمون تحاضننا قرة وأنا ؟ سأقول لكم هذا . ثمة صفحات رائعة فرّجني أبي عليها فيها توافق بالإحساس بين تدفق الكتابة وتماوج الصفحات ، وتوافق بالملمس بين تزيينات الجدران وتذهيب الصفحات ، وتشابه بانهماك السنونو وهي تخترق الإطار والتذهيب بأجنحتها مع انهماك العاشقين . ويظهر العاشقان في تلك الرسوم صغيرين جداً ، يتحاوران بالعيون ، أو يحاولان الحديث بكلمات محملة بالمعاني وكأن هذه الحكاية ليست حولهما ، بل حول ساحة القصر الرائع الذي يتلاقيان فيه ، أو الحديقة الرائعة التي رسمت أوراقها بالواحدة بعشق كبير ، والنجوم الكثيرة التي تضيء الليل والظلام والأشجار . ولكن الناظر جيداً إلى ترتيب الألوان السرّي الذي يعده النقاش اعتمادا على قلبه ، وينتبه إلى الضوء السحري المنبعث من كل زاوية من زوايا الرسم يفهم ذلك الرسم ، ويدرك أن الضوء ينبعث من أعماق العاشقين المرسومين . ثقوا أننا عندما تعانقنا قرة وأنا شعرت كأن العمل الطيب انتشر في العالم كله بالتساوي .

لله الشكر أنني أمتلك تجربة تجعلني أدرك عدم إمكانية استمرار عمل طيب كهذا مدة طويلة . في البداية وضع قرة يديه على ثدييّ الكبيرين . استمتعت بهذا كثيراً إلى حدّ أنني أردت أن يضع حلمتيهما في فمه . لم يعمل هذا بالضبط ، لأنه غير واثق مما يعمل . كأنه لا يعرف ما يعمل ، ولكنه يريد عمل أكثر مما يعمله . وهكذا مع استمرار تعانقنا بدأ يدخل بيننا الخوف والخجل . عندما جذبني من وسطي وأسند شيئه الضخم عند بطني استمتعت في البداية ، وتأجج لديّ الفضول ولم أخجل . قلت لنفسي بمباهاة :

إذا وصل العناق إلى هذا الحدّ فلا بد أن يصبح شيؤه بهذا القدر . وعندما أخرجه أدرت وجهي إلى الطرف الآخر ، ولكنني فهمت أنه كبير من توسع عيني .

بعد هذا بوقت طويل ، عندما أجبرني على قلة أدب لا تستطيع الإقدام عليها حتى نساء منطقة (القبتشاق)(*) والنساء غير المؤدبات اللواتي يحكين حكايات في الحمام ، توقفت بدهشة وحيرة .

توسل إليَّ قائلاً : « لا تقطبي حاجبيك يا روحي »

نهضت ، ودفعته ، وبدأت أصرخ في وجهه دون مبالاة لما إذا كان سيحزن .

* * *

(*) قوم من الأقوام التركية عاش بين جبال الأورال ونهر الفولغا ما بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر الميلاديين . . (المترجم)

٣٧

اسمي قرة

بالنسبة إلى شكورة المقطبة حاجبيها الجميلين وسط الظلام في بيت اليهودي المشنوق بشكل يوحي بالتوبيخ فإن آلتي التي أمسكها بيدي يمكن أن أدخلها في فم بعض الفتيات في (تفلس) والعاهرات (القبتشاقيات) ، والعرائس الفقيرات المباعات في الخانان ، وبعض الأرامل التركمانيات والعجميات ، والعاهرات السافلات المتكاثر انتشارهن في اسطنبول ، وعاهرات (منغاريا) و(الأبازيات) المتلويات ، وبعض العجائز (الأرمنيات) والشيطانات (الجنغيزيات) أو (السريانيات) ، والقحبات اللواتي يعملن من طرفين ، واللوطيين جائعي العيون ، ولكن ليس في فم شكورة . ضاجعت كافة أنواع العاهرات المتوسطات والرخيصات بدءاً من المتواجدات في بعض أحياء مدن الجزيرة العربية الصغيرة وصولاً إلى اللواتي في سواحل بحر الخرز ، ومن اللواتي في بلاد العجم إلى اللواتي في بغداد ولهذا فقدت توازني في أثناء تخيلي شكورة فنسيت أن لبعض النساء شرفاً . وهذا يعني أن عبارات العشق التي قلتها ليست صادقة .

أُصغي باحترام لكلمات حبيبتي الفاقدة لونها بتأثير لون آلتي التي أمسكها بيدي ، خجلاً مما تعرضت إليه ، ولكن ثمة شيئين يسعدانني : ١- لم أحاول الرد غاضباً بشكل حيواني كما أفعل مع نساء أخريات في أوضاع

كهذه إزاء غضب شكورة . ٢- شكورة منتبهة أكثر من المعتاد لسفري ، وهذا ما يجعلني أدرك أنها تفكر بي أكثر مما كنت أعتقد .

عندما رأتني شكورة حزيناً لعدم تلبيتها رغبتي حزنت منذ اللحظة .

قالت وكأنها تريد انتزاع العفو لنفسها : « إذا كنت تحبني كثيراً بجد ، يجب أن تكون متحكماً بنفسك كرجل شريف ، ولا تعمل على إهانة كرامة من تحمل نحوها نوايا جدية . لست وحدك من يعد الأحابيل للزواج مني . هل رآك أحد وأنت قادم إلى هنا ؟ » .

« لا »

أدارت وجهها الحلو الذي لم أستطع تذكره على مدى اثنتي عشرة سنة نحو الباب وكأن ثمة من يسير في الحديقة المظلمة والمثلجة ، ومنحتني فرصة رؤيته من جانب . عندما سمعنا جلبة خفيفة سكتنا ، وانتظرنا لحظة . ولكن لم يدخل أحد من الباب . منذ أن كانت في الثانية عشرة من عمرها تعطي انطباع الحصانة وأنها تعرف أكثر مني ، وهذا ما تذكرته الآن .

قالت : « روح اليهودي المشنوق تحوم هنا » .

« هل تأتين إلى هنا ؟ »

« الجان والأشباح والأرواح . . . تأتي مع الريح ، تدخل داخل الأغراض ، وتحدث صوتاً من الصمت ، وتتحدث في كل شيء . لا ضرورة لمجيئي إلى هنا . أنا أسمع » .

« اصطحبني شوكت إلى هنا ليريني القطة الميتة ، ولكنها لم تكن موجودة »

« أخبرني أنك قلت له إنك قتلت أباه »

« لم أقل هذا تماماً . هل وصل الكلام إلى هذا الحد ؟ أنا لم أرد قتل أبيه ، بل أريد أن أصير أباه »

« لماذا قلت له إنك قتلت أباه ؟ »

« في البداية سأل عما إذا كنتُ قتلتُ أحداً فأجبته بصدق قائلاً : إنني قتلتُ اثنين »

« أمن أجل التفاخر ؟ »

« من أجل التفاخر ، ومن أجل أن أملأ عين الولد الذي أحبُّ أمه . لأنني فهمت أن أمه تري تلك الغنائم لذينك الشقيين وتحكي لهما حكايات بطولات أبيهما بشكل مفصل ومبهر » .

« تفاخر إذن ، لأنهما لا يحبانك »

قلت بتفاخر الإمساك بخطأ على حبيبتي : « شوكت لا يحبني ، ولكن أورهان يحبني ، وأنا سأصبح أباً لكليهما » .

فجأة كأن ظل شيء غير موجود دخل بيننا ، خفنا بانهماك وارتجاف . وعندما استعدت أنفاسي كانت شكورة تبكي مصدرة شهشهة خفيفة .

« لزوجي المسكين أخ اسمه حسن . عشت معه ومع أبيه تحت سقف واحد منتظرة زوجي سنتين ، وعشقني . والآن يشتبه في أمور ما ، ويتخيل أنني سأتزوج من شخص ما لعله أنت ، لذلك أصبح مسعوراً . أرسل إليَّ خبراً : أنه يريد إعادتي إلى البيت بالقوة . في كل لحظة يمكنهم أن يداهمونا . وأبي لا يرغب بجعلي أرملة بقرار من القاضي ، لأنه يعتقد أنني إذا ترملت سأجد لنفسي زوجاً جديداً ، وأتركه . وأسعدته عودتي مع ولدي في وحدته بعد وفاة أمي . هل تسكن معنا ؟ »

« كيف ؟ »

« إذا تزوجنا فهل تسكن معنا ، أي مع أبي ؟ »

« لا أعرف »

« فكر بهذا بسرعة . ولن يكون معنا مزيد من الوقت ، صدّقني . أبي

يشعر باقتراب سوء ما ، وأنا أعطيه حقاً . إذا داهم حسن ورجاله والانكشاريون بيتنا وأخذوني مع أبي إلى القاضي فهل تشهد أنك رأيت زوجي ميتاً ؟ أنت قادم من بلاد العجم ، سيصدقونك » .

« أشهد ولكنني لم أقتله » .

« حسنٌ ، هل تقول مع شاهد آخر للقاضي إنك رأيت زوجي في ساحة الحرب ميتاً مدمى في بلاد العجم من أجل أن أصير أرملة ؟ »

« لم أره يا روحي ، ولكن من أجلك أقول هذا »

« هل تحب ولديَ ؟ »

« أحبهما » .

« ماذا تحب فيهما ، أخبرني ؟ »

قلتُ : « أحبُ في شوكت قوته وتصميمه واستقامته وذكاءه وعناده ، وأحب في أورهان خجله ونعومته وذكاءه ، وأحبّ فيهما كونهما ابنيك »

ابتسمت ذات العينين السوداوين قليلاً ، وذرفت دموعها قليلاً ، وبانهماك محسوب لمن يريد إنجاز كثير من الأعمال في فترة قصيرة ، انتقلت إلى موضوع آخر :

« يجب أن ينجز الكتاب الذي يعده والدي ، ويسلَم للسلطان . النحس يحوم حولنا بسبب هذا الكتاب » .

« ماذا هنالك من شيطانية أكثر من قتل ظريف أفندي ؟ »

لم تسرَ من هذا السؤال للحظة ، ولأنها تحاول أن تبدو متحدثة من قلبها لم تظهر هكذا ، فقالت :

« يشيّع أنصار نصرت الأرضرومي أن كتاب أبي خروجٌ عن الدين ، وفرنجة . هل يغار النقاشون المترددون على بيتنا من بعضهم البعض ويعدّون الأحابيل ؟ أنت دخلت بينهم ، وتعرف هذا أكثر » .

قلتُ : « هل لشقيق المرحوم زوجك علاقة بالنقاشين وبكتاب أبيك ، وبأنصار الشيخ نصرت ، أم أنه بحاله ؟ »

قالت : « لا علاقة له ، ولكن حسناً ليس بحاله أبداً »

خيّم صمتٌ مدهش مليء بالأسرار .

« ألم يكن بينك وبين حسن حجاب عندما كنتما تعيشان في بيت واحد ؟ »

« بقدر ما يمكن عمله في بيت مؤلف من غرفتين »

في هذه الأثناء بدأ نباح طويل لكلب أو اثنين ليسا بعيدين منحا نفسهما للعمل الذي يقومان به .

لم أستطع أن أقول لها : لماذا أسكنك المرحوم زوجك في بيت مؤلف من غرفتين بعد أن حارب كل هذه الحروب ، وحقق انتصارات ، ونال أعطيات . فسألت حبيبة طفولتي بخوف وخجل : « لماذا تزوجت من زوجك ؟ »

قالت : « كنت سأُزوّج من شخص ما بالتأكيد » هذا صحيح ، ثم شرحت لي باختصار سبب زواجها منه دون امتداحه أو تكديري : « أنت ذهبت ولم تعد . لعل القطيعة إشارة للحب ، ولكن العاشق المقاطع يضايق من جهة ، وليس له مستقبل من جهة أخرى » . وهذا صحيح أيضاً ، ولكنه ليس السبب الذي جعلها تتزوج من قاطع الطرق الذي كان زوجها . ليس صعباً الاستنتاج من نظرتها الماكرة أنها نسيتني كالجميع بعد فترة قصيرة من تركي اسطنبول . فكرتُ أنها طرقت هذه الكذبة المذنّبة من أجل ترميم قلبي المكسور قليلاً ، وأن عليَ مقابلتها بالشكر ، فبدأت أحكي لها كيف أنها لم تخرج لحظة من عقلي في أثناء سفري ، وكيف أن خيالها كان يعود إليَ مثل الأشباح . وهذه أعمق الآلام وأكثرها سرية ، وتلك التي لا يمكن أن أحكيها لأحد غيرها ، وهي صحيحة كلها ، ولكنني في تلك اللحظة أدركت مندهشاً

أنني لم أكن صادقاً .

هذا ما أدركته للمرة الأولى ، أي أن الإنسان يندفع إلى عدم إظهار الصدق في رواية الحقائق أحياناً كي نفهم أحاسيسه ومشاعره حق فهمها . المثال الأفضل يمكن إعطاؤه من مجموعة نقاشين يقلقنا قاتل بينهم : حتى الرسم - بفرض أنه حصان - مهما كان يمثل الحصان الحقيقي ، أو الحصان الذي أبدعه الله ، أو خيول أساتذة النقش الكبار يمكن ألا يكون نقاشنا الماهر الذي نقش الحصان صادقاً في مشاعره لحظة رسمه هذا . إن صدق النقاش أو عباد الله المتواضعين أمثالنا لا يظهر في المهارة والعمل الكامل ، بل في الحالة العكسية ، يظهر في زلة اللسان أو الخطأ أو لحظات الانكسار أو الألم نتيجة الانكسار . مطلبي الأقوى تجاه شكورة ، ما تشعر به هي أيضاً عدم النظر إلى الفرق بين هذا وبين المطلب المدوّخ الذي أشعر به تجاه جميلة قزوينية مدببة الوجه ، نحاسية اللون ، بنفسجية الشفتين ، ولكنني أقول الكلمات نفسها للسيدات الراقيات الخائبات . إن شكورة بخبرتها الحياتية العميقة التي وهبها الله لها تتفهم تحملي آلام عشقي لها على مدى اثنتي عشرة سنة كتعذيب صيني صرف ، وتصرفي كمهووس شهواني بائس لا ترى عينه سوى إشباع رغباته السوداوية على عجل في لقائي الأول معها . لقد شبّه (نظامي) فم جميلة الجميلات شيرين بحقة مليئة باللؤلؤ .

عندما بدأت الكلاب المُستفزة النباح بكل قوتها ، قالت شكورة قلقة : « عليّ أن أذهب » في تلك اللحظة أدركنا أن الأشباح عتّمت بيت اليهودي المشنوق جيداً على الرغم من أن الوقت ما زال عند الغروب . جسدي تحرك تلقائياً من أجل عناقها مرة أخرى ، ولكنها غيّرت مكانها فجأة مثل عصفورة قافزة .

« أما زلتُ جميلة ؟ قل بسرعة »

قلت لها ، ويا لجمال استماعها ، وصدّقتْ ما قُلته ، فأضافت :

« وهندامي ؟ »

أجبتها

« هل رائحتي جميلة ؟ »

حسب قول نظامي إن ما يدعى شطرنج العشق هو ما يجري في حركة الروح وليس بين الألاعيب الأدبية من هذا النوع ، ومن المؤكد أن شكورة أيضاً تعرف هذا .

سألت قائلة : « ماذا ستكسب أنت الآن ؟ هل تستطيع رعاية يتيميَ ؟ »

حدثتها عن تجربتي موظفاً لدى الدولة ، وفي الدواوين على مدى أكثر من اثنتي عشرة سنة ، وعن تجربتي التي اكتسبتها من خلال رؤيتي الحروب والجثث ، وعن مستقبلي البرّاق ، واحتضنتها .

قالت : « يا لجمال عناقنا قبل قليل ، أما الآن فقدْ فَقَدَ سحره الأول »

احتضنتها بقوة أكبر لأثبت لها أن هذا من كل قلبي ، وسألتها عن سبب إعادة الرسم ، الذي رسمته ، وأعطيتها إياه قبل اثنتي عشرة سنة ، مع إستر على الرغم من محافظتها عليه كل هذه المدة . عندما قرأت في عينيها دهشتها من سذاجتي وشفقتها القلبية عليَ قبلتها . هذه المرة لم أدخل تحت وطأة الشهوانية المدوخة ، ووجدنا نفسينا نتعانق مرتعشين كجناحي نسر قوي ، وهذه الرعشة تتغلغل إلى قلبينا وصدرينا وأحشائنا ، وأطرافنا كلها . أليس تبادل الحب هو الطريق الأفضل لتهدئة العشق .

عندما وضعت يديَ على ثدييها الكبيرين ، أبعدتني عنهما بجدية لم تخل من عذوبة وحلاوة . لستُ الرجل الناضج الذي ينجح بزواج من امرأة يوسخها قبل الزواج . كنتُ عديم تجربة بحيث لا أعرف أن الزواج السعيد يتطلب صبراً ، وعذاباً قبله ناسياً أن العجلة من الشيطان . انسلت من بين

ذراعي وهي تنزل غطاء وجهها الكتاني متوجهة نحو الباب . عندما رأيت الثلج النادف في الأزقة المظلمة باكراً من الباب المفتوح ، صرختُ من حيث أقف بما لم نجد الفرصة لقوله ، ولعل هذا لكي لا نستفز روح اليهودي المشنوق :

« ماذا سنعمل بعد الآن ؟ »

قالت : « لا أعرف » وحسب قواعد شطرنج العشق خرجتْ تاركة آثار قدميها الجميلتين على الثلج الذي يغطي الحديقة بسرعة ذاهبة نحو البيت .

* * *

٢٨

سيقولون عني قاتل

أنا واثق أن ما سأحكيه يحدث لكم . عندما أسير في أزقة اسطنبول غير المتناهية منعطفاً من هنا وهناك ، أو عندما أضع في فمي لقمة (مقالي) في أحد المطاعم أو عندما أغمض عينيَ نصف إغماضة متأملاً بدقة تلويات زخرفة حافة شيء معين ، أشعر أن تلك اللحظة قد عشتها في الماضي . عندما أسير في الزقاق داعساً على الثلج أشعر أنني سرتُ داعساً على الثلج في يوم ما .

الأمور غير العادية التي سأحكي عنها تجري في الزمن الحاضر ، وكأنها حدثت في الماضي . عند المساء كان يخيم الظلام ، ويندف الثلج ، وكنت أسير في زقاق الأفندي زوج الخالة .

أتيت إلى هنا عارفاً ما أريد ومصمماً عما سأفعل على عكس ما جرى لي في ليال أخريات . لم يحدث لي ما حدث في ليال أخريات إذ تجلبني قدماي إلى هنا تلقائياً ، مفكراً في أمور أخرى . مثلاً : مجلدات هرات ذات الزخرفة الشبيهة بالشمس بلا ماء ذهب ، وعندما أخبرت أمي أول مرة عن كسبي سبعمائة قرش أبيضَ من كتابي ، وذنوبي وتصرفاتي الغبية . أتيت إلى هنا عارفاً ما أعمل ومفكراً فيه .

عندما فُتح باب الحوش الكبير بلمسة واحدة ، وكنت أخشى ألا يفتحه لي أحد إذا طرقته ، فهمت مرة أخرى أن الله معي . لم يكن ثمة أحد في

الفسحة الحجرية المتلامعة التي كنت أعبرها عندما آتي إلى هنا ليلاً لإضافة رسوم جديدة إلى كتاب الأفندي زوج الخالة . هنالك إلى اليمين دلو البئر ، وفوقه عصفور لا يبدو مشتكياً من البرد ، وإلى الأمام قليلاً موقد غير مشتعل لسبب ما ، وإلى اليسار اسطبل لا يُربط فيه سوى خيل الضيوف . كل شيء في مكانه . دخلت من الباب المفتوح المجاور للاسطبل ، وصعدت محدثاً على أخشاب الدرج جلبة ، وأنا أتنحنح .

لم أتلقَ جواباً على نحنحتي ، وعلى الجلبة التي أحدثتها عند خلعي حذائي الملتات بالطين ، ووضعي له بجانب الأحذية المصفوفة في الأعلى بجانب باب الصالة . عندما لم أر زوج الحذاء الأخضر الظريف الذي أنظر إليه كلما أتيت ، وأعتقد أنه لشكورة ، خطر ببالي أنه لا يوجد أحد في البيت .

في لحظة دخلت إلى الغرفة التي على اليمين وأعتقد أن شكورة تنام فيها محتضنة ولديها . لمستُ الفرش . فتحتُ صندوقاً موضوعاً في طرف الغرفة ، وخزانة بابها يفتح بخفة مثل الريش ونظرت فيها في أثناء تخيلي أن رائحة اللوز الخفيفة يجب أن تكون رائحة جسم شكورة فتحتُ فردة باب الخزانة العلوي فسقطت مخدة كانت محشوة هناك على رأسي ، ثم أسقطت الإبريق والكاسات النحاسية . عندما تحدث جلبة ندرك أن المكان مظلم تماماً ، ولكنني أدركت أن المكان بارد .

نده زوج الخالة من الداخل : « خيرية . شكورة . من أنتِ ؟ »

خرجتُ من الغرفة بلمح البصر ، وعبرتُ الموزع قطرياً ثم دخلت غرفة النقش ذات الباب الأزرق التي كنا نعمل فيها من أجل كتاب زوج الخالة ، وقلت :

« أنا يا زوج الخالة أفندي ، أنا »

« من أنت ؟ »

فهمت في تلك اللحظة أن الأسماء المستعارة التي لقبنا بها الأستاذ عثمان عندما كنا أولاداً تساعد الأفندي زوج الخالة على السخرية منا بخفاء . وعلى غرار ما يعمل خطاط مغرور في الصفحة الأخيرة بدأت بعبارة : «العبد الفقير لله» ثم ذكرت كنيتي واسم أبي واسمي الكامل بشكل بطيء مخرجاً الحروف من مخارجها .

في البداية قال : «ها» وفي النهاية قال : «ها»

غمرنا صمتٌ فترة كالصمت الممتد إلى اللا نهاية ، كصمت العجوز الذي قابل الموت في حكاية سريانية سمعتها .

على سبيل ذكر الموت ، إذا كان بينكم من يعتقد أنني جئت إلى هنا لعمل شيء كهذا فهذا يعني أنكم تقرؤون الكتاب بشكل خاطئ . من ينوي هذه النية هل يطرق الباب ، أو يخلع حذاءه ، أو يأتي دون سكين ؟

قال : «يعني أنك جئت» كما قال العجوز في الحكاية . ولكنه بعد ذلك اتخذ لنفسه موقفاً مغايراً تماماً : «أهلاً وسهلاً يا بني . قل لي ماذا تريد ؟»

كان الجو قد بدأ يظلم . ومن طرف النافذة المطلة على شجرتي الصنوبر والرمان عندما تُفتح ربيعاً ، والمغطاة بستارة ذات تخاريم شمعية يتسلل ضوء خفيف بقدر ما يُسرّ له الرسامون الصينيون . كان الأفندي زوج الخالة جالساً وراء (رحلة) في زاويته المعهودة ، والضوء يأتيه من اليسار ، ولم أر وجهه بدقة ، وكنت أبذل جهدي للإحساس بالقرب الذي كنت أحس به عندما كنت أرسم بين هذه الحقاق والأقلام والفراشي حتى الصباح متحدثين عن النقش . في تلك اللحظة قررت أن أحكي له حكاية عميقة معبراً عن همي ولا أدري إن كان السبب هو الإحساس بالغربة ، أو وساوسي أم خجلي من قول إنني أرتكب الحرام برسمي حسب معتقدات رجال الدين .

لعلكم سمعتم بحكاية المصور الشيخ محمد الأصفهاني . ليس ثمة أفضل

من هذا النقاش في اختيار الألوان ، وتنسيق الصفحات ، ورسم الإنسان والحيوان والوجوه ، وتوزيع الشعر داخل الرسم في توزيع هندسي بحيث نراه بمنطق سري منفعلين . بعد وصوله إلى المعلمية في سن الشباب صار هذا الأستاذ ذو اليد المعجزة وعلى مدى ثلاثين سنة أهم نقاش فعّال في زمانه في اختيار الموضوع ، والإبداع ، والأصول . هو الذي أضاف التوازن والمهارة إلى رسوم هرات الحساسة والدقيقة والشيطانية للعمالقة والجان ، والشياطين والجان ذات القرون المخيفة ، والخيول ذات الأعنة الغليظة ، والمخلوقات الممزوج فيها الإنسان والوحش ، كما اهتم وتأثر مثل الجميع برسوم الشخصيات التي تأتي من سفن البرتغال خصوصاً وسفن الأفرنج عموماً ، وأخرج من الكتب القديمة الأصول التي تعود إلى زمن جنكيز خان ليفكها ويعيد الحياة إليها . ورسم قبل الجميع المواضيع التي تحتمل المنايكة مثل اغتسال شيرين في ضوء القمر ، وتحرش الاسكندر بالنساء العاريات السابحات في جناحهن ، ورسم حضرة نبينا طائراً على البراق ، وذاع صيته في هذه الرسوم إضافة إلى رسوم السلاطين وهم يحكّون أنفسهم ، ورسوم الكلاب وهي تتزاوج ، والشيوخ وهم يسكرون بالخمر . رسم كل هذه الرسوم وهو يشرب الخمر ويتعاطى الأفيون سراً أحياناً ، وعلناً أحياناً على مدى ثلاثين سنة من العمل والانفعال . بعد ذلك ، عندما تقدم بالسن صار مريداً لشيخ صوفي ، وتغيّر خلال فترة قصيرة من فرقه إلى قدمه ، وتوصل إلى نتيجة مفادها أن الرسوم التي رسمها في حياته عمل مناف للدين والإيمان ، وأنكرها . وذهب إلى أبعد من هذا ، فقد قضى القسم المتبقي من حياته - وكان ثلاثين سنة - بالتنقّل من مدينة إلى أخرى ، ومن قصر إلى قصر ، ومن مكتبة إلي مكتبة باحثاً عن كتبه التي رسمها في مكتبات الشاهات والسلاطين ، متلفاً لها . إذا وجد رسماً من رسومه في مكتبة من

مكتبات السلاطين يعمل ما بوسعه بالحسنى أو الحيلة لينزع الصفحة التي رسمها ، أو يوجد طريقة يدلق فيها الماء على رسمه ليخربه . أنا أحكي هذه الحكاية مثالاً على ما يمكن أن يصل إليه النقاش من آلام عند خروجه عن الإيمان دون أن ينتبه في أثناء انفعال الرسم . لهذا السبب قيل إن الشيخ محمد أحرق المكتبة العظيمة في قزوين عندما كان يتولاها الأمير عباس ميرزا لوجود مئات الكتب ، وعدم استطاعته فتحها واحداً واحداً لإيجاد الرسوم التي رسمها . وقد كتبتُ حكاية هذا النقاش مبالغاً بها وهو يحترق وسط النار المخيفة تلك وكأنني أنا عشتها .

قال لي الأفندي زوج الخالة مشفقاً : «هل تخاف يا بني من الرسوم التي نعدها ؟ »

الغرفة مظلمة لهذا لم أر إذا كان قد قال هذا مبتسماً ، ولكنني خمنته تخميناً .

قلت : «لم يبق كتابنا سراً . لعل هذا غير مهم . ولكن الشائعات في كل مكان . يقال بشكل غير مباشر إننا نكفر بديننا . يقال : ليس حضرة سلطاننا الذي طلب الكتاب ، بل هو كتاب نحن عملناه حسب مزاجنا ، ويقال أيضاً : إننا حضرنا كتاباً يسخر من حضرة سلطاننا وهو كتاب إنكار وزندقة ، ويقلّد معلمي الكفار . وثمة من يقول : إن كتابنا يُظهر الشيطان بشكل محبب ، وإننا ننظر إلى العالم بعين الكلاب الشاردة القذرة منظورياً ، فإذا رسمنا ذبابة حمار وجامعاً نرسم الذبابة بحجم الجامع بحجة أن الجامع في الخلف ، وهذا كفر بديننا ، وسخرية من المؤمنين الذاهبين إلى الجامع . ولا أستطيع النوم ليلاً لكثرة ما أفكّر بهذا » .

قال الأفندي زوج الخالة : «عملنا الرسوم معاً ، هل قمنا بمثل هذا نحن ، أو هل مررنا هذا مجرَد تمرير في عقولنا ؟ »

قلت بشكل مبالغ فيه : « حاشا . ولكن الآخرين سمعوا بهذا ولا أدري من أين . يقولون : هنالك رسم أخير . ولا يداورون بالقول عنه زندقة ، بل يقولون بوضوح إنه كفر » .

« أنت رأيت الرسم الأخير »

قلت لزوج الخالة أفندي وبشكل حذر وواضح آملاً أن يقدَره : « رسمتُ الرسوم التي طلبتموها ، بالشكل الذي طلبتموه في مختلف زوايا ورقة كبيرة من أجل رسم يشغل صفحتين . ولكنني لم أر الرسم كاملاً . لو رأيت الرسم كاملاً سيرتاح ضميري ، وأكذِّبُ تلك الافتراءات » .

سأل : « لماذا تشعر بالذنب . ما الذي يقلق روحك ؟ من الذي أوقعك في الحيرة ؟ » .

« شكُّ الإنسان بأنه يهاجم أموراً يعرف أنها مقدسة في كتاب رسم بسعادة على مدى شهور يعني أنه يعيش عذاب جهنم وهو حي . حبذا لو أستطيع رؤية الرسم الأخير ذاك » .

قال : « أهذا هو همَك كله ؟ هل أتيت إلى هنا من أجل هذا ؟ »

فجأة شعرتُ بالارتباك . هل يمكن أنني أفكر بشيء مقرف مثل قتلي ظريف أفندي المسكين »

قلتُ : « ينضم إلى هذه الافتراءات أولئك الذين يريدون إسقاط سلطاننا عن العرش ، وإجلاس ابنه ، وينشرون أن سلطاننا يدعم هذا الكتاب سراً » .

قال بطريقة تبدي التعب واليأس : « كم عدد المؤمنين بهذا ؟ كل واعظ حريص على ما هو فيه يهتم بهذا ، ويدوخ له ، ويبدأ القول بأننا نفقد ديننا . . . وهذا أفضل مصادر العيش » .

ترى هل يعتقد أن سبب مجيئي هو إبلاغه بهذه الشائعة فقط ؟

قلت مرجِّفاً صوتي : « يشاع أن المسكين ظريف أفندي رأى الرسم

الأخير مكتملاً . وأننا قتلناه لإدراكه أنه كفر بديننا . حكى لي هذا آغا قسمٍ من أقسام النقش خانة قريب مني . أنتم تعرفون التلاميذ والمتدربين كل منهم يشيّع شائعة »

اتبعتُ هذا المنطق لأدرّجه بالإثارة ، وأشرح له فترة أطول . لا أدري ما هي نسبة إلفتي للخوف بعد قتلي عديم الأصل ذاك ، وما تخيلته في أثناء حديثي المباشر عما شرحته . بعد أن حكيت كل هذا الكلام ، كنت آمل من الأفندي زوج الخالة إخراج الرسم الأخير المؤلف من صفحتين ليفرجني عليه ، ويهدئني . لماذا لا يستطيع فهم أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي تنقذني من أوهام الغوص في الحرام .

في لحظة ، سألته بجرأة : « هل يمكن للإنسان أن يرسم رسماً يخرجه عن دينه دون أن ينتبه ؟ » عاملاً على زعزعته . . .

بدل أن يجيبني ، أشار إليّ بحركة ظريفة بيده كأنه ينبهني إلى وجود طفل نائم في الغرفة . سكتُ . ثم قال كأنه يهمس : « أظلمت كثيراً ، لنشعل هذا الشمعدان »

عندما أشعلت شمعات الشمعدان من الموقد لم أسرّ لرؤية التباهي الذي لم آلفه على وجهه . أم أن هذا تعبير عن الشفقة ؟ هل فهم كل شيءوأدرك أنني قاتل سافل ، أم أنه يخاف مني ؟ كأن أفكاري خرجت عن سيطرتي ، وأتابع ما كنت أفكر فيه بدهشة كأنني أتابع أفكار رجل آخر . كان هنالك ما يشبه الذنب عند زاوية السجادة المفروشة على الأرض ، لماذا لم أنتبه إليه حتى الآن ؟

قال الأفندي زوج الخالة : « ثمة ثلاث مواسم لعلاقة الخانات والشاهات والسلاطين بالرسم والنقش والكتب الجميلة . في البداية يكونون جريئين مقدامين تواقين . يطلبون الرسم لأنهم يرونه عن طريق الآخرين . في هذا

الموسم يتعلمون . في الموسم الثاني يوصون على الكتب من أجل متعتهم الخاصة . ويصيرون أصحاب اعتبار لتعلمهم كيف يستمتعون من كل قلوبهم بالنظر إلى الرسم ، وكذلك تكون كتبهم - لها اعتبارها - التي يخلفونها بعد موتهم ليشتهروا بها . أما في خريف العمر فلا يوجد أي سلطان في هذا العالم يهتم بالخلود . أنا أفهم الخلود في هذا العالم من خلال الأجيال الأخرى الحية ، أي أحفادنا . إن الحكام محبي النقش حصلوا على الخلود في هذا العالم من خلال الكتب التي جعلونا نعملها لهم ، ووضعنا فيها أسماءهم ، وأحياناً كتبنا فيها تاريخهم . وعندما يتقدمون في السن يريدون الحصول على موقع جيد في الآخرة . وجميعهم يحكمون أن الرسم معوّق لهذا الأمر . وهذا ما يحزنني ويجعلني يائساً . على الرغم من كون الشاه طهماسب أستاذاً نقاشاً ، وقضائه فترة شبابه في نقش خانته ، أغلق النقش خانة الرائعة تلك عندما اقترب من الموت ، وأبعد الرسامين البارعين عن تبريز ، وعاش حسرة الندم . لماذا يعتقد الجميع أن الرسم سيغلق أمامهم باب الجنة ؟ »

« ألا تعرفون لماذا ؟ لأن حضرة نبينا يذكرنا بأن الرسامين سيذوقون أشد العذاب يوم القيامة » .

قال الأفندي زوج الخالة : « لا ، ليس الرسامون ، بل المصورون . . . وهذا حديث البخاري »

قلتُ باهتمام : « في يوم القيامة سيطلب من المصورين بث الروح في الأشكال التي أبدعوها ، ولكنهم لن يستطيعوا بث الروح في أي شيء ، لهذا سيذوقون عذاب جهنم . علينا ألا ننسى أن التصوير حسب القرآن الكريم صفة من صفات الله . المبدع والموجد من لا شيء ، والباعث الروح في الجماد هو الله . يجب ألا يحاول منافسته أحد . من أعظم المحرمات محاولة الرسامين عمل ما يعمله ، وادعاؤهم الخلق مثله »

قلتُ هذا بقسوة وكأنني أتَهمه . نظر إلى عينيَ :

« هل ترى أننا كنا نعمل هذا ؟ »

ابتسمت ، وقلت : « نهائياً ، ولكن المرحوم ظريف أفندي عندما رأى الرسم الأخير بدأ يعتقد بهذا . يقول : إن الرسم وفق علم المنظور ، والاستفادة من قواعد الأساتذة الأفرنج هي وقوع في حبائل الشيطان . واستخدمنا في الرسم الأخير الأصول الأفرنجية في رسم أحد الفانين بحيث إذا نظر إليه أحد ما لا يعتبر نفسه ينظر إلى رسم بل إلى حقيقة ، وهذا يدفع الإنسان إلى السجود للرسم كما في الكنائس . كما يقول : إن الرسم وفق قواعد المنظور لا يحول الرسم من الرؤية الإلهية إلى رؤية الكلب الشارد فقط ، بل إن استخدام الأصول الأفرنجية ، ومقارنة ما نعرفه ومهاراتنا بمعارف ومهارات الكفار حيلة شيطانية تخرجنا من صفائنا وتسقطنا في عبوديتهم » .

قال الأفندي زوج الخالة : « ليس ثمة ما هو صاف . عندما تبدع روائعاً في النقش أو الرسم ، وعندما يظهر جمال يدمع العين ويجعل الجسد يقشعر في نقش خانة ما ، اعلم أن ثمة شيئين جمع بعضهما إلى بعض ، وأخرج منهما رائعة جديدة . نحن مدانون بالوصول إلى جمال رسم بهزاد ورسم العجم كلهم لمزيج رسم العرب مع رسم المغول والصينيين . وأجمل رسوم الشاه طهماسب جمعت بين طراز العجم وحساسية التركمان . وإذا كان الجميع اليوم يتحدثون عما يجري في نقش خانة الخان أكبر في الهند ولا يشبعون من الحديث فهذا يعود إلى تشجيعه أخذ أساليب الأساتذة الأفرنج . الشرق لله والغرب أيضاً . اللهم احمنا من إرادة الصفاء وعدم التمازج » .

بقدر ما يبدو وجهه لطيفاً ومنوراً بتأثير ضوء الشموع ، يبدو ظله على الجدار مظلماً ومخيفاً . على الرغم من إيجادي أقواله معقولة وصحيحة لم أصدقه . ولاعتقادي أنه يرتاب فيَ ، فأنا أيضاً ارتبت فيه ، وأحياناً أشعر بأنه

يصغي إلى باب الحوش السفلي منتظراً من ينقذه مني .

قال : «حكيت لي عن إحراق المصور الشيخ محمد الأصفهاني نفسه والمكتبة الضخمة لأنها تضم رسومه التي أنكرها . وأنا سأحكي لك رواية أخرى عن هذه الأسطورة لا تعرفها أنت . نعم ، لقد بحث النقاش عن رسومه في الثلاثين سنة الأخيرة من حياته ، ولكنه مع تقليب الصفحات رأى رسوماً تقلّد رسومه ومستوحاة منها أكثر مما رأى رسومه . وفي السنوات التالية اتخذ نقاشو بلده رسومه قوالب ، وحفروها في ذاكرتهم ، وصارت أعمق من الحفظ ، إذ غدت جزءاً من أرواحهم . ومع بحث الشيخ محمد عن رسومه ، وجد أن النقاشين الشباب ينسخونها بإعجاب شديد ، ويستفيدون منها في حكايات أخرى ، وهي مترسخة في ذاكرة الجميع ، ومنتشرة في كل أرجاء العالم . عندما ننقل نظرنا من كتاب إلى كتاب ، ومن رسم إلى رسم على مدى سنوات ندرك أن الرسام الجيد لا يتخذ مكاناً في ذاكرتنا فقط ، بل يغيّر مشهد هذه الذاكرة . وبعد أن تُحفر مهارة نقاش ورسومه في أرواحنا بهذا الشكل تغدو مقياساً لجمال العالم بأسره . عندما بدأ المصور الأصفهاني بإتلاف رسومه في آخر حياته لم يجد أنها تكاثرت فقط ، بل وجد أن النظر إلى العالم يتم كما كان ينظر إليه وهو شاب ، وتعتبر الأشياء غير الشبيهة بما رسمه قبيحة» .

لم أستطع حجب إعجابي المتصاعد بالأفندي زوج الخالة ، ورغبتي بأن يسرَ مني ، فرميت نفسي عند ركبتيه . وبينما كنت أقبّل يديه تشكلت الدموع في عيني ، وشعرت أنني منحته من قلبي مكان الأستاذ عثمان .

قال الأفندي زوج الخالة بأداء المسرور من نفسه : «النقاش هو الذي يرسم الرسم مستمعاً إلى صوت ضميره ، ويلتزم بالقواعد التي يؤمن بها دون خوف من شيء . لا تهتم لما سيقوله أعداؤك والحاقدون عليك ، والذين

يغارون منك»

خطر ببالي وأنا أقبّل يد الأفندي زوج الخالة المغطاة بالنمش والبقع أنه ليس نقاشاً ، وخجلت فوراً من تفكيري هذا . كأن واحداً آخر وضع هذه الفكرة الشيطانية والعبثية في عقلي بالقوة . ولكنكم من جهة أخرى تعرفون أن ما فكرتُ فيه صحيح .

قال زوج الخالة : «أنا لا أخاف منهم لأنني لا أخاف من الموت» .

هززت رأسي كأنني فهمت المقصودين بكلمته : «منهم» ولكن شعوراً بالغضب ثار في داخلي رأيت أنه بجانب زوج الخالة مباشرة مجلد قديم هو كتاب الروح لابن الجوزية . ينتشي الخرفانون الذين يريدون الموت بهذا الكتاب الذي يحكي عن مغامرات الروح بعد الموت . ثمة شيء جديد وحيد بين المحابر والمشارط والحقاق وصناديق الأقلام منذ انقطاعي عن المجيء إلى هنا وهو حقة برونزية .

قلتُ بجرأة : «لنثبت لهم أننا لا نخاف . أخرجوا الرسم الأخير وفرجوه لهم!» .

«لكن ألا يشير هذا على الأقل إلى أننا نأخذ افتراءاتهم على محمل الجد ، ونعطيها قيمة ؟ لم نفعل ما يخيف لكي نخاف . ماذا هنالك أيضاً يجعلك على حق بإبداء هذه المخاوف كلها ؟ »

داعب شعري مثل أب . خشيت من ذرف دموعي مرة أخرى فاحتضنته .

قلت منفعلاً : «أنا أعرف سبب قتل المسكين المذهب ظريف أفندي . كان ظريف أفندي يفتري عليكم ، وعلى كتابكم ، وعلينا لإطلاق نقمة الشيخ نصرت الأرضرومي . لقد قرر أننا هنا نتبع الشيطان ، ونخالف الدين ، وقد بدأ بقول هذا هنا وهناك ، وعمل على تحريض النقاشين العاملين لديكم ضدكم . ولا أدري لماذا أقدم على هذا فجأة . يمكن أن يكون بسبب الغيرة أو

بسبب اتباعه الشيطان . سمع النقاشون الآخرون الذين يعملون في كتابكم كيف كان ظريف أفندي مصمماً على محونا . يمكن لكم توقع أنهم خافوا جميعاً ، وسيطر عليهم الشك مثلي ، ضايق ظريف أفندي أحد النقاشين إحدى الليالي ، واستفزه ضدكم ، وضدنا ، وضد كتابنا ، وضد الرسم والنقش وضد كل ما نؤمن به ، فسيطر عليه الانفعال ، وقتل السافل ثم رماه في الجب » .

« سافل ؟ »

قلت : « طينة ظريف أفندي غير معروفة ، وهو خائن وفاسد الخميرة ، وفاسد الحليب » وارتفع صوتي كأنه أمامي في الغرفة .

خيّم صمت . هل كان خائفاً مني ؟ أنا كنتُ خائفاً من نفسي وكأنني في مهب ريح ذكاء رجل آخر وحرصه ، وهذا جميل .

« من النقاش الذي سيطر عليه الذعر مثلك ومثل الأصفهاني ؟ من قتله ؟ »

قلت : « لا أعرف »

ولكنني أردت أن يبدو على وجهي أنني أكذب . وأدركت أنني ارتكبت خطأً فادحاً بالمجيء إلى هنا . ولكن لن أدع إحساس الذنب والندم يسيطر علي أبداً . وأنا أرى أن الأفندي زوج الخالة مرتاب بي ، وأستمدُ من هذا الارتياب متعةً وقوةً . اعتقدت أنه بعد فهمه جيداً أنني قاتل ، ولخوفه سيريني الرسم الأخير الذي أريد رؤيته فضولاً لمعرفة ما إن كان فيه خروج عن الدين أم لا ، وكيف هو .

قلت : « هل من المهم معرفة الشخص الذي قتله ؟ أما قام الذي نظّفه بعمل جيد ؟ »

عدم استطاعته النظر إلى عيني منحني جرأة . الأشخاص الرفيعون المؤمنون بأنهم أفضل منكم وأكثر أخلاقاً ، لا يستطيعون النظر إلى عيونكم

عندما يخجلون عنكم . لعلهم يعملون هذا لأنهم يفكرون بالإبلاغ عنكم ، وتسليمكم للجلادين المعذِّبين .

بدأت الكلاب في الخارج عند باب الحوش تنبح مسعورة .

قلت : « يندف الثلج في الخارج من جديد . أين الجميع هذا المساء ؟ لماذا تركوكم وحيدين في البيت وذهبوا ؟ حتى إنهم لم يشعلوا لكم شمعة » .

قال : « هذا أمر غريب جداً . لم أفهم هذا ؟ »

تحدث من قلبه إلى حدّ أنني صدقته . وعلى الرغم أنني كنت أسخر منه مع النقاشين الآخرين ولكنني شعرت مرة أخرى ومن قلبي أنني أحبه . كيف أدركَ أن حباً عظيماً فاض في قلبي نحوه فداعب شعري بشفقة أبوية لا تقاوم . هذا ما لم أفهمه . شعرت أنه لا مستقبل لنقّاش يستلهم من الأستاذ عثمان ومن أساتذة هرات القدماء . وكانت هذه فكرة قبيحة خوفتني من نفسي . ودون اكتراث لما يبدو مضحكاً وساذجاً تتوسل ليغدو كل شيء كما في الماضي ، وهذا ما يحدث لنا جميعاً بعد المصيبة .

قلتُ : لنستمر برسم كتابنا ، وليستمر كل شيء كما كان » .

« ثمة مجرم بين النقاشين . سأستمر بالكتاب مع قرة أفندي »

هل كان يستفزني لأقتله ؟

قلت : « أين قرة الآن ؟ وأين ابنتكم وولداها ؟ »

شعرت أن قوة أخرى وضعت هذه الكلمات في فمي ولم أستطع الإمساك بنفسي . بعد هذا لم يبق أمامي طريق للسعادة والأمل . ولا أستطيع أن أكون إلا ذكياً وساخراً ومختبئاً خلف جنييّن مسليين ومحببين ، وخلف الذكاء والسخرية ، وأشعر أنني واقع تحت سيطرة شيطان اندسَ داخلي . في الوقت نفسه بدأت الكلاب تنبح عند باب الحوش الخارجي بجنون وكأنها تشتم رائحة الدم .

هل عشت هذه اللحظة قبل زمن طويل ؟ في مدينة بعيدة جداً ، وفي تاريخ أشعر الآن أنه بعيد جداً . وهنالك ثلج يتساقط في الخارج دون أن أراه ، وفي ضوء الشمعة ثمة عجوز خرف يتهمني بسرقة أصباغ ، وأنا أحاول أن أقول له باكياً : إنني غير مذنب . وفي ذلك الزمن أيضاً بدأت الكلاب تنبح كأنها شمت رائحة الدم في الخارج عند باب الحوش . والأفندي زوج الخالة مثل عجوز مغضن الوجه كثيراً له ذقن ضخمة ، أدرك أنه الآن يستطيع النظر إلى عيني بلا رأفة ، وينوي سحقي والمرور فوقي . وبالشكل الذي تتجلى فيه هذه الذكرى السيئة عندما كنت صبيَّ نقاش كرسمٍ خطوطهُ واضحةٌ وألوانهُ باهتةٌ أعيش هذه اللحظة الآن كذكرى واضحة ، وباهتة الألوان .

عملت نقاشاً مجتهداً حسبما علّمنا كبير النقاشين الأستاذ عثمان ، ونهضت من مكاني ، والتففت من خلف الأفندي زوج الخالة ، وعند تناولي الحقة الكبيرة الثقيلة البرونزية من بين الحقاق البلورية والخزفية شعرت أن ما أقوم به وأراه هو ليس ما أعيشه الآن ، بل يرتسم بخطوط واضحة وألوان باهتة . ألا نرى أنفسنا في الأحلام ونرتعش ؟ وبرعشة مشابهة قلت له والحقة البرونزية في يدي :

« رأيت حقة كهذه عندما كنت تلميذاً في العاشرة من عمري » .

قال الأفندي زوج الخالة : « إنها حقة مغولية عمرها ثلاثمائة عام ، جلبها قرة من تبريز ، وتستخدم للّون الأحمر فقط » .

طبعاً كان الشيطان هو الذي يستفزني في تلك اللحظة لأنزل بالحقة بكل قوتي على رأس هذا الخرف ذي العقل المانع . ولكنني لم أرضخ ، وبسذاجة قلت له متأملاً :

« أنا قتلتُ ظريف أفندي »

إنكم تفهمون سبب قولي هذا له بأمل ، أليس كذلك ؟ كنت آمل أن

يتفهمني الأفندي زوج الخالة ، ويعفو عني ، وأن يخاف مني أيضاً ، وأن يساعدني .

* * *

٣٩

أنا زوج خالتكم

عندما قال : إنه قتل ظريف أفندي خيّم على الغرفة صمت طويل . فكّرت أنه سيقتلني أيضاً . خفق قلبي بسرعة مدة طويلة . هل جاء إلى هنا من أجل أن يقتلني ، أم من أجل أن يعترف ويخيفني ؟ هل يعرف ما يريد ؟ أدركت أنني لم أفهم أبداً قلب هذا النقاش العظيم الذي أعرف مهاراته ومعلوماته كلها فخفت . ما زلت أشعر به وفي يده تلك الحقة الضخمة واقفاً ورائي تماماً ، ولكنني لم ألتفت وأنظر إليه . ولأنني أعرف أن الصمت يزعجه ، قلت :

«ما سكتت الكلاب حتى الآن» .

بعد ذلك سكتنا من جديد . هذه المرة شعرت أن موتي أو خلاصي من هذه الحالة متعلق بما سأقوله . الأمر الوحيد الذي أعرفه عنه خارج الرسم والنقش هو أنه ذكي . إذا كنتم تؤمنون بأن على النقاش ألا يظهر نفسه وروحه فهذا ما يشبه الافتراء . حسنٌ ، كيف استطاع محاصرتي في البيت الفارغ ؟ عقلي المسنّ يفكر بهذا بسرعة كبيرة ، ولكن هذا أيضاً متشابك إلى حد أن تفكيري لم يقدر على تخليصي من هذه اللعبة . أين شكورة ؟

سألني قائلاً : إنك فهمت أنني أنا الذي قتلته ، أليس كذلك ؟ »

لم أفهم ، ولم أدرك هذا حتى عندما أبلغني بهذا . فوق هذا فإن زاوية

من زوايا عقلي ترى أنه فعل حسناً بقتله ظريف أفندي ، ومن الممكن أن يكون قد سيطر الخوف تدريجياً على معلم التذهيب ، وسيأتي بالبلاء على رؤوسنا جميعاً .

وهكذا تولدت حالة شكر لله في داخلي غير واضحة تماماً لوجودي أمام قاتل وحدي في بيت فارغ .

قلتُ : «أنا غير مندهش لقتلك له . أمثالنا الذين يعيشون مع الكتب ، ويرون صفحاتها في أحلامهم يخشون شيئاً ما دائماً . وفوق هذا نحن نمارس عملاً أشد محظورية وأكثر خطورة . نحن نعمل في الرسم في مدينة إسلامية . وكما في داخل الشيخ محمد الأصفهاني ففي داخل كل نقاش شعور بالذنب والندم ، واتهام الذات قبل توجيه الاتهام من قبل الآخرين ، إعلان الندم وطلب المغفرة من الله ومن جماعة المسلمين . نحن نحضّر كتبنا سراً دائماً وكأننا مذنبون ، أو كأننا نعتذر في أغلب الأحيان . أنا أعرف جيداً أن خيال طأطأة رؤوسنا سلفاً أمام هجوم الفقهاء والوعاظ والقضاة والشيوخ بتهمة الإلحاد ، وشعور الذنب اللا منتاهي يقتل خيال النقش من جهة ويؤججه من جهة أخرى .

«أي أنكم لا تعتبروني مذنباً لأنني قتلت ظريف أفندي العديم التفكير»

«ما يجذبنا في الكتابة والنقش والرسم هو شيء من هذا الخوف . ليست النقود والأعطيات فقط سبب إعطاء أنفسنا للكتب والرسم ، وجلوسنا على ركبنا من الصباح إلى المساء ، وعملنا ليلاً في ضوء الشموع حتى نعمى ، بل السبب هو الهروب من الآخرين ومن الجماعات . ولكننا مقابل هذا التعلق نريد لهذا الرسم الذي ننجزه بالهام أن يراه الناس الذين نهرب منهم ونختبئ ، ونريد أن يقدروه حق قدره . ولكن ماذا لو قالوا عنا أننا غير مؤمنين ؟ كم هذا مؤلم لمصور حقيقي ماهر . مع أن الرسم الحقيقي مختبئ في

ما لم يرَ ، ولم يُعمل . ومنذ اللحظة الأولى فإن كل ما سيقال عن الرسم إنه سيئ وغير مكتمل وخروج عن الإيمان موجود داخل الرسم . النقاش الحقيقي يعرف أنه يجب عدم الذهاب بالفكر إلى ذاك الحد ، ويخاف من الوحدة . ولكن من يستطيع احتمال هذا الخوف والحياة المتوترة طوال عمر كامل ؟ ويعتقد النقاش أنه بخوفه الذي يعاني منه لسنوات طويلة ، واتهام نفسه قبل أن يتهمه الآخرون يخلّص نفسه . إنهم لا يصدقونه إلا عندما يعترف بذنبه ويحرقونه . والنقاش الأصفهاني قام بهذا العمل بنفسه .

قال : « أنت لست نقاشاً ، وأنا لم أقتله لأنني خفت منه »

« لقد قتلته لكي ترسم الرسم الذي تريد دون خوف وكما تريد » .

منذ مدة طويلة قال النقاش الذي يريد أن يكون قاتلي كلاماً ذكياً جداً لأول مرة : « أعرف أنك تقول هذا من أجل إلهائي وخداعي ، والخروج من وضعك هذا » ثم أضاف : « ولكن عبارتك الأخيرة صحيحة . اسمعني ، أريدك أن تفهم هذا » .

التفتُ ، ونظرت إلى عينيه . تركه لآداب الحديث التي كان يتبعها معي تُري أنه يسير على هواه . ولكن إلى أين ؟

قال : « لا تهتم لتقصيري باحترامك » عندما كان ينتقل من خلفي إلى أمامي أطلق قهقهة تحمل جانباً مؤلماً جداً ، ثم قال : « الأمر كما يجري الآن . أنا أعمل شيئاً ما ، ولكن كأنني لست الذي يعمله . ثمة شيء يغلي في داخلي وهو الذي يجعلني أقدم على كل هذه السيئات ، ولكنني أحتاجه كثيراً أيضاً من أجل أن أنقش » .

« هذه شائعات النساء العجائز الملفقة حول الشيطان » .

« أيعني هذا أنني أكذب ؟ »

شعرت أنه لم يمتلك الجرأة الكافية لقتلي ، لهذا السبب يريدني أن

أغضبه .

« إنك لا تكذب ، ولكنك لا تستطيع معرفة ما تشعر فيه بداخلك » .

« لا ، أنا أعرف جيداً ما في داخلي ، أنا أذوق عذاب القبر قبل الموت ، وغطسنا في الحرام حتى رقابنا بسببك دون أن ننتبه . والآن تقول لي كن أكثر جرأة . أنا صرت قاتلاً بسببك . كلاب الشيخ نصرت المسعورة ستقتلنا جميعاً » .

عندما لم أصدق ما يقوله يعلو صراخه ، ويضغط على الحقة بعصبية . هل يسمع أحد المارة من الزقاق المغطى بالثلج صراخنا فيدخل ؟

قلت من أجل كسب الوقت أكثر مما من أجل الفضول : « كيف حدث وقتلته ؟ كيف التقيتما عند ذلك الجبّ ؟ »

وبإرادة شرح لم أتوقعها : « ليلة خروج ظريف أفندي من عندك قابلني ، وقال إنه رأى الرسم الأخير المؤلف من صفحتين . حاولت كثيراً ثنيه عن فضح هذا . مشّيتُه إلى المكان المحروق . قلت له : لدي نقود مدفونة بجانب الجبّ . عندما سمع بالنقود صدّق . وليس ثمة إثبات أفضل من هذا على أن النقاش يعمل من أجل النقود . لهذا السبب لستُ حزيناً . كان مجرد نقاش عادي . كان جاهزاً لحفر الأرض المتجلدة بأظافره . لو كان لدي بجانب الجب ذهبيات مدفونة لما اضطررت لقتله . لقد اخترتَ بائساً لعمل تذهيبك . كانت يده قوية ولكن اختياره للألوان واستخدامها قليل ذوق . لم أترك أي أثر أبداً . قل لي ما هو أصل ما يدعى الأسلوب . الآن يتحدث الرسامون الأفرنج والصينيون عن اللون والأسلوب في المهارة . هل من المفروض أن يختلف النقاش الجيد عن الآخرين بأسلوب أم لا ؟ »

قلت : « لا تهتم ، لا يمكن أن يحدث الأسلوب برغبة النقاش الخاصة . يموت أمير ، أو يخسر شاه حرباً ، وتنتهي مرحلة كان لا يعتقد أنها ستنتهي

وتغلق نقش خانة ، ويتفرق نقاشوها باحثين عن وطن آخر وراع آخر محب للكتب . في أحد الأيام يجمع سلطان ما في خيمته أو قصره النقاشين والخطاطين المهرة التائهين المشردين القادمين من هرات أو حلب أو مختلف الأمكنة ، ويؤسس بعناية نقش خانته . وإذا كان هؤلاء النقاشون يرسمون حسبما يعرفون وفق الأصول القديمة ، بعد ذلك يحدث بينهم كما يحدث بين أولاد الحي الذين يلعبون مع بعضهم بعضاً طوال النهار إذ يتشابهون ، ويندمجون ، ويتصارعون ، ويتحاسبون . وبعد سنوات من الصراع ، والغيرة ، ونصب الشراك ، والصراعات حول النقش اللون يظهر أسلوب جديد ، وعلى الأغلب يوجد هذا الأسلوب أمهر النقاشين في النقش خانة والمعهم . ولنقل عن هذا النقاش إنه الأوفر حظاً ، وما يبقى للنقاشين الآخرين هو تقليد هذا الأسلوب إلى ما لا نهاية ، وجعله مُكملاً ، وحتى تلميعه » .

ودون أن ينظر إلى عيني بدقة ، وبلهجة أرق مما أتوقع ، ومتوسلاً الصدق ، والطيب ، ومرتجفاً كفتاة شابة ، سأل :

« هل لي أسلوب ؟ »

شعرت لحظة أن الدموع ستنهمر من عينيَ . وقلت له ما أؤمن به عاملاً بكل قوتي على أن أكون ناعماً مشفقاً طيباً :

« أنت النقاش الأمهر ، والأكثر إعجازاً ، وصاحب اليد الأكثر سحراً والعين الأكثر دقة الذي رأيته في حياتي البالغة ما يزيد عن ستين سنة . إذا وضعوا أمامي رسماً فيه ضربات أقلام ألف مصور أميّز فوراً ضربة قلمك الرائعة التي وهبك إياها الله » .

قال : « وأنا أيضاً أعتقد هذا ، ولكنك لست على درجة من الذكاء تجعلك تفهم سر مهارتي . أنت تكذب الآن لأنك خائف مني . ولكن اشرح مجدداً الأصول التي أعتمد عليها » .

«كأن ضربات قلمك وخطوطك لا توجدها أنت . بل تجد نفسها بنفسها . يا لحظك ، ويا لطرافة الشيء الذي يظهره قلمك! وفي رسمك للمواقف المزدحمة يتحول تبادل النظر بين الناس ، وتوزيع الصفحة إلى همس ظريف لا ينتهي . أنا أعود إلى رسمك مرات ومرت كي أستمع إلى هذا الهمس . وانتبه إلى تغيير المعنى كل مرة ، أي أنني أقرأ الرسم مثل الكتابة . وهكذا تصطف طبقات المعاني خلف بعضها البعض مظهرة عمقاً يصل إلى بعد منظور الأساتذة الأفرنج» .

«هم م م م . حسنٌ . دع أساتذة الأفرنج . احك أكثر» .

«قلمك قوي ورائع حقيقة إلى حدّ أن من ينظر إلى رسمك لا يؤمن بالعالم الحقيقي ، بل بما ترسم ، وبالتالي فإنك بمهارتك تخرج أكثر الأشخاص إيماناً عن طريقهم ، كما أنك تجر أكثر الأشخاص إنكاراً إلى الإيمان وطريق الله» .

«صحيح ، ولكن لا أدري إن كان هذا مديحاً ، احك أكثر» .

«ليس ثمة نقاش يعرف إيجاد قوام أصباغك ، وأسرارها . دائماً أنت من يحضّر اللون الأكثر حيوية ، والأكثر حقيقة» .

«حسنٌ ، غير هذا ؟»

«أنت تعرف أنك أعظم نقاش منذ عهد بهزاد والمير سيد حتى الآن»

«صحيح أنا أعرف . إذا كنت تعرف فلماذا تكمل الكتاب مع قرة أفندي المتوسط السوية وليس معي ؟»

قلت : «العمل الذي يقوم به لا يتطلب حتى بعض مهارة نقاش . هذا أولاً ، وثانياً ليس قاتلاً» .

ابتسم لي بشكل لطيف ، لأنني ضحكت بشعور التمادي . كنت أشعر أنني سأخرج من هذا الكابوس بهذا الأداء والأسلوب . وهكذا بعد فتحي

الموضوع لم أتحدث معه – وهو ممسك بالحقة البرونزية المغولية – حديثَ الأب لابنه ، بل جعلتُ الحديث ممتعاً كحديث عجوزين لديهما خبرة حياتية . تحدثنا عن توازن الحقة بثقل البرونز وعمق رقبتها ، وطول قصبات الخطاطين القدماء ، وأسرار الحبر الأحمر الذي يشعر بكثافة عندما يهزّ حقته بيده بشكل خفيف . . . وأنه لولا حمل المغول أسرار الحبر الأحمر التي تعلموها من المعلمين الصينيين إلى خراسان وبخارى وهرات لما استطعنا نحن في اسطنبول عمل هذه الرسوم . وكلما تحدثنا تتغير كثافة الزمن مثل الأصباغ ، ويمر هذا الزمن . ثمة زاوية في عقلي مندهشة لعدم وجود أحد في البيت حتى الآن . وأريد أن يترك الحقّة من يده .

وبالراحة التي تعودناها من عملنا السابق ، سأل : «عندما ينتهي الكتاب ، هل سيدرك من يراه مهارتي ؟ »

« إذا أنهينا هذا الكتاب بالسلامة إن شاء الله ، سيأخذه حضرة سلطاننا ويلقي نظرة . طبعاً سيرى بطرف عينه إن كنا استخدمنا ورق الذهب أم لا ، بعد ذلك سينظر إلى رسومه كما ينظر إلى (شمائل نامة) كما يفعل السلاطين كلهم ، وسيعجب بما هو مرسوم ، أي بنفسه أولاً وليس بالرسم ، وفيما بعد يا لسرورنا إن أعطى زمناً للنظر إلى الروائع التي أنجزناها بإلهام الشرق والغرب وبذلنا فيها جهدنا ونور أبصارنا! أنت تعلم ، إذا لم تحدث معجزة فلن يسأل عن الذي عمل هذا الإطار ، وصاحب هذا التذهيب ، وعن الذي رسم الرجل والحصان الفلاني ، وسيقفل على الكتاب في الخزانة . ولكننا مثل أصحاب المهارات كلهم ننقش على أمل أن يكون نقشنا في يوم ما معجزة» .

سكتنا قليلاً . كأننا نصبر .

قال متسائلاً : «متى سيكون معجزة ؟ بجدّ ، متى ستفهم هذه الرسوم

كلها التي ننجزها حتى نعمى ؟ متى سيمنحوننا أو يمنحونني الحب الذي أستحقه ؟ » .

« ولا في أي وقت »

« كيف ؟ »

قلت : « لن يعطوك في أي وقت ما تريد . في المستقبل ستُفهم أقل مما أنت عليه » .

قال بلهجة غرور : « الكتب تبقى عصوراً » ولكنه لم يقل هذا واثقاً تماماً بنفسه .

« ليس لدى أي أستاذ إيطالي شاعريتك ، وإيمانك ، وحساسيتك ، وصفاء ألوانك وبريقها ، صدقني . ولكن رسومهم أكثر إقناعاً ، وأكثر شبهاً بالحياة . إنهم يرسمون منتبهين إلى ما يدعونه منظوراً ، وليس كما يرون العالم من شرفة منذنة بل كما يرونه من الزقاق أو من غرفة الأمير ، يرسمونه مع فراشه ، ولحافه ، وطاولته ، ومرآته ، ونمره ، وابنته ، ونقوده ، وكل ماله ، أنت تعرف هذا . أنا لا أعجب بكل ما يعملون . يتهيأ لي أن الرسم ينقل كل ما في العالم مباشرة موحياً بالصغر ، وهذا ما يزعجني . ولكن للرسوم التي يعملونها بأساليب جديدة جاذبية معينة . إنهم يرسمون كل ما تراه العين بالشكل الذي تراه . إنهم يرسمون ما يرونه ، ولكننا نحن نرسم ما رأيناه . عندما ترى ما يعملونه تفهم مباشرة أن بقاء وجهك حتى يوم القيامة يمر عبر أسلوب الأفرنج . جاذبية هذا الأمر قوية إلى حد أن خياطي وقصابي وجند وخوارنة وبقالي بلاد الافرنج كلها ، وليس البندقية فقط ، يعملون لأنفسهم رسوماً كهذه . لأن الناظر إلى تلك الرسوم يرى نفسه مختلفاً عن الجميع لا يشبه أحداً ، ويريد أن يصدق أنه مخلوق خاص وغريب . الأساليب الجديدة لا تمنح الإنسان فرصة الرسم بالرؤية العقلية ، بل تجعله يرسم كما يرى

بعينه . في يوم ما ، في المستقبل سيرسم الجميع مثلهم . وعندما ستقول رسماً سيفهم العالم أنه ما يرسمونه هم! وهنا حتى الخياط المسكين والغبي الذي لا يفهم شيئاً من النقش سيطلب رسماً كهذا ، ولن يجد نفسه غبياً أو إنساناً عادياً بل سينظر إلى انحناءة أنفه ، ويعتقد أنها خاصة جداً ولا مثيل لها » .

قال القاتل المازح : « ونحن عندئذ سنعمل ذلك الرسم » .

قلت : « لا نعمل . أما أَعْلَمَكَ المرحوم ظريف أفندي ، الذي قتلته ، أنه لم يخش من الوقوع في تقليد الأفرنج ؟ وإذا ما خشي ، وجرب ، فهذا سيؤدي إلى الباب نفسه . في النهاية ستموت أساليبنا ، وتبهت ألواننا ، ولن يهتم أحد بكتبنا ورسومنا ، ولن يفهم المهتمون شيئاً منها ، وسيزمون شفاههم قائلين : لماذا لا يوجد منظور ؟ أو أنهم لن يجدوا الكتب نهائياً . لأن عدم الاهتمام ، ومرور الزمن ، والمصائب ستنهي رسومنا تدريجياً . ولأنه في الصمغ العربي المستخدم في التجليد هنالك شيء من السمك ، والعظام ، والعسل . وبسبب استخدام البيض والنشاء في مادة تلميع الصفحات ، ستأكل الفئران الخبيثة الوقحة تلك الصفحات ، وكذلك النمل الأبيض والديدان وألف نوع ونوع من الحشرات ستقرض تلك الصفحات ، وسيمزق اللصوص والخدم اللا مبالون ، والأطفال ، والنساء اللواتي يشعلن المواقد تلك الصفحات دون تفكير . وسيخرّب أولاد السلاطين الرسوم بأقلام اللعب التي بين أيديهم ، وسيحفرون عيون شخصيات الرسوم ، ويمسحون مخاطهم بها ، وسيعلّمون على حوافها بالأقلام . أما الذين يقفزون كل برهة قائلين : هذا حرام ، فسيسودون كل شيء في الصفحة ، ويمزقون الصفحات ، وينزعونها ، أو يجعلون منها رسماً آخر ، أو يلعبون بها . وستمزق الأمهات رسومنا على أنها عديمة حياء ، أما الاباء والأبناء الكبار فسيستمنون عليها ويسيلون فوقها

المني ، وستلصق الصفحات ببعضها البعض ليس من هذا فقط ، بل من الطين ، والرطوبة ، والصمغ السيئ ، البصاق ، ومختلف أنواع القذر . وفي الأماكن الملتصقة ستتفتح الأماكن العفنة مثل الأزهار بقعاً ودمامل . غير هذا فإن الأمطار والوكف وسيول الطين أو المطر ستزيل كتبنا . والكتاب الأخير الذي استطاع التخلص من المياه ، والرطوبة ، والحشرات ، وظهر مثل معجزة بين ما يجلبه غير المهتمين على شكل عجين أو مزق ، وسيكون باهتاً غير مقروء ، سيبتلعه حريق ظالم في يوم ما ويزيله . في العشرين سنة الأخيرة هل بقي حي لم تبتلعه الحرائق في اسطنبول كي يبقى كتاب ؟ أية رائعة نقاش يمكن أن تعيش مائة سنة في هذه المدينة التي يُحرق فيها كتب ومكتبات كل ثلاث سنوات أكثر من تلك التي أحرقها المغول في بغداد كي يتخيل نقاشها أنه سيُنظر إلى رسومه ويُذكر كما يذكر بهزاد ؟ ليست رسومنا وحدها ، بل كل ما نعمله في هذا العالم سيزول بالحرائق والديدان وعدم الاهتمام . وهكذا ستزول رسوم شيرين وهي تنظر إلى خسرو بكبرياء من النافذة ، وتملّي خسرو شيرينَ وهي تغتسل في ضوء القمر ، وظرافة تبادل النظر بين العاشقين ، ومصارعة رستم للشيطان الأبيض في حضنه ثم قتله ، وسياحة مجنون مهموماً في الصحارى مصادقاً النمرة البيضاء والعنزات البريات بعد أن سلبه العشق لبه ، وإلقاء القبض على كلب الحراسة الخائن الذي كان ينيك أنثى الذئب كل ليلة ويقدم لها خروفاً من القطيع الذي يحرسه وصلبه على الشجرة ، وتزيينات الإطارات الحاوية على الأزهار والملائكة والأغصان المورقة والطيور المرسومة بدموع العيون ، ورسوم عازفي العود المزينة أشعار حافظ ذات الأسرار ، وتزيينات الجدران وما فوق الأبواب واللوحات الصغيرة المعلقة على الجدران ، والأبيات المخفية داخل إطارات متداخلة في الرسم المخربة عيون آلاف وعشرات آلاف الصناع النقاشين ، والتي أعمت عيون الأساتذة ،

والتواقيع المتواضعة المخفية أسفل الجدار وفي الزوايا وفسحات البيوت ، وتحت الأقدام . وتحت الدغلات وبين الصخور ، وتغطية الأزهار للعاشقين واللحف ، وانتظار رؤوس الكفار المقطوعة المتكئة بصبر في أثناء الهجوم المظفر للمرحوم جد سلطاننا على قلعة الأعداء ، وتقبيل سفير الكفار قدم جد سلطاننا الأكبر وتظهر في الخلف المدافع والبنادق والخيام التي ساهمتَ برسمها أيام شبابك ، والشياطين كافة بقرون وبغير قرون ، بذيول أو بغير ذيول ، بأسنان حادة أو أظافر مدببة ، وآلاف الطيور بما فيها الهدهد الحكيم والعصفور الدوري والحدأة العجمية والبلبل الشاعر والقطط المحببة والكلاب المتوجسة ، ورسوم الغيمات المستعجلة والأعشاب الصغيرة المحببة المكررة في آلاف الرسوم ، والصخور المظللة بقلة دراية وأوراق آلاف أشجار الرمان والدلب والسرو والمرسومة بصبر نبي ، والقصور المتخذة مثالاً على أنها من زمن طهماسب أو تيمور والمزينة لحكايات أقدم من زمنها بكثير ، ومئات آلاف القرميدات ، والأمراء الحزينين جالسين على سجادات رائعة مفروشة على الأزهار في السهل وتحت أشجار الربيع المزهرة مستمعين إلى الموسيقا من فتيات جميلات وصبيان وسيمين ، ورسوم الخزفيات والسجادات الرائعة التي وصلت إلى الكمال خلال المائة وخمسين سنة الأخيرة وجاءت من سمرقند إلى اسطنبول . هذا الكمال مدين لدموع آلاف صناع النقاشين نتيجة العصي التي ضُربوها ، وما ترسمه أنت حتى الآن بالانفعال نفسه من حدائق رائعة وحدآت ومشاهد موت وحرب لا تصدَق ، واصطياد السلاطين بظرافة وهروب الغزلان أمامهم بخوف وظرافة أيضاً ، وموت سلاطين ووقوع أعداء في الأسر وسفن الأعداء الضخمة ومدنهم . وتلألؤ النجوم في الليالي وكأن ظلمة تسيل من قلمك ، وشجرات السرو الشبيهة بالأشباح ، ورسوم العشق والموت التي تلونها بالأحمر » .

نزل بالحقة على رأسي بقوته كلها .

سقطتُ إلى الأمام . شعرت بألم مخيف لا أستطيع وصفه بأي شكل . في لحظة شعرت أن العالم كله ملتف بألمي ، وصار أصغر . على رغم أن قسماً كبيراً من عقلي فهم أن ما جرى لي جاء نتيجة سبق وإصرار ، لكن قسماً آخر من عقلي ، وهو القسم الذي لا يعمل جيداً بفعل الضربة على رأسي – أو بسببها– يريد القول بنيّة تدفع إلى الحزن للمهووس الذي يريد أن يكون قاتلي : أرجوك إنك تؤلمني بالخطأ .

هوى بالحقة البرونزية على رأسي مرة أخرى .

لم تكن هذه المرة خطأ . وحتى الجانب الغبي من عقلي فهم أن هذا عمل أهوج وفيه حنق ويمكن أن يكون في نهايته موت ، خفت من هذا الوضع إلى حدّ أنني صرخت بقوتي كلها وبألمي فخرج الصراخ كأنه عواء . لو رسم صراخي لكان أخضرَ . فهمت أنه في ظلمة المساء لن يسمع أحد هذا اللون في الأزقة الخاوية .

خاف من صراخي الشديد وتوقف . في لحظة تقابلنا وجهاً لوجه . رأيتُ في حدقتي عينيه بخوف وخجل أنه اعتاد على هذا العمل الذي يعمله وقبل به . لم يكن معلم النقش ذاك الذي أعرفه ، بل كان غريباً يجهل لغتي ، وبعيداً وسيئاً . وهذا طوّل وحدتي في تلك اللحظة إلى عصور . أردت الإمساك بيده وكأنني أحتضن الدولة . لم يفدني هذا أيضاً . توسلت ، أو اعتقدت أنني عملت هذا : ابني لا تقتلني! لم يسمعني أبداً ، وكأنني في حلم .

هوى بالحقة البرونزية على رأسي مرة أخرى .

صار عقلي ورؤيتي وذكرياتي وعيني هي مخاوفي ، تداخلت فيما بينها . لم أكن أرى أي لون ، وأدركت أن الألوان كلها غدت أحمر . اعتقدت أن دمي حبر أحمر . وما اعتقدته حبراً أحمرَ في يده هو دمي المتدفق دون

توقف .

وجدتُ الموت في تلك اللحظة ظلماً وجوراً . وهذا هو المكان الذي سيقودني إليه رأسي العجوز السابح بالدماء . فيما بعد انتبهت أن ذكرياتي بيضاء ناصعة مثل الثلج الذي في الخارج . رأسي ينبض ألماً داخل فمي .

الآن سأحكي لكم عن موتي . ولعلكم فهمتم هذا منذ مدة طويلة . الموت ليس نهاية كل شيء ، وهذا مؤكد . ولكنه مؤلم إلى حدَ لا يمكن تصوره كما كتب في كتبي كلها . ليس مخي وجمجمتي ما يؤلمني فقط ، بل غدت أطرافي كأنها متداخلة فيما بينها والتفت بنوبات الألم . وتحمل هذا الألم غير المحدود صعب إلى حد أن جزءاً من عقلي يرى مخرجه الوحيد نسيان هذا الأمر والاندفاع بقوة نحو نوم هانئ .

تذكرت حكاية سريانية عن مرحلة ما قبل الموت استمعت إليها عند خروجي من مرحلة الطفولة . يستيقظ من نومه في منتصف الليل عجوز وحيد ، ينهض ثم يشرب قدحاً من الماء . يضع الكأس على الطاولة الصغيرة فلا يجد الشمعة . أين هي ؟ ثمة ضوء مثل خيط ينبعث من الداخل . يلاحق الضوء فيوجهه في طريق العودة ، ويدخل إلى غرفته ، ويجد غيره في فراشه مضطجعاً ماسكاً الشمعة . يسأله : «من أنت ؟» يقول الغريب : «الموت» يسيطر على العجوز لحظة صمت عجائبي . بعد ذلك يقول : «هذا يعني أنك أتيت» يقول الموت مسروراً : «نعم» . يقول العجوز جازماً : «لا ، أنت حلمي الذي لم يكتمل» . ينفخ الغريب على الشمعة التي بيده فيضيع كل شيء في الظلام . يدخل العجوز إلى فراشه الفارغ وينام . ويعيش عشرين سنة أخرى .

أُدْرِكُ أن الأمر نفسه لن يحدث لي ، لأنه هوى بالحقة على رأسي مرة أخرى . شعرتُ بألم شديد إلى حدَ أنني لم أعد أشعر بالضربة بين الوضوح

وعدمه . بهتت صورته ، وبهتت صورة الحقة والشمعة التي تنير الغرفة ، وتناهت في البعيد .

ولكنني ما زلت أعيش أيضاً . أفهم من تمسكي بهذه الدنيا ، وإرادتي الركض والهرب ، وحركاتي التي أعملها بيديَ لحماية رأسي المدمى ، وعضّي لطرف معصمي على ما أعتقد ، ونزول الحقة على وجهي .

غالباً تعاركنا قليلاً ، إذا كان يمكن تسمية هذا عراكاً . إنه قوي جداً ، وغاضب . مددني على ظهري . ضغط على كتفي بركبتيه مسمراً جسمي بالأرض ، وحكى لي أنا العجوز الذي أموت عن بعض الأمور بلغة غير محترمة . علني لم أستطع فهمه ، أو لم أستطع الاستماع إليه ، أو لأنني لم أرغب بالنظر إلى عينيه الداميتين . ضرب رأسي بالحقة مرة أخرى . صار رأسه ووجهه أحمرَ من الدم المتدفق مني ومن الحبر الأحمر على ما أعتقد .

أغلقت عيني حزناً ولكي لا يكون هذا الرجل المعادي لي آخر ما أراه في هذا العالم . بعد هذا فوراً ، رأيت ضوءاً لطيفاً ممتعاً . كان ذلك الضوء جذاباً وممتعاً مثل نوم سيهدئ كل آلامي . سألت مثل طفل : «من أنت ؟» .

قال : «أنا عزرائيل . أنا الذي أنهي سفر ابن آدم في هذا العالم . أنا أفصل الأولاد عن أمهاتهم ، والأزواج عن زوجاتهم ، والعاشقين كل منهما عن الآخر ، والآباء عن بناتهم . لن يبقى حيَ في هذا العالم دون لقائي .

بكيت عندما أدركت أنه لا مفرَ من الموت .

عطشني البكاء بشدة . ثمة ألم يهز الإنسان ويجعله دانخاً ثمة ما هو ظالم وعجول جعل عينيَ ورأسي ملتاثة بالدماء . من جهة أخرى ثمة مكان ينتهي فيه الظلم والعجلة ، ولكن هذا المكان غريب عني ومخيف . كنت خائفاً من ذاك المكان لمعرفتي أنه عالم الدنيا والآخرة . العالم المنير الذي يناديني إليه عزرائيل . ولكنني من جهة أخرى أدرك أنني لن أستطيع البقاء مدة طويلة

في هذه الدنيا التي تجعلني أتلوى صارخاً ، وأنه لم يبق لي زاوية في بلد العذاب والألم المخيف هذا . وكأن بقائي في هذه الدنيا يفرض عليَ تحمّل هذا الألم المخيف ، وهذا ما لا أستطيع عمله في حالة عجزي هذه .

وهكذا قبل أن أموت مباشرة أردت الموت . وفي الوقت نفسه وجدت جواب سؤال : كيف نجح الناس دون استثناء بالموت الذي أتعبت عقلي بالبحث عنه في الكتب طوال حياتي ، ولم أجده من خلال إرادتي البسيطة هذه للموت ، وأن الموت يجعلني أكثر علماً ؟ .

سيطر عليَ قلق من سيخرج في رحلة طويلة ولا يستطيع الخروج قبل أن يلقي نظرة أخيرة على غرفته وأغراضه وبيته . وبانفعال شديد وشوق أردت رؤية ابنتي للمرة الأخيرة . أردت هذا كثيراً إلى حدَ إدراكي أنني أستطيع الضغط على نفسي ، وتحمّل الألم والعطش المتزايد ، مدة أخرى منتظراً ابنتي .

وهكذا خبا الضوء المميت والممتع من أمام عيني قليلاً ، فتح عقلي أبوابه على أصوات وقرقعة الدنيا التي تموت . أستطيع سماع قاتلي وهو يتجول في الغرفة ويقلّب الأوراق ويبحث باهتمام شديد عن الرسم الأخير ، ثم إنه بعثر مجموعات الأصبغة ، ونبش في الصناديق ، ورفس الحقق والرحلة لأنه لم يجده . أحياناً أدرك أنني أئن وأعمل حركات غريبة بذراعي ورجليَ العجوزتين المتعبتين . انتظرت .

هو لا يهدأ ، وأنا أزداد عطشاً ، ولم أعد أستطيع الصبر على نفسي . ولكنني انتظرت فترة أخرى .

في تلك اللحظة أدركت أن ابنتي ستقابل قاتلي السافل إذا أتت إلى البيت ، ولكنني لم أرد مجرّد التفكير في هذا . في اللحظة نفسها شعرت أن قاتلي خرج من الغرفة . لا بد أنه وجد الرسم الأخير .

عطشت كثيراً جداً ، ولكنني انتظرت . هيا يا بنتي ، تعالي يا شكورتي .

لم تأت .

لم تعد قواي تتحمل الألم . فهمت أنني سأموت دون رؤية ابنتي . وهذا ما أشعرني بألم جعلني أريد الموت كمداً . في هذه الأثناء تماماً ظهر إلى يساري وجه لم أره حتى اللحظة ، ومد لي كأساً من الماء بطيب وابتسام .

سحب القدح قائلاً : « كذب الرسول محمد . تنكّرْ لما قاله » .

هذا هو الشيطان . لم أجبه ، ولم أخف منه أيضاً . ولأنني لم أؤمن في أي وقت بأن الرسم وقوع في حبائله ، انتظرت واثقاً ، وحلمت بسفري اللا متناهي ومستقبلي .

في اللحظة ذاتها زال إبليس عندما اقترب الملاك المضيء الذي رأيته قبل قليل . جزء من عقلي يعرف أن هذا الملاك المضيء الذي جعل إبليس يهرب هو عزرائيل . ولكن طرفاً آخر متمرداً من عقلي يذكرني أنه جاء في كتاب أهوال القيامة أن لعزرائيل ألف جناح تمتد من المغرب إلى المشرق ، ويداه تمسكان الدنيا كلها .

اقترب مني ذلك الملاك وسط الأضواء بينما كان عقلي يتخبط ، وبأداء من يريد مساعدتي قال بشكل جميل تماماً كما قال الغزالي في « الدرة الفاخرة » :

« افتح فمك لتخرج روحك منه! . . . »

فأجبته : « لا يخرج من فمي إلا لفظ البسملة » .

ولكن هذا كان ذريعة أخيرة . كنت قد فهمت أنني لم أستطع التحمل أكثر ، وأن وقتي قد جاء . للحظة خجلت من جسدي المدمى البشع هذا ، ووضعيتي السافلة ، كيف سأبدو لابنتي التي لن أراها بعد الآن . أردت

الخروج من هذا العالم كخروجي من لباس ضيق .

فتحت فمي فتلوّن كل شيء كما في الرسوم التي تشرح المعراج عندما زار نبينا الجنة ، والتفت بنور رائع كأن مزيداً من ماء الذهب استخدم في تلك الرسوم . ذرفت من عينيَ دمعتان مؤلمتان . وبصعوبة جداً خرج من رئتيَ وفمي نفسٌ ، ودفن كل شيء بالصمت .

والآن أرى أن روحي تنفصل عن جسدي بشكل خفيف ، وهي في يد عزرائيل . وروحي بحجم نحلة وسط الأنوار ، وفي أثناء خروجها من جسدي كانت بين يديَ عزرائيل تخفق بسبب ارتجافي .

بعد كل هذا الألم خيّمت على داخلي الراحة ، ولم يؤلمني الموت كما كنت أعتقد ، على العكس فقد ارتحت ، وفهمت أن الوضع الذي أنا فيه الآن هو دائم ، وأن ما كنت أشعر فيه من ضيق في حياتي هو مؤقت ، وسيستمر هذا الوضع عصوراً وعصوراً حتى قيام القيامة ، ولم أشتكِ من هذا ولم أسرّ . فالأحداث التي كانت تداهمني بسرعة وبشكل متلاحق توسعت الآن في مكان غير محدود . في الوقت نفسه انتشرت متوسعة . كما النقاش المازح ينقش في الوقت نفسه مع آخرين في زوايا رسم لصفحتين ، يحدث الآن أشياء كثيرة في الوقت نفسه .

* * *

٣٠

أنا شكورة

كان الثلج يندف غزيراً إلى حدّ أنه يدخل في كمّي وإلى عيني . سرتُ بصعوبة في الحديقة المغطاة بالأعشاب المتفسخة والطين ، والأغصان المكسرة ، ولكنني أسرعت فور خروجي إلى الزقاق . أعرف أنكم تتوقون لمعرفة ما كنت أفكر فيه . كم أثق بقرة ؟ إذن لأقل لكم بصراحة : أنا أيضاً أتوق لمعرفة ما أفكر فيه . إنكم تفهمونني أليس كذلك ؟ الأمور في عقلي متداخلة تماماً . ولكنني منذ الآن أعرف هذا : سأهتم كما في كل وقت بالطعام والأولاد وأبي وأمور أخرى ، وسيهمس لي قلبي دون أن أسأله تلقائياً بما هو صحيح وما هو خاطئ . وغداً بعد الظهر سأعرف ممن أتزوج .

ثمة ما أريد مشاركتكم فيه . لا يا أعزائي ، دعوا الآن البحث في كِبر عضو قرة الذي فرّجني عليه . سنتحدث عنه فيما بعد . ما أريد الكلام فيه أولاً هو استعجال قرة . ليس بعيداً عن تفكيري بأن عينيه لا ترى سوى الشهوانية . ولو كان هذا واضحاً فلا يهم . ما أدهشني هو عدم رجاحة عقله! هذا يعني أنه لا يخطر بباله إمكانية إخافتي ، وتوجّسي منه ، ولعبه بشرفي وجعلي أبرد نحوه ، حتى إنه يمكن أن يفتح الطريق إلى أمور أخطر! ومن نظراته الحزينة أدرك فوراً مقدار حبه وإرادته لي . بعد انتظاره اثنتي عشرة سنة لماذا لا يختار الطريق الأخلاقي وينتظر اثني عشر يوماً ؟

أتعرفون ، أنني أشعر بعشقي له قياساً إلى عدم نجاحه ونظرته الطفلية الحزينة . وفي الوقت الذي يجب أن أكون فيه أكثر غضباً أتألم له . ثمة صوت في داخلي يقول : « آه يا طفلي المسكين ، إنك تستطيع تحمّل الألم إلى هذا الحدّ ، ثم إنك غير ناجح أيضاً » . أشعر بداخلي أنني أحميه إلى حدّ إمكان ارتكابه خطأ ، ويمكن أن أهبه نفسي .

فكرت بطفليّ المسكينين فسرّعت خطواتي . فجأة وسط الظلام والثلج الذي يجعل العين لا ترى أمامها اعتقدت أن ثمة رجلاً يأتي نحوي ، فأطرقت برأسي جيداً وانسحبت .

فور دخولي من باب الحوش فهمت أن خيرية والولدين لم يعودوا . حسنٌ ، لم يرفع أذان المغرب بعد . صعدتُ الدرج ، كانت تنبعث من البيت رائحة معقود النارنج . عندما دخلتُ إلى غرفة والدي المظلمة بقدميّ المتجمدتين حاملة مصباحاً ورأيت أن الخزانة مفتوحة والمخدات مبعثرة قلتُ لنفسي إن أورهان وشوكت فعلا هذا . صمت البيت هو ذلك الصمت الدائم ، وهو ذلك الصمت الذي لا يُشهد أبداً في آن . عندما ارتديت ثياب البيت ، وغصت لحظة في خيالاتي وحدي تناهى إلى أذنيّ صوت لا ينبعث من المطبخ في الأسفل ، تحتي تماماً ، بل من غرفة النقش الصيفية . هل نزل أبي إلى تحت في هذا البرد الشديد ؟ ولكنني لا أذكر أنني رأيت هنالك ضوء قنديل ، وفي هذه اللحظة سمعت صوت صرير الباب المؤدي من الممر الحجري إلى الحوش . بعد ذلك شعرت بالقلق عندما سمعت وراء الباب الخارجي نباح تلك الكلاب الباعثة على النحس وانعدام الخير وأشباه المصائب .

صرخت : « خيرية . . . شوكت . . . أورهان »

كنت أشعر بالبرد . موقد أبي مشتعل ، ذهبت إليه قائلة لنفسي أجلس معه وأدفئ نفسي – كان عقلي عند الأولاد وليس عند قرة – المصباح بيدي .

عند مروري من الموزع قلت لنفسي : هل أضع قدر ماء على الموقد السفلي من أجل عمل الحساء ؟ دخلتُ إلى الغرفة ذات الباب الأزرق فوجدت أنها مبعثرة تماماً . كدت أقول لنفسي : ماذا فعل أبي وهو غير منتبه إلى نفسه ؟

بعد ذلك وجدتُ أبي على الأرض .

أطلقتُ صرخةً وأنا مندهشة . صرختُ مرة أخرى . بعد ذلك سكتُّ وأنا أنظر إلى جثة أبي .

انظروا ، أنا مدركة من صمتكم وبرودة أعصابكم أنكم عرفتم كل ما جرى في الغرفة ومنذ زمن ، وإذا لم تعرفوا كل شيء فإنكم عرفتم أشياء كثيرة . ما تتوقون لمعرفته الآن هو ردة فعلي إزاء ما رأيته وما شعرت به . في بعض الأحيان عندما تنظرون إلى رسم تفكرون بتلك النقطة المؤلمة ، وبألم بطلها ، ثم تنظرون إلى فعلته هناك في الغرفة ، ستعملون مستمتعين على التفكير بما يمكن أن أشعر به واضعين أنفسكم مكاني متخيلين أن أباكم هو المقتول بهذا الشكل .

حسنٌ ، عدتُ إلي البيت مساء فوجدتُ أن أحدهم قتل أبي . نعم ، شددت شعري ومزقت ثيابي . نعم ، احتضنته بكل قوتي كما كنت أفعل في صغري ، وشممته . نعم ، ارتجفت مدة طويلة من الخوف والألم والوحدة ولم أستطع ضبط نفسي . نعم ، لم أصدق ما رأيته وتوسلت إلى الله كي يجلس أبي في زاويته بين كتبه صامتاً كما يفعل دائماً . انهض يا أبي ، لا تمت يا أبي ، هيا يا أبي . ولكن رأسه الغارق بالدم مكسَر . خفتُ من الحقد المخرب الغرفة وكل شيء ، والممزق الأوراق والكتب ، والمكسر المساند ومجموعات الألوان والحقاق والمقعد ورحلة القراءة ومسند الكتابة بوحشية ، والقاتل أبي . لم أعد أستطيع البكاء . عندما مر شخصان من الزقاق المجاور متضاحكين

متبادلي الحديث كان صمت العالم اللا متناهي يسمع بعقلي الباطن . كنت أمسح دموع عيني ومخاط أنفي بيدي . فكرتُ بولدي وبحياتنا مدة طويلة .

أصغيت للصمت . ركضت . ثم أمسكت أبي من قدميه وشددته إلى الموزع . هناك لا أدري لماذا غدا أثقل ، ولكنني بدأت أنزله الدرج . عندما انهارت قواي وسط الدرج جلست . علني كنت سأبكي ، ولكنني اعتقدتُ عند سماعي ضجة أن خيرية والولدين قد أتوا ، لهذا أمسكت بقدمي أبي ووضعتهما تحت إبطي ، ونزلت إلى أسفل هذه المرة بسرعة أكبر . لقد كان رأس أبي - يا روحي - محطماً وملتاثاً بالدم إلى حدّ أنه يحدث صوتاً عند ارتطامه بالدرجات يشبه صوت خرقة مبلولة بالماء وملتفة جيداً . فتلتُ جسده الذي خفّ بعد أن أوصلته إلى الأسفل ، وجررته فوق الفسحة الحجرية ، وبجرة واحدة أدخلته إلى غرفة النقش الصيفية المجاورة للإسطبل . ولكي أرى ما داخل الغرفة المظلمة تماماً هرعت إلى المطبخ ، وعندما عدت إلى الغرفة حاملة شمعة بيدي ووجدتُ الغرفة التي أدخلت أبي إليها مقلوبة رأساً على عقب ، انعقد لساني لحظة .

من فعل هذا يا الله ؟ من ؟

عقلي يعمل بسرعة ، وأحسب أموراً كثيرة بسرعة . تركت أبي في الغرفة المخبوطة والتي أغلقت بابها بقوة . جلبت سطلاً من المطبخ ، ونتحتُ ماء من الجب وملأته . صعدت إلى الأعلى ، وعلى ضوء المصباح الذي أشعلته مسحتُ الدم من الموزع والدرج . عملتُ هذا بسرعة كبيرة . صعدت إلى غرفتي في الأعلى ، وخلعت ألبستي الملتاثة بالدم ، وارتديت أخرى نظيفة ، وعندما كنت على وشك الدخول إلى غرفة أبي حاملة السطل والخرقة سمعت باب الحوش ينفتح . في الوقت نفسه بدأ يُرفع أذان المغرب . استجمعت قواي كلها ، وانتظرتهم حاملة المصباح عند الدرج .

قال أورهان : «أمي ، نحن جئنا» .

صرخت بقوتي كلها : «خيرية! تأخرتم» . ولكن كأنني لم أصرخ ، بل أتظاهر بأنني أهمس .

كان شوكت يقول : «أمي ، ولكننا لم نبق إلى ما بعد أذان المغرب!»

«اسكتا ، جدكما مريض . إنه نائم»

قالت خيرية من تحت : «هل هو مريض ؟» لكنها شعرت بغضبي من صمتي . «يا شكورة خانم ، انتظرنا كوستا . عندما وصل السمك لم نضيع أي وقت . جمعنا غاراً ، ثم اشتريتُ تيناً يابساً من النوع المائل إلى الحمرة للولدين»

أردت النزول وتأنيب خيرية همساً . ولكنني عندما سأنزل الدرج سيضيء المصباح الذي بيدي الدرجات الرطبة ، وقطرات الدم التي لم أستطع مسحها لعجلتي . صعد الولدان الدرج محدثين ضجة ، وخلعا حذائيهما .

دفعتهما نحو غرفتنا مصدرة صوتَ : «هس س س» ثم قلت : «ليس إلى هناك ، جدكما نائم»

قال شوكت : «سأذهب إلى الغرفة ذات الباب الأزرق من أجل الموقد ، وليس إلى غرفة جدي»

قلتُ هامسة : «جدكما بقي نائماً فيها»

رأيتهما توقفا لحظة . قلت : «لئلا تتلبسكما الجان السيئة التي مرَضت جدكما . هيا ادخلا غرفتكما» . ودفعتهما إلى الغرفة التي ننام فيها ملتفين على بعضنا البعض : «قولا لي : ماذا فعلتما إلى هذا الوقت ؟» قال شوكت : «رأينا متسولين زنوجاً» سألته قائلة : أين ؟ هل كان معهم رايات ؟» «في الطلعة أعطوا خيرية ليموناً ، وأعطتهم خيرية نقوداً . بنى الثلج على رؤوسهم» . «غير هذا ؟» . «كانوا يصوبون سهاماً على الهدف في

الساحة» قلت : «تحت هذا الثلج ؟» قال شوكت : «أمي ، أنا بردان ، سأدخل إلى الغرفة ذات الباب الأزرق» قلت : «لن تخرجا من هذه الغرفة ، وإذا فعلتما ستموتان . سأجلب لكما الموقد الآن» . قال شوكت : «لماذا سنموت ؟» قلت لهما : «سأحكي لكما عن أمر ، ولكن احذرا من البوح به لأحد ، مفهوم ؟» وعداني ألايبوحا بشيء لأحد «عندما كنتما في الخارج جاء إلى هنا رجل فقد لونه حتى صار أبيضَ ، جاء من بعيد جداً ، من مملكة بعيدة . تحدّث مع جدكما ، وإذ بهذا الرجل من الجان» سألا عن المكان الذي جاء منه الجني ، قلت : «من وراء النهر» قال شوكت : «من المكان الذي فيه أبي ؟» قلت : «نعم من هناك . جاء كي يرى الرسوم التي في كتاب جدكما . وعندما رأى ذلك الكافر الرسوم قتله فوراً» .

خيم صمت .

قلت : «أنا نازلة إلى تحت عند خيرية ، وسأجلب الموقد إلى هنا ، وصينية الطعام . احذرا من الخروج خارج الغرفة . ستموتان إن فعلتما لأن الجني ما زال في البيت»

قال أورهان : «أمي ، لا تذهبي يا أمي»

التفتُ إلى شوكت وقلت : «أنت مسؤول عن أخيك» ثم جعلت تعابير وجهي مخيفة كتلك التي تسبق صفعي لهما ، وقلت : «إذا خرجتما ولم يتلبسكما الجان سأقتلكما . والآن تضرعا إلى الله كي لا يموت جدكما . إذا صرتما جيدين سيقبل الله دعاءكما ، ولا يصل إليكما أحد» بدأا بالدعاء دون الاندماج بما يقومان به . نزلت إلى تحت .

قالت خيرية : «أحدهم قلب معقود النارنج . إذا قلنا قطة فهي لا تقوى على هذا ، والكلب لا يستطيع الدخول . . .» .

فجأة رأت الهلع على وجهي ، فتوقفت ثم قالت : «خير إن شاء

الله . . . ماذا حدث . هل حدث شيء للأفندي أبيكِ ؟ »

« مات »

صرخت ، وضربت البصلة والسكينة التي بيدها على الخشبة بقوة جعلت السمك الذي قطعته يتطاير . أطلقت صرخة أخرى . وفي اللحظة نفسها أدركنا أن الدم الذي بيدها اليسرى ليس من السمك ، بل يسيل من سبابتها التي جرحتها عندما أطلقت الصرخة الأولى . ركضت إلى الأعلى ، وبينما كنت أبحث عن قطعة قماش ناعمة في الغرفة المقابلة سمعت صراخاً وضجيجاً يصدر من غرفة الأولاد . دخلت إلى غرفتهما حاملة قطعة القماش التي مزقتها فوجدت شوكت صعد فوق أورهان ضاغطاً بركبتيه على كتفيه ، يكاد يخنقه » .

صرختُ بقوتي كلها : « ماذا تفعلان ؟ »

قال شوكت : « كان أورهان سيخرج من الغرفة » .

قال أورهان : « كذّاب . فتح شوكت الباب ، قلت له : لا تخرج » فبدأ يبكي .

« إذا لم تصمتا سأقتلكما »

قال أورهان : « لا تذهبي يا أمي! »

نزلتُ ، وضمّدت إصبع خيرية ، وأوقفنا النزف . عندما قلتُ لها إن أبي لم يمت موتاً طبيعياً خافت ، وبدأت تدعو : اللهم احمنا . وبكت وهي تنظر إلى إصبعها الملفوفة . هل كانت تحب أبي بقدر ما كانت تبكي عاركة عينيها ، أم أنها كانت تبكيه بقدر ما تحبه ؟ أرادت الصعود لرؤية أبي .

قلت لها : «ليس في الأعلى ، إنه في الغرفة الخلفية»

نظرت إلى وجهي بشك . عندما فهمت أنني لن أذهب معها لرؤيته لم تستطع التغلب على فضولها وخوفها . حملت المصباح وذهبت . رأيتها من

حيث أقف في مدخل المطبخ . سارت أربع أو خمس خطوات ، وفتحت باب الغرفة بخشوع ، ودفعته بقلق ، ونظرت إلى الغرفة المبعثرة أغراضها . لم تر أبي في البداية ، فرفعت المصباح إلى الأعلى عاملة على إنارة زوايا الغرفة الكبيرة .

بعد ذلك صرخت : « آآآآه » لقد رأت أبي حيث تركتهُ جانب الباب مباشرة . نظرت إليه دون أن تتحرك . كان ظلها على الفسحة الحجرية وجدران الإسطبل لا يتحرك . في أثناء نظرها إليه تخيلتُ ما تراه . عندما عادت كانت تبكي . سررتُ لرؤيتي لها متيقظة بحيث تستطيع حفظ ما سأقوله لها بالتأكيد .

قلت : « اسمعيني الآن يا خيرية » كنت أتكلم وأنا أهز السكين بيدي التي امتدت إليها وحملتها تلقائياً : « لقد بعثر الطابق العلوي أيضاً . دخل شيطان النحس إلى هناك أيضاً وكسر وبعثر كل شيء . وهنالك كسر رأس أبي ، وقتله . ولكي لا يراه الأولاد ، ولكي لا تخافي أنت أنزلت أبي إلى تحت . أنا أيضاً خرجت ، بعد أن خرجتم . بقي أبي في البيت وحده »

قالت بصفاقة : « لم أكن أعرف . أين كنتِ ؟ »

سكتُّ برهة . أردتُ أن تنتبه جيداً لسكوتي . بعد ذلك قلتُ : « كنتُ مع قرة . تقابلنا في بيت اليهودي المشنوق ، ولا تقولي هذا لأحد . ولا تخبري أحداً بموته .

« من قتله ؟ »

هل هي مخبولة حقاً لتسأل سؤالاً كهذا ، أم أنها تبدي هذا لمحاصرتي ؟

قلتُ : « لن أخفي هذا لو عرفت . لا أعرف . هل تعرفين أنت ؟ »

قالت : « من أين لي معرفة هذا ؟ ماذا سنفعل نحن الآن ؟ »

قلت : « ستتصرفين وكأن شيئاً لم يكن » وكنت في داخلي أجد دافعاً

قوياً لأبكي مصوتة ، ولكنني سكتُ . سكتنا قليلاً .

بعد مرور مدة طويلة ، قلت : «اتركي السمك الآن . حضّري المائدة للولدين بسرعة»

تعانقنا بقوة عندما بدأت تبكي بصوت خفيض . قبلتها ليس ألماً عليَ وحدي وعلى الولدين ، بل علينا كلنا . من جهة أخرى بدأت تتحرك شبهات الخوف داخلي . أنت تعرفين أين كنت عندما كان أبي يقتل . أنتم تعرفون أنني أبعدتُ خيرية والولدين عن البيت ، وعملت هذا بنية مختلفة ، وحدث هذا مصادفة . ولكن هل تعرف هذا خيرية ؟ هل تتفهمني عندما أشرح لها . ستتفهم هذا من جهة ، وستشك من جهة أخرى . احتضنتها بقوة كبرى ، ولكنني عندما فكرتُ بأنه من الممكن لجارية أن تفهم هذا تصرفاً للتستر على عملة ، شعرت أنني أخدعها . بينما كنت أقابل قرة وأبادله الحب كان أبي يُقتل . لو كانت خيرية فقط هي التي تقول لنفسها هذا لما شعرتُ بالذنب بهذا القدر ، ولكنني أدرك أن هذا ما تفكرون به أنتم أيضاً . اعرفوا! إنكم تعتقدون أنني أخفي عنكم شيئاً ما . كم أنا مسكينة ، ومنحوسة ؟! وهكذا عندما بدأت أبكي ، بكت خيرية ، وتعانقنا .

تظاهرتُ أنني آكل من السفرة التي وضعناها في الغرفة الفوقانية . أحياناً كنت أخرج قائلة : «سأرى جدكما» ثم أعود باكية . ولأن الولدين قلقا كثيراً ، التصقا بي بقوة عندما دخلنا الفراش ، ولخوفهما من الجان لم يستطيعا النوم خلال فترة طويلة . كثيراً ما تقلبا قائلين : «هنالك قرقعة ، هل سمعت ؟» ولكي يناما ، ويرتاحا وعدتهما بحكاية حب . أنتم تعرفون أن الكلمات في الليل تركّب أجنحة .

قال شوكت : «لن تتزوجي من أحد يا أمي ، أليس كذلك ؟»

قلت : «اسمع الآن! . يُحكى أنه يوجد أمير . عشق هذا الأمير فتاة

جميلة جداً ، ولكن من بعيد . كيف صار هذا ؟ حدث هذا لأن الأميرة رأت رسمه من قبل » .

وكما أفعل في حالات التعاسة والكدر ، لم تكن الحكاية مما أعرفه سابقاً . حكيت ما خطر ببالي ولفقته في تلك اللحظة . ولأنني أحكي ما يشعر به قلبي ، وأخرجه بألوان ذكرياتي وآلامي ، يبدو ما أحكيه مثل نقش يرافق ما حدث لي .

بعد أن غطّ الولدان في النوم نهضتُ من الفراش الدافئ ، ولملمنا الأغراض التي بعثرها ذلك الشيطان المقرف . وبينما كنا نرتّب الصناديق المأخوذة أغراضها والمرمية هنا وهناك ، والكتب ، وقطع القماش ، والفناجين ، والأواني ، والحقاق المرمية والمكسّرة ، (والرحلة) المحطمة ، وصناديق الأصبغة ، والأوراق الممزقة والمرمية بحقد واحدة واحدة . كانت إحدانا تترك من يدها وتبكي . كأننا حزينتان على بعثرة الأغراض ، والدخول على حرمتنا أكثر مما نحن حزينتان على موت أبي . أنا أعرف ومن خلال تجربتي أنه عندما يموت أحد فإن محبيه يعملون على جعل كل شيء يسير كما كان في السابق خادعين أنفسهم بحجب الستائر والأغطية أشعة الشمس المشرقة كل يوم ، معتقدين أحياناً أن عزرائيل لن يقبض روح من يحبون أحياناً . بعثرة البيت الذي نقشت زواياه بعناية فائقة ، بلا شفقة ، لم يترك لنا شيئاً كهذا يسلينا ، أو يجعلنا نتخيل ، بل يذكّرنا بآلام جهنم ويخيفنا .

بناء على طلبي ، نزلنا ، ونتحنا ماء جديداً من الجب ، وتوضأنا . وبينما كنا نقرأ سورة آل عمران التي كانت لها منزلة خاصة لدى المرحوم أبي لأنها تبحث في الأمل والموت معاً من مصحف جلده من عمل هرات ، يحبه أبي كثيراً ، انتبهنا بخوف إلى أن باب الحوش يصدر صريراً ، ولكن لم يحدث شيء بعد الصرير . بعد أن تفقدنا مزلاج الباب ووضعنا خلفه أصيص

الحبق الذي يسقيه أبي بنفسه بماء ينتحه من الجب ، ودخلنا إلى البيت ، شعرنا للحظة أن خيالينا اللذين جعلهما مصباحنا يستطيلان هما لغيرنا . بلغ خوفنا ذروته عندما كنا نغيّر ثياب أبي ونغسل وجهه من الدم بعد أن لم يبق أمامنا سوى القبول بأنه مات بأجله وكأننا نؤدي نوعاً من طقوس العبادة . وبينما كنا نعمل ذلك همست خيرية لوالدي : هات يدك من تحت .

عندما شلَحنا أبي ألبسته المدماة ، وألبسته الداخلية أدهشنا بإعجاب لون بشرته الأبيض التي تضج بالحياة تحت ضوء الشمعة في الغرفة المظلمة . ولأننا كنا ما نزال خائفتين من شيء مفترض يهددنا فقد كنا نرتجف . لذلك لم نبدِ أي تردد بالنظر والتمعن في جسد أبي العاري المغطى بالنمش والجروح . عندما صعدت خيرية لجلب ألبسته الداخلية وقميصه الحريري الأخضر لم أستطع آنئذ الإمساك بنفسي ونظرتُ إلى ذلك الجزء لدى أبي ، وخجلت كثيراً مما فعلت . بعد أن غسلت دماء أبي التي على رقبته وشعره ووجهه بعناية فائقة ، وألبسته ثياباً نظيفة احتضنته بقوتي كلها ، ودسست أنفي في لحيته ، وشمشمته بشبع وبكيت مطولاً .

ومن أجل الذين يعتبرونني دون وجدان ومذنبة أقول إنني بكيت مرتين :

١- عندما كنت أعمل على جعل الولدين لا ينتبهان إلى ما يجري ووضعت صدفة البحر على أذني نتيجة اعتياد منذ الطفولة فشعرت أن صوت البحر قد اختفى . ٢- عندما رأيت البساط المخملي الأحمر الذي يجلس عليه والدي دائماً طوال الخمسة والعشرين عاماً الأخيرة حتى غدا جزء من مؤخرته ممزقاً .

عندما أعدنا كل شيء في البيت إلى ما كان عليه عدا ما لا يمكن إصلاحه رفضتُ بقسوة طلب خيرية أن تفرش فراشها في غرفتنا هذه الليلة .

قلتُ لها : «احذري أن ينتبه الولدان إلى شيء في الصباح» ولكن في الحقيقة كان هذا من أجل أن أبقى وحدي مع الولدين ومعاقبة خيرية . تمددت على الفراش ، ولم أنم خلال فترة طويلة ، وليس هذا بسبب فظاعة ما حدث لي ، بل لأنني أحسب ما يمكن أن يقع لي فيما بعد .

* * *

٣١

اسمي أحمر

عندما جاء الفردوسي شاعر الشاه نامة إلى (غزنة) واستهان به شعراء قصر الشاه محمود لأنه قروي ، وألقى رباعية قافية أشطرها الثلاثة الأولى صعبة جداً ، ولم يستطع أحد منهم إكمال شطرها الرابع . كنتُ هناك على قفطان الفردوسي . كنت على جراب نشّاب بطل الشاه نامة الأسطوري رستم عندما ذهب باحثاً عن حصانه المفقود إلى البلاد البعيدة ، وفي الدماء التي سالت من العملاق الأسطوري عندما قسمه بسيفه الرائع إلى قسمين ، وبين ثنيات اللحاف عندما قضى ليلته يمارس الحب مع ابنة الشاه الذي نزل عليه ضيفاً . كنتُ هناك عندما قطع (تور) رأس أخيه (آرش) غدراً ، وعندما تداخلت الجيوش الأسطورية والجميلة كالخيال هناك في السهوب ، وعندما أصيب الإسكندر بضربة شمس وسال من أنفه الجميل الدم المتلامع دون انقطاع ، وتحت قبة ملونة في كل يوم من أيام الأسبوع ، وفي ألبسة الحسناء التي عشقها الشاه الساساني الذي ينام كل ليلة مع حسناء رائعة تأتي من إقليم بعد أن يستمع إلى حكاية تحكيها له عندما زار (كور) يوم الثلاثاء ، وفي تاج وقفطان وألبسة رسم خسرو الذي نظرت إليه شيرين وعشقته ، وفي رايات الجيوش المحاصرة للقلاع ، وفي أغطية موائد الولائم ، وفي قفطانات السفراء المقبّلين أقدام السلاطين ، وفي حكايات السيوف التي يدوخ فيها

الأولاد إعجاباً . وظهرت على الورق المصقول القادم من الهند وبخارى ، وتحت أنظار التلاميذ المتدربين ذوي العيون الجميلة وعيون النقاشين المعلمين وبضربات فراشيهم الخفيفة ، سجادات الخدم ، وزخارف الجدران ، وقمصان النساء الجميلات المطرقات الرؤوس وهن ينظرن إلى الزقاق ، وأعراف الديوك المتصارعة ، والرمان والفواكه الأسطورية للبلاد الأسطورية ، وفم الشيطان ، والخطوط الرفيعة داخل البراويز ، وتطريزات الخيام المتعرجة بنعومة ، والأزهار الناعمة جداً التي يرسمها النقاش من أجل متعته الخاصة وبصعوبة تُرى بالعين المجرّدة ، وعيون تماثيل الطيور السكرية المصنوعة من الكرز ، وجوارب الرعاة ، والشفق الموصوف في الأساطير ، والجروح في أجساد آلاف وعشرات آلاف المحاربين والصقور والعشاق . وأحب أن أدهن كتفتح الدم أزهاراً في رسوم ساحات المعارك ، وعلى قفطان الشاعر الأهم في مجلس الشعراء والغلمان الحلوين وهم يشربون الخمر ويستمعون إلى الموسيقى ، وعلى أجنحة الملائكة ، وعلى شفاه النساء ، وعلى جروح الميتين والرووس المقطوعة الملقاة وسط الدماء .

أنا أسمعكم تقولون : ماذا تعني الكينونة لوناً ؟

اللون هو لمس النظر ، وموسيقى الطرشان وكلمة الظلام . لأنني أسمع كلام الأرواح مثل صفير الرياح من كتاب إلى كتاب ، ومن شيء إلى شيء على مدى عشرات آلاف السنين أستطيع القول إن ملامستي تشبه ملامسة الملائكة . جانب مني هنا يخاطب أعينكم ، وهذا جانبي الثقيل ، وجانبي الآخر في الهواء يخفق بجناحيه مع نظراتكم ، وذلك هو جانبي الخفيف .

كم أنا سعيد لأنني أحمر! داخلي يغلي . أنا قوي . أدرك أنني مميز ، وأنكم لا تستطيعون مقاومتي .

لا أختبئ . الظرافة بالنسبة إلي ليست ضعفاً أو وهناً ، إنها تتحقق

بالتصميم والإرادة . أنا أطرح نفسي في الوسط ، ولا أخاف من الألوان الأخرى أو الظلال ، أو الازدحام ، أو الوحدة . وكم هو جميل ملء سطح ينتظرني بحرارتي المظفَرة! تبرق العيون عندما أفرش في مكان ما ، وتتأجج النزوات ، وترتفع الحواجب ، وتتسرع خفقات القلوب . انظروا إليّ! كم العيش جميل ؟! شاهدوني! كم الظهور جميل ؟! العيش هو الظهور . أنا أظهر في كل مكان . الحياة تبدأ بي ، وينتهي كل شيء بي . ثقوا إنه بي . . .

اصمتوا ، واستمعوا إليّ لأحكي لكم كيف صرتُ أحمرَ رائعاً . يأخذ النقاش الخبير بالألوان أفضل ديدان القرمز المجففة المجلوبة من بلاد الهند الأكثر حرارة ، ويضعها في (هاونه) ويطحنها حتى تصبح ناعمة جداً ، يأخذ منها خمسةَ دراهم ، ويأخذ درهماً من العشبة الصابونية ، ونصف درهم من (اللوتور) . صبَّ ثلاثة حقاق ماء في قدر ، ووضع العشبة الصابونية في الماء ، وغلاها على النار . بعد ذلك أضاف (اللوتور) إلى الماء وحرّك المزيج جيداً ، غلاه مدة شربهِ فنجاناً من القهوة الجيدة . وفي أثناء شربه القهوة ، أتململ مثل طفل سيولد بعد قليل . بعد أن فتّحت القهوة عقله ، وجعلت عينيه محملقتين ، وضع مطحون القرمز في القدر ثم حرّك المزيج بعود رفيع ونظيف خاص بهذا العمل . والآن كنت سأخرج أحمرَ حقيقياً ، ولكن قوامي هام جداً ، لذلك يجب ألا يغلي الماء دون سبب ، كما أنه يجب أن يغلي ليأخذ حدّه . أخذ بواسطة رأس العود قطرة مني ، ودهن بها إظفر الإبهام (لا يجوز قطعياً استخدام الأصابع الأخرى) . أووه ، كم هو جميل الكينونة أحمر . صبغتَ إصبعه بالأحمر ، ولم أسل إلى أطرافه كالماء فهذا يعني أن قوامي جيد ولكن ثمة رواسب . أنزل القدر عن النار ، ثم مررني من قطعة قماش نظيفة ، وصفّاني ، فأصبحتُ أكثر صفاء . بعد ذلك وضعني على النار ، غلاني لأفور مرتين ، بعد ذلك وضع قليلاً من الشبّة المطحونة عليّ ، وتركني أبرد .

مضى عليّ عدة أيام هناك في القدر هادئاً دون تدخل في أي شيء . أحزنني وقوفي هكذا وأنا أفكر أن أدهن الصفحات كلها ، والأمكنة والأشياء . وفي أثناء هذا الصمت فكرت ماذا يعني الكينونة أحمر ؟

في أحد الأيام ، في إحدى مدن العجم ، وبينما كان تلميذ نقاش يدهن فيّ سرج حصان رسمه نقّاش أعمى من ذاكرته ، سمعت حوار نقاشين أعميين فيما بينهما .

قال الذي رسم الحصان من ذاكرته : « طبعاً في النهاية أصبحنا عمياناً بعد أن قضينا حياتنا كلها نعمل باندفاع وإيمان ، ولكننا ندرك أي لون هو الأحمر ، وأي إحساس يعطي . ولكن لو كنا عمياناً منذ ولدنا من بطون أمهاتنا كيف كنا سندرك الأحمر الذي يدهن فيه التلميذ الجميل الآن ؟ »

قال الآخر : « مسألة جميلة ، ولكن الألوان لا تُفهم بل يشعر بها »

« احكوا لنا يا أستاذنا عن الإحساس بالأحمر بالنسبة إلى من لم يبصر في حياته » .

« لو لمسناه برأس إصبعنا لوجدنا أنه ما بين الحديد والنحاس ، ولو وضعناه في راحة كفنا لأحرقها ، ولو تذوقناه لوجدنا أنه بطعم اللحم المملح ، وإذا وضعناه في فمنا يملؤه ، وإذا شمشمناه فهو برائحة الحصان ، وإذا شمشمناه كزهرة فهو يشبه البابونج وليس الوردة الحمراء » .

في تلك الأيام . قبل مائة وعشر سنوات ، عندما لم يكن النقش الأفرنجي توقاً للشاهات ، وتهديداً حقيقياً ، ولأن الأساتذة الكبار يؤمنون بأساليبهم كما يؤمنون بالله كانوا يضحكون لاستخدام أساتذة الأفرنج مختلف أنواع الأحمر ودرجاته في أصغر طعنة سيف وفي أكبر قطعة قماش مخملية ويعتبرون هذا عدم شرف وقلة معرفة . وقالوا : لا يمكن إلاّ لنقاش غير متمكن وغير مصمم ولا إرادة له أن يستخدم مختلف درجات الأحمر لتلوين

قطفان واحد . ولا يمكن للظل أن يكون ذريعة . وأصلاً هنالك أحمر واحد يساعد ، ولا يوثق بغيره .

سأل النقاش الأعمى الذي رسم الحصان من ذاكرته مرة أخرى : «ما هو معنى هذا الأحمر ؟» .

قال الآخر : معنى الألوان هناك ، عندما تكون أمامنا ، ومن رؤيتنا لها ، ولا يمكن شرح الأحمر لمن لا يرى» .

قال النقاش الأعمى الذي رسم الحصان : «ولكن المنكرين ، والزناديق ، وغير المؤمنين يستخدمون عدم ظهور الله من أجل إنكاره» .

قال المعلم الآخر : «مع أنه يظهر لمن يرى ، والقرآن الكريم يقول في هذا الخصوص بأنه لا يمكن أن يستوي المبصرون وغير المبصرين» .

كان التلميذ الجميل قد دهن بي سرج الحصان بهدوء . أن أُدهن على نقش جميل وأن أَمْنَحَ رسماً بالأسود والأبيض امتلائي وقوتي وحيويتي شعور جميل جعلني أتدغدغ فرحاً من نشري على الورقة بفرشاة من وبر القط . وهكذا أشعر عندما ألون أنني أقول لذلك العالم : «كن» فيصبح العالم بلوني الدموي . من لا يرى ينكر ، ولكنني موجود في كل مكان .

* * *

٣٢

أنا شكورة

نهضتُ من الفراش صباحاً قبل استيقاظ الأولاد . كتبت رسالة صغيرة أبلَغ قرة أن يأتي إلى بيت اليهودي المشنوق فوراً ، ودسستها في يد خيرية لتوصلها إلى إستر جرياً . إذا كانت خيرية قد رمقتني بنظرة فظة تحت تأثير الخوف مما قد يحدث لنا عندما أخذتُ الرسالة ، فأنا أيضاً نظرت إليها بفظاظة اكتسبتها حديثاً نتيجة عدم وجود أب يخيفني بعد ذلك . وهذه النظرة عبرت عن شكل آداب التعامل وقواعده التي ستنشأ بيننا فيما بعد . الآن أعترف لكم : إنني خلال السنتين الماضيتين كنتُ أخشى أن تحمل خيرية من أبي ، وتصبح أماً ، وتنسى أنها جارية ، وتعمل علينا سيدة محترمة . قبل استيقاظ الأولاد زرت أبي المسكين ، وقد غدا مثل الحجر ، ولكنه لم يفقد نعومته بشكل غريب . قبّلت يده باحترام . خبأت حذاءه ، وقبعته وسترته البنفسجية ، وعندما استيقظ الولدان قلت لهما : إن جدكما تحسّن وخرج باكراً ، وذهب إلى مصطفى باشا .

عادت خيرية من مشوارها الصباحي ، وبينما كانت تعدّ السفرة ، وأضع وسطها ما تبقى ويمكن أكله من معقود النارنج ، كنت أتخيل إستر وهي تطرق باب قرة . توقف ندف الثلج ، وظهرت الشمس .

عندما دخلتُ بيت اليهودي المشنوق رأيت الوضع نفسه . كانت قطع

الجليد المتدلية من سقيفات البيت وحواف نوافذه تصغر بسرعة ، وكانت الحديقة التي تفوح منها رائحة العفن والأوراق المتفسخة تتلقى الشمس بنهم . كان قرة ينتظرني حيث رأيته البارحة - يتهيأ لي أن البارحة مضى عليها أسابيع - رفعتُ نقابي وقلت :

«افرح إذا كان في داخلك ما يدفعك إلى الفرح . لم يعد بيننا مكان لاعتراضات أبي ووقوفه في وجهنا . عندما كنت البارحة تحاصرني بقلة شرف ، أحدهم ، إبليس دخل إلى بيتنا الفارغ ، وقتل أبي»

إنكم تتوقون لمعرفة سبب كلامي المتعالي هذا ، وأداني البعيد عن الصدق أكثر من معرفة ردة فعل قرة . أنا أيضاً لا أعرف جواب هذا تماماً . لعل السبب هو إمكانية أن أبكي ، ويحتضنني قرة ، وأقترب منه بسرعة أكثر مما أتوقع .

«نبش أغراض بيتنا وبعثرها كلها ، وكسر أشياء كثيرةً ولعله تصرّف بغضب وحقد . ولا أعتقد أبداً أن هذا الإبليس بعد أن عمل عملته سيجلس في زاويته هادئاً . لقد سرق الرسم الأخير لكتاب أبي . أريد منك أن تحميني ، تحمينا ، وتحمي كتاب أبي . ولكنك بأية صفة ، وأية قرابة ستحمينا . هذه هي القصة الآن» .

كاد ينتفض من أجل قول ما ، ولكنني أسكتّه ببساطة بنظراتي وكأنني أعمل هذا دائماً . «بعد موت أبي صار وليّي بنظر القاضي هو زوجي ، وعائلة زوجي . وهذا ما كان قبل موت أبي لأن زوجي حيّ بالنسبة إلى القاضي . لقد عدت إلى بيت أبي قبل أن أغدو أرملة بسبب محاولة أخي زوجي استغلالي في غياب أخيه الأكبر ، ولأن قلة الأدب هذه حيّرت حميّي : أبيه . والآن بموت أبي وعدم وجود أخ لي أصبحت وحيدة تماماً . أو أن المسؤول عني تماماً هو حموي وابنه . وأصلاً أنت تعرف أنهما تحرّكا لإعادتي إلى بيتهما ، وكانا

على وشك الضغط على أبي ، وقررا محاصرتي عبر التهديد . وفور إعلان موت أبي سيتحركان فوراً لأخذي إلى البيت . وأنا أخفي وفاة أبي لأنني لا أريد العودة إلى بيتهما . ولعلي أخفي هذا الأمر دون جدوى ، لأنه من الممكن أن يكونا هما قد أقدما على هذا العمل » .

حزمة ضوء رفيعة متسللة من نافذة بيت اليهودي المشنوق المكسرة أضاءت غبار الغرفة المبعثر في الهواء ، ودخلت بيننا تماماً .

قلتُ : « أنا لا أخفي موت أبي لهذا السبب فقط » . ثم نظرت إلى عيني قرة اللتين تنظران بانتباه أكثر مما تنظران بعشق ، وهذا ما أسعدني . أضفت : « أنا أخاف من عدم استطاعتي إثبات مكان وجودي عندما مات أبي . وحتى لو لم يكن لشهادة خيرية أية قيمة فأنا أخاف من استخدامها ضدي ، أو على الأقل استخدامها جزءاً من الأحابيل التي تحبك ضد كتاب أبي . إذا كان يبدو للوهلة الأولى أن إعلاني وفاة أبي في حالة عدم وجود وليَ أو صاحب محسوس لي سيسهل قبول القاضي للجريمة ، ولكن للأسباب التي ذكرتها – مثلاً يمكن أن تكون خيرية تعرف رفض والدي تزويجي لك – أدرك جيداً أنه ممكن أن يشكل هذا الأمر بلاءً لي » .

قال قرة متسائلاً : « ألم يكن أبوك يريد تزويجك لي ؟ »

« لم يكن يريد . لأنه كما تعرف كان يخشى أن تأخذني منه إلى البعيد . وبما أنك الآن لا يمكنك عمل هذا الأمر السيئ له ، لم يعد للمسكين أبي إمكانية الاعتراض بأي شكل . هل لديك اعتراض أنت ؟ »

« لا يا حلوة »

« حسنٌ ، وأنا وليّة نفسي لا أطلب منك نقوداً أو ذهباً . أرجو أن تعذرني لقلة أدبي بكلامي عن شروط زواجي . ولكن مع الأسف أنا مضطرة للدخول في تفصيلات بعض شروط الزواج فوراً » .

ولأنني انتظرت فترة طويلة ، قال قرة : « نعم » بلهجة اعتذار لأنه تأخر .

بدأت قائلة : « أولاً : عليك أن تقسم بحضور شاهدين أنك ستطلقني مع دفع نفقتي إذا تصرّفت معي بسوء إلى حدّ عدم استطاعتي التحمّل ، أو تزوجت من امرأة أخرى . ثانياً : ستقسم بحضور شاهدين أيضاً أنني سأعتبر مطلقة ، وأعطى نفقة إذا تركت البيت مدة ستة أشهر بسبب وبلا سبب . ثالثاً : طبعاً إنك ستنتقل إلى بيتي بعد الزواج ، ولكننا لن ننام في فراش واحد حتى إيجاد السافل قاتل أبي ، أو تجده أنت - أريد أن أعذّبه بيدي - وحتى إنجاز كتاب سلطاننا بمهارتك وجهودك ، وتسلمه إياه بشرف . رابعاً : ستحب ولديّ اللذين أشاركهما الفراش كأنهما ابناك » .

« قبلت » .

« حسنٌ ، إذا أزلت من أمامنا كل هذه العوائق بسرعة ، سندخل دار الحياة الدنيا قريباً جداً » .

« نعم لحياة الدنيا ، ولكن لا للفراش نفسه » .

قلت : قبل كل شيء : الزواج . لنحلّ هذا الأمر . العشق يأتي بعد الزواج . لا تنس أن العشق المتأجج قبل الزواج ينطفئ بعد الزواج . ولا يبقى سوى مكان فارغ يدعو إلى الهم . ومن المؤكد أن العشق الذي ينشأ بعد الزواج سينتهي أيضاً ، ولكن السعادة تحتل مكانه . على الرغم من هذا هنالك بعض المخبولين المستعجلين يعشقون قبل الزواج ، ويستنفذون عشقهم كله حرقاً . لماذا ؟ لأنهم يعتقدون أن هدف الحياة الأكبر هو العشق » .

« ما الصحيح ؟ »

« السعادة هي الصحيح . العشق والزواج يفيدان في الحصول عليها . زوج ، وبيت ، وأولاد ، وكتاب . ألا ترى حالتي هذه بعد فقداني زوجي

وموت أبي أفضل من حالتك الجافة هذه ؟ أموت إذا لم أضحك مع ولديَ وألاعبهما ، وأبادلهما الحب . ولأنك تتوق لحالتي هذه ، وتتحرّق من أجل أن تعيش معي تحت سقف واحد مع أولادي وجثة أبي ، حتى لو لم يكن في فراش واحد ، عليك أن تصغي إليّ جيداً »

« أنا مصغ » .

« هنالك طرق مختلفة من أجل أن أطلَق . شهود زور . مثلاً يشهدون أن زوجي طلقني شرطياً قبل الذهاب إلى الحرب ، أي يمكن أن يقسموا كذباً أن زوجي أقسم بحضورهم أن زوجته طالق إذا لم يعد من الحرب . أو يقسمون مباشرة أنهم رأوا جثة زوجي في ساحة الحرب داخلين في تفاصيل الحكاية . ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار الجثة التي في البيت ، واعتراض حميي وابنه ، فإن شهود الزور سيخافون من القضاة الأذكياء ومن الطرق الملتوية . وإذا نظر القضاة من أتباع مذهبنا الحنفي إلى ترك زوجي لي مدة أربع سنوات بلا نفقة فلا يطلقونني . ولكن قاضي الإسكدارِ ، ولكي يفسح المجال لطلاق النساء أمثالي المتزايد عددهن بسبب حرب العجم ، يترك الأمر أحياناً لنائبه الشافعي مع تغاضي حضرة سلطاننا وشيخ الإسلام ، وذاك يطلق دون تردد . والآن إذا وجدتُ رجلين يشهدان على وضعي ، وأعطيتهما بعض النقود ، نعبر إلى أسكدار ، ونؤمن القاضي ليترك نائبه يطلقني عوضاً عنه . سيطلقني بشهادة الشاهدين . بعد ذلك نعمل قيد مطلقة في دفتر القاضي ، ونأخذ حجة أو ورقة تفيد أنني مطلقة ، وبعد ذلك تؤمّن ورقة أخرى تجيز لي الزواج ، وإذا أنجزنا كل هذه الأعمال قبل انتهاء فترة دوام بعد الظهر ، وعدنا إلى هذا الطرف من إسطنبول ، وبما أنه لن يكون من الصعب إيجاد إمام يزوجنا بعد المغرب ، وتستطيع باعتبارك زوجي أن تبقى معي ومع الولدين تحت سقف واحد ، وبهذا تنقذنا من قضاء الليل ونحن نستمع إلى قرقعة البيت مرتجفين ،

منتظرين ذلك الشيطان . وعندما نعلن صباحاً وفاة أبي أُنقذ أيضاً من السقوط على ألسنة الناس أنني امرأة مسكينة لا صاحب لها » .

قال لي قرة متفائلاً ، وبشيء من الطفولة : « نعم ، نعم ، سآخذك »

ألم أقل لكم! إنني لا أعرف سبب كلامي مع قرة بتعال ، وبعيداً عن العاطفة الصادقة ؟ الآن عرفت السبب . هذا لمعرفتي منذ الطفولة أنني لا أستطيع إقناع قرة - الذي أعرف تهوره - بالقيام بما أؤمن أنه من الصعب جداً عليه عمله إلا بهذه اللهجة .

أمامنا الكثير مما يجب أن نعمله لإتمام طلاقي ، والوقوف في وجه الذين سيدّعون أن زواجنا الذي سيعقد إن شاء الله غير صحيح ، وفي وجه الذين يرتكبون الجرائم كي لا ينتهي كتاب أبي ، وفي وجه أعدائنا ، ولكن عليَّ ألا أشوّش عقلك الأكثر تشويشاً من عقلي » .

قال قرة : « عقلك غير مشوش أبداً »

قلت : « لأن هذه ليست أفكاري . هذه أمور تعلمتها من أبي خلال نقاشنا في سنوات طويلة » كي يصدّق ما قلتُه ولا يعتقد أن هذه أفكار امرأة .

قال قرة ما يقوله الرجال كلهم عندما يجدونني ذكية :

« أنت جميلة جداً » .

قلت : « نعم ، أنا أستمتع بمديح ذكائي . أبي كان يقول هذا كثيراً عندما كنت صغيرة »

كنت سأقول إنه أقلع عن امتداح ذكائي بعد أن تطورت وعركتني الحياة ، ولكنني بدأت أبكي . عندما بكيتُ شعرتُ أنني امرأة أخرى انفصلت عني ، وأرى حياتي من الخارج وأبكي متألمة على حياتي كما يبكي قارئ وهو يقلب صفحات كتاب ويرى رسوماً مؤلمة . هنالك جانب بريء في الإنسان يجعله يرى همومه همومَ آخرين ، ويذرف الدموع من أجلها ، وهذا ما جعلني

أشعر بالطيب عندما احتضنني قرة . ولكن هذه المرة بقي الطيب بيننا عندما تعانقنا ، فهو لا يصل إلى محيط أعدائنا من حولنا أبداً .

* * *

٣٣
اسمي قرة

تسمرتُ وسط صمت بيت اليهودي المشنوق عندما ذهبت شكورتي الأرملة اليتيمة والحزينة بخطوات ناعمة كالزغب تاركة لي رائحة لوز وخيالات زواج . كان عقلي مشوشاً تماماً ولكنه يعمل بسرعة تجعله يؤلمني . وقبل أن أحزن كفاية لموت زوج خالتي عدتُ إلى بيتي بخطوات سريعة . جانب من عقلي تنخره دودة الشك فيقول إن شكورتي تخدعني وتستخدمني كجزء من لعبة كبيرة ، وجزء آخر لا يزيح خيالات الزواج السعيد من أمام عيني .

بعد أن أجبتُ على استنطاق صاحبة البيت التي أوقفتني عند العتبة محاولة معرفة : إلى أين ذهبت ، ومن أين عدت في هذا الوقت من الصباح الباكر ؟ دَخلت إلى غرفتي ، وأخرجتُ من داخل بطانة حزامي المخبوء وسط فرشتي اثنتين وعشرين ذهبية بندقية ، ووضعتها في كيس وأصابعي ترتجف . عندما عدت من جديد إلى الأزقة أدركت أن عيني شكورة المغرورقتين الحزينتين السوداوين لن تخرجا من عقلي طوال اليوم .

بداية ، صرفتُ خمسة أسودٍ بندقية لدى صرّاف يهودي دائم الابتسام . بعد ذلك عدت إلى الحي الذي لم أخبركم باسمه حتى الآن لأنني لا أحبه (أذكره الآن : ياقوت) والزقاق الذي ينتظرني فيه زوج خالتي الميت وشكورة وابناها وأنا غارق في أفكاري . وبينما كنتُ أسير في الأزقة وكأنني راكض

استهانت بي شجرة دلب عالية لأنني أخطط للزواج الرائع ، وأحلم به في يوم وفاة زوج خالتي وأسير وكأن أطراف ثيابي تقرع الأجراس . فجأة ، قال لي صنبور الحي الذي بدأ يخر ماء بعد أن ذاب الجليد عنه : «لا تهتم! جهّز أمورك واسع لسعادتك» ولكن قطة نحس سوداء تلعق في الزاوية حفرت في عقلي عبارة : «حسنٌ ، هنالك شبهة حول الجميع بقتل زوج خالتك بمن فيهم أنت» .

تركت القطة اللعق ، وفجأة التقت عيناي بعينيها السحريتين . وكما تعلمون فإن قطط إسطنبول تصبح وقحة لأن الأهالي يدللونها .

لم يكن الأفندي الإمام البادي في بيته نائماً لأن عينيه مغمضتين نصف إغماضة دائماً . رأيته في باحة جامع الحي ، وسألته السؤال القانوني الشائع جداً عن حالة ضرورة الشهادة وعن حالة كينونتها اختيارية ، واستمعتُ إلى جوابه الذي ألقاه بأداء متعال رافعاً حاجبيّ كأنني أسمعه أول مرة . شرح الأفندي الإمام أن الشهادة تكون اختيارية عندما يكون هنالك شهود كثيرون لحادثة ما ، أما إذا كان هنالك شاهد واحد فالشهادة عندئذ تصبح فرضاً .

تدخلت في الحديث قائلاً : «وهذه هي قضيتي» وتابعت أن شهود تلك الحادثة المعروفة كلهم يحتمون بذريعة هذا الوضع الاختياري ، ويتهربون ولأنهم لا يذهبون إلى المحكمة لا تسير أمور أولئك الناس الذين أساعدهم .

قال الأفندي الإمام : «إيه ، أنت فكّ رباط كيسك قليلاً» .

فككته ، وفرَجته ذهبيات البندقية . أنيرت باحة الجامع الواسعة ، وأنير وجهه ، وأنيرت وجوهنا بتأثير بريق الذهب .

عرّفته بنفسي ، وشرحت له : «الأفندي زوج خالتي مريض ، ويريد إعطاء حالة ترملّ ابنته صبغة رسمية ، وربطها بنفقة قبل أن يموت» .

لم تبق ضرورة لذكر نائب قاضي الأسكدار . قال الأفندي الإمام إن الحي

كله حزين لوضع شكورة خانم غير المحظوظة ، وحتى إنها تأخرت في هذا الأمر . اتفقنا على جلب الأفندي الإمام أخيه شاهداً ، وأن نجد الشاهد الثاني عند باب قاضي الأسكدار . والآن أكسب الثواب إذا أعطيت أخاه العارف همّ شكورة وولديها المحببين ، والساكن في الحي نفسه ، ذهبية . عرضت على الأفندي الإمام ليرتين على أن يعمل تخفيضاً من أجل الشاهد الثاني . اتفقنا ، وذهب الأفندي الإمام إلى أخيه .

بعد هذا أصبح جانب من جوانب يومي مثل حكواتية مقاهي حلب الذين رأيتهم يحركون أيديهم وأجسادهم وهم يقصون حكايات المطاردات . لا يأخذ خطاطو كتب الشعر ذي الشطرين تلك على محمل الجد كثيراً لمبالغة المغامرات والأحابيل فيها ولو كتبوها بخط جميل لهذا لا يرسمونها أو ينقشونها . أما أنا فقد جمعت مغامرتنا طوال اليوم في أربعة مواقف ، ونقشتها ، ورسمتها على صفحات عقلي .

في الموقف الأول : على النقاش أن يرسمنا وسط مياه البوسفور في مركب أحمر ذي أربعة مجاذيف نعبر فيه من (أون قبانِ) إلى أسكدار وسط الجدافين المفتّلي الشوارب ، المفتولي العضلات . الإمام وأخوه ممنونان من النزهة التي لم تكن في حسابهما يمازحان الجدافين ، وأنا محسوبكم في مقدمة المركب تتراءى لي أحلام الزواج السعيد اللامتناهية ، أنظر بتوجس إلى قاع مياه البوسفور البراقة أكثر من أي وقت في صباح يوم شتوي مشمس ، والمتدفقة نحو إشارة نحس ، ولتكن مثلاً حطام سفينة قرصان ، من جهة أخرى مهما عبّر النقّاش عن رؤاي السعيدة ، بألوان وردية ، يجب أن يضع شيئاً مظلماً يوازن مخاوفي الكبيرة ، وليرسم مثلاً سمكة مخيفة في قاع البوسفور لكي لا يعتقد قارئ حكايتنا أن كل شيء مضيء ووردي .

رسمنا الثاني : يجب أن يكون مفصلاً ، ومزدحماً ، ومنظماً جيداً يطول

دقة بهزاد كرسوم قصور السلاطين ، واجتماعات الدواوين ، وقبول سفراء الأفرنج ، أي يجب أخذ الممازحة والسخرية بعين الاعتبار . أي أن القاضي أفندي في زاوية ، وبإحدى يديه يقول لي إزاء الرشوة التي أقدمها له : قف ، مستحيل ، وبيده الأخرى يدسَ الذهبيات البندقية بشكل خجول في جيبه ، وفي الوقت نفسه يرسم الأمر الناتج عن الرشوة ، أي عملية جلوس نائب القاضي الشافعي شهاب أفندي مكان قاضي الأسكدار . لا يستطيع سوى النقاش الذكي حلَ الأحداث المتعاقبة زمنياً في رسم واحد بمكر من خلال توزيع الصفحة . وهكذا فإن العين التي ترى أنني دفعت الرشوة ، وأن المتربع على بساط القاضي هو النائب فإنها دون قراءة الحكاية ستفهم أن الأفندي القاضي عندما دس الذهبيتين البندقيتين في جيبه ترك مكانه لنائبه الشافعي لكي يطلّق شكورة .

يجب أن يظهر الموقف نفسه في الرسم الرابع ، ولكن هذه المرة يجب استخدام تزيينات الأسلوب الصيني الأكثر كثافة وتلوياً في نقوش الجدران ، وتلوينها بلون أدكن ، ووضع غيمات ملونة وحائرة فوق نائب القاضي لتفهم أن قضيتنا تمثيلية . ويجب إظهار الإمام وأخيه وشكورة الحزينة أمام نائب القاضي جميعاً في وقت واحد على الرغم أن كل واحد منهم وقف أمامه وحده ، وكلام شكورة عن عدم عودة زوجها من الحرب منذ أربع سنوات ، ومعاناتها من الفقر لعدم إعالته لها ، وعدم تقدم أحد لطلبها لوجود ولدين يتيمين جائعين باكيين ليمنح الأبوة لذنيك الولدين ، وعدم تقديم أحد ديناً لها دون إذن زوجها -كلامها يبكي الجدران الصَماء ، ولكن النائب الذي لا قلب له يتجاهل كل شيء فيسأل : من هو وليّ شكورة ؟ وبعد قليل من الارتباك قفزت نحوه قائلاً : والدها المحترم - الذي عمل لدى سلطاننا جاويشاً وسفيراً - حيٌ .

قال النائب : « لا أطلقها أبداً دون أن يأتي إلى المحكمة »

وبانفعال شرحتُ له أن الأفندي زوج الخالةِ طريح الفراش ينازع الروح ، وأن أمنيته الأخيرة من الله أن يرى ابنته مطلقة ، وأنني وكيله .

قال النائب : « ماذا يحدث إذا طلّقت ؟ لماذا يلح كل هذا الإلحاح رجل على حافة الموت من أجل طلاق ابنته من زوجها الذي غاب منذ فترة طويلة في ساحة الحرب ؟ ها . . . إذا كان هنالك قسمة ونصيب مرشح جيد لتزويجه من ابنته سأتفهم هذا لكي لا يبقى قلقاً على ابنته » .

قلت : « نعم ، موجود يا نائب أفندي » .

« من هو ؟ »

« أنا »

قال نائب القاضي : « أممكن هذا ؟ أنت وكيل الولي . ما هو عملك ؟ »

« أنا أعمل في الولايات الشرقية لدى الباشاوات كاتباً ومراسلاً ، ومحاسباً ، وقد أنجزت تاريخ حروب العجم لأقدِمه لسلطاننا ، وأفهم في الرسم والنقش ، وأتحرّق بعشقِ هذه الفتاة منذ عشرين سنة » .

« هل أنت قريبها ؟ »

خجلت من سقوطي في موقف مقبِّل يد النائب وأثوابه ، وفضح أسرار حياتي كلها كمجموعة أغراض على طاولة النائب . فسكت .

« أجب بدلاً من أن تحمرّ مثل الشمندر وإلا فلن أطلقها » .

« إنها ابنة خالتي » .

« هم م م م ، فهمت . هل تستطيع إسعادها ؟ »

وفي أثناء سؤاله أشار بيده إشارة غير مؤدبة . على النقاش ألا يرسم تلك البشاعة . يكفي أن يظهر مقدار احمرار وجهي .

« دخلي جيد »

قال الأفندي النائب : «لأنني من أتباع المذهب الشافعي فلن أجد ما يعارض كتابي ومعتقدي في طلاق شكورة المسكينة هذه التي لم يعد زوجها من الحرب منذ أربع سنوات . طلقتها . لم يعد يستطيع زوجها مطالبتها بحق حتى لو عاد من الحرب» .

أما الرسم الذي يلي هذا أي الرابع فيجب أن يظهر النائب وهو يحرّك جيش الحروف المطواع بين يديه بالحبر الأسود ، وتسجيل طلاق شكورة في السجل ، ويمهر الورقة التي تبين وضع شكورة ، وعدم وجود مانع من زواجها مرة أخرى ، ويناولني إياها . لا اللون الأحمر الذي يصبغ فيه الجدران ، ولا وضع الرسم ضمن إطارات حمراء دموية تستطيع التعبير عن البريق الداخلي لسعادتي في تلك اللحظة . وخروجي في طريق العودة وسط مشكّلي الزحام أمام باب القاضي ممن يريدون تطليق أخواتهم أو بناتهم ، ومن شهود الزور .

عندما عبرنا البوسفور . ونزلنا في حي (ياقوت) طفّشت شقيق الإمام المتفهم الذي طلب عقد زواجنا . ذهبت إلى زقاق بيت شكورة راكضاً لأنني أدرك أن كل من ألتقيه في الزقاق يغار من سعادتي اللا متناهية التي سأصل إليها . كيف فهمتْ غربان النحس أن ثمة ميتاً في الداخل لتتقافز على الجدران فرحة ؟ أشعر أن قلبي ينعصر لعدم الحزن بما فيه الكفاية من أجل زوج خالتي ، وعدم ذرف دمعة لموته . أدركت فوراً من خلال سحابات نوافذ البيت المغلقة جيداً ، وبابه ، وصمته ، وحتى من شجرة الرمان أن كل شيء على ما يرام .

في تلك اللحظة لا بد أنكم شعرتم بإحساسكم الداخلي أنني تسرّعت . التقطتُ حصاة من الأرض وقذفتها إلى الباب المؤدي إلى الفسحة ، ثم أطلقت صفيراً . قذفت حصاة أخرى نحو البيت فأصابت السطح ، ثم أمطرت البيت حجارة بغضب . فجأة فتحت نافذة . إنها نافذة الطابق الثاني التي رأيت فيها

شكورة أول مرة من بين أغصان شجرة الرمان قبل أربعة أيام ، أي يوم الأربعاء . ظهر فيها أورهان ، وسمعت شكورة تؤنب أورهان . بعد ذلك رأيتها . للحظة تبادلنا النظر حسناني وأنا ، وكم كان ذلك جميلاً وممتعاً . أشارت إليَ بمعنى «انتظر» ثم أغلقت سحاب النافذة .

ثمة وقت طويل للمغرب . انتظرت مفعماً بالأمل ، معجباً بالحديقة الفارغة والأشجار والزقاق الطيني . وقبل مرور وقت طويل خرجت خيرية بثياب وغطاء تبديها سيدة محترمة وليست جارية . وقبل اقترابنا من بعضنا البعض انسحبنا خلف أشجار التين .

قلت لها : «كل شيء على ما يرام» وفرّجتها الورقة التي أخذتها من القاضي . وكنت سأقول لها : «أصبحت شكورة مطلقة ، وسأجلب الآن إماماً من الحي الآخر . . . .» ولكنني قلت لها : «الإمام قادم ، لتستعد شكورة» .

«تريد شكورة أن تعمل دورة عروس ولو صغيرة ، وأن يأتي أهل الحي ويتناولون طعام العرس . أعددنا في الحلة أرزاً بالمشمش المجفف واللوز» .

لعلها كانت ستحكي لي بانفعال عما طبختا ، ولكنني قاطعتها قائلاً : «إذا أصبح العرس متشعباً ومتفرعاً إلى هذا الحدّ ، سيعلم حسن ورجاله بالأمر ، ويداهمون البيت ، ويعملون فوضى ، ويبطلون العرس دون أن نستطيع عمل شيء . وهكذا (يخرب كيساً من التين) علينا ألا نحذر من حميها وابنه فقط ، بل من الشيطان قاتل الأفندي زوج الخالة أيضاً . ألا تخافون ؟»

قالت : «ألا نخاف ؟» وبدأت تبكي .

قلتُ : «لا تخبرا أحداً . واحملا زوج الخالة ، وألبساه منامته ، ومدداه في الفراش على أنه مريض وليس ميتاً ، وضعا بجانبه كؤوساً وشربات ، وأغلقا سحاب النافذة ولا تضعا في غرفته مصباحاً كي يكون وليَ شكورة أباها

المريض . ولا يمكن عمل دورة عروس . في اللحظة الأخيرة ادعيا بعض الجيران وكفى . وعند توجيه الدعوة تقولين إن هذه رغبة الأفندي زوج الخالة الأخيرة . . . وسيكون عرساً دامعاً وليس سعيداً . إذا لم ننجز هذا سيشتتوننا ، ويعاقبونك أنت أيضاً ، أتفهمين ؟ .

هزّت رأسها باكية . قلت لها إنني سأركب حصاني الأبيض ، وأجلب الشهود ، وآتي إلى البيت بعد قليل ، ولتكن شكورة جاهزة . بعد الآن أنا سيد البيت وأنا ذاهب إلى الحلاق الآن وكل هذا لم أخطط له من قبل . كان يخطر ببالي وأقوله في اللحظة نفسها كما يحدث في بعض الحروب . وكنتُ مؤمناً بأن الله يحبني كثيراً ، ويحفظني ، ويحميني لهذا فإن الأمور ستسير في نصابها . إذا شعرتم بهذا الإحساس داخلكم تعملون ما يخطر ببالكم ، وما تدركون أنه صحيح ، وتثبت صحته .

سرت من حي الياقوت نحو الخليج عابراً أربعة أزقة إلى الحي المجاور . قابلت إمام جامع ياسين باشا ذي اللحية السوداء والوجه المنور في باحة الجامع الطينية بيده عصا مكنسة يطرد الكلاب النجسة . شرحت له همي قائلاً إن والد ابنة خالتي يحتضر وسأتزوجها بناء على رغبته الأخيرة ، وإن الفتاة طُلقت هذا الصباح من زوجها غير العائد من الحرب منذ أربع سنوات بموجب قرار قاضي الأسكدار ، ورداً على اعتراض الإمام بأن الزواج بناء على حكم الشرع لا يمكن أن يتم من مطلقة إلا بعد انقضاء عدتها ، قلت له إن زوج شكورة السابق غير موجود منذ أربع سنوات لهذا من غير الممكن أن يجعل زوجته حاملاً ، وهذا أساساً السبب الذي استند إليه قاضي الأسكدار لتطليقها ، وأريته الورقة التي حصلت عليها . قلت يجب أن يثق الأفندي الإمام بأنه ليس ثمة مانع من الزواج . نعم العروس قريبتي ، ولكن ليس هنالك ما يحرم الزواج من ابنة الخالة ، فقد انتهى الزواج السابق بشكل تام ،

وليس بيننا أي فرق في الدين أو المستوى أو المال . قبل الذهبيات التي مددتها له سلفاً . قلت له إنه سيكسب ثواباً إذا عقد قراناً في عرس يتم علناً على مرأى من أهل الحي كله من أجل يتيمي الأرملة . هل يحب الأفندي الإمام الأرز بالمشمش المجفف واللوز يا ترى ؟

يحبه ، ولكن عينيه كانتا متوجهتين نحو باب باحة الجامع . أخذ الذهبيات على أن يذهب ويرتدي ثياب العرس ، ويعتني بشعره ولحيته وطربوشه الطويل ، ثم يأتي لعقد القران . سأل عن البيت ، وعرفته له .

مهما كان العرس المتخيل على مدى اثنتي عشرة سنة مستعجلاً ماذا يمكن للعريس أن يعمل سوى نسيان كل هذه الإعدادات ، وترك نفسه بين يدي حلاق حنونتين، لثرثرته اللذيذة ؟ الحلاق الذي قادتني إليه قدماي تلقائياً هو في زقاق البيت الخرب في حي الأقسراي والذي تركه المرحوم زوج خالتي وشكورتي الجميلة بعد طفولتنا بسنوات طويلة ، ومن ناحية السوق . الحلاق الذي التقيته في اليوم الأول لمجيئي قبل خمسة أيام . عانقني هذه المرة ، وعمل ما يعمله حلاّق اسطنبولي حقيقي ، وبدأ الحديث سائلاً عن المكان الذي غبت فيه اثنتي عشرة سنة معرجاً على آخر شائعات الحي ، والمكان الذي سنصل إليه جميعاً بعد هذا السفر المسمى حياة .

لن أستطيع القول إنني لم أشعر بفترة غياب مدتها اثنتا عشرة سنة ، وشعرت أنها اثنا عشر يوماً . تقدم الحلاق في السن ، يتضح هذا من يديه المبقعتين بالنمش والمتراقصتين ارتجافاً على خديَ وهما تحملان الموسى . لا بد أنه تعلق بالمشروب بشكل مفرط ، ويشغّل لديه (صانعاً) وردي البشرة جميل الشفتين ، أخضر العينين ينظر إلى يدي معلمه بإعجاب . ثمة نظافة وتنظيم أكثر مما كان عليه قبل اثنتي عشرة سنة . علّق السطل الممتلئ بالماء الساخن لغسل الشعر والوجه من صنبور في قعره بسلسلة جديدة في

السقف . أوعيته الكبيرة القديمة مبيّضة ، وموقده نظيف وغير صدئ ، وموساه ذات المقبض العقيقي حادة . يلفّ وسطه مئزراً نظيفاً من الحرير بينما كان لا يربط واحداً قبل اثنتي عشرة سنة . فكرت أنه عندما شغّل لديه هذا الصانع الطويل نسبة إلى عمره ، الظريف ، صاحب الجسم الليّن ، هندم نفسه ، ونظّم دكانه . تركت نفسي لمتعة الحلاقة وروائح الورد والماء الساخن وأنا أفكر أن الزواج لا ينظّم بيت العازب فقط ، بل دكانه أيضاً ، أي أنه يمنحه حيوية وبركة .

لا أدري كم قضيت من الوقت بين أصابع الحلاق الماهرة ، وفي حرارة الدكان الصغير الذي يدفئه الموقد . وبينما كنت عازماً على الحركة شاكراً الله على عطائه الأكبر فجأة مما منحني اليوم بعد كل هذا الشقاء ، ومفكراً بميزانه العجيب الذي يزن به عالمه الذي خلقه ، وشاعراً بالألم والأسى من أجل زوج الخالة المتمدد ميتاً في فراشه في البيت الذي سأصير سيده بعد قليل ، وإذ بحركة عند باب دكان الحلاق المفتوح ، التفتّ نحو الصوت وإذ شوكت!

بموقف منهمك ولكنه واثق من نفسه ناولني ورقة . قرأتها دون أن أقول له شيئاً متوقعاً أسوأ الأخبار ، وداخلي يرتجف بتأثير الريح الباردة :

« إذا لم تكن ثمة دورة عروس فلن أتزوج - شكورة »

جررت شوكت من ذراعه بقوة وحملته . وددت لو أستطيع كتابة : « على الرأس والعين يا حبيبتي » لشكورتي ، ولكن ما شغل القصبة والحبر في دكان حلاق لا يعرف القراءة والكتابة ؟! وهكذا ، وبحسابات الحيطة همست في أذن شوكت أن يقول لأمه : « حسنٌ » وبهمس مماثل سألته عن جده .

« إنه نائم »

أنا أفهم الآن أن شوكت والحلاق وأنتم تشكون بي (طبعاً شوكت يشك بأمور أخرى) في مقتل زوج خالتي . يا للأسف! قبلته غصباً عنه . ذهب

شوكت غير مسرور مني . وفي أثناء العرس كان ينظر إليّ بعداء .

بما أن شكورة لن تذهب من بيت أبيها إلى بيت عريسها ، بل على العكس أنا دخلت إلى بيت أبي شكورة صهر بيت ، فقد كانت دورة العروس مناسبة لهذا الوضع الخاص . طبعاً ، وضعي لا يسمح أن أجلب أصدقائي وأقربائي الأغنياء مرتدين أفضل الحلل راكبين الخيول ليقفوا عند باب بيت شكورة كما يعمل الآخرون . ولكنني اصطحبت الحلاق الذي دمعت عيناه عندما قدم صديقان قديمان منذ أيام الطفولة صادفتهما في أثناء الحلاقة (أحدهما كاتب مثلي ، والآخر يدير حماماً) . ركبت حصاني الأبيض الذي اشتريته في اليوم الأول لمجيئي ، ووقفت مع مجموعة عند باب شكورة وكأنني سآخذها من بيتها إلى بيت آخر ، وحياة أخرى .

أنقَذتُ خيرية التي فتحت الباب بقشيشاً كبيراً . ترتدي خيرية لباساً عرائسياً أحمرَ ، ويغطيها من رأسها إلى قدمها (غربول) زهري عرائسي . ووسط البكاء وأصوات المشادات (امرأة تصرخ على الأولاد) والعويل ، والفأفأة . وعبارات : «ما شاء الله» خرجت شكورة من البيت ، وركبت بمهارة على حصان أبيض آخر جلبته معي . وفي اللحظة الأخيرة أشفق الحلاق عليّ فاستأجر طبالاً وزماراً سارا أمامي يعزفان لحناً عرائسياً . عندئذ سارت (عراضة) العروس المتواضعة والمهمومة والمغرورة .

لحظة تحرُّك حصانينا أدركتُ أن دورة العروس ترتيب ماكر من تلك الترتيبات التي تعدّها شكورة دائماً من أجل جعل العرس أصلب . وبفضل دورة عرسنا أعلن زفافنا على كل من في الحي ولو في اللحظة الأخيرة ، وهكذا بما أن الجميع سيبدون موافقين على العرس ستقل أهمية الاعتراضات لاحقاً . من جهة أخرى فإن الإعلان بهذا الوضوح أننا نزفّ ، وعمل عرس بهذا الاستعراض تحدياً لأعدائنا ولزوج شكورة السابق وأهله ، وسيضع زواجنا في

خطر منذ الآن . لو بقي الأمر لي كنا سنتزوج سراً ، ودون إعلان هذا الأمر على أحد ، ودون عرس ، وأدافع عن زواجنا بعد أن أغدو زوجها .

في أثناء مسير العراضة في أزقة الحي كنت على ظهر حصاني الأبيض المتراقص في مشيته كأنه خارج من الحكايات ، وكانت عيناي تبحث بخوف عن حسن ورجاله في فتحة زقاق أو ظلمة مدخل بيت . لم أر أمام الأبواب ، وعند أسفل الجدران سوى المسنين وبعض الشبان من أبناء الحي الذين يتفرجون على عراضة عرسنا الغريبة بدهشة ولكن دون احتقار ، كما رأيتُ بعض الغرباء الذين وقفوا وحيّونا . ودون رغبة دخلنا السوق الصغير ، وبين ألوان السفرجل والجزر والتفاح سار وراءنا بعض الرجال ، وأدركتُ من صرخات الخضري : «ما شاء الله» وَمن ابتسامة السمان المهموم ، ومن نظرات الخباز الموافقة وهو يجعل صانعه يكشط حروق المعمولات ، فهمت أن شكورة تحرّك شبكة الشائعات بمهارة ، وأن طلاقها ثم زواجها مني سيلاقي قبولاً سريعاً في الحي . ولكنني من جهة أخرى كنَت متحفزاً لمداهمة سيئة غير متوقعة ، أو تسميع كلمة لا معنى لها أو ذات معنى سيء . لهذا السبب لم أكن مستاءً من مجموعة الأولاد الصارخين والمازحين الذي لحقوا بنا عند خروجنا من السوق للحصول على البقشيش . وكنت أدرك أن هذا الزحام الذي جلب لنا المرح والضجيج يحمينا ، وأنه يمنح زواجنا موافقة من خلال ابتسامات النساء التي كنتُ ألاحظها وراء سحابات النوافذ وشبكها على شكل ظلال .

في النهاية كانت عيناي على الطريق الذي سننعطف منه للعودة إلى البيت لله الشكر ، ولكن قلبي كان عند شكورة ، ومع همومها . لم يكن هذا بسبب سوء حظها لاضطرارها للزواج يوم وفاة أبيها ، بل ما أحزنني عليها هو قلة مباهج العرس وتواضعه إلى هذا الحد . يليق بشكورتي عرس فيه

خيول أعنتها فضية وسروجها مطرزة ، وعلى تلك الخيول فرسان يرتدون ألبسة من فراء السمور والحرير مطرزة بالذهب ، ومئات العربات المحملة بالهدايا وجهاز العرس ، ومئات من بنات الباشاوات وأسرة السلطان مرتديات أثوابهن ذات الأقمشة الفضفاضة العريضة في عرباتهن ، وازدحام غنيّ كذلك الذي تحكي عنه نساء الحرم العجائز . ليس ثمة أربعة من الخدم يحملون حصانها على خشبة مثبتة من أطرافها الأربعة بحوامل وهي مغطاة بحرير أحمر بلون الدم يحميها من حسد عيون الفتيات الغنيات ، كما أنه ليس ثمة خدم ، وشموع أعراس كبيرة مزينة بالفاكهة والذهب والفضة والأحجار والأشرطة اللماعة ، وأشكال النخيل ، ولأن عراضة عرسنا لا تحمل جانباً محترماً كان الطبال والزمّار يسكتان الطبل والزمر أحياناً ، ولأنه لا يوجد في المقدمة من يقول : «ابتعدوا ، ابتعدووووا ، العروس قادمة» كانت تختلط عراضتنا بزحام السوق ، وبالخدم الذين يملؤون الماء من صنبور الساحة ، ولهذا شعرتُ بأسى يكاد يدمع عيني أكثر مما شعرت بالخجل . في لحظة من لحظات عودتنا إلي البيت واقترابنا التفتُ إلى الخلف بحصاني بجرأة ، نظرتُ إلى شكورة وهي مغطاة بغربولها الزهري وثوبها الأحمر الدموي لأتفرج على حزنها لهذه العراضة التي لا تليق بها ، ولكنني عندما رأيتها في حالة من الارتياح لأننا عدنا ، وقطعنا طريقنا دون بلاء أو حادث شعرتُ بالراحة أنا أيضاً . أنزلت العروس التي سأعقد عليها القران بعد قليل عن حصانها ، وتأبطتها من ذراعها كما يفعل العرسان جميعاً ، وأخرجتُ كيس نقودي ، وبدأت أنثر القروش الفضية قبضة قبضة ببطء لكي يستمتع كل من يرى المشهد . وبينما كان الأولاد السائرون وراءنا طوال العراضة الحزينة يجمعون القروش الفضية متدافعين ، دخلنا من حوش الدار وبعد أن عبرنا الفسحة الحجرية داخلين إلى البيت ، شعرنا برائحة الجثة القوية .

بينما كان جماعة عراضة العرس يتوزعون في البيت ، ورأيتُ أن شكورة كالنساء الأخريات والعجائز والأولاد تتصرف وكأن الرائحة غير موجودة (كان أورهان ينظر إليَ من الزاوية بشك) شككت بنفسي لحظة ، ولكن رائحة الأجساد في ساحات الحرب ممزقة الألبسة ، مخلوعة الأحزمة والأحذية ، ومأخوذة ، وغدت عيونها طعاماً للديدان والطيور مكشوفة للشمس أحسستُ بها في فمي وبلعومي ورئتيَ حتى كادت تخنقني ، لهذا السبب فأنا واثق من عدم خطئي .

في الأسفل ، في المطبخ سألتُ خيرية عن مكان الأفندي زوج الخالة ، وكيف تفوح رائحته في البيت إلى هذا الحد ، وأن كل شيء سيفهم مع هذا الوضع . لم يكن قولاً ، بل كان أخف من الهمس . من جهة أخرى تعلَق في ذهني أنني لأول مرة أخاطب خيرية بصفتي سيدها .

قالت المرأة باكية : «مددناه في فراشه وألبسناه منامته ، وسحبنا فوقه اللحاف ، ووضعنا بجانب رأسه كؤوساً فيها شرابات . وإذا كانت تنبعث منه رائحة فمن الموقد في الغرفة» .

سقطت دمعتاها في الحلة التي تقلي فيها لحم خروف . في البداية أحسستُ من بكائها أنها كانت تُدخل الأفندي زوج الخالة إلى فراشها ليلاً ، ولكنني بعد ذلك خجلت من تفكيري هذا . كانت إستر تمضع شيئاً ما في زاوية المطبخ صامتة بلعته ، ونهضت .

قالت : «أسعدْ شكورة ، اعرفْ قيمتها» .

شعرت بصوت العود ذاك الذي شعرتُ به عندما كنت أتجول في أزقة اسطنبول في اليوم الأول لمجيئي . ولكن في نغمته ثمة حياة أكثر من الكدر . كانت تلك الموسيقى أيضاً في داخلي عندما كان الأفندي الإمام يعقد قراني على شكورة في الغرفة المظلمة التي ينام فيها زوج خالتي مرتدياً منامته .

كانت خيرية قد هوت الغرفة بلمح البصر ، ووضعت القنديل في زاوية تمنع وصول الضوء إليه ليبدو زوج خالتي مريضاً ، وليس جسداً ، ولهذا كان وليَ شكورة في أثناء القران ، والشاهدان هما صديقاي الحلاّق ، ورجل مسنٌ عارف بهذه الأمور ، جاء من المحكمة . وفي أثناء مراسم القران التي انتهت بأمنيات الإمام ونصائحه ، ودعاء الجميع ، قال العجوز وهو يهز رأسه مدلاً بعمق معرفته إن زوج خالتي مريض جداً مشتبهاً بوضعه . قفزت فور انتهاء الإمام وأمسكت بذراع زوج خالتي المتصلّب ، وبقوتي كلها ، هززتها ، وقلت صارخاً :

« لا تقلقوا يا سيدي زوج خالتي العزيز! سأعمل ما بوسعي لأجعل شكورة وولديها شبعانين ، مكرمين ، محبوبين » .

بعد ذلك تصرّفت وكأن زوج خالتي في فراشه المريض يهمس في أذني حول بعض الأمور مقرّباً أذني من فمه منصتاً إليه باهتمام ، وبالشكل الذي يستمع فيه شاب لشيخ من الأعيان باحترام شديد ، ويقدم هذا الشيخ نصائح سحرية تلخّص تجربته الحياتية كلها . وأنا أستمع إليه محملقاً ومنصتاً . تبادل الأفندي الإمام والشيخ ابن الحي نظرات تفيد معنى الإعجاب بموقفي المستمع إلى نصائح حمي المتمدد على فراش الموت ، وباحترامي وطاعتي له . آمل ألا يفكر أحد بأن ثمة إصبعاً لي بمقتل زوج خالتي .

قلتُ لضيوف العرس ! الرجل المريض بحاجة إلى البقاء وحده . أفرغوا الغرفة ، وبينما كنتُ أعبر إلى الغرفة الثانية من أجل تناول لحم الخروف مع الأرز الذي طبخته خيرية (الآن أنا أخلط بين رائحة الجثة ، ورائحة اللحم المقلي مع رائحة الليمون والزعتر) صعدتُ إلى الموزع ، ودون تفكير كمن يمشي في بيته بشكل لا واع ، فتحتُ باب غرفة خيرية ، ودخلتُ لا مبالياً بالنساء اللواتي دهشن لدخول رجل إليهن ، ونظرت بلطف إلى عيني شكورة

الضاحكة سعادة ، وقلت لها :

« والدك يناديك يا شكورة ، عُقد قراننا ، عليك أن تقبَلي يده » .

شعرتُ من نظرات بعض فتيات الحي المدعوات في اللحظة الأخيرة من أجل جعل علنية العرس أسلم أنهن قريبات ، وأظهرن أنهن يلملمن أنفسهن ، وينزلن أغطية وجوههن ، وفي الحقيقة كن يرصدن بدقة .

بعد مدة تناول المدعوون إلى العرس طعامهم ، وحلويات معقود السكر باللوز والجوز والقرنفل ، وغادروا قبل مضي وقت صلاة المغرب . دموع شكورة التي تذرف كل فترة ، ومشاغبة الولدين وشجارهما كانت تقضي على فرحة الأولاد في غرفة النساء ، وفسّر الجيران والضيوف عدم ضحكي ، وكدري ، وصمتي ليلة العرس بحزني على زوج خالتي المريض . الأمر المحفور بشكل أعمق في ذاكرتي وسط تلك الهموم كلها هو أننا عندما بقينا في غرفة زوج الخالة وحدنا من أجل تقبيل يده قبل الطعام . قبلنا يده الباردة والمتشنجة باحترام شديد ، بعد ذلك انزوينا في زاوية الغرفة ، وتبادلنا القبلات بشكل كثيف وكأننا نشرب الماء . للسان زوجتي الذي نجحت بالتقاطه في فمي طعم معقود السكّر الذي يتناوله الأطفال كثيراً .

* * *

٣٤

أنا شكورة

خيّم صمتٌ طويل بعد أن ذهب الجميع . لبست ضيفات العرس أحذيتهن ، وتغطين ، وخرجن ساحبات أولادهن المتناولين آخر قطع معقود السكر ، وخرجن من باب الحوش . كنا جميعاً في الفسحة . لا يُسمع أي صوت سوى نقر عصفور يشرب بانتباه شديد من دلو الجب الممتلئ نصفه . عندما غاب في الظلام ذاك الطائر الصغير الذي كان يظهر من خلال سقوط ضوء وهج نار الموقد على رأسه الصغير بريشه الناعم ، وشعرتُ متألمة بأبي المتمدد ميتاً في فراش غرفته في بيتنا الفارغ المتداخل مع الظلام .

بعد ذلك ، وبنبرة يعرف أورهان وشوكت جيداً أنني عندما أنده لهما بها أن ثمة ما سأعلنه عليهما : «يا أولاد! . . . تعالا» .

جاءا .

«صار أبوكما قرة ، قبلا يده»

قبّلا يده بصمت وأدب . قلتُ لقرة : «ولداي لا يعرفان كيف يطاع الأب ، وكيف يسمعان كلامه وهما ينظران إلى عينيه ، وكيف يثقان به لأن يتيميَ كبرا دون أب . لهذا إذا لم يحترماك ، وإذا تصرّفا معك بشكل غريب ، أو ببراءة ، أو طفولة أعرف أنك ستسامحهما ، وتعزو هذا إلى ترعرعهما دون رؤية أبيهما أو تذكره» .

قال شوكت : «أنا أتذكر أبي»

قلت له : «هس س س . . . اسمع ، بعد الآن صارت كلمة قرة بالنسبة إليكما أعلى من كلمتي» ثم التفتُ إلى قرة وقلت : «إذا لم يسمعا كلمتك أو قللا أدباً معك ، أو أبديا أدنى إشارة لعملٍ هذا ، نبههما في البداية واعف عنهما» . متخلية في اللحظة الأخيرة عن ذكر الضرب : «يجب أن تكون مكانتهما في قلبك مثل مكانتي تماماً» .

قال قرة : «أنا تزوجتك ليس من أجل أن أصير زوجك فقط ، بل من أجل أن أصير أباً لهذين اليتيمين المحببين» .

«سمعتما ؟»

قالت خيرية وهي متنحية جانباً : «اللهم لا تحرمنا من نورك أبداً يا رب ، الله احفظنا يا رب» .

قلت : «سمعتما ، أليس كذلك ؟ أحسنتما يا ولديَ الحلوين . إذا أحبكما أبوكما بهذا الشكل ، وخرجتما عن طاعته في لحظة ما فهو سيعفو عنكما في البداية» .

قال قرة : «وسأعفو عنهما مرة ثانية أيضاً» .

قلت : «ولكن إذا عملا عملة نبهتهما ألا يعملاها للمرة الثالثة ستستحقان العصا . فهمتما ؟ أي أن أباكما قرة عاد من أمكنة أسوأ من غضب الله ، أي الحروب تلك التي ذهب إليها المرحوم أبوكما ولم يعد . ولهذا فهو قاس . لقد دللهما جدهما ، وجعلهما يجلسان فوق رأسه . جدكما الآن مريض جداً» .

قال شوكت : «أريد الذهاب إلى جدي» .

«إذا لم تسمعا الكلام سيعلمكما قرة جيداً أن العصا من الجنة . عندئذ لن يستطيع جدكما تخليصكما من يدي قرة كما كان يخلصكما من بين

يدي . إذا أردتما عدم إغضاب أبيكما منكما ، عليكما ألاّ تتشاجرا ، وتتقاسما كل شيء ، وألا تكذبا ، وأن تدعوا أدعيتكما ، وتحفظا ما يجب حفظه قبل النوم ، وألا تقولا لخيرية كلاماً سيئاً ساخرين منها . . . فهمتما ؟ »

انحنى أسود واحتضن أورهان فجأة ، ولكن شوكت وقف بعيداً . في تلك اللحظة أردت أن أحتضنه وأبكي . يا يتيمي الحزين المسكين ، ويا شوكتي الذي لا أحد له ، كم أنت وحيد في هذه الدنيا ؟! وفي لحظةٍ شعرت أنني طفلة صغيرة مثل شوكت ، وحيدة في هذه الدنيا ، واختلطت في عقلي طفولة شوكت ومسكنته مع طفولتي ، فشعرت بالرعشة . لأن التفكير في طفولتي ذكّرني كيف كنت أصعد إلى حضن أبي كما يصعد أورهان الآن إلى حضن قرة ، ولكنني لم أكن غريبة هناك كالفاكهة معلقة على غير شجرتها كما يجلس أورهان الآن ، بل كنت أجلس بنشوة ، ونتشمشم بعضنا بعضاً أبي وأنا مثل الكلاب . كدت أبكي ، أمسكت نفسي ، وقلت على الرغم أنني لم أفكر بهذا من قبل :

« هيا ، قولا لقرة : يا بابا » .

كم كان الليل بارداً ، وكم كانت باحة دارنا صامتة . كانت الكلاب تطلق نباحاً حزيناً بعيداً جداً . مر قليل من الوقت ، وخيم الليل والصمت مثل زهرة تتفتح دون أن تترك أحداً ينتبه إليها .

بعد مرور وقت طويل : « هيا يا أولاد . لندخل إلى البيت لكي لا نبرد » .

لسنا وحدنا – أي العريس والعروس – من يخاف البقاء وحده بعد العرس ، ودخلنا جميعاً قرة وأنا والولدان وخيرية مترددين كأننا ندخل بيت ناس آخرين مظلماً . في الداخل كانت ثمة رائحة جسد ، ولم تكن هذه

الرائحة غير منبهة أحداً . في أثناء صعودنا الدرج بصمت كانت الظلال المتشكلة على السقف من القناديل التي نحملها تختلط مع بعضها بعضاً وهي تدور ، وتكبر تارة وتصغر أخرى ، ولكنني شعرت بأن هذا يحدث لأول مرة . وبينما كنا نخلع أحذيتنا في الأعلى عند الموزع ، قال شوكت : «هل أقبّل يد جدي قبل أن أنام ؟» .

قالت خيرية : «أنا نظرتُ إليه قبل قليل . جدك متألم ومتضايق جداً ، فقد سكنته الأرواح الشريرة بقوة ، ولفّت حرارة المرض كل جزء منه . ادخلا إلى غرفتكما ، وتمددا في فراشكما»

كانت خيرية قد أدخلتهما إلى الغرفة . تبدو وكأنها تنجز عملاً رائعاً وهي تفرش الفرشات ، وتفتح الأغطية واللحف ، وتعمل أي عمل . كانت تقول إن النوم في منتصف هذه الليلة في هذه الغرفة الدافئة وعلى هذه الأغطية النظيفة ، وتحت لحف ريش الطير الدافئة هذه مثل النوم في قصر السلطان .

قال أورهان وهو جالس على المقعدة : احكي لنا حكاية يا خيرية!»

قالت خيرية : «في أحد الأيام كان يوجد رجل أزرق ، وله صديق حميم جداً من الجان»

قال أورهان : «لماذا الرجل أزرق ؟»

قلتُ : «كرمى لله يا خيرية ، لا تحكي هذا المساء حكايات عن الجان والأشباح» .

قال شوكت : «لماذا لا تحكي ؟ ماما هل ستنهضين من عندنا بعد أن ننام وتذهبين إلى جدي ؟»

قلت : «جدكم مريض جداً ، الله يحفظنا . طبعاً سأذهب إليه في منتصف الليل لكي أراه ، ولكنني سأعود إلى فراشكما» .

قال شوكت : «لتذهب خيرية إلى جدي ، ألا تعتني خيرية بجدي

ليلاً » .

قالت خيرية لأورهان : « هل انتهيت ؟ » وبينما كانت تمسح مؤخرة أورهان بقطعة قماش كان شارداً بشكل لذيذ . وفي أثناء ذلك ألقى نظرة إلى ما في المقعدة ، وقطب وجهه ليس من الرائحة ، بل لعدم اكتفائه بما وجده فيها .

قلت : « أفرغي المقعدة يا خيرية ، وأعيديها لكي لا يخرج شوكت من الغرفة » .

قال شوكت : « لماذا لا أخرج ؟ لماذا لا تحكي لنا خيرية حكاية جان وأشباح ؟ »

قال أورهان وعلى وجهه ذاك التعبير الباهت الذي يظهر عليه منذ كان يتبرز ، وليس بسبب الخوف : « لأنه في البيت جان يا مخبول » .

« أمي ، هل يوجد في البيت جان ؟ »

« إذا خرجتما من الغرفة ، وإذا قلتما سنرى جدنا ستجدكما الجان » .

قال شوكت : أين سيفرش قرة فراشه ؟ أين سينام هذه الليلة ؟ »

قلت : « لا أعرف ، خيرية ستمد له الفراش »

قال شوكت : « أمي ، ستستمرين بالنوم معنا ، أليس كذلك ؟ »

« كم مرة سأقول لكما إنني سأنام معكما كما كنت من قبل ؟ »

« دائماً ؟ »

خرجت خيرية حاملة المقعدة . أخرجتُ الرسوم التسعة التي لم يلمسها القاتل السافل الذي أخذ الرسم الأخير ، من حيث خبأتها في الخزانة ، ونظرتُ إليها مطولاً في ضوء القنديل عاملة على فك لغزها . كانت تلك الرسوم جميلة إلى حد أن الإنسان ينظر إليها وكأنها ذكرياته المنسية . والرسوم تكلّم الناظر إليها مثل الكتابة تماماً .

سهوتُ وأنا أنظر إلى الرسوم . وأدركت من رائحته الجميلة أن أورهان يسند رأسه إلى أنفي ، وأنه ينظر معي إلى اللون الأحمر بشكل غريب ، وشبهة . أحياناً أجد في داخلي إحساساً يدفعني إلى إخراج ثديي وإرضاعه . فيما بعد ، عندما خاف أورهان من رسم الموت المرعب ، وشعرتُ بتنفسه اللطيف من بين شفتيه الحمراوين أردت في لحظة أن ألتهمه .

« أنا آكلك يا أورهان ، فهمت ؟ »

ألقى بنفسه قائلاً : « أمي دغدغيني! »

صرخت فيه قائلة : « انهض من هناك ، انهض يا حيوان! » وصفعته على وجهه لأنه ألقى بنفسه فوق الرسوم . نظرت إلى الرسوم فوجدتها سليمة . تجعد قليلاً جداً رسم الحصان الذي يعلوها كلها ، ولكن لا يمكن تمييز هذا التجعيد .

عندما عادت خيرية بالمقعدة الفارغة ، جمعت الرسوم . عند خروجي من الغرفة ناداني شوكت منفعلاً :

« إلى أين يا أمي ، إلى أين أنت ذاهبة ؟ »

« سأعود »

خرجتُ إلى الموزع . الجو بارد كالثلج . وجدت قرة جالساً في الزاوية التي كان يجلس فيها مع أبي على مدى أربعة أيام مستمعاً إلى حديثه عن الرسم والنقش والمنظور ، مقابل بساطه الفارغ . ألقيت الرسوم أمامه على الأرض ، فوق البساط الموضوع عليه (الرحلة) في لحظة ، وفي ضوء الشمعة ، غطى البيت لون ، ضوء كأنه دفء أو حيوية مدهشة ، وكأن كل شيء في تلك اللحظة تحرك .

تفرجنا على الرسوم بصمت واحترام دون حركة مدة طويلة . إذا بدونا متحركين ، فهذا نتيجة مرور الهواء القادم من الغرفة المقابلة الحامل رائحة

الموت ، وتحريكه لهبُ الشمعة ، وهكذا كانت تبدو رسوم أبي العجانبية تتحرك . هل سحرتني تلك الرسوم وأنا أنظر إليها لأنها سبب مقتل أبي ؟ هل كان تأثري بالسحر يا ترى نتيجة غرابة ذلك الحصان ، وفرادة اللون الأحمر ، وكدر الشجرة ، أم حزن الدرويشين ، أم بسبب الخوف من القاتل الذي قتل أبي وغيره بسببها ؟ بعد مدة وجدنا قرة وأنا أن الصمت الذي يخيم علينا بقدر وساعة الرسوم قد خيّم بسبب بقائنا وحدنا في هذه الغرفة ليلة زفافنا ، فأردنا أن نتكلم .

قلتُ : « يجب أن يعلم الجميع صباحاً أننا عندما استيقظنا وجدنا أبي ميتاً » . كم كانت تلك الكلمات صحيحة لأنها خرجت من قلبي .

قال قرة : « صباحاً سيكون كل شيء على ما يرام » بأداء غريب ، وقول صحيح دون إيمان بالصحيح .

عندما أقدم على حركة غير واضحة للاقتراب مني ، شعرت بداخلي أنني أريد احتضانه ، والإمساك برأسه كما أمسك رأس ولد من أولادي .

في اللحظة نفسها سمعت أن باب غرفة أبي موارباً فارتعشت من الخوف . خرجتُ إلى الموزع البارد كالثلج . كانت تنبعث من غرفة أبي رائحة الجثة بسبب الموقد الذي ما زال مشتعلاً . هل الذي جاء إلى هنا شوكت أم غيره ؟ وبتأثير ضوء الموقد رأيت أبي يبدو بشكل غير واضح متمدداً بمنامته ، وعليه ملامح الرضا . خطر ببالي قولي له : « تصبح على خير » قبل النوم وهو يقرأ في كتاب الروح . ويتنهز آخذاً الكأس من يدي قائلاً : « تسلم يدك » ويقبلني كما يعمل عندما كنت صغيرة ، وينظر إلى عيني عن قرب . نظرتُ إلى وجه أبي المخيف ، وارتعدت . أشعر أنني لا أريد رؤيته من جهة ، وبمساورة الشيطان كي أرى مقدار تحوّل وجهه إلى شكل مرعب من جهة أخرى .

عدتُ خائفة إلى الغرفة ذات الباب الأزرق ، فقفز نحوي قرة . دفعته ولكن ليس غضباً بل عدم دراية بما أفعل . تدافعنا في ضوء الشمعة المرتجف كأنه ليس تدافعاً ، بل تمثيل تدافع . كنا نشعر بتصادمنا ، وملامسة كل منا ذراع الآخر أو فخذه أو صدره بسرور . تخبطي العقلي يشبه الحالة النفسية لخسرو وشيرين كما وصفهما نظامي . هل كان قرة يشعر أن وراء قولي : « لا تمصَ شفتي ، ولا تفعل » هو : « افعل » كما قرأ هذا نظامي بين السطور ؟

قلت له : « لن أنام معك في فراش واحد قبل إيجاد ذلك الشيطان قاتل أبي »

عندما خرجتُ من الغرفة كأنني هاربة لفني شعور بالخجل لأنني تكلمتُ بصوت مرتفع يفهم منه أنني أريد إسماع الولدين وخيرية . وفوق هذا أبدو كأنني لا أريد إسماعهم فقط بل إسماع أبي المسكين ، والمرحوم زوجي الذي لا أحد يعرف في أي أرض تفسخ وغدا تراباً .

فور دخولي إلى غرفة الولدين قال أورهان : « أمي ، شوكت خرج إلى الموزع »

قلتُ له : « خرجت ؟ » وتحفزت لألطمه على وجهه .

صرخ شوكت : « خيرية! » ودس نفسه في حضنها .

قالت خيرية : « لم يخرج ، بقي في الغرفة »

ارتجفتُ ، ولم أستطع النظر إلى عينيها . أدركت فوراً أن الولدين سيلجآن إلى خيرية اتقاء لغضبي بعد إعلان وفاة أبي ، وسيعطيانها أسرارهما ، وستستغل هذه الجارية السافلة الفرصة لتتحكم بي . يمكن أن تحاول تلبيسي قضية قتل أبي ، وبهذا تنتقل ولاية الأولاد إلى حسن! نعم ، تعملها! وستقدم على هذه القذارة بسبب دخولها فراش المرحوم أبي . لماذا أخفي عنكم هذا ؟ طبعاً كانت تعمل هذا . ابتسمت لها بلذة ، ثم وضعت

شوكت في حضني وقبلته .

قال أورهان : « أقول لك إن شوكت خرج إلى الموزع » .

« ادخلا فراشكما ، وأدخلاني بينكما كي أحكي لكما حكاية ابن آوى المقطوع الذيل والجني الأسود » .

قال شوكت : « ولكنك قلت لخيرية : لا تحكي لهما حكايات عن الجان . لماذا لا يمكن لخيرية أن تحكي لنا هذه الليلة ؟ »

قال أورهان : « هل سيمرون من مدينة الأيتام ؟ »

قلتُ : « سيمرون . في تلك المدينة ليس هنالك طفلٌ له أب أو أم . خيرية! انزلي ، وتفقدي الأبواب مرة أخرى . نحن سنكون نائمين وسط الحكاية » .

قال أورهان : أنا لا أنام »

قال شوكت : أين سينام قرة هذه الليلة ؟ »

قلت : « في غرفة النقش . هيا الزق بأمك جيداً لندفأ تحت اللحاف . قدما من منكما هاتان الباردتان مثل الثلج ؟ »

قال شوكت : « قدماي . أين ستنام خيرية ؟ »

بعد بدئي بالحكاية بقليل ، عندما نام أورهان أولاً كما هو دائماً خفضت صوتي .

قال شوكت : « لن تنهضي من الفراش بعد أن أنام أنا ، أليس كذلك يا أمي ؟ »

« لن أنهض »

وفي الحقيقة لم يكن لي نية كهذه . بعد نوم شوكت فكرت كم هو سعيد النوم وسط ولدي ليلة زفافي الثاني – فوق هذا هنالك زوج وسيم وذكي ويفيض رغبة – وفي أثناء التفكير نمت ، ولكن لم يكن نوماً هانئاً . وحسبما

تذكرتُ فيما بعد أنني كنت بين النوم والاستيقاظ ، وحلمت أنني في عالم مخبوط وغير هادئ . في البداية تحاسبت مع روح أبي الغاضبة ، بعد ذلك حاولت الهرب من خيال ذلك القاتل السافل الذي يريد إرسالي إلى جوار روح أبي ، ولكن القاتل الأكثر إرعاباً من روح أبي والذي لا يتركني بأي شكل يصدر أصواتَ قرقعة . وفي الحلم ألقى على بيتنا حجارة ، وأصاب النافذة والسطح . بعد ذلك رمى الباب بحجر ، وتهيأ لي أنه يدفع الباب بعنف . بعد ذلك عندما أصدرت الروح الشريرة تلك صوتاً حيوانياً ما بين الأنين والعواء ، لم أستطع تشبيهه بشيء ، بدأ قلبي يخفق بشدة .

ارتعدت خوفاً . ولكن حدث ما هو أسوأ من هذا . سمعتُ قرقعة داخل البيت . أين خيرية ؟ في أية غرفة ينام قرة ؟ كيف هي جثة أبي المسكين ؟ اللهم احفظنا . الولدان نائمان بعمق .

لو كان هذا قبل زواجي ، لنهضتُ من الفراش ، وعملت للتغلب على مخاوفي للسيطرة على الوضع ، وتحديتُ الجان والأرواح . كأنه ليس ثمة أحد في هذا العالم ، ولن يمدني أحد ولن يمد الولدين بالمساعدة . بدأتُ أدعو الله متوقعة شراً . كنتُ وحيدة كما في الحلم . سمعت باب الحوش يفتح . ألم يكن باب الحوش ؟ نعم .

في لحظة نهضت ، وارتديت ثوباً فضفاضاً ، وقفزت دون أن أدري ما سأعمل .

وعند أول الدرج ، همست : « قرة! »

كنت قد لبست حذاء ، ونزلت الدرج . لحظة خروجي إلى الفسحة انطفأت الشمعة التي أشعلتها بلمح البصر من الموقد ، ثمة رياح قاسية ، ولكن السماء صافية . عندما ارتاحت عيناي رأيت قمر منتصف الشهر يضيء الفسحة جيداً . يا الله! الباب المؤدي إلى الفسحة مفتوح . تسمرت مرتجفة

من البرد .

لماذا لم أحمل بيدي سكيناً ؟ لم يكن بين يدي شمعدان ، ولا حتى قطعة خشب . رأيت في تلك اللحظة أن الباب المؤدي إلى الفسحة يتحرك تلقائياً ، وبعد مدة طويلة ، تهيأ لي أنني أسمع صرير الباب بعد توقفه . كأنه كما تذكرته في الحلم . كان عقلي في رأسي ، وأعرف أنني أسير في الفسحة .

عندما سمعتُ قرقعة من داخل البيت ، ومن تحت السقف تحديداً فهمت أن روح أبي تلاقي صعوبة بالخروج من جسده . إدراكي أن روح أبي تعاني من العذاب آلمني من جهة ، وأراحني من جهة أخرى . قلت لنفسي إذا كان أبي هو سبب كل هذه القرقعة فلن يمسني سوء . من جهة أخرى كدرتني آلام روح أبي المعانية من الصعود وحدها فدعوت إلى الله أن يساعد أبي المسكين . عندما فكرت أن روح أبي لن تساعدني وحدي فقط بل ستساعد الولدين أيضاً شعرت وكأن ماء رش على قلبي . إذا كان ثمة عفريت خارج الباب مستعد لعمل شيء وهو خائف فإن خوفه بسبب روح أبي القلقة .

آنئذ شعرت بقلق أن يكن قرة سبب قلق روح أبي . ترى هل يعزم أبي على الإساءة لقرة ؟ أين قرة ؟ في اللحظة نفسها رأيت قرة خارج باب الحوش بقليل ، في الزقاق ، فتوقفت . كان يتحدث مع رجل آخر .

لاحظت أن أحداً ما يحدّث قرة من الحديقة الفارغة التي في الطرف الآخر من الطريق من خلف الأشجار . كما فهمت أن صاحب الصوت هذا هو سبب الأنين الذي سمعته وأنا في الفراش قبل قليل ، أدركت أيضاً وبسرعة أنه حسن . كان في صوته نوع من التوسل ، ونوع من البكاء ، ولكنه غير خال من جو التهديد . استمعت إليهما من بعيد . إنهما مندمجان بحسابهما وسط صمت الليل .

في اللحظة ذاتها أدركت أنني بقيت وحدي مع ولدي في هذه الحياة .

كنت أعتقد أنني أحب قرة ، ولكن الحقيقة : كنت أريد أن أحبه . لأن قلبي تهيج عندما سمعت صوت حسن المهموم بآلامه .

كان يقول : «سآتي غداً إلى هنا مع القاضي والانكشاريين والشهود الذين سيقسمون أن أخي الكبير مازال حياً يحارب في جبال بلاد العجم . زواجكما غير مشروع . إنكما تمارسان الزنى في الداخل» .

قال قرة : شكورة لم تكن زوجتك ، بل زوجة أخيك الأكبر » .

قال حسن بثقة : «أخي حي . هنالك شهود رأوه» .

«هذا الصباح طلّق قاضي الأسكدار شكورة منه لأنه لم يعد منذ أربع سنوات . إذا كان حياً فليقل له الشهود إنهما صارا منفصلين» .

قال حسن : «لا يمكن لشكورة أن تتزوج قبل مرور عدتها . هذا مخالف للدين وللقرآن الكريم . كيف يقبل والد شكورة بهذه السفالة ؟»

قال قرة : «الأفندي زوج الخالة مريض جداً . إنه على فراش الموت . . . والقاضي سمح بالزواج» .

قال حسن : «هل سممتما زوج خالتك معاً ؟ هل قمتما بهذا العمل بمشاركة خيرية ؟» .

«حموي يعاني من هموم ما عملته أنت لشكورة . إذا كان أخوك حياً يمكن أن يحاسبك على عدم الشرف الذي ارتكبته»

قال حسن : كل هذا كذب . هذه ذرائع لفقتها شكورة لتهرب من البيت» .

صدر صوت صراخ من داخل البيت . خيرية هي التي صرخت . بعد ذلك صرخ شوكت . تبادل الصراخ . ودون إرادتي صرخت أنا أيضاً ، وهرعت إلى البيت .

نزل شوكت الدرج راكضاً وقفز نحو الفسحة .

قال صارخاً : « جدي مثل الثلج . مات جدي » .

تعانقنا ، ثم احتضنته . ما زالت خيرية تصرخ . سمع قرة وحسن الصراخ ، وكل شيء .

قال شوكت هذه المرة : « أمي ، قتلوا جدي » .

سمع هذا الجميع . هل سمع هذا حسن ؟ احتضنت شوكت جيداً . ودون ارتباك اندسستُ داخلة من الباب وأنا أسير نحو الخلف . كانت خيرية تسأل عند أول الدرج كيف لم أنتبه إلى استيقاظ الولد وتسلله .

قال شوكت : « أمي ، أمي ، قلت إنك لن تتركينا ؟ » وبدأ البكاء .

كان عقلي عند قرة الواقف عند باب الفسحة . ولأن عقل قرة عند حسن لم يستطع إغلاق الباب . قبلت شوكت من وجنتيه ، واحتضنته بقوة ، وشمشمته من رقبته ، ثم وضعته في حضن خيرية وقلت لها هامسة : « خيرية! اصعدا إلى الأعلى » .

صعدا إلى الأعلى . عدت إلى باب الفسحة . اعتقدت أن حسناً لن يراني حيث أنا أقف خلف الباب بعدة خطوات . هل غيّر مكانه في الحديقة المظلمة ؟ هل انتقل إلى وراء الأشجار في الظلمة عند حافة الزقاق ؟ ولكن كأنه يراني ، ويوجه كلامه إليَ في أثناء الحديث . هذا المشاكس لم يكن يكلم من لا يرى وجهه في الظلام . وكلما اتهمني واتهمنا – وفي الحقيقة إنني أعطيه الحق ، وأشعر أنني لست على حق ، ومذنبة كما كان يشعرني أبي دائماً – أكتشف مهمومة أنني أعشقه ، ولذا توترت أعصابي . ساعدني يا الله . أليس العشق هو عدم الإحساس بالألم دون جدوى ، وهو طريق الوصول إليك ؟

قال حسن إنني اتفقت مع قرة على قتل أبي . وقال إنه سمع ما قاله الولد ، وإن كل شيء واضح كالشمس ، وإن ما ارتكبناه معصية تؤدي إلى

جهنم . قال إنه سيذهب إلى القاضي صباحاً ويحكي له عن كل شيء ، وإنه سيعيدني إلى بيته مع ولديّ ويرعانا إذا كنت غير مذنبة ، ويداي غير ملتاثتين بدماء أبي ، أما إذا كنتُ مجرمة فإنني أستحق كل أنواع العقاب لأنني امرأة تركت زوجها دون رأفة وفي أثناء بذله دمائه في الحرب ، بعد أن استمعنا إلى هذا صابرين حلّ صمت بين الأشجار لحظة .

وبلهجة مختلفة تماماً قال حسن : «والآن إذا عدت بإرادتك إلى بيت زوجك وإذا أخذت الأولاد ، وعدت إلى البيت بهدوء دون أن يراك أحد ، فسأنسى لعبة هذا العرس المزور ، وما علمته هذا المساء ، والجريمة التي ارتكبتموها ، وأعفو عن كل شيء ، وننتظر عودة أخي من الحرب سنواتٍ يا شكورة» .

هل كان ثملاً ؟ كان في صوته طفولة . والآن أنا أشعر بالكدر لأن ما يكلفني به أمام زوجي يمكن أن يكلفه حياته .

صرخ من بين الأشجار : «هل فهمت ؟»

لم أكن أستطيع تحديد مكانه وسط الظلام . ساعدني يا الله ، نحن عبيدك المذنبون .

«هذا لأنك لا تستطيعين العيش تحت سقف واحد مع قاتل أبيك يا شكورة . أنا أعرف هذا» .

آنئذ خطر ببالي إمكانية أن يكون هو الذي قتل أبي ، ولعله الآن يسخر منا . حسن هذا شيطان ، ولكن يمكن أن أكون مخطئة .

قال قرة موجهاً كلامه نحو الظلام : «اسمع يا حسن أفندي . حمي قتل ، هذا صحيح . قتله أحد السفلة» .

قال حسن : «قتل قبل العرس ، أليس كذلك ؟ قتلتماه لأنه عارض حبالكما المحاكة من أجل هذا الزواج ، ومن أجل الطلاق ، وشهود الزور ،

لأنه لو وضع قرة موضع الرجال لزوّجه ابنته ليس الآن بل قبل سنوات طويلة » .

لأنه عاش سنوات معنا – معي ومع زوجي – فهو يعرف ماضينا كما نعرفه . والأسوأ من هذا أن حسناً تحت تأثير عقدة الغيرة الناتجة عن العشق يتذكر كل شيء مما تكلمته مع زوجي ونسيته أو أردت نسيانه . خشيت أن يحكي حسن عن هذه الأمور فتشعرون أن قرة غريب وجديد وبعيد .

قال قرة : « نحن نشتبه بأنك قتلته »

« أنت قتلته من أجل أن تتزوجها ، وهذا واضح ، أما أنا فليس لديَ سبب يدفعني إلى قتله » .

قال قرة : « أنت قتلته كي تمنعنا من الزواج . عندما علمتَ أنه سمح لشكورة بأن تُطلَق ، وسمح بزواجنا ، فقدت صوابك . أصلاً أنت غاضب من الأفندي زوج الخالة لأنه شجّع شكورة على العودة إلى بيت أبيها . وكنت تريد الانتقام منه وتعرف أنك لا تستطيع الحصول على شكورة طالما هو حي » .

قال حسن مصمماً : « لا تطوّل الأمر . لن أسمع هذا . المكان هنا بارد جداً ، وقد تجمّدت حتى استطعت جذب انتباهكم برمي الحجارة . ألم تسمعوا ؟ »

قلتُ أنا : « كان قرة في الداخل يتفرج على رسوم أبي » .

هل ارتكبت خطأ بقولي هذا ؟

تكلم حسن بشكل مفتعل تماماً كما أتكلم مع قرة أحياناً دون إرادتي : « يا شكورة خانم! إذا أخذت الولدين وعدت إلى بيت الفارس البطل الذي ما زلت متزوجة منه شرعاً فسيكون خيراً » .

قلتُ من وسط الظلام وكأنني أهمس : « لا ، لا يا حسن ، لا » .

«إذن مسؤوليتي تجاه أخي ، وارتباطي به يفرض عليّ إبلاغ القاضي بما سمعته الآن هنا . لأنهم فيما بعد سيحاسبونني» .

قال قرة : «سيحاسبونك بالتأكيد . إن تذهب إلى القاضي سأذهب إلى سلطاننا ، وأبلغه أنك قتلت خادمه المحبب الأفندي زوج الخالة . صباحاً» .

قال حسن بهدوء : «حسنٌ ، قل هذا» .

أطلقتُ صيحة ، ثم صرخت قائلة : «سيعذبونكما معاً ، لا تذهبا إلى القاضي ، انتظرا ، كل شيء سيظهر» .

قال حسن : «أنا لستُ خائفاً من التعذيب ، وأدركت في كل مرة أنه لا يمكن فصل المجرم عن غير المجرم إلا بالتعذيب . على المفترين أن يخافوا من التعذيب . سأذهب إلى القاضي ، وآغا الإنكشارية ، وشيخ الإسلام وأحكي لهم جميعاً عن كتاب زوج الخالة الأفندي ورسومه . الجميع يتحدثون عن تلك الرسوم . ماذا يوجد في تلك الرسوم ؟»

قال قرة : «لا يوجد شيء»

«يعني أنك فوراً تفرّجت عليها»

«طلب مني الأفندي زوج الخالة إتمام الكتاب»

«حسنٌ ، إن شاء الله يعذبوننا معاً»

سكتنا . بعد ذلك سمعنا وقع أقدام من الحديقة الفارغة . هل كانت ذاهبة ، أم متجهة نحونا ؟ كنا لا نراه ولا نعرف ما يعمله . لا جدوى من عبوره بين الدغلات والأشواك وسط الظلام إلى الطرف الآخر من الحديقة . لو عبر بين الأشجار ، وانعطف من أمامنا يمكنه أن يغيب دون أن نراه ، ولكننا لم نسمع وقع أقدام متجهة نحونا . فجأة صرخت : «حسن!» ولكن لم يصدر صوتاً .

قال قرة : «اسكتي!»

كلانا يرتجف منّ البرد ، ودون انتظار دخلنا إلى البيت ، أغلقنا الأبواب جيداً ،وقبل دخولي الفراش الذي أدفأه الولدان جيداً ، ألقيت نظرة أخرى على والدي . أما قرة فقد جلس إلى الرسوم .

* * *

٣٥

أنا حصان

لا تأبهوا لوقوفي الآن هادئاً ساكناً ، وفي الحقيقة أنا أعدو منذ قرون . أنا أخبّ عابراً السهول ، وخانضاً الحروب ، وحاملاً بنات السلاطين لتزويجهن ، ومتنقلاً من الحكايات إلى التاريخ ، ومن التاريخ إلى الأساطير ، ومن كتاب إلى كتاب صفحة صفحة . من المؤكد أنني رُسمت كثيراً جداً جداً لأنني اتخذت مكاناً في كثير من الحكايات والكتب والحروب ، ورافقتُ الأبطال اللا مهزومين ، والعشاق الأسطوريين ، والجيوش الخارجة من الأحلام ، وركضتُ أيضاً من نفير إلى نفير مع السلاطين المظفرين .

ما هو شعور المرسوم كثيراً جداً ؟

أشعر بالاعتزاز طبعاً ، ولكنني أسأل دائماً : هل هذا المرسوم هو أنا ؟ ويفهم من هذه الرسوم أن صورتي تختلف في كل عقل ، كما أشعر وبقوة أن ثمة خصوصية مشتركة ووحدة بين هذه الصور .

قبل مدة حكى الأصدقاء النقاشون حكاية حفظتها . فكّر ملك الكفار الأفرنج بالزواج من ابنة دوق البندقية . إذا كان على الزواج فسيتزوج ، ولكن ماذا لو كان ذلك البندقي فقيراً ، وابنته قبيحة ؟ قال لنقاشه الأمهر : اذهب ، وارسم ابنة دوق البندقية ومالها وملكها وأغراضها . البندقيون لا يعرفون الحرمة . لم يقدّم البندقيون للرسام فتاتهم فقط ، بل خيولهم ، كما

فتحوا له قصرهم والرسام الماهر يرسم بشكل يجعل الناظر إلى رسم تلك الفتاة وتلك المهرة يعرفهما . وبينما كان ملك الإفرنج ينظر إلى الرسوم الثلاثة من البندقية مفكراً بالزواج من الفتاة ، وبما سيعمله ، فجأة وقع حصانه في العشق ، وحاول القفز فوق المهرة الجميلة التي في الرسم ، وبصعوبة بالغة استطاع سانسو الحيوان المنفلت ضبطه بعد أن حطم اللوحة وإطارها بآلته الكبيرة .

قالوا : إن الذي هيّج الحصان الأفرنجي ليس جمال المهرة البندقية - من ناحية الجمال فهي جميلة - بل تناول مهرة معينة مثالاً ، ورسمها بشكل يطابق الحقيقة والآن ، هل رسم الرسم مطابقاً للحقيقة كما رُسمت تلك المهرة حرام ؟ وفي حالتي الراهنة كما ترون هنالك فرق خفيف جداً بيني وبين رسوم الخيول الأخرى .

في الحقيقة إن الناظرين إلى جمال خصري ، وطول قوائمي ، وشموخي في وقفتي يدركون أنني مختلف ، ولكن هذا الاختلاف لا يشير إلى اختلافي باعتباري حصاناً ، بل إلى فرق مهارة النقاش الذي رسمني . جميعكم يعرف أنه في الحقيقة ليس ثمة حصان مطابق تماماً لي ، أنا خيال الحصان الذي في عقل نقّاشي .

ولكن الآخرين ينظرون إليّ ويقولون : يا لجمال هذا الحصان! في الحقيقة إنهم لا يمتدحونني ، بل يمتدحون النقاش . مع أن جميع الخيول تختلف عن بعضها البعض ، وعلى النقاش أن ينتبه إلى هذا الأمر قبل الجميع .

تعالوا لنر! ليس ثمة آلة حصان تشبه آلة آخر . لا تخافوا ، يمكنكم النظر عن قرب ، حتى يمكنكم أن تلمسوها بيدكم . ولتلك المحصّنة شكل خاص بها ، ولها ثنيات محصّنة أيضاً .

لماذا يرسمنا النقاشون من ذاكرتهم ؟ على الرغم أن كل حصان منا

خرج من يد المصور الأعظم الله جل جلاله بشكل يختلف عن الآخر ، لماذا يتفاخرون برسم آلاف ، وعشرات آلاف الخيول من ذاكرتهم دون النظر إلينا ؟ لأنهم لا يريدون رسم ما يرونه بعيونهم ، بل يحاولون رسم العالم الذي يراه الله . ألا يعني وضع هذا الفخ شرطاً - حاشا لله - أنني أستطيع عمل ما يعمله الله ؟ أليس النقاش الذي لا يكتفي بالحصان الذي يراه بعينه ، ويرسم الحصان الذي في ذاكرته - وهو الحصان الذي رآه الله - والمدعي أن أفضل رسم لحصان هو ذلك الذي يرسمه النقاشون العميان ، هو الذي يتسابق مع الله ويرتكب معصية الخروج عن الدين ؟ .

أساليب رسم الأفرنج الجديدة ليست مروقاً ، بل على العكس ، هي الأنسب لديننا . أرجوكم يا أخوتي الأرضروميين ألا تفهموني خطأ . أنا لا أحبّ تجوّل نساء الأفرنج الكافرات شبه عاريات من أحد نصفيهما الأعلى أو الأسفل دون اهتمام لمحرم ، وعدم تذوقهم طعم القهوة والغلمان ، وتجوّل الرجال دون لحية وشنب ، وتطويل شعورهم مثل النساء ، وقولهم عن حضرة عيسى إنه الله - حاشاه - حتى إنني أغضب منهم كثيراً ، وأقول : آه لو التقيت أحدهم لألبطه بالجوز .

ولكنني سئمت من إظهاري بشكل خاطئ على يد النقاشين الذي يجلسون في البيت ولا يخرجون إلى الحرب مثل النساء . إنهم يرسمونني وأنا أعدو ماداً قائمتي الأماميتين ، ليس ثمة حصان يركض هكذا مثل الأرنب . إذا كانت واحدة من القائمتين الأماميتين ممدودة إلى الأمام ، ستكون الثانية إلى الخلف . ليس ثمة حصان تبدو إحدى قائمتيه مرتكزة إلى الأرض تماماً ، والأخرى ممدودة إلى الأمام مثل كلب فضوليّ يرسم عند خروجه إلى السفر . لا يمكن لخيول أي فصيل خيالة أن تكون متشابهة كأنها خيال بعضها بعضها مرسومة من قالب واحد عشرين مرة وراء بعضها بعضاً مادة

قائمة واحدة . نحن ننكش في الأعشاب التي أمامنا ، ونأكلها عندما لا ينظر إلينا أحد ، ولا نقف أبداً منتصبين ظرفاء كما نرسم هكذا أبداً . لماذا يُستحى من أكلنا وشربنا وتبرزنا ونومنا إلى هذا الحد ؟ لماذا يخافون من رسم آلتي هذه حصنتها بالله ؟ وبشكل خاص فإن الأولاد والنساء يدوخون بالفرجة عليها ، ما الضرر من هذا الأمر ؟ وهل يعارض الشيخ الأرضرومي هذا أيضاً ؟ .

يروى أنه في أحد الأزمان في شيراز كان ثمة شاه مسنٌ جداً سيطرت عليه الوساوس . ولأنه يرتعد خوفاً من أن ينزله خصومه عن العرش ، ويُجلسون ابنه ، لم يرسله والياً على أصفهان بل حبسه في أقصى غرفة من غرف قصره . عاش إحدى وثلاثين سنة محبوساً في غرفة لا تطلّ على فسحة أو حديقة . عندما جاء الوعد الحق لأبيه ، وجلس الأمير الذي قضى كل هذه المدة بين الكتب على العرش ، قال : «أحضروا لي حصاناً ، إنني أرى رسومه دائماً في الكتب . إنني أتوق جداً للتعرف إليه عن قرب» . جلبوا له أجمل حصان في القصر . وعندما رأى الشاه الجديد أن له منخرين مثل مدخنتين ، ومؤخرة غير مؤدبة ، ووبراً لا يلمع كما في الرسم ، وكفلاً فظاً ، عاش حالة حسرة ، وقتل خيول المملكة كلها . وفي نهاية تلك المجزرة القاسية التي دامت أربعين يوماً ، تدفقت وديان المملكة بالهمّ ولون الدم . وتجلت العدالة الإلهية فمزق ، وقتل أمام جيوش زعيم التركمان في ديار الغنم الأسود وهكذا يجب ألا يحزن أحد على أن دم الخيل أريق سدى .

* * *

٣٦

اسمي قرة

بعد أن أغلقت شكورة الباب على نفسها والولدين . تنَصتُ مدة طويلة إلى أصوات البيت ، وقرقعة لا تنتهي . في أثناء ذلك بدأت شكورة تتهامس مع شوكت ، ثم أمسكته مضطربة ، قائلة : «هس س س» . وفي الوقت نفسه سمعت حركة من ناحية الجب ، والفسحة الحجرية ، ولكنها لم تستمر . بعد ذلك وجهتُ انتباهي إلى نورس حطّ على السطح . ولكن هذا أيضاً التف بالصمت كما كل شيء . بعد ذلك سمعتُ أنيناً مكبوتاً من الطرف الآخر للموزع . فهمت أن خيرية تبكي وهي نائمة ، تحوّل أنينها إلى سعال . والسعال انفجر فجأة ثم انقطع ، وبدأ من جديد ذلك الصمت البشع اللا متناهي . بعد قليل اعتقدتُ أن أحدهم يتجول في الغرفة التي يمدد فيها جسد زوج خالتي ، فتجمّدت .

طوال مدة الصمت كنت أتفرج على الرسوم التي أمامي ، وأتخيل كيف مدّ على الورق كل من زيتون المتعلق بعمله جداً ، وفراشة ذي العينين الجميلتين ، والمذهب المرحوم . أشعر أنني سأنادي الرسوم كما كان يفعل زوج خالتي في بعض الليالي : «شيطان!» ، «موت!» ولكن ثمة خوف منعني . عدم استطاعتي كتابةَ حكاية مناسبة على الرغم من إصرار زوج خالتي ، جعلني أغضب من هذه الرسوم . وبسبب الاعتقاد الراسخ أن هذه

الرسوم هي سبب مقتل زوج خالتي كحقيقة لا يمكن مقاومتها ، شعرت بالخوف ، ونفاد الصبر . لم أنظر إلى هذه الرسوم ، وأنا أستمع إلى حكاية زوج خالتي إلا بالقدر الذي يسمح لي أن أكون قريباً من شكورة . لماذا أعطي انتباهي كله لهذه الأشياء الغريبة الآن وشكورة زوجتي ؟ قال صوتٌ غير رحيم من داخلي : «لأن شكورة لم تنهض من فراشها لتأتي إليك» انتظرتُ مدة طويلة وأنا أنظر إلى الرسوم في ضوء الشمعة لعل حسناني ذات العينين السوداوين تأتي .

صباحاً عندما استيقظت على صراخ خيرية ، التقطت الشمعدان ، وقفزت إلى الموزع . وفي لحظة اعتقدتُ أن حسناً ورجاله الذين جمعهم داهموا البيت ، خطر ببالي إخفاء الرسوم . ولكن قبل مرور كثير من الوقت فهمت أن خيرية تصرخ بناء على أمر شكورة لإعلان وفاة الأفندي زوج الخالة على الأولاد والجيران .

عندما تقابلنا شكورة وأنا في الموزع تعانقنا . توقف الولدان بعد أن قفزا من الفراش على صوت خيرية .

قالت شكورة لهما : «جدكما مات ، احذرا من الدخول إلى الغرفة» .

سحبتهما من ذراعيهما ، دخلت إلى جانب أبيها ، وبدأت تبكي . دخلت أنا إلى الغرفة التي أُدخل إليها الولدان ، وقلت : «غيّرا ثيابكما ، ستبردان» وجلست على حافة الفراش .

قال شوكت : «جدي لم يمت صباحاً بل مات ليلاً» . شعرة طويلة من شعر حسناني شكورة فوق المخدة رسمت حرفاً قال لي : «واو» ما زالت حرارة شكورة في الفراش . الآن نحن نسمع بكاءها وصراخها مع بكاء وصراخ خيرية . إطلاق شكورة الصراخ وكأن أباها مات الآن وبشكل مفاجئ بدا لي مدهشاً ومفاجئاً أشعرني أنني لا أعرفها ، وهي غريبة عني ، ومثل

الجان .

قال أورهان بنظرة يطلب فيها الإذن بالبكاء : «أنا خائف»

قلت : «لا تخافا! . . . أمكما تبكي لتخبر الجيران بموت جدكما كي يأتوا» .

قال أورهان : «ماذا يحدث إذا أتوا»

«إذا أتو سيحزنون معنا هم أيضاً . ، ويبكون لوفاة جدكما ، وهكذا سيشاركوننا ألمنا ، ويخففونه عنا» .

قال شوكت صارخاً : «هل أنت الذي قتلت جدي ؟»

وأنا رددت عليه صارخاً : «إذا أغضبت أمك فلن أحبّك أبداً» .

لم نكن نتبادل الصراخ مثل عم – زوج أم – وطفل يتيم ، بل مثل شخصين على طرفي واد . في هذه الأثناء صعدت شكورة إلى الموزع ، وعملت على فتح الشبابيك ليسمع صراخها من في الحي بشكل أفضل .

شعرت أنني لن أستطيع البقاء متفرجاً فخرجت من الغرفة ، وتصارعنا مع خشب النافذة . وبدفعة واحدة أخيرة فُتح سحَاب النافذة ، وسقط إلى الفسحة . صفعني البرد وضوء الشمس على وجهي ، ومرَت علينا لحظة دهشة . بدأت شكورة تبكي كأنها تذرف دماً ، كأنها تنادي العالم كله .

موت الأفندي زوج الخالة المعلن على الحي كله بالصراخ تحول بنظري في تلك اللحظة إلى ألم فظيع وأمر مفجع . بكاء زوجتي حقيقياً كان أم مزوراً أبكاني ، وبدأت أبكي بشكل لم أتوقعه . ولا أدري إن كنت أبكي حزناً أم لأنني أمثّل البكاء لخوفي من اتهامي بقتل زوج خالتي .

كانت شكورة تصرخ : «راح . . . رااااح . . . آاااه راح أبي . . . رااااح»

شهشهاتي ، وكلماتي من المقام نفسه ، ولكنني لا أدرك ما أقوله تماماً .

في تلك اللحظة رأيت نفسي بأعين أهل الحي الذين ينظرون إلينا من بيوتهم ، وَخلف أبوابهم ، ومن وراء شبابيكهم ، وفكرت بأن ما عملته صحيح . كلما بكيت أتخلص من شكوكي حول حقيقة آلامي ودموعي ، ومن وساوسي باتهامي بالجريمة ، وحتى من حسن ، ورجاله .

صارت شكورة لي ، وكأنني أبارك هذا صراخاً وبكاءً . سحبت زوجتي الباكية نحوي ، ودون اهتمام باقتراب الولدين منا باكيين ، قبلتها من خدّها قبلة عاشق . على الرغم من بكائي شعرت أن خدّها ناعم ورطب مثل فراشها ، وتفوح منه رائحة أشجار اللوز كما كان في طفولتها .

بعد ذلك دخلنا جميعاً مع الولدين إلى جانب الجثة . لم يعد بالنسبة إلي جسد مضى عليه يومان تفوح منه الرائحة ، بل كأنه رجل يموت الآن ، فقلت : «لا إله إلا الله» كي يعيدها خلفي ، وتكون آخر عبارة ينطقها ، فيدخل زوج خالتي إلى الجنة . وتصرفنا كأن زوج خالتي كرر هذا ، ثم نظرنا إلى وجهه الذي غابت معالمه ، وإلى رأسه المحطم ، وابتسمنا . وفي اللحظة نفسها فتحتُ يدي وقرأت سورة ياسين ، وسكت الجميع مستمعين . وبقطعة قماش نظيفة جلبتها شكورة ربطنا جيداً فم زوج الخالة المفتوح ، وأغلقنا عينه غير المفقودة بعناية ، وقلبنا الجثة بشكل خفيف ، ومددناها على جانبها الأيمن ، ووجهنا وجهه الضائع المعالم نحو القبلة ، وفتحت شكورة فوق أبيها غطاء نظيفاً .

سررت لمتابعة الولدين لما يجري بدقة حكيم . لصمتهما بعد البكاء . في النهاية شعرت أنني صاحب زوجة وأولاد وبيت حقيقي ، وهذا كان شعوراً أقوى من مخاوف الموت كلها .

جمعت الرسوم ، ووضعتها داخل جلد ، وارتديت قفطاني السميك ، وحملتها وخرجت من البيت بخطوات سريعة . تجاهلت سيدة عجوزاً تصطحب

حفيدها ، ويبدو عليها أنها قادمة للتسلية . وهي من الجيران القادمين لمشاركتنا آلامنا عندما سمعوا الصراخ ، وتوجهت مباشرة نحو الجامع .

المكان الذي يسميه الإمام «بيتاً» عبارة عن جحر فأرة بجانب الجامع المبتي مثله كثيراً بقبته الضخمة ، وزخارفه ، وباحته الواسعة تُشعر بالخجل . والإمام وسّع بيته البارد الذي يحجم جحر الفأرة لشمل الجامع كما فعل كثير من الأئمة ، ولم يبال لنشر زوجته الغسيل الباهت الألوان بين شجرتي الكستناء في طرف الجامع . ثمة كلبان يبدو أنهما احتلا باحة الجامع بقدر احتلال عائلة الإمام لها ، وبعد أن طردهما مع أولاده بالعصي ، انزويت معه في إحدى الزوايا .

رأيت على وجهه تعابير تقول : «خير إن شاء الله ، ماذا هنالك ؟» وأنا واثق أنه غاضب بعد أمور الطلاق البارحة ، والقران الذي لم أدعه يعقده .

«الأفندي زوج الخالة مات هذا الصباح»

قال بطيب : «رحمه الله ، وجعل مأواه الجنة» ولماذا أضفت عبارة «هذا الصباح» لأضع نفسي للا شيء تحت الشبهة ؟ دسست بيده ذهبية كالتي دسستها بيده البارحة . طلبت منه أن يصلي قبل الأذان ، وأن يعلن أخوه مثل المنادي الوفاة على الحي كله .

قال : «لأخي صديق حميم شبه أعمى ، ونحن نغسل معه الميت بشكل جيد» .

ما هو أفضل من غسل الأفندي زوج الخالة من قبل أعمى وشبه مخبول ؟

أعلمته أن صلاة الجنازة ستقام ظهراً ، وأنه سيأتي جمع كبير من علية القوم من القصر والنقش خانة والمدرسة - ولم أضف شيئاً حول وجه زوج الخالة وتحطيم رأسه ، لأنني قررت أن المسألة ستُحل من موقع رفيع .

قبل كل شيء أبلغتُ الخزندار الأكبر المكلف بمتابعة الكتاب الذي كلّف به

سلطاننا زوج الخالة . لهذا ومن أجل الدخول إلى القصر ، ذهبت إلى منجّد في سوق الخياطين مقابل باب (صغوق چشمة) يعمل هناك منذ طفولتي ، وهو قريب لأبي ، وقبّلت يده المغطاة بالشامات ، وحكيت له متوسلاً أنني بحاجة لمقابلة الخزندار الأكبر . بعد أن جعلني أنتظر قليلاً وفي حضنه أقمشة حريرية ملونة يطويها بمساعدة صانع أقرع ، ويخيطها ستارة ، جعلني أرافق مساعد كبير الخياطين الذي سيدخل إلى القصر من أجل عمل قياس وحساب . عندما خرجنا إلى ساحة الحامية من باب (صغوق چشمة) تخلّصتُ من المرور على النقش خانة ، وإعلان الجريمة على النقاشين الآن فقط .

وبقدر ما كانت تبدو لي ساحة الحامية هادئة تهيأ لي أنها مزدحمة . لم يكن ثمة أحد عند باب أمين الأوراق الذي يتشكل دور طويل أمام بابه أيام اجتماع الديوان ، كما أنه ليس ثمة أحد بجوار العنابر . ولكن تهيأ لي أنني أسمع أنيناً مستمراً من داخل أشجار السرو ومن مكان سائسي الخيل عند الباب الثاني ، ومن خانة النجارين ، والمخبز ، ونافذة غرفة المرضى ، والاسطبلات ، وأنا أنظر بإعجاب إلى العبيد ذوي القبعات الطويلة المدببة الرأس . وتوصلت إلى أن سبب هذا الانفعال هو عبوري للمرة الأولى في حياتي من الباب الثاني ، أي باب السلام .

لم أستطع توجيه انتباهي إلى الزاوية التي يقال إن الجلادين ينتظرون فيها دائماً على أهبة الاستعداد ، كما أنني لم أستطع إخفاء انفعالي عن البوابَيْنِ اللذين ينظران إلى لفة القماش التي بيدي كي يعتقدا أنني مساعد دليلي الخياط .

فور دخولنا إلى ساحة الديوان لف صمت عميق كل شيء . أشعر حتى في عروق رقبتي بأن قلبي يخفق بقوة . المكان الذي كثيراً ما سمعت وصفه ، ورأيت تصويره من الذين دخلوا القصر ، وخرجوا منه هو الآن أمامي حديقة

أجمل ، وأكثر تلويناً مثل الجنة تماماً . ولكنني لا أشعر بسعادة الداخل إلى الجنة ، بل بالخوف والخشوع . والآن أدرك جيداً أنني عبد بسيط من عبيد سلطاننا مركز العالم . وبينما كنتُ أتفرَج باعجاب على الطواويس التي تسير وسط الخضرة ، وعلى الصنابير التي يتدفق منها الماء ، والطاسات الذهبية المربوطة بالسلاسل ، ورجال تشريفات الديوان بألبستهم الحريرية وكأنهم لا يلمسون الأرض بمشيتهم ، شعرت بنشوة وانفعال خدمة السلطان الأكبر . لا بد لي من إنهاء كتاب السلطان السري الذي أحمل تحت إبطي رسومه غير المنتهية . عندما نظرت إلى برج الديوان عن قرب إلى هذا الحد ثار فيَ الخوف أكثر من الإعجاب ، وهذا ما جعلني أسير وراء الخياط دون أن أدري ما أفعل .

عبرنا مع غلامٍ بوابٍ سار معنا إلى بناء الديوان والخزينة بصمت وكأننا في حلم . كان في داخلي إحساس أنني رأيت هذه الأمكنة من قبل وأعرفها .

دخلنا إلى المكان المعروف باسم غرفة الديوان القديم من باب واسع . رأيت تحت القبة الكبيرة معلمي مهن حاملين أقمشة ، وقطعاً من الجلد ، وغمد سيوف فضية ، وصناديق من الصدف . فهمت بسرعة أن هؤلاء صناع السلاح ، وصانعو الفضة ، وصناع المخمل ، وملبّسو الصدف ، وفنانو صناعة الأعواد من أهل الحرف لدى سلطاننا . لأنهم ينتظرون عند باب الخزندار الأكبر للدخول بذرائع الحسابات اليومية ، وشراء اللوازم كما دخلنا نحن إلى مبنى العرش الممنوع الدخول إليه . سُررت لعدم وجود نقّاش بين المنتظرين .

نحن أيضاً انزوينا في زاوية منتظرين . سمعنا صوت كاتب الخزندار يرتفع طالباً تكرار عبارة بسبب خطأ في الحساب ، بعد ذلك صوت معلم أقفال يردَ عليه باحترام . تتجاوز الأصوات حدود الهمس إذ تُسمع تحت القبة أصداء خفقان أجنحة الطيور المتطايرة في الساحة بقوة أكبر من شكايات المهنيين حول النقود واللوازم .

عندما جاء دوري ، ودخلت إلى غرفة الخزندار الأكبر الصغيرة ذات القبة ، لم أر هنالك سوى كاتبٍ . قلت له إنني أطلب مقابلة الخزندار الأكبر بسرعة لمسألة كبيرة بسبب كتاب طلبه سلطاننا ، ويهتم به ، وبقي دون إكمال . همهم كاتب الخزينة شاعراً بأمر ما ، وحملق ، وفرَجته على رسوم كتاب زوج خالتي . عندما رأيت أن عقله تشوش نتيجة غرابة الرسوم ، وكونها خارجة عن المألوف ، أخبرته باسم زوج خالتي ولقبه وعمله ، وأضفت إنه مات بسبب هذه الرسوم . قلت له كل هذا بسرعة لأنني أعرف جيداً أنني إذا عدت من القصر دون الوصول إلى سلطاننا سيقولون إنني جعلتُ زوج خالتي بهذا الشكل .

بعد ذهاب الكاتب لإخبار الخزندار الأكبر بدأت أتصبب عرقاً بارداً . هل يمكن للخزندار الأكبر ، الذي سمعت من زوج خالتي أنه لا يترك سلطاننا ، ويفتح له سجادة الصلاة أحياناً ، ويحفظ سره في بعض الأحيان أن يترك مبنى العرش ويخرج من أجلي ؟ أجد أن مجرد إرسال خبر إلى مبنى العرش - قلب القصر - أمر لا يُصدق . أين يمكن أن يكون حضرة سلطاننا ؟ هل ذهب إلى أحد القصور التي على الشاطئ ؟ أم أنه في جناح الحرم ؟ وهل الخزندار الأكبر معه ؟

بعد وقت طويل نوديت إلى الداخل . للحظة ذُهلت ، ولأقل إن الخوف لم يخطر ببالي ، ولكنني عندما رأيت على وجه معلم صناعة المخمل عند الباب الاحترام والدهشة ، ارتبكت . عندما دخلت خفت لحظة ، واعتقدت أنني لن أستطيع قول شيء . كان على رأسه لفة ذات خيوط لا يضعها إلا هو والوزراء . . . أخذ الكتاب مني ، ووضع الرسوم على رحلة ونظر إليها . خفتُ كأنني راسمها . قبلت طرف ثوبه .

قال : « يا بني هل سمعتَ خطأ ؟ هل توفي زوج خالتك ؟ »

لا أدري إن كان بسبب الانفعال أم بسبب الشعور بالذنب ، لم أستطع الإجابة ، واكتفيت الإقرار هازاً برأسي فقط . وفي اللحظة نفسها حدث ما لم أتوقعه : سالت دمعة من عيني . سالت ببطء على خدي تحت نظرات الخزندار الأكبر المتفهمة ، والمندهشة . وجودي داخل القصر ، ومجيء الخزندار الأكبر من عند السلطان لمقابلتي ، والوجود قرب السلطان إلى هذا الحد جعلنيَ غريباً ، أو لا أدري . تتالت دمعات أخرى من عينيَ ، أصبحت دموعي منهمرة إلى حدّ أنني شعرت بالخجل .

قال الخزندار الأكبر : «ابك كما تشاء يا بني»

بكيت مشهشهاً . كنت أعتقد أنني كبرت خلال السنوات الاثنتي عشرة تلك ، وبلغت النضج ، ولكن الإنسان عندما يقترب إلى هذا الحدّ من سلطانه وقلب دولته يفهم أنه طفل . لم أكن مهتماً لسماع صانع المخمل ، وصانع الفضة اللذين في الخارج شهشهتي . أصبحت مدركاً أنني سأشرح كل شيء للخزندار الأكبر .

وهكذا حكيت له كما أحسست . وعندما رأيت أنني استطعت وضع الخزندار الأكبر بصورة زواجي من شكورة ، وصعوبات كتاب زوج خالتي ، وأسرار الرسوم التي أمامنا ، وتهديدات حسن ، وجثة زوج خالتي شعرت بالراحة . ولكن لشعوري بكياني كله أنني لا أستطيع الخروج من الفخ الذي وقعت فيه إلا إذا وضعت نفسي في ظل عدالة سلطاننا ، سلطان العالم ، اللا متناهية ورحمته شرحت كل شيء . هل سيفهمني ، وينقل حكايتي إلى سلطاننا سلطان العالم مباشرة دون أن يسلمني للجلادين والمعذّبين ؟

قال الخزندار الأكبر : «يجب إعلام النقش خانة بوفاة الأفندي زوج الخالة فوراً ، على النقاشين كافة أن يشاركوا في الجنازة» .

ونظر إلى وجهي متسائلاً عما إذا كان لديَ اعتراض على هذا . منحني

هذا الاهتمام ثقة . حكيت له عن شبهاتي حول من قتل زوج خالتي والمذهب ظريف أفندي وعن السبب . وأشرت له من بعيد إلى رجال الواعظ الأرضرومي ، وهجومهم على الزوايا على أنه يُعزف فيها ويرقص . عندما رأيت أن الخزندار الأكبر نظر إليَّ بشبهة ، أردت مشاركته شبهاتي . أخبرته أن تكليف الأفندي زوج خالتي برسم الكتاب ونقشه يمكن أن يكون ولّد بين النقاشين تنافسا وغيرة لا بد منها من أجل نقود هذا الكتاب ، وشرف إنجازه . وقلت له إنه من الممكن أن تكون سرية العمل تحمل بداخلها حافزاً لتوليد هذا الكره والحقد والتآمر . ولكنني عندما قلتُ هذا كنت أشعر بارتباك أن الخزندار الأكبر يشتبه بي ، كما تشتبهون بي الآن تماماً .

خيّم صمت . ركّز الخزندار الأكبر عينيه على الرسوم ليهرب بهما مني بموقف يبدي فيه الخجل من همي .

قال : «هذه تسع ، مع أنه تم الاتفاق معه على كتاب بعشرة رسوم . لقد أخذ من عندنا ورقَ ذهبٍ أكثر مما هو مستخدم في هذه الرسوم» .

قلت : يجب أن يكون القاتل الكافر قد سرق الرسم الأخير المستخدم فيه كثير من ورق الذهب» .

«من هو الخطاط ؟ لم نعرفه»

«لم يكن قد أنجز المرحوم زوج خالتي نص الكتاب بعد ، كان ينتظر مساعدتي لأنجزه»

يا بني ، أنت تقول إنك عدت إلى اسطنبول لتوك »

« قبل أسبوع ، جئت إلى اسطنبول بعد مقتل ظريف أفندي بثلاثة أيام »

« الأفندي زوج الخالة يرسم كتاباً منذ سنة ولم يكتب نصه ؟ »

« نعم »

« هل أخبرك بما سيشرحه في الكتاب ؟ »

«ما قاله حول إرادة سلطاننا هو : كتاب يدخل الرهبة إلى القلوب من قوة وغنى آل عثمان حماة الإسلام ورافعيه بمناسبة مرور ألف عام على هجرة رسولنا - أي عند إشارة التقويم الإسلامي إلى الألفية . وسيضم هذا الكتاب حكايةً ورسومَ أهم ما في عالمنا وأكثرها قيمة ، وكما في الـ(فراست نامة) سيوضع رسم لسلطاننا في قلب الكتاب . ولأنه سيستفاد من أساليب الأساتذة الأفرنج سيوفز لدى دوق البندقية الإعجاب والرغبة بالصداقة عند رؤيته» .

قال مشيراً إلى الرسوم : «لا أعرف هذا . ولكن هل هذه الكلاب والخيول هي أكثر ما لدى آل عثمان من قيمة وأهمية ؟» .

«كان المرحوم زوج خالتي يقول إن الكتاب سيظهر القوة المعنوية والكدر الخفي لسلطاننا ، وليس غناه الحقيقي» .

«رسم سلطاننا ؟»

«لم أره . إنه حيث أخفاه القاتل الكافر ، من يعلم ، يجب أن يكون في بيته الآن» .

لقد سقط المرحوم زوج خالتي في وضع عدم تحضير الكتاب الذي وعد به مقابل الذهب الذي أخذه ، وعمل مكانه هذه الرسوم التي وجدها الخزندار الأكبر بلا قيمة . هل كان يراني الخزندار الأكبر رجلاً عمل على الزواج من ابنة هذا الفاشل غير المستطيع إنجاز عمل ، أو لأي سبب آخر ، أو أنني قتلته من أجل بيع ورق الذهب ؟ عندما شعرتُ من نظراته أن وضعي سينهار في نظره ، تكلمت بمحاولة أخيرة ، وبارتباك وأخبرته أن زوج خالتي قال إنه من الممكن أن يكون الذي قتل ظريف أفندي هو أحد معلمي النقش الذي يكلفهم بالعمل . وشرحت له كيف اشتبه زوج خالتي بزيتون ، ولقلق ، وفراشة ، ولكن دون إطالة في الحديث . ثم إنه لا يوجد لديَ دليل من جهة ، كما أنه

ليس ثمة ثقة بنفسي من جهة أخرى . كنت أشعر أن الخزندار الأكبر سيعتبرني مجرد مفتر سافل ، وثرثار .

لهذا عندما قال الخزندار الأكبر إنه يجب إخفاء أمر أن موت زوج خالتي ليس طبيعياً عن النقش خانة ، رأيتُ أن هذه أولى إشارات التعاون معي ففرحت . بقيت الرسوم لدى الخزندار الأكبر . عندما خرجت من باب السلام الذي دخلت منه قبل قليل كأنني داخل إلى الجنة تحت نظرات البوابين المتيقظة ، استرحت كمن يعود إلى بيته بعد سنوات طويلة .

* * *

٣٧

أنا زوج خالتكم

صارت جنازتي جميلة جداً كما أردت تماماً . حضر كل من أردته أن يحضر . لقد تذكرني بوفاء الوزير الحاج حسين القبرصي ، الوزير طوبال باقي باشا لخدمتي لهما في زمن مضى وكانا في اسطنبول عند وفاتي . ومجيء (الدفتردار) قرمزي ملك باشا الذي لمع نجمه أيام وفاتي ، وأصبح محط اهتمام أحدث حركة في باحة جامع حينا المتواضع . شعرت بالسرور بشكل خاص لرؤيتي (الشاويش باشي) مصطفى آغا الذي كنت سأتسلّم عمله لو استمررت بعملي في الدولة . ملأ المكان أشخاص مهمون ، منهم كمال الدين أفندي كاتب تراخيص الجندية ، وشاويشية الديوان منهم أصدقائي الحميمون ومنهم أعدائي ، وسليم سرت أفندي كبير المراسلين المحافظ على تفاؤله من خلال ابتسامته الدائمة ، وموظفو الديوان القدماء المتقاعدون باكراً ، وأصدقائي في المدرسة ، وآخرون ، وأقرباء ، وخصوم ، وشبّان كثيرون ، وأصحاب هيبة لا أدري كيف عرفوا بموتي ، وأتوق لمعرفة هذا .

تباهيت بالجمع وجديته ، ومظاهر الحزن البادية عليه . ومجيء الخزندار الأكبر حازم آغا ، وآمر الحامية عرّف الجميع أن حضرة سلطاننا حزن لموتي من كل قلبه . وهل هذا يعني أنه سيبذل جهداً كبيراً لمعرفة السافل الذي

قتلني ، وتحريك الجلادين لهذا الأمر ؟ لا أعرف . ولكنني أرى ذلك الملعون الآن مع النقاشين والخطاطين الآخرين وعلى وجهه علائم الوقار والحزن الشديد ناظراً إلى تابوتي .

لا تظنوا أنني غاضب من قاتلي ، وأنني أريد انتقاماً ، أو حتى إن روحي قلقة لمقتلي غدراً ودون رحمة . إنني الآن في مستوى مختلف ، وروحي مرتاحة جداً لأنها وجدت نفسها بعد أن ذاقت الاضطراب في هذه الدنيا .

تركت روحي مؤقتاً جسدي المتلوي ألماً والملتاث بالدم نتيجة ضربات الحقة ، وبعد أن ارتجفت مدة وسط الأضواء ، اقترب مني ببطء ملكان جميلان وسط ضوء جميل وجههما مثل الشمس مبتسمين كما جاء في كتاب الروح الذي قرأته مرات عديدة ، ثم حملاني من ذراعي إلى الأعلى وكأنني لستُ روحاً ، بل ما زلتُ جسداً . كان ارتفاعنا سريعاً وهادئاً وناعماً جداً كما في الأحلام السعيدة . عبرنا غابات اللهب ، وتجاوزنا أنهار الضوء ، ودخلنا بحار الظلمات ثم جبال الثلج والجليد . يستغرق عبور كل واحدة من هذه آلاف السنين ، ولكنني شعرت أنني أعبرها بلمح البصر .

مررنا بمختلف الجماعات والمخلوقات الغريبة والطيور والحشرات التي لا يستطيع الإنسان وصفها ، وعبرنا فوق مستنقعات ، ووسط غيوم ، وهكذا تجاوزنا السموات السبع . كلما وصلنا إلى إحدى السموات يطرق البابَ ملاك يتقدم ملاكيَ ، ويردَ على سؤال : «من الطارق ؟» بذكر أسماني وصفاتي كلها مضيفاً «العبد الطيب لله جل جلاله» عندئذ تطفح عيناي بدموع الفرح ، ولكنني أعرف أنه من الممكن أن يكون ثمة آلاف السنين حتى يوم القيامة الذي يُفصل فيه أصحاب الجنة عن أصحاب النار .

لأن كل شيء يجري كما كتب العلماء أمثال الغزالي وابن الجوزية وآخرون ولكن بتغييرات طفيفة . مثلاً إن الأمور التي تركت على صفحات

الكتب دون حل ، أو مظلمة ، تُنار الآن كل واحدة منها بانفجار لآلاف الألوان .

كيف يمكن شرح تلك الألوان الرائعة التي رأيتها خلال ذلك الارتفاع الرائع ؟ رأيتُ عالماً مصنوعاً كله من الألوان ، وكل شيء فيه لون . وحسبما فهمت فإن القوة التي تميزني عن بقية الأشياء كلها هي من الألوان ، وإن اللون أيضاً هو الذي يجعل العالم يحتضنني ، وهو الذي يربطني به . رأيت سمواتٍ برتقاليةً ، وأجساداً خضراء بلون ورق الكرمة ، وبيوضاً بنية ، وخيولاً أسطورية زرقاء سماوية . كان كل شيء كما رأيته في الرسوم على مدى سنوات ، وكما في الأساطير ، لهذا كان يبدو لي كل شيء مدهشاً كأنني أراه أول مرة من جهة ، ومألوفاً كأنه يخرج من ذكرياتي بشكل ما من جهة أخرى . أدرك أن ما يدعى ذكرى هو جزء من هذا العالم ، وأن العالم كله أيضاً هو المستقبل المفتوح أمامي كزمان غير محدد هو تجربتي أولاً ، وذاكرتي بعد ذلك . وفهمت سبب راحتي كأنني أخلع قميصاً ضيقاً عندما كنت أموت منتقلاً إلى هذا المهرجان اللوني : لم يبق بعد الآن ثمة محرم عليّ ، ولديّ زمان ومكان غير محددين من أجل عيش الأزمنة والأمكنة كافة .

فور إدراكي هذا شعرت بخوف وسعادة وجودي قربه . كما شعرت بمتعة في تلك الأثناء لوجود لون أحمر لا يمكن مقارنته بشيء أبداً .

خلال فترة قصيرة غدا كل شيء أحمر . شعرت بهذا اللون الجميل في داخلي وفي العالم كله من حولي . كلما اقتربت من وجوده يغدو بداخلي ما يدفعني إلى البكاء . وفجأة شعرت بالخجل لأنني سأمْثُلُ في حضرته وأنا ملتاث بالدماء . جانب آخر من عقلي يقول لي إنه أرسل عزرائيل والملائكة الآخرين لمناداتي للمثول في حضرته .

هل يمكنني أن أراه ؟ اعتقدت أن نَفَسي سينقطع من الانفعال .

كان ذلك المقترب أحمرَ جميلاً ورائعاً يغطي على كل شيء وتتراقص داخله مشاهد العالم كله . الكينونة جزء منه ، وقربه إلى هذا الحد سرّع ذرف الدموع من عيني .

ولكنني أدركت أنه لن يستطيع الاقتراب مني أكثر . وفهمت أنه سأل ملائكته عني ، وقد امتدحوني عنده ، وأنه أحبني لأنني ارتبطتُ بما أباحه وبما منعه وأنني عبده الصالح .

فجأة تسمم بالشك فرحي المتصاعد داخلي ، ودموعي الذارفة . لكي أتخلص من هذه الشكوك وبسرعة سألت شاعراً بالتململ والذنب :

خلال العشرين سنة الأخيرة من حياتي تأثرت برسوم الكفار التي رأيتها في البندقية . حتى إنني طلبت عمل رسم شخصيّ لي حسب أصولهم ، ولكنني خفت من هذا . بعد ذلك طلبت رسم عالمك ، وعبادك وسلطاننا ظلك في الدنيا حسب أصول الكفار .

لم يكن صوته ، ولكنني شعرت بالجواب الي أجبت به داخلي .

«الشرق لي ، والغرب أيضاً» .

لم أستطع الإمساك بنفسي لشدة الانفعال .

«حسنٌ ، ما معنى هذا كله ؟ . . . ومعنى العالم هذا ؟»

شعرتُ أن داخلي يقول : «إنه سر» وأنه قال : «حب» ولكنني لم أتأكد من أي جواب .

أدركت من تصرّف الملائكة معي أنه صدر بحقي قرار مؤقت في هذه السماء ، ولكنني يجب أن أنتظر مع أرواح الذين ماتوا منذ عشرات آلاف السنين ، ومع بهزاد أيضاً حتى يصدر بحقنا القرار الأخير في يوم القيامة . كان مسير كل شيء حسب الكتب يجعلني مسروراً . تذكرت مما قرأت في

الكتب عند نزولي إلى أسفل أن عليَ لقاء جسدي من جديد عندما أدفن .

ولكنني أدركت فوراً أن دخولي مجدداً إلى جسدي هو مجاز بلاغي . كم كان منتظماً جمع الجنازة الوقور الذي منحني اعتزازاً عندما حمل نعشي ، ونزل بسرعة إلى مقبرة (تبة جيك) القريبة ، وكنت أراه من الأعلى مثل خيط رفيع ليّن .

لأوضح مكاني : كما يفهم من حديث رسول الله : « روح المؤمن طير يأكل على أغصان الجنة » فإن الروح تتجول في السموات ، ولا تغدو طائراً أو تأخذ شكل الطير كما ادعى أبو عمر بن عبد البر . بل كما شرح ابن الجوزية بشكل جيد جداً بأن هذا يعني تجول الروح في الأماكن التي يمكن للطير أن يتجول فيها . المكان الذي أرى منه ، والذي يسميه أساتذة البندقية محبي المنظور : « زاوية الرؤية » يثبت صحة ادعاء ابن الجوزية .

أستطيع أن أرى من حيث أنا . مثلاً : جمع الجنازة يدخل الآن إلى المقبرة مثل خيط ، حتى إنني أتفرج بمتعة على تسارع سفينة تضرب الرياح أشرعتها عند انتهاء الخليج والانعطاف نحو (سراي بورنو) وكأنني أتفرج على رسم . ولأنني أنظر من ارتفاع مئذنة يتهيأ لي أن العالم مثل كتاب رائع أقلّب صفحاته صفحة صفحة .

ولكنني أستطيع رؤية أكثر مما يستطيع من يصعد إلى مرتفع كهذا ، ولم تخرج روحه من جسده . أستطيع الآن رؤية ما هو أبعد من الطرف الشرقي لاسطنبول أي ما وراء الأسكدار حيث يلعب الأولاد في حديقة فارغة لعبة (القفز المتتالي) ، والتقدم الجميل لمركب ذي سبعة أزواج من المجاديف في البوسفور عندما كنا مع رئيس الكتبة مرافقين سفير البندقية من استراحته للمثول بين يدي الصدر الأعظم راغب باشا الأقرع قبل اثنتي عشرة سنة وثلاثة أشهر ، وملفوفة كبيرة في سوق (لانغة) الجديد ، وامرأة سمينة تحتضن

ابنها كأنها سترضعه ، وسروري لموت الجاويش رمضان أفندي وانفتاح الطريق أمامي ، وفرجتي على القمصان الحمراء في حضن جدتي عندما كانت أمي تنشر الغسيل في باحة الدار ، وركضي إلى هنا وهناك عندما كانت أم شكورة تعاني من آلام المخاض وقد تاهت الداية بالبيت فذهبت إلى حي بعيد ، ومكان حزامي الأحمر الذي فقدته قبل أكثر من أربعين سنة (سرقه وصفي) ، والحديقة الرائعة البعيدة جداً التي رأيتها في حلمي قبل إحدى وعشرين سنة وقلتُ إن شاء الله سيريني الله جنته ، وأنوف وآذان العاصين في قلعة (غوري) بعد أن غلبهم (بيك بيكوات) جورجستان علي بيك ، كما إنني الآن في الوقت نفسه أستطيع رؤية شكورتي الحلوة التي تترك نساء الجيران القادمات إلى بيتنا خارجة إلى الفسحة تبكي وهي تنظر إلى الموقد .

جاء في الكتب - ويقول العلماء القدامى - إن للروح أربعة أوطان : ١- بطن الأم . ٢- الحياة . ٣- البرزخ الذي أوجد فيه الآن . ٤- الجنة أو النار حيث ستذهب بعد يوم القيامة .

وحسب رأي بهزاد فإن الماضي والحاضر يظهران في الوقت نفسه ، ومع بقاء الروح في الذاكرة فلا تُحدّد بمكان . ولكن لا يُفهم أن الحياة عبارة عن قميص ضيّق إلا بعد خروج الروح من زنزانة الزمان والمكان . ومع الأسف لا أحد قبل الموت يستطيع إدراك أن الروح دون جسد هي سبب السعادة في عالم الأموات ، كما أن سبب السعادة الكبرى بين الأحياء هو جسد دون روح . لهذا السبب شعرت بالحزن وأنا أرى شكورة منهكة نفسها بالبكاء من أجلي في أثناء جنازتي ، لهذا السبب توسلت إلى الله جل جلاله أن يمنحنا في الجنة روحاً دون جسد ، وفي الدنيا جسداً دون روح .

* * *

٣٨

أنا الأستاذ عثمان

تعرفون كيف يغدو المسنون العتيقون المتقدمون في السن مانحين حياتهم للفن بسخاء . يؤنبون الجميع . هم طوال ، ونحيلون ، وبارزو العظام . يريدون أن تبقى المدة القصيرة المتبقية من حياتهم تكراراً لجزئها الطويل الذي خلّفوه وراءهم ، ويغضبون بسرعة وبشدة ، ويشتكون من كل شيء ، ويمسكون برؤوس الخيوط كلها ، ويخرجون أي شخص عن دينه بسبب إلحاحهم الشديد . لا يعجبهم أحدٌ ، أو شيء . أنا واحد من هؤلاء .

هكذا كان أيضاً معلم المعلمين السيد نور الله سليم ، وقد نلت شرف العمل معه في نقش خانة واحدة ، ركبة لركبة عندما كان في الثمانين وأنا تلميذ نقاش في السادسة عشرة من عمري (لم يكن غضوباً بقدري) ، وهكذا كان أيضاً (علي ساري) آخر المعلمين الكبار الذي دفنّاه قبل ثلاثين سنة (وهذا لم يكن طويلاً ونحيلاً مثلي) . ولأنني أعرف أن ما كان يصوب إلى ظهور أولئك الأساتذة الأسطوريين من سهام نقد يصوّب الآن إلى ظهري ، أريد إعلامكم أنه لا أصل لبعض العبارات التي تلصق بنا مثل القوالب .

١- لا نعجب بأي جديد ، لأنه في الحقيقة ليس ثمة جديد يستحق الإعجاب .

٢- إننا نعامل أكثر البشر على أنهم مخبولون لا لأننا مصابون بالعصاب

أو الاكتئاب ، أو أي مرض آخر ، بل لأن أغلب الناس مخبولون (ولكن تصرفنا معهم بشكل جيد هو ظرافة وذكاء) .

٣- خلطي بين الأسماء والوجوه خارج نقاشيَ الذين ربيتهم على العشق منذ الصغر ، وأحببتهم غيرُ ناتج عن الخرف ، بل ناتج عن فقر تلك الوجوه والأسماء للَون والبريق إلى حد عدم استحقاقها الاستذكار .

في جنازة زوج الخالة الذي أخذ الله روحه باكراً بسبب خبله ، عملت على تناسي الآلام التي سببها المرحوم لي بإجباري على تقليد أساتذة الأفرنج في يوم ما . وفي أثناء عودتي فكرت على النحو التالي : العمى والموت باعتبارهما هبة من الله ليسا بعيدين عني . طبعاً سأذكر من خلال الرسوم التي نقشتها ، والكتب التي أعددتها وبقدر ما ستمتع تلك النقوش والكتب أبصاركم ، وتفتح أزهار السعادة في قلوبكم . ولكن ما أريد أن يعرف عني بعد موتي هو : ما زال هنالك كثير من الأشياء التي تجعلني أبتسم بسعادة في أثناء تقدمي بالسن واقتراب موتي . مثلاً :

١- الأولاد . (يختزلون قواعد العالم كله) .

٢- الذكريات الحلوة (الغلمان الحلويين ، النساء ، الرسم الجميل ، الصداقة) .

٣- رؤية روائع أساتذة هرات القدماء (وهذا لا يمكن شرحه لمن لا يعرفه) .

معنى كل هذا باختصار : لم تعد تُنجز أعمالٌ رائعة في نقش خانة سلطاننا التي أرأسها كما كان في السابق . كما أنني أرى سير الأمور نحو الأسوأ ، وأن كل شيء سيستهلك وينتهي . على الرغم من تقديم عمرنا لهذا العمل بعشق ، أشعر أننا نادراً ما نصل إلى جماليات أساتذة هرات القدماء . وقبول هذه الحقائق بتواضع يسهّل الحياة . ولأن التواضع أصلاً يسهّل الحياة ،

فهو من القيم المقبولة في عالمنا هذا .

وبتواضع كهذا أعمل على تصحيح رسم من رسوم كتاب (سرنامة) الذي يعرض ختان ابن سلطاننا ، ويتضمّن الرسم تقديم والي مصر سيفاً موضوعاً على مخمل أحمر مطرز بنعومة ، مشغولاً بالذهب ، ومرصعاً بالياقوت والزمرّد والفيروز ، وحصاناً عربياً أعنته ورسنه من الذهب ومرصعة باللؤلؤ والزبرجد ، ويسيل المخاط من أنفه ، ووبره أكثر لمعاناً من الفضة ، جموحاً متوفزاً أسرع من البرق ، وفوقه سرج مخملي أحمر ، طرز عليه شموس بالياقوت . نفّذت ضربات فرشاة على يمين الرسم ويساره بعد أن وزعت عناصره ، وجعلتُ التلاميذ يلونون الحصان والسيف والأمير والسفراء الذي يتفرجون على مراسم التقديم . أضفتُ بنفسجياً إلى بعض أوراق شجرة البلوط التي في ساحة الخيل . كما وضعت لمسات فرشاة صفراء على أزرار سفير خان التتار . ثم قرع الباب عندما كنتُ أعمل لمسات صغيرة جداً بماء الذهب على رسن الحصان . توقفت .

إنه أحد الصبية البوابين . قال إن الخزندار الأكبر يطلبني من القصر . اغرورقت عيناي فرحاً . وضعت عدستي المكبرة في جيب قفطاني وخرجت .

يا لجمال المشي في الأزقة مطولاً بعد عمل لمدة طويلة! . . . يبدو العالم جديد جداً ، ومدهش كأن الله خلقه للتو .

رأيتُ كلباً كان محملاً بالمعاني أكثر من الرسوم كلها . رأيتُ حصاناً . نقاشيَ المعلمون يرسمون أكثر منه تعبيراً . رأيت شجرة بلوط في ساحة الخيل . إنها الشجرة التي كنتُ أضيف إلى بعض أوراقها اللون البنفسجي قبل قليل .

الدخول إلى ساحة الخيل التي أرسمها منذ سنتين ، والمسير فيها يشبه دخول الإنسان إلى رسم له ، والمسير داخله . ننعطف إلى زقاق ، إذا كنا

داخل رسم أفرنجي فسنخرج من الإطار والرسم ، وإذا كنا في رسم على طريقة أساتذة هرات كما نرسم نحن فسنصلُ إلى مكان يراه الله ، وإذا كنا في رسم صيني فلا نخرج منه أبداً ، لأن رسوم الصينيين تمتد إلى ما لا نهاية .

لم يقدني الصبي البواب إلى غرفة الديوان التي كنت ألتقي فيها الخزندار الأكبر للحديث عن مدفوعات الأجرة والهدايا التي يحضرها النقاشون وبيوض النعام المنقوشة لتقديمها لسلطاننا ، وعن صحة النقاشين وسلامتهم وراحتهم ، وتأمين الأصباغ وورق الذهب واللوازم الأخرى ، والشكايات والطلبات العادية ، وحالة سلطاننا سلطان العالم وأوامره ومتعته ، وعينيَ وعدساتي وآلام ظهري ، وصهره السافل ، وقطته المرقطة بالأسود والرمادي . دخلنا صامتين إلى الحديقة الخاصة . ومن بين الأشجار الأكثر صمتاً منا نزلنا نحو البحر بدقة كأننا نرتكب جريمة . كنت أقترب من القصر الساحلي ، وعندما قلت لنفسي لا بد أنني سأقابل السلطان ، وأنه هناك ، خرجنا عن الطريق . مشينا عدة خطوات ، ثم دخلنا إلى منزل حجريٍ وراء بناء المراكب من باب ذي قنطرة . كانت تنبعث رائحة خبز من تنور رئيس حامية القصر والمدينة . رأيت جنود الحامية بألبستهم الحمراء .

في غرفة واحدة يجتمع رئيس حامية القصر والمدينة والخزندار الأكبر! . . . هذا يعني ملاكاً وشيطاناً .

ابتسم لي بحلاوة رئيس الحامية الذي ينفذ الإعدام في ساحة القصر ، ويشرف على التعذيب ، ويستنطق ، ويضرب بالعصا ، ويفقأ العيون ، ويطرح من أجل الفلقة ، باسم سلطاننا ، وكأن صديقاً اضطررت للنزول معه في غرفة خان صغير سيحكي لي حكاية ممتعة .

ولكن الذي بدأ يشرح هو الخزندار الأكبر وليس رئيس الحامية :

قال بأداء خجول : «قبل سنة أمرني سيدنا – على أن يحاط الأمر

بسرية تامة - بتحضير كتاب ليكون بين هدايا بعثة سفراء . وبسبب هذه السرية لم يجد أنه من المناسب تكليف أستاذنا لقمان كبير كتاب السير بكتابته ، كما لم يدخلك في هذا الموضوع على الرغم من إعجابه الشديد بمهارتك . وقدّر حضرته أنكم مشغولون بما يكفي بالسرنامة التي تحكي عن وقائع احتفال ختان الأمراء » .

فور دخولي إلى الغرفة تخيلت مندهشاً أن سافلاً قد افترى عليّ مدعياً أن في الرسم الفلاني كفراً ، أو يتعرض من خلال الرسم العلاني لعظيم العالم . والآن شعرت بكلمات (مراضاة) الخزندار الأكبر أنه سيكلفني بكتاب آخر ، وأن تلك الكلمات أحلى من العسل . استمعت إلى حكاية الكتاب التي أعرفها أكثر مما هو يحكي . ولم أتعرف على شيء جديد : أنا أعرف تلك الشائعات ، ومن المؤكد هي حول الشيخ نصرت الأرضرومي ، والصراعات في النقش خانة .

ولمجرد أن أسأل سؤالاً سألت عمن يحضّر هذا الكتاب على الرغم من معرفتي الجواب .

قال الخزندار الأكبر : «الأفندي زوج الخالة كما تعلمون» ثم وجه نظره إلى عيني وأضاف : «هل تعلمون أنه لم يمت موتاً طبيعياً ، وأنه قتل ؟ »

قلتُ ببساطة كطفل : «لم أعلم» وسكتُ .

قال الخزندار الأكبر : «غضب سلطاننا كثيراً جداً جداً» .

كان ذلك التائه المدعو الأفندي زوج الخالة بنصف عقل . لأن لديه عناية أكثر من معرفة ، وهوساً أكثر من ذكاء كان يذكره الأساتذة النقاشون بسخرية مبتسمين . . . وأنا أساساً شعرت بشبهة في أثناء الجنازة . كيف قتل يا ترى ؟ .

حكى الخزندار الأكبرعن هذا . أمر فظيع . اللهم احمنا . من ؟ قال

الخزندار الأكبر : «أصدر سلطاننا أمراً بأن ينجز هذا الكتاب كما السرنامة في أقرب فرصة . . .»

قال آمر الحامية : «هنالك أمر ثان . يريد أن يلقى القبض على الشيطان السيئ القلب ، القاتل المقرف إن كان بين النقاشين . ويعاقب عقوبة تكون عبرة للجميع ولا يجرؤ أحد بعدها على أن يفكر بعرقلة كتاب سلطاننا ، أو قتل أحد نقاشيه» .

ظهر على وجه آمر الحامية تعبير انفعال ، وكأنه يعرف العقوبة التي سينزلها سلطاننا بالمجرم .

فهمت أن سلطاننا قد كلفهما معاً بالأمر قبل قليل ، وإجبار سلطاننا لهما للقيام بعمل مشترك جعلهما لا يخفيان كرههما منذ الآن ، ولهذا شعرت بأكثر من إعجاب بسلطان سلاطيننا ، إنه الحب . جلب أحد الصبية قهوة ، وجلسنا .

للأفندي زوج الخالة ابن أخت لزوجته يفهم في النقش والكتب ، وهو الذي رباه : قرة . هل أعرفه ؟ سكتُ . قبل فترة قصيرة عاد إلى اسطنبول بناء على دعوة زوج خالته . وكان يعمل لدى سرهاد باشا عند حدود بلاد العجم (نظر آمر الحامية نظرة توحي بالشبهة) . اقترب من زوج خالته كثيراً في اسطنبول ، وعلم بحكاية الكتاب الذي يحضّره : ويقول إن زوج خالته كان يشتبه بمعلمي النقش الذين كانوا يترددون عليه بعد منتصف الليل في قضية مقتل ظريف أفندي . وقد رأى الرسوم التي رسمها معلمو النقش من أجل الكتاب ، ويدّعي أن أحد رسوم الكتاب ، وهو رسم سلطاننا المستخدم فيه كثيرٌ من ورق الذهب قد سرقه القاتل . وقد أخفى هذا الشاب مقتل زوج الخالة عن الخزندار الأكبر والقصر يومين . وهو موضع شبهة بالنسبة إلى كليهما لأنه خلال هذه الفترة عقد قراناً مستعجلاً ، يحمل شبهة حسب

كتابنا ، وسكن في البيت .

قلتُ : « إذا فُتشت بيوت معلمي النقش ، ووجدت الصفحة المفقودة في بيت أحدهم ، فسيثبت أن كلام قرة حق ، ولكن إذا كان المقصود نقاشيَ الذين أعرفهم منذ كانوا تلاميذ ، وهم أبنائي الأحباء وأصحاب أيدي معجزة فإن أحداً منهم لا يقدم على زهق روح » .

قال آمر الحامية : « زيتون ، ولقلق ، وفراشة » مستخدماً لهجة ساخرة في لفظ الأسماء التي لقبتهم بها بحب ، وأضاف : « سنفتش وبدقة بيوتهم ومخابئهم ودكاكينهم إن وجدت ، وكل ما لهم » بعد ذلك أضاف بتعبير اليائس : « والحمد لله أننا من أجل حل هذه المشكلة حصلنا على إذن بالتعذيب في أثناء الاستنطاق . ومقتل شخص آخر قريب من أوساط النقاشين يفرض تطبيق قانون التعذيب على النقاشين كافة ، لأنهم متهمون بدءاً من التلاميذ وانتهاء بالمعلمين » .

فكرتُ بيني وبين نفسي ففهمت أنه : ١- بقولهما : « يفرض تطبيق قانون التعذيب » يتبين أن الإذن لم يصدر عن سلطاننا بعد . ٢- حسب رأي القاضي أن النقاشين كافة تحت الشبهة يعني أنني متهم لعدم اكتشافي القاتل الذي بيننا والإبلاغ عنه . ٣- يريدون موافقتي على تعذيب فراشة وزيتون ولقلق أحباني الذين خانوني في السنوات الأخيرة قبل تعذيب بقية النقاشين ، ولتكن هذه الموافقة صريحة أو غير مباشرة .

قال الخزندار الأكبر : « لأن سلطاننا يريد إنجاز هذا الكتاب غير المكتمل إضافة إلى السرنامة ، وعلى أكمل وجه ، فإننا قلقون من تأثير التعذيب على أيدي المعلمين وعيونهم ومهارتهم » ثم التفت إليَ : « أليس كذلك ؟ » .

قال آمر الحامية بفظاظة : « حدث قلق مشابه في الأيام الماضية . وسوس الشيطان لأحد الصاغة العاملين في إصلاح المجوهرات فانجذب كالأولاد إلى

فنجان حجري ذي مقبض ياقوتي ، فسرقه من السلطانة نجمية أخت سلطان سلاطيننا . ولتعلّق أخت السلطان بالفنجان كثيراً غرقت في الهم ، ولأن الحادثة وقعت في قصر الأسكدار كُلّفتُ بهذه المهمة . وفهمت أن السلطانة نجمية مثل سلطاننا قلقة من أجل مهارة الصاغة وأعينهم وأصابعهم ، فأمرت بتشليح الصاغة وصناعهم ، ورميهم في بركة الماء المتجمد في الحديقة بين الضفادع . وأحياناً كنت أخرجهم من البركة ، وأجلدهم بالسوط بانتباه وشدة دون أن أصيب وجوههم وأيديهم ، وخلال فترة قصيرة اعترف المنقاد وراء الشيطان ، وقبل عقابه . وعلى الرغم من الجلد بالسوط ، والتغطيس في الماء البارد كالثلج لم تصب عيون وأصابع معلمي الصياغة بأذى لأن قلوبهم نظيفة . وقال لي سلطاننا إن أخته سرّت كثيراً للأمر ، وإن الصاغة صاروا يعملون بهمة أعلى بعد أن اقتلعت من بينهم بذرة السوء » .

كنتُ واثقاً أن آمر الحامية سيتصرف مع نقاشيَّ المعلمين بقسوة أكبر من تلك التي تصرّف بها مع الصاغة . وإذا كان يحترم محبة سلطاننا للكتب ، فإنه يعتقد مثل كثيرين أن الفن الأصلي هو فن الخط ، وأن الرسم والنقش بشكل خاص اقتراب من حدود الخروج عن الدين ، وعمل لا لزوم له يجب المعاقبة عليه ، ويحمل تشبهاً بالنساء . ولكي يحاصرني قال : «لقد بدأ نقاشوك المحببون بحياكة الحبائل منذ الآن وأنتم على رأس عملكم بكامل قوتكم من أجل تسلم منصب كبير النقاشين بعد موتكم» .

هل ثمة مؤامرة جديدة ، أو حياكة حبائل لا أعرفها ؟ أمسكتُ نفسي ، وسكت . الخزندار الأكبر مدركاً لغضبي الشديد من نقاشيَّ الذين يعملون في الكتاب المكلف به المرحوم ذي نصف العقل دون علمي من أجل عدة قروش .

انتبهت لنفسي وأنا أتخيل طرق التعذيب التي سيتعرض لها نقاشيَّ . لا يمكن أن يسلخوا جلودهم في أثناء الاستنطاق لأن هذا طريق لا عودة منه ،

كما لا يمكن لهم أن يجلسوهم على الخوازيق كما يعملون مع العصاة لأن هذه العقوبة الرادعة تؤدي إلى الموت . كما أنه لا يمكن تكسير أذرع وأرجل وأصابع النقاشين ، كما أنه من غير اللائق أيضاً فقأ عين لكل نقاش كما صرنا ندرك ، من مصادفة العوران كثيراً في طرقات اسطنبول في الأيام الأخيرة ، إن هذا الأسلوب شائع التطبيق حالياً . وهكذا عندما تخيلت أحباني النقاشين في زاوية مظلمة من زوايا حديقة القصر يرتجفون برداً في بركة ماء وسط أزهار (النيلوفر) يتبادلون النظر بحقد ، أحسست برغبة بالضحك . ولكنني عندما تخيلت كيف يصرخ زيتون عندما يكوى جسده بقضبان الحديد المحمّاة ، واصفرار لون فراشة بتأثير القيد شعرت بالألم . لم أفكر مجرّد التفكير ببطح فراشة تحت الفلقة مثل صانعٍ لص وهو الذي تدمع عيناي أحياناً لمهارته وعشقه للفن .

للحظة غاص عقلي العجوز في سحر صمت عميق . كنا في يوم ما ننسى كل شيء معاً ، وننقش بعشق .

قلتُ : « إنهم أمهر نقاشي سلطان سلاطيننا ، لا تفرّطوا بهم » .

نهض الخزندار الأكبر من مكانه ممنوناً ، وتناول مجموعة أوراق من فوق رحلة في الطرف الآخر للغرفة ، ووضعها أمامي ، ثم حمل شمعدانين كبيرين مماوجاً لهبهما ووضعهما على جانبيَ وكأن الغرفة مظلمة . كانت تلك الرسوم التي يحكي عنها .

كيف يمكنني أن أشرح ما رأيته عندما كنت أجوب بعدستي فوقها ؟ شعرت بحاجة إلى الضحك ، ولكن ليس لأن الرسوم مضحكة . كنت أشعر بالغضب ، ولكن ليس لأنها رسوم تؤخذ على محمل الجد . كأن الأفندي زوج الخالة قد قال لنقاشيَ المعلمين : لا ترسموا وكأنكم أنتم ، ارسموا وكأن غيركم يرسم . كأنه أجبرهم على تذكر ما هو ليس في ذاكرتهم ، وتَخَيّلِ

مستقبلٍ لا وجود له في خيالهم . الأمر الذي لا يصدق هو أن يقتل هؤلاء بعضهم بعضاً من أجل هذه التفاهات .

قال الخزندار الأكبر : «هل تستطيع تحديد الخطوط التي رسمها كل رسام بالنظر إليها ؟ »

قلتُ غاضباً : نعم ، أين وجدتم هذه الرسوم ؟ »

قال الخزندار الأكبر : «جلبها قرة بنفسه ، وسلمها . إنه يعمل على تبرئة نفسه ، وتبرئة المرحوم زوج خالته» .

قلت : «عذّبوه في أثناء استنطاقه ، وتعرفوا على بقية أسرار المرحوم زوج الخالة» .

قال آمر الحامية بانهماك : «أرسلنا أحد الرجال لاستدعائه ، وبعد ذلك سنفتش في كل أرجاء البيت ، أي بيت الصهر الجديد » .

بعد ذلك ظهر على وجهيهما إشراق غريب ، إشراقٌ وخوفٌ ، وإعجاب ، فهبّا واقفين .

وقبل أن أدير ظهري فهمت أن حضرة سلطاننا سلطان العالم قد دخل .

* * *

٣٩

اسمي إستر

كم هو جميل أن تبكي مجموعة في آن واحد . عندم اجتمعت النساء كلهن من الخصوم والأقرباء والأصحاب في البيت عند التحضير لجنازة أبي شكورة المسكينة وبدأن يبكين ، أخذت ألطم نفسي معهن وأبكي مطولاً . أحياناً أستند تماماً إلى الفتاة الجميلة التي بجانبي ، وأتمايل معها بشكل جميل باكية ، وأحياناً أتألم على حياتي المحزنة وأصب الدموع على مقام آخر . لو بكيت كل أسبوع بهذا الشكل سأنسى أنني أتجول طوال اليوم في الأزقة لكسب لقمة عيشي ، وأنسى الاستهزاء بي لسمنتي ويهوديتي ، ولصرت إستر الأكثر ثرثرة مما أنا عليه .

بقدر ما نسيت أنني نعجة سوداء وسط هذا الزحام والمراسم ملأت معدتي ، وفرحت . أنا أدوخ في تناول البقلاوة ومعجون النعنع والخبز بمسحوق اللوز والفواكه المجففة في مراسم الأعياد ، وأكل الرقائق المحشوة بالأرز واللحم على شكل فنجان في احتفالات الختان ، وشرب شراب الكرز في احتفالات ساحة الخيل التي يقيمها السلطان ، وأكل كل شيء في الأعراس ، وتناول الحلاوة بالسمسم أو العسل أو المسك بعد الجنازات .

خرجتُ إلى الموزع بصمت ، ولبست حذائي ، ثم نزلت إلى الأسفل . قبل أن أنعطف نحو المطبخ سمعت صوتاً غريباً ينبعث من الغرفة المحاذية

للاسطبل الموارب بابُها ، فخطوت خطوتين ، وألقيت نظرة خاطفة إلى الداخل فوجدتُ شوكت وأورهان ربطا بحبل أحد أولاد النساء الباكيات في الأعلى ، ويلونان وجه الولد بفراشي المرحوم جدهما . صفع شوكت الولد على وجهه قائلاً : إذا حاولت الهرب سنصفعك هكذا » .

قلتُ بصوتي الأكثر مخملية وكذباً : « يا صغاري! العبوا بشكل حلو ، لا تؤذوا بعضكم البعض . ألا يمكن هذا ؟ »

قال شوكت صارخاً : « لا تتدخلي أنت! »

رأيت بجانبهم أخت الولد الذي يعذبانه ، وهي شقراء ، صغيرة ، خائفة . كدت أضع نفسي في موضعها . . . انسي كل شيء يا إستر! . . .

في المطبخ ، نظرتْ إليَ خيرية بشبهة .

قلتُ : « نشفت لشدة ما ذرفت عيناي مثل نبعين . خيرية ، أعطني كأس ماء كرمى لله »

أعطتني بصمت . قبل أن أشرب نظرت إلى عينيها المتورمتين من البكاء .

قلتُ : « مسكين الأفندي زوج الخالة . يقولون إنه مات قبل أن تتزوج شكورة . أفواه الناس ليست أكياساً لنزمّها . . . حتى إنهم يقولون إنه لم يمت موتاً طبيعياً » .

في لحظة نظرتْ إلى طرف حذائها بشكل واضح ، بعد ذلك رفعت رأسها ، ودون أن تنظر إليَ قالت : « اللهم احمنا من الافتراءات » .

حركتها الأولى تعني : « صحيح ما تقولين » ومن نبرة كلامها أشعر أنها أضافت هذا اضطراراً .

سألتُها : « ماذا حدث ؟ » هامسةً ، وكأن إحدانا تفضي بسر إلى الأخرى .

ولكن خيرية المترددة رأت بالتأكيد أنها فقدت الأمل بتحقيق تفوق على شكورة بوفاة الأفندي زوج الخالة . وكانت تبكي من قلبها كله في الأعلى قبل قليل أكثر من الجميع .

قالت : « ماذا سيحدث لي الآن ؟ »

قلتُ لها باعتياد نقل الأخبار : « شكورة تحبك كثيراً » وبدأت أرفع أغطية القطرميزات المسيّلة للعاب المصفوفة بين قطرميزي الدبس والمخلل ، وأتناول قطعة من كل واحد ، وأحياناً أكتفي بشم بعضها ، وأسأل عن مرسل كل قطرميز حلاوة .

كانت خيرية تعدد الأشخاص قائلة : « من قاسم أفندي القيسري ، من النقاش المتدرب الذي يسكن بعد زقاقين من هنا ، من بيت حمدي الأعسر صانع المفاتيح ، من عند العروس الأدرنية » ولكن شكورة قاطعتها قائلة : « زوجة المرحوم ظريف أفندي لم تأت للعزاء ، ولم ترسل خبراً أو حلاوة » .

خرجتْ من باب المطبخ وسارتْ نحو الفسحة الحجرية حيث ينتهي الدرج . فهمت أنها تريد التحدث معي بعيداً عن خيرية ، فتبعتها .

قالت شكورة : « ليس هنالك عداوة بين ظريف أفندي وأبي . نحن صنعنا حلاوة يوم جنازته وأرسلناها . أريد أن أعرف ما يجري » .

قلت فاهمة ما تفكر فيه شكورة : أنا أذهب الآن ، وأستفسر » .

قبلتني لأنني لم أطل الكلام معها . كان البرد يتغلغل إلى داخلنا فبقينا متعانقين هكذا مدة . بعد ذلك داعبتُ شعر حسناني شكورة .

قالت : « أنا خائفة يا إستر » .

قلت : « لا تخافي يا روحي . في كل أمر خير ما . انظري كيف تزوجت في النهاية » .

قالت : «ولكن هل تصرّفت بشكل صحيح ؟ هذا ما لا أعرفه . لهذا لم أقرّبه مني . أمضيت ليلتي بجانب أبي المسكين» .

حملقتْ ناظرة في عيني كأنها تقول : «هل تفهمين ؟»

قلتُ لها : «يقول حسن إن قرانك لا قيمة له في نظر القاضي ، وأرسل لك هذا» .

ومع أن شكورة قالت : «مستحيل» ، لكنها اختطفت الورقة من يدي ، وقرأتها . ولكنها لم تخبرني بما قرأت هذه المرة .

إنها على حق ، لأننا لم نكن وحيدتين في الموزع حيث تعانقنا ووقفنا . ثمة نجار يوزع ابتسامات مصطنعة متعرضاً لنا وللنساء الباكيات يصلح سحاب نافذة في هذا الصباح الباكر لا أعرف سبب خلعها . وهنالك خيرية أيضاً تخرج من البيت كثيراً في الوقت نفسه ، وابن الجيران الوفي الذي يهرع لفتح باب الحوش عندما يُطرق ، ثم ينادي : «جُلبت حلاوة»

قالت شكورة : «مضى زمن على دفنه . أنا أشعر أن روح أبي الآن تترك جسده للمرة الأخيرة ، وترتفع إلى السماء» .

انسحبت من بين ذراعي ، ونظرتْ مطولاً إلى السماء ، وقرأتْ دعاءً .

فجأة شعرت أنني بعيدة عنها وغريبة . لا أدهش إن كنت بمثابة غيمة في السماء تنظر إليها شكورة . فور انتهائها من دعائها قبلتني . قبلتني بين عيني بمحبة .

قالت : «إستر ، إذا بقي قاتل أبي حياً فلا راحة لي أو لولديّ» .

سرّني عدم ذكرها اسم زوجها .

«اذهبي إلى بيت ظريف أفندي ، واستدرجي زوجته بالكلام ، واعرفي سبب عدم إرسالها حلاوة لنا ، وأبلغيني فوراً بالخبر» .

قلت : «هل لديك ما تقولينه لحسن ؟» .

شعرتُ بالخجل ، لا لأنني سألتها عن هذا ، بل لأنني لم أنظر إلى وجهها وأنا أسألها . ولكي لا يفهم خجلي أوقفت خيرية ، وفتحتُ غطاء الوعاء الذي بيدها ، وقلت : « أووو ، حلاوة السميد بالفستق » وألقيت قطعة صغيرة في فمي ثم أضفت : « وضعوا لها نارنج أيضاً » .

وفي لحظة رؤيتي شكورة مبتسمة بشكل حلو سررت وكأن كل شيء على ما يرام .

تناولت صرتي وخرجت . لم أبتعد خطوتين ، رأيت قرة في أول الزقاق . فهمت من مشيته وتبختره أنه عائد للتو من دفن حميه ، وهو مسرور جداً من حياته ، ولكي لا أقطع عليه هذه المتعة خرجت من الطريق ، ودخلت البستان ، عابرة من حديقة بيت أخي حبيبة الحكيم اليهودي موشي هامون الشهير . كلما عبرت من هذه الحديقة التي تفوح منها رائحة الموت تبعث في نفسي الحزن ، وأنسى أن عليَ إيجاد مشترٍ لهذا البيت .

رائحة الموت التي في تلك الحديقة موجودة في بيت ظريف أفندي أيضاً ، ولكن لم يكن هنالك حزن أبداً . دخلتُ آلاف البيوت ، وعرفت مئات النساء الأرامل ، وأعرف أنهن يقعن تحت تأثير سحر الهزيمة أو الحزن أو تحت تأثير الغضب والتمرد (شكورتي العزيزة أخذت نصيبها من الجانبين) لقد شربت قلبية خانم سم الغضب . ورأيت فوراً أن هذا يسرّع مهمتي .

تعمل قلبية خانم كالنساء المتمسكات بكرامتهن عندما تظلمهن الحياة فلا تبدأ حديثاً مع اللواتي يطرقن باب دارها إشفاقاً عليها ، أو بسبب أسوأ من هذا ، لينظرن إلى حالتها المؤلمة سراً ، ويشعرن بالسرور لحالتهن ، لذلك كانت تدخل في الموضوع مباشرة دون مداورة . ترى لماذا طرقت الباب إستر هذه عندما كانت قلبية على وشك إعداد الفاكهة بالسكر ؟ ولأنني أعرف أنها لا تهتم للحرير الجديد الذي جاء من السفينة القادمة من الصين ، ولا المناديل

القادمة من بورصة لذلك لم أحاول حتى التظاهر بأنني أفتح صرتي ، ودخلت في الموضوع مباشرة وبسرعة ، وشرحت لها همّ شكورة الدامعة العينين . قلت : «تفكير شكورة المسكينة بأنها كسرت خاطر قلبية خانم التي تقاسمها الهم نفسه دون إرادة يزيد همها هماً» .

أكدت قلبية خانم ، وبلهجة مغرورة أنها لم تسأل عن شكورة أو تذهبْ للعزاء والمشاركة بالحداد ، وحتى إنها لم تقبل على نفسها عمل حلاوة وإرسالها . وطبعاً كان هنالك سرور وراء كلماتها المغرورة تلك : ملاحظة القطيعة - وعملت إستر الذكية على البدء من نقطة الضعف هذه لمعرفة سبب غضبها - وما يجري .

قبل مضيّ وقت طويل صرّحت قلبية خانم إنها غاضبة من المرحوم الأفندي زوج الخالة بسبب الكتاب الذي كان يحضّره . وقالت إن زوجها المرحوم لم يقبل هذا العمل من أجل كسب ثلاثة أو أربعة قروش زيادة ، بل لأن الأفندي زوج الخالة أقنعه بأن الكتاب أمر من سلطاننا . وحكت أن تلك الصفحات المنقوشة التي عمل لها زوجها تذهيبها ، خرجت من كونها صفحات منقوشة ، وأصبحت رسماً بكل معنى الكلمة ، في تلك الرسوم مروق ، وإنكار لا يخطر ببال ، وحتى إنها تحمل إشارات الكفر ، لهذا بدأ المرحوم زوجها يقلق ، وبدأ يراوح بين الخطأ والصواب . وأضافت لتثبت أنها أرجح عقلاً من ظريف أفندي ، وأنها امرأة حذرة : لم تتشكل لديه تلك الشبهات في لحظة ، بل تدريجياً ، ولأن المرحوم ظريف أفندي المسكين لم يواجه كفراً بشكل مباشر خفف عن نفسه بأن سبب القلق هو عبارة عن خيال . وأصلاً إن ظريف أفندي لم يفوّت أي عظة من عظات الشيخ نصرت الأرضرومي ، وإذا لم يؤد الصلاة بوقتها يشعر بقلق شديد في داخله . ولأنه متصوف في دينه يعرف أن بعضهم يسخر منه في النقش خانة ، ولكنه كان مدركاً أن

سبب الممازحات وقلة الأدب تلك هي الغيرة من فنه ومهارته .

اغرورقت عين قلبية البارقة بدمعة بارقة ، وسالت على خدها ، وقررتْ إستر الطيبة القلب إيجاد زوج لقلبية أفضل من زوجها السابق .

قالت قلبية بانتباه : «لم يكن المرحوم يبادلني كل هذه الهموم على الأغلب . جمعت ما أتذكره في عقلي وحدي ، ووصلت إلى هذا في الليلة الأخيرة . عندما عاد من الرسم لدى الأفندي زوج الخالة» .

كان هذا بمثابة الاعتذار . وأنا أيضاً قلت لا بد أن «السافل» نفسه هو الذي قتل الأفندي زوج الخالة ، مذكّرة قلبية خانم أن الكدر والعدو وحّد بينها وبين شكورة . والآن يتأملني بدقة من الزاوية ولدان يتيمان رأساهما ضخمان وهذا ما يشابه وضع شكورة ، ولكن منطق موصلة الرسائل اللئيم ذكرني أن شكورة أجمل بكثير ، وأغنى وأكثر إدهاشاً ، فقلت ما خطر ببالي فوراً :

قلتُ : «تقول شكورة : إذا كانت قد قصرتْ بشيء فهي تعتذر ، وهي تمد لك يد الأخوة ، وشراكة الهمّ ، وتريد منك أن تفكري بهذا ، وتساعديها . عندما خرج المرحوم ظريف أفندي من هنا في ليلته الأخيرة ، هل ذكر أنه سيلقى أحداً غير الأفندي زوج الخالة ؟ هل فكرت أنت أنه سيقابل آخر ؟» .

قال : «وجدّت هذا في جيب ظريفي المسكين» .

وأخرجت ورقة مطوية من صندوق حصيري داخله إبر التطريز ، وقطع قماش وجوزة كبيرة ، ومدتها لي .

أخذت الورقة المجعلكة ، ونظرت إليها عن قرب وبانتباه فرأيتُ أشكالاً كثيرة من الحبر ، وذوبان الحبر في الماء . وعندما شبهتُ هذه الأشكال ، استدعت قلبية أفكاري .

قالت : هذه خيول . المرحوم ظريف أفندي منذ سنوات طويلة لا يعمل

إلا بالتذهيب ، لم يكن يرسم خيولاً أبداً ، ولا أحد يطلب منه رسم حصان » .

رُسمت بسرعة ، ولكن استركم العجوز تنظر إلى الخيول المبتلة بالماء لا تفهم شيئاً .

قلتُ لها : « إذا أخذتُ هذه الورقة لشكورة ستمتن كثيراً » .

قالت قلبية بغرور : « إذا كانت شكورة تريد هذه الورقة فلتأت بنفسها » .

* * *

٥٥

اسمي قرة

لعلكم فهمتم وضعي : أمثالي - الذين يعيشون العشق والألم ، والسعادة والتعاسة في آن واحد ، وتغدو الوحدة ذريعة أزلية لديهم - من أصحاب الكدر - ليس لهم ثمة سعادة كبيرة أو تعاسة كبيرة في دنياهم . أنا لا أقول إنه عندما تتأزم نفسيات الآخرين بهذه الأحاسيس لا نفهمهم ، بل على العكس إننا نفهم وبعمق من يعيش هذه الأحاسيس . أما ما لا نفهمه فهو الانهماك الغريب الذي نعيشه في تلك الأثناء المدفون في أنفسنا نحن . يبدأ الصمت الذي يجعل عقولنا وقلوبنا تيبس ، ويشعرنا بالتخبط مكان الحزن والفرح .

عندما ألقت زوجتي بنفسها على الفراش مع ولديها الناظرين إليَّ بعداء ، وبدأت تبكي مشهشهة بعد أن عدتُ من دفن والدها بخطوات سريعة ، وعزيتها ، تربطتُ . كدر ثقيل هو نصري ، من يصدق دموعي بعد أن تزوجت من كانت حلم شبابي ، وتحررت من أبيها المستهين بي وصرت سيد البيت ؟ ولكن ثقوا أن الأمر ليس على هذا النحو ، فأنا أريد أن أحزن ولكنني لا أستطيع ، لأن زوج خالتي كان بمثابة أبي دائماً ، وليس أبي الحقيقي . والأكثر من هذا . والأكثر من هذا ، فإن لسان الشيخ الماهر الذي غسّله لم يهدأ ، وكما شعرت بهذا في أثناء الجنازة وفي ساحة الجامع ، فقد

انتشر هذا بين أهل الحي . ولهذا السبب فإن بكائي سيفسر بشكل سيئ ، وأريد أن أحزن . وكما تعلمون فإن تحجر القلب هو الإحساس الأكثر صدقاً .

لدى السيدات العجائز المتفهمات ذريعة دائمة لكي لا يطرد أمثالي من الجماعة ، وهي : «الرجل يبكي بحرقة قلب» . وأنا أبكي بحرقة قلب . وبينما كنت أعمل على الاختباء من الجيران والأقرباء البعيدين الذين أحتارُ كيف يبكون مصببين دموعهم بهذا الشكل ، وأفكر فيما إذا كان عليَ البدء بالتصرف كسيد للبيت ، والسيطرة على الوضع وإذ بالباب يقرع . في لحظة شعرت بالارتباك إذ اعتقدت أن الطارق حسن ، ولكنني كنت راضياً بأي حل يخلصني من جهنم البكاء هذا .

كان القادم أحد الصبية البوابين من القصر . إنهم يطلبونني في القصر . دهشت .

عندما خرجت من الباحة وجدتُ قرشاً أبيض في الطين . هل كنت خائفاً كثيراً لأنهم يطلبونني في القصر ؟ نعم ، خائف ، ولكنني كنت مسروراً لوجودي في الخارج وسط البرد والخيول والكلاب والأشجار والناس بين الأزقة . قلت لنفسي أتحدث مع الصبي البواب – الذي جاء لمرافقتي – في حديث عام عن جماليات الحياة ، والوقوقة في البحيرات ، وأشكال الغيوم في السماء قبل تسليمي للجلاد مانحاً كل ما في الحياة نهاية سعيدة مثل محرّك دمى خيال الظل ، ولكنه ولد لا يضحك وكتوم . وبينما كنا مارين أمام جامع أياصوفيا ، وعندما انتبهت مدهوشاً إلى أشجار السرو الرفيعة الباسقة نحو السماء الرمادية ، لم أفكر بفظاعة الموت بعد الزواج مباشرة من شكورة ، بل موتي تحت التعذيب في القصر قبل أن أدخل معها فراشاً واحداً وأشبع من ممارسة الحب معها ، وهذا ما جعل جسدي يقشعر .

لم نتجه نحو الباب القائم في الوسط والمؤدي إلى حيث يقوم الجلاّدون

بعملهم خلفه مباشرة ، وأنا أنظر إلى أبراجه بهلع شديد ، بل سرنا نحو خانة النجارة . وبينما كنا نعبر بين العنابر لم تلتفت إلينا قطة تلعق نفسها وسط الطين بين قوائم حصان ينفث من منخريه البخار ، القطة مثلنا مشغولة جداً بقذارتها .

شخصان لم أفهم من ألبستهما الخضراء والبنفسجية من رجال مَن هما ، تسلماني من الصبي بصمت ، وأدخلاني إلى غرفة مظلمة في بيت حديث البناء ، وعرفت هذا من رائحة خشبة ، ثم ضربا عليّ القفل . ولأنني أعرف أن السجن في غرفة مظلمة هو أحد مراسم ما قبل التعذيب توقعت أن يبدؤوا معي بالفلقة ، وأنا أفكر بكذبة ألفقها لكي أتخلص من هذا المأزق . يبدو أن في الجوار ازدحاما ، كان ثمة ضجيج هناك .

لا بد أن بينكم من يقول من خلال كلماتي الساخرة هذه إن هذا ليس كلام من يكون على وشك التعذيب ، ألم أقل لكم إنني عبد محظوظ من عباد الله . بعد أن لاقيت كل أنواع العذاب على مدى سنوات ، وإذا لم يكف الحظ الذي حالفني خلال اليومين الماضيين ، فلا بد أن هنالك حكمة من القرش الأبيض الذي وجدته على الأرض عند خروجي .

وفي أثناء انتظاري التعذيب وجدت القرش الأبيض الذي أؤمن أنه سيحميني تسلية . وضعت إشارة الحظ التي أرسلها إليّ الله في يدي ومسحتها وقبلتها ، ولكن عندما أخرجوني من الغرفة إلى أخرى ووجدت أمامي آمر الحامية والجلادين (الكرواتيين) القرعان فهمت أن الصوت الظالم الذي في داخلي ، والقائل إن القرش الأبيض لا يعد حتى من النقود ، ولم يبعثه الله لي ، وإنه أحد القروش البيضاء التي نثرتها قبل يومين على رأس شكورة ولم يجده الأولاد ، على حق . وهكذا عندما استسلمت لأيدي الجلادين لم يكن لدي أي خيال أو غصن أتمسك به .

لم أنتبه إلى نفسي ، لقد بدأت الدموع تذرف من عيني . أردت أن أتوسل ، ولكن كما في الأحلام لم يخرج الصوت من فمي . يفهم الإنسان في لحظة الحرب والموت والسياسة التي يتابعها من بعيد أنه لا يساوي شيئاً ، وكذلك في لحظات التعذيب والقتل ، ولكنني لم أعشها من داخلها . سلخوني عن العالم كما تخلع ثياب الإنسان .

شلّحوني صدارتي وقميصي . أحد الجلادين جلس فوقي . ضغط بركبتيه على كتفي . الآخر بحركات خفيفة وحاذقة ومنتبهة كيديْ ربة منزل تطبخ طعاماً ، أدخل رأسي في قفص ، وبدأ يدوّر مزلاجه ببطء شديد . لم يكن قفصٌ . كانت (منغنة) تضغط على رأسي من الجانبين .

صرخت بقوتي كلها ، توسلت ، ولكن بكلمات لا تفهم . بكيت ، ولأن البكاء يرخي الأعصاب على الأغلب .

توقفوا . سألوا إذا كنت قد قتلتُ الأفندي زوج الخالة .

أخذت نفساً : لا .

بدؤوا بتدوير المزلاج مرة أخرى . إنه مؤلم .

سألوا مرة أخرى : لا . من ؟ . . . لا أعرف .

بدأت أفكر بقول إنني قتلته . ولكن الحياة تدور من حول رأسي بشكل ممتع ، لفّتني لا مبالاة . سألتُ نفسي : هل أعتادُ على الألم ؟ بقيت مع جلادي هكذا لحظة . ثمة مكان لا يؤلمني ، وهذا ما يخيفني .

مرة أخرى أدركت من القرش الأبيض الذي في جَيبي أنهم لن يقتلوني . تركوني فجأة . لقد أخرجوا رأس المنغنة التي كانت تضغط بشكل خفيف على رأسي . نزل الجلاد الذي كان يجلس فوقي . لم تكن تبدو عليه هيئة المعتذر . ارتديت قميصي وصدارتي .

خيّم صمت طويل . . . طويل جداً .

رأيت في الطرف الثاني للغرفة كبير النقاشين الأستاذ عثمان . ذهبت إليه وقبلتُ يده .

قال لي : «لا تزعل يا بني ، جرّبوك فقط» .

فهمت بسرعة أنني وجدتُ أباً جديداً بعد زوج الخالة .

قال آمر الحامية : «أمر سلطاننا ألا نعذبك حالياً . لقد وجد حضرته أنه من المناسب أن تعاون كبير النقاشين الأستاذ عثمان من أجل إيجاد القاتل السافل الذي يقتل عبيده الذي يحضّرون له الكتب وينقشون له . خلال ثلاثة أيام ستجدان ذلك القاتل الماكر من خلال رؤية رسومه أو الكلام معه . سلطان العالم متضايق من الشائعات التي يروجها الفنّانون حول الكتب والنقاشين . ولإيجادكما ذلك السافل سنساعدكما أنا وهاظم آغا الخزندار الأكبر بأمر السلطان . أحدكما قريب من الأفندي زوج الخالة . أنت استمعت إلى ما شرحه لك ، وتعرف حكاية الكتاب ، وكيف كان يسير العمل في منتصف الليل . والآخر أستاذ كبير يتفاخر بمعرفته النقاشين كلهم معرفته لراحة يده . ولكن إذا لم تجداه ، ولم تجدا تلك الصفحة المفقودة خلال ثلاثة أيام فإن سلطاننا العادل سيبدأ الاستنطاق بالتعذيب ، وسيكون دورك يا بني قرة في البداية ، وليس لدينا شبهة بأن الدور من بعدك سيأتي على أساتذة النقش» .

لم أستطع رؤية إشارات سرية ، أو تبادل نظرات معينة بين الأستاذ عثمان أفندي والخزندار الأكبر هاظم آغا الذي يكلفه بالأعمال ، ويعطيه اللوازم والنقود من الخزينة كصديقين متعاونين منذ سنوات .

قال آمر الحامية : «عندما ترتكب جريمة في أحد مهاجع سلطاننا ، أو غرفه ، أو بين جماعة من جماعاته ، تتهم الجماعة كلها حتى توجد المذنب وتسلّمه ، ويعلم الجميع أنه في حال عدم إيجاد المجرم تعتبر الجماعة كلها

مجرمة بمن في ذلك الآغا الذي على رأسها ، ومعلموها . لهذا السبب فإن كبير النقاشين الأستاذ عثمان سيفتح عينيه عشرة على عشرة ، ويدقق الصفحات كلها بعينيه الحادتين ، وسيوجد ما يوقع بين النقاشين من شيطانية وحيلة وفتنة وفساد ، ويسلّم المجرم لعدالة سلطاننا سلطان العالم التي لا تخطئ ، وبهذا ستبرأ المجموعة . ورجالي يفتشون بيوت معلمي النقش ، ويجمعون صفحات الكتب المنقوشة هناك لجلبها .

* * *

٣١
أنا الأستاذ عثمان

بعد أن أعادا علينا (آمر الحامية والخزندار الأكبر) أوامر سلطاننا ، وذهبا ، بقينا وحدنا . طبعاً كان قرة حزيناً ومتعباً نتيجة حيلة التعذيب والخوف والبكاء . صمتَ مثل طفل . كنت أدرك أنني سأحبه . لم أقترب منه .

لدي ثلاثة أيام للتدقيق في الصفحات التي جلبها رجال آمر الحامية من بيوت الخطاطين ومعلمي النقش ، وتشخيصها . أنتم تعلمون كم قرفت من رسوم كتاب الأفندي زوج الخالة ، التي جلبها قرة من أجل تبرئة نفسه وسلمها للخزندار الأكبر هاظم آغا ، عندما رأيتها للمرة الأولى . لا بد من القول أن ثمة أموراً ما لن تصل إليها أعيننا في صفحات تثير كل هذا القرف والكره لدى نقاش قضى عمره في هذا العمل . لأن الفن السيئ لا يثير فينا قرفاً فقط . وبهذا الفضول بدأت أنظر مجدداً إلى الرسوم التسعة التي جعل المرحوم المخبول النقاشين يرسمونها في منتصف الليل .

وعلى ورقة فارغة رأيت شجرة ضمن إطار وتذهيب عمله ظريف المسكين كما عمل إطارات وتذهيب الرسوم الأخرى . حاولت تخيّل الحكاية والموقف الذي تمثله هذه الشجرة . عندما أقول لأحد نقاشيَ : الحبيب فراشة ، أو الذكي لقلق ، أو الماكر زيتون ، ارسم شجرة ، يتخيل أولاً أن تلك الشجرة

جزء من حكاية لكي يستطيع رسمها دون قلق . إذا نظرت بانتباه إلى تلك الشجرة وأغصانها وأوراقها أستطيع استنتاج الحكاية التي تشكل جزءاً منها ، ولكن تلك الشجرة مسكينة ووحيدة ، وثمة خط أفق يبديها أكثر وحدة ، ويذكرنا بأساليب أساتذة شيراز القدماء ، ولكنه مرفوع قليلاً . وليس ثمة شيء في الفراغ الناجم عن رفع خط الأفق . وهكذا تداخلت إرادة رسم شجرة بأسلوب الأفرنج لتعبر عن شجرة فقط مع إرادة رؤية العالم من الأعلى وفق أسلوب العجم ، ولكن الناتج هو رسم مكدر لم يستطع أن يكون أفرنجياً أو عجمياً . كدت أقول لنفسي إن الشجرة حيث ينتهي العالم يجب أن تكون على هذا النحو ، ولكن بينما عمل عقل المرحوم المخبّل القاصر على مزج أسلوبين أنجز ما يفتقر لمهارة نقاشيَ . ما أغضبني ليس استمداد الرسم من عالمين ، بل عدم وجود المهارة .

شعرت بهذا أيضاً عندما استعرضت الرسوم الأخرى ، في الحصان الكامل الخارج من الأحلام المطأطئ الرأس وهو ينظر إلى المرآة . كان يغضبني اختيار الموضوع ، وهذان الغبيان أو الشيطانان أيضاً . لقد أدخل نقاشيَ هذين الرسمين عنوة إلى كتاب سلطاننا . وشعرت بالدهشة مرة أخرى لتدبير الله جل جلاله لأنه قبض روح زوج الخالة قبل إكمال الكتاب . لم أكن راضياً عن إنهاء هذا الكتاب أبداً .

وهل يمكنني ألا أغضب من رسم هذا الكلب الذي يبدو أخاً لنا بنظرته إلى أنوفنا ، ولكنه يُرى من الأعلى ؟ لأنني كنتُ معجباً بمهارة النقاش الذي رسمه (كنت على وشك تحديد النقاشين أصحاب ضربات القلم في الرسم) في وقفته المعهودة ، وجمال نظرته المهددة إلينا بطرف عينه وهو يقرّب رأسه من الأرض من جهة ، ولا أستطيع العفو عن استخدام هذه المهارة لخدمة إرادة عبثية غير مفهومة من جهة أخرى . لا أستطيع أيضاً العفو عن الاقتباس في

تلك الرسوم الناجمة عن الرغبة بتقليد الأساتذة الأفرنج ، وحتى تفضل سلطاننا بأمر عمل الكتاب الذي سيهدى إلى الدوق بالأصول التي يفهمها البندقيون .

أفزعني الأحمر بشكل محبب في رسم مزدحم ضرب كل أستاذ من نقاشيَ بقلمه ضربات في زاوية من زاوياه . لقد دهن الرسم بأحمر غريب على يد لم أعرفها لمن ، أو تحت تأثير منطق خفي ، جعلت العالم الذي يعرض الرسم كله يُغمر بالأحمر ببطء . قضيت فترة أبين لقرة أن شجرة الدلب في هذا الرسم المزدحم هي رسم لقلق ، والسفن والبيوت رسم زيتون ، والطائرات الورقية والزهور رسم فراشة .

قال قرة : «لا بد لنقاش كبير أستاذ مثلكم قضى حياته يرأس جماعة النقاشين أن يعرف مهارة النقاشين واحداً واحداً ، ومزاج كل واحد من خطوطه وضربات فرشاته . ولكن كيف لكم أن تكونوا واثقين بهذا الشكل في معرفة نقاشينا ، وما نقش كل منهم في الرسم عندما يُجبرهم محب كتب غريب كزوج خالتي على الرسم بأساليب جديدة غير معروفة ؟» .

أجبته عبر حكاية حكيتها له : «يحكى أنه في قديم الزمان كان ثمة سلطان محب للكتب والنقش ، يعيش في قلعة تطل على أصفهان . وهذا سلطان قوي ومقتدر ذكي ولكنه لا يرحم ، ولا يحب سوى ابنته ، والكتب التي يوصي على رسمها . بلغ حبه لابنته مبلغاً جعل الشائعات التي يروجها أعداؤه عن عشقه لها فيه شيء من الحقيقة . لأنه كان مغروراً وغيوراً ، شنّ الحرب على الشاهات والأمراء الذين يرسلون السفراء طلباً ليد ابنته . طبعاً لا يمكنه إيجاد زوج لائق بابنته ، وخبأها خلف أربعين غرفة ، وضرب عليها أربعين قفلاً . وهذا لإيمانه بعقيدة كانت سائدة في أصفهان تقول إن جمال ابنته سيذوي إذا رآها رجال آخرون . في أحد الأيام عندما انتهى كتاب

خسرو وشيرين الذي أوصى على كتابته ونقشه حسب أصول هرات ، سرتْ في أصفهان شائعة : إن الحسناء التي تبدو ذابلة وسط رسم مزدحم في إحدى صفحات الكتاب هي ابنة السلطان الغيور! وقد شك السلطان الغريب الأطوار بالرسم قبل ذيوع الشائعة ، وعندما قلّب صفحات الكتاب هذه المرة بيديه المرتجفتين انتبه بسرعة ، وبعينين دامعتين إلى أن النقاش قد رسم جمال ابنته . وحسب ما قيل ليست ابنته هي التي ضرب عليها أربعين قفلاً ، بل جمالها ، وكالأشباح التي يكاد يقتلها الملل خرج جمالها في إحدى الليالي ، وانعكس على المرايا ، وعبر من تحت الأبواب ومن ثقوب الأقفال ، ودخل إلى عين أحد النقاشين المشتغلين ليلاً كالضوء أو كدخان غير مرئي ، ولم يستطع النقاش المعلم الشاب مقاومة هذا الجمال الذي لم تقع عينه عليه من قبل فنقشه في إحدى زوايا الرسم الذي كان ينقشه في تلك الأثناء . وكان ذلك الرسم يجسد خروج شيرين في نزهة إلى الحقول ، ولحظة وقوع نظرها على رسم خسرو وعشقها له » .

قال قرة : « يا سيدي ومعلمي! هذه مصادفة كبيرة ، لأننا نحن أيضاً نحب تلك الحكاية ، وذلك الموقف » .

قلت : « هذه ليست حكايات ، بل أمور وقعت . اسمع! لم يرسم نقاشنا ابنة السلطان على أنها شيرين ، بل رسمها إحدى النديمات المساعدات لشيرين ، وهي عازفة عود ، وواضعة مائدة . آنئذ كان يرسم تلك النديمة . وهكذا بقي جمال شيرين قليلاً بجانب جمال تلك النديمة التي في طرف الرسم ، واختلَّ التوازن . عندما رأى السلطان ابنته في الرسم أراد إيجاد النقاش الماهر الذي رسمها . ولكن النقاش الماكر ولخوفه من غضب السلطان لم يرسم النديمة وابنة السلطان بأسلوبه ، بل رسمها بأسلوب جديد لكي لا يُعرف . لأن في ذلك الرسم ضربات أقلام كثير من النقاشين ومهاراتهم » .

« حسنٌ ، كيف عرف السلطانُ النقاشَ الذي رسم ابنته ؟ » .

« بالنظر إلى الأذنين »

« بالنظر إلى أذني من ، أذني ابنته أم أذني رسم ابنته ؟ » .

« في الحقيقة لا هذه ، ولا تلك . بدايةً فتح أمامه الكتب والصفحات والرسوم التي أنجزها نقاشوه ، ونظر إلى الآذان . ورأى مجدداً ما يعرفه منذ سنوات طويلة . كل نقاش من نقاشيه يرسم آذاناً مختلفة مهما بلغت مهارته . لا ينتبه النقاش إلى هذا في رسم وجه سلطان أو وجه ولد ، أو وجه محارب ، وحتى وجه حضرة نبينا – حاشاه – دون إخفائه وراء برقع ، أو وجه الشيطان – حاشاه – كل نقاش يرسم الآذان بالشكل نفسه وفي كل رسم وكأنها توقيع سري » .

« لماذا ؟ »

« لأن النقاشين المعلمين عندما يرسمون الوجوه يعطون انتباههم كله إلى التعبير ، وإلى جعل الوجه يشبه الشخص أو لا يشبهه ، إلى الإقتراب من جمال الوجه ذي القدسية ، وإلى مطابقته مع القوالب القديمة . عندما يصلون إلى رسم الآذان فلا ينقلون عن نقاشين آخرين ، ولا يقلدون قالباً معيناً ، ولا ينظرون إلى أذن حقيقية ، لأنهم عندما يرسمون الأذان لا يفكرون أبداً ، ولا يتأثرون ، ولا يتوقفون عندما يرسمون . وهكذا تتحرك أقلامهم حسب ذاكرتهم » .

قال قرة : « ولكن تلك ذاكرة ناجمة عن تفكير سنوات ، ووقوف طويلٌ على تلك الرسوم ، وإمعان المنطق مع العمل . ويعرفون جيداً أن الحصان الذي بلحمه ودمه آخر ما رأوه سيشوش فكرة الحصان الذي صممه الله ، ويعرف هذا بروحه وتجربته . والحصان الذي ترسمه يده حفظاً يرسم بالمهارة والمعاناة والمعرفة ، وهو حصان قريب من حصان الله . ولكن الأذن التي يرسمها دون

مخزون معرفة ، ودون تفكير أو معرفة لما يرسم ، ودون انتباه لأذن ابنة السلطان هي ثغرة دائماً . ولأنها ثغرة تغدو مختلفة لدى كل نقاش . أي تصبح نوعاً من أنواع التوقيع » .

حدثت جلبة وحركة . رجال آمر الحامية جلبوا الصفحات التي جمعوها من بيوت الخطاطين والرسامين ، وتركوها في غرفة النقش القديمة .

قلتُ عاملاً على جعل قرة يبتسم : « الأذن أصلاً هي ثغرة الإنسان . إنها مختلفة ومتشابهة لدى الجميع : إنها بشاعة حقيقية » .

« ماذا جرى للنقاش الذي قبض عليه من توقيع الأذن ؟ »

لم أقل لقرة : فقئت عيناه » لكي لا أحزنه أكثر ، قلتُ : « تزوج من ابنة السلطان » ومنذ ذلك اليوم يخفي الخانات والشاهات والسلاطين أصحاب النقش خانات هذا الأسلوب في تشخيص النقاشين مثل سر ، ويدعونه « أسلوب النديمة » لكي يعرفوا فوراً المذنب بين نقاشيهم الذي نقش رسمة أو نقشاً صغيراً . النقطة الأساسية في هذا الموضوع إيجاد التفاصيل التي لا تكون في قلب الرسم ، والمرسومة بسرعة ، والمكررة دائماً . ويمكن أن تكون تلك التفاصيل آذاناً ، وأيدي ، وأعشاباً ، وأوراقاً ، أو أعرافُ خيول أو قوائم أو حوافر . ولكن انتبه ، يجب ألا يعرف الرسام أن هذه الخصوصية غدت توقيعه السري . مثلاً الشوارب لا تصلح ، لأن كثيراً من الرسامين ينتبهون إلى أنهم يرسمون الشوارب وفق رؤاهم ، وأن الشوارب نوع من توقيع علني . ولكن الحواجب تصلح . لأنه لا أحد ينتبه إليها . والآن تعال لننظر إلى رسوم المرحوم زوج الخالة لمعرفة ضربات أقلام المعلمين الشبان وفراشيهم » .

وهكذا وضعنا صفحات كتابين ينجز أحدهما بسرية والآخر بعلنية ، وبحكايتين مختلفتين ، وموضوعين مختلفين ، وأسلوبين متباينين . كتاب

المرحوم زوج الخالة ، وكتاب (سرنامة) الذي يحكي وقائع احتفال ختان ابن سلطاننا ، ونظرنا بدقة ، قرة وأنا ، إلى الأماكن التي تجوب عليها عدستي .

١- انتبهنا أولاً لرسم فم مفتوح لفراء ثعلب يحمله في حضنه معلم يرتدي قفطاناً أحمر وحزاماً بنفسجياً ويسير في العرض بين تجار الفراء من أمام سلطاننا الذي يتفرج على العرض من قصره المبني من أجل فرجة كهذه في إحدى صفحات السرنامة . اليد التي رسمت تلك الأسنان بالواحد هي نفسها التي رسمت أسنان ذلك المخلوق النحس (نصف شيطان ونصف عملاق) أعتقدُ أن طريقة رسمه وصلتنا من سمرقند والمرسوم في كتاب زوج الخالة على أنه شيطان . إنه منجز بقلم زيتون .

٢- في يوم ممتع جداً من أيام الاحتفال ظهر تحت نافذة سلطاننا المطلة على ساحة الخيل مجموعة من محاربي المناطق الحدودية يرتدون ألبسة رثة . أحدهم يقول : «سلطاني! . . . نحن جنودك الأبطال ، وقعنا في الأسر عندما كنا نحارب ضد الكفار في سبيل ديننا . ولم يطلق سراحنا حتى تركنا أخوتنا وأقرباءنا رهائن من أجل إيجاد نقود الفدية ، ولكن عندما عدنا إلى اسطنبول وجدنا أن كل شيء قد ارتفع ثمنه فلم نعد نستطيع تحرير أقرباءنا الذين تركناهم رهائن بين أيدي الكفار ، ونحن نحتاج لمساعدتكم ، أعطونا ذهباً أو أسرى ونبادل أقرباءنا بهم» . ومن الواضح أن أظافر الكلب الكسول في الزاوية الناظر بعين مفتوحة واحدة إلى سلطاننا وهو يتفرج على المحاربين المساكين الفقراء ، وعلى سفراء العجم والتتار في الساحة هي نفسها أظافر قوائم الكلب الذي يملأ زاوية صفحة حكاية القرش الأبيض من كتاب زوج الخالة ، ورسمها القلم نفسه . إنها من رسم لقلق .

٣- هنالك أقرع يلبس سترة بنفسجية مكشوف الساقين بين السحرة الذين يتشقلبون أمام سلطاننا ، ويسيّرون البيض على الخشب ، جلس في

الزاوية على سجادة حمراء يضرب على الدف . أصابعه تشابه تماماً أصابع المرأة الممسكة بالصينية في الرسم الأحمر من كتاب زوج الخالة (زيتون) .

٤- الأحجار الزرقاء على التربة الزهرية التي يدوس عليها الطهاة حاملين القدور وهم يطبخون محشي الملفوف في القدر الكبير الموضوع ضمن عربة تدفع لتمريرها من أمام سلطاننا . والأحجار القرمزية على التربة الكحلية التي يسير فوقها الشيطان الأشبه بالشبح دون أن يدوسها في الرسم الذي أسماه زوج الخالة : الموت ، خرجت من يد واحدة . (فراشة) .

٥- بعد أن علم سلطاننا سلطان العالم من المراسلين التتار أن شاه العجم يحضّر لحملة جديدة على الدولة العثمانية ، جعلت جيوش آل عثمان قصر سفير العجم المزركش ممسوحاً بالأرض ، لأنه كان يدور لسانه دون توقف بأن شاه العجم صديق ، وأنه لا يكنُّ لسلطاننا غير الصداقة ، وقد هرع السقاؤون إلى ميدان الخيل لإخماد الرماد ، وتهدئة الجموع الغاضبة من سفير العجم بدلق زيت بزر الكتان عليها من ظروف جلدية يحملونها . رفع السقاؤون الحاملون الظروف المملوءة (أقدامهم) خرجت من اليد نفسها التي رسمت رفع الجنود الراكضين : (أقدامهم) في الصفحة المرسومة بالأحمر . (فراشة) .

النتيجة الأخيرة هذه لم أكتشفها أنا الذي أنقل العدسة يميناً ويساراً ومن هذه الصفحة إلى تلك موجهاً عملية تقفي الأثر ، بل هي اكتشاف قرة الذي يحملق جاحظاً بعينيه خوفاً من التعذيب ، وأملاً بلقاء زوجته التي تنتظره في البيت . استغرق منا التدقيق في رسوم زوج الخالة التسعة الباقية حسب أسلوب النديمة ، وتحديد النقاشين من ضربات أقلامهم ، وتصنيفها فترة بعد الظهر كله .

لم يترك المرحوم زوج خالة قرة أي صفحة لفرشاة ومهارة نقاش واحد . نقاشيَ الأساتذة الثلاثة أنجزوا أكثر ضربات تلك الرسوم . ويظهر أن هذه

الرسوم حُملت من بيت إلى بيت وقد انتقلت كثيراً جداً . عندما انتبهت إلى أن ثمة يداً خامسة غير أيدي النقاشين الذين أعرفهم لها ضربات فرشاة غير ماهرة ، وكدت أغضب لاعتقادي أن القاتل السافل غير موهوب ، شخّص قرة زوج خالته من ضربات الأصبغة تلك ، وبهذا تخلصنا من تقفي أثر خاطئ . وعندما ندع جانباً المسكين ظريف أفندي الذي أعتقد أن تلك الآثار التي على الجدران والأوراق والغيوم هي آثار فرشاته ، والتذهيب الذي أنجزه للسرنامة يكاد يكون مطابقاً تماماً لذلك الذي في كتاب زوج الخالة (طبعاً أنا أحزن لهذا) يظهر لدينا أن المعلمين الثلاثة فقط الألمعيون هم الذين ضربوا فراشيهم في تلك الرسوم . وهؤلاء : زيتون ، فراشة ، لقلق ، أولادي الذين ربيتهم بحب منذ كانوا تلاميذ ، وأعزائي الأمهرون .

سأتحدث عن مهارة كل منهم ومعلميته وعاداته ، علها تساعدنا في إيجاد ما نبحث عنه ، ولن يقتصر حديثي عليهم فقط ، بل سيكون عن نفسي أيضاً .

صفات زيتون

اسمه الحقيقي (ولي جان) لا أدري إن كان له لقب آخر غير الذي لقبته به لأنني لم أره يوقع أبداً . أيام كان تلميذاً يصطحبني من بيتي أيام الثلاثاء . مغرور جداً ، وإذا كان يرى نفسه صغيراً إلى حد توقيعه ، فهو يريد أن يعرف هذا وينتبه إليه . وهذا يعني أنه لا يخفي التوقيع . منحه الله موهبة كبيرة جداً . يستطيع عمل كل شيء بما في ذلك التذهيب والتخطيط بالمسطرة ، ويعمل ما هو أفضل دائماً . وهو ألمع نقاشيَ برسم الشجر والحيوانات ووجه الإنسان . أعتقد أن أباه الذي جلبه إلى اسطنبول وهو في العاشرة من عمره كان من تلامذة سياوش الرسام الأستاذ الشهير في نقش

خانة شاه تبريز الصفوي الممتدة سلالة أساتذته إلى المغول . يرسم العاشقين الشباب بوجوه قمرية حاملة تأثيرات المغول والصين المترسخة قبل مائة وخمسين سنة في سمرقند وهرات وبخارى على يد الأساتذة المتقدمين في السن . لم أفلح في فتح قلبه المغلق إليّ عندما كان صانعاً ، ولا في فترة معلميته فهو مغلق على نفسه مثل جوزة قاسية . كنت أريده أن يظهر ما في داخله أو ينساه عند الضرورة عدا أساليب المعلمين المغول والصينيين والهراتيين ونماذجهم ، وعندما أقول له هذا يجيب على طريقة النقاشين الذي غيّروا نقش خانات كثيرة ودولاً عديدة أنه نسيها أصلاً ولم يتعلم منها شيئاً أبداً . إخفاؤه ما تعلمه من أساتذته في أعماق روحه مثل إخفائه ذنوباً لا يمكنه تركها ، يفيده في أمرين لم ينتبه إليهما أحد حتى هو : ١- الشعور بالذنب والغربة يعطي شخصيته مهارة نقاش موهوب كهذا . ٢- الأمر الذي يقول إنه نسيه يتذكره عندما يتضايق ، فيستخدم أحد قوالب هرات ، ويدخلها في تاريخ جديد ، وموقف جديد . ولامتلاكه عيناً حادة يعرف كيف يولف ما تعلمه من القوالب القديمة وأساتذة النقش لدى الشاه طهماسب في رسم جديد . وتتداخل رسوم هرات ونقش اسطنبول بتناغم على يده .

أمرتُ ذات مرة بمداهمة نقاشيَ دون خبر مسبق ، تداخلت الأصباغ والفراشي والمحارات والرحلات وأصبحت مخلوطة مع الأوساخ على عكس ما أعمل أنا وكثير من أساتذة النقش ، وهذا بالنسبة إليّ أمر مجهول تماماً ، ولكنه لم يخجل من هذا . غير ذلك ، فهو لم يعمل للآخرين من أجل بضعة قروش بيضاء . بعد أن حكيت هذا لقرة ، قال إن زوج خالته أخبره أن زيتوناً أكثر الذين أظهروا انسجاماً مع أساليب الأساتذة الأفرنج . وفهمت أن هذا بالنسبة إلى المرحوم المخبول مصدر فخر ، وأنه تشخيص خاطئ أيضاً . ومعرفتي أن زيتوناً مرتبط سرياً أكثر مما يبدو ظاهرياً بسياوش أستاذ أبيه

وبمعلمه مظفر وبأساليب هرات المنتقلة إليه وبعصر بهزاد والأساتذة القدماء ، جعلني أفكّر دائماً بأن لدى زيتون جوانب أخرى مغلقة . وهو أكثر نقاشيَّ صمتاً وكبتاً في داخله وشعوراً بالذنب وخيانة ومكراً (انزلقت هذه العبارة من داخلي تلقائياً) . عندما يذكر تعذيب آمر الحامية فهو أول من يخطر ببالي (أريده أن يوضع تحت التعذيب من جهة ، ولا أريد هذا من جهة أخرى) . عيناه دائمتا الحركة تريان كل شيء وتنتبهان إلى كل شيء ، حتى لعيوبي . ولكنه ليس سافلاً عديم الأصل يُفلت لسانه في كل مكان صافعاً الآخرين بعيوبهم . إنه ماكر ولكنني لا أرى فيه قاتلاً (لم أقل هذا لقرة) لأنه لا يؤمن بشيء . لا يؤمن حتى بالنقود ، ولكنه يدّخرها بخوف . والقتلة عموماً ليسوا من غير المؤمنين كما يعتقد ، بل على الأغلب يظهرون بين من هم أعظم إيماناً . الرسم والنقش باب من أبواب تحدي الله - حاشاه - وهذا ما يؤمن به الجميع : لهذا السبب فإن زيتوناً رسام حقيقي بسبب عدم إيمانه . ولكنني أعتقد أن موهبته أقل من موهبة فراشة وحتى لقلق . كنت أريد أن يكون زيتون ابني . عندما قلت هذا أردت أن يغار قرة من زيتون ، ولكن قرة حملق بعينيه السوداوين ونظر باهتمام طفل فقط . قلت له عندما يعمل زيتون بأسلوب القلم الأسود يرسم المحاربين والصيادين واحداً واحداً ، ويرسم كالصينيين المناظر ذات اللقالق والعصافير الملوّنة ، والغلمان الحلوين الذين يلقون الشعر ويعزفون على الأعواد تحت الشجر ، وهو رائع عندما يرسم كدر العشاق الأسطوريين وغضب الصقور الذي يظهره الأبطال حاملو السيوف ، وقفزهم كما هجمة التنين .

قال قرة : «لعله كان سيكلفه برسم وجه سلطاننا ووقفته ، بالتفاصيل مثل الأفرنج» .

هل أراد أن يضللني ؟ .

قلتُ : «لو كان الأمر هكذا لماذا يأخذ زيتون رسماً يعرفه أصلاً بعد قتله زوج الخالة ؟ أو لماذا سيقتل زوج الخالة من أجل رؤية الرسم ؟ » .

بدأنا نفكر معاً لحظة .

قال قرة : «يمكن لوجود عيب فيه ، أو لخوفه من شيء ما وندمه ، أو . . .» فكر قليلاً : «أو لإيقاع ضرر ما بعد قتله زوج الخالة ، أو أخذ ذكرى . ألا يمكن أن يأخذه دون سبب ؟ زيتون نقاش كبير ، وطبعاً سيحترم الرسم الجميل» .

قلت غاضباً : «قلنا إن زيتوناً نقاش كبير ، ولكن ليس بين رسوم زوج الخالة رسم جميل» .

قال قرة بجرأة : «لم نر الرسم الأخير» .

صفات فراشة

يعرف باسم (حسن چلبي البارودخاني) ولكنه بالنسبة إليّ دائماً فراشة . هذا الاسم يذكرني دائماً بطفولته الجميلة وشبابه . لا يؤمن بالظاهر . وكان جميلاً إلى حد أن الإنسان يريد أن ينظر إليه مرة أخرى . معجزته التي أدهش منها دائماً : إنه موهوب بقدر حلاوته تماماً . معلم تلوين ، هذا جانبه الأقوى ، وكأنه يدهن اللون استمتاعاً ، وينقش عشقاً . ولكنني قلت لقرة بسرعة إنه طيّار لا هدف له ، ولا يثبت على شيء ، ولأنني أحرص على العدل أضفت : إنه نقاش حقيقي يرسم بقلبه . إذا كان الرسم ليس من أجل مخاطبة العقل أو استدعاء الحيوان الذي في داخلنا أو مداعبة غرور السلطان بل لإمتاع العين فإن فراشة نقاش حقيقي . يسحب خطوطاً عريضة مريحة وفرحة ومدورة كأنه تلقّى دروساً على يد الأساتذة القزوينيين مدة أربعين سنة ، ويدهن بالألوان غير الممددة والبراقة بجرأة ، وفي رسمه

دائرية سرية دائماً . أنا ربيته وليس أولئك المعلمين القزوينيين الذين ماتوا من زمان . لعل هذا هو السبب الذي جعلني أحبّه كابني أو أكثر ، ولكنني لا أعجب به أبداً . عندما كان تلميذاً في شبابه الأول ضربته كثيراً بمقابض الأقلام والمساطر ، وحتى بالعصا الغليظة كما ضربت كثيرين غيره ، ولكن ليس هذا سبب عدم إعجابي به . لأنني ضربت لقلقاً كثيراً جداً أيضاً ، ولكنني أعجب به . عصا المعلم لا تخمد جان وشياطين الشاب التي في داخله ، بل تقهقرها فترة محدودة . وإذا كان الضرب جيداً ومحقاً فإن شياطين وجان النقاش المعلم تحفزه للعمل . أما الضرب الذي ضربته لفراشة فقد جعله سعيداً ومطيعاً .

بعد هذا سيطرت عليَ الحاجة لمديحه أمام قرة . قلت : إن نقش فراشة دليل جيد على أنه من غير الممكن تجسيد السعادة التي يطرحها بيتُ شعر إلا بواسطة مهارة تلوين من عطاء الله . عندما فهمت هذا أدركت ماهية الأمر الذي ينقص فراشة : إن تعبير الشاعر جامي : «دليل الروح المظلم» عن لحظة اللا إيمان غير موجود لديه . وكما يرسم النقاش في الجنة بسعادة ، يؤمن أن الرسم بإيمان وسعادة يجعله ينتج رسماً مفرحاً وفي الحقيقة يعمل رسماً مفرحاً مثل حصار جيوشنا لقلعة (دوبو) وتقبيل سفير المجر قدم سلطاننا وركوب نبينا البراق وصعوده إلى السموات السبع : من المؤكد أن هذه المواضيع بذاتها أحداث سعيدة ، ولكن الصفحات تتحول على يد فراشة إلى مهرجان حقيقي . إذا كان ثمة ظلام موت أو ضرورة لعكس الجدية في اجتماع ديوان بشكل جيد في رسم سأطلبه من فراشة ، فأقول له : «لوّن كما تريد» وهكذا يصير الرجال الذين يبدون وكأن رماد الموت نثر على رؤوسهم والأوراق والرايات والبحار الجامدة كلها تتماوج كأن الريح تعبث بها . أحياناً أعتقد أن الله يريد رؤية العالم كما ينقشه فراشة ، وأنه أمر أن

تكون الحياة مهرجاناً . وهذا عالم يجعل الألوان تقرأ لبعضها بعضاً شعراً رائعاً منسجماً . ويتوقف في ذلك العالم الزمان ولا يمر عليه الشيطان أبداً .

ولكن حتى فراشة يشعر أن هذا منقوص . كأن أحدهم همس له – وهو على حق – إن كل شيء سعيد في نقشه كأيام العيد . ولكن في أعماقه حرماناً . يشعر بمتعة الفرجة على رسومه أبناء السلاطين الصغار ونساء الحرم الخرفانات اللواتي على وشك الموت ، وليس رجال الحياة المضطرين للعمل في السوء . ولأنه يعرف أن هذه الأمور تقال بحقه أحياناً يغار المسكين فراشة من نقاشين أقل منه موهبة بكثير ، ودون مهارة لوجود الشياطين والجان فيها . مع أن الشيء الذي يظنه شيطنة وجنة هو في أكثر الأحيان سوء صاف وغيرة .

كنت أغضب منه لعدم غوصه في العالم الرائع الذي ينقشه ويرسمه ويصير سعيداً به ، ولأن يصبح سعيداً لتخيله أن الآخرين سيسعدون بالفرجة عليها . سخرية أخرى للحياة هي : ثمة كثير من النقاشين أقل منه موهبة يعطون أنفسهم لفنهم في أثناء النقش أكثر منه بكثير .

انطلاقاً من شعوره بالحاجة للتخلص من نواقصه وقع فراشة في هم إثبات أنه ضحى بنفسه في سبيل النقش . كان مهووساً بالرسم الدقيق مثل النقاشين صغيري العقول الذين يرسمون على الأظافر وحبات الرز ، ورسوماً يصعب رؤيتها بالعين المجردة . ذات مرة سألته عما إذا كان يخجل من الموهبة التي منحه إياها الله فيدفعه هذا الحرص نحو العمى المبكر . لا يمكن أن يرسم شجرة على حبة أرز بأوراقها واحدة واحدة إلا نقاش لا موهبة له يطمح لتحقيق شهرة بسهولة ، ولملء أعين السادة السميكي العقول .

إنجازه الرسوم والنقش من أجل عيون الآخرين وليس عينه ، وشعوره الذي لم يستطع التغلب عليه بالحاجة إلى إمتاع الناس جعل فراشة عبداً للمجاملة من الجميع . ولهذا السبب يريد فراشة الخواف أن يكون كبير

النقاشين لضمان موقعه . وفتح قرة هذا الموضوع .

قلت : « نعم ، أعرف أنه يعد الأحابيل لأخذ مكاني بعد موتي » .

« هل يقتل أخوته النقاشين لهذا السبب ؟ » .

« يمكن أن يقتل . لأنه أستاذ كبير ولا يعرف هذا ولا ينسى العالم في أثناء النقش » .

فور قولي هذا فهمت أنني أريد أن يخلفني فراشة في رئاسة النقش خانة . أنا لا أثق بزيتون ، وأؤمن أن لقلقاً في النهاية سيكون أداةً للأساليب الأفرنجية دون أن يدري . وتكدرت لشعوري أن بإمكانه أن يقتل نفساً . وثمة ضرورة لأن يحب من أجل إدارته النقش خانة والسلطان في آن واحد . لا يمكن إلا لحساسية فراشة وإيمانه اللوني أن تقف في وجه مهارة الرسم الأفرنجي الخداعة لمتفرجيها والتي تظهر كاردينالات الأفرنج وجسورهم وقواربهم وشمعداناتهم وكنائسهم واسطبلاتهم وثيرانهم وعجلاتهم وكأنها بالنسبة إلى الله بالأهمية نفسها ، فيرسمونها بكل تفاصيلها ، فترى وكأنها حقيقة وليست رسماً .

« هل ذهبتم إلى بيته دون إخبار مسبق كما فعلتم مع نقاشيكم الآخرين ؟ » .

« الناظر إلى رسوم فراشة يشعر ، ومن اللحظة الأولى ، أنه يعرف جيداً الحب والحزن بقلبه ، ويعرف قيمة العشق ، ولكنه كمحبي التلوين جميعاً يتقلبون مع رياح الهوى ويتغيرون بسهولة . ولأنني أحببت مهارته الإعجازية التي وهبها الله له ، وأحببت حساسيته للون راقبته في صباه عن كثب ، لهذا أعرف عنه كل شيء . وطبعاً في أحوال كهذه يشعر النقاشون بالغيرة وتتأذى علاقة المعلم بالـ ؟ ، وعاش فراشة لحظات عشق كثيرة لم يخف فيها مما سيقوله الآخرون . بعد زواجه مؤخراً من ابنة بقال حيّه الجميلة لم أجد دافعاً في

نفسي لزيارته ، كما لم أجد الفرصة المناسبة » .

قال قرة : « يقال إنه يقضي معظم وقته مع رجال الشيخ الأرضرومي . ويقولون : إذا استطاع أتباع الشيخ الأرضرومي منع سرناماتنا التي يُرسم فيها الاستعراض الرسمي الذي يضم الجميع من الطباخين إلى لاعبي الخفة ، ومن أهل الطريقة إلى الراقصين بزي النساء ، ومن شواني الكباب إلى حدادي الأقفال والمفاتيح ، ومنع (السفرنامات) التي تعرض اللحظات المعهودة في الحروب ، كما تعرض الأسلحة والدماء بحجة أنها منافية للدين ، وتمت العودة إلى كتب أساتذة العجم وقوالبهم سيكون فراشة رابحاً من هذا الأمر » .

قلت بقسوة : « إذا عدنا بمهارتنا مظفرين إلى تلك الرسوم الرائعة القادمة إلينا من عهد تيمور ، وإذا دخلنا إلى تفاصيل الحياة والمهنة التي سيكون الذكي لقلق أفضل من يستمر فيها ، سيعمل الجميع على الرسم مثل الأفرنج » .

هل كنتُ مؤمناً بهذه الكلمات القاهرة ؟ .

قال قرة بصوت خفيض جداً : « زوج خالتي أيضاً قال هذا ، ولكنه كان متفائلاً » .

صفات لقلق

رأيته يوقع باسم المصور الخطّاء (مصطفى چلبي) . يضع توقيعه على الرسم مبتسماً وبشعور المنتصر لأنه لا يتعب عقله بالتفكير فيما إذا كان له أسلوب أم لا ، أم يجب أن يكون ، وإذا كان موجوداً فهل يجب أن يوقع أم لا ، أم يجب أن يخبئه كالأساتذة القدماء ، وهل التواضع يعني التوقيع أم عدم وضعه .

سار في الطريق الذي شققته أنا بجرأة ، ورأى ما لم يرسمه أحد من قبله

وسكبه على الورق . رأى ما رأيته من نفخ الزجاجين المعلمين الزجاج المذاب في الفرن وتدويره لصنع الأباريق الزرقاء والزجاجات الخضراء ، وانتباه الحذائين بشدة إلى الأحذية والجزمات وجلودها ومخارزها وقوالبها ، ورسم أحصنة العيد أقواساً بحركة ظريفة ، وعصر المكابس للبذور واستخراج الزيت منها ، وانطلاق المدافع المحاصرة أعداءنا وسبطانات البنادق وبراغيها ، ولم يقل إن أساطير النقش التبريزيين والقزوينيين المعلمين القدماء من زمن تيمور لم يتنازلوا لرسم هذه المواضيع ورسمها . هو أول نقاش مسلم ذهب إلى الحرب وتأمل بشهية كبيرة قلاع العدو والمدافع والجيوش والخيول النازفة والمحاربين الذين ينازعون الروح والأموات للتحضير من أجل رسم (سفرنامة) وعاد سليماً معافى .

أعرفه من موضوعه قبل أسلوبه ، ومن تفاصيل لا أحد ينتبه إليها قبل موضوعه . أستطيع وبراحة ضمير كاملة أن أئتمنه على الرسم كاملاً : من تخطيط الصفحة إلى توزيع العناصر فيها ، ومن أبسط أمر فيها إلى تلوينها . لهذا السبب فإن منصب كبير النقاشين بعدي من حقه . ولكنه حريص ، ومعجب بنفسه ومستهين بالنقاشين الآخرين إلى حد يجعله لا يستطيع إدارة كل هذا العدد من الناس ويطفّشهم جميعاً . وفي الحقيقة لو بقي الأمر له لرأى أن رسوم نقش خانتنا كلها يجب أن يرسمها هو باجتهاده غير المعقول ، ويستطيع عمل هذا إن أراد ، إنه أستاذ كبير يجيد عمله ويحب نفسه ، ويا لسعادته .

عندما ذهبت إلى بيته دون أن أعلمه ، رأيته وهو يعمل . وجدت الصفحات التي ينقشها من أجل كتاب سلطاننا ، والتي ينقشها لي ، وصفحات (قيامة نامة) التي ينقشها من قفا يده في كتب بانسة من أجل الرحالة الأفرنج الذين يهوون الاستهزاء بنا ، وصفحة كتاب بثلاثة رسوم

يرسمها لباشا يظن نفساً شيئاً ، وحتى رسوم المرقعات والرسوم التي يرضي بها ذوقه . . . وأعماله كلها بما في ذلك رسوم النيك موزعة هنا وهناك على الرحلات وخشبة الرسم والفرشات . وهو فارع الطول ويعمل مثل نحلة . ولقلقي النحيل يركض من رسم إلى رسم مغنياً قارصاً خدّ تلميذه الذي يمزج الألوان ، ممازحاً في أثناء الرسم ويضحك لنفسه . وهو على عكس النقاشين الآخرين ، لم يتوقف عن العمل ، ويقف احتراماً لمجيني واستمر بعرض موهبته التي منحه إياها الله بسعادة ، ومهارته التي كسبها بعمله ، وسرعته (هو يعمل في الوقت نفسه عمل سبعة أو ثمانية نقاشين) . والآن قبضت على نفسي متلبساً ؛ أتمنى بيني وبين نفسي إذا كان القاتل أحد نقاشيَ المعلمين أن يكون لقلق إن شاء الله . لم أكن أفرح عندما أراه عند باب داري صباح أيام الجمعة كما كنت أفرح عندما أرى فراشة . لأنه يبدي الاحترام نفسه لكل تفصيل غريب دون أي منطق (عدا منطق الرؤية بالعين) فإن موقفه من الرسم يشبه منطق أساتذة الأفرنج . ولكن لقلقي الحريص على عكس الرسامين الأفرنج فهو لا يرى وجوه الناس ذات خصوصية ومختلفة عن بعضها البعض ، ولا يرسمها هكذا . أعتقد أنه لا يهتم بوجوه الناس لأنه يستهين بهم بشكل صريح أحياناً ومستتر في أحيان أخرى . المرحوم زوج الخالة لم يجعله يرسم وجه سلطاننا .

عندما يرسم أكثر المواضيع جدية لا يمسك نفسه عن رسم كلب في زاوية الصفحة ينظر إلى الحادثة بترفع وشبهة ، أو يرسم متسولاً يستهين بغنى وبهرجة المراسم . . . ويثق بنفسه إلى حد سخريته من الموضوع الذي يرسمه ، ومن نفسه .

قال قرة : «قتل ظريف أفندي وإلقائه في الجب يشبه قتل يوسف على يد أخوته وإلقائه في الجب ، أما قتل زوج خالتي فيشبه قتل ابن خسرو أباه

عندما وضع عينه على زوجة أبيه الجميلة شيرين . والجميع يقولون إن لقلقاً يستمتع جداً برسم رسوم الحرب والدم» .

«التفكير بتشبّه النقاش بالرسم الذي يرسمه يعني عدم فهمي ولا فهم نقاشيّ المعلمين . ما يكشفنا هو ليس ما نرسمه بناء على طلب الآخرين – لأن تلك المواضيع هي نفسها دائماً في الأصل – بل الحساسية السرية في أثناء تجسيدها . ما يبدو أنه ينبعث من اللوحة مثل شعاع ضوء هو التمسك والغضب المنبعث ، وتوزيع الناس والخيول والشجر في الصفحة ، وفي العفوية والصبر عندما نريد التعبير عن الإرادة والكدر في انبثاق شجرة سرو نحو السماء ، أو ترتيب الأحجار الصينية التي تعمي العيون . هذه هي إشاراتنا السرية ، وليست الخيول التي تتكرر وراء بعضها بعضاً . عندما يرسم النقاش غضب حصان وسرعته فهو لا ينقش غضبه وسرعته ، إنه يحاول أن يظهر غنى العالم ، والعشق لخالقه ، أو نوعاً من تلوين الحياة عند رسم الحصان الأكمل . وهذا هو الأمر» .

* * *

42

اسمي قرة

قضينا فترة بعد الظهر - الأستاذ الكبير عثمان وأنا - نتحدث عن كتاب زوج الخالة ، وعن النقاشين الأساتذة وأمامنا صفحات بعضها منجزة خطوطها ، وبعضها منتهية تماماً ، وبعضها لم تلون ، وبعضها تركت عند منتصفها لسبب ما ، ونقيّمها ونُجَدْوِلُها . ولحظة شعرنا بأن رجال آمر الحامية الذين يظهرون بمظهر القبضايات ، والاحترام في آن واحد قد تركونا وحدنا بعد أن جلبوا الصفحات من بيوت الأساتذة النقاشين التي داهموها (بعض اللوحات لا علاقة لها نهائياً بكتابينا ، وبعضها تثبت أن الخطاطين ومن أجل عدة قروش يعملون سراً أعمالاً سافلة خارج القصر) اقترب الذي يبدو الأكثر ثقة بنفسه فجأة من الأستاذ الكبير ، وأخرج ورقة من حزامه .

للحظة لم أهتم لاعتقادي أنه أب يريد جعل ابنه تلميذاً يبحث عن طريقة لإيصال رسائل الرجاء إلى كبير قسم . أو آغا مجموعة . وأدركت من الضوء الذاوي المنبعث من الخارج أن شمس الصباح تغرب . كنت أعمل الحركات التي يعملها المعلمون الشيرازيون القدماء الذين يقاومون العمى في سن الشباب ، وأنظر إلى البعيد في الفراغ دون تحديد نقطة معينة لكي أريح عيني . في تلك اللحظة عرفت الورقة التي يمسكها أستاذي في يده محتاراً من لونها ومن طريقة طيها التي تجعل قلبي يقفز من مكانه . إنها مطابقة للرسائل

التي أرسلتها أليّ شكورة مع إستر . كدت أقول : يا للمصادفة . . . مثل مخبول حقيقي . فوق هذا مع الرسالة ورقة سميكة كما في رسالةِ شكورة الأولى .

ترك الأستاذ عثمان الورقة المرسومة معه ، وأعطاني الرسالة التي فهمت في تلك اللحظة خجلاً أنها من شكورة .

«سيدي قرة! . . . أرسلتُ إستر إلى قلبية أرملة المرحوم ظريف أفندي لاستدراجها في الكلام . وهناك فرّجتها على هذه الورقة المنقوشة . بعد ذلك ذهبتُ إلى بيتها . دوّرتُ معها الكلام ، وتوسلت إليها فأخذت منها هذه الورقة المنقوشة علها تفيدك في عملك . ظهرت هذه الورقة مع جثة ظريف أفندي المخرجة من الجب . وتقول قلبية إنه لا أحد يكلف زوجها المرحوم برسم حصان ، وتقسم على هذا . من رسمه إذن ؟ فتش رجال آمر الحامية البيت ، وأنا أرسل لك رسم الحصان هذا على عجل . الولدان يقبلان يدك . زوجتك شكورة» .

قرأت الكلمتين الأخيرتين من الرسالة الجميلة مرتين ناظراً إليهما باهتمام كأنني أنظر إلى وردتين حمراوين رائعتين في حديقة . بعد ذلك قرّبت عيني من الورقة التي ينظر إليها الأستاذ عثمان عبر العدسة التي في يده : أدركت بسرعة أنه رسم خيول بخطوط سريعة جداً لتدريب اليد على طراز الأساتذة القدماء ، وقد انتشر حبره كثيراً .

طرح الأستاذ عثمان الذي كان يقرأ رسالة شكورة بعينيه سؤاله بصوت مسموع : «من رسم هذا ؟» .

أجاب بعد ذلك بنفسه قائلاً : «طبعاً النقاش الذي رسم حصان المرحوم زوج الخالة» .

هل كان واثقاً من هذا إلى هذا الحد ؟ فوق هذا لم نكن واثقين من الذي

رسم الحصان في كتاب زوج الخالة . أخرجنا رسم الحصان من بين الصفحات التسع ، وبدأنا ننظر إليه بدقة .

إنه حصان جميل وبسيط ولا نشاز فيه ولا يشبع الإنسان من النظر إليه هل أنا صادق بقولي : إن الإنسان لا يشبع من النظر إليه ؟ لقد كان لدي الوقت الطويل للنظر إلى رسم الحصان مع زوج خالتي ، وفيما بعد وحدي ، ولكنني لم أتوقف عنده . إنه جميل ولكنه حصان عادي . إنه حصان عادي إلى حد عدم تعرفنا على نقاشه . لم يكن بلون كميت تمري بل بلون ما يدعى كميتاً كستنانياً ، كما أن في لون الكميت أحمرَ خفيفاً غير واضح . أدركت أنه حصان رأيت مثله في كتب ورسوم أخرى إلى حد أنه مرسوم من ذاكرة النقاش . ودون توقف عنده .

وبرؤية مدقَقة علمنا أن الحصان يخفي سراً دققنا فيه . أما الآن فأرى فيه جمالاً يرتجف مثل ضباب ، وقوةً تؤجج انفعالاً فيه حياة ، وعلماً وحصولاً على كل شيء . فجأة سألت نفسي : «من هو النقاش ذو اليد السحرية الذي رسم هذا الحصان برؤية إلهية ؟» . ناسياً أن الذي رسمه هو قاتل سافل . كان رسم الحصان كحصان حقيقي أمامي ، وأدرك في زاوية من عقلي أنه رسم . والانبهار بين هاتين الفكرتين يُحدث لدي شعوراً بالتكامل وعدم وجود أي تقصير .

قارنّا لبعض الوقت الخيول المرسومة لتدريب اليد والمنتشر حبرها مع الحصان المرسوم من أجل كتاب زوج الخالة ، وفهمنا بسرعة أن يداً واحدة أنجزتها : وقفة الخيول لا تعطي انطباعاً بالحركة ، بل بالسكون : إنها مغرورة وقوية ، وظريفة . شعرت بإعجاب نحو رسم الحصان الذي في كتاب زوج الخالة .

قلت : «إن هذا الحصان جميل بحيث يجعل الإنسان يريد تناول ورقة

بسرعة ، ورسم حصان مثله ، بعد ذلك يريد رسم كل شيء » .

قال الأستاذ عثمان : « إن أكبر مجاملة تقدم لنقاش القول إن رسومه تثير فينا اندفاعاً للنقش . ولكن علينا الآن ألا ننظر إلى مهارة الإبليس هذا ، بل لمعرفة من هو . هل أخبرك المرحوم الأفندي زوج الخالة بحكاية هذا الحصان ؟ » .

لم يخبرني . بالنسبة إليه فهو أحد الخيول التي تعيش في كل البلدان التي يمتلكها سيدنا السلطان المقتدر . إنه حصان جميل . حصان من خيول آل عثمان . وهذا يعبر لدوق البندقية عن غنى البلدان التي يمتلكها سلطاننا . ولكن من جهة أخرى ، كما في كل ما يرسمه الأساتذة الأفرنج ، فإن هذا الحصان أيضاً بلحم ودم أكثر من الحصان الذي براه الله ، عاش في اسطنبول سائسه معروف ، واسطبله معين ، ويجعل الدوق البندقي يقول إن العثمانيين بدؤوا يشبهوننا لأن نقاشيهم بدؤوا يرون رؤانا ، ويرسمون مثلنا ، ويقبلُ بقوة سلطاننا وصداقته . لأن الإنسان عندما يبدأ برسم الحصان بشكل مختلف ، يبدأ برؤية العالم كله بشكل مختلف . ولكن هذا الحصان على الرغم من غرابته فهو بأسلوب الأساتذة القدماء » .

الحديث حول الحصان كل هذا جعله في نظره أكثر جاذبية وقيمة . كان فمه مفتوحاً قليلاً ، ويظهر لسانه من بين أسنانه . قوائمه قوية وظريفة . ترى هل الذي يؤسطر الرسم هو ذاته أم ما يقال بحقه ؟ كان الأستاذ عثمان يجوب على الرسم بعدسته ببطء شديد .

قلت بصدق : « ماذا يريد من هذا الحصان ؟ لماذا هذا الحصان موجود ؟ لماذا هذا الحصان بالذات ؟ لماذا يجعلني هذا الحصان منفعلاً ؟ »

قال الأستاذ عثمان : « إن السلاطين والباشوات رعاة إنجاز الكتب يشعرون بقوتهم وقدرتهم كما في تلك الرسوم والكتب التي يوصون عليها ،

ويجدونها جميلة لأن كثرة ماء الذهب الذي يدهن الرسم به ، وجهد النقاش المسكوب فيه ، ونور عينيه تكون بمثابة دليل إثبات لغناهم . جمال الرسم هو كالحصان المستخدم في الرسم ، ومهارة النقاش النادرة الوجود إثبات أنه غالي الثمن لذلك فهو هام . تعبّر المهارة عن شعور بالحقيقة لدى الناظر إلى الرسم ومقلب صفحات الكتاب ، إما لجمال موضوعه أو لأنه حصان الله أو أنه حصان بحق ، وهذا ما يجعله جميلاً . أما بالنسبة إلينا فإن الجمال في الرسم يبدأ من كثرة المعاني والدقة . معرفة أن في هذا الحصان - غير كونه حصاناً - إصبع القاتل وإشارة إبليس زاد معاني الرسم بالطبع . إضافة إلى هذا ، هنالك رؤية أن الحصان المرسوم جميل ، والنظر إلى رسم حصان لا كما ينظر إلى رسم بل كما ينظر إلى حصان » .

« إذا نظرتم إلى هذا الرسم كما تنظرون إلى حصان ماذا ترون فيه ؟ » .

« يمكنني القول إننا إذا نظرنا إلى كبر هذا الحصان نجد أنه ليس (ميديلياً)(*) ، وإذا نظرنا إلى رقبته الطويلة والمقوسة قليلاً سنجد أنه حصان سباق جيد ، وكون ظهره مستوياً ينبأ أنه حصان مساعد للسفر إلى أمكنة بعيدة جداً . تشير قوائمه الظريفة إلى أنه مثل الحصان العربي سريع وذكي . ولكنه ليس حصاناً عربياً لأن جذعه ضخم طويل . ظرافة قوائمه ينطبق عليها قول العالم البخاري (فضلان) في (بيطارنامة) حول الخيول المرغوبة ، فإن حصاننا هذا إذا اعترض طريقه نهر يستطيع القفز فوقه ، وتجاوزه بسهولة ، ولن يخاف ويحرن . ينطبق على حصاننا البني هذا كل كلمة قيلت عن الحصان المفضل في (البيطارنامة) وترجمها بيطار قصرنا (فيوزي) وأحفظها غيباً : الحصان الجيد جميل الوجه ، عيناه كعيني المها ، أذناه كورقتي

(*) كلمة يونانية . اسم لنوع من الخيول المعروفة بصغر حجمها قليلاً عن الخيول العادية .

القصب ، وما بين أذنيه عريض ، وهو صغير الأسنان محدب الجبين ، حاجباه غير ظاهرين ، طويل القامة ، طويل العرف ، قصير الكفل ، صغير الأنف ، ضيق الكتفين ، مفلطح الظهر ، ممتلئ الفخذين الطويلين ، عريض الصدر ، وعريض تحت الذيل ، ممتلئ اللحم بين الفخذين ، مغرور ، وظريف ، وعندما يسير كأنه يحيي من على جانبيه» .

قلت وأنا أنظر بإعجاب إلى رسم الحصان : «إنه حصاننا الكميت بالضبط» .

قال الأستاذ عثمان بابتسامته الخجولة نفسها : «فهمنا ما هو حصاننا ، ولكن هذا مع الأسف لا يفيدنا أبداً في موضوع معرفة نقّاشه ، لأنني أعرف أنه ليس ثمة نقاش عقله في رأسه يرسم حصاناً وهو ينظر إلى حصان حقيقي . وبالطبع إن نقاشيّ يرسمون الحصان بسرعة كبيرة ومن ذاكرتهم . والدليل على هذا أن أكثرهم يبدؤون برسم الخط الخارجي للحصان من حوافره» .

قلت وكأنني أعتذر : «ألا يبدؤون برسم قوائم الحصان لكي يدوس على الأرض ؟» .

«حسب قول جمال الدين القزويني في نقش الخيول إذا بدأنا برسم الحصان من قائمته فلا يمكننا إنهاؤه على أكمل وجه إلا إذا كان الحصان كاملاً في ذاكرتنا . أما الحصان الذي يرسم بعد تفكير وتذكر بالنظر إلى حصان آخر حقيقي أو مرسوم فمن المعروف أنه يُبدأ برسم رأسه ثم رقبته ، ومن رقبته يُنتقل إلى جذعه . وثمة رسم كهذا لدى بعض الرسامين الأفرنج ، وهذا يشبه بغل تحميل عادياً يُرى في الشوارع بتجربة غير مستقرة ، كمن يعمل شراب الحبوب الساخن ويبيعه للخياطين والقصابين . ورسم كهذا لا يقترب من معنى العالم ومن الجمال الذي خلقه الله . ولكنني واثق أنه حتى أولئك

يعرفون أن النقاش الحقيقي في تلك الأثناء لا يرسم ما تراه عيناه بل ما اعتادت عليه يده اعتماداً على ذاكرته . الرسام دائماً وحيد مع ورقته . لهذا السبب فهو بحاجة إلى التذكر دائماً . الآن ليس أمامنا سوى إيجاد التوقيع السري لرسم حصاننا المنفذ باندفاع اليد ومهارتها من الذاكرة حسب أسلوب النديمة . وأنت أيضاً انظر إليه جيداً » .

كان يجوب بالعدسة التي بيده فوقه ببطء شديد كمن يبحث عن كنز في خريطة قديمة .

قلتُ كتلميذ منهمك بإيجاد اكتشاف مدهش لينال إعجاب أستاذه : « نعم ، يمكننا مقارنة ألوان غطاء السرج وتطريزه مع أغطية السروج في الرسوم الأخرى » .

« لا يلمس نقاشيَ الأساتذة هذه الزخارف بفراشيهم . التلاميذ هم الذين يرسمون نقوش الألبسة والسجادات والخيام . ولعل ظريف أفندي رسمها . دعها » .

قلت بفضول شديد : « هل الآذان ؟ آذان الخيل أيضاً . . . »

« لا ، هاتان أذنان لا تختلفان عن القوالب الباقية من عهد تيمور . معروفتان تشبهان ورقتي قصب » .

كنت سأقول : « شعر الطرة وتمشيطه شعرة شعرة » ولكنني سكتُ لأنني لم أنبسط من لعبة المعلم – التلميذ . وإذا كنتُ تلميذاً فعليَّ أن أعرف حدّي .

قال الأستاذ عثمان مشتكياً كحكيم يُري حكيماً آخر جرثومة وباء ، ولكن بنبرة في منتهى الدقة : « انظر إلى هنا! . . . هل ترى ؟ » .

صارت يده الحاملة العدسة الآن فوق رأس الحصان مباشرة ، ويقربها ببطء شديد نحونا بعد أن كانت قريبة من سطح الرسم . قربت رأسي جيداً

لرؤية ما تكبره العدسة .

أنف الحصان غريب . فتحة الأنف .

قال الأستاذ عثمان : «هل رأيت ؟» .

كان عليَ وضع عيني فوق العدسة مباشرة للتأكد مما رأيته . عندما عمل هذا الأستاذ عثمان أيضاً تلامس خدانا فوق العدسة التي ابتعدت قليلاً عن الرسم . للحظة خوفتني لحية الأستاذ الجافة القاسية التي شعرت بها بذقني الباردة .

خيّم صمت . كأن أمراً رائعاً يحدث على مبعدة شبر من عينيَ المتعبتين ونحن نتابعه باحترام وإعجاب .

بعد فترة طويلة همست له : «ما الذي في الأنف ؟» .

قال الأستاذ عثمان دون أن يبعد عينه عن الرسم : «رُسم الأنف بشكل غريب» .

«هل انزلقت يده ؟ هل هذا عيب ؟»

ما زلنا ننظر إلى الرسم الغريب الذي لا شبيه له .

قال الأستاذ عثمان بنبرة ساخرة : «هل هذا الأمر هو الأسلوب الذي بدأ الجميع يبحث عنه بمن في ذلك نقاشو الصين الكبار بتقليد الأفرنج ؟»

سيطر عليَ شعور بالخجل لاعتقادي أن الذي يسخر منه هو المرحوم زوج خالتي : «قال المرحوم زوج خالتي إن العيب لم يكن ناجماً عن قلة الموهبة ونقص المهارة ، وإذا كان نابعاً من أعماق روح النقاش فهذا يغدو أسلوباً» .

ليس ثمة إشارة أخرى في يد النقاش ، أو في الحصان نفسه أو مهما كان مصدرها لإيجاد السافل الذي قتل زوج خالتي غير هذا الأنف . لأننا كنا نلاقي صعوبة في إيجاد أنوف أو فتحات أنوف الخيول المرسومة على الورقة التي وجدت مع المرحوم ظريف أفندي المسكين ، وانتشر حبرها .

قضينا وقتاً طويلاً لإيجاد رسوم الخيول التي رسمها نقاشو الأستاذ عثمان الأحباء في السنوات الأخيرة والبحث عن العيب في فتحة الأنف . كان هنالك قليل جداً من الخيول في المائتين والخمسين صفحة التي تشرح عرض الجماعات ، وأقفاص العرض الزجاجية في عبورها أمام سلطاننا والمرسومة للسرنامة التي يعمل على إنهائها ، أُرسل رجال إلى النقش خانة ومبنى عرش السلطان والحرم لجلب الكتب ودفاتر القوالب القديمة كلها إضافة إلى الكتب التي يضرب عليه أقفال فوق أقفال مخبوءة في الخزينة ، وطبعاً بإذن سلطاننا .

في صفحة مزدوجة من مجلد (ظفرنامة) مجلوبة من غرفة أحد الأمراء الشباب تعبر عن مراسم جنازة السلطان سليمان القانوني الذي مات في أثناء حصار (زيغتقار) حصانان يجران تابوته أحدهما كميت أغر والثاني أشهب له عينا مها . وثمة خيول أخرى حزينة وضع عليها سروج رائعة مطرزة بالذهب وصنعت خصيصاً من أجل جنازة السلطان سليمان . نظرنا إلى تلك الخيول أولاً ، هذه نقشها زيتون وفراشة ولقلق . والخيول تلك التي تجر عربة التابوت ذات العجلات الضخمة أو تلك اتي يركبها الأفندية لتحية الجسد المغطى بقماش أحمر غامق بعيون مغرورقة مأخوذة من أساتذة هرات القدماء بالوقفة الظريفة نفسها ، إحدى القائمتين الأماميتين متقدمة بظرافة ، والأخرى بجانبها ثابتة . كلها ذات رقاب طويلة مقوّسة ، ومربوطة الذيول ، مقصوصة وممشوطة الطرات ، ولكن ليس في أي منها العيب الذي نبحث عنه . وذلك العيب غير موجود في أي من مئات الخيول التي تحمل القادة القادمين من التلال المجاورة ، والعلماء والشيوخ لحضور مراسم الجنازة وتحية السلطان سليمان .

انتقل إلينا شيء من كدر تلك الجنازة الحزينة . وما أحزننا أكثر هو الإساءة لذلك الكتاب الرائع الذي بذل فيه الأستاذ عثمان ونقاشوه كل هذا

الجهد . وشطب نساء الحرم اللعوبات مع الأمراء خطوطاً وسط الصفحات ، وهنا وهناك . وكتب بخط يد سيئ تحت شجرة كان يصطاد تحتها جد سلطاننا : « يا حضرة أفنديَ أحبك بصبر هذه الشجرة » . استعرضنا تلك الكتب التي سمعت عن إنجازها واحداً واحداً ولم أتفرج على أي منها محبطاً وحزيناً .

وفي المجلد الثاني من (مهارة نامة) ، الذي شاركت أقلام الأساتذة النقاشين الثلاثة بإنجازه ، رأينا الخيول التي تحمل الفرسان المهمين شاهرين سيوفهم ، لابسين دروعهم وراء المشاة والمدافع التي ترعد ، وتلك الخيول الشهباء ، والصهباء والدهماء العابرة التلال المتقدمة هنا وهناك بالمئات بشكل منتظم ليس في أنف أي منها عيب . قال الأستاذ عثمان : « ما هو العيب ؟ » بعد ذلك نظرنا إلى صفحة من الكتاب نفسه رسم فيها قصر السلطان والساحة التي نحن فيها في تلك اللحظة : الرسم يرينا المستشفى الذي على اليمين ، وغرفة الرجاء ، وأشجار الباحة صغيرة بحيث يتسع لها الإطار ، وكبيرة بقدر ما يهتم بها عقلنا ، والإشارة التي نبحث عنها غير موجودة في أنوف الخيول الملونة التي يركبها حراس الأبواب والشاويشية وكتاب الديوان . تفرجنا على السلطان سليم الجبار والد جد سلطاننا في أثناء حملته على حاكم (دولكدر) وقد نصب خيمة كبيرة مزركشة بجوار وادي (كوسكين) وصيده الإوز البري ذي الذيل الأحمر ، وفراخ الغزلان ، والأرانب المتوجسة وهي تهرب راكضة ، ورميه نمراً مرقشاً ورقشة مثل زهور البرية المتفتحة وسط دمائه . الإشارة التي نبحث عنها غير موجودة في أنف الحصان الكميت الأغر الذي يمتطيه السلطان ولا في أنوف الخيول المنتظرة خلف السهوب ويمتطيها حملة الصقور متحفزين وعلى أذرعهم تقف الصقور .

وحتى حلّ المساء رأينا مئات الخيول التي رسمت بأقلام نقاشي الأستاذ

عثمان : زيتون وفراشة ولقلق في السنوات الأربع أو الخمس الأخيرة : خيول خان القرم محمد غيراي ، الكميت الكاشفة . والدهماء والصهباء ذات الغرر ، وخيول زهرية ورصاصية تظهر رقابها فقط من خلف تلة في معركة . خيول حيدر باشا الذي يسترد قلعة (خلق الود) التونسية من الكفار الإسبان ، وخيول هؤلاء الهاربة منه ، حمراء داكنة وخضراء فستقية وقد سقط أحدها على أنفه ، وحصان أدهم مرسوم دون اهتمام يجعل الأستاذ عثمان يقول كيف غاب عن عيني هذا ، من رسمه يا ترى ؟ أحد الفتية الذين يربون من أجل وظائف هامة في الدولة يعزف على العود ، وثمة حصان كميت ينصب أذنيه مستمعاً باحترام ، والحصان (شبديس) الظريف والخجول مثل شيرين المستحمة في البحيرة وهو ينتظرها ، والخيول المتراقصة التي يمتطيها لاعبو الرماح ، والحصان الذي مثل العاصفة والسائس الجميل الذي جعل الأستاذ عثمان يقول لقد أحببته كثيراً عندما كنت شاباً وأتعبني كثيراً ، والحصان الشمسي اللون الذي أرسله الله إلى حضرة إلياس لحمايته من هجوم عبدة الأصنام ، ولكن جناحيه علقا خطأ بحضرة إلياس ، وحصان السلطان سليمان القانوني البري الأصيل الضخم الجثة والصغير الرأس في أثناء الصيد وهو يتملى الأمير بعينين مكدرتين إذ يصطحبه إلى الصيد بعد أن مات أولاده الثلاثة في سن الشباب واحترق قلبه من أجلهم ، والخيول الغاضبة والخيول الراكضة : والخيول المتعبة ، والخيول الجميلة التي لم يرها أحد ، والخيول التي لن تخرج من هذه الصفحات ، والخيول القافزة وكأنها ستخرق إطار الصفحة في إرادة الخروج منها .

ليس في أنف أحدها التوقيع الذي نبحث عنه .

ولكن من جهة أخرى كان لا يفارقنا الشعور بالخيبة والأسى مقابل إحساسنا بالانفعال : نسينا الحصان مرة أو اثنتين وغرقنا في جمال الرسم

والألوان التي تجعل الإنسان يستسلم لها . كان الأستاذ عثمان ينظر إلى الرسوم التي حضّر أغلبها وأشرف عليها ، ورسمها . بانفعال استذكار وليس بانفعال دهشة . وفي إحدى المرات قال : «هذا قاسم من حي قاسم باشا» وأشار إلى الأعشاب البنفسجية في عمق خيمة الحرب الحمراء للسلطان سليمان جد سلطاننا وقال أستاذي : «لم يكن أستاذاً أبداً ، ولكنه على مدى أربعين سنة رسم هذه الأعشاب ذات الورقات الخمس والزهرة الوحيدة في الأماكن الفارغة من الرسم ، ومات قبل سنتين ، ولأنه يرسم هذه الأعشاب أفضل من الجميع كنت أجعله يرسمها دائماً» . وبعد أن صمت قليلاً قال : «مع الأسف ، مع الأسف» . شعرت من خلال هذه الكلمات أن ثمة أشياء انتهت ، وعصراً أغلق عليه .

أظلم الجو ، وفجأة غمر الضوء الغرفة . وحدثت حركة . قلبي الذي بدأ يخفق بقوة فهم كل شيء بسرعة : دخل فجأة حضرة سلطاننا حاكم الدنيا . رميت نفسي عند قدميه وقبلت طرف ثوبه . كنت أشعر بالدمار . لم أستطع النظر إلى عينيه .

ولكنه كان قد بدأ ومنذ زمن بالحديث مع كبير النقاشين الأستاذ عثمان . ورؤيتي له يتحدث مع الشخص الذي كنت أجلس بجانبه تماماً ، وأتفرج معه على الرسوم ملأ قلبي بحرارة الغرور . لم أصدّق ، ولكن حضرة سلطاننا يجلس الآن في المكان الذي كنت أجلس فيه قبل قليل ، ويستمع إلى ما يقوله أستاذي بدقة كما كنت أستمع إليه تماماً . يرافقه الخزندار الأكبر وآغا حملة الصقور ، وثمة أشخاص لم أعرفهم يحمونه من جهة ويتفرجون على الصفحات المفتوحة بانتباه كبير من جهة أخرى . في لحظة استجمعت جرأتي كلها ونظرت - وإن كان من جانب - إلى وجه سلطان سلاطيننا حاكم العالم وعينيه ، وكانت نظرة طويلة . كم كان جميلاً ومتناسقاً

وصادقاً ؟ لم يعد يخفق قلبي انفعالاً . وفي تلك اللحظة تماماً نظر إليَ ، وتقابلت عيوننا .

« كنت أحب زوج خالتك » . نعم كان يكلمني ، ولشدة انفعالي ضاعت مني بعض كلماته .

« حزنت عليه كثيراً ، ولكن رؤيتي لهذه اللوحات الرائعة خففت همي . عندما يراها الكفار البندقيون سيدهشون ، ويخافون من فكري . لا بد أنكما ستجدان النقاش الملعون من أنف هذا الحصان . وإلا سيكون من الظلم تعذيب معلمي النقش كلهم ، ولكنه ضروري » .

قال الأستاذ عثمان : « يا حضرة سلطان سلاطين الأرض سلطاني ، علنا نعرف الذي عمل زلة القلم هذه إذا جعلنا نقاشيَ يرسمون على ورقة بيضاء حصاناً دون التفكير في قصة معينة » .

قال سلطاننا بذكاء حاد : « طبعاً إذا كانت زلة قلم ، وليست أنفاً حقيقياً .

قال الأستاذ عثمان : « سلطاني! حبذا لو عُرف أنكم تفضلتم بعمل مسابقة هذه الليلة وبسرعة ، وإذا قرعت أبواب نقاشيكم باباً باباً ، وطلب منهم رسم حصان بسرعة على ورقة فارغة من أجل هذه المسابقة . . . » .

نظر سلطاننا إلى آمر الحامية نظرة تقول : « هل سمعت ؟ » ثم قال : « هل تعرفون حكاية المسابقة الأحب إليَ بين حكايات الشاعر نظامي ؟ » .

بعضنا قال : « نعرف » وبعضنا قال : « أيها » وقسم منا سكت مثلي .

قال سلطاننا الجميل : « لا أحب حكاية الشعراء المتسابقين . وهي ليست حكاية الرسامَيْن : الصيني والرومي ذات المرايا . أنا أحب حكاية الحكماء المتسابقين إلى الموت » .

فور قوله هذا تركنا وذهب لإقامة صلاة المغرب .

فيما بعد ، وعندما كان يرفع أذان المغرب ، وبعد خروجي من أبواب القصر في جو شبه مظلم ، وبينما كنت أسير نحو الحي بخطوات حثيثة مفكراً بإسعاد شكورة والأولاد والبيت ، تذكرت بخوف حكاية سباق الحكماء .

أحد الحكمين المتسابقين أمام أحد السلاطين ، ويرسم في أكثر الأحيان بثياب زهرية ، صنع بلعات خضراء من سمّ قوي يقتل فيلاً ، أعطاه للحكيم الآخر الذي يرتدي قفطاناً بنفسجياً . وهذا بلع بعده الترياق الذي حضره بسرعة ، ومن ابتسامته الحلوة نعرف أنه لم يحدث له شيء . فوق هذا جاء دوره الآن بجعل خصمه يشم رائحة الموت . تحرك ببطء شديد مستمتعاً بمجيء دوره بالحملة ، وقطف وردة زهريةمن الحديقة ، وقربها من شفتيه ، وهمس بشعر مظلم لم يسمعه أحد . بعد ذلك ، وبحركات تشير إلى ثقته بنفسه كثيراً ، قدم تلك الزهرة للحكيم ذي الثياب الزهرية ليشمها . قلق الحكيم ذو الثياب الزهرية من قوة الشعر الذي همس به للزهرة ، وفور تقريبه تلك الزهرة التي لا خصوصية لها سوى رائحتها من أنفه ، فانهار ميتاً من الخوف .

* * *

٤٣

يناودنني زيتوناً

كان الوقت قبيل صلاة المغرب عندما قرع الباب . فتحت : أحد رجال آمر الحامية . إنه شاب نظيف ووسيم وباسم وجميل . في يده قنديل يظلل وجهه أكثر مما ينيره ، وورقة ومسند كتابة ، وشرح الأمر بسرعة : أمر سلطاننا بعمل مسابقة لإيجاد النقاش الذي يرسم الحصان الأفضل بحملة واحدة . الآن أمرت بالجلوس فوراً ووضع هذه الورقة على الخشبة ، والخشبة على ركبتي ، ورسم الحصان الأجمل في العالم بسرعة ضمن الإطار .

أدخلت ضيفي . وبسرعة تناولت قلمي الأدق المصنوع من وبر أذن قطة ، وأحضرت حبري ، وجلست على الأرض . توقفت لحظة! هل من الممكن أن تكون هذه لعبة أو مؤامرة أدفع ثمنها من دمي وروحي ؟ ممكن! ولكن ألم يرسم رسامو هرات كلهم أساطيرهم بهذا الخط الرفيع الفاصل بين الجمال والموت ؟ .

امتلأ قلبي برغبة النقش الشديدة . يبدو وكأنني خفت من الرسم على طريقة الأساتذة القدماء ، وسيطرتُ على نفسي .

نظرت إلى الورقة الفارغة وانتظرت لحظة لتتخلص روحي من مخاوفها . علي أن أفكر بالحصان الجميل الذي سأرسمه فقط ، وأستجمع قوتي وانتباهي .

لقد بدأت تمرَ من أمام عيني رسوم الخيول التي رسمتها ورأيتها حتى الآن . كان هنالك رسم هو الأكمل . كنت سأنقش ذلك الحصان الذي لم ينقشه أحد حتى الآن . استحضرته أمام عيني بتصميم ، وانمحى كل شيء غيره ، كأنني نسيت وجودي هنا ، وأنني سأرسم . امتدت يدي تلقائياً إلى القلم ، وأدخَلَتْهُ في الحقة ، فأخذ حبراً حسب الطلب . هيا يا يدي اجعلي ذلك الحصان الرائع الذي أمام عيني حقيقة! كأنني والحصان صرنا واحداً على وشك أخذ مكاننا في هذا العالم .

في لحظة اتخذت هذا المكان داخل الورقة الفارغة وسط الإطار ، ووضعت هناك وبشكل مفاجئ الحصان الذي في خيالي .

نعم ، وكأنني لا أفكر اندفعت يدي بتصميم حاد تلقائياً قائلة : انظر كم هو جميل ، بدأت من نهاية حافر الحصان . التوت بسرعة عابرة رسغه . وبالتصميم نفسه التوت عند الركبة وصعدت ، وعندما وصلت إلى أسفل الصدر شعرتُ فجأة بالفرح والتوت هنا نحو الأعلى بشعور النصر : كم صار صدره جميلاً . غدا رأس القلم أرفع وتكونت رقبة حصان مثل الحصان المتجلي أمام عيني . ودون رفع قلمي نزلت من عند خده إلى أسفل ، وبقليل من التفكير وصلت إلى فمه القوي الذي جعلته مفتوحاً قليلاً ، ودخلت إلى داخله . هنا ، هكذا ، افتح فمك أكثر قليلاً ، وأخرجت لسان الحصان الجميل . درت بشكل خفيف - لا تضطربي - وفي أثناء صعودي بشكل مستقيم نظرت إلى الرسم كله ، وعندما رأيت أنه صار كما تخيلت تماماً نسيت أنني أرسم ، وكأن الأذنين والرقبة الجميلة وانحناءة الظهر الرائعة لم أرسمها أنا ، بل رسمتها يدي . وبينما كنت أرسم السرج من ذاكرتي توقفت يدي تلقائياً ، وأخذت ريشتي من الحقة حبراً . كنت مسروراً جداً عندما رسمت كفله قوياً وناهضاً ومكتنزَ اللحم . كنت شبعاً تماماً من رسمي .

في لحظة شعرت أنني بجانب الحصان الذي رسمته . بدأت برسم ذيله منتشياً . إنه حصان حرب أو سباق ، عملت لذيله عقدة ثم انعطفت صاعداً إلى الأعلى بسرور . في أثناء رسمي منبت الذيل ومؤخرته شعرت ببرودة ممتعة في مؤخرتي وأستي . عبرتُ نعومة مؤخرته الجميلة ، وبسرعة اتجهت نحو حافر قائمته الخلفية اليسرى التي يدفعها إلى الخلف بمحبة . دهشت إعجاباً بيدي التي رسمت قائمته الأمامية اليسرى التي منحته وقفة ظريفة كما أردت تماماً ، وأعجبت برسمي .

رفعت يدي ، ورسمت عينه التي تقدح شرراً ولكنها حزينة ، بلحظة تردد رسمت فتحة أنفه ، وبسرعة رسمت غطاء سرجه ، ومشطت طرته شعرة شعرة بمحبة كأنني أداعبها ، ثم علّقت له الركاب ، ووضعت على جبينه غرة . وبرغبة رسمت خصيتيه وذكَره بمقاسها وحجمها ليكون كل شيء تاماً .

أنا عندما أرسم صورة حصان رائع أصير ذلك الحصان الرائع .

* * *

44

ينادونني فراشة

أعتقد أنه كان وقت صلاة المغرب . أحدهم بالباب شرح لي : سلطاننا أمر بمسابقة . سلطاني على رأسي وعيني . من يستطيع رسم الحصان الأجمل غيري ؟! .

ولكن علمي بأنه سيرسم بأسلوب القلم الأسود دون دهن بالأصباغ أوقفني لحظة . لماذا لا ندهنه بالأصباغ ؟ هل لأنني أفضل الملونين ؟ من الذي سيقرر أي رسم أجمل ؟ استدرجت الولد الحلو والعريض الكتفين ، والزهري الشفتين القادم من القصر في الكلام ، وشعرت أن النقاش الأكبر الأستاذ عثمان هو وراء هذا الأمر . مما لا شك فيه أن الأستاذ عثمان يعرف مهارتي ، ويحبني أكثر من معلمي النقش الآخرين كلهم .

وهكذا بينما كنت أنظر إلى الصفحة البيضاء الفارغة بدأت بتشخيص وقفة الحصان وتعابيره بحيث يُعجب فيه الاثنان . يجب أن يكون في حالة حركة وثقل كالخيول التي رسمها الأستاذ عثمان قبل عشر سنوات ، ويكون مرفوع القائمتين الأماميتين في الهواء كما يحب سلطاننا ليتفق الاثنان على جماله . ترى كم ذهبية ستكون الجائزة ؟ كيف سيرسمه المصور مير ؟ كيف يرسمه بهزاد ؟ .

خطر ببالي أمر بسرعة جعل يدي الماهرة الخنزيرة تمتد خاطفة القلم

وتبدأ برسم القائمة الأمامية المرفوعة في الهواء للحصان الرائع الذي لن يستطيع أحد تخيله قبل أن يدرك عقلي الوضع . وبعد أن وصلتُ القائمة بالجذع مباشرة ورسمت بسرعة قوسين لو رأيتموهما لقلتم : إن هذا الماهر خطاط وليس رساماً . كنت أنظر بإعجاب إلى يدي الذاهبة تلقائياً نحو الرأس وكأنها يد إنسان آخر . صار هذان القوسان الرائعان بطن الحصان المكور الرائع وصدره السليم ، ورقبته التي تشبه رقبة البجعة ، ويُعدّ الرسم قد تبلور . كم أنا ماهر! . . . فجأة وإذ بيدي تتلوى راسمة ما رسمتْ وكأنني أسحب حرفاً . كم كنت سعيداً ، وكدت أضحك . نزلت بقوس حصاني الرائع القافز إلى الأعلى نحو السرج . كانت يدي ترسم السرج عندما نظرتُ متباهياً إلى جذع حصاني المدوّر الشبيه بجذعي : الجميع سيعجبون بهذا الحصان . تخيلت الكلمات الحلوة التي سيقولها سلطاننا عندما أكسب الجائزة . إنه يعطيني كيساً من الليرات الذهبية وأكاد أضحك وأنا أتخيل كيف أعدّها واحدة واحدة في البيت . بعد ذلك أنهت يدي التي أنظر إليها بطرف عيني السرج ، ودخل القلم إلى الحقة وخرج ، بعد ذلك رسمت كفل الحصان ضاحكاً وكأنني أمازح أحداً ما . درت حول ذيله بسرعة . انتقلت إلى مؤخرته فكانت مدورة بحلاوة مؤخرة ولد سأنيكه الآن أردت أن آخذها براحتي كفيَ بحب . وبينما كنت أبتسم أنهت يدي قائمتيه الخلفيتين وتوقف قلمي . خيم على قلبي فرح . كنت أفكر بإعجابهم بحصاني ، وبإعلانهم إياي أمهر نقاش ، حتى إنهم سيعلنون اسمي منذ الآن كبير النقاشين . بعد ذلك شعرت أنهم لن يعملوا هذا : يا لسرعته في الرسم ولعبه وضحكه! قلقت إذ يمكن ألا يأخذوا الرسام الرائع على محمل الجد لسبب كهذا فقط . . . بعد ذلك رسمت سرجه بدقة ، وكذلك منخره وأسنانه وشعر ذيله وغطاء سرجه لكي يروا أنني بذلت جهداً في الرسم . في هذا الموقف تظهر الخصيتان

ولكنني لم أرسمهما لكي لا يتعلق تفكير النساء بهما . نظرت إلى حصاني متباهياً : إنه قافز متحرك مثل عاصفة وقوي . كأن هواء قد هب ودفع إلى الحركة خطوطه المقوسة مثل حروف خطاط ، لكنه ساكن . سيمتدحون راسم هذا الحصان النقاش الرائع كما يمتدحون بهزاد والمصور مير ، وعندئذ سأكون مثلهما .

عندما أنقش رسم حصان رائع أصبح نقاشاً آخر ينقش رسم حصان رائع .

* * *

٤٥
ينادونني لقلقاً

كان الوقت بعد صلاة المغرب . كنتُ خارجاً إلى القهوة عندما قالوا لي إن أحدهم ينتظر أمام الباب . خير . ذهبت . إنه من القصر . شرح لي . حسنٌ . أجمل حصان في العالم . قولوا لي أنتم كم قرشاً أبيض ستدفعون مقابل الواحد ولأرسم لكم أنا خمسة أو ستة خيول من أجمل خيول العالم .

ولكنني كنت محتاطاً ولم أقل هذا . أدخلت الولد الواقف أمام الباب . فكرت . ليس ثمة ما يُدعى أجمل حصان في العالم لأرسمه . أنا أستطيع رسم خيول الحرب ، وخيول المغول الضخمة ، وخيول العرب الأصيلة ، والخيول البطلة المتخبطة بدمانها . وحتى إنني أستطيع رسم البغل المنحوس الذي يجر عربة حجارة إلى ورشة بناء . ولكن من يقول إن هذه أجمل خيول في العالم ؟ فهمت أن المقصود بقول سلطاننا : « أجمل حصان في الدنيا » أنه يريد أروع ما رسم من خيل آلاف المرات في بلاد العجم بوقفتها وقوالبها .

طبعاً لكي لا أكسب كيساً من النقود . لو قالوا لي ارسم حصاناً عادياً فمن المعروف أنه لا يوجد من يسابقني في رسم الخيول . من خدع سلطاننا ؟ حاكم العالم يعرف أنني النقاش الأمهر على الرغم من الشائعات والوشايات كلها ، ويحب الرسم الذي أنجزه .

فجأة تحركت يدي بغضب كأنها تريد تجاوز كل الحسابات ، وبدءاً من

قائمته رسمت ، وبدفعة واحدة ، حصاناً حقيقياً . يمكن رؤية مثله في الأزقة أو في الحروب . وبعد ذلك - بالغضب نفسه - رسمت حصان فارس ، وصار أجمل . لا يمكن لأي نقاش من نقاشي النقش خانة رسم جمال كهذا . كدت أرسم واحداً آخر من ذاكرتي ، قال الولد القادم من القصر : «واحد يكفي» .

أمسكت به عندما أخذ الورقة وهمّ بالذهاب . إن أولئك لن يسمحوا بتقديم كيس من الذهبيات ، وأعرف هذا مثلما أعرف اسمي .

إذا رسمت كنفسي فلن يدعوهم يعطونني كيساً من الذهب . وإذا لم أحصل على كيس الذهب فسيتلوث اسمي فيما بعد . فكرت . قلت للولد : «قف» ودخلت وأخرجت ذهبيتين بندقيتين مزورتين برّاقتين ، ودسستهما في يد الولد القادم من العصر . خاف وتوسعت عيناه . قلتُ له : «أنت ولد سبع!» .

أخرجت دفتر القوالب الذي أخفيه عن الجميع . وفيه نسخت نماذج لأجمل الرسوم التي رأيتها في حياتي . غير هذا ، إذا أعطيت السافل جعفر ، آغا الأقزام ، عشر ذهبيات سينسخ لك من الصفحات السرية المخبوءة في الخزينة تحت الأقفال أفضل الأشجار والتنينات والطيور والصيادين والمحاربين . ودفتري الرائع لمن يريد استذكار الحكايات القديمة والأساتذة القدماء ولا يريد رؤية الحياة المعاشة في النقش والرسم .

قلَبت الصفحات على مرأى من الولد القادم من القصر ، واخترت أفضل حصان . وفتحتُ ثقوباً بإبرة فوق خطوطي بسرعة . وضعتُ ورقة نظيفة تحت القالب ، وسكبت مزيداً من هباب الفحم فوقه ثم هززته قليلاً . رفعت القالب . مرّرت الثقوب هباب الفحم نقطة نقطة على الورقة السفلية ، فانتقل شكل الحصان الجميل كله فسررت لرؤيته .

تناولت قلمي ، ووصلت بين النقط بحركات مصممة وسريعة بإلهام نابع من قلبي ، وبشكل ظريف وجميل . شعرت بحب وأنا أرسم بطن هذا الحصان ورقبته الجميلة وأنفه وكفله . قلت : «ها هو ، إنه الحصان الأجمل في العالم . ليس ثمة مخبول من أولئك يستطيع رسم هذا» .

أعطيتُ ثلاث ذهبيات بندقية مزورة أخرى للولد القادم من القصر لكي يؤمن به ولا يشرح للسلطان بأي إلهام رسمته . وأوحيت له أنني سأعطيه المزيد إذا كسبت كيساً من الذهب . فوق هذا كان يتخيل أنه سيرى زوجتي مرة أخرى إذ كان ينظر إليها فاغر الفم . حسنٌ ، كثير من النقاشين يعتقدون أنهم يصيرون نقاشين جيدين برسم حصان جيد . مع أنه لا يكفي رسم الحصان الأفضل ليكون النقاش هو النقاش الأفضل ، بل يجب إقناع سلطاننا والحمقى من حوله أنني النقاش الأفضل .

لا أستطيع رسم حصان رائع إلا عندما أكون نفسي .

* * *

٤٦

سيقولون عني قاتل

هل عرفتموني من رسمي للحصان ؟

فور سماعي أنه مطلوب مني رسم حصان فهمت أن هذه ليست مسابقة ، وأنهم يريدون تشخيصي من رسمي للحصان . أنا مدرك أن تدريبات رسم الحصان على الورق السميك بقيت مع ظريف أفندي . ولكن ليس لي أسلوب وهكذا ليس لي نقطة ضعف ليعرفوني من النظر إلى الخيول التي أرسمها . أنا واثق من هذا ، ولكن على الرغم من ثقتي فإنني شعرت بالارتباك وأنا أرسم الحصان . هل رسمتُ ما يدلل على شخصيتي عندما رسمت حصان زوج الخالة ؟ عليَ الآن أن أرسم حصاناً مختلفاً . فكرت بأمور مختلفة هذه المرة . «سيطرت على نفسي» ولم أكن كنفسي .

ولكن من أنا ؟ هل أنا من يخفي الروائع التي في داخله للمساهمة في أسلوب النقش خانة ؟ هل أنا من سيرسم الحصان الذي في داخله منتصراً في أحد الأيام ؟

في لحظة شعرت بخوف بوجود ذلك النقش في داخلي . كأن ثمة روحاً أخرى في داخلي تتفرّج عليَ ، فخجلت منها .

ولفهمي بسرعة أنني لن أستطيع البقاء في البيت ، ألقيت بنفسي في الخارج ، وسرت بسرعة في الأزقة المظلمة . جاء في (مناقب نامة) الشيخ

عثمان بابا أنه سار طوال عمره للتخلص من الشيطان الذي في داخل درويش جوّال حقيقي ، ولم ينزل في مكان مدة طويلة ، وبعد تجوّله من مدينة إلى أخرى طوال سبع وستين سنة أتعبه الهرب من الشيطان واستسلم له . هذا العمر هو عمر عمي المعلم النقاش ، إذ يلقى ظلمة الله ، هو عمر امتلاكه أسلوباً دون إرادته ، وهو في الوقت نفسه العمر الذي يتخلص فيه من خصائص الأساليب كلها .

تجولتُ في (البيازيد) ، وسوق الدجاج ، وفي ساحة سوق النخاسة الفارغة ، ووسط الرائحة الزكية لدكاكين بائعي الحساء والمهلبية وكأنني أبحث عن شيء . مررت أمام دكاكين الحلاقين المغلقة ، والكوانين الذين ينظرون إليَ مندهشين ، خبّاز عجوز يعد نقوده ، وبقالية تفوح منها رائحة المخلل والسمك المملح الزكية ، دخلت إلى دكان عطار ما زال يزن بعض الأشياء لمجرد أن عيني تعلقت بألوانه . وكما أنظر إلى الناس بتعلق شديد نظرت تحت ضوء المصباح إلى ألوان القهوة والزنجبيل والقرفة في الأكياس ، وعلب العلكة الملونة ، وكومات اليانسون ، والكمون ، وعشبة الفطير ، والعصفر الموضوعة على البسطة وتفوح منها رائحتها متغلغلة في أنفي مباشرة . أحياناً أشعر أنني أريد إدخال كل شيء في فمي ، وأحياناً أشعر أنني أريد نقش كل شيء على صفحة فارغة .

في الأسبوع الأخير ملأت بطني مرتين في المطعم الذي أسميته بيني وبين نفسي : مطعم المهمومين . وهو في الحقيقة مطعم البائسين . ذهبت إليه ودخلت ، يبقى مفتوحاً حتى منتصف الليل من أجل الذين يعرفونه . كان في داخله بعض الذين يبدو عليهم أنهم عائدون من حبل المشنقة ولصوص خيل ، وكما يوجد بعض المساكين المدمنين على الأفيون قهراً ويأساً ، وثمة بعض الضائعين الذين زاغت عيونهم عن هذا العالم هاربة نحو جنة أخرى ، حتى إن

ثمة متسولين أجبروا على الالتزام بآداب المكان ، وثمة سيد جالس في زاوية منعزلاً عن الزحام كله . ألقيت تحية رقيقة على الطباخ الحلبي . جعلته يملأ صحني بقدر ما يتسع وأن يصب فوقه لبناً ، وأن يرش فوقه كثيراً من الفلفل الأحمر الحار . وجلست بجانب السيد .

في كل ليلة يخيّم عليَ حزن وكدر . يا أخوان ، يا أخوان إننا نتسمم ونتفسخ ، نموت ونستهلك كلما استمررنا في الحياة ونغوص في مستنقع البؤس حتى رقابنا . . . في بعض الليالي أحلم أنه خرج من الجب ويلاحقني ، ولكننا دفناهُ جيداً وبكثير من التراب ، ولا يمكنه النهوض من قبره .

فَتَحَ السيد باب الكلام معي بعد اعتقادي أن أنفه يغوص في كأس حسائه ناسياً العالم هل هي إشارة أرسلها الله إليّ ؟ قلت ، نعم ، اللحم مفروم كما يجب ومحشوَ الملفوف لذيذ جداً . سألته ، فقال إنه متخرج حديثاً من مدرسة العشرينية ، وهو كاتب لدى عريفي باشا . لم أسأله عن سبب عدم وجوده في هذا الوقت في نزل عريفي باشا أو الجامع أو بيته في حضن زوجته ، ومجيئه إلى مطعم العازبين واللصوص هذا . وهو بدوره سألني من أين أنا ، ومن أكون ، وفكرت ثم قلت :

«اسمي بهزاد ، أنا قادم من هرات تبريز ، أنا رسمتُ أعظم الرسوم وأكثرها روعة في بلاد العجم . ويقولون في كل نقش خانة إسلامية في بلاد العرب وعلى مدى العصور : عندما تنظر إلى رسم وتعتقد أنه حقيقي فهو رسم بهزاد » .

طبعاً ليست هذه هي المسألة الحقيقية . رسمي ليس نقش ما تراه العين بل ما يراه العقل . والرسم كما تعلمون هو متعة من أجل العين . ادمجوا هاتين الفكرتين يظهر لديكم عالمي . أي :

ألف : الرسم هو بعث الحياة فيما يراه العقل من أجل متعة العين .

لام : بقدر ما ترى العين العالم بقدر ما تخدم العقل .

ميم : هذا يعني أن الجمال هو إعادة اكتشاف العين للعالم لما يعرفه العقل بذاته .

هل فهم خريج المدرسة العشرينية هذا المنطق الذي خرجت فيه من أعماق روحي باحتمال آلي ؟ لا . لأن الذي يعطي دروساً في إحدى مدارس الأحياء المتطرفة بيومية مقدارها عشرون قرشاً أبيض - تشتري اليوم عشرين رغيف خبز - وقد جلس بجوار المعلم ثلاث سنوات ، لا يعرف من هو بهزاد . من الواضح أيضاً أن أستاذ العشرينية لا يعرف من هو بهزاد . حسنٌ ، لأشرح لكم من يكون . قلت :

«أنا رسمتُ كل شيء ، كل شيء . . . رسمت نبينا أمام محرابه الأخضر جالساً مع خلفائه الأربعة ، وفي كتاب آخر رسمت صعود رسول الله إلى السموات السبع ليلة المعراج إلى الجنة على حصانه المدعو براقاً ، والإسكندر الذي يقرع طبل المعبد الساحلي لإخافة الوحش الذي يهيّج البحر بالعواصف في طريق الصين ، والسلطان الممارس للعادة السرية المتفرج على حمّام الحريم وهن يسبحن في البركة ، مستمعاً إلى عزف العود ، والمصارع الشاب الذي قال إنه سيتغلب على معلمه لمعرفته ألعابه كلها ، وتغلّب المعلم عليه بلعبة واحدة أخفاها عنه ، واستسلامه في حضرة السلطان ، وعشق ليلى والمجنون عندما كانا طفلين وهما جالسان في المدرسة المزخرفة جدرانها بدقة فائقة يقرآن القرآن ، والعشاق من أكثرهم خجلاً إلى الأكثر وقاحة إلى الذين لا يستطيعون بأي شكل النظر في عيني بعضهم البعض ، ورسم القصور حجرة حجرة . ومعاقبة المجرمين بالتعذيب ، وطيران الصقور ، ودعابات الأرانب ، وغدر الفهود ، وأشجار البلوط والسرو ، والببغاوات التي أضعها دائماً في ذراها ، والموت ، والشعراء المتسابقين ، وموائد النصر ، وأمثالك الذين لا

يرون غير حسانهم على المائدة» .

لم يعد الكاتب الاحتياطي متوجساً ، حتى إنه وجدني مسلياً فابتسم .

قلت : «ثمة حكاية أحبها كثيراً في (حديقة سعدي) تعرفها ، لا بد أن الأفندي أستاذك جعلكم تقرؤونها . انفصل الملك دارا عن المجموعة في أثناء الصيد ، وخرج في نزهة إلي التلال . فجأة خرج أمامه رجل مجهول وخطير . ارتبك الملك ، ومن فوق حصانه جهز قوسه مصوباً نحو الرجل ، فقال الرجل ذو اللحية العنزية متوسلاً : يا ملكي! . . . توقفوا! . . . لا تسددوا سهمكم ، كيف لم تعرفوني ؟! ألست سائسكم الصادق الذي تؤمّنون خيولكم ومهراتكم البالغة مئات لديه ؟ وأنتم رأيتموني كثيراً جداً ، وأنا أعرف كل فرس من خيولكم ، وجهه وتصرفاته وألوانه . حسنٌ ، كيف يحدث أنكم أنتم الذين تديروننا لا تنتبهون إلى أمثالي ممن تقابلونهم كثيراً جداً ؟» .

عندما أرسم هذا الموقف أرسم السائس ينظر مشفقاً إلى الخيول الدهماء والكميتة والبيضاء ، وإلى السهل الأخضر المغطى بالزهور بالألوان كلها مثل الجنة ، وأرسمه سعيداً مرتاحاً ليفهم أكبر الحمقى مقولة قصة الشاعر سعدي : لا يمكن إظهار جمال هذه الدنيا وسرها إلا بإظهار الانتباه والاهتمام والشفقة بمحبة . إذا أردتم العيش في تلك الجنة التي تعيش فيها الخيول والمهرات السعيدة ، افتحوا أعينكم عشرة على عشرة ، ووجهوا كل انتباهكم إلى ألوانها وتفاصيلها ، ولهوها ، وتفرجوا على هذه الدنيا .

تعليمي للمدرس ذي الأجر البالغ عشرين قرشاً أبيض يسليه ويخوفه مني في آن واحد . كان يريد أن يلقي ملعقته ويهرب ، ولكنني لم أدعه .

قلت : «رسم بهزاد أستاذ الأساتذة ذلك الملك والسائس وتلك الخيول في الموقف المذكور بحيث لم يُملّ من تقليد تلك الخيول على مدى مئة سنة . لقد غدا كل حصان من تلك الخيول المرسومة قالباً بخياله وقلبه . مئات

النقاشين – بمن فيهم أنا – نرسم تلك الخيول من ذاكرتنا . هل رأيت رسم حصان ؟ » .

« رأيت رسم حصان مجنح في كتاب سحري أعطاه في أحد الأيام شيخ كبير وعالم علماء للمرحوم شيخي » .

هل أدسّ رأس هذا الأحمق الذي ينظر بجدية كبيرة مع شيخه إلى كتاب (عجائب المخلوقات) في طاسة الحساء وأخنقه ، أم أتركه يحكي لي مبهراً مفلفلاً عن رسم الحصان الوحيد الذي رآه في حياته ، ومن يعلم كم هي سيئة تلك النسخة ؟ وجدتُ خياراً ثالثاً . ألقيت ملعقتي ، وخرجت من المطعم . بعد أن مشيت طويلاً ، شعرت بالراحة عندما دخلت التكية المتروكة . كنست المكان ، ومسحته ، واستمعت للصمت دون عمل شيء .

بعد ذلك أخرجت مرآة من مكان خبأتها فيه ، وأسندتها إلى الرحلة ، ووضعت في حضني مسند الرسم الخشبي ، وعندما رأيت وجهي في المرآة وأنا جالس حاولت رسم وجهي بقلمي الفحمي . اشتغلت طويلاً بصبر . وبعد فترة طويلة امتلأت كدراً بحيث دمعت عيناي لرؤيتي الوجه المرسوم على الورقة لا يشبه وجهي الذي يظهر في المرآة . كيف يعمل هذا نقاشو البندقية الذين حكى عنهم زوج الخالة بإعجاب ؟ في لحظة وضعت نفسي موضع أحدهم ، وفكرت فيما إذا رسمت وأنا أشعر هذا الشعور لعلني أستطيع جعل الرسم يشبهني .

بعد ذلك دعوت على الرسامين الأفرنج وعلى زوج الخالة ، ومحوت ما رسمت ، وبدأت أرسم ناظراً إلى المرآة من جديد .

بعد ذلك بكثير وجدتُ نفسي في الأزقة ، بعد هذا في ذلك المقهى السافل . لم أكن منتبهاً إلى طريقة وصولي إلى هنا . وقد شعرت بخجل كبير لدخولي بين أولئك النقاشين والخطاطين السافلين فتعرقت جبهتي .

كنت أشعر أنهم يتفرجون عليّ ، ويتلاكزون مشيرين نحوي متضاحكين . حسنٌ ، كنت أراهم . جلست في زاوية بحركة حاولت من خلالها أن أبدو طبيعياً . بحثت عيناي عن أخوي النقاشين الأحباء الذين كنت معهم في يوم من الأيام تلميذاً عند الأستاذ عثمان . وأنا واثق أن كلاً منهم رسم حصاناً هذه الليلة ، وأن هذين المخبولين منفعلان بأخذهما المسابقة على محمل الجد .

لم يكن قد بدأ الأفندي المداح حكايته بعد . حتى إن الرسم لم يعلّق بعد . وهذا أجبرني على التقرب ممن في المقهى .

حسنٌ ، سأقول لكم الحقيقة : كنت كالجميع أمزح وأحكي حكايات بذينة ، ونتبادل القبل المبالغ بها مع الأصدقاء ، أُدخل في الحديث كلماتٍ ذات معنى مزدوج ، فيها كناية وإشارات جنسية ، وأسأل التلاميذ المتخرجين عن أحوالهم ، ونتم على أعدائنا المشتركين كما يفعل الجميع ، وعندما ننفعل كثيراً أوصل الأمر إلى المزاح باليد ، والقبل من الرقاب . ومعرفتي أن جانباً من روحي صامت بقسوة وأنا أعمل كل هذا يجعلني أتألم آلاماً غير محتملة .

قضيت فترة قصيرة أشبِّه بألاعيب كلامية ذكري وذكور آخرين نتحدث عنهم بالقلم والقصبة وأعمدة المقهى والناي والأب والمدقة والكرات والمئذنة وأصابع السكر وشجرة البلوط وبالعالم كله مرتين ، كما نجحت بتشبيه مؤخرات الغلمان الصغار الحلوين بالنارنج والزيتون والقطايف والمخدة وبيت النمل الصغير جداً . مع أن أحد الخطاطين من عمري وأكثرهم ادعاء لم يستطع تشبيه آلته سوى بساري السفينة وخشبة الحمال ، فوق هذا قدم هذه التشبيهات بخجل ودون ثقة بالنفس . تناولت بكناية قصبات النقاشين المسنين التي لا تنتصب ، وشفاه التلاميذ الجدد ذات لون الكرز ، ومعلمي الخط الذين يخبئون نقودهم (مثلي) في مكان ما (ذكرنا المكان بقلة أدب

شديدة) وقلنا إن الخمر الذي نشربه ألقي فيه أفيون وليس ورقة ورد وتحدثنا عن آخر أساتذة تبريز وشيراز ، وعن خلط خطاطي حلب الخمرة بالقهوة ، وعن الغلمان الحلوين .

أشعر أحياناً أن روحاً من الروحين اللتين في داخلي عرقلت الأخرى وخلفتها ، وأعتقد أنني استطعت في النهاية نسيان جانبي الصامت والكريه . عندئذ أتخيل مراسم العيد عندما كنت صغيراً وأشارك فيه الجميع باعتباري أنا نفسي . ولكن من جهة أخرى ثمة صمت يجعلني وحيداً متلوياً ألماً وسط هذا الزحام على الرغم من هذا المزاح وتبادل القبل ، والعناق كله .

من وضع في داخلي تلك الروح - كانت تلك جنية وليست روحاً - الظالمة والصامتة التي تعيّرني دائماً وتنتزعني من الجماعة ؟ هل هو الشيطان ؟ ولكن ما يريده الشيطان ليس بقلة أدب ، بل على العكس تماماً ، لأن الصمت في داخلي لا يجد الراحة إلا بالحكايات الأكثر صفاء والمؤثرة في الروح .

حكيتُ تحت تأثير الخمرة حكايتين علهما تمنحاني الراحة . . . ثمة تلميذ خطاط طويل هزيل ، ولكن لون بشرته قريب من الوردي ، استمع إليّ بدقة ناظراً بعينيه الخضراوين إلى عيني .

حكايتان حول الأسلوب والعمى
يحكيهما النقاش لسلوى وحدة روحه
ألف

لم تكن فكرة رسم الحصان بالنظر إليه من إيجاد الأساتذة الأفرنج كما يعتقد ، بل كانت فكرة الأستاذ الكبير جمال الدين القزويني . بعد أن فتح خاقان بلاد الغنم الأبيض حسن الطويل قزوين لم يكتف الأستاذ العجوز جمال الدين بالانضمام إلى نقش خانة الخاقان المظفر بهوس شديد ، بل

خرج معه في الحملات قائلاً : إنه يريد رسم مواقف حروبه وتاريخه كما يراه بعينيه . وهكذا فإن الأستاذ الكبير الذي كان يرسم الخيول والفرسان على مدى اثنتين وستين سنة دون رؤية الحرب ، دخل الحرب لأول مرة ، ولكنه أصيب بالعمى منذ بداية دخوله بقذيفة مدفع ألقيت من صفوف الأعداء ، قبل أن يرى تداخل الخيول المتعرقة بين بعضها البعض بشدة وضوضاء ، وأكثر من هذا فقد يديه من المعصمين . وكالنقاشين الأساتذة الكبار كلهم كان الأستاذ ينتظر العمى باعتباره إحساناً من الله . كما أنه لم يجد فقدان اليدين نقصاً مهماً إذ أن ذاكرة النقاش في عقله وليست في يديه كما يذكر البعض ، بل في عقله وقلبه ، وقال إن الرسم الأصيل والمناظر الحقيقية والخيول الكاملة التي أمرنا الله برؤيتها رآها الآن بعد أن عمي . ووجد لنفسه أجيراً خطاطاً طويلاً ذابلاً ، لونه مائل إلى الزهري ، عيناه خضراوان ، شرح له كيف سيرسم الخيول الرائعة التي تظهر أمام عينيه في الظلام الذي منحه إياه الله لو لم تقطع يداه ، وجعله يكتب هذا . وصارت أجزاء الكتاب الثلاثة : «نقش الخيل» و«عدو الخيل» و«عشق الخيل» التي جمعها الخطاط ، وفيها حكاية رسم ثلاثمائة وثلاثة خيول بدأ نقشها من القائمة الأمامية اليسرى ، محبوبة جداً في البلدان التي يلمس فيها قوة خاقان بلاد الغنم الأبيض ، وظهر مختلف التدوينات والتقليد لها . حفظ بعض النقاشين والمتدربين والتلاميذ هذا الكتاب غيباً ، واستخدموه كتاباً تطبيقياً ولكنه نُسي بعد مسح دولة الغنم الأبيض وحسن الطويل عن الوجود ، وسيطرة نقش هرات على بلاد العجم كلها . وفي كتاب رضا كمال الدين الهراتي المعنون «خيل الأعمى» انتقد بشدة الأجزاء الثلاثة تلك ، ودافع عن فكرة ضرورة حرقها ، ومما لا شك فيه أن لحجته التي ساقها دفاعاً عن منطقه قوة : لا يمكن أن يكون حصان الله بين خيل كتب جمال الدين القزويني الثلاثة ، لأنها ليست صافية ، ولأن الأستاذ

العجوز شرحها بعد رؤية حرب حقيقية مرة واحدة وفترة قصيرة جداً . ولأن السلطان محمداً الفاتح نهب خزينة حسن الطويل حاكم بلاد الغنم الأبيض وجلبها إلى اسطنبول يجب ألا نندهش لرؤية بعض حكايات هذه الخيل الثلاثمانة وثلاث في بعض الكتب ، ونقش بعض الخيول كما تشرح تلك الحكايات .

لام

العمى الذي كان يصيب معلمي النقش في هرات وشيراز إثر التركيز الشديد على العمل لم يكن يرى دليلاً على قوة الأستاذ فقط ، بل كان مبعث فخر للنقاش على أن الله منحه إياه مقابلَ جهده ومهارته . لهذا السبب فإن النظرة المشتبه بها للنقاشين الذي يتقدمون في السن ولا يعمون في مرحلة من المراحل في هرات دفعت كثيراً من الأساتذة الكبار إلى البحث عن العمى . وخلال فترة طويلة كان عملُ البعض على عميِ أنفسهم ، واختيارُ بعض الأساتذة الأسطوريين طريق عمي أنفسهم بدلاً من العمل لصالح شاه آخر ، أو تغيير أسلوبهم يذكر بإعجاب . هذا ما جعل أباسيد أحد أحفاد ميران شاه من نسل تيمور يقلّد العميان بعد فتحه طاشقند وسمرقند وتأسيسه نقش خانته ، وإبداء الاحترام لهذا التقليد أكثر من العمى فتح عصراً جديداً . وقد منح (ولي قرة) هذا الإلهام لأبي سيد إذ قال له : إن النقاش الذي لا يبصر في الظلام يرى خيول الله ، وإن المهارة الحقيقية هي استطاعة النقاش المبصر النظر إلى العالم مثل العميان ، وقد أثبت هذا برسمه الحصان كما يأتي عبر قلمه دون رؤية الورقة والتفكير فيها على الرغم من إبصاره الورقة حتى بلوغه السابعة والستين من عمره . ولكي يساعد ميران شاه الأستاذ الأسطوري ، في نهاية احتفال نقش جعل فيه موسيقيين صماً يعزفون العود ، ومداحين

بكماً يروون الحكايات ، قورن الحصان الرائع الذي رسمه ولي قرة مع بقية الخيل التي رسمها الأستاذ الكبير ، وشوهد أنه ليس ثمة فرق . وإثر هذا الوضع الذي أقلق ميران شاه قال الأستاذ الأسطوري إن النقاش الماهر يرسم الخيول دائماً مبصراً كان أم أعمى بشكل واحد . وحسب رأيه ، عندما يكون المرء نقاشاً معلماً فلا فرق بين أن يكون مبصراً أو أعمى : اليد ترسم الحصان نفسه دائماً ، لأنه لم يكن في تلك الفترة ما يدعى الأسلوب الذي أوجده الأفرنج . وقلد النقاشون المسلمون كلهم على مدى مائة وعشر سنوات خيل المعلم الكبير ولي قرة . بعد هزيمة أبي سيد ، وتصفيته النقش خانة انتقل من سمرقند إلى قزوين ، وبعد انتقاله بسنتين أعميت عيناه ، بتهمة سوء نيته بمحاولة إثبات خطأ الآية الكرية : «هل يستوي الأعمى والبصير» ، بعد ذلك قتل على يد جنود الشاه الشاب ناظم .

لعلني كنت سأحكي لتلميذ الخطاط حكاية ثالثة عن عَمّيِ الأستاذ بهزاد لنفسه ، وعدم رغبته في أي وقت بمغادرة هرات ، وسبب عدم نقشه نهائياً عندما أخذ إلى تبريز ، وأن أسلوب النقش يتبع النقش خانة ، وعن الأساطير الأخرى التي سمعتها من الأستاذ عثمان ، ولكن عقلي تعلق بالأفندي المداح . كيف لي معرفة أنه سيحكي حكاية الشيطان ؟ .

دفعني قلبي لقول : «الشيطان الأول هو القاتل أنا . . . الشيطان صاحب الأسلوب . الشيطان هو الذي يفصل بين الغرب والشرق» .

أغمضت عينيَ نصف إغماضة ورسمت الشيطان على ورق المداح السميك كما ألهمني قلبي . وفي أثناء الرسم كان المداح وأجيره والنقاشون الآخرون ، والفضوليون يتضاحكون ويستفزونني .

هل ترون أنني صاحب أسلوب ، أم أن هذا بسبب الخمرة ؟

* * *

٤٧

أنا شيطان

أحبُ رائحة الفلفل الأحمر المقلي بزيت الزيتون ، والمطر المنهمر على البحر الهادئ عند الفجر ، ولحظة ظهور امرأة عند طرف نافذة مفتوحة ، والصمت ، والتفكير والصبر . أنا مؤمن بنفسي ولا أهتم في أغلب الأحيان بما يقال عني . ولكنني أتيت هذا المساء إلى هذا المقهى لتنبيه أخوتي النقاشين والخطاطين بسبب بعض الشائعات والكذب .

أنا أعرف بالتأكيد أنكم جاهزون للإيمان بعكس ما سأقول لمجرد أنني القائل . ولكنكم أذكياء إلى حدٍ تشعرون عنده أن عكس ما سأقوله ليس صحيحاً دائماً ، وإذا لم تخدعوا فأنتم حساسون إلى حد استماعكم وتعلقكم بما سأقول . تعلمون أن اسمي ذكر في القرآن اثنتين وخمسين مرة ، وبالتالي فإنني من أكثر الذين ذكروا فيه .

حسنٌ ، لأبدأ من كتاب الله ، القرآن الكريم . كل ما قيل عني فيه صحيح . وأريد أن يُعرف أن قبولي هذا هو نوع من التواضع . لأنه ثمة قضية أسلوب . إهانة القرآن الكريم لي آلمتني دائماً . وهذا الألم هو أسلوب حياتي . أنا لا أناقش هذا .

نعم ، لقد خلق الله الإنسان أمام أعيننا نحن الملائكة . بعد ذلك طلب منا السجود له . نعم . وكما جاء في سورة الأعراف فإن الملائكة كلها

سجدت له إلا أنا . ذكَرتُ أن آدم خلق من طين ، أما أنا فخلقت من مادة أفضل هي النار التي تعرفونها كلكم . لم أسجد للإنسان . واعتبرني الله مغروراً .

قال : «اهبط من الجنة . لا يمكنك فيها أن تتكبر» .

قلت : «اسمح لي بالعيش حتى يوم القيامة وبعث الموتى» .

سمح لي . وقلت له إنني سأضلل نسل آدم الذي كان سبب عقوبتي لأنني لم أسجد له طوال هذه الفترة . وقال : لمن تبعك منهم لأملأن منكم جهنم أجمعين . وأنتم تعرفون أننا مستمران بهذا . ليس لدي كثير مما أضيفه على هذه المواضيع .

يدعي البعض أنه في تلك الأثناء جرى اتفاق بيني وبين الله جل جلاله . وحسب هذا المنطقُ أنا أساعد الله في امتحان عباده عاملاً على تضليل عقولهم : الأخيار يعطون قراراً حسناً ولا يضلّون ، والأشرار يهزمون أمام أنفسهم ويرتكبون المعاصي ، ويلقون في جهنم . ما أعمله هام جداً لأنه لو كان الجميع سيذهبون إلى الجنة فلن يخاف أحد ، ولا يمكن أن تسير أمور الدنيا والدولة بالأعمال الحسنة فقط . لأنه بقدر ضرورة وجود الحسنات ، فالسيئات ضرورية أيضاً ، كذلك العقاب ضروري بقدر ضرورة الثواب . اعتباري «مسيئاً» وعدم إعطائي حقي في أي زمن على الرغم من مساهمتي في النظام الإلهي ، ومن أن هذه المساهمة تتم بإذنه (لماذا منحني فرصة العيش حتى يوم القيامة ؟) هو مصدر ألمي السري . وقد ناقش هذا المنطق لحسابي أمثال أبي منصور الحلاج وأحمد غزالي شقيق الإمام الغزالي ، وأوصلوا الأمر إلى القول : بما أن هذه الأمور تجري بإرادة الله فإن المحرمات التي أدفع الناس لارتكابها هي أمور أرادها الله ، وليس ثمة خير وشر لأن كل شيء من الله ، حتى أنني جزء منه .

بعض قليلي العقول هؤلاء أحرقوا مع كتبهم وقتلوا ، وهذا حق . لأنه بالطبع ثمة خير وشر ، وعملنا جميعاً وضع الخط الفاصل بينهما . أنا لستُ جزءاً من الله - حاشاه - وأنا لم أُدخل هذه التفاهات إلى رؤوس قليلي العقول أولئك ، هم فكروا وحدهم بهذا .

هذا يوصلني إلى الاعتراض الثاني : لستُ المصدر والمنبع الوحيد لسيئات العالم كلها . كثير من الناس يرتكبون المعاصي دون استفزازي وخداعي ووساوسي بل بدافع حرصهم وشهواتهم وعدم وجود إرادة لديهم وسفالتهم ، وعلى الأغلب خبلهم . يحاول بعض المتصوفين - الذين قرؤوا كثيراً عني وعلموا عني أشياء كثيرة - أن يبرئوني من كل مساوئ الكون . إنما ذلك عبث . . . فالاعتقاد بأن هذه المساوئ كلها خرجت مني يتعارض مع القرآن الكريم . أنا أوسوس لكل فاكهاني يخدع المشترين منه فيبيعهم تفاحاً عاطلاً ، ولكل طفل يكذب ، ولكل مُراءٍ ، ولكل مسن يسرح في خيالات غير مؤدبة ، ولكل شاب يمارس العادة السرية . وحتى إنهم أوجدوا من المساوئ التي تفسح المجال لذكري في الحالتين الأخيرتين بما لا يعلمه إلا الله . من المؤكد أنني أبذل كثيراً من الجهد ليرتكب مزيد من المحرمات الكبيرة ، ولكن بعض المشايخ يكتبون أن الذين يتثاءبون ويعطسون ، وحتى الذين يفسون ، يعملون هذا مخدوعين بي . هذا يعني أنهم لم يفهموني أبداً .

يمكنكم القول : «دعهم لا يفهمون ، وهذا يمكنك من خداعهم بسهولة كبرى» صحيح . ولكن لا بد من التذكير بأن لي كرامتي ، وهي سبب الخلاف بيني وبين الله عز وجل . على الرغم من الكتابة مرات عديدة في عشرات آلاف المجلدات أنني أستطيع الدخول في أي قالب أريد ، وخاصة في قالب المرأة الجميلة التي تثير الشهوات لاعتراض طريق كاملي الدين ، لا أفهم لماذا يرسمني أخوتي النقاشين الذين هنا حتى الآن بوجه مليء بالثآليل

مجعلك وقبيح وبقرنين وذيل مثل مخلوق مخيف . هل يمكنكم توضيح هذا الأمر لي ؟ .

وهكذا وصلنا إلى موضوعنا الأصلي : النقش . ثمة جماعة تملأ أزقة اسطنبول يستفزها واعظ لن أذكر اسمه لكي لا يزعجكم فيما بعد ، تقول من المنافي لكلام الله رفع الأذان على المقامات الموسيقية ، والاجتماع في الزوايا والتكايا حضناً لحضن ، وعمل حلقات الذكر ، وتغييب العقل برفقة الآلات الموسيقية ، وشرب القهوة . بعض النقاشين بيننا ممن يخافون هذا الواعظ وجماعته يقولون إن النقش وفق الأصول الأفرنجية هو عملي . سمعتُ هذا . افتري عليّ بشكل لا محدود عبر مئات السنين . ليس ثمة افتراء بعيد عن الحقيقة كهذا .

لنعد إلى بداية كل شيء . الجميع ينسى البداية بسبب التعلق بقضية تأثيري على حواء لتأكل من الفاكهة المحرّمة . لا ، البداية ليست أيضاً عندما وجدني الله مغروراً . في بداية كل شيء عندما جعلنا الله الملائكة وبينهم أنا نرى الإنسان وأمرنا بالسجود له ، أي سجود الملائكة له ، وأنا اتخذتُ قراراً صحيحاً :

أنا لا أسجد للإنسان

بعد أن خلقني من النار ، وخلق الإنسان من مادة أقل قيمة وهي الطين فهل من المناسب برأيكم قوله :

اسجد للإنسان!

حكموا ضميركم واحكوا يا أخوتي . حسنٌ ، أعرف أنكم تخافون لأنه يسمع كل شيء وسيحاسبكم في يوم من الأيام . لن أسألكم عن سبب وجود الضمير لديكم إذن ، وأقول إنكم محقون بخوفكم ، وسأنسى سؤالي هذا وتفصيلات النار والطين . ولكن نعم ، ثمة ما لن أنساه أبداً وأتذكره دائماً

باعتزاز :

أنا لا أسجد للإنسان

مع أن أساتذة الأفرنج الجدد يعملون هذا تماماً الآن . إنهم لا يكتفون برسم السادة والتجار والخوارنة والأغنياء وحتى النساء بأعينهن وملمس جلدهن وتدويرة شفاههن الفريدة وظل ما بين أثدائهن الجميل وصولاً إلى تجعيدات الجباه ، والخواتم في الأصابع ، والشعرات المقرفة المنبثقة من فتحات الآذان ، وإظهار كل شيء كما هو في الحقيقة بل يضعون الإنسان في مركز الرسم كأنه مخلوق سيسجد له ، ويعلقون هذه الرسوم على الجدران جاعلينها أصناماً ستعبد . وهل الإنسان مخلوق هام لكي يرسم بتفاصيله كلها بما في ذلك ظله ؟ إذا رسمت البيوت في زقاق وهي تصغر تدريجياً كما تخطئ عين الإنسان برؤيتها ألا يكون قد وُضع الإنسان في مركز العالم وليس الله ؟ الله جل جلاله القادر على كل شيء يعرف هذا بشكل أفضل . أعتقد أنه تَوَضَح كم أن دعاء اتهامي بأنني صاحب فكرة هذه الرسوم هو ادعاء باطل وأنا الذي رفضت السجود للإنسان ولهذا السبب تحملت كثيراً من الآلام والعزلة وإهانة الله ، وتحملت الشتائم . وتصديق ما كتبه بعض المشايخ وقاله بعض الوعاظ إنني السبب في جعل الشباب كلهم يمارسون العادة السرية والناس كلهم يفسون أكثر منطقية من هذا الإدعاء .

أريد في النهاية أن أقول شيئاً أخيراً ، ولكن ما سأقوله ليس للمهووسين بإبراز رؤوسهم وعبيد الشهوة والمال ، والمرتبكين دائماً بسبب نزعات عبثية! لن يفهمني إلا الله برؤيته اللا محدودة : ألست أنت الذي علم الإنسان الغرور بجعل ملائكتك تسجد له ؟ والآن يعملون لأنفسهم ما تعلموه من ملائكتك فيسجدون لبعضهم البعض ، ويضعون أنفسهم في مركز الكون . والجميع الآن بمن فيهم عبادك الأصدق يريدون أن يرسموا بأسلوب الأساتذة

الأفرنج ، ونتيجة الإعجاب بالذات هذا سينسونك قريباً ، وأنا أدرك هذا كما أدرك نفسي . وفوق هذا سيحملونني مسؤولية ذنب نسيانك .

كيف أستطيع أن أشرح لكم أنني لا أهتم لكل هذه الأمور بقدر ما يعتقد ؟ طبعاً بوقوفي سليماً معافى على الرغم من رجمي بالحجارة على مئات السنين ، ومن الشتائم واللعنات والدعاء عليّ . لو تَذَكَّرَ أعدائي والمفكرون بسذاجة وغضب وهم يشتمونني أن الله عز وجل منحني إذن الحياة حتى يوم القيامة فهذا سيريحنا جميعاً . أما العمر الذي استطاعوا الحصول عليه من الله فهو في حدود الستين أو السبعين عاماً . لو قلت لكم أطيلوا أعماركم بشرب القهوة ستقولون يا لطيف ، إن الشيطان يقول هذا فلنعمل العكس ، ولن يشرب بعضكم القهوة أبداً ، وسيقف بعضكم ورأسه إلى أسفل ويعمل على جعل الآخرين يصبون له القهوة في مؤخرته .

لا تضحكوا ، ليس المهم مضمون أفكاري بل شكلها . ليس المهم ما يرسمه النقاش بل أسلوبه . ولكن يجب ألا تظهر هذه الأمور . كنت سأختتم بحكاية عشق ولكن تأخر الوقت . لقد وعد الأستاذ المداح الذي تحدث بصوتي أن يعلق رسم امرأة هنا على الجدار بعد غد ، أي مساء الأربعاء ويحكي الحكاية تلك بصوتها .

* * *

٤٨

أنا شكورة

رأيت أبي في الحلم ، حكى لي ما لم أفهمه . كان الأمر مخيفاً فاستيقظت . احتضنني من جانبيَ شوكت وأورهان بحرارة ، وتعرقت بسخونتها . كان شوكت يضع يده على بطني ، وأورهان يسند رأسه المتعرق على بطني . على الرغم من هذا استطعت النهوض من فراشي ، والخروج من الغرفة دون أن أوقظهما .

عبرت إلى الموزع وفتحت باب غرفة قرة . لم أره في ضوء الشمعدان ، بل رأيت فراشه الأبيض وكأن عليه جسداً مكفناً . وكأن ضوء الشمعدان لا يصل بأي شكل إلى الفراش .

عندما قرَبتُ يدي أكثر ، وقع لون الضوء البرتقالي على وجه قرة المتعب وغير حليق الذقن وعلى كتفيه العاريين . كان نائماً ملتفاً على نفسه مثل حشرة (الدعبلة) كما ينام أورهان ، ويبدو وجهه مثل وجه فتاة نائمة .

قلت لنفسي : «هذا زوجي» وكان بعيداً عني وغريباً بحيث خيّم عليَ شعور بالندم . لو كان بيدي خنجر لقتلته . ولن أفعل هذا لأنني أريده أن يقتل حقيقة ، وإنما أفكر كما نفكر جميعاً عندما كنا أطفالاً بأننا لو قتلنا هذا ماذا يحدث ؟ ولا أصدق أنه عاش هذه السنوات كلها وهو يفكر بي ، وكذلك في تعابير البراءة التي على وجهه .

وبطرف قدمي الحافي لكزته من كتفه وأيقظته . عندما استيقظ ورآني لم ينفعل ويسحر ، بل خاف لحظة كما أردت تماماً ، وقبل أن يستيقظ جيداً قلت له :

« رأيت أبي في الحلم ، قال لي أمراً مخيفاً . قال إنك قتلته . . . » .

« ألم نكن معاً عندما قتل أبوك ؟ »

قلت : « أنا أعرف هذا . ولكنك كنت تعرف أن أبي سيبقى وحده في البيت » .

« أعرف . أنت أرسلت خيرية والولدين . لعل خيرية وإستر أيضاً تعلمان . أنت أعرف من يعلم أنه بقي وحده » .

« أشعر أحياناً أن صوتاً داخلي سيعلمني بسبب كل هذا النحس ، وسبب سير الأمور بهذا السوء . أفتح فمي ليخرج ذلك الصوت ، ولكن يحدث كما في الأحلام إذ لا يخرج الصوت من حلقي . لم تعد أنت قرة الطيب والبريء الذي عرفته في طفولتي » .

« ولكن أباك وأنت أيضاً طردتما قرة ذلك البريء » .

« إذا كنت قد تزوجتني لتنتقم من أبي فها أنت انتقمت ، ولعل الولدين لهذا السبب لا يحبانك أبداً » .

قال : « أعرف » ولكنه لم يقل هذا مكدراً ، وأضاف : « مساءً ، قبل أن أنام ، نزلتِ إلى تحت ، فصارا يناديان بحيث أسمع : « قرة ، قرة في طيزي خرا » .

قلتُ له : « اضربهما » وحقيقة كنت أريده أن يضربهما . بعد ذلك قلت مرتبكة : « إذا رفعت يدك عليهما أقتلك » .

قال : « ادخلي هذا الفراش ، ستتجمدين من البرد » .

« لعلني لن أدخل فراشك هذا أبداً . لعلنا ارتكبنا خطأ بزواجنا . يقولون

إن هذا الزواج غير صحيح . ليلاً قبل أن أنام سمعتُ وقع قدمي حسن . لا تنس عندما كنتُ أسكن مع المرحوم زوجي سمعت وقع قدميه لسنين طويلة . والولدان يحبانه . وهو قاسٍ ، لديه سيف أحمر . احم نفسك منه! » .

رأيت في نظرات قرة تعباً وقساوة جعلتني أدرك أنني لن أستطيع إخافته .

قلت : « أنت الأكثر أملاً والأكثر كدراً بيننا . أنا أعاند لكي لا أكون يائسة ، ومن أجل حماية ولدي . أما أنت فتعاند من أجل إثبات نفسك ، وليس لأنك تحبني » .

شرح لي مطولاً عن حبه الكبير لي ، وكيف كان يفكر بي دائماً في محطات القوافل وفي الجبال الجرداء ، وفي الليالي المثلجة ، لولا أن حكى هذا لأيقظت الولدين وعدت إلى بيت زوجي السابق . وقلت هذا فجأة كما شعرت به في قلبي :

« يتهيأ لي أن زوجي سيعود في أي لحظة . لا لأنني أخشى أن يقبض علينا في غرفة واحدة في منتصف الليل ، أو أن يقبض علينا الولدان ، بل لشعوري أننا فور تعانقنا سيقرع الباب علينا » .

سمعنا صوت صراخ قطط تتعارك حتى الموت ينبعث من الخارج ، من عند باب الحوش . اعتقدت أنني سأفهق . لم أستطع وضع الشمعدان على الطاولة ، ولا العودة إلى الغرفة الأخرى عند الولدين . قلت لنفسي لن أخرج من هذه الغرفة قبل التأكد من عدم وجود إصبع له في قتل أبي .

قلت لقرة : « إنك تستهين بنا ، بعد زواجك مني صرت مترفعاً . كنت تشفق علينا لعدم عودة زوجي ، والآن تشفق لموت أبي » .

قال بانتباه : « يا شكورة خانم » بدؤه بهذا الشكل أسعدني « أنت تعرفين أن هذا غير صحيح ، أنا أعمل كل شيء من أجلك » .

« إذن انهض من فراشك ، وانتظرني وقوفاً » .
لماذا قلت له إنني أنتظر أمراً ما ؟
قال : « لا أستطيع » مشيراً إلى اللحاف ، والمنامة التي يرتديها بخجل .
كان على حق . ولكن عدم تلبيته طلبي أغضبني .
قلت : « قبل أن يقتل أبي كنت تدخل إلى هذا البيت مثل قطة سفحت الحليب . أما الآن فإنك عندما تقول : شكورة خانم ، فكأنك غير مصدق نفسك ، وتريد أن نعرف أنك غير مصدق » .
كنت أرتجف ليس من الغضب ، ولكن من البرد الذي يلف رجليّ وظهري ورقبتي مثل الجليد .
قال : ادخلي الفراش وصيري زوجتي » .
قلت : « كيف سيوجد السافل الذي قتل أبي ؟ إذا طال الأمر فليس من الصحيح البقاء معك هنا في هذا البيت » .
« بفضلك وفضل إستر وجه الأستاذ عثمان انتباهه كله إلى الخيول » .
« كان الأستاذ عثمان العدو اللدود لأبي ، والآن يرى أبي المسكين من فوق أن ثمة حاجة له لإيجاد قاتله ، ويتألم لهذا » .
فجأة قفز من الفراش ، وهجم عليّ . لم أستطع حتى التحرك من مكاني . ولكنه وعلى عكس ما توقعت أطفأ شعلة الشمعة بيده . وخيم الظلام على كل شيء .
وقال هامساً : «لم يعد يستطيع أبوك الروية . نحن وحدنا . قولي لي يا شكورة ، أشعرتني عند عودتي بعد اثنتي عشرة سنة أنك يمكن أن تحبيني ، وتفسحي لي مجالاً في قلبك . بعد ذلك تزوجنا . ومنذ زوجنا وأنت تهربين من حبي» .
همست له : «تزوجتك غصباً عني» .

شعرتُ في الظلام أن كلماتي تنغرز في جسده الواقف أمامي مثل المسامير كما قال الشاعر فضولي .

همستُ مرة أخرى : «لو كنت سأحبك لأحببتك في صغري» .

قال : «قولي أيتها الحسناء التي في الظلام . لا بد أنك حاولت لفت نظر النقاشين الذين ترددوا على بيتكم ، وعرفتهم ، أي منهم قاتل بالنسبة إليك ؟» .

أسعدني أنه ما زال سعيداً حتى الآن . وهو زوجي .

«أنا بردانة»

لم أذكر إن قلت هذا أم لا . بدأنا نتبادل القبل . احتضنني والشمعدان ما يزال بيدي ، ووضع لسانه الشبيه بالمخمل في فمي ، وكان كل شيء جميلاً : دموعي ، شعري ، منامتي ، ارتجافي ، حتى جسمه أيضاً . واتكاء أنفي البارد على خده الدافئ ودفؤه جميل أيضاً ، ولكن شكورة الخوافة أمسكت بنفسها ، ولم تنس نفسها وهي تتبادل القبل حاملة الشمعدان ، وفكرت بأبيها الذي ينظر إليها ، وبزوجها وولدها النائمين في الفراش .

صرختُ قائلة : «هنالك أحد في البيت» ، ودفعت قرة ، وخرجت إلي الموزع .

* * *

٤٩

اسمي قرة

في ظلمة الصباح الباكر خرجت من البيت بهدوء كضيف مذنب دون أن أدع أحداً يحس بخروجي ، وسرت مطولاً في الأزقة الطينية . توضأت في باحة جامع البيازيد ، ودخلت ، وصليت . لم يكن في الداخل سوى رجل يصلي بهمة عالية لا يمكن أن يكتسبها شخص إلا مرة في أربعين سنة ، ورجل عجوز يستطيع الاستمرار بنومه وهو يصلي ، والأفندي الإمام . أحياناً نشعر في أثناء النوم أو بين الذكريات الحزينة أن الله معنا بقوة ، ونتوسل إليه بأمل يشبه أمل إنسان يدس في يد السلطان استدعاء ؛ توسلت إلى الله أن يمنحني بيتاً مليئاً بالمحبين .

عندما وصلتُ إلى بيت الأستاذ عثمان شعرت أنه يأخذ تدريجياً مكان المرحوم زوج خالتي في عقلي . كان أكثر بعداً وشدة بالنسبة إليَ ، ولكن إيمانه بنقش الكتب أكثر عمقاً . يبدي الأستاذ الكبير ، في مجاله ، شبهاً بدرويش عجوز أكثر من شخص يُدب الرعب بين النقاشين على مدى سنوات طويلة ، ويبعث فيهم الإعجاب والحب .

نسير من بيت الأستاذ إلى القصر هو محني قليلاً على ظهر حصانه ، وأنا راجل بجانب الحصان محني لنغدو مثل درويش عجوز ومريده المفتون به كما يبدوان في الرسوم الرخيصة التي تزين الكتب القديمة .

في القصر وجدنا آمر الحامية ورجاله جاهزين ومتوفزين أكثر منا . ولأنهم واثقون أننا سننظر صباحاً إلى رسوم الحصان التي رسمها نقاشو سلطاننا الأساتذة الثلاثة ، ونعرف القاتل الملعون فوراً ، فقد أمروا أنفسهم دون سؤال حتى السلطان بأن يعذبوه . وهكذا لم نؤخذ إلى قدام صنبور الجلاد ليرى الجميع ويتعظ بل أدخلنا إلى ذلك البيت المتطرف في الحديقة الخاصة .

شاب ظريف ومؤدب إلى حدّ أنه لا يمكن أن يكون من رجال آمر الحامية وضع على رحلة ثلاث ورقات بحركات واثقة .

عندما أخرج الأستاذ عثمان عدسة بدأ يخفق قلبي بشدة . كانت عيناه على مبعدة منتظمة من العدسة مثل صقر يجوب بظرافة فوق قطعة أرض ، تجوب عينه فوق رسوم الخيول الثلاثة الرائعة . ومثل صقر سيصطاد غزالاً يهدأ فوق أنوف الخيول ، بمنتهى الدقة ، ولكن لم يبد أي تعبير غير عادي .

بعد ذلك قال ببرودة قلب : « لا يوجد » .

قال آمر الحامية : « ما هو غير الموجود ؟ » .

كنت أعتقد أن الأستاذ الكبير سيتناول الأمر ببطء ، وأنه سيدقق في الخيول من سروجها إلى حوافرها .

قال الأستاذ عثمان : « لم يترك النقاش الملعون أي أثر . لا يمكن معرفة راسم الحصان الكميت الداكن من هذه الرسوم » .

تناولت العدسة بعد أن تركها ، ودققت في أنوف الخيول : كان أستاذي محقاً . لم يكن الشيء الغريب في أنف الحصان المرسوم من أجل الكتاب الذي حضره زوج خالتي موجوداً في أي من الخيول الثلاثة .

في تلك اللحظة تعلق عقلي بالجلادين المنتظرين في الخارج وبآلة لم أعرف كيف سيستخدمونها . وبينما كنت أحاول رؤيتهم من فتحة الباب

الموارب ، تراجع أحدهم بسرعة وكأن جنياً تلبسه ، ورمى بنفسه خلف أشجار التوت مختفياً .

وكضوء ينير صباحاً رصاصياً ، في تلك اللحظة دخل حضرة سلطاننا أساس العالم .

فوراً صرّح له الأستاذ عثمان أنه لم يستنتج شيئاً من رسوم الخيول تلك . ولكن لم تستطع تلك الخيول بجمحة أحدها ، ودقة وقفة الآخر الطريفة ، والثالث الذي يرى في الكتب القديمة بغروره ووقاره إلا أن تجذب انتباه سلطاننا . في الوقت نفسه خمّن النقاش الذي رسم كل واحد من هذه الخيول ، وصدّق تخمينه الولد الذي ذهب إلى النقاشين ليلاً .

قال الأستاذ : « لا تندهشوا لمعرفة نقاشيَ مثل معرفة راحة كفي ، لأنني أندهش لعدم معرفتي خطأ رسم على يد أحد نقاشيَ الذين أعرفهم مثل معرفتي راحة كفي . لأن أي قصور لمعلم نقاش هو قاعدة » .

قال سلطاننا : « ماذا يعني ؟ » .

« يا سعادة حضرة سلطان العالم ، بالنسبة إليَ فإن هذا التوقيع السري الذي رأيناه في أنف الحصان الكميت ليس عيب نقاش غير مفهوم ، لا معنى له ، بل هو متجذر ، يعود إلى القدماء ، وإلى رسوم أخرى ، وإلى أساليب وأصول أخرى ، لو قلبنا الصفحات الرائعة التي تعود إلى مئات السنين في خزينتكم الداخلية تحت الأقفال في قبوكم داخل الخزائن والصناديق الحديدية لعلنا نرى أن الخطأ الذي نراه اليوم هو أصول ، وسنربطه بأحد أقلام النقاشين الثلاثة » .

قال السلطان مندهشاً : « هل تريد الدخول إلى خزينة العرش ؟ » .

قال أستاذي : « نعم » .

هذا طلب فظ يشبه طلب الدخول إلى الحرم . وفي الوقت نفسه فهمت

هذا : كما وضع الحرم والخزينة في أجمل زاويتين من زوايا جنة بناء العرش ، هما في الوقت نفسه أكثر زاويتين قريبتين إلى روح سلطاننا .

وبينما كنت أحاول استنتاج ما يبدو على وجه سلطاننا الجميل الذي صرت أستطيع النظر إليه بجرأة ، فجأة ذهبوا . هل غضبوا ؟ هل يمكن أن نعاقب كلنا مع النقاشين كلهم بسبب التصرف الغبي لأستاذنا .

عندما كنت أنظر إلى الخيول الرائعة الثلاثة التي أمامي تخيلت أنني سأُقتل قبل أن أرى شكورة مرة أخرى ، قبل أن أدخل معها فراشاً واحداً . وعلى الرغم من جمالياتها فإن هذه الخيول الثلاثة تبدو كأنها جاءت من عالم بعيد جداً ، وأتت إليّ .

كما الدخول إلي العرش وهو قلب القصر منذ الطفولة والعيش هناك والكينونة عبداً من عبيد السلطان يعني الموت من أجله ، كذلك النقاش أيضاً هو عبد لجمال الله . وتعلق عقلي بذلك الصمت المخيف .

فيما بعد عندما أخذنا رجال الخزندار الأكبر إلى الأعلى نحو الباب المتوسط ، كان في فكري ذلك الموت وصمته . ولكننا عندما عبرنا من باب السلام الذي زهقت فيه أرواح كثير من الباشاوات إعداماً ، كأن البوابين لم يرونا . لم تؤثر فيّ قط ساحة الديوان والبرج والطواويس بعد أن بدت لي البارحة جنة ، ورجفت أجفاني . فهمت أننا نؤخذ إلى عمق الداخل ، إلى العرش حيث قلب عالم سلطاننا السري .

وهكذا عبرنا من أبواب لا يستطيع الوزراء الأعظمون عبورها دون إذن . ومثل ولد دخل إلي حكاية ، لا أستطيع رفع عيني عن الأرض كي لا تريا الروائع والوحوش التي يمكن أن تلتقيها . لم أستطع حتى مجرد النظر إلى غرفة التمنيات . ولكن للحظة انزلق بصري نحو جدران الحرم فوقع نظري على شجرة بلوط لا تختلف عن بقية الأشجار بشيء ، ورجل قوي يرتدي قفطاناً

من الأطلس الأزرق . عبرنا من بين الأعمدة العالية . وقفنا أمام باب ثقيل أكبر من الأبواب الأخرى ، تبدو عليه العظمة وفوقه مقرنصة . يقف عند عتبته أغوات يرتدون ألبسة لماعة . انحنى أحدهم على القفل .

قال الخزندار الأكبر وهو ينظر إلى عيوننا : «يا لسعادتكما لأن حضرة سلطاننا سمح لكما بالدخول إلى خزينة العرش . سترون كتباً لم يرها أحد ، وصفحات من الذهب ، ورسوماً خيالية الجمال لتقفي الأثر ، وقد أمرني سلطاننا تذكيركما أنه منح الأستاذ عثمان ثلاثة أيام ، وقد انتهى اليوم الأول ، وعلى الأستاذ عثمان أن يعرف الملعون من بين النقاشين خلال يومين وإذا لم يعلمنا به فإن آمر الحامية سيخرج من هذا الأمر بواسطة التعذيب» .

بداية فكّوا واقية القفل المعلق التي تمنع محاولة وضع مفتاح آخر في ثقب القفل المهور . تأكد ناظر الخزينة واثنان من الأغوات من سلامة المهر ، وأعطوا إشارة الموافقة برؤوسهم . نُزع المهر . عندما وضع المفتاح في ثقبه ، تكتك القفل وسط صمتنا نتيجة انتباهنا بشدة ، ثم فتح . فجأة تحول لون وجه الأستاذ عثمان إلى لون الرماد . عندما فتح مصراع الباب الثقيل المحفور سقط على ذلك الوجه ضوءٌ أسود يعود إلى أزمنة سحيقة .

قال الخزندار الأكبر : «لم يطلب سلطاني أغوات التدوين وكتاب دفاتر قيود الموجودات دون سبب . مات حافظ الكتب وليس ثمة من يرعى الكتب . لهذا السبب أمر سلطاني أن يدخل معكما جزمي آغا فقط» .

كان ذلك الشخص قزماً يبدو أنه في الستين من عمره ، وعيناه براقتان . والطربوش الطويل الذي على رأسه أغرب منه .

«جزمي آغا يعرف المكان في الداخل كما يعرف بيته . وهو يعرف أكثر من الجميع الكتب وكل ما في الداخل» .

لم يبد التباهي على القزم . كان يستعرض منقلاً فضياً ، ومقعدة ذات

مقبض مطعَم بالصدف وقنديلاً وشمعدانات يحملها فتيان الخزينة العجم .

أبلغنا الخزندار الأكبر أن الباب سيغلق علينا وسيمهر من جديد بمهر السلطان سليم هذا المهر الذي يعود إلى سبعين سنة مضت ، وأن المهر سينزع مرة أخرى مساء بعد صلاة المغرب بحضور مجموعة من الأغوات ، وأن علينا الانتباه لعدم دخول شيء «بالغلط» إلى ثيابنا وجيوبنا وأحزمتنا ، لأننا عند الخروج سنفتش حتى سراويلنا الداخلية .

دخلنا وسط الأغوات المصفوفين على الجانبين . المكان بارد مثل الثلج . عندما أغلق الباب صار كل شيء مظلماً جداً ، وشعرت في حلقي برائحة العفن والرطوبة . الأغراض تملأ الأطراف كلها وهي صناديق وخوذات وغيرها ، وتداخلها يشكل فوضى حقيقية . هذا ما أثار فيَ إحساساً شعرت به عندما شهدت حرباً قبل فترة قصيرة .

اعتادت عيناي على الضوء الغريب الساقط على قضبان النوافذ الغليظة والسقيفة الممتدة على محيط الجدران العالية ، والأدراج المؤدية إليها ، والدرابزون الخشبي المحيط بها . لون هذه الغرفة أحمر بسبب لون المخمل على الجدران ، ولون السجاد والبسط .

شعرت بمتعة أن الغنى الموجود هنا كله ، وتراكم الأشياء هذه هو نهاية الحملات والحروب والدماء المراقة والمدن والخزائن المسلوبة .

قال القزم العجوز مخاطباً شعورنا الداخلي : «هل خفتما ؟ كل من يدخل أول مرة يخاف . أرواح هذه الأشياء تتبادل الحديث همساً في الليل» .

الأمر المخيف هو الصمت اللا معقول المدفون وسط زحمة الأغراض هذه كلها . يتناهى إلى سمعنا تكتكة ضرب المهر على قفل الباب خلفنا ، ونحن نتفرج دون أن نتحرك .

رأيتُ سيوفاً ، وعاج فيلة ، وقفطانات ، وشمعدانات فضية ، ورايات من الأطلس ، وعلباً صدفية ، وصناديق حديدية ، ومزهريات صينية ، وآلات موسيقية ، ومخدات حريرية ، وكرات تري العالم ، وجزمات ، وكرات ، وقرون وحيد القرن ، وبيوض نعام منقوشة ، وبنادق ، وسهاماً ، وكرات شوكية ، وخزائن ، وخزائن ، وخزائن . الأقمشة في كل مكان الأطلس والسجاد يملأ المكان ، وهذه تتدلى لفَات لفات من السقيفة الخشبية ، ومن بين عوارض الدرابزون ومن الخزائن المخفية في الجدران ومن الطاقات الصغيرة المفتوحة في الجدران وكأنها تتدفق . ثمة ضوء غريب لم أر مثله في حياتي يقع على الأقمشة والصناديق وقفطانات السلاطين والسيوف والشموع الكبيرة الزهرية والعمائم والمخدات المشغولة باللؤلؤ والسروج المطرزة بالذهب والسيوف العريضة ذات المقابض الماسية ، والدروج الصدفية ، وشكلات توضع على رؤوس الخيول وسبحات ذات حبات ضخمة وخوذات مزينة بالفيروز والياقوت وأباريق وخناجر . إن ذلك الضوء الذي يتسلل من النوافذ العلوية بشكل غير واضح يشبه ضوء الشمس الذي يتسلل عبر العاكسات التي تعلو قبلة الجامع في يوم صيفي وينير ذرات الغبار في الغرفة شبه المظلمة ، ولكنه لم يكن ذلك الضوء ضوءَ شمس . لقد غدا الهواء هنا شيئاً كأنه يقبض عليه باليد ، وبتأثير هذا الضوء تبدو الأغراض التي في الغرفة كلها مصنوعة من مادة واحدة . وبعد أن أمضينا فترة شهدنا فيها صمت الغرفة بخوف أدركت أن الشيء الذي يضفي على أشياء الغرفة كلها مظهراً يجعل اللون الأحمر المسيطر عليها باهتاً ، ويجعل أغراضها أكثر توجساً هو عدم معرفة بعض الأغراض حتى من النظرة الثانية والثالثة بعد اعتياد العين على المكان وسط كل هذا الازدحام بالأغراض . الشيء الذي ظننته صندوقاً صدفياً أجده بعد قليل رحلة ، وبعد ذلك أقرر أنه آلة إفرنجية غريبة ، ما اعتقدته صندوقاً

صدفياً بين القفطانات وريش العمائم المُخرجة من الصناديق على عجل ومبعثرة هنا وهناك أفهم بعد قليل أنه درج عجيب أرسله قيصر روسيا .

وضع جزمي آغا المنقل في الموقد المفتوح داخل الحائط في حركة توحي بالاعتياد .

قال الأستاذ عثمان هامساً : «أين الكتب ؟» .

قال القزم : «أي كتب ؟ هل الكتب المجلوبة من البلاد العربية ، أم المصاحف المكتوبة بالخط الكوفي ، أم التي جلبها حضرة (جنة مكان السلطان الجبار سليم خان) من تبريز ، أم الكتب المصادرة من الباشوات الذين حكم عليهم بالإعدام ، أم المجلدات التي جلبها سفير البندقية هدية ، أم كتب المسيحيين المتبقية من عهد السلطان محمد الفاتح ؟» .

قال الأستاذ عثمان : «التي أهداها الشاه طهماسب (لجنة مكان حضرة السلطان سليم) قبل ثلاثين سنة» .

قادنا القزم إلى خزانة خشبية كبيرة ، تململ الأستاذ عثمان لشدة اندفاعه عندما رأى المجلدات أمامه وفتح أغلفتها . فتح مجلداً وقرأ كتابته ، وقلب صفحاته . وأنا تفرجت معه باندهاش على صفحات رسوم الخانات المرفوعي أطراف العيون بشكل خفيف جداً والمرسومين واحداً واحداً بعناية .

قرأ الأستاذ عثمان : «جنكيز خان ، تشا غطاي خان ، طولوي خان ، قوبيلاي خان وهذا حاكم الصين» وأغلق المجلد وتناول غيره .

ظهر أمامنا رسم لفرهاد ، جماله لا يصدق ، يصور موقفه حاملاً حبيبته شيرين مع حصانها بقوة العشق وهو يتألم . ومن أجل إبراز التعلق بالعشق والكدر ، رسمت صخور الجبال والغيوم وأوراق ثلاث شجرات سرو أصيلة بارتجافة يد مكدرة ، وبحزن الأوراق المتساقطة ودموعها أدار الأستاذ عثمان الرسم نحوي . لقد نقش ذلك الموقف المؤثر على طريقة الأساتذة الكبار ليس

لرسم قوة فرهاد الهائلة بل للتعبير عن إحساس العالم كله بألم العشق في الوقت نفسه .

قال الأستاذ عثمان : «أحد الأعمال المقلدة بهزاد في تبريز قبل ثمانين عاماً» ثم وضع المجلد في مكانه .

وهذا أيضاً يعبر عن الصداقة الاضطرارية بين الفأرة والقط في كليلة ودمنة . عندما تنحصر فأرة بين هجوم حدأة من الجو وابن آوى من الأرض تهرب وتسقط في شراك صياد ، وهناك تجد قطة مسكينة . تتفقان . تلحس القطة الفأرة متصرفة معها بمحبة فتخاف الحدأة ، يخاف ابن آوى من القطة ، وينثنيان عن اصطياد الفأرة . والفأرة تقرض شباك القطة بحذر . قبل أن أدرك حساسية النقاش ، وضع الأستاذ الكتاب جانب المجلدات الأخرى ، وتناول كتاباً آخر ، وفتحه على صفحة غير معينة .

ظهر رسم يعبر عن امرأة غريبة تمد يدها بشكل ظريف سائلة عن أمر ما ، وتضع الأخرى على ركبتها من فوق معطف أخضر ، وبجانبها رَجلها الملتفت إليها يستمع إلى كلامها بانتباه شديد . تفرجت عليها بمتعة تنتابني غيرة شديدة من العشق والاحترام والصداقة .

تركها الأستاذ عثمان وفتح على صفحة أخرى من كتاب آخر . في الرسم جيشا إيران وطوران الأزليا العداء مجهزان بالدروع والخوذات وواقيات الركب والأقواس والكنانات والنبال ، وتصل دروع الجنود حتى ركبهم وهم يركبون الخيول الأسطورية الجميلة ، والأرض سهل أصفر مغبّر . اصطف الجيشان مقابل بعضهما البعض بشكل جميل ، ووجّها رماحهما المزينة الملونة ، وقبل أن يتداخلا في صراع الموت يتفرج الجنود على قتال قائديهما الواثبين إلى الأمام . ما يريد أن يرسمه النقاش الكامل الإيمان ، ويعبر عنه اليوم أو قبل مائة سنة وفي موقف حرب أو حب هو صراعه مع نفسه ، وعشقه

للنقش . كدت أقول هذا لنفسي ، وكدت أقول إن هذا يعني أن ما يرسمه النقاش هو صبره . قال الأستاذ عثمان :

«ليس هذا أيضاً» وأغلق المجلد الضخم .

رأينا في هذا المرقع رسم منظر واسع يمتد إلى البعيد جداً مع الجبال العالية والغيوم المتلوية اللا متناهية . فكرت أن الرسم هو النظر إلى هذا العالم وتقديمه كأنه عالم آخر . حكى لي الأستاذ عثمان كيف انتقل هذا الرسم الصيني من بخارى إلى هرات ، ومن هرات إلى تبريز ، ومن تبريز إلى قصر سلطاننا وكيف انتزع من مجلّده ، ودخل إلى مجلدات أخرى في رحلته من الصين إلى اسطنبول .

رأينا رسم حرب وموت تضاهي بعضها البعض تخويفاً وجودة : رستم شاه مازندران يهاجم جيش رستم أفراسياب - يبدو رستم وسط دروعه عجائبياً غير معروف . وفي كتاب آخر مرقع رأينا جيوشاً أسطورية لم نستطع تحديد هويتها وهي تحارب بإقدام لا يوصف ، وأجساداً ممزقة ، وخناجر تضرجت بحمرة الدم ، وجنوداً تعساء يلمع في عيونهم بريق الموت ، ومحاربين يفرمون بعضهم البعض كما يفرم البصل . من يعلم كم ألف مرة رأى الأستاذ عثمان مراقبة خسرو لشيرين وهي تغتسل في البحيرة تحت ضوء القمر ، وغيبوبة العاشقين ليلى والمجنون عند لقائهما بعد قطيعة طويلة ، ورسم السعادة المتلألئة بالأشجار والزهور والطيور في جزيرة السعادة التي هرب إليها (سلمان) و(أبسال) من العالم كله ، وعندما نظر إليها مجدداً لم يستطع تجاوز تنبيهي لغرابة تظهر في زاوية الرسم بالشكل الأسوأ وإن كان مصدرها ضعف النقاش ، أو حواراً حول تماسك تلقائي للألوان كما يفعل أستاذ كبير : أي نقاش تعيس وسيئ النية وضع ذلك البوم على غصن الشجرة التي يستمع تحتها خسرو وشيرين إلى حكايات النديمات الحلوة ؟ يجب ألا يوضع

أبداً . ومن وضع ذلك الولد الحلو بلباس المرأة بين النساء المصريات اللواتي قطّعن أصابعهن وهن يقشرن البرتقال وينظرن إلى وسامة يوسف ؟ هل يمكن للنقاش الذي رسم كيف عَمي (اسفنديار) بسهم أن يتوقع عماه أيضاً ؟ .

رأينا صعود حضرة نبينا إلى السماء والملائكة محيطة به ، والعجوز الممثل لكوكب زحل ذا بشرة داكنة وستة أذرع ولحية طويلة ، ونوم رستم الطفل الصغير في سريره المطعّم بالصدف تحت نظرات أمه ومربيته ، وموت دارا المؤلم في حصن الإسكندر ، وإغلاق الغرفة الحمراء على بهرام گور مع الأميرة الروسية ، وعبور (سياووش) وسط النار على جواده الأدهم دون وجود ذلك التوقيع السري في أنفه ، والجنازة الحزينة لخسرو الذي قُتل على يد ابنه . وفي أثناء اختياره المجلدات وإلقاء نظرة عليها بشكل سريع كان الأستاذ عثمان أحياناً يتعرّف إلى نقاش ما ويريني رسومه ، ويجد توقيعاً أخفي بخجل بين بعض الأزهار أو وسط ظلمة تحت خرابة ، أو في زاوية جب يختبئ فيه جنيّ ، وينظر إلى التوقيع والكتابة ويشرح ما أخذ عن الآخرين ، ومن أخذ عن من . وعلى أمل أننا سنجد عدة صفحات مرسومة كنا نقلّب أحياناً صفحات كتاب مجلد كامل . أحياناً كان يخيّم صمت طويل فلا يُسمع إلا صوت تقليب الصفحات الخافت جداً . وأحياناً كان يقول الأستاذ عثمان : « يا!! » ولا أفهم ما أدهشه فأسكت ، وأحياناً يفتح الكتاب على رسم نصادف فيه تنسيق صفحة وأشجاراً ، وصف سرو استخدمت في مجلدات أخرى ولمواقف من حكايات مختلفة جداً ، فيريني إياها ويذكرني بها . يقارن رسماً لمخمس شعري لنظامي يعود إلى زمن الشاه رضا بن تيمور ، أي أنه رسم قبل مائتي سنة تقريباً مع رسم في مجلد آخر يقول إنه رسم في تبريز قبل سبعين أو ثمانين سنة ، ويسألني عن الحكمة في رسم نقاشين - لم يريا رسوم بعضهما البعض - رسماً واحداً ثم يجيب بنفسه :

«النقش هو التذكر» .

بفتحه المجلدات القديمة وإغلاقها كان يشعر بالحزن أمام الروائع (لأنه لم يعد ثمة من يرسم بهذا الشكل) والنشوة أمام عديمي المهارة (لأن النقاشين كلهم في الحقيقة أخوة) ويشير إلى ما تذكره النقاش من أشجار قديمة وملائكة . وشمسيات ونمور ، وخيام ، وتنينات وأمراء مكدرين : يرى الله الدنيا بشكلها الأمثل ، وفي زمن بعيد أودع هذه الرؤية الأجمل في عباده المؤمنين بهذا الجمال . وعملنا- نحن النقاشين والمتفرجين على النقش بعشق - هو تذكر هذه المناظر الرائعة التي أودعها الله فينا . أكبر معلمي النقش في كل جيل من أجيال النقاشين يبذلون حياتهم كلها ويعملون حتى تعمى عيونهم بمجهود وإلهام كبيرين عاملين على الوصول إلى ذلك الخيال الرائع الذي أمرنا الله برؤيته ونقشه . ما يعملونه يشبه تذكر الإنسان لذكرياته الذاتية المصنوعة من الذهب . ولكن مع الأسف فحتى كبار الأساتذة يستطيعون تذكر أجزاء من هنا وهناك وبشكل غير واضح تماماً مثل المسنين المتعبين والنقاشين الكبار المصابين بالعمى نتيجة العمل . هذا هو سبب رسم الأساتذة القدماء شجرة أو طيراً أو أميراً يغتسل في حمام أو صبية تقف عند النافذة مكدرة بشكل متطابق مثل معجزة على الرغم من عدم رؤيتهم أعمال بعضهم البعض ، وفوق هذا ثمة مئات من السنين تفصل بينهم .

بعد ذلك بزمن طويل ، أي بعد أن خفت قليلاً ضوء غرفة الخزينة الأحمر ، فُهم أنه لم يوجد المطلوب في أيٍّ من الكتب التي أرسلها الشاه طهماسب هدية لجد سلطاننا ، تذكر الأستاذ عثمان المنطق ذاته :

«أحياناً ينتقل جناح طائر وتعلّق ورقة على غصنها وتلويات سقيفة وتموضع سحابة في الجو وضحكة امرأة من المعلم إلى التلميذ ويُشار إليها عبر الأجيال ، وتعلّم وتحفظ وبهذا يحافظ عليها عبر العصور . ولأن الأستاذ

النقاش يومن بما تعلمه من أستاذه وبأنه قالب ، وأن عدم بطلانه يشبه عدم بطلان القرآن الكريم فينقش ذلك التفصيل في ذاكرته كما يحفظ فيها القرآن الكريم فلا ينساها . ولكن عدم نسيانها لا يعني أنه سيستخدمها دائماً ، وضع النقش خانة التي يبذل فيها النقاش نور عينيه ، وعادات المعلم غير المستقر الذي يرسم بجانبه ، وذوقه في الألوان ، وحالات السلطان النفسية أحياناً تمنعه من رسم ذلك التفصيل الذي هو جناح طائر أو ضحكة امرأة . . . »

انزلق على لساني قول : « أو أنف حصان » .

قال الأستاذ عثمان دون أن يبتسم : « أو أنف حصان . . . لا يرسمها كما ترسخت في أعماق روحه . إن ذلك الأستاذ الكبير سيرسم في تلك الأثناء ضمن عادات النقش خانة التي يعمل فيها عندئذ ، وكما يرسم الجميع ، هل تفهمني ؟ » .

في صفحة رسم تظهر شيرين على العرش في قصة خسرو وشيرين لنظامي التي استعرضنا حتى الآن عدداً من نسخها ثمة كتابة محفورة على حجر حائط القصر . قرأها : يا الله العظيم احفظ قوة سلطان سلاطيننا الأصيل وخاقاننا العادل ابن تيمور خان المظفر ، وثبت حكمه واحفظ دولته ليكون سعيداً (كتبت على الحجرة اليمنى) ويكون غنياً (كتبت على الحجرة اليسرى) .

بعد ذلك سألت : « أين سنجد الرسوم التي رسم فيها النقاش أنف الحصان كما هو محفور في ذاكرته ؟ » .

قال الأستاذ عثمان : علينا أن نجد مجلد الشاه نامة الذي أرسله الشاه طهماسب هدية . علينا أن نذهب إلى ذلك الزمن الجميل القديم الأسطوري الذي ساهم الله في إنجاز نقوشه . سنستعرض كثيراً من الكتب أيضاً » .

أضاءت في رأسي فكرة أن هدف الأستاذ عثمان الحقيقي ليس إيجاد الخيول ذات الأنوف العجيبة بل النظر وبقدر ما يستطيع إلى تلك الرسوم الرائعة النائمة بعيداً عن العيون كلها في غرفة الخزينة هذه على مدى سنوات طويلة . كاد ينفد صبري من أجل إيجاد الدليل الذي سيجعلني أحصل على شكورة التي تنتظرني في البيت ، كما كنت لا أريد التصديق : أن الأستاذ الكبير يمكن أن يرغب بالبقاء ما أمكنه في غرفة الخزينة الباردة هذه .

وهكذا فتحنا خزائن وصناديق أخرى أشار إليها القزم المسن ، واستمررنا بالفرجة على الرسوم . وأحياناً أملّ من النظر إلى الرسوم المتشابهة ، ولا أريد مرة أخرى رؤية مجيء خسرو إلى تحت نافذة قصر شيرين لرؤيتها . فأترك الأستاذ حتى دون النظر إلى أنف حصان خسرو عاملاً على تدفئة نفسي جانب المنقل ، أو أسير في غرف الخزينة الأخرى المفتوحة على بعضها البعض باحترام وإعجاب وسط القماش والذهب والغنائم والأسلحة وأكوام الدروع المخيفة . وأحياناً أتخيل انطلاقاً من صوت صدر عن الأستاذ عثمان أو حركة يد أنه وجد رائعة جديدة في أحد الكتب ، أو أنه في النهاية وجد الحصان ذا الأنف الغريب فأهرع إليه ، وعندما أنظر إلى الصفحة التي يمسكها بيديه المرتجفتين بشكل خفيف وهو يجلس على سجادة من (أوشاق) أجد سفينة حضرة نوح وركوب الشيطان فيها بمكر في رسم لم أر مثيلاً له .

تفرجنا على مئات الشاهات والملوك والسلاطين وسلاطين السلاطين بدءاً من عصر تيمور وصولاً إلى السلطان سليمان القانوني الذين جلسوا على عروش مختلف الدول وهم بين الغزلان والأسود والأرانب يصطادون بسعادة ونشوة . ورأينا أحدهم ربط خشبة مثل درجة على ركبتي قائمتي جمل خلفيتين للاعتداء على عرضه بشكل يجعل حتى الشيطان مندهشاً وخجلاً من

هذا المنظر . ورأينا في كتاب عربي جاء عن طريق بغداد تحليق تاجر متمسك برجلي طائر أسطوري عابراً البحار . وفُتح المجلد الذي بعد هذا تلقائياً على صفحة رسم في موقف هو الأحب إلينا - شكورة وأنا - إنه موقف نظر شيرين إلى صورة خسرو المعلقة على الشجرة وعشقها له . ورأينا رسماً يوضح سير ساعة معقدة فيها أجزاء على شكل فيلة تحمل بكرات ومدفعاً وطيوراً وتماثيلَ عربية صغيرة فتذكرنا الوقت .

لم أستطع تحديد الوقت الذي قضيناه في استعراض المجلدات والانتقال من رسم إلى آخر ، وكأن الرسوم التي تنظر إليها والحكايات التي نستعرضها زمن ذهبي غير متغير وغير متدفق اختلط مع الزمان الرطب والعفن الذي نعيشه في غرفة الخزينة . إن الصفحات التي خبئت على مدى تلك السنين كلها وبذل فيها كثير من نور العيون في نقش خانات أولئك الشاهات والأمراء والخانات وسلاطين السلاطين على مدى عصور تكاد تبعث ما حولنا من خوذات وسيوف وخناجر ذات مقابض ماسية ودروعٍ وفناجين مستقدمة من الصين وأعوادٍ بنى عليها الغبار ، ومخداتٍ وبسطٍ ذات لآلئ لم نر مثلها إلا في الرسوم ، وخيولٍ ، وتُحركها .

«الآن أفهم أن آلاف النقاشين على مدى العصور رسموا الرسوم نفسها بسرية وهدوء ، كانوا في الحقيقة يرسمون تحول العالم إلى عالم آخر بسرية وهدوء» .

أعترف أنني لم أفهم كلياً ما أراد قوله الأستاذ الكبير . ولكن الانتباه الذي يبديه أستاذي لآلاف الرسوم المرسومة خلال مائتي سنة في بخارى وهرات وصولاً إلى اسطنبول ومروراً ببغداد كان من أجل العبور إلى ذلك الزمن أكثر من البحث عن إشارة في أنوف الخيول . كنا نقيم نوعاً من احتفالات الإعجاب الحزينة من أجل إلهام الأساتذة الذين عاشوا على هذه

الأرض طوال هذه العصور ، ومهاراتهم ، وصبرهم .

لهذا السبب عندما فتح باب غرفة الخزينة عند صلاة المغرب ، وقال الأستاذ عثمان إنه ليس لديه دافع للخروج ، وإنه بالنظر إلى الرسوم هنا حتى الصباح فقط يمكنه إنجاز المهمة التي كلفه بها سلطاننا على أكمل وجه . أول ما خطر ببالي هو البقاء هنا معه ومع القزم ، وأخبرته بهذا .

بعد أن فتح الباب وأبلغ أستاذي بقرارنا الأغوات المنتظرين عند الباب طالباً الإذن من الخزندار الأكبر ، ندمت فوراً . اشتقت لشكورة والبيت . وكلما فكرت كيف ستقضي الليل مع الولدين وحدها ، وستغلق النوافذ المصلحة حديثاً بشكل قوي أشعر أنني أجلس على أشواك .

شجرات الصنوبر الضخمة الرطبة في باحة بناء العرش التي تبدو من فتحة باب غرفة الخزينة المفتوح مصراعه ، وحركات أيدي شابين من الشبان المربين في القصر للقيام بالخدمة كأنهما أطرشان وهما يتبادلان الكلام لكي لا يزعجا سلطاننا استدعتني إلى الحياة التي في الخارج ، ولكنني بقيت دون حراك بمشاعر الخجل والذنب .

* * *

٥٠

نحن درويشان جوّالان

في زاوية خفية من الخزينة التي ملأها أجداد حضرة سلطاننا على مدى مئات السنين نتيجة فتحهم مئات الدول وسلبهم لها ثمة مجلد مرقع . وحسب الشائعات فإننا موجودان بين صفحاته المجموعة من الصين وسمرقند وهرات ، وبما أن هنالك احتمالاً كبيراً بأن هذه الشائعات انتقلت من القزم جزمي آغا إلى جماعة النقاشين ، فإننا لو حكينا حكايتنا بأسلوبنا بعد كل هذا نتمنى ألا يظهر زعلان في قلب هذا الجمع النخبة الذي يملأ هذا المقهى الجميل إن شاء الله .

مر على وفاتنا مائة وعشر سنوات ، ومرت أربعون سنة على إغلاق التكايا مأوى الزناديق وملجأ الشياطين التي لا يمكن إصلاحها ، وسبب إغلاقها هو تأييدها للعجم ، ولكن انظروا ها نحن أمامكم . لماذا ؟ لأننا رسمنا بأسلوب الأفرنج . وكما يرى في هذا الرسم ، نحن كنا في يوم من الأيام درويشين ننتقل في مملكة سلطان سلاطيننا من مدينة إلى أخرى .

نحن حافيا الأقدام ، رأسانا مكشوفان ، شبه عاريين ، نرتدي سترتين من جلد الغزال ، ونربط على وسطنا حزامين ، وفي يد كل منا عصاة معقوفة الرأس ، ويتدلى من رقبيتنا سلسلتان بكشكولين فيهما ماعونان ، وفي أحدهما بلطة لتقطيع الحطب ، وفي الثاني ملعقة من أجل تناول ما يسوقه الله

إلينا من طعام .

والآن أتجادل مع صديقي الطيب وحبيبي وأخي الجدال الدائم بيننا : أي منا سيأخذ الملعقة من الكشكول أولاً ويأكل ؟ وبينما كل منا يقول أنا في الأول ، أوقفنا رجل غريب الأطوار . وهو رحالة أفرنجي ، بجانب نزل عند صنبور ماء ، وأعطى كلاً منا قطعة فضية بندقية ، وبدأ يرسمنا .

إنه أفرنجي غريب الأطوار ، يرسمنا بوضعنا شبه العاري وسط الورقة كأننا خيمة سلطاننا . خطر ببالي فجأة خاطر وأبلغت رفيق روحي به وهو أن ندفع سواد أعيننا إلى الداخل ، وبياضها إلى الخارج وننظر مثل العميان لنبدو فقيرين حقيقيين ، مثل دراويش الطريقة القلندرية المتسولين . وفي هذا الوضع يتفرج الدرويش بطبيعته إلى العالم الذي في رأسه ، وليس إلى العالم الخارجي ، ولأن رأسينا مليئان بالأسرار فإن المنظر الداخلي أكثر إمتاعاً بكثير .

وجدنا المنظر الخارجي قد تخرب كثيراً ، لأن هنالك أفندياً شيخاً حسب ما سمعنا .

الرحمة! نخشى أن نفهم خطأ من قولنا أفندياً شيخاً . لقد فهم الأمر بشكل خاطئ في الأسبوع الماضي ، فكما الواعظ الأرضرومي ليس حضرة الشيخ نصرت ، فهو ليس الشيخ هصرت الذي لا تعرف قرعة أبيه ، وليس الشيخ السيواسي المتآمر مع الشيطان فوق غصن الشجرة ، لأن مفسري كل شيء بسوء قالوا إذا تطاول هذا الأفندي المدّاح بلسانه على حضرة الأفندي الشيخ ستقصّ لسانه ، ونهدم مقهاكم على رؤوسكم .

ولعدم وجود قهوة قبل مائة وعشرين سنة فإن الأفندي الشيخ الذي نحكي عنه كان يفور من فمه الزبد غضباً ، وكان يقول :

«لماذا ترسم هؤلاء أيها الكافر الأفرنجي ؟ إن رسم هؤلاء الأرذال

القلندريين السافلين المتجولين المتسولين متعاطي الحشيشة شاربي الخمر المتنايكين ، وكما يبدو من هيئتهم شبه العارية فهم دون صلاة أو دعاء ولا بيت لهم أو وطن ، إنه - رسمهم - بشاعة هذه الدنيا ؟ لماذا ترسم هذه البشاعة بينما لدينا في هذا البلد الجميل هذه الجماليات كلها ؟ هل من أجل الإساءة إلينا ؟

قال الكافر : «لا ، رسمي حالتكم الرذيلة هذه يحقق ربحاً أكبر» . ودهشنا لقوة التفكير لدى هذا النقاش الذي نقشنا نحن الدرويشين الجوالين .

وإذا كان الأفندي الشيخ قد حول الحوار بمكر بقوله : «إذا كان رسم الشيطان بشكل جميل يكسب أكثر فهل ترسمه ؟» فلم يعر النقاش الأفرنجي الأفندي الشيخ اهتماماً لأنه - وكما يُفهم من رسمنا هذا - فنانٌ كبير ، وركَّز تفكيره على الأسرار والنقود وليس على الضجيج . وضع الرسم المحفوظ في حافظة جلدية في إحدى فتحتي خرج حصانه وعاد إلى دولته الكافرة ، ولأن الجيش العثماني المظفر فتح تلك المدينة التي على ضفة نهر تونا ، وسلبها أتينا نحن عائدين إلى غرفة الخزينة في اسطنبول ومن هناك نسخنا ونسخنا ، ومن دفتر سري إلى كتاب آخر إلى أن أتينا إلى هذا المقهى السعيد الذي تشرب فيه قهوة تنعش الروح .

توضيح قصير في موضوع الرسم والموت ومكاننا في العالم

لقد تفضّل الأفندي الشيخ (القونيَوي) الذي ذكرناه قبل قليل في عظاته التي أمر بتدوينها وجمعها في كتاب ضخم بما يلي : إن القلندريين زيادة في هذا العالم ، لأن الناس فيه يقسمون إلى أربعة أصناف : ١- السادة . ٢- التجار . ٣- الفلاحون . ٤- الصناع . والقلندريون غير موجودين في أي

صنف من هذه الأصناف . إنهم في هذه الحالة زيادة .

كما تفضَل أيضاً : «إن هؤلاء دائماً يتجولون مثنى ، وكل مثنى يحملان ملعقة واحدة ، ويتجادلان حول من سيأكل من الماعون أولاً وهذا تلميح لجدال حول من سيبدأ بنيك الآخر . وهو أصل القضية ، والذين لا يعرفون هذا يضحكون» . رحمتكم! يجب ألا يساء فهمنا ، لقد فهم سرّنا لأننا مسافرا طريق واحد مع الغلمان الحلوين ومجموعة النقاشين وصبيانهم .

ولكن السر الأصلي هو :

عندما رسمنا الكافر الأفرنجي كان ينظر إلينا بانجذاب ، وبانتباه حتى إننا أحببناه ، وأحببنا أن يرسمنا ، لم نهتم لقيامه بعمل خاطئ مثل أن ينظر إلى العالم بعين مجردة ويرسم ما يراه ، وهكذا يرسم أمثالنا عمياناً ولكنهم في الحقيقة مبصرين . الآن نحن مسروران جداً . نحن بالنسبة إلى الأفندي الشيخ في جهنم ، وبالنسبة إلى بعض عديمي الإيمان جسدان متفسخان ، وبالنسبة إليكم أنتم جماعة النقاشين الأذكياء المجتمعين هنا فنحن رسم ، وما أجمل أن نكون هكذا كأننا أمامكم لأننا رسم . لأننا بعد أن التقينا الأفندي الشيخ المعلوم عبرنا الطريق من قونيه إلى سيواس ، وبعد أن قطعنا ثلاثة نُزُل وثمانية قرى متسولين ، داهمنا البرد والثلج في إحدى الليالي ، فالتففنا على بعضنا نحن الدراويش الجوالين ، ونمنا وتجمدنا ومتنا . وقبيل أن أموت رأيت في حلمي أنني رسمت ، وبعد أن عاش رسمي آلاف السنين ، رأيت أنه ذهب إلى الجنة .

* * *

٤١

أنا الأستاذ عثمان

في بخارى تروى حكاية تعود إلى زمن عبدالله خان . كان خان الأوزبك الشكاك جداً لا يعترض على مشاركة أكثر من قلم نقاش في رسم واحد ، ولكنه لا يحب أبداً أن ينظر النقاشون إلى صفحات بعضهم البعض ويقلدونها . وهذا لأنه عندما ترتكب جريمة بالخطوط فلا يمكن إيجاد المجرم بين النقاشين الذين يقلّدون بعضهم البعض بشكل سافر ، الأهم من هذا ، بدل أن يضغط النقاشون الذين يسرقون من بعضهم بعضاً على أنفسهم في البحث عن ذكريات الله وسط الظلام ، يعيدون بعد فترة بكسل رسم ما يرسم من بجانبهم مسترقين النظر من فوق كتفه . لهذا السبب عندما لجأ إليه معلما نقش عظيمان هرباً من الحروب والشاهات الظالمين أحدهما من شيراز في الجنوب ، والآخر من سمرقند في الشرق قابلهما خان الأوزبك بسرور ولكنه منع كلاً من هذين الماهرين الشهيرين رؤية رسوم الآخر ، وخصص لكل منهما غرفة نقش صغيرة في زاويتين من زوايا القصر هما الأبعد عن بعضهماالبعض . وكل من هذين النقاشين كان يستمع من عبدالله خان وعلى مدى سبع وثلاثين سنة وأربعة أشهر عن الصفحات التي رسمها الآخر ولم يرها ، وعن روعتها ، وعن الخصوصيات التي تختلف فيها ، والجوانب التي تتشابه بشكل غريب وكأن ما يسمعه أسطورة . وبلغ توقهما لرؤية رسوم بعضهما حدّ أخذ

الموت بعين الاعتبار . بعد أن عاش خان الأوزبك عمر سلحفاة ومات ، هرع النقاشان العجوزان إلى غرفتي بعضهما البعض من أجل أن يرى كل منهما رسوم الآخر ، وعندما وضعا الكتب في حضنيهما وتفرجا عليها لم تكن أسطورية كما في حكايات الخان التي استمعا إليها ، وبدت لهما دون خصوصية ودون ضوء ومعكرة مثل الرسوم التي رأياها في السنوات الأخيرة كلها . ولم يدرك المعلمان الكبيران أن سبب هذا التعكير هو ضعف بصرهما حتى عندما أصيبا بالعمى بعد فترة قصيرة ، واعتقدا جازمين أنهما خُدعا طوال حياتهما ، وماتا وهما مؤمنان بأن الخيال أجمل من الرسوم .

في غرفة الخزينة الباردة في منتصف الليل غدت صفحات الكتب التي حلمت بها على مدى أربعين سنة مثل الثلج ، وبينما كنت أقلّب هذه الصفحات صرت أكثر سعادة من أبطال هذه الحكاية البخارية الظالمة . كنت أنفعل كثيراً لرؤيتي بعض الكتب التي سمعت بأساطيرها على مدى حياتي قبل أن أعمى ، وعندما أراها أروع مما سمعت عنها في أساطيرها أتمتم قائلاً : «الشكر لله يا الله ، الشكر ، الشكر» .

مثلاً ، عبر الشاه إسماعيل النهر قبل ثمانين سنة واسترد بقوة السيف هرات وخراسان كلها من الأوزبكيين عندما ترك شقيقه سام ميرزا والياً على هرات ، أمر الشقيق بتحضير كتاب لمباركة هذه السعادة ، وأمر بتدوين ورسم كتاب (لقاء النجوم) الذي يحكي عن أسطورة مشابهة شهدها الأمير خسرو في قصر دلهي . أحد رسوم هذا الكتاب - بحسب ما سمعت من أسطورته - يعرض حاكمين يحتفلان بنصرهما ولقائهما على شاطئ نهر ، ووجها الحاكمين يشبهان سلطان دلهي كيكوبات ووالده بوغرا خان حاكم البنغال من جهة ، ويشبهان الشاه إسماعيل وشقيقه سام ميرزا الذي هو سبب الكتاب من جهة أخرى . عندما أرى حكاية أحفظها ، وأتفرج على رسومها ، وأصير

واثقاً من ظهور أبطالها لي في خزنة السلطان ، أشكر الله لأنه منحني فرصة رؤية تلك الصفحة المعجزة .

وفي رسم أنجزه الشيخ محمود أحد أساتذة ذلك العصر الأسطوري الكبار يصور فقيراً من الرعية وصل إعجابه وحبه لسلطانه إلى مرتبة العشق ينتظر الكرة التي يلعب فيها سلطانه بالعصا من فوق ظهر حصانه أن تتجه نحوه ، وبعد انتظار طويل تتجه نحوه ، فيلتقطها من الأرض ، ويقدمها لسلطانه . وحسب ما سمعت آلاف المرات فإن تعبير حب الفقير لخاقان عظيم أو لسلطان سلاطين معظم أو حب التلميذ الفتيّ والجميل لأستاذ كبير ، وإعجابه به ، واستسلامه بين يديه قد رسمت بمفهوم عميق ورهافة بدءاً من امتداد الأصابع الممسكة بالكرة ، ووصولاً إلى عدم استطاعته النظر في وجه سلطانه بحيث إن الناظر إلى هذه الصفحة يدرك أنه بقدر ما في عمل هؤلاء الصبية الجميلين والقنوعين من سعادة ، بقدر ما في عمل هؤلاء الصبية على خدمة معلم كبير ، واستسلامهم له إلى حد العبودية متعة وسعادة ، وهذا يكدِّر من لم يستطع نيل نصيبه من الحق .

بينما كنتُ أقلِّب الصفحات بسرعة موجهاً انتباهي كله إلى آلاف الطيور ، والخيول والجنود ، والعشاق ، والجمال ، والأشجار ، والسحاب كان قزم الخزينة السعيد مثل شاه سابق وجد فرصة عرض غناه يتباهى بشكل سافر وهو يخرج مجلدات جديدة من الصناديق ويضعها أمامي . وبين هذه الكتب الرائعة والمجلدات العادية والمرقعات الهجينة خرج من زاويتين مختلفتين لصندوق حديدي مجلدان رائعان أحدهما بلون الكرز الداكن مجلد بأسلوب شيراز ، والثاني مصبوغ بلون هراتي بتأثير صيني ، وكانا متشابهين إلى حد أنني اعتقدت في البداية أن أحدهما منسوخ عن الآخر . وبينما كنت أحاول استنتاج أيهما الأصل وأيهما النسخة دققت باسمي الخطاطين من

الكتابة ، وبحثت عن توقيع سرّي ، وفي نهاية الأمر وبشعور خائف أدركت أنهما الكتابان الأسطوريان اللذان عملهما الأستاذ الشيخ علي التبريزي عن شعر نظامي لجهان شاه حاكم ديار الغنم الأسود ، ولحسن الطويل خاقان ديار الغنم الأبيض بعد أن أنجز الأول فقأ شاه بلاد الغنم الأسود عينيه لكي لا يعمل مثيلاً له من أجل غيره ، وقام الأستاذ النقاش الكبير بعمل أفضل منه من ذاكرته لحسن من ديار الغنم الأبيض بعد أن لجأ إليه . رؤيتي أن ألوان المجلد الثاني من المجلدين الأسطوريين الذي عمله وهو أعمى أكثر بساطة وصفاء ، أما ألوان الأول فهي تضج بالحياة والحيوية ذكرتني أن ذكريات العميان تبرز تجريد حياتهم المؤلمة ، ولكنها تقتل الحيوية .

أعرف أنني معلم كبير ، وأن الله العلي الذي يرى كل شيء ويعرفه يرى هذا . وأعرف أنني سأعمى في يوم ما ، ولكن هل أريد هذا الآن ؟ ومثل محكوم إعدام يريد إلقاء نظرة أخيرة على منظر معين قبل أن يُقطع رأسه قلت لله العلي : «دعني أرى هذه الرسوم كلها ، وأملأ عيني بها» لأنني كنت أشعر بوجود الله عن قرب أكثر وسط الظلام المخيف والرائع لغرفة الخزينة المليئة بالأغراض .

في الصفحات التي أقلّبها برزت أمامي كثيراً أمثلةُ العمى وأساطيرد كحكمة من حكمه . في موقف خروج شيرين إلى البرية ورؤيتها رسم خسرو معلقاً على شجرة بلوط ، وعشقها له ، رسم الشيخ علي الشيرازي أوراق الشجرة واحدة واحدة بحيث تغطي السماء ، وجواباً على طرح مخبول حول أن شجرة البلوط ليست محور الموضوع ، ولإثبات أن الأساس في النقش ليس توق الفتاة الجميلة الشابة ، بل توق النقاش ، فقد حاول رسم شجرة البلوط نفسها وبأوراقها كلها على حبة أرز . بعد أن بدأ بسبعة أعوام وثلاثة أشهر عمي ولم يستطع الأستاذ الكبير إنجاز سوى حبة الأرز . لم يجعلني رسم

تلك الشجرة محتاراً ، ولا التوقيع الخجول الذي وقعه تحت أقدام نديمات شيرين الجميلات ، لتأكدي من أنني رأيت الشجرة الرائعة التي رسمها الأستاذ على الورق وهو أعمى . ظهر في صفحة أخرى موقف تسديد الاسكندر سهماً بشعبتين على عيني رستم وفقاً عينيه رسمه نقاشون رأوا أساليب ديار الهند . وقد رسم بألوان متعددة ومبهجة ليبدو أن العمى بداية مهرجان سعادة باعتباره الهم الأزلي للنقاش العظيم وإرادته السرية .

كنت أتفرج على هذه الرسوم والمجلدات التي سمعت أساطيرها على مدى سنوات طويلة بانفعال شخص تاق لرؤيتها بعينيه وبعجلة عجوز يشعر أنه بعد فترة قصيرة لن يستطيع رؤيتها أبداً . وفي غرفة الخزينة الباردة المظلمة الضارب لونها إلى الحمرة بتأثير لون الأقمشة والغبار والضوء الغريب المنبعث من الشمعدان عندما أطلق صوت إعجاب يأتي أحياناً قرة والقزم وينظران إلى الصفحة الرائعة التي أنظر إليها من فوق كتفي . ولا أستطيع ضبط نفسي ، فأبدأ بالشرح :

كنت أقول : «هذا الأحمر هو أحمر الأستاذ التبريزي الكبير (ميرزا بابا إمامي) الذي ذهب سرّه معه إلى القبر . لوّن فيه طرف هذه السجادة ، وشارة الشيعة المعلقة على طاقية الشاه الصفوي - انظرا - هنا في هذه الصفحة على بطن أسد ، وهنا قفطان صبي جميل . هذا اللون الأحمر الجميل الذي لم يُرِهِ الله لعباده بشكل مباشر سوى عند إراقة الدم ولكنه وضعه داخل دودة نادرة أخفاها بين الحجارة ، وعلى الإنسان أن يعمل ليجدها ، ولا يمكن رؤيته بالعين المجردة سوى على الأقمشة التي صنعها الإنسان وفي رسوم كبار المعلمين» . وأضفت : «الشكر لله لأنه جعلنا نراه الآن» .

بعد فترة طويلة قلت لهما غير مستطيع الإمساك بنفسي مرة أخرى : «انظر إلى هذا!» وفرّجتهما على رسم رائع يمكن من الدخول إلى أي كتاب

جميل يبدأ الحديث عن العشق والصداقة والربيع والسعادة . ونظرنا إلى أشجار الربيع المتفتحة بالألوان كلها ، وسرو الحدائق المشابهة للجنة ، وسعادة العشاق الجالسين في هذه الحدائق يشربون الخمرة ويلقون الشعر فصرنا نشمَ رائحة أزهار الربيع ونحسّ بنعومة بشرة العشاق السعداء وسط غرفة الخزينة الباردة التي تفوح منها رائحة العفن والغبار . قلت : «انظرا إلى أذرع هؤلاء العشاق وأقدامهم الجميلة الحافية . وظرافة وقفتهم ، وسعادة الطيور المرفرفة حولهم التي التقط قالبها النقاش ، وكثافة أشجار السرو في الخلف . هذا رسم لطفي البخاري الذي يترك رسومه دون إكمال بسبب مزاجيته وحدته ، والمختلف مع الشاهات والخانات كلهم باعتبارهم لا يفهمون بالرسم ، ولهذا لم يستطع الوقوف في أي مدينة . وبسبب خلافاته انتقل من قصر مدينة إلى أخرى ولم يجد هذا الأستاذ الكبير حاكماً يستحق العمل في كتابه ، وفي النهاية أعجب بنقش خانة سيد بسيط يحكم الجبال الجرداء قائلاً : بلد صغير ولكن يفهم في النقش . وقضى آخر خمسة وعشرين عاماً من حياته هناك . وحتى اليوم يُختلف حول خبر هل كان الخان البسيط أعمى أم لا ؟ ثم غدا موضوعاً للممازحة» .

وبعد منتصف الليل بكثير قلت : «هل تريان هذه الصفحة ؟» وهرع الإثنان هذه المرة حاملين الشمعدانات : «لقد غيّر هذا الكتاب عشرة أصحاب في انتقاله من هرات إلى هنا ، أي من زمن حفيد تيمور حتى الآن على مدى مائة وخمسين سنة» . وثلاثتنا قرأنا بواسطة عدستي المكبرة التواقيع والإهداءات ، والتأريخات التي ملأت زاوية صفحة الكتاب وتداخلت فيها أسماء السلاطين الذين أمسكوا بخناق بعضهم بعضاً في الحياة الحقيقية : «لقد أنهي هذا الكتاب بمشيئة الله على يد الخطاط سلطان ولي بن مظفّر الهراتي في سنة ثمانمائة وأربعين للهجرة من أجل عصمة الدنيا زوجة محمد

چوكي المظفّر شقيق بايسنغور حاكم العالم في هرات» بعد ذلك قرأت أن الكتاب انتقل إلى السلطان خليل من ديار الغنم الأبيض ، بعد ذلك إلى ابنه يعقوب بيك ، ومنه إلى سلاطين الأوزبك في الشمال وكل منهم استمتع فترة بالكتاب . فأخرج رسماً أو اثنين منه ، وأضاف واحداً أو اثنين وأضاف وجوه نسائه الجميلات وأمر بكتابة اسمه بغرور في صفحة الكتابة هذه إلى أن وصل إلى سام ميرزا شقيق الشاه إسماعيل الذي سيطر على هرات ، وهذا قدمه بإهداء جديد إلى شقيقه الأكبر ، وبعد أن تلقاه الشاه إسماعيل هدية ، وأمر بكتابة إهداء في زاويته انتصر عليه (جنة مكان السلطان الجبار سليم خان) في تشالدران ، وعندما سلب قصر (هشت بهشت) قطع جنود السلطان المظفر الصحارى والجبال والأنهار وجاء إلى غرفة الخزينة في اسطنبول .

كم شاركني قرة والقزم انتباهي وانفعالي أنا النقاش العجوز ؟ مع فتحي مجلدات جديدة وتقليبي صفحاتها شعرت بالكدر العميق لآلاف النقاشين الذين نقشوا في خدمة شاهات وخانات وسادة يختلفون بالمزاج والتصرف وأساليب الغدر . وشعرت بألم الضرب والصفع على الوجنتين بباطن المسطرة حتى تغدو حمراوين والضرب على رؤوسنا الحليقة بالصاقلة المرمرية عندما كنا تلاميذ . وأنا أقلّب صفحات كتاب بداني يعرض أدوات التعذيب وأساليبه . لا أدري ما الذي أتى بهذا الكتاب البائس إلى خزينة السلطان والذي يُقدم النقاشون عديمو الشرف على عمله باستعجال مقابل بضع ذهبيات من أجل الرحالة الكفار الذين يقدمون التعذيب لإثبات مدى غدرنا ، وليس باعتباره وسيلة اضطرارية تنفذ بإشراف القاضي لتحقيق عدالة الله في الأرض . ولكنني شعرت بالخجل من المتعة التي أحسست بها أن النقاش رسم فيها الفلقة ، والجَلد ، والصلب ، والشنق ، والتعليق من القدمين ، والتعليق بالكلابات ، والخوزقة ، وإدخال الشخص في فوهة المدفع وإطلاقه ، وغرز

المسامير . والتغطيس ، وقطع الرقاب . والتقديم للكلاب الجائعة . والجلد بالسوط ، والوضع في الكيس ، والعصر بالمنغنة ، والتغطيس في الماء البارد . واقتلاع الشعر ، وتكسير الأصابع ، وسلخ الجلد ، وجدع الأنف ، وفقأ العيون . النقاشون النخبة أمثالنا أيام كانوا تلاميذ متدربين والذين وضعوا تحت الفلقة ، وضربوا عشوائياً ، ولكموا بقبضات الأساتذة العصبيين للشعور بالراحة إثر خطهم خطأ خاطئاً ، وضربوا لساعات من أجل قتل شياطين دواخلهم وتحويلها إلى جان نقش كيف يمكن لهم أن يشعروا بحزن عميق لرسم الفلقة والتعذيب وتلوينها بألوان مفرحة مثل ألوان طائرة ورقية يلعب بها الأولاد ؟

شعوري بالذين سيتفرجون على عالمنا كما يتفرجون على رسومنا التي ننقشها في الكتب بعد عصور ، والذين يتفرجون من بعيد دون فهم الكثير ، ويريدون الاقتراب والفهم ولكنهم لا يبدون الصبر جعلني أخجل وأسعد وأنا أتفرج على الرسوم في غرفة الخزينة الباردة ، ولعل أولئك يشعرون بالألم العميق ومتعة البصر ولكنهم لا يستطيعون الفهم كاملاً . كانت الصفحات تتقلب بأصابعي المسنّة الفاقدة إحساسها من البرد تحت العدسة ذات المقبض الصدفي وعيني اليسرى مثل لقلق رحال يقطع العالم كلّه دون أن يتوه في المنظر الذي تحته . ولكن على الرغم من هذا أنظر بإعجاب قارناً بعض الأمور . وكنت أتعرّف من خلال الصفحات التي لم تعرض علينا على مدى هذه السنوات كلها وسمعتُ بأساطير بعضها على ما تعلمه نقاش ما وممن ، وفي أي نقش خانة ظهر ما يدعى الأسلوب أولاً وبرعاية أي شاه . وأي أستاذ أسطوري عمل في خدمة من ، وتعرفت مثلاً على انتشار الغيوم المتلوية تحت التأثير الصيني من هرات إلى بلاد العجم كلها واستخدامها في قزوين ، وإثر ذلك كنت أطلق آهاً متعبة لنفسي ، ولكن الألم الأعمق الذي أشعر به ،

والخجل الذي أشارككم إياه هو نسيان نقاشين كثيرين عانوا من تقارب عاطفي عندما كانوا صبياناً متدربين على يد معلم وجوههم قمرية ، وعيونهم عيون مها ، بعد أن تشاركوا بعشق للنقش دام سنوات .

لأنني نقشت على مدى سنوات رسوم الحرب والاحتفالات من أجل سلطاننا دخلت حالة الكدر والخجل هذه وعبرت إلى عالم الأحاسيس الظريفة والدقيقة ، والشعور بأن روحي تنسى بصمت ما يمكن رسمه . رأيت في كتاب مرقع ولداً عجيباً أحمر الشفتين ، نحيل الخصر جالساً وفي حضنه كتاب كما كنت أجلس في تلك اللحظة ، وتذكرت أن الشيء الذي نسيه الشاهات أصحاب عقدة السيطرة والذهب هو أن الجمال كله لله . تفرجت على رسم في كتاب مرقع لعاشقين شابين يضاهيان بعضهما البعض جمالاً رسمهما أستاذ أصفهاني شاب فتذكرت عشق تلاميذي الجميلين للنقش فدمعت عيناي . الفتاة الشابة كرزية الشفتين ، لوزية العينين ظريفة الأنف ، والشاب صغير القدمين شفاف البشرة ، نحيل ومتناسق الجسم شمَر باهتمام عن ذراعه الظريف الذي يدفع الإنسان إلى شهوة تقبيله والموت بعدها ، ولإثبات ارتباطه بالفتاة ، وقوة عشقه يشعله حارقاً نفسه وهو ينظر إلى إشارات عشق ثلاث عملها بإعجاب كأنه ينظر إلى ثلاث زهرات .

تسارعت ضربات قلبي بشكل عجيب . تفرجت على الرسوم القليلة الأدب للحسناوات ذوات البشرة المرمرية ، والصبيان ، والفتيات النحيلات ذوات الأثداء الصغيرة التبريزية المصدر كما تفرجت عليها لأول مرة قبل ستين سنة فتشكلت قطرات عرق على جبهتي . تذكرت عمق إحساسي ، وعشق النقش المتأجج لدي عندما خطوت الخطوة الأولى نحو المعلمية ، وبعد زواجي بعدة سنوات وعندما نظرت إلى وجه غلام جميل ملائكي الوجه ، لوزي العينين ، وردي البشرة جُلبَ إلى النقش خانة تلميذاً مرشحاً . فجأة

شعرتُ بقوة أن مهارة النقاش المعلم تحوّل الإرادة إلى عشق لله ، بعد ذلك يتحول عشق الله إلى عشق العالم الذي يراه الله كما شعرت بإحساس سعادة الانتصار وليس الخجل والكدر إزاء ما نلته من ضرب لتعلمي الفن ، وإصراري على العمى في سبيل النقش ، وآلامي التي شعرت وأشعر بها . نظرت مطولاً جداً وصامتاً إلى ذلك الرسم الرائع وكأنني أنظر إلى مكان محرَم . بعد طويل من الوقت وأنا أتفرج عليه ذرفت قطرة دمع من عيني وسالت على خدي ، وتداخلت مع لحيتي .

عندما شعرت بمسير بطيء في غرفة الخزينة واقتراب شمعدان مني رفعتُ المرقع ، وتناولتُ أحد المجلدات التي تركها القزم بجانبي ، وفتحته لا على التعيين . وهذا أيضاً مرقعُ حُضَر خصيصاً للشاهات . ثمة غزالان عاشقان واقفان على ضفة نهر تنظر إليهما بنات آوى بعداء وغيرة . قلبتُ الصفحة . رأيت خيولاً كميتية اللون صافية لا يستطيع رسمها سوى أساتذة هرات القدماء . كم هي جميلة! . قلبت الصفحة . رأيت رسم أفندي كاتب جالساً بثقة . إنه رسم عمره سبعون سنة . ولا يمكنني استنتاج من يكون أصلاً من وجهه لأنه يشبه الجميع . كنت سأقول إن جو الرسم العام وتلوين اللحية بعدة ألوان ذكرتني ببعض الأشياء . بدأ قلبي يخفق بسرعة . لقد تعرفت على اليد الرائعة التي أنجزت الرسم ، وشعر قلبي بهذا قبلي . لا يمكن إلا ليد كتلك أن تنجز رسماً بهذا الجمال . الرسم للأستاذ الكبير بهزاد . كأن ضوءاً تفجّر من الرسم ساقطاً على وجهي .

كنت قد رأيتُ عدة مرات رسوماً أنجزها الأستاذ الكبير بهزاد ولكن لم ترف أجفاني كما الآن ، ولعل هذا حدث لأنني لم أكن وحدي مع تلك الرسوم ، وتفرّجت عليها مع الأساتذة القدماء قبل سنين طويلة ، أو لأننا لم نتأكد من أن تلك الرسوم لبهزاد .

كأن ظلمة غرفة الخزينة الثقيلة ذات رائحة العفن قد أنيرت . تتوحد هذه اليد الجميلة المرسومة مع الذراع ذي إشارات العشق الظريف الرائع الذي رأيته قبل قليل . شكرت الله لأنه منحني رؤية هذا الجمال قبل أن أصاب بالعمى . من أين لي معرفة أنني سأعمى عما قريب ؟ لا أعرف! في لحظة شعرت أنني سأقول هذا لقرة المندس بجانبي حاملاً الشمعدان وناظراً إلى الصفحة التي أنظر إليها ، ولكن انزلق كلام آخر عن لساني .

قلتُ : «انظر إلى جمال اليد! إنها لبهزاد» .

أمسكتْ يدي تلقائياً يد قرة وكأنها تمسك يد أحد الأولاد المتعلمين الحلوين الناعمين ذوي البشرة المخملية الذين أحببتهم واحداً واحداً . كانت يده سليمة ومتوازنة وأكثر حرارة من يدي . أعجبني جانب العروق عند التقاء الكف بالذراع في منطقة المعصم ، هي دقيقة وواسعة . في فترة شبابي عندما كنت أمسك يد ولد تلميذ في راحة كفي لأعلمه كيف يمسك الفرشاة أنظر إلى عينيه الجميلتين بحب . وهكذا نظرتُ إلى قرة . رأيت شعلات شمعات الشمعدان الذي يحمله قرة بيده في بؤبؤ عينيه . قلت : «نحن النقاشين جميعاً أخوة ، ولكن الآن ينتهي كل شيء» .

«كيف ؟» .

وكما يتحدث معلم كبير قضى عمره في خدمة خاقان أو أمير وأنجز في نقش خانته روائع على طريقة الأساتذة القدماء ، وحتى إنه ساهم بتكوين أسلوب للنقش خانة التي يعمل فيها يقول : «الآن ينتهي كل شيء» . عندما يخسر راعيه الحروب كلها ويدخل جنود العدو السالبين كل شيء ومن خلفهم يدخل سادته الجدد ، ويعرف أنهم سيعبثون بنقش خانته ، وأنه ستنزع جلود الكتب ، وتخلط الصفحات ويخرّب كل شيء يؤمن به في النقش ويحبه كأنه اكتشافه أو ولده ، ويهتك كل شيء باستهانة ويريد أن يعمى قلت تلك

العبارة ، ولكن كان عليَ أن أشرح هذا لقرة بطريقة مختلفة .

قلتُ : «هذا رسم الشاعر عبدالله هاتفي . وهاتفي شاعر كبير إلى حد أنه لم يتحرك من مكانه عندما كان الجميع يتهافتون من أجل مراءاة الشاه إسماعيل إثر دخوله إلى هرات . وذهب الشاه إسماعيل إلى موطئ قدمه في بيته الواقع خارج المدينة . ونفهم أن هذا رَسْمُ هاتفي ليس من ملامح الوجه بل من الكتابة التي تحته ، أليس كذلك ؟ » .

نظر إليّ قرة بعينيه الجميلتين قائلاً : « نعم » . قلتُ : « عندما ننظر إلى وجه الشاعر المرسوم نرى أنه مثل أي وجه آخر . لو كان المرحوم عبد الله هاتفي حياً لما استطعنا تشخيص وجهه من الرسم . ولكننا نستطيع عمل هذا من الرسم عموماً . ثمة أمر في جو الرسم العام وفي وقفة هاتفي وألوانه وتذهيبه وفي تلك اليد الجميلة التي رسمها الأستاذ بهزاد يجعل العقل يدرك فوراً أن هذا الرسم رسم شاعر . لأن المعنى في رسمنا يأتي قبل الصورة . عندما يُبدأ بالرسم على الطريقة الأفرنجية والإيطالية كما في الكتاب الذي أوصى عليه حضرة سلطاننا زوج خالتك فسيذهب عالم المعنى ويبدأ عالم الصورة وفق الأسلوب الأفرنجي » .

قال قرة بفظاظة : «المرحوم زوج خالتي قُتل» .

داعبت يد قرة التي أُمسكها براحة كفي باحترام وكأنها يد تلميذ صغير مرشحة لرسم روائع في المستقبل . وقضينا فترة ننظر إلى رائعة بهزاد صامتين . بعد ذلك سحب قرة يده من يدي .

قال : « لقد مررنا على رسوم الخيول الكميتة السابقة بسرعة دون التدقيق في أنوفها » .

قلتُ : « ليس ثمة شيء » وقلبتُ على الصفحة السابقة ليراها : ليس ثمة ما هو غير عادي في مناخر الخيل .

سأل قرة مثل طفل : «متى سنجد الخيول ذات المناخر العجيبة ؟» .

في وقت بين منتصف الليل والصباح . عندما وجدنا شاه نامة الشاه طهماسب الأسطورية في صندوق حديدي تحت الأقمشة الحريرية والأطلس الأخضر كان قرة متمدداً على سجادة (أوشاقية)(*) حمراء واضعاً رأسه على مخدة مخملية مشغولة باللؤلؤ نائماً . أما أنا عند رؤيتي الكتاب الأسطوري مجدداً بعد سنوات طويلة فهمت أن النهار يبدأ فوراً بالنسبة إليَ .

كان الكتاب كبيراً وثقيلاً بحيث حملناه بصعوبة ، القزم وأنا . عندما لمست جلده الذي رأيته من بعيد قبل خمسة عشرين عاماً فهمت أن داخل الجلد خشباً . قبل خمســة وعشرين عاماً عندما مات السلطان سليمان القانوني فرح الشاه طهماسب معتقداً أنه انتهى إلى خلاصه من هذا السلطان الذي احتل تبريز ثلاث مرات فأرسل هدايا تساوي أحمال جمال ، إضافة إلى قرآن كريم رائع وهذا الكتاب الأثمن في خزينته . بدايةً ، ذهب الكتاب مع هيئة السفراء العجم البالغة ثلاثمائة شخصٍ إلى أدرنة التي يقضي فيها السلطان الجديد المتزوج للتو شتاءه ، ثم عاد إلى اسطنبول مع الهدايا الأخرى المحملة على ظهور الجمال والبغال ، وعندئذ ذهبنا نحن ثلاثة أساتذة شباب مع كبير النقاشين (قرة ممي) للفرجة على الكتاب . وفي ذلك اليوم الذي ذهبنا إلى القصر كما يذهب الاسطنبوليون للفرجة على فيل مجلوب من الهند أو زرافة مجلوبة من أفريقيا ، وقد سمعت عندئذ من الأستاذ قرة ممي أن الأستاذ الكبير بهزاد ذهب عندما كان عجوزاً من هرات إلى تبريز ، ولكنه لم يلمس الكتاب بيده لأنه كان أعمى .

في ذلك الوقت كنا نحن النقاشين العثمانيين ننظر بدهشة إلى كتاب

---

* نسبة إلى مدينة أوشاق في تركيا الآن .

عادي ذي سبعة أو ثمانية رسوم ، والفرجة على كتاب ضخم بمائتين وخمسين رسماً بالنسبة إلينا يشبه التجول في قصر رائع بينما الجميع نيام . وتفرجنا على صفحات الكتاب الغنية بشكل لا يصدق بخشوع كما نتفرج على حدائق الجنة بعد فترة صمت قصيرة إثر ظهور معجزة .

وبعد إقفال الخزينة على الكتاب تحدثنا عنه على مدى خمسة وعشرين عاماً .

بعد خمسة وعشرين عاماً فتحتُ غلاف كتاب الشاه نامة الأسطوري بصمت كما أفتح باب قصر كبير ، ولكن مع تقليب كل صفحة من صفحاته التي يحدث قلبها صوتاً ، يتأجج في داخلي شعور بالإعجاب .

١- لم أنتبه كثيراً إلى الرسوم بسبب الحكايات التي تقول إن نقاشي إسطنبول الكبار كلهم سرقوا بعض صفحات هذا الكتاب واستخدموها .

٢- لم أستطع منع نفسي من توجيه انتباهي آملاً أن أجد يداً رسمها بهزاد في زاوية من زوايا روائع الكتاب الظاهرة في خمسة أو ستة رسوم من رسومه (في أثناء السلام فيما بعد كان يُنزل طهمورث هراوته ذات الرأس الغليظ على رؤوس الشياطين والمردة التي علمته الأبجدية واليونانية ومختلف اللغات ، هذا الضرب يجمع ما بين التصميم والظرافة) .

٣- مناخر الخيل ، ووجود قرة والقزم أعاقني عن إعطاء نفسي كاملاً لما أراه .

بقدر ما تكون رؤية الكتاب والتملي منه عطاء كريماً من الله فإن الفرجة عليه - بعقلي أكثر من قلبي طبعاً - يكدرني في هذه الفرصة التي منحني إياها الله قبل اقتراب الظلام ونزول الستارة المخملية التي هي عطاء من الله لكبار النقاشين كلهم . وحتى وصل ضوء الصباح إلى غرفة الخزينة التي تشبه قبراً بارداً رأيت رسوم الكتاب المائتين والتسعة والخمسين رسماً (ليست

مائتين وخمسين) نظرت بعقلي ، وبحثت أيضاً بعقلي مثل عالم عربي متعلق بموضوع العقل ، وأقول :

١- لم أصادف حصاناً يشبه منخره منخر الحصان الذي رسمه القاتل السافل في الخيول الملونة التي صادفها رستم عندما كان يلاحق لصوص الخيول في طوران ، وفي الخيول الرائعة التي عبرت نهر دجلة سابحة مع الشاه فريدون عندما لم يعط الإذن لسلطان العرب ، والخيول الشهب الحزينة التي تتفرج من بعيد على (طور) وهو يقطع رأس (آرش) بغدر وخيانة لأنه يغار من أخيه الأصغر الموجود لديه بعد أن ترك أبوه أحد أولاده في دولة الروم والثاني في دولة أبعد وهي دولة الصين . والأصغر في إيران الدولة الأجمل لدى (آرش) وفي خيول جيش الاسكندر البطل بدروعه وتروسه الحديدية وسيوفه التي لا تكسر ، وخوذاته البراقة ، الاسكندر المدعوم من قبل الخزريين والمصريين والبربر والتازييّن ، وفي الحصان الأسطوري الذي قتله الشاه (يزدجرد) بعدالة إلهية دون توقع عند شاطئ البحيرة الخضراء التي شفته بمائها الشافي بعد أن كان أنفه ينزف دون انقطاع لتمرده بقدر ما رسم الله له قدره ، وفي مئات الخيول الأسطورية والحقيقية التي رسمها ستة أو سبعة نقاشين ، ولكن لديّ أكثر من يوم لرؤية الكتب الأخرى في الخزينة .

٢- على مدى الخمسة وعشرين عاماً الأخيرة ثمة ادعاء شائع بين النقاشين وهو أن أحد النقاشين دخل غرفة الخزينة بإذن خاص من السلطان ووجد هذا الكتاب وفتحه وفي ضوء الشمع نسخ على دفتره الخاص كثيراً من الخيول والأشجار والغيوم ، والعصافير ، والطيور والحدائق ومشاهد الحرب والعشق وبدأ بعد ذلك الاستفادة منها . . . وعندما يرسم نقّاش شيئاً رائعاً أو أكثر من رائع يقول عنه الآخرون الذين يغارون منه إنه الذي نسخ الكتاب . وأحياناً يقال من باب الاستصغار : إنه من تبريز ، عمل عجمي . لم

تكن تبريز في ذلك الوقت من بلاد سلطاننا . وعندما يفترى عليَ بهذا الافتراء أشعر بغضب محق وغرور سريّ . كما أنني صدّقت هذا فيما مضى عندما قيل عن غيري . والآن رأيت وبشكل غريب أننا نحن النقاشين الأربعة الذين رأينا الكتاب مرة واحدة قبل خمسة وعشرين عاماً قد نقش في ذاكرتنا ، ونتذكر رسومه طوال هذه الفترة ونحن نغيّرها وندخلها الكتب التي ننقشها لسلطاننا وتكدرت لهذا . وسبب كدري هو ليس عدم وضع السلاطين الواثقين هذا الكتاب وغيره من كتب الخزينة بين أيدينا ، بل مدى محدودية عالمنا نحن النقاشين . لقد نقش نقاشو العجم ، أولئك الأساتذة الهراتيون الكبار ، أو الأساتذة التبريزيون الجدد ، نقوشاً أكمل من نقشنا نحن النقاشين العثمانيين ، وأكثر روعة .

فكرتُ برهة أن تعذيب النقاشين كافة ومعهم أنا أمر جيد ، وحفرتُ برأس المبراة عينيَ أول وجه وقع نظري عليه في الرسم الذي أمامي . كانت تلك فرجةَ العالم العجمي على رقعة الشطرنج ذات المربعات وأحجاره وتغلبه على السفير الهندي الذي جلب الرقعة والأحجار فور تعلّمه تلك اللعبة! إنها كذبة عجمية . حفرت عيون لاعبي الشطرنج والمتفرجين على اللعبة من الشاه إلى رجاله كلهم . قلبت الصفحات إلى الخلف وحفرتُ بقسوة عيون الشاهات المتحاربين والجنود الاستعراضيين وسط الدروع والرؤوس المقطوعة في الأرض . بعد أن عملت هذا في ثلاث صفحات دسست مبراتي في حزامي .

كانت يداي ترتجفان ولكنني لم أشعر بنفسي أنني في وضع سيئ جداً . هل أفهم الآن ما يدركه المجذوب الذي يقوم بهذا العمل الذي صادفته كثيراً على مدى خمسين عاماً من حياتي في النقش ؟ كنت أريد أن يسيل الدم من العيون التي حفرتها .

٣- هذا يقودني إلى ألم نهاية عمري وسلوانه . لم يلمس قلم بهزاد

العظيم هذا الكتاب الجميل الذي جعل الشاه طهماسب أمهر نقاشي العجم ينجزونه على مدى عشر سنوات ، ولم ترسم يداه الجميلتان تلكما في أي مكان . وهذا يثبت أنه كان أعمى عندما فقد أهميته لدى الآخرين وخرج من هرات إلى تبريز . عندئذ فهمتُ مرة أخرى أن المعلم العظيم أعمى نفسه عندما وصل إلى كمال الأساتذة القدماء نتيجة عمل قضى فيه عمره كله لكي لا يتدخل في أي نقش خانة أو إرادة شاه .

في تلك اللحظة وضع قرة والقزم أمامي مجلداً سميكاً وفتحاه .

قلتُ دون إظهار فظاظة : «لا ليس هذا . هذا كتاب شاه نامة مغولي : عندما ملأ الاسكندر فرسانه الحديديين وخيوله بالحقد وأضرم فيها النار احترقت مثل المصابيح ، وانبثقت النار من مناخرها وهاجمت العدو» .

تفرجنا على ذلك الرسم للجيش الحديدي وسط النيران - المسروق من الرسوم الصينية .

قلتُ : «يا جزمي آغا ، نحن رسمنا فيما بعد في كتاب سليم نامة هدايا سفير العجم الذي جلب كتاب الشاه طهماسب هذا قبل خمسة وعشرين عاماً» .

وجد كتاب سليم نامة فوراً ووضعه أمامي . وأمام الصفحة ذات الألوان الحية التي تعرض تقديم السفير الشاه نامة مع بقية الهدايا للمرحوم السلطان سليم وجدت عيناي تلقائياً الكتابة التي قرأتها بين أسماء الهدايا المذكورة واحدة واحدة ، والتي كأنني نسيتها لعدم تصديقي لها :

المغرز الذهبي ذو المقبض الفيروزي والصدف المنقوش الذي
استخدمه الأستاذ النقاش أستاذ أساتذة هرات القدماء
ومعلميها بهزاد في فقئ عينيه .

سألت القزم عن مكان إيجاده مجلّد سليم نامة . سرنا وسط الظلام المغبر لغرفة الخزينة بين كومات القماش والسجاد والصناديق والخزائن متلوين تحت السلالم . رأيتُ ظلالنا التي تكبر تارة وتصغر أخرى تمر فوق التروس وعاج الفيل وفراء النمور . في إحدى غرف الخزينة الأخرى الغارقة بلون القماش والمخمل الأحمر نفسه ، وبجانب الصندوق الحديدي الذي وجدنا فيه الشاه نامة ووسط كتب أخرى وأغطية مطرزة بخيوط الذهب والفضة والخناجر المرصعة بالأحجار السيلانية والياقوت ، وبعض الهدايا التي أرسلها الشاه طهماسب والسجادات الحريرية الأصفهانية رأيت مجموعة شطرنج العاج . انتبهت إلى علبة أقلام عليها تنينات وأغصان وتلبيس صدف على شكل شمسية عرفتُ فوراً أنها تعود إلى عصور تيمور . فتحتُ الصندوق فظهر فيه مغرز ذهبي مقبضه من الفيروز والصدف مع فوحان رائحة ورق محروق وورد . أخذت المغرز وعدت إلى مكاني كظل .

عندما بقيت وحدي وضعت المغرز الذي أعمى به نفسه الأستاذ بهزاد فوق صفحة الشاه نامة المفتوحة ونظرت إليه . ليس بهزاد فقط ما كان يشعرني بقشعريرة بل المغرز الذي أعمى به نفسه ، وكل ما أمسكته يده الإعجازية .

لماذا أرسل الشاه طهماسب هذا المغرز المخيف مع الكتاب الهدية إلى السلطان سليم ؟ هل لأن الشاه تلقى دروساً في النقش على يد بهزاد ، وفي شبابه وضع النقاشين على الراحات ، وعندما تقدم في السن أبعد عنه الشعراء والرسامين وأسلم نفسه للعبادة ؟ وهل هذا هو السبب الذي جعله يتخلى عن الكتاب الرائع الذي عمل فيه أكبر الأساتذة على مدى عشر سنوات ؟ أو أنه أرسل هذا المغرز مع الكتاب للإعلان أمام الجميع أن العمى الطوعي هو نهاية النقاش المعلم ؟ أم ليقول حسب ما يروى إن من يرى صفحات هذا الكتاب

الأسطوري لا يريد رؤية شيء آخر في هذا العالم ؟ ولكن لم يعد هذا الكتاب رائعة بالنسبة إلى الشاه الذي عمل ما عمله كثير من الشاهات عندما يتقدمون في السن إذ يشعرون بالندم خوفاً من الحرام الذي ارتكبه في شبابه بحب الرسم .

تذكرتُ الحكايات التي يرويها النقاشون التعساء المصابون بخيبة أمل عند تقدمهم في السن : عندما كانت جيوش جهان شاه حاكم ديار الغنم الأسود على وشك الدخول إلى شيراز ، قال كبير النقاشين الأسطوري ابن حسام : «أنا لا أنقش بطريقة أخرى» وجعل تلميذه يفقأ عينيه . وعندما تغلبت جيوش السلطان سليم الجبار على الشاه إسماعيل ودخلت تبريز وسلبت قصر (هشت بهشت) كان بين النقاشين الذين سيقوا إلى اسطنبول معلم عجمي مسنّ ، ويقال إن هذا النقاش لم يمت نتيجة المرض في الطريق ، بل يقال إنه أعمى نفسه بالأدوية قائلاً : «إنني لا أنقش بالأسلوب العثماني» . أنا الذي كنت أحكي لنقاشيَ عن عمى بهزاد لنفسه في لحظات الغضب لتكون مثالاً لهم .

ألا يمكن أن يكون هنالك خيار آخر ؟ ألا يمكن للأستاذ النقاش أن يعجب ببعض جوانب الأساليب وأطرافها ، ويخلّص ولو قليلاً نقش خانة بكاملها ، وأسلوب المعلمين القدماء ؟

ثمة اسوداد في رأس المغرز المدبب بشكل ظريف جداً ، ولكنني بعينيَّ المتعبتين لم أستطع استنتاج ما إذا كان هذا دماً أو شيئاً آخر . قريب عدستي وتفرجت مطولاً على الإبرة وكأنني أتفرج على موقف عشق حزين وبالحزن نفسه . حاولت تخيّل كيف يمكن أن يكون بهزاد قد عمل هذا الشيء . يقولون إن الإنسان لا يعمى بسرعة بل مثل الذين يتقدمون بالسن الذين عموا تلقائياً إذ يسدل الظلام المخملي ببطء خلال أيام أو شهور .

في أثناء عبوري إلى الغرفة الأخرى رأيتها . نهضت ونظرت إليها ، كانت هناك مرآة ذات مقبض مبروم وإطار أبنوسي غليظ مشغول بالعاج كالأزهار بكتابة طولية . جلست مكاني وبدأت أتفرج على عيني . كم كان جميلاً تراقص لهب الشمعدان الذهبي على بؤبؤي عيني اللذين نقشا وتفرّجا على النقش طوال ستين عاماً .

سألت نفسي مرة أخرى بإرادة قوية : كيف عمل الأستاذ بهزاد يا ترى ؟

ودون تحريك بؤبؤي عيني عن المرآة تناولتُ يدي المغرز بتلقائية امرأة تتناول ميل المكحلة ، وبجرأة وسكينة وقوة أدخلت المغرز في بؤبؤ عيني اليمنى كما تثقب بيضة نعام ستنقش دون تردد . شعرتُ بانسحاق في قلبي لا لأنني أحسست بما أفعله بل لأنني رأيته . أدخلت المغرز في عيني بمقدار ربع إصبع وأخرجته .

في بيت الشعر المرصع به إطار المرآة التي بيدي يتمنى الشاعر للناظر في المرآة جمالاً لا متناهياً ، وضوءاً لا متناهياً ، وللمرآة عمراً لا متناهياً .

عملتُ العمل نفسه لعيني الأخرى وأنا أبتسم .

توقفتُ فترة طويلة دون أن أتحرك . تفرجت على العالم ، على كل شيء .

لم تسودّ ألوان العالم كما اعتقدت ، بل بدت كأنها متداخلة بشكل خفيف . ولكنني ما زلت أرى كل شيء تقريباً .

بعد قليل وقعت أشعة الشمس الذابلة على الأحمر الداكن لغرفة الخزينة وإلى ما بين الأقمشة الحمراء بلون الدم . نزع الخزندار الأكبر ورجاله المهر بالمراسم نفسها ، وفتحوا القفل والباب . بدّل جزمي آغا المقعدات والمصابيح والمنقل ، وأخذ خبزاً طازجاً وتوتاً مجففاً وقال إننا سنستمر بالبحث عن

مناخر الخيول العجيبة في كتب سلطاننا . ماذا يمكن أن يكون هنالك أجمل من العمل على تذكر العالم الذي رآه الله بالنظر إلى أجمل رسوم العالم ؟

* * *

٥٦

اسمي قرة

عندما فتح الخزندار الأكبر والأغوات الباب حسب المراسم صباحاً كانت عيناي قد اعتادتا على لون المخمل الأحمر لغرفة الخزينة . بدا لي ضوء الصباح الشتوي المنبعث من باحة بناء العرش كشيء مخيف عُمل من أجل مخاتلة النظر إليه . لم أتحرك من حيث أنا كالأستاذ عثمان تماماً : كأن هواء غرف الخزينة العفن والمغبّر ، والممكن القبض عليه سيهرب مع الأدلة التي نبحث عنها إذا تحرّكتُ .

كان الأستاذ عثمان ينظر إلى الضوء المنبعث من بين رؤوس صفي أغوات الخزينة المصطفين بجانب الباب المفتوح بإعجاب غريب كأنه ينظر إلى شيء رائع يراه أول مرة .

كنتُ أتأمله بدقة ليلاً وهو يتفرج على الرسوم مقلباً صفحات شاه نامة الشاه طهماسب ، ورأيت تعبير الدهشة على وجهه يظهر نفسه أحياناً ، ويرتجف ظله الساقط على الجدار بشكل خفيف جداً أحياناً ، ويقرّب رأسه من العدسة التي يمسكها بيده ويُظهر على شفتيه تعبيراً خفيفاً ممتعاً كأنهما تتهيأان للبوح بسرٍ أحياناً ، بعد ذلك تتحرك شفتاه تلقائياً وهو ينظر إلى رسم بإعجاب .

بعد إغلاق الباب ذرعت الغرف بنفاذ صبر وسط قلق متزايد باستمرار .

فكرت أننا لن نحصل على المعلومات الكافية من الكتب التي في الخزينة ، وأن الزمن الممنوح لنا لن يكفي . ولشعوري بأن الأستاذ عثمان لم يوجه انتباهه كفاية شرحت له مخاوفي .

وكمعلم حقيقي اعتاد على مداعبة تلاميذه أمسك يدي بشكل لطيف ، وقال : «ليس أمام أمثالنا سوى العمل على رؤية العالم بالعين الإلهية ، واللجوء إلى عدالة الله . وأشعر في أعماق قلبي أن هذين الأمرين يقربان بعضهما إلى بعض هنا بين هذه الرسوم والأغراض . كلما اقتربنا من رؤية العالم بالعين الإلهية فإن عدالته تقترب منا . انظر إلى الإبرة التي أعمى نفسه بها الأستاذ بهزاد » .

وبينما كان يحكي لي الحكاية المؤلمة لتلك الإبرة نظرت إلى الرأس الحاد جداً لذلك الشيء المزعج الذي قرّب منه العدسة لأراه بشكل أفضل وهو تحتها ، وهنالك رأيت رطوبة وردية .

قال الأستاذ عثمان : «جعل الأساتذة القدماء من تغيير مهاراتهم وألوانهم وأساليبهم التي وهبوا عمرهم لها قضية وجدانية كبرى ، واعتبروا الذين يرون العالم في يوم كما يراه شاه في الشرق ، وفي يوم آخر كما يراه حاكم في الغرب كأساتذة اليوم دون شرف» .

لم تكن عيناه تنظران إلى عيني ولا إلى الصفحة التي أمامه . كأنهما تنظران إلى بياض في مكان خلفي بعيد إلى حد لا يمكن الوصول إليه في صفحة الشاه نامة التي أمامنا والتي ظهر فيها جيشا إيران وطوران تداخلا بكل قوتهما ، وبينما تتعارك الخيول كتفاً إلى كتف تخترق حراب الفرسان الدروع وتقطع الأجساد ، تناثرت على الأرض الرؤوس والأذرع المقطعة والأجساد المشطورة إلى شطرين ، واستل المقاتلون الأبطال المسعورون سيوفهم بمتعة احتفال وألوانه يقتلون بعضهم بعضاً .

«لكي لا يأخذ الأساتذة الكبار أسلوب المنتصرين . ولا يجبرون على تقليد نقاشي المنتصرين يعمون أنفسهم بإقدام بإبرة . وقبل هذا يتأملون لساعات أو لأيام دون حركة صفحة رائعة يضعونها أمامهم قبل أن ينزل الظلام الصافي أمام عيونهم بمثابة مكافأة . ولأنهم لا يرفعون رؤوسهم لساعات طويلة فإن هذه الرسوم التي تبقّع بقطرات الدم تتخذ مكان العمى الذي يعيشونه ، إذ تتعكر في نظرهم وسط نعومة الاتجاه نحو العمى بحلاوة . أي سعادة تلك ؟! هل تعرفون أي رسم أريد رؤيته في طريقي إلى ظلام العمى ؟» .

تركزت نظرات عينيه اللتين يبدو على حدقتيهما أنهما تصغران وأن بياضيهما يكبران على مكان بعيد كأنه خارج غرف الخزينة كما يفعل الذين يتذكرون حادثة طفولية .

«الموقف الذي ينقش بأسلوب الأساتذة الهراتيين القدماء لمجيء خسرو إلى أسفل قصر شيرين وانتظاره لها وهو يتحرق عشقاً» .

لعله كان سيشرح ذلك الرسم بأداء شعري حزين ، وعن اعتبار الأساتذة القدماء العمى مصدرَ فخرٍ . فقاطعته بكلام واخز غريب قائلاً : «يا سيدي وأستاذي الكبير ، ما أريد رؤيته دائماً أنا هو الوجه الظريف لزوجتي العزيزة ، مضى على زواجي منها ثلاثة أيام . لقد فكرت فيها بشوق على مدى اثنتي عشرة سنة . والنظر إلى رسم شيرين يذكرني بها دائماً» .

لعله ثمة فضول لم يستطع الأستاذ عثمان إخفاءه تحت عبء التعابير ، ولكن لم يكن هذا الفضول لحكايتي أو للمشهد الحربي الذي أمامه . كأنه ينتظر بشارة ستقترب منه ببطء . عندما صرت واثقاً من عدم رؤيته لي اختطفت المغرز الذي أمامه ، وابتعدت مسرعاً .

في الغرفة الثالثة من غرف الخزينة ، تلك المحاذية للحمّام ، وفي مكان

مظلم منها ثمة زاوية تشكلت من مئات الساعات الغربية والكبيرة المهداة من ملوك وحكام الأفرنج ملقاة هناك بعد أن خربت خلال فترة قصيرة . ذهبت إلى هناك ونظرت بانتباه شديد إلى الإبرة التي قال الأستاذ عثمان إن بهزاد أعمى نفسه بها .

في ضوء النهار الأحمر المنعكس على إطارات الساعات المغبرة الخربة الذهبية وأغطيتها الزجاجية وماسها كان رأس الإبرة الذهبي المغطى بسائل وردي يتلامع . هل أعمى الأستاذ بهزاد عينيه بهذه الأداة حقيقة ؟ هل عمل الأستاذ عثمان لنفسه العمل المريع الذي أقدم عليه بهزاد ؟ كأن المغربي الخنزير المعلق في آلة إحدى الساعات والملون بألوان كثيرة جداً وهو بطول إصبع قال لي بنظراته : « نعم » . لعل هذا الرجل بطربوشه العثماني هو ممازحة الساعاتي الماهر لملك هابسبورغ الذي أهدى الساعة يهز رأسه حسب الوقت مسلياً سلطاننا . ونساءه في الحرم عندما كانت الساعة تعمل .

قلبتُ عدداً كبيراً من الكتب العادية : حسب قول القزم فإن هذه الكتب هي بين الأموال والأملاك المصادرة للباشاوات الذين قطعت رؤوسهم . لقد شنق عدد كبير من الباشاوات إلى حد أن هذه المجلدات لا تنتهي . قال القزم بسعادة لئيمة إن الباشا الذي يسكر بثروته وقوته وينسى أنه عبد ويأمر بكتابة كتاب باسمه ، وينقشه بماء الذهب يستحق ومنذ زمن قطع رأسه ومصادرة ثروته . عندما أصادف شيرين وهي تنظر إلى رسم خسرو وقد عشقته في هذه الكتب التي بعضها مرقعات ، وبعضها دواوين منقوشة ومرسومة ، كنت أتوقف وأنظر إليه مطولاً .

رسم داخل رسم ، أي أن رسم خسرو داخل موقف رسم شيرين وهي تنظر إليه في أثناء نزهتها الريفية لم يكن واضحاً في أي وقت . ولم يكن هذا بسبب أنه رسم داخل رسم يبدو صغيراً جداً فلا يرسمه النقاشون جيداً . لأن

أغلب النقاشين الذين يرسمون يعملون بنعومة شديدة جداً تصل إلى الرسم على الظفر أو حبة الأرز وحتى الشعرة . لماذا إذن لا يرسمون وجه خسرو الوسيم واضحاً بحيث يُعرف ؟ وبينما كنت أقلّب صفحات مرقع كثيرة التشابك تناولته دون تحديد مفكراً بتوجيه هذه الأسئلة للأستاذ عثمان بعد الظهر في محاولة لنسيان يأسي لفت نظري رسم حصان في مشهد عراضة عرس . فجأة تاه نسق ضربات قلبي .

أمامي هناك حصان منخره عجيب . يحمل عروساً ظريفة ناظراً إليّ . كأن الحصان السحري سيهمس لي بسرّ . أردت أن أصرخ ولكن صوتي لم ينطلق كما في الحلم .

التقطت الكتاب وركضت بين الأغراض والصناديق إلى الأستاذ عثمان ، وفتحته على الصفحة .

نظر إلى الرسم .

عندما لم أر إشراقة في وجهه تململت ، وقلت : «منخر الحصان كالذي رسم من أجل كتاب زوج خالتي تماماً» .

نقل العدسة التي بيده إلى فوق الحصان . قرّب وجهه إلى العدسة حتى كاد أنفه يلمس الصفحة .

لم أتحمّل تطويل فترة الصمت فقلت : «لم يُرسم هذا الحصان بالأسلوب والأصول التي رُسم بها الحصان في كتاب زوج خالتي كما ترون . ولكن الأنف نفسه . لقد رأى النقاش العالم كما يراه الصينيون» سكت قليلاً : «إنها عراضة عرس . كأنه رسم صيني ولكن المرسومين ليسوا صينيين ، إنهم مثلنا» .

والآن كأن عدسة الأستاذ ملصوقة بالرسم وأنفه ملصوق بالعدسة . وليتمكن من الرؤية لم يستنفر عينه فقط بل رأسه وعضلات رقبته وظهره

المسن ، وكتفيه ، وبقوتها كلها . مضت فترة صمت طويلة جداً .

بعد وقت طويل قال وهو متلاحق الأنفاس : « أنف الحصان مشروم » .

أسندت رأسي أمام رأسه ، ونظرنا مطولاً إلى الحصان وخدي ملتصق بخده . وفجأة لم أنتبه بحزن إلى أن أنف الحصان مشروم فقط ، بل إلى أن الأستاذ عثمان يلاقي صعوبة بالرؤية .

« إنكم ترون ، أليس كذلك ؟ »

قال : « قليلاً جداً . اشرح لي الرسم أنت » .

قلت له مكدراً : « بالنسبة إليَ فإن هذه عروس حزينة امتطت حصاناً أشهبَ مشروم الأنف ، وتسير برفقة حراس غرباء ورفاق طريق . وجوه الرجال وتقاطيعها القاسية ، ولحاهم السوداء المخيفة وحواجبهم المقطبة ، وشواربهم الضخمة ، وعظامهم الغليظة ، وجببهم البسيطة والرقيقة القماش ، وأحذيتهم الدقيقة ، وقبعاتهم المصنوعة من الفراء ، وبلطاتهم ، وسيوفهم تظهر أنهم من تركمان ديار الغنم الأبيض من منطقة ما وراء النهر . وبما أنها تسافر مع نديماتها في ضوء القناديل والمشاعل فالعروس الجميلة تسافر على طريق طويل . ولعلها أميرة صينية » .

قال الأستاذ عثمان : « ومن أجل إبراز جمال العروس على أنه في غاية الكمال دهن الوجه بالأبيض على طريقة الصينيين ، ورسمت العينان مرفوعتي الطرفين مثل الصينيين ، ونحن الآن نعتقد أنها صينية » .

قلت : « إنني أتألم من أجل هذه الحسناء الحزينة التي تذهب عروساً إلى بلد غريب ، وإلى زوج لم تره أبداً في منتصف الليل وسط الهضاب الممتدة ، وبرفقة الحراس الغرباء ذوي النظرات القاسية » . بعد ذلك سألته وبسرعة : « كيف سنعرف نقاشنا المقصود من أنف الحصان المشروم ؟ » .

قال الأستاذ عثمان : « اقلب صفحة المرقع ، واشرح لي ما ترى » .

رأيت الأستاذ عثمان الذي هرعت إليه قبل قليل جالباً المجلد جالساً على المقعدة ، والآن القزم معنا ، وثلاثتنا ننظر إلى الصفحات .

رأينا حسناوات صينيات مرسومات بأسلوب العروس الحزينة مجتمعات في حديقة يعزفن على عود غريب ، ورأينا بيوتاً صينية ، وقوافل حزينة خارجة في سفر طويل ، وأشجارَ هضاب جميلة مثل ذكريات الماضي . ورأينا أشجاراً متلوية بالأسلوب الصيني ، وأزهار ربيع تفتحت بقوتها كلها ، وبلابلَ سعيدة تغرد على تلك الأغصان . ورأينا أمراء جلسوا في خيمتهم الخراسانية يتحدثون في الشعر والخمر والعشق ، وحدائق رائعة ، ورجالاً وسيمين منتصبين على خيولهم الرائعة والصقور تقف على أذرعهم . بعد ذلك كأن رسم شيطان مرَ بين الصفحات فشعرنا أن السوء في الرسم أغلب الأحيان هو ذكاء . هل أضاف النقاش عامل سخرية لحركات الأمير البطل الذي يقتل التنين بعدد كبير جداً من الرماح ؟ هل استمتع بفقر القرويين المساكين المنتظرين الشفاء في حضرة الشيخ ؟ هل كان يستمتع مزيداً برسم العيون الحزينة للكلاب المسكينة المتنايكة الملتصقة ببعضها بعضاً أم بتلوين أفواه النساء المفتوحة بشيطانية متضاحكات وهن يتفرجن على الكلاب ؟ بعد ذلك رأينا شياطين النقّاش نفسها : كانت تلك المخلوقات العجيبة تشبه الجان والعمالقة التي رسمها أساتذة هرات القدماء ونقاشو شاه نامة مرات عديدة ولكن مهارة النقاش وممازحته جعلتها أكثر سوءاً ، وأكثر عدانية ، وأكثر شبهاً بالإنسان . رأينا الشياطين المخيفة ذات طول إنسان ولكنها ذات جسم ضئيل مجعلك وقرنين متشعبين وذيل قط فضحكنا . مع تقليبي الصفحات رأيت الشياطين الممتلئة الوجوه المقطبة الحواجب الواسعة العيون ، الحادة الأسنان ، المدببة الأظافر ، والداكنة البشرة المجعدة ، والعارية تتعارك وتتصارع وتسرق حصاناً ضخماً لتقدمه لآلهتها قرباناً ، وتتقافز وتتلاعب ، وتقطع الأشجار ،

وتختطف السلاطين الوسيمين مع عروشهم ، وتقبض على التنينات وتسلب الخزائن . عندما شرحت للأستاذ عثمان المجلد الذي شارك فيه عدد من النقاشين ، قلت له إن النقاش الذي رسم الشيطان بقلم أسود رسم الدرويش القلندري الحليق الرأس، الرث الهيئة ، المتقلد سلسلة حديدية . والماسك عصا بيده ، طلب الأستاذ عثمان مني أن أكرر التشابهات واحدة واحدة واستمع إليّ بانتباه .

بعد ذلك قال : «شرم أنف الخيول لتتنفس بشكل أفضل وتركض مسافات أطول عادة مغولية عمرها مئات السنين . عندما فتح هولاكو خان على صهوات خيله بلاد العرب والعجم ودولة الصين ودخل إلى بغداد ومرّر المدينة كلها تحت حد سيفه وسلبها وعبث بها ورمى كتبها كلها في دجلة ، فإن الخطاط الشهير ابن شاكر الذي صار فيما بعد نقاشاً لم يتجه إلى الجنوب كما فعل الجميع للهرب من المدينة والمجزرة ، بل إلى الشمال ، إلى الجهة التي جاء منها المغول كما هو معروف . وفي ذلك الوقت لم تكن توضع الرسوم في الكتب لأن القرآن الكريم يمنع هذا ، وكان يستهان بالنقاشين . وقد سمعت أن ابن شاكر أساتذنا وشيطان إلهامنا الذي ندين له بسرّ مهنتنا وهو رؤية العالم من المئذنة ، ووجود خط الأفق دائماً بشكل سرّي أو مكشوف ، ورسم العناصر بدءاً من الغيوم وصولاً إلى الديدان كما يراها الصينيون متلوية وبألوان حيوية عندما خرج في مسيره الأسطوري للوصول إلى قلب جيوش المغول كان ينظر إلى مناخر الخيول من أجل الذهاب إلى الشمال . ولكنه بعد وصوله إلى سمرقند إثر مسير عام دون أن يأبه لثلج أو عاصفة ، وبدنه النقش للكتب فلم يرسم أي حصان مشروم الأنف حسبما رأيت وسمعت . لأن الخيل الكاملة الخارجة من الأحلام ليست خيل المغول القوية المظفرة التي رآها في فترة نضجه ، بل الخيل العربية الظريفة التي تركها وراءه من عهد

شبابه . لهذا السبب فإن منخر الحصان العجيب المنقوش من أجل كتاب زوج الخالة لم يذكّرني بخيول المغول ، ولا بتلك العادة التي رسخها المغول في خراسان وسمرقند » .

كان الأستاذ عثمان ينظر إليّ أحياناً وإلى الكتاب أحياناً ، ولكن يبدو أنه لم يرنا بل يرى الأشياء كما يتخيلها .

« الأمر الآخر في هذا الكتاب غير شرم أنوف الخيل ورسوم الصينيين التي أتت إلى دولة العجم وإلى هنا بسبب جيوش المغول هو رسم الشياطين . لا بد أنكم سمعتم أنها رسل شرٍ تبث قوى ظلامية من تحت الأرض ، وستخطفنا نحن البشر وتسلب حياتنا وكل ذا قيمة فيها وتهرب إلى الظلام والموت تحت الأرض . وفي عالم تحت الأرض هذا لكل الأشياء من غيوم وأشجار وأغراض وكتب ، أرواح تتكلم » .

قال القزم المسنّ : « نعم يشهد الله أنه في بعض الليالي عندما يقفل علي الباب فلا تنبعث أصوات هذه الساعات والأطباق الصينية وكاسات البلور التي تتكتك أصلاً باستمرار بل إن أرواح تلك البنادق والسيوف والتروس والخوذات المدماة تقلق وتبدأ الكلام فتتحول غرفة الخزينة في هذا الظلام الدامس إلى ساحة وغى وحشر » .

قال الأستاذ عثمان : « جلب الدراويش القلندريون الذين نرى رسومهم هذا الاعتقاد من خراسان إلى بلاد العجم ومنها إلى اسطنبولنا هذه . وعندما تغلب السلطان سليم الجبار على الشاه إسماعيل ، وسلب تبريز وقصر (هشت بهشت) خان بديع الزمان ميرزا الشاه إسماعيل ، وانضم مع دراويشه القلندريين إلى العثمانيين . وكان إلى جانب (جنة مكان السلطان سليم الجبار) غير زوجتي الشاه إسماعيل الذي هزمه في (چالدران) – البيضاوين واللوزيتي العيون المرفوعتي الأطراف ، هذه الكتب كلها التي كانت مخبوءة

في مكتبة قصر هشت بهشت والمجلوبة من المغول أصحاب تبريز السابقين ، والإيلخانيين ، والجلائريين ، والباقية من وراء أهل ديار الغنم الأبيض التي سلبها الشاه المهزوم من الأوزبك والعجم والتركمان والتيموريين ، وسأتفرج على هذه الكتب حتى يخرجني سلطاننا والخزندار الأكبر من هنا » .

ولكن ثمة انحرافاً عن الهدف في الرؤية ، إذ أن يده تمسك تلك العدسة ذات المقبض الصدفي بحكم العادة وليس من أجل الرؤية . سكتنا قليلاً . طلب الأستاذ عثمان من القزم الذي يصغي وكأنه يستمع إلى حكاية مؤلمة إيجاد كتاب وجلبه له . عدما ذهب القزم سألت أستاذي ببراءة :

« في هذه الحالة من رسم الحصان لكتاب زوج خالتي ؟ » .

قال : « الأحصنة المشرومات الأنف . ولكن هذا الحصان منقوش بأسلوب الصينيين وإن كان مصدره سمرقند أو ما وراء النهر . أما حصان كتاب زوج الخالة الجميل فهو مثل خيول أساتذة هرات الرائعة ، ومرسوم بالأسلوب العجمي . إنه حصان ظريف ، ونادراً ما نصادف شبيهاً له! إنه حصان نقش ، وليس حصاناً مغولياً » .

همستُ قائلاً : « ولكن أنفه مشروم مثل حصان مغولي حقيقي » .

« لأنه من الواضح بعد انسحاب المغول وبدء نظام تيمور وأولاده قبل مائتي سنة تذكر أحد الأساتذة القدماء الذين نقشوا في هرات خيول المغول التي رآها أو أنه تأثر بنقاش آخر ينقش الخيول الرائعة المشرومة الأنف وهو يرسم الحصان . لا أحد يعرف في أي صفحة من أي كتاب أنجز لأي شاه . ولكنني واثق أن أحدهم ويمكن أن تكون إحدى النساء المحظيات في حرم شاه ما أعجبت كثيراً بالكتاب وامتدحته فغدا أسطورة! وأنا واثق أن وضع الكتاب الجديد جعل ذلك توقاً للنقاشين كلهم وصاروا يرسمون الحصان ذا الأنف المشروم ، وأكثروا من تقليده والحديث حوله . وهكذا يصير أنف الحصان

المشروم مع ذلك الحصان الرائع قالباً يُحفر في ذاكرة نقاشي تلك النقش خانة ويحفظ . وعندما يهزم سادة هؤلاء النقاشين بعد سنوات ويجدون لأنفسهم شاهات جدداً أو أمراء آخرين مثلما تذهب النساء الحزينات إلى حرم آخر ، وعندما يغيرون المدن والممالك يأخذون معهم الأنوف المشرومة بظرافة . إن هذا الأنف المشروم الكامن في زاوية من زوايا ذاكرة النقاش لا يُرسم بسبب نقش خانات أخرى وأساليب أخرى ومعلمين آخرين فينسى في النهاية . وبعض النقاشين الآخرين يكتفون برسم الخيول المشرومة الأنف بظرافة في النقش خانات الجديدة التي ينضمون إليها فيعلمونها لتلاميذهم على أن الأساتذة القدماء رسموها بهذا الشكل . وهكذا بعد عصور من خروج خيول المغول القوية والمشرومة الأنف من بلاد العرب والعجم ، وبدء حياة جديدة في المدن التي هدمت وأحرقت وسلبت يؤمن بعض النقاشين أن هذا قالب فيستمرون برسم الخيول مشرومة الأنف . أنا واثق أيضاً أن بعض النقاشين يرسمون الخيول كما رسمها نقاشنا هذا قائلين : هذا قالب ، دون علمهم بفرسان المغول الفاتحين أو أنوف الخيول المشرومة » .

قلت بشعور المعجب : « يا سيدي وأستاذي ، لقد أوصلنا أسلوب النديمة إلى نتيجة كما أملنا . لكل نقاش توقيعه السريّ » .

قال بغرور : « ليس لكل نقاش ، بل لكل نقش خانة ، وحتى ليس لكل نقش خانة . بعض النقش خانات التعيسة مثل بعض الأسر التعيسة ، يصدر فيها وعلى مدى سنوات صوت من كل عقل ، ولا يفهم أحد فيها أن السعادة تأتي من المواءمة وأن المواءمة ستأتي بالسعادة ، فيعمل أحدهم على النقش بطريقة الصينيين وبعضهم على طريقة التركمان وبعضهم على طريقة الشيرازيين ، وبعضهم على طريقة المغول ولا يغدو لهم أسلوب مشترك على مدى سنوات مثل الزوج والزوجة التعيسين المتعاركين على مدى سنوات » .

والآن سيطر الغرور على وجهه بشكل واضح جداً ، وحلّت نظرات رجل غاضب مشاكس يريد جمع القوة كلها بيده محل تعابير المسنّ الحزين المتألم .

قلت : «يا أستاذي! لقد جمعتم هنا في اسطنبول أنواعاً من النقاشين مختلفي الأمزجة والمشارب وحققتم بينهم انسجاماً على مدى عشرين سنة موجدين الأسلوب العثماني» .

لماذا تحوّل الإعجاب الذي شعرت به بقلبي كله قبل قليل إلى ازدواجية عندما قلته له ؟ وهل يجب أن يكون الشخص الذي نعجب حقيقة بمهارته ومعلميته قد فقد قوته ونفوذه تماماً وصار مسكيناً لكي نكون صادقين عندما نمتدحه مواجهة ؟

قال : «أين تأخر هذا القزم ؟» .

قال هذه العبارة مثل أصحاب النفوذ الذين يستمتعون بالمديح والمراءاة والمتذكرين أن عليهم عدم إظهار هذا الاستمتاع . لأنه أراد التظاهر بأنه يغيّر الحديث .

قلتُ هامساً : «على الرغم من كونكم الأستاذ الأكبر لأساليب القدماء وأساطيرهم فقد أوجدتم عالَم نقش لائقاً بعظمة العثمانيين وقوتهم . أنتم من جلب إلى النقش قوة سيف العثمانيين وألوان النصر المتفائلة ، وانتباه التوق للآلات والأدوات وحرية راحة العيش . يا أستاذي إن أكبر شرف نلته في حياتي هو وجودي معكم هنا والفرجة بصحبتكم على روائع الأساتذة القدماء الأسطوريين . . . » .

همست على هذا المنوال فترة طويلة . وسط غرفة الخزينة الفوضوية الشبيهة بساحة حرب وظلمها ، الباردة ، وتحول همسي إلى نوع من القدسية .

فيما بعد بدت عينا الأستاذ عثمان كعيني مسنٍّ وهب نفسه للمتعة ، وهو ينظر مثل بعض العميان الذين لا يستطيعون التحكم بنظراتهم نهائياً . امتدحتَ المعلم المسنَّ مطولاً شاعراً بصدق قلبي أحياناً ، وبقشعريرة قرف صادقة نحو العميان أحياناً .

وبأصابعه الباردة أمسك يدي ، وداعب ذراعي ، ولمس وجهي . كأن قوته وتقدمه في السن قد انتقلت إليَّ عبر أصابعه . فكرت بشكورة التي تنتظرني في البيت .

سكنَا دون حراك قليلاً وأمامنا صفحات مفتوحة . كأن مديحي له ، وإعجابه بنفسه وإشفاقه عليها أتعبتنا ونحن الآن نرتاح من هذا التعب وكأن ثمة خجلاً فيما بيننا .

سأل مجدداً : «أين تأخر هذا القزم ؟» .

كنت واثقاً أن القزم الماكر يراقبنا سراً من زاوية يختبئ فيها . حرّكت كتفي إلى اليمين واليسار كأنني أبحث عنه بعيني ، ولكن عيني المتوفزتين تماماً تركزتا على عيني الأستاذ عثمان . هل كان أعمى أم أنه يريد إقناع الجميع بمن فيهم نفسه أنه أعمى ؟ يقال إن بعض الأساتذة القدماء القليلي المهارة والموهبة الشيرازيين يقلدون العميان ليلقوا الاحترام في كبرهم ولا يصفعوا بفشلهم .

قال : «أريد أن أموت هنا» .

أجبته قائلاً : «يا أستاذي الكبير ، إني أتفهم قولكم هذا في زمن سيئ تعطى فيه الأهمية للنقود وليس للنقش . ولمقلدي الأفرنج وليس للأساتذة القدماء ، ولكن مهمتنا أيضاً حماية نقاشينا المعلمين من أعدائهم . قولوا لو سمحتم ما الذي استنتجتموه من أسلوب النديمة ؟ من هو النقاش الذي نقش الحصان ؟» .

« زيتون »

قالها بشكل جعلني لا أدهش .

سكتَ قليلاً

قال بهدوء : « ولكنني واثق أن زيتوناً لم يقتل زوج خالتك ولا ظريف أفندي المسكين . أنا أستنتج أن زيتوناً رسم الحصان لأنه الأكثر ارتباطاً بالأساتذة القدماء ، ومن معرفته الكبرى بأساطير هرات وأساليبها وقربه منها أكثر وحبه لها ، ومن امتداد شجرة معلميه إلى البعيد جداً ، إلى سمرقند . وسبب عدم مصادفتنا شرم الأنف هذا في الخيول الأخرى التي نقشها زيتون على مدى تلك السنوات كلها هو ما قلته إنه على الرغم من انتقال تفصيل أو جناح طائر أو تعلق ورقة في شجرة من المعلم إلى التلميذ واختبائها في الذاكرة على مدى أجيال فلا تظهر بسبب مزاجية معلم النقاش أو قسوته أو بسبب ذوق النقش خانة والسلطان وميولهم . هذا يعني أن هذا الحصان هو الحصان الذي تعلمه زيتون العزيز من أساتذة العجم مباشرة في صغره ، ولم ينسه أبداً ، وظهور هذا الحصان من أجل زوج خالتك المخبول هي لعبة قاسية أوقعني فيها الله . ألم نتخذ كلنا أساتذة هرات القدماء مثالاً ؟ وكما يرسم النقاش التركماني الصينية عندما يتخيل صورة المرأة الجميلة ألا نفكر نحن بروائع الأساتذة الهراتيين القدماء عندما نقول رسماً جميلاً ؟ كلنا معجبون بالأساتذة الهراتيين القدماء . ووراء النقاشين كلهم هرات بهزاد ، ووراء هرات الصين وخيول المغول . لم يقتل زيتون المرتبط إلى هذا الحد بأساطير هرات ظريف أفندي المسكين الأكثر ارتباطاً بالأساليب القديمة ، والمرتبطة بها ارتباطاً أعمى » .

قلت : « من ؟ هل هو فراشة ؟ » .

قال : « لقلق . وهذا ما يقوله قلبي . لأنني أعرف حرصه واجتهاده اللا

معقول . اسمع هذا : هنالك احتمال كبير أن ظريف أفندي المسكين الذي عمل التذهيب لكتاب زوج خالتك المقلد لأساليب الأفرنج اعتبر العمل مروقاً وزندقة وإنكاراً لله ، وخاف من هذا ، ولأنه من جهة أخرى ساذج إلى حد إصغائه إلى تخريفات الواعظ الأرضرومي - يكون معلمو التذهيب أكثر سذاجة وسخفاً . ويعتقدون أنهم أكثر قرباً إلى الله من الرسامين - ومن جهة أخرى تتناقض مخاوفه وشبهاته لمعرفته أن كتاب زوج خالتك عمل كبير وسري للسلطان : هل يؤمن بسلطانه أم بالواعظ الأرضرومي ؟ إن ولدي المسكين هذا الذي أعرفه كما أعرف راحة كفي كان سيأتيني ويفضي إلي ، إلى معلمه بما ينهش قلبه لو كان في زمن آخر . ولأنه فهم جيداً حتى بعقله الصغير صغر عقل طائر أن عمله التذهيب من أجل كتاب زوج الخالة المقلد للأفرنج يعني خيانة لي وللنقش خانة بحث عن شخص آخر ، وفتح قلبه للقلق الحريص الماكر المعجب خطأ بأخلاقه وذكائه لأنه معجب بمهارته . وقد رأيت أن لقلقاً استغل إعجاب ظريف أفندي به كثيراً واستغله . ولا أدري أي مشادة جرت بينهما فقتل لقلق الآخر . ولأن ظريف أفندي قد أفضى من قبل لأتباع الأرضرومي فقتل هؤلاء زوج خالتك المعجب بأساليب الأفرنج لأنهم يعتبرونه مسؤولاً عن مقتل صديقهم لإظهار قوتهم بالانتقام . ولا أستطيع القول إنني حزنت كثيراً لهذا . قبل سنين طويلة خدع زوج خالتك السلطان جاعلاً أحد رسامي الأفرنج - اسمه سبستيانو - يرسم سلطاننا بأسلوب الأفرنج كأنه ملك الكفار ، بعد ذلك وضع الرسم أمامي على أنه مثال وأجبرني على شيء دنيء بشع ، وهو عمل نموذج مثله وأنا أنظر إليه . وقلدت ذلك الرسم بقلة شرف خوفاً من سلطاننا . لو لم أفعل فربما كنت سأحزن لموت زوج خالتك وأبذل ما بوسعي لإيجاد قاتله . ولكن همي الآن ليس إيجاد قاتل زوج خالتك ، بل إنقاذ نقش خانتي . بسبب زوج خالتك خانني وخان النقش خانة والنقش

كله من أحببتهم من أولادي وربيتهم بعناية كبيرة على مدى خمسة وعشرين عاماً ، وبدؤوا بتقليد الأساتذة الأفرنج بهوس لأن سلطاننا يريد هذا . إن عديمي الشرف هؤلاء جميعهم استحقوا التعذيب! نحن معشر النقاشين نستحق الجنة عندما نكون عبيد مهاراتنا وفننا لا عبيد سلطاننا الذي يمنحنا العمل . والآن أريد الفرجة على هذا الكتاب وحدي » .

قال العبارة الأخيرة مثل باشا متعب يطلب أمنيته الأخيرة بعد أن اعتبر مسؤولاً عن هزيمة ما ، وأُمر بقطع رأسه . فتح الكتاب الذي وضعه القزم أمامه ، وبدأ يوجه له الأوامر من أجل إيجاد الصفحة التي يريد . لقد غدا بحالته الإتهامية هذه كبير النقاشين الذي تعرفه النقش خانة كلها . واعتادت عليه .

ابتعدت منسحباً إلى زاوية بين المخدات المشغولة باللؤلؤ ، والبنادق الصدنة ذات القبضات المرصعة بالجواهر ، والخزائن ، انظر إلى الأستاذ عثمان . لفت نظري ، من كل جانب ، الشبهة التي كانت تأكل قلبي . يبدو لي أن قتل ظريف أفندي المسكين وفيما بعد زوج خالتي من أجل إيقاف كتاب سلطاننا المقلّد للأفرنج أمر معقول جداً ، واتهمت نفسي نتيجة الإعجاب الذي شعرت به قبل قليل نحو الأستاذ عثمان . من جهة أخرى ، مهما يكن فإنني أشعر باحترام عميق لهذا الأستاذ العظيم الذي يمنح نفسه الآن تماماً للرسم الذي أمامه وكأنه يتفرج بكل جزء من بشرته على الرسم أعمى كان أم شبه أعمى . عندما ترسخ في عقلي جيداً إمكان تسليمه أي نقاش ، أو تسليمه لي للتعذيب عند آمر الحامية من أجل حماية أسلوب النقش خانة القديم ونظامها ، والتخلص من كتاب زوج الخالة ويكون المحظي الوحيد لدى سلطاننا ، شغلت خيالي مطولاً للتخلص من الحب الكبير الذي ربطني به خلال اليومين الماضيين .

مر وقت طويل وعقلي في منتهى التشابك . تفرجت مدة طويلة على الصفحات المرسومة للمجلدات التي سحبتها من الصناديق لتهدئة شياطين داخلي فقط ، وعفاريت القلق .

يا لكثرة الأشخاص من النساء والرجال الذين يضعون أصابعهم في أفواههم! لقد استُخدمت هذه الحركة في النقش خانات كافة من سمرقند إلى بغداد على مدى مائتي سنة للتعبير عن الدهشة . عندما عبر البطل (كيهوسرڤ) على حصانه الأسود مجرى نهر جيجون المتدفق بغزارة ، عندما حاصره أعداؤه ووصل سليماً بإذن الله ، وضع صاحب العبارة والجداف السافلين إصبعيهما في فميهما . خسرو أيضاً وضع إصبعه في فمه مندهشاً عندما رأى أول مرة جمال شيرين ذات البشرة البيضاء مثل ضوء القمر وهي تغتسل في البحيرة التي تسوّد الفضة . أما ما كنت أتفرج عليه مطولاً بانتباه أشد فهي الأصابع الموضوعة في أفواه نساء الحرم الجميلات الباديات وراء أبواب القصور المواربة وفي نوافذ الأبراج التي لا تطال وخلف الستائر . فعندما هزم (تيجاف) أمام جيش إيران وفقد تاجه وهرب من ساحة الحرب كانت محظيته الفاتنة (اسبينوي) تنظر إليه مكدرة وتضع إصبعها في فمها مندهشة ، وتتوسل إليه بعينيها ألا يتركها لأعدائه . وعندما ادعت زليخا افتراءً أن يوسف اعتدى عليها وساقوه إلى الزنزانة كانت زليخا المفترية في النافذة تضع إصبعها في فمها تعبيراً عن الشيطانية والشهوانية أكثر من الدهشة . وأمام مشهد العشاق الخارجين من شعر الغزل السعداء والحزينين في آن واحد في حديقة مثل الجنة مغيبين بفعل الحب والخمر ، وضعت النديمة إصبعها في فمها الأحمر غيرة أكثر منها دهشة .

على الرغم أن هذه الحركة منقوشة في دفاتر نماذج النقاشين وذاكرتهم مثل قالب ينقشونه ، ولكن إصبع المرأة الجميلة في كل مرة يوضع في الفم

بظرافة مختلفة .

كم كانت مسلية رؤية هذه الرسوم ؟! عندما مال الجو نحو الظلام ذهبت إلى الأستاذ عثمان وقلت له :

« يا سيدي وأستاذي ، عندما سيفتح الباب سأترك الخزينة بعد إذنكم » .

قال : « ليكن خيراً . أمامنا فرصة ليل وصباح . يا لسرعة شبع عينيك من النظر إلى رسوم العالم! » .

لم يبعد عينيه عن الصفحة التي أمامه في أثناء قوله هذا . ولكن الشحوب في لون بؤبؤعينيه يثبت أنه ينتقل تدريجياً إلى العمى .

قلتُ بجرأة : « ولكننا عرفنا السر الذي في منخر الحصان » .

قال : « ها! . . . نعم! يبقى الأمر عائداً لسلطاننا والخزندار الأكبر . علهما يعفوان عنا جميعاً » .

هل سيقدم لهما اسم لقلق على أنه قاتل ؟ لم أستطع حتى مجرد طرح هذا السؤال عليه من الخوف . لأنني كنت أخشى ألا يدعني في الخارج . الأسوأ من هذا أنني كنت أؤمن أحياناً أنه سيتهمني .

قال : « ضاع المغرز الذي أعمى نفسه به بهزاد » .

قلت : « لا بد أن القزم أخذه وأعاده إلى مكانه . يا لجمال هذه الصفحة التي تنظرون إليها » .

أبرق وجهه مثل طفل ، وابتسم قائلاً : « إنه رسم يمثل مجيء خسرو على حصانه إلى أسفل قصر شيرين ، وانتظاره لها وهو يتحرق بنار عشقها . إنها بأسلوب أساتذة هرات القدماء » .

الآن ينظر إلى الرسم وكأنه يراه ، ولكنه لم يمسك عدسته بيده .

« هل ترى جمال أوراق الأشجار وأزهار الربيع في الليل وكأنها نجوم تشع

الضوء من داخلها فتظهر واحدة واحدة . والصبر المتواضع في زخارف الجدران والأناقة في استخدام ورق التذهيب . والتوازن الظريف في توزيع الرسم كله ؟ حصان خسرو نحيل وظريف مثل امرأة . رأس شيرين الواقفة في النافذة في الأعلى مطأطئ ولكن وجهها مغرور . وكأن الضوء المتسلل من الألوان المدهونة بنعومة ، وعشق النقاش ، وملمس الرسم وبشرتهما يظهر لنا أنهما سيقفان هكذا إلى ما لا نهاية . ترى وجهيهما ملتفتين نحو بعضهما البعض ، ولكن جسميهما يتجهان نحونا بنصف التفاتة لأنهما يعرفان أن الشيء الذي يقفان وسطه هو رسم ، ويظهران لنا . لهذا السبب لا يعملان على التشبه إلى حد التطابق بما نراه دائماً . على العكس تماماً إنهما يشيران إلى خروجهما من ذكريات الله . لهذا السبب فقد توقف الزمان هناك داخل ذلك الرسم . ومهما استعجل في عرض الحكاية التي تحكى ، ولكنها مثل الفتيات المهذبات الأكابر الحسنات التربية ، يقفان إلى ما لا نهاية دون إبداء حركة مبالغة بأيديهما أو أذرعهما ، أو جسديهما الظريفين وعيونهما . وسيجمد معهما كل شيء وسط الليل الكحلي . والطائر الذي في السماء يتطاير بين النجوم منهمكاً كأنه يخشى على العشاق من جهة ، وكأنه منسجم معهما وسيتوقف هنالك إلى ما لا نهاية من جهة أخرى . إن أساتذة هرات القدماء الذين يدركون أن ستارة الله المخملية تنزل أمام أعينهم يدركون جيداً أنهم سيمتزجون بذلك الزمان اللا متناهي للرسم عندما يصيرون عمياناً إذا قضوا أياماً وليالي دون حركة وهم يتفرجون على رسم كهذا » .

عند وقت أذان المغرب فُتح باب الخزينة بالمراسم والاحتفال نفسه ، وكان ينظر بانتباهه كله إلى الطائر المتوقف في السماء . ولكن عندما ننتبه إلى لون حدقتي عينيه الفاقدتين لونهما ننتبه إلى أنه ينظر إلى الصفحة المفتوحة أمامه بشكل غريب تماماً كما ينظر بعض العميان إلى الصحن الذي

أمامهم من زاوية خاطئة .

أُعلم حراس غرفة الخزينة أن الأستاذ عثمان سيبقى في الداخل ، ولأن جزمي آغا عند الباب لم أفتش بشكل دقيق جداً لهذا لم يجدوا المغرز المخبوء في سروالي الداخلي . عندما خرجت من باحة القصر إلى أزقة إسطنبول ، دخلت إلى فرجة في زقاق وأخرجت الشيء المخيف الذي أعميَ به بهزاد الأسطوري ، ودسسته في حزامي .

لقد تغلغل برد غرف الخزينة إلى داخلي إلى حد جعلني أشعر ، في وقت مبكر في أزقة اسطنبول ، بجو ربيعي لطيف . وبينما كنت أمر أمام دكاكين السمانين والحلاقين والعطارين والخضريين والحطابين التي بدأت تُغلق في سوق الخان القديم ، باطأت السير وبدأت أتفرج بدقة على الأغطية والقطرميزات والجزر والبراميل في الدكاكين الدافئة التي تنيرها القناديل .

يبدا لي زقاق زوج خالتي - دعوا قولي زقاقي جانباً ، ما زلت لا أستطيع قول : زقاق شكورة - بعد يومين أغرب ، ومثل مكان أكثر بعداً . ولكن فرحي بالوصول إلى شكورتي سليماً معافى ، وبما أنه يمكن اعتبار أن القاتل وجد فيمكنني الدخول إلى فراش زوجتي هذه الليلة وهذا يقربني من العالم كله إلى حد جعلني أمسك نفسي بصعوبة عن الصراخ مثل فلاح عندما رأيت شجرة الرمان وسحاب النافذة المصلَح . لأنني كنت أريد البدء بالحديث قائلاً : « عُرف القاتل الملعون » .

فتحت باب الحوش . لا أدري إن كان من صرير الباب ، أو من عدم فزع العصفور الذي يشرب من الدلو أو من الحالة المظلمة للبيت ، وبمكر رجل عاش اثنتي عشر سنة وحيداً فهمت فوراً أنه ليس ثمة أحد في البيت . يدرك الإنسان بألم أنه بقي وحيداً ولكنه لا يتوانى عن فتح الأبواب والخزائن وحتى أغطية القدور كلها . وهذا ما فعلته . فتحت حتى الصناديق ونظرت إلى

داخلها .

ما سمعته فقط وسط هذا الظلام كله هو ضربات قلبي السريعة . وكعجوز نخل طحينه وعلق منخله أخرجتُ سيفي من قعر أبعد صندوق خبأته فيه ، وتسلحت به ، وعندئذ شعرت بالأمان . طوال تلك السنوات التي عملت فيها بقلمي لم أستحوذ على التوازن والراحة الداخلية (وتوازن المشي أيضاً) إلا بواسطة سيفي ذي المقبض العاجي . والكتب التي نعتقد أنها تبدد الكآبة لا تضيف سوى التعمق أكثر .

نزلت إلى الفسحة . ذهب العصفور . تركت البيت المخيم عليه الظلام لسكونه كما تترك سفينة غارقة ، وخرجت .

كان قلبي الواثق من نفسه أكثر يقول : اركض ، اذهب وجدهم . . . ركضت . عندما كثرت الكلاب التي تتبعني سعيدة وكأنني تسلية لها في أثناء مروري من الأماكن المزدحمة ومن باحات الجوامع لأنها تختصر الطرقات ، أبطأت المسير .

* * *

٥٣

اسمي إستر

كنت أطبخ على النار حساء العدس من أجل وجبة المساء عندما قال لي نسيم : «أحدهم بالباب» بعد أن مسَكتُ رجلي المسنَّ الملعقة بيده قائلة : «انتبه لكي لا يعلق الحساء في قعر القدر» وضعت يد العجوز في راحة يدي ودورتها داخل القدر دورتين ، لأنني إذا لم أدله يمكن أن يمسك الملعقة وسط الحساء ساعات دون تحريك .

عندما رأيت قرة بالباب تأملت عليه فقط . على وجهه تعابير تجعل المرء يخاف أن يسأله عما يجري .

قلت : «لا تدخل ، أنا سأغيّر ثيابي وآتي» .

ارتديت ثيابي ذات الألوان الزهرية والصفراء التي ألبسها عندما أدعى إلى حفلات رمضان والموائد الغنية والأعراس المستمرةفترة طويلة ، وتناولت صرتي التي أحملها في الأعياد . قلت لنسيم المسكين : «سآتي وأتناول حساني» .

فور عبورنا زقاقاً بعد حينا اليهودي الفقير الذي ينبعث الدخان قليلاً جداً من مداخنه مثل ما ينبعث البخار من قدوره الفقيرة ، قلت : «عاد زوج شكورة السابق من الحرب» .

سكت قرة حتى خرجنا من الحي . أصبح لون وجهه رمادياً بتأثير لون

المساء الذي حلَ منذ زمن .

بعد وقت طويل سأل : « أين هم ؟ » .

وهكذا فهمت أن شكورة والولدين ليسوا في البيت . قلت : « في بيتهم » ولمعرفتي أن المقصود بهذه العبارة هو بيتها السابق ، وأن هذا سيجعل قلب قرة ينفطر ، فتحت باب الأمل بعبارة أخرى : « على كل حال » .

قال وهو ينظر إلى عيني : « هل رأيتِ الزوج العائد من الحرب ؟ » .

« أنا لم أره ، ولم أر شكورة تاركة بيتها » .

« كيف فهمت أن شكورة تركتِ البيت ؟ »

« من وجهك »

قال بتصميم : « اشرحي لي كل شيء! » .

إستر التي عينها على النافذة وأذنها على الطريق والموجدة أزواجاً لعدد كبير من الفتيات المهمومات ، والتي تستطيع طرق أبوابٍ تعيسة كثيرة براحة تامة ، مهمومة إلى حد أنها لم تدرك أن عليها ألا تشرح كل شيء في أي وقت لتكون كما هي إستر .

قلت : « إن حسناً شقيق زوج شكورة السابق دس نفسه في بيتكم - رأيت أنه فرح لقولي بيتكم - وقال لشوكت إن أباه على وشك العودة من الحرب ، وإنه سيصل عند العصر ، وإذا لم ير ولديه وأمهما في البيت سيحزن كثيراً . وأوصل شوكت الخبر إلى أمه ، لكن شكورة احتاطت للأمر ولم تعطِ قراراً . ولكن شوكت قبل العصر هرب من البيت ولجأ إلى عمه وجده » .

« من أين علمت بهذه الأمور ؟ » .

« ألم تقل لك شكورة إن حسناً خلال السنتين الأخيرتين أعد مختلف الأحابيل من أجل إعادتها إلى البيت القديم ؟ في إحدى الفترات كان حسن يرسل الرسائل معي إلى شكورة » .

هل كانت شكورة ترد عليه ؟ » .

قلتُ بغرور : « أنا أعرف كل أنواع النساء في اسطنبول . ليس هنالك مثل شكورة مرتبطة ببيتها وزوجها وشرفها » .

« ولكنني أنا زوجها الآن » .

في صوته نبرة حزن رجل غير واثق من نفسه . عندما تذهب شكورة إلى طرف ، يبدأ الانهيار في الطرف الآخر .

« كتب حسن رسالة لأوصلها إلى شكورة ، قال فيها إن شوكت عاد إلى البيت لينتظر أباه . وإنه حزين لزواج أمه بعقد غير سليم ، وهو تعيس بسبب ذلك الزوج ، أي الأب غير الحقيقي » .

« ماذا فعلتْ شكورة ؟ » .

« انتظرتك طوال الليل مع أورهان المسكين » .

« وخيرية ؟ »

« خيرية تنتظر منذ سنوات لتفطّس زوجتك الجميلة في ملعقة ماء . لهذا السبب كانت تدخل فراش المرحوم زوج الخالة . عندما رأى حسن أن شكورة قضت الليل وحيدة مع الخوف من القاتل والأشباح . أرسل معي رسالة أخرى إلى شكورة » .

« ماذا كتب ؟ » .

« عندما يقول الآباء العصبيون والسادة الغضوبون : الشكر لله لأن إستر المسكينة هذه لا تعرف القراءة والكتابة ، أرد عليهم على النحو التالي : أنا لا أقرأ المكتوب ، ولكنني أقرأ وجه الفتاة الجميلة التي تقرأ المكتوب » .

« ماذا قرأتِ ؟ » .

« اليأس »

لم نتكلم فترة طويلة . رأيتُ بوماً حطَّ على سقف كنيسة روم صغيرة

منتظراً الليل . رأيت أولاد الحارة السائلة أنوفهم ينظرون إلى ثيابي وصرتي ويضحكون . رأيت كلباً جرباناً قادماً إلى الحارة من المقبرة ذات السرو لأن الليل قد بدأ ، وهو يحكُ نفسه فرحاً .

فيما بعد ، صرختُ لقرة : « إهدأ . أنا لا أستطيع صعود هذه المنحدرات مثلك . إلى أين تأخذني وفي يدي هذه الصرة ؟ » .

« أنا أصطحبك إلى الشباب الشهوم الكرماء الذين سيجعلونك تفتحين صرتك ويشترون منك المناديل المزهرة ، والأحزمة الحريرية ، وأكياس النقود المطرزة قبل أن تصحبيني إلى بيت حسن » .

أمر جميل أن يستطيع قرة بحالته المسكينة تلك أن يمزح ، ولكنني رأيت الجانب الجاد في مزاحه فوراً ، فقلت : « إذا جمعت جيشاً فلا آخذك إلى بيت حسن . أنا أرتعد خوفاً من العراك والقتال » .

قال : « إذا بقيتِ إستر الذكية كما أنت دائماً فلن يحدث عراك ولا قتال » .

عبرنا منطقة الأقسراي ، ودخلنا الطريق المؤدي إلى بساتين (لانغة) . وفي أعلى الطريق الطيني دخل قرة إلى دكان حلاّق مرّ عليه يوم عزّ . رأيته يتحدث مع المعلم الذي يحلق ذقن زبون في ضوء قنديل يمسكه صبي نظيف وحسن الوجه . دون مرور وقت طويل انضم إلينا الحلاّق وصبيه الجميل ورجلان آخران حاملين بأيديهم سيوفاً وبلطات . وفي حي (شيخ زادة باشي) انضمَ إلينا صبي يافع لم أجد القبضاوية لانقة به .

قلتُ : « هل ستداهمون بيتاً وسط المدينة ، في وضح النهار ؟ » .

وبأداء يبدي سروراً من الممازحة قال : « في الليل وليس في النهار » .

قلتُ : « لا تثق بنفسك كثيراً معتقداً أنك جمعت جيشاً من الرجال . احذروا أن يراكم الانكشاريون تسيرون بكامل أسلحتكم وتجهيزاتكم مثل

جيش!» .

«لا أحد يرانا»

«البارحة داهم رجال الأرضرومي خمّارة في البداية ، وبعد ذلك داهموا التكية الجراحيّة في (صاغر قابي) وضربوا الجميع هناك . وثمة رجل مسنٌ مات بضربة عصا على رأسه . يمكن أن يظنوكم منهم في هذا الظلام الدامس .

«قيل لي إنك ذهبت إلى بيت المرحوم ظريف أفندي – الله يرضى عليك – ورأيت رسم الخيول الذي انتشر خبره ، وأخبرت شكورة بهذا . هل كان ظريف أفندي يقضي كثيراً من الوقت مع رجال الأرضرومي ؟ » .

قلت : إذا كنت قد استدرجتُ أحداً بالكلام في ذلك البيت فمن أجل شكورتي المسكينة . أنا أصلاً ذهبت إلى هناك من أجل عرض الأقمشة الجديدة القادمة من السفينة الفلمنكية ، وليس للتدخل في أعمالكم الشرعية والسياسية التي لا يستوعبها عقلي اليهودي المسكين» .

«أنت ذكية جداً يا إستر خانم» .

«ولأنني هكذا عليَ أن أقول لك : إن رجال الواعظ الأرضرومي سيسعرون أكثر ، وسيزهقون أرواحاً أكثر ، وعليكم أن تخافوهم» .

عندما دخلنا إلى الزقاق خلف باب السوق تسرّعت ضربات قلبي خوفاً . كانت أغصان أشجار الكستناء والتوت العارية الرطبة تلمع تحت ضوء نصف القمر الباهت . ثمة ريح تنفخها الجان والأشباح تلاعب أطراف صرتي ، وتصفّر في الأشجار ، وتقود كلاب الحي الكامنة لنا والملتقطة رائحتنا الجماعية . عندما بدأت تنبح مثنى وثلاث أريت البيت لقرة . ألقينا نظرة صامتة إلى السقف والنوافذ المظلمة . وزّع قرة الرجال حول البيت في البستان الفارغ وعند طرفي باب الحوش ، ووراء أشجار التين التي في الخلف .

قلت : «هنالك متسوّل تتاري سافل في هذا الزقاق . أعمى ولكنه يعرف

الداخل إلى الزقاق والخارج منه أكثر من المختار . وهو يمارس العادة السرية دائماً مثل قرود سلطاننا غير المؤدبة إذا أعطيتموه ثمانية أو عشرة قروش يمكن أن يحكي لكم كل شيء دون أن تلمسوا بيدكم شيئاً » .

من بعيد تفرَجتُ على قرة وهو يعطي التتاريَّ النقود أولاً بعد ذلك يهدده بسيفه الذي أسنده على رقبته . بعد ذلك لا أدري كيف حدث إذ بدأ صبي الحلاق الذي اعتقدت أنه يراقب باب البيت يضرب التتاري بمقبض البلطة . تفرجتُ قليلاً آملة أن الأمر سينتهي بسرعة ، ولكن التتاري صار يبكي ، فهرعت وخلصته من بين أيديهم قبل أن يقتلوه .

كان صبي الحلاق يقول : « ولكنه شتمني » .

قال قرة : « يقول إن حسناً غير موجود في البيت . هل ما يقوله هذا الأعمى صحيح ؟ » . وناولني رسالة كتبها هناك : « خذي هذه إلى البيت . لحسن ، وإذا لم يكن هناك فأعطيها لأبيه » .

وبينما كنت آخذ الرسالة سألته قائلة : « ألم تكتب شيئاً لشكورة ؟ » .

قال قرة : « إذا أرسلتُ لها رسالة مستقلة فهذا سيستفز رجال البيت أكثر . قولي لها إننا عرفنا السافل قاتل أبيها » .

« وهل هذا صحيح ؟ » .

« قولي أنت! » .

وبختُ التتاري الذي ما زال يبكي وأسكتّه . قلت له : « لا تنس أنني عملت هذا من أجلك » وفهمتُ أنني عملت هذا كله لأطيل بقائي هناك .

لماذا دسست أنفي في كل هذه الأمور ؟ قبل سنتين وعدت بائعة صرة رجلاً بتزويج فتاة ، وعندما تزوجت من آخر قطعوا أذنيْ بائعة الصرة وقتلوها . كانت تقول لي أمي إن الأتراك يقتلون في أكثر الأحيان دون سبب . تخيلتُ نسيمي العزيز في البيت وهو يتناول حساء العدس . على

الرغم من أن قدميَ تشدانني خلفاً . ولكنني سرت نحو البيت لإيماني بأن شكورة هناك . والفضول يأكل قلبي أكثر .

« بائعة الصرّة! عندي حرير صيني لألبسة العيد » .

شعرت أن اللون البرتقالي المتسلل من وراء سحابات النوافذ قد تحرك . فتح الباب . أدخلني والد حسن الأكابر . كان البيت دافئاً مثل بيوت الأغنياء . عندما رأتني شكورة وهي جالسة إلى المائدة مع ولديها نهضت .

قلتُ : « شكورة ، لقد جاء زوجك » .

« أيهما ؟ » .

قلت : « الجديد . لقد طوّق البيت برجاله المسلحين . إنهم جاهزون للعراك مع حسن » .قال الحمو الأكابر : « حسن غير موجود في البيت » .

قلت : « الرحمة ، هذا أفضل . خذ أنت هذا واقرأه » وقدمت مكتوب قرة مثل سفير يقدم إرادة سلطانية لا ترحم .

وبينما كان الحمو الأكابر يقرأ الرسالة ، قالت شكورة : « إستر! تعالي أعطيك صحن حساء عدس لتدفئي داخلك به » .

قلت في البداية : « لا أحبه » لم أحبَ حديثها الذي يوحي بأنها تفضّل هذا البيت . ولكنني عندما فهمت أنها تريد لقائي وحدي اختطفت الملعقة ، ولحقت بها .

همستْ قائلة : « قولي لقرة إن كل شيء حدث بسبب شوكت . البارحة انتظرت طوال الليل وحدي مع أورهان خائفة من القاتل ، أورهان طوال الليل يرتجف . لقد فصل ابني عني . أي أم يمكن أن تفصل عن أولادها ؟ عندما لم يعد قرة وصلني خبر أن جلادي السلطان جعلوه يتكلم ، وأنه مشارك في قتل أبي » .

« عندما قتل أبوك ألم يكن قرة معك ؟ » .

قالت محملقة بعينيها السوداوين الجميلتين : « إستر ، أرجوك ساعديني! » .

« قولي لي لماذا عدت إلى هنا لكي أفهم وأساعدك » .

قالت : « وهل تظنين أنني أعرف لماذا عدت ؟ » وتظاهرت في لحظة أنها ستبكي ، وقالت : « قرة ضرب شوكت . عندما قال حسن للولدين إن أباهما الأصلي عاد صدقته » .

ولكنني أدركت أنها تكذب ، وهي مدركة أنني أدركت . همست لي : « خدعني حسن! » وشعرت أنها أرادت أن أفهم أنها تحب حسن . ولكن هل تفهم شكورة أنها بدأت تفكر بحسن أكثر لأنها تزوجت من قرة ؟ » .

فُتح الباب ودخلت خيرية وبيدها قطعة خبز خرجت لتوها من الموقد تفوح منها رائحة زكية . عندما رأتني فهمت من وجهها غير المسرور أنها بموت الأفندي زوج الخالة غدت بلاء على شكورة لا يمكن بيعه ولا رميه ، وانتقل إرثاً لها . ومع دخول الخبز الطازج وعودة شكورة إلى الأولاد فهمتُ الحقيقة الأصلية : ليست هي الخيار بين أبي الولدين الأصلي وحسن وقرة الزوجُ الذي أحبته شكورة وبحثت عنه ، والصعب هو إيجاد أب يحب هذين الولدين المحملقين من الخوف . كانت شكورة مستعدة لحب كل الأزواج الجيدين الحسني النية .

قلت لها دون تفكير : « تبحثين عن الشيء الذي تريدين بقلبك ، مع أنك يجب أن تقرري بعقلك » .

قالت : أعود الآن فوراً مع الولدين إلى قرة ، ولكن لي شرط! » سكتت قليلاً : « سيعامل شوكت وأورهان جيداً ، ولن يحاسبني لأنني لجأت إلى هنا ، وسيلتزم بشروط زواجنا – هو يعرفها – لقد تركني البارحة في البيت وحيدة في مواجهة القاتل واللصوص والمنحوسين وحسن » .

«لم يجد قاتلَ أبيك بعد ، ولكنه قال لي أن أخبرك بأنه وجده»
«هل أذهب إليه ؟» .

وقبل أن أجيب كان الحمو قد أنهى قراءة الرسالة ، وقال : «قولي لقرة چلبي أنا لا أستطيع تحمّل مسؤولية إعادة كنتي له قبل مجيء ابني» .

قلت : «أيهما ؟» من باب المشاكسة ، ولكن بصوت رقيق .

قال : «حسن» وخجل لأنه رجل مهذب : «يقال إن ابني الكبير عائد من دولة العجم ، وهنالك شهود» .

قلت : «أين حسن ؟» وتناولت ملعقتين من الحساء الذي قدمته لي شكورة .

قال : «ذهب إلى أمانة الضرائب ليجمع مَنْ هناك مِن كتاب وحمالين ورجال» . وبدا رجلاً مغفلاً كطفل لا يستطيع سبك الكذبة : «بعد أن عمل الأرضروميون ما عملوه البارحة ملأ الانكشاريون الأزقة» .

وبينما كنت متجهة نحو الباب قلت له : «لم نرهم . هل هذا آخر كلام لك ؟» .

وجهت هذا السؤال للحمي لأخيفه ، ولكنه فهم جيداً أن سؤالي أساساً موجه لشكورة . هل كان عقلها فعلاً قلقاً إلي هذا الحد ؟ أم أنها تخفي أمراً ما ؟ مثلاً هل تنتظر عودة حسن مع رجاله ؟ وفي الحقيقة أنا فرحت لتفهم شكورة أنني أدرك ترددها .

قال شوكت بجرأة : «نحن لا نريد قرة . وأنت لا ترجعي إلى هنا يا سمينة» .

قلتُ : «من سيجلب لأمك الحلوة في هذه الحالة الأغطية ذات (الدانتيل) والمناديل ذات الأزهار والعصافير التي تحبها ، والقماش الأحمر للقمصان الذي تحبه أنت ؟» وفتحت صرتي وسط الغرفة . تفرجوا عليها ريثما أعود . البسوا

ما تريدون ، واربطوا ما تحبون ، وقصوا وخيطوا ما تشاؤون .

شعرت بالكدر وأنا خارجة . لم أر عينيَ شكورة جيداً . وقبل أن أتأقلم مع البرد الذي في الخارج أوقفني قرة في الطريق الطيني حاملاً سيفه .

قلت : «حسن ليس في البيت . لعله ذهب إلى السوق لجلب الخمر من أجل الاحتفال بعودة شكورة . ولعله سيأتي الآن مع رجاله حسب ما قالوا . عندئذ ستتقاتلان لأنه مجنون . خاصة إذا استل سيفه الأحمر ذاك» .

«ماذا قالت شكورة ؟» .

«قال الحمو : لا ، مستحيل ، لا أعطي كنتي . ولكن عليك أن تخاف من شكورة وليس منه . عقل زوجتك تائه . رأيي أنها عادت إلى هنا لإدراكها أنها لن تستطيع قضاء ليلة أخرى في البيت نفسه بعد يومين من مقتل أبيها مع مخاوفها من القاتل وتهديدات حسن وغيابك دون خبر . قالوا لها أن لك إصبعاً في مقتل أبيها . . . ولكن زوجها السابق لم يعد فعلاً . صدّق شوكت كذبة حسن ، ويبدو أن أبا حسن أيضاً صدّق . . . شكورة تنوي العودة إليك ، ولكن لها شروطاً» .

عددت له الشروط وأنا أنظر إلى عينيه . وكما يتكلم سفير حقيقي ، وبلهجة رسمية قبل الشروط .

قلت : «وأنا لي شرط ، أنا سأعود إلى البيت» وأشرتُ إلى النافذة التي خلف الحمي : «بعد قليل اهجموا من هناك ، ومن الباب . عندما أصرخ تتوقفون . وإذا أتى حسن تعاركه دون تردد» .

طبعاً أتت هذه الكلمات من مبعوث لن يتحمل مسؤولية ، ولكن إستر أعطت نفسها للأمر ناسية نفسها . وفور مناداتي : «بائعة الصرة!» فُتح الباب ووقفت أمام الحمي مباشرة» .

قلت : «الحي كله ، وقاضي هذا القسم أيضاً ، والجميع يعرفون أن

شكورة طلقت من زوجها ، وأنها تزوجت حسب تعاليم القرآن الكريم . لو بُعث ابنك الميت منذ زمن طويل ، وعاد من الجنة من عند حضرة موسى فهو مطلّق من شكورة ، ولن يستطيع عمل شيء . إنكم اختطفتم امرأة متزوجة ، واحتجزتموها . قال لي قرة إنه سيحاسبكم مع رجاله قبل أن تدفعوا حسابكم أمام القاضي » .

قال الحمو : « سيُقدم على عمل خاطئ . نحن لم نختطف شكورة! وأنا والحمد لله جدّ هذين الولدين . وحسن عمهما . ماذا كانت ستفعل شكورة عندما بقيت وحدها ؟ لجأت إلينا ، يمكنها أن تعود فوراً إن أرادت . ولكن لا تنسي أن هذا البيت هو بيتها الذي ولدت فيه طفليها وربتهما بسعادة » .

قلت دون تفكير : « شكورة! ألا تريدين العودة إلى بيت أبيك ؟ » .

بدأت تبكي لذكر البيت والسعادة . هل قالت : « أبي غير موجود » أم أنني سمعت هكذا ؟ تمسك الولدان بأثوابها في البداية ، ثم أجلساها ، واندسا في حضنها . تحاضن الجميع وغدوا مثل كرة ، يتباكون . إستر هذه ليست غبية . أدركت جيداً أن بكاء شكورة من أجل إرضاء الطرفين قبل الاختيار ، ولكنني أعرف أيضاً أنها تبكي بحق ، لأنني بدأت أبكي أيضاً . بعد قليل نظرت وإذا بخيرية الأفعى تبكي .

الشخص الوحيد غير الباكي في البيت هو الحمو المهذب ذو العينين الخضراوين ، وهذا نال نصيبه بالهجوم الذي بدأه قرة ورجاله في تلك اللحظة . بدأ الطرق على خشب النافذة ، ودفع الباب . . . ثمة شخصان داهما الباب يطرقانه وكأن كبشاً ينطحه ، ومع كل نطحة يصدر في البيت صوت يشبه انطلاق مدفع .

قلتُ للحمي مستمدة الجرأة من دموعي : « أنت رجل محترم صاحب سمعة جيدة . افتح الباب وقل إن شكورة قادمة لتتوقف الكلاب المسعورة

التي في الخارج » .

« هل ترمين امرأة لجأت إلى بيتك ، وهي كنتك ، إلى الزقاق ، وتتركينها للكلاب ؟ »

قلت : « هي التي تريد الذهاب » ومسحتُ أنفي المسدود من البكاء بمنديلي البنفسجي .

جلستُ بجانب شكورة والولدين . كانت كل حركة جديدة نتيجة الضجيج الذي يحدثه مداهمو الباب سبباً لذرف مزيدٍ من الدموع . اشتد بكاء الولدين ، وهذا ما سرّع دموعي ودموع شكورة . ولكن كلينا نضع حساب الضربات النازلة على الباب وكأنها ستهدم البيت ، وصراخ التهديد الذي يطلقه من في الخارج ، ونعرف أننا نبكي لكسب الوقت .

قلتُ : « يا شكورتي الجميلة ، حموك أذن لك . وزوجك قرة قبل بشروطك فوراً ، وينتظرك بعشق . لم يعد لك شغل في هذا البيت البسي ثياب الخروج ، وضعي برقعك ، وتناولي صرتك ، وهاتي ولديك ولنذهب إلى بيتك » .

سرّعت هذه الكلمات انهمار دموع الولدين ، وفتحتْ عيني شكورة .

قالت : « أنا خائفة من حسن . بعد هذا سيكون الانتقام مخيفاً ووحشياً ، لأنني جئت إلى هنا من تلقاء نفسي » .

قلت : هذا لا ينهي زواجك الجديد . بقيت متأزمة ، لا بد أنك ستلجئين إلى مكان ما . زوجك عفا عما حدث ، وهو يقبلك ، وكما داريت حسن على مدى كل هذه السنوات ستدبرين أمره » . وابتسمت لها .

قالت : « ولكنني لا أفتح الباب لأن هذا يعني عودتي برضائي » .

قلت : « يا روحي . ياشكورتي ، وأنا أيضاً لا أستطيع فتح الباب . أنت تعرفين أن هذا يعني تدخلي في شؤونكم . وهذا يجعلهم ينتقمون مني بقسوة

أكبر » .

قرأت في عينيها أنها تعطيني الحق ، وقالت : «في هذه الحالة لا يستطيع أحد فتح الباب . لنتركهم يكسرونه ويدخلون بالقوة» .

خفت لإدراكي أن هذا الحل هو الأفضل لشكورة وولديها . قلت : «ولكن عندئذ سيراق دم . إذا لم يتدخل القاضي ستصير القضية قضية دم وثأر ، وقضية الثأر تستمر سنينَ طويلة . لا أحد يريد العيش بشرفه ويرضى أن يكسر باب داره وتؤخذ امرأة منه» .

وعندما احتضنت ولديها وبكت بكل قوتها دون أن تجيب إجابة معقولة فهمت نادمة كم أن شكورة ماكرة ودقيقة الحسابات . وفي داخلي صوت يقول لي : اتركي كل شيء واذهبي ، ولكنني لم أعد أستطيع العبور من الباب المدفوع إلى وشك الكسر . في الحقيقة كنت خائفة من كسرهم الباب ، ومن عدم كسرهم له أيضاً . كان يخطر ببالي أنه من الممكن في كل لحظة أن ينسحب رجال قرة الواثقين بي ، والخائفين من تطور الأمور ، وهذا ما سيجرى الحمي ، عندما اندسست جيداً بشكورة فهمت أنها تبكي كذباً ، ولكن الأسوأ أنها كانت ترتجف بشكل لا يمكن تقليده .

اقتربت من الباب ، وصرخت بقوي كلها : «توقفوا ، كفى»

للحظة توقفت الحركة في الخارج والبكاء الذي في الداخل .

وبالهام مفاجئ قلت : «ليفتح أورهان الباب لأمه» ونبرة صوت حلوة كما يحكى مع طفل : «هو يريد العودة إلى بيته ، ولا أحد يغضب منه» .

وما أن أنهيت كلامي حتى ابتعد أورهان من بين ذراعي أمه المرتجفتين ، وبحركة تدل على أنه يعيش في هذا البيت منذ سنوات طويلة سحب المزلاج . ثم رفع خشبة الباب ، بعد ذلك أدار العصفورة وفتحه ، فانسحب رجلان كانا عند الباب مقدار خطوتين . دخل البرد الذي كان في الخارج من

الباب المفتوح تلقائياً . خيّم صمت حتى نبح كلب كسول ، لمجرد النباح ، وسمعنا كلنا . وعندما قبلت شكورة أورهان العائد إلى حضنها ، قال شوكت : سأخبر عمي حسن» .

عندما رأيت شكورة تنهض وتتناول جلبابها وتحضّر صرّتها ارتحت إلى حد خوفي أن أضحك . جلست . وتناولت ملعقتين من حساء العدس .

تصرّف قرة بذكاء أيضاً فلم يقترب من الباب . عندما ألقى شوكت بنفسه إلى غرفة أبيه ، وأغلق الباب بالمزلاج من الداخل لم يخط قرة خطوة نحو البيت على الرغم من ندائنا طالبين المساعدة ، كما أنه لم يدع رجاله يدخلون . عندما سمحت له أمه بأخذ خنجر عمه حسن المرصع مقبضه بالياقوت قبل بالخروج من البيت .

قال الحمو : «عليكم أن تخافوا من سيف حسن الأحمر» بقلق حقيقي أكثر من إعطاء جو الهزيمة والانتقام ، وشمشم شعر حفيديه وقبلهما ، همس في أذن شكورة .

عندما رأيت شكورة تلقي نظرة أخيرة على باب الدار وجدرانها وموقدها تذكرت مرة أخرى أنها قضت هنا أسعد سنوات حياتها مع زوجها السابق . ولكن شكورة هل ترى أن البيت نفسه الآن مأوى رجلين وحيدين وتفوح منه رائحة الموت ؟ ولأنها جرحت قلبي لم أندس بها في طريق العودة .

ليس برد الليل بل ضيق المعابر والخوف من حسن هو الذي كان يقربنا من بعضنا البعض نحن الطفلين اليتيمين والنساء الثلاثة إحدانا جارية والثانية يهودية والثالثة أرملة . تسير قافلتنا المزدحمة والمحمية برجال قرة كما تحمى خزينة من الأحياء المتطرفة والأزقة الفرعية والضيقة التي لا يمر منها طير ولا تعبر منها قافلة لكي لا نصطدم بالحراس والانكشاريين وقبضايات الأحياء الفضوليين واللصوص وحسن . في بعض الأحيان كنا نعبر الظلام الدامس

مصطدمين ببعضنا البعض وبالجدران . التففنا على بعضنا البعض جيداً معتقدين أن الأشباح والجان والشياطين التي ستخرج من تحت الأرض ستخطفنا في ظلمة الليل . وخلف الجدران والأبواب والنوافذ التي نستشعرها بأيدينا نسمع شخير النائمين وسعالهم وأنين الحيوانات في اسطبلاتها .

أنا إستر وطئت أحياء إسطنبول كلها عدا تلك الأفقر والأسوأ أي أحياء المهاجرين والمنحوسين من مختلف الملل ، وعلى الرغم من اعتقادي أنني أدور في أزقة مظلمة جداً لا تنتهي ، أتعرف على بعض الزوايا التي أعبرها صابرة وحاملة صرتي بيدي في النهار . عرفت جدران زقاق (ترزي باشي) ورائحة الروث الحادة حدة القرفة من الاسطبل المحاذي لحديقة الشيخ نور الله ، والأمكنة المحروقة في زقاق (جنباظلر) ، ومعبر زقاق (ضوغانجيلر) المفتوح على ساحة نبع الحاج الأعمى ، وفهمتُ أننا لسنا ذاهبين إلى بيت المرحوم أبي شكورة بل إلى مكان آخر لم أعرفه .

فهمت بسرعة أن قرة وجد مكاناً ليخبئ عائلته من حسن الذي لا يُعرف ماذا سيعمل عندما يسيطر عليه الغضب - ومن ذلك القاتل الشيطان - لو عرفت ذلك المكان لأخبرتكم به الآن ، وأخبرت به حسناً في صباح اليوم التالي . لا لأنني سيئة ، بل لثقتي أن شكورة ستطلب اهتمام حسن بها . ولكن قرة الذكي لم يعد يثق بي نهائياً وهو على حق في هذا .

عندما كنا في زقاق مظلم خلف سوق النخاسة تناهى إلى سمعنا صراخٌ وصياحُ ونداء استغاثة ينبعث من طرف الزقاق . سمعنا تدافعاً وتضارباً ، وعرفت بخوف تلك الأصوات التي تنبعث من تصادم البلطات والسيوف والعصي عند بدء العراك ، والتي لا شبيه لها . والصراخ المؤلم .

أعطى قرة سيفه لأحد رجاله الواثق منه ، وأخذ الخنجر من يد شوكت بالقوة وأبكاه ، وأبعد شكورة وخيرية والولدين مع صبي الحلاق والرجلين

الآخرين . قال خريج المدرسة أنه سيأخذني إلى بيتي من طريق مختصر ، ولم يتركني معهم . هل كان هذا مصادفة أم مكراً لإخفاء المكان الذي سيختبئون فيه عني ؟

في نهاية زقاق ضيق اضطررت للعبور منه ثمة دكان فهمت أنه مقهى . لعل عراك السيوف قد انتهى قبل أن يبدأ . ثمة مجموعة تدخل وتخرج صارخة - اعتقدت أنهم يسلبون في البداية - كانت تخرب المقهى . يخرجون الفناجين والغلايات والكؤوس والطاولات ثم يكسرونها على مرأى منا جميعاً في ضوء المشاعل لكي نأخذ عبرة نحن المتفرجين الفضوليين . ضربوا أحدهم حاول إيقاف هذا الأمر ، ولكنه تخلص منهم بعد ذلك . في البداية اعتقدت أن همهم القهوة فقط . كانوا يشرحون مضارها ، وتخريبها للعيون والمعدة وتشويشها للعقل وإخراجها الإنسان عن إيمانه ، ويقولون إنها سم أفرنجي ، ويشرحون كيف رفضها حضرة محمد على الرغم من أن شيطاناً بزي امرأة جميلة قدمها له . كأنها ليلة تربوية ، حتى إنني فكرت أن أقول لنسيم : «لا تشرب من ذلك الزقوم» عندما أعود إلى البيت .

لوجود كثير من غرف العازبين وخان رخيص اجتمع عدد كبير ممن لا شغل لهم ولا عمل ، ودخلوا المدينة هرباً وليس ثمة ما يمنعهم عن عمل أي شيء من أعمال كلاب الأزقة ، وهذا ما شجع أعداء القهوة . عندئذ فهمت أن هؤلاء رجال الواعظ الأرضرومي الشهير نصرت . وهؤلاء يدعون أنهم سينظفون مكان الفحش والخمر والمقاهي في اسطنبول ، ويعاقبون الخارجين عن طريق حضرة محمد ، الراقصين في التكيات برفقة الموسيقى . البارحة شتموا أعداءهم والمتحالفين مع الشيطان ، وعبدة الأصنام ، والزناديق ، والرسامين . عندئذ تذكرت أن هذا المكان هو المقهى الذي يُعلق فيه رسم ، وينالون فيه باللسان الدين والشيخ الأرضرومي ، ويُقدمون فيه على مختلف

أشكال قلة الأدب .

خرج صبي قهواتي رأسه غارق بالدم اعتقدت أنه سينهار ، لكنه مسح بطرف صدر قميصه الدم عن جبينه وخدَيه ، ودخل بيننا ، صار يتفرج على المداهمة . خف المزدحمون فتراجعوا قليلاً . انتبهت أن قرة رأى أحدهم وسط الظلام فوقف متردداً لحظة . فهمتُ من خلال استجماع الأرضروميين بعضهم البعض أن الانكشاريين أو مجموعة أخرى مسلحة بالعصي قادمة . أُطفئت المشاعل ، وتفرق الزحام .

أمسكني قرة من ذراعي ، وجعلني أسير خلف خريج المدرسة . قال : «اذهبا من الأزقة الفرعية ، سيوصلك إلى بيتك» . يريد خريج المدرسة التخلص في أسرع وقت ، فابتعد بخطوات سريعة . كان عقلي عند قرة ، ولكن إذا أظهرت إستر حركة غير عادية فلا تستطيع إكمال الحكاية لكم .

* * *

۵٤

أنا امرأة

يقولون : يا مداح أفندي! أنت تستطيع القيام بأي تقليد ، ولكنك لا تستطيع أن تكون امرأة . وأنا أدعي عكس هذا . نعم ، لم يُقسم لي الزواج لأنني أتجول على المدن وأقوم بكل تقليد حتى منتصف الليل ، وحتى يبح صوتي في الأعراس والأفراح والمقاهي حاكياً الحكايات ، ولكن هذا لا يعني أننا لا نعرف معشر النساء .

أنا أعرف النساء جيداً . حتى إنني قابلت شخصياً أربعاً منهن ، ورأيت وجههن وتكلمت معهن :

١- المرحومة أمي . ٢- خالتي الحبيبة . ٣- زوجة أخي الكبير التي كانت تضربني دائماً ، وعندما رأتني قالت لي : «اخرج من الغرفة» (عشقتها في البداية) . ٤- امرأة رأيتها للحظة في نافذة مفتوحة في مدينة قونية في إحدى جولاتي . وعلى الرغم أنني لم أكلمها أبداً شعرت بشهوة نحوها على مدى سنوات طويلة ، وما زلت . لعلها اليوم ماتت .

لأن رؤية امرأة والحديث معها والتعرف عليها بحالاتها الإنسانية يفتح لدينا نحن معشر الذكور باب الشهوة ، وآلاماً معنوية عميقة يرى ديننا أنه من الأفضل عدم رؤية النساء وخاصة الجميلات منهن قبل الزواج . الحل الوحيد لسد المشاعر الشهوانية هو إقامة علاقة مع الغلمان الحلوين الذين

يجعلون الإنسان لا يسأل عن المرأة ، وفي النهاية تغدو هذه عادة حلوة . وتجول النساء في مدن الأفرنج سافرات ليس الوجه فقط . بل الشعر المتلامع وهو أكثر أجزائهن جاذبية ، ورقابهن ، وأذرعهن وصدورهن ، وأرجلهن الجميلة إذا كان ما يحكى صحيحاً فإنه يجعل رجالهم قائمي الذي أمامهم بشكل دائم ، ويتألمون خجلاً ، ويسيرون بصعوبة ، يتعرضون للإصابة بالفالج ، وهذا هو سبب خسارة الكافر الأفرنجي قلعة كل يوم أمام العثمانيين .

بعد إدراكي ومنذ بداية شبابي أن الطريق الأفضل لسعادة روحي وراحتها هو العيش بعيداً عن النساء الجميلات صرت أتوق لحالة النساء . ولأنني في تلك الأثناء لم أر في حياتي من النساء سوى أمي وخالتي صار فضولي غانماً ، وكأن عقلي يتوقف عن التفكير ، وأدركت أنني لا يمكن لي معرفة إحساسهن إلا بتكرار كلماتهن وتقليدهن وارتداء أثوابهن . وهكذا في أحد أيام الجمعة عندما ذهب أبي وأمي وأخي الكبير وخالتي إلى حديقة جدي على شاطئ (فهرنغ) قلت لهم إنني مريض جداً ، وبقيت في البيت .

قالت المرحومة أمي : «تعال تفرج على الكلاب والأشجار والخيول في البستان ، وهنالك عندما تراها تقلدها وتضحكنا . ماذا ستفعل وحدك في البيت ؟» .

لم أستطع قول : «سأرتدي ثيابك وأغدو امرأة يا أمي العزيزة» وقلت : «بطني تؤلمني» .

قال أبي : «لا تظهر كثرة التمارض . تعال لنتصارع» .

والآن سأحكي لكم يا أخوتي الخطاطين والنقاشين عما شعرت به بعد ذهابهم ، وفي أثناء ارتدائي ألبسة المرحومتين أمي وخالتي الداخلية والخارجية ، وأسرار صيرورتي امرأة ، التي تعلمتها في تلك الأيام . بداية

سأقول لكم فوراً : إن الإنسان عندما يصبح امرأة لا يشعر أنه شيطان كما قرأنا في كثير من الكتب ، وسمعنا في كثير من العظات .

على العكس تماماً ، عندما ارتديت سروال أمي الداخلي الصوفي المطرز بأشكال الورد سرى في داخلي شعور ممتع بالطيب ، وشعرت أنني حساس مثلها . وعندما لامس قميص خالتي الحريري الفستقي اللون ، الذي لا تفرط بارتدائه ، بشرتي العارية تأجج في داخلي شعور بالحب للأطفال جميعاً ، وحتى لنفسي أيضاً ، أردت أن أطبخ طعاماً للناس كافة ، وأرضع الأطفال كلهم . ترى كيف سأشعر لو صار لي ثديان ؟ وهكذا بعد أن فهمت قليلاً ، أدركت أن ما أريد هو شعور المرأة ذات الثديين الكبيرين ، لهذا دسستُ كثيراً من الأشياء - مناشف وجوارب - وعندما رأيت بروزاً ضخماً ، شعرت بغرور كالشيطان . ولو شاهد الرجال ظلهما فقط سيركضون خلفهما ، ويتوسلون لوضعهما في أفواههم . وشعرت بأنني قوي لإدراكي هذا ، ولكن هل أريد أن أكون قوياً ؟ تشابكت أفكاري : أريد أن أكون قوياً ، وأن يشفق الآخرون عليَ أيضاً ، أريد أن يحبني حتى الجنون رجل غني وقوي وذكي لا أعرفه قط ، وأخاف منه أيضاً في آن واحد . لبست الأساور الذهبية المبرومة التي تخبئها أمي في الجوارب الصوفية الزكية الرائحة إلى جانب الأغطية المطرزة بأوراق الأشجار في قعر صندوق جهازها . دهنت على وجهي من الحمرة التي تدهن أمي بها وجهها عند العودة من الحمام لتبدو أكثر احمراراً ، وارتديت جلباب خالتي الأخضر الصنوبري ، وربطت شعري ، وأنزلت على وجهي البرقع من اللون نفسه . وعندما نظرت إلى وجهي في المرآة ذات الإطار الصدفي ارتعدت . وعلى الرغم من عدم لمـــي العيون والرموش أبداً شعرت أن عيني ورموشي هي عينا ورموش امرأة . كان لا يظهر مني سوى العينين والرموش ، ولكنني كنت امرأة جميلة جداً ، وهذا أسعدني جداً .

وشعَرَ ذكري بهذا قبلي فانتصب ، وهذا ما أتعسني .

تابعت مسير قطرة دمع سالت من عيني في المرآة التي أمسكها بيدي . وفي تلك اللحظة أُلهمت شعراً لا أنساه أبداً . لأنني في الوقت نفسه وبإلهام من الله تعالى رددت ذلك الشعر على مقام موسيقي ورقصت عاملاً على نسيان همّي .

يقول قلبي المتردد :

أريد أن أكون في الغرب عندما يكون في الشرق ،
وفي الشرق عندما يكون في الغرب .
أريد أن أكون ذكراً عندما أكون أنثى
وأنثى عندما أكون ذكراً .
يا لصعوبة الكينونة إنساناً
والأصعب حياة إنسانية
أريد أن أستمتع بأمامي وخلفي
وبغربي وشرقي .

كنتُ سأقول : أخشى من سماع أخوتنا الأرضروميين أنني رددت الأغنية التي خطرت ببالي ، سيغضبون كثيراً . لماذا أخاف ؟ لعلهم لا يغضبون . لأنني لا أرددها من أجل القيل والقال فقط كما ترون . ولكن أما سمعتم بالواعظ الشهير حضرة الشيخ حصرت أفندي ؟ من ناحية الزواج فهو متزوج ، ولكنه مثلكم أيها النقاشون الحساسون يحب الغلمان الحلوين أكثر منا نحن النساء ، وهذا على ذمة الذين حكوا لي ، ولكنني لا أهتم له لأنني أعتبره سيئاً أصلاً وهو مسنّ جداً أيضاً . أسنانه مقلّعة ، وحسب قول الغلمان الحلوين المقربين منه فإن رائحة فمه كريهة جداً . عدم المؤاخذة مثل رائحة مؤخرة الدب .

حسنٌ ، سأغلق فمي ، ولكنني سأعود إلى موضوعي الأساسي : فور إدراكي أنني جميلة جداً لم أعد أريد أن أغسل وأجلي المواعين وأخرج إلى السوق مثل الجاريات . الفقر والبكاء والأسى والشعور بالخيبة عند النظر إلى المرآة والبكاء والحزن من أمور النساء القبيحات . عليَ أن أجد زوجاً يرفعني على الراحات ، ولكن من هو ؟

وهكذا بدأت أتفرج من ثقوب الجدران على أولاد الباشاوات والسادة بمختلف الذرائع . أريد أن يشبه وضعي وضع تلك المرأة الجميلة المعروفة ذات الولدين والفم الصغير التي يعشقها النقاشون كلهم . الأفضل أن أحكي لكم حكاية شكورة المسكينة . ولكن قفوا ، لقد وعدتكم أن أحكي لكم مساء الأربعاء هذه الحكاية :

حكاية العشق التي جعل الشيطان امرأة تحكيها .

في الحقيقة إنها حكاية بسيطة . حدثت في حي فوق السور ، أحد أحياء اسطنبولنا الفقيرة . أحد وجهاء الحي أحمد چلبي يعمل كاتباً عند واصف باشا ، وهو رجل بحاله لا يتعاطى مع أحد متزوج ، لديه ولدان . في أحد الأيام رأى في إحدى النوافذ المفتوحة حسناء بوشناقية فاحمة الشعر ، سوداء العينين ، طويلة القامة ، فضية البشرة ، نحيلة الخصر ، وقع في عشقها . ولكن المرأة متزوجة ، ولا تحب الچلبي بل تحب زوجها الوسيم . وهكذا لا يستطيع الچلبي المسكين فتح الموضوع لأحد ، وغدا مثل خيط يدخل في إبرة ، يشتري الخمر من الروميين ويشرب ، ولكن في النهاية لا يستطيع إخفاء عشقه عن أهل الحي . ولأنهم يحبون حكايات العشق كثيراً ، ويحبون الچلبي ويحترمونه احترموا عشقه بداية ، بعد ذلك تمازحوا حوله بمزحة أو اثنتين . وتجاهلوا أمره . ولكن الچلبي الذي لم يستطع التحكم بآلامه التي لا دواء لها عندما صار يسكر كل يوم ، ويجلس عند باب البيت الذي تعيش فيه ذات

البشرة الفضية البرّاقة مع زوجها سعيدة ، ويبكي مثل الأطفال ، خاف الجميع . وكلما ازداد العاشق ألماً بكى أكثر كل مساء ، وهم لا يستطيعون ضربه وطرده من هناك كما لا يستطيعون تسليته . والچلبي لا يُسمِع أحداً كلاماً سيئاً ، ويبكي بحرقة فقط . وبالتدريج انتشر كدره اليائس في الحي ، وأصبح الجميع مكدرين وتعساء ، وهرب مزاجهم . وصار منبع كدر مثل صنبور الساحة الذي يتدفق منه الماء بحزن دون توقف . في البداية شاعت كلمة الكدر ، بعد ذلك النحس ، وبعدها فكرة اللا بركة . بعضهم انتقل إلى مكان آخر ، وسارت أعمال بعضهم بشكل سيئ ، وأصبح بعضهم لا يتقن فنه لأن مزاجه تعكر . وفي أحد الأيام بعد أن فرغ الحي وأخذ الچلبي العاشق زوجته وأولاده وانتقل إلى مكان آخر بقيت الحسناء ذات البشرة الفضية البراقة وزوجها وحدهما ، والكارثة التي سببها عشقهما برّدت هذا العشق ، وأوجدت نزاعاً بينهما . عاشا معاً إلى نهاية عمرها ، ولكنهما لم يسعدا أبداً .

كنت سأقول إنني أحب هذه الحكاية كثيراً لأنها تشرح خطورة العشق والنساء ، أي ، أي ، أي نسيت . وهل بقي لي عقل ؟ بما أنني الآن امرأة سأقول أمراً آخر . حسنٌ شيء من هذا القبيل :

آه ، يا لجمال العشق!

ولكن من هؤلاء الغرباء الذين يدخلون من الباب ؟

* * *

٥٥

ينادونني فراشة

عندما رأيت الزحام فهمت أن الأرضروميين يقتلون جماعتنا النقاشين .

كان قرة أيضاً وسط الزحام الذي يتفرج على المداهمة . بيده خنجر ويجانبه مجموعة من الرجال الغرباء . رأيت إستر الشهيرة بائعة الصرة وامرأتين أخريين حاملتين صرراً . بعد أن تفرجت على الذين ضربوا ضرباً مبرحاً ، والذين خربوا أغراض المقهى خطر ببالي أن أهرب . بعد ذلك جاءت مجموعة أخرى . إنها غالباً من الانكشاريين . أطفأ الأرضروميون مشاعلهم وهربوا .

لم يكن ثمة أحد عند باب المقهى المظلم ، ولا أحد يتفرج . دخلت : المكان مليء بالكسر ، سرتُ وأنا أطأ على كسارة الفناجين والصحون والكؤوس والأطباق والزجاج . لم يكسر القنديل المعلق على مسمار في أعلى الحائط في أثناء ذلك الصخب ، ولكنه لم يكن ينر أرض لمقهى المغطاة تماماً بالكسارة والطاولات المحطمة وقطع الخشب المتبقية من البسطة بل كان ينير بقع الشحار التي على السقف .

أحدهم دخل إلى المقهى أيضاً . انكمشتُ في البداية ، ولكن بعد ذلك شعرت أنه قرة . اقتربنا من الجسد المسجى على الأرض . عندما قربنا المصباح من وجهه رأينا ما نعرفه مستقراً في زاوية عقلنا منذ زمن : قتلوا

المدّاح .

لم يكن ثمة أثر للدم على وجهه المشبه بالمرأة بواسطة الأصباغ ، ولكن حنكه وفمه المصبوغ بالأحمر مسحوقان ، وعينيه مكدمتان ، ورقبته المزرقة معصورة . يداه ممتدتان إلى الخلف من جانبيه . وليس من الصعب الاستنتاج أن أحدهم أمسك يدي العجوز المرتدي ثياب النساء إلى الخلف ، ولكمه الآخرون على وجهه ثم خنقوه . هل قالوا : «اقطعوا اللسان الذي يمتد إلى حضرة الأفندي الشيخ الواعظ» وأقدموا على هذا العمل ؟

قال قرة : «خذ المصباح إلى هناك» وسقطت أشعة المصباح على طاحونات القهوة المكسَّرة والمناخل والميزان وقطع الفناجين وسط القهوة الطينية المسفوحة بجانب الموقد . بحث قرة في ضوء المصباح عن أدوات الرجل المقتول وحزامه ومنشفته وعصاه التي تحدث صوتاً في الزاوية التي يعلّق المداح فيها رسماً كل مساء . قال إنه يفكر بالرسوم . أمسك المصباح الذي أخذه من يدي ، ورفعه إلى وجهي : نعم لقد رسمت له اثنين منها على سبيل الصداقة . لم نجد سوى الطاقية العجيبة التي كان يضعها المرحوم على رأسه الحليق تماماً .

خرجنا إلى الظلام من معبر ضيّق يؤدي إلى الباب الخلفي دن أن نصادف أحداً . لا بد أن أهل الداخل والنقاشين قد هربوا من هذا الباب في أثناء المداهمة . ولكن أصص الزرع المتناثرة وأكياس القهوة المقلوبة تدل على وقوع عراك هنا .

مداهمة المقهى ، وقتل الأستاذ المداح بقسوة ، وظلام الليل المخيف قربنا قرة وأنا من بعضنا . وأعتقد أن هذا سبب الصمت المخيّم علينا . عبرنا زقاقين . أعطاني قرة المصباح الذي في يده لأحمله ، بعد ذلك سحب خنجره ووضعه على رقبتي .

قال : «سنذهب إلى بيتك . أريد تفتيشه ليرتاح قلبي» .
قلت له : «فتشوه» وسكتُ .

شعرت بأنه يستصغرني ولا يغضب مني . أليس تصديق قرة للشائعات التي تروّج عني تشير إلى أنه من الحساد العاديين ؟ إنه يمسك خنجره دون ثقة كبيرة بنفسه .

بيتي في الاتجاه العكسي للزقاق الذي خرجنا إليه من الباب الخلفي للمقهى ، ولكي لا نمر وسط الزحام انعطفنا في الأزقة إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة ، وعبرنا حدائق فارغة تفوح منها رائحة الأشجار المكدرة راسمين قوساً كبيراً . لم ينقطع الصخب المنبعث من المقهى الذي درنا حوله كنا نسمع صوت تراكض الأرضروميين ومن خلفهم الانكشاريين ، وحراس الأحياء ، والشباب . قطعنا منتصف الطريق ، ووصلنا إلى مكان .

قال قرة : «قضيت يومين في غرفة الخزينة مع الأستاذ عثمان نتفرج على روائع الأساتذة القدماء» .

سكتُ فترة طويلة . بعد وقت طويل كدت أصرخ قائلاً : إذا جلس نقاش على مقعد واحد مع بهزاد بعد عمر معين فإن ما يراه يمتع عينيه فقط ، ويمنح روحه طمأنينة وانفعالاً ، ولكنه لا يغني مهارته . والنقش لا يعمل بالعين بل باليد ، واليد من الصعب أن تتعلم ليس بعمر الأستاذ عثمان بل حتى بعمري» .

ولكي تفهم زوجتي التي أثق بأنها تنتظرني أنني لست وحدي ، ولكي لا تتقابل مع قرة كنت أتكلم بصوت مرتفع ، وليس لأنني آخذ هذا المخبول المسكين الحامل الخنجر على محمل الجد .

عندما كنا نعبر باب الحوش تهيأ لي أن ثمة ضوء مصباح يتحرك في البيت ، ولكن الآن ، ولله الشكر ، كل مكان مظلم . أقضي وقتي باحثاً عن

ذكريات الله لرسمها ، وعندما تتعب عيناي أمارس الحب مع زوجتي أجمل نساء العالم في بيتي الذي يشبه الجنة ، وشعرت أن دخول حيوان يحمل خنجراً يشبه اعتداء على العرض ، وأقسمت أن أنتقم من قرة .

نظر إلى أوراقي وإلى صفحة أعمل على إنهائها - المحكومون الحاصلون على حسنة السلطان ، والمتخلصون من قيد الدين - وعلى أصباغي ورحلاتي وسكاكيني وفراشيَ وعلى كل شيء بجوار مسند الكتابة الخشبي ، ومرة أخرى إلى الأوراق وأدوات صقل الورق ، وبرّاياتي ، ونظر بين علب الورق والأقلام ، وفي الخزانة التي أسفل الجدار ، والصناديق ، تحت الفرش ، وعند مقصات الورق ، وتحت الفرشة الحمراء الناعمة ، وبعد ذلك تحت السجادة ، وعاد مرة أخرى يقرب المصباح أكثر وينظر إلى الأمكنة نفسها . لا يفتش بيتي كما قال عندما سحب الخنجر ، بل يفتش الغرفة التي أنقش فيها . إذا أردت إخفاء شيء كأنني لا أستطيع إخفاءه في الغرفة التي تراقبنا منها زوجتي الآن ؟

قال : «هنالك رسم أخير للكتاب الذي حضره زوج خالتي . قاتله أخذ ذلك الرسم» .

قلت بسرعة : «كان مختلفاً عن الرسوم الأخرى . طلب مني المرحوم زوج خالتك رسم شجرة في إحدى زواياه . وستُرسم أمورٌ ما في الخلف ، ويُرسم شخص في الوسط والأمام . أعتقد أنه سترسم شمائل السلطان ، المكان الواسع الكبير كان جاهزاً ولكنه لم يُرسم . ولأن الأجسام تصغر في البعيد كما يرسم الأفرنج طلب مني رسم الشجرة صغيرة . ومع التقدم في الرسم سيعطي انطباعاً بأننا ننظر من نافذة وليس إلى رسم . عندئذ فهمت أنه في طريقة المنظور الأفرنجية يحل التذهيب والتسطير محل إطار النافذة» .

«كان ظريف أفندي يعمل التذهيب والإطار» .

« إذا كنت تسأل عن هذا فأنا لم أقتله » .

قال بسرعة : « إذا قتل الإنسان فلا يقول إنه قتل » . وسأل عما كنت أعمله عندما دوهم المقهى ؟ .

وضع المصباح على مبعدة من الفراش الذي أجلس عليه بين أوراقي والصفحات التي أنقشها بحيث ينير وجهي . أما هو فقد كان يتجول في الغرفة مثل ظل وسط الظلام .

إضافة إلى ما قلته لكم قلت له إنني في الحقيقة لا أذهب إلى المقهى إلا نادراً وكنت ماراً من هناك مصادفة ، وقد رسمت اثنين من الرسوم التي علقت هناك ولكنني لست مسروراً لما يجري في المقهى . وقلت : « إذا لم يستمد النقش قوته من مهارة النقاش وعشق النقش ذاته وإرادة لقاء الله ، وإذا استمد قوته من استصغار مساوئ الحياة وإرادة المعاقبة ففي النهاية يستصغر النقاش نفسه ويعاقبها . وليكن المُستصغر الواعظ الأرضرومي أو الشيطان نفسه . فوق هذا لو لم يتعرض ذلك المقهى للأرضروميين لما داهموه اليوم على الأغلب » .

قال السافل : « ولكنك كنت تذهب إلى هناك » .

« كنت أذهب لأنني كنت أستمتع هناك » هل كان يدرك كم كنت أتكلم بصدق ؟ وأضفت قائلاً : « نحن أبناء آدم ، على الرغم من معرفتنا بعقلنا ووجداننا بشاعة وخطأ شيء ما فإننا نستمتع كثيراً من ذلك الشيء . وكنت أخجل من استمتاعي بتلك الرسوم الرخيصة والتقليد ومن حكايات الشيطان والنقود والكلب التي يحكيها بشكل فظ دون التزام بقواعد العروض والقافية » .

« إذن لماذا كنت تذهب إلى مقهى عديمي الإيمان أولئك ؟ » .

قلتُ موافقاً صوتاً ينبعث من داخلي : « حسنٌ ، سأقول لك إنني أيضاً

أشعر بشبهة تنهش داخلي مثل الدود ، ومنذ أن اعتبرت أمهر نقاشي النقش خانة ليس من طرف الأستاذ عثمان فقط ، بل من قبل سلطاننا أيضاً بشكل واضح . بدأت أخاف من حسد النقاشين الآخرين ، ولكي لا يغرقونني في ملعقة ماء بدأت أذهب إلى الأمكنة التي يذهبون إليها ، وأقضي معهم بعض الأوقات ، وأعمل على التشبه بهم . هل تفهم ؟ وبعد أن صاروا يقولون عني إنني أرضرومي أذهب إلى مقهى عديمي الإيمان السافلين أولئك لكي لا يؤمن أحد بهذه الأقوال » .

« قال الأستاذ عثمان إنك تعمل أشياء كثيرة للاعتذار من أجل مهارتك وموهبتك » .

« وماذا قال بحقي ؟ » .

« قال إنك بدأت ترسم رسوماً تافهة صغيرة لا معنى لها على حبات الأرز والأظافر ليؤمن الآخرون أنك زهدت الحياة في سبيل النقش . وتبذل الجهود دائماً ليُسرّ الآخرون بك لأنك تخجل من مهارتك التي وهبها الله لك » .

قلت بصدق : « الأستاذ عثمان بمرتبة بهزاد . غير هذا ؟ » .

قال السافل : « وذكر عيوبك دون تردد » .

« هل ذكر عيوبي »

« قال على الرغم من مهارتك فأنت تنقش من أجل نيل تقدير الآخرين وليس من أجل عشق النقش . وأكثر ما يمتعك في أثناء النقش تخيل الاستمتاع الذي سيحظى به الآخرون عند النظر إلى الرسم . مع أنه يجب أن تنقش من أجل الاستمتاع بالنقش » .

قول الأستاذ عثمان ما يفكر فيه حولي دون مواربة لشخص وهب حياته للكتابة والمراسلة والمراءاة وليس للنقش جرحني في قلبي . وقال قرة المزيد : « إن الأساتذة القدماء الكبار كلهم يهبون حياتهم كلها للحصول على

أسلوب ، ولا يتراجعون أبداً أمام قوة شاه جديد أو مزاج أمير جديد أيضاً ، أو ذوق عصر جديد . لهذا السبب فقد أعموا أنفسهم ببطولة لكي لا يجبروا على تغيير أسلوبهم . أما أنتم فقد قلدتم دون شرف أساتذة الأفرنج من أجل كتاب زوج خالتي بذريعة أن سلطاننا يريد هذا » .

قلت : «لم يقصد الأستاذ عثمان كبير النقاشين شيئاً سيئاً . . . سأغلي (الإهلامور) من أجل ضيفي » .

انتقلت إلى الغرفة المجاورة . قفزت نحوي زوجتي العزيزة مرتدية ثوب نوم من الحرير الصيني اشترته من المرأة إستر بائعة الصرة ، وقالت مقلدة لي : «سأغلي الإهلامور لضيفي » . ومدت يدها إلى قصبتي .

تناولت السيف ذا القبضة المرصعة بالعقيق الموضوع بين الأغطية التي تفوح منها رائحة الورد في أسفل الخزانة في المكان الأقرب للمكان الذي نفرش فيه فراشنا ، وسحبته من غمده . كان حاداً إلى درجة أننا إذا ألقينا فوقه منديلاً حريرياً يقسمه إلى قسمين . لو أفلت فوقه ورق الذهب فإن القطع التي يقطعها ستكون مستقيمة وكأنها مسحوبة بالمسطرة .

دخلت إلى غرفة النقش مخبئاً سيفي . كان قرة أفندي مستمتعاً باستنطاقي ، وما زال يدور حول فراشي الصغير الأحمر حاملاً خنجره . وضعت على الفراش صفحةً نُقش نصفها ، وقلت : «انظر إلى هذه! » انحنى عليها بفضول عاملاً على فهمها . التفتت إلى خلفه ، سحبت سيفي ، وبقفزة واحدة نزلت فوقه وأوقعته . سقط خنجره . أمسكته من شعره ، ووضعت رأسه على الأرض ، وأسندت سيفي على رقبته وجسدي الثقيل يسحق جسد قرة الظريف الملتصق بالأرض . وكانت ذقني أيضاً تضغط مع يدي إلى حد تكاد تلامس الحد الآخر للسيف . إحدى يدي مليئة بشعره الوسخ . يدي الأخرى تسند السيف إلى رقبته الظريفة . تصرف بذكاء، فلم يتحرك لأنني

كنت سأريق دمه . لو كنت في زمن آخر لصفعته فوق شعره المتجعد ، ورقبته التي تؤجج شهية الصفع . ولكوني قريباً جداً من أذنيه تخربت أعصابي أكثر . همست في أذنه كأنني أسرّه بسر قائلاً : « أنا أمسك نفسي بصعوبة عن قتلك » .

عدم نبسه واستماعه إليّ مثل الأولاد العاقلين أسعدني . همست قائلاً : « أنا أعرف تلك الأسطورة من الشاه نامة . يرتكب الشاه الأب فريدون خطأ ويمنح الجزأين الأسوأين - من مملكته التي قسمها إلى ثلاثة - لولديه الكبيرين ، ويمنح الأفضل ، إيران ، للصغير آرش . ويُوقع طور المصمم على الانتقام أخاه الأصغر آرش ، قبل أن يقطع رقبته ، يمسك شعره كما أمسك شعرك أنا الآن تماماً ، ويرخي بجسده بكل ثقله فوق أخيه كما أفعل أنا الآن أيضاً . هل تشعر بثقل جسدي فوقك الآن ؟ » .

لم يجب ، ولكنني فهمت من عينيه اللتين تنظران مثل خروف القربان أنه يصغي ، ثم ألهمت القول : « أنا ملتزم بأساليب العجم وأصولهم ليس في مجال الرسم فقط بل بإسناد السيف على الرقبة وقطع الرأس بعناية أيضاً . ورأيتُ نوعاً آخر لهذا الموقف المحبوب جداً في الرسوم التي تحكي عن موت الشاه سياووش » .

حكيت لقرة مسهباً كيف جهّز أخوة سياووش أنفسهم للانتقام من أخيهم ، وإحراقهم قصره وأملاكه وماله واستباحتهم زوجته ، وكيف امتطى جواده وخرج بجيشه إلى الحرب وخسرها وكيف جرجر فوق ساحة المعركة المغطاة بالأجساد وسط الغبار من شعره ، وكيف مددوه على الأرض كما هو الآن ، بعد ذلك كيف أسندوا خنجراً إلى رقبته وتناقشوا بين أصدقائه وأعدائه حول قتله أو العفو عنه ، وكيف استمع الشاه المهزوم لهذا النقاش ، وقرة يستمع إليّ ساكناً ، ثم سألت قرباني : «هل تحب ذلك الرسم ؟ لقد اقترب

أخو سياووش غيروي من الخلف كما اقتربت أنا ، وقفز فوقه ، وأسند سيفه إلى رقبته ، وأمسك شعره ثم قطع رأسه ، وانبعث من الدم المراق على الأرض دخان أسود ، بعد ذلك تفتحت هنالك الأزهار » .

سكت قليلاً ، واستمعنا معاً إلى الأرضروميين وهم يتراكضون بعيداً بين الأزقة صارخين . الكارثة والرعب اللذان في الخارج قرّبانا وبسرعة نحن المتمددين فوق بعضنا البعض أكثر .

قلت قابضاً على شعر قرة بقوة أشد : « ولكن في الرسوم كلها تتداخل الأجساد تداخل جسدينا الآن ، وتشعر بصعوبة رسمها بظرافة لتبدو أنها تكره بعضها البعض كما يكره كل منا الآخر ، وكأن الخيانة والغيرة وتشابك عناصر الحرب التي سبقت لحظة العصبية ، وعملية قطع الرأس الرائعة قد خمدت أكثر قليلاً مما يجب . يصعب على أكبر الأساتذة القزوينيين رسم رجلين أحدهما فوق الآخر ، فيخلطون كل شيء . ولكن انظر! . . . إننا أكثر لملمة وظرافة » .

قال وهو ينن : « السيف يجرحني » .

« أشكرك يا عزيزي لأنك تكلمت ، ولكنه لم يجرحك . أنا منتبه . أنا لا أقدم على أي تصرّف يخرّب جمال وقفتنا هذه . انظر لقد أدمع كبار الأساتذة القدماء عيوننا عندما رسموا جسدين متداخلين كأنهما جسد واحد في مواقف الموت والعشق والحرب . انظر! . . . اندس رأسي عند رقبتك كأنه جزء من جسدك . أنا أشم رائحة شعرك ورقبتك من الخلف . امتدت رجلاي إلى جانبي رجليك بانسجام . إذ من الممكن لمن يرانا أن يعتقد أننا حيوان ظريف بأربعة أرجل . هل تشعر بتوازن ثقلي فوق ظهرك ومؤخرتك ؟ » . خيّم صمت ، ولكنني لم أضغط بسيفي لأنه يمكن أن يسيل الدم . قلت هامساً في أذنه : « سأعضّ أذنك هذه إن لم تتكلم » .

عندما رأيت في عينيه أنه جاهز للكلام ، أعدت عليه السؤال نفسه : «هل تشعر بتوازن ثقلي فوقك ؟» .

«نعم»

قلت : هل هذا جميل ؟» سألته من جديد : «هل نحن جميلان ؟ هل نحن جميلان بقدر الأبطال الأسطوريين الذين يقتلون بعضهم البعض في روائع الأساتذة القدماء ؟» .

قال قرة : «لا أعرف ، أنا لا أرى نفسينا في المرآة» .

عندما تخيلت بانفعال كيف تراقبنا زوجتي من الغرفة الداخلية في ضوء مصباح المقهى الموضوع على الأرض خشيت حقيقة من عضّ أذنه .

قلت : «يا قرة أفندي يا من دخلت بيتي واستبحت حرمته بخنجرك مستنطقاً لي ، هل تشعر بقوتي فوقك الآن ؟» .

«وأشعر أنك على حق أيضاً» .

«اسأل السؤال الذي تريده الآن»

«احك لي كيف كان يداعبك الأستاذ عثمان»

«عندما كنت صبياً متدرباً ، كنت أنحل مما أنا الآن وأظرف وأجمل . كان يصعد فوقي كما أنا فوقك الآن ، ويداعب ذراعي ، وكان يؤلمني أحياناً ، ولكنني كنت استمتع بهذا لإعجابي بمعلوماته ومهارته وقوته ، ولا أفكر بسوء لأنني أحبه . كان حب الأستاذ عثمان بالنسبة إليّ يعني حب النقش والألوان والورق والقلم وجمال الرسم وكل شيء ، وهكذا فهو يعني الطريق الذي ينفتح إلى حب العالم والله . الأستاذ عثمان بالنسبة إليّ أكثر من أب» .

سأل قائلاً : «هل كان يضربك كثيراً ؟» .

«كان يضربني إلى حد الألم عند الضرورة كما يضرب الأب ، وبشعور تحقيق العدالة كما يجب أن يضرب المعلم ، ويضربني عقاباً وليعلمني ، واليوم

أنا مدرك أنني تعملت كثيراً من الأمور بشكل أفضل وأسرع بسبب ألم الضرب بالمسطرة على أظافري ، والخوف من ذلك الضرب . ولكي لا يمسكني من زيقي ويضرب رأسي بالجدار تعلمت ألا أنقل الأصباغ ، ولا أبدد ماء الذهب ، وأن أنقش انحناءة قائمة الحصان في عقلي ، وأغطي أخطاء المسطَر ، وأنظف الفراشي في الوقت المناسب ، وأعطي انتباهي وروحي للصفحة . ولأنني مدين بعلميتي ومهارتي للضرب الذي ضُربته فأنا أضرب تلاميذي اليوم براحة ضمير . وأعرف أن الضرب وإن كان على غير حق سيكون مفيداً في النهاية للولد إذا لم يجرح كرامته » .

« ولكنك عندما تضرب تلميذاً جميل الوجه ، حلو النظرات ، ملائكي التصرفات ، وتفقد سيطرتك على نفسك من أجل مزاجك فقط ، تدرك أن الأستاذ عثمان قد فعل الشيء نفسه من أجلك أيضاً . أليس كذلك ؟ » .

« كان يضربني بأداة صقل الورق المرمرية وراء أذني فتطن أياماً ، وأفقد توازني . وكان يصفعني أحياناً على وجهي بشكل يجعل خديَ يستجران الدمع من عيني . أنا أتذكر هذا ، ولكنني أحب أستاذي » .

قال قرة : « لا . كنت تغضب منه ، وكنت تنتقم للغضب المتراكم في أعماقك بنقشك كتاب زوج خالتي المقلد للأفرنج » .

« أنت لا تعرف النقاشين . الصحيح هو عكس هذا تماماً . الضرب الذي يُضربه النقاش عندما يكون ولداً يربطه بمعلمه النقاش حتى الموت برابط عشق عميق » .

« إن إسناد السيف على رقبتي سياووش وآرش من الخلف كما تسند السيف الآن على رقبتي ، وقطعهما بلؤم وخيانة هو بسبب غيرة الأخوة . وغيرة الأخوة في الشاه نامة دائماً يحضّر لها الأب غير العادل . . . » .

« صحيح » .

قال بفظاظة : »الذي أوقعكم ضد بعضكم البعض هو الأب غير العادل ، والآن يجهز نفسه لخيانتكم » ثم قال وهو يئن : « آه ، إنه يذبحني » بعد ذلك صرخ متألماً أكثر : « قطعك رقبتي وإراقتك دمي مثل كبش أضحية هو عمل ينجز بلحظة . ولكنك إذا فعلت هذا دون أن تسمتع إلى ما سأقوله -وأنا مؤمن أنه بإمكانك عمل هذا ، آه ، كفى - سيتوقف عقلك لسنوات طويلة إذا لم أقله لك . أبعد السيف قليلاً » . أبعدته قليلاً . « إن الأستاذ عثمان الذي فتّح مواهبكم التي وهبكم إياها الله متابع كل خطوة من خطواتكم ، ويعد عليكم أنفاسكم منذ صغركم ، وهو الذي جعل هذه المواهب مثل زهرة ربيع وحولها بسعادة إلى مهارة يدير لكم ظهره الآن لحماية أسلوبه ونقش خانته التي وهبها حياته كلها كما وهبكم » .

« شرحت لك بثلاث حكايات أن الأسلوب قبحٌ يوم دفنّا ظريف أفندي » .

قال قرة بانتباه : « كانت تلك الحكايات حول أسلوب النقاش ، أما انهماك الأستاذ عثمان الشديد الآن فهو من أجل حماية أسلوب النقش خانة » .

شرح لي بالتفصيل كيف يهتم السلطان بإيجاد قاتل ظريف أفندي وزوج خالته ، ولهذا السبب فقد فتح لهما خزينة العرش ، وأن الأستاذ عثمان سينتهز الفرصة من أجل الطعن بكتاب زوج خالته ومعاقبة الذين خانوه ببدئهم تقليد أساتذة الأفرنج . قال إنه يشتبه بزيتون من خلال أسلوب الحصان المشروم الأنف ، ولكنه سيسلّم لقلقاً للجلادين لثقته بأنه ارتكب الجريمة ، وهو كبير النقاشين . شعرت بأنه يقول الحقيقة تحت حد السيف . كنت أريد تقبيله لأنه قدم حكايته مثل طفل . لم أخف مما سمعته : خروج لقلق من الوسط يعني وصولي إلى مرتبة كبير النقاشين بعد وفاة الأستاذ

عثمان أطال الله عمره .

ما أقلقني هو ليس تحقيق ما حكاه لي ، بل عدم تحقيقه . الفراغ الذي شعرت به بين كلمات الحكاية هو أنه يمكن للأستاذ عثمان ألا يضحي بلقلق فقط ، بل يمكنه أن يتخلى عني أيضاً . مجرّد التفكير بالاحتمال الذي لا يصدّق جعلني أرتعد خوفاً . وهذا ما كان يجرني إلى خوف من تيتّم وتشرّد . ولأنه يخطر ببالي أن أنزل بسيفي على رقبة قرة كلما فكرت بهذا الأمر ، أمسكت نفسي وأنا أناقش هذا الأمر مع قرة ومع نفسي : لماذا يقع الإنسان في موقع الخائن إذا رسم عدة رسوم مستلهماً أساتذة الأفرنج من أجل كتاب زوج الخالة ؟ فكرت مرة أخرى أن لقلقاً وزيتوناً يعدان من ورائي مؤامرة عليّ بعد موت ظريف أفندي ، فأبعدت السيف عن رقبة قرة .

قلت : «لنذهب معاً إلى بيت زيتون ، ولنقلب بيته رأساً على عقب ونفتشه . وإذا وجدنا الرسم الأخير عنده نفهم على الأقل ممن سنخاف . وإذا لم نجده نأخذه بالقوة ونداهم بيت لقلق .

لكي يثق بي قرة قلت له إن خنجره يكفينا . واعتذرت من قرة لأنني لم أقدم له كأساً من (الإهلامور) . بينما كنت أتناول مصباح المقهى نظرنا إلى الفراش الذي كنت قد بطحته عليه بنظرات ذات معنى . اقتربت منه بالمصباح ، وقلت له إن أثر السيف غير الواضح تماماً على رقبته سيكون دليل صداقتنا . كانت قد سالت قطرة دم من قرة .

ما زال ضجيج الأرضروميين ومن يلاحقهم في الأزقة ، ولم يأبه بنا أحد . وصلنا إلى بيت زيتون بسرعة . طرقنا باب الحوش ، وباب البيت ونوافذه بنفاذ صبر : ليس ثمة أحد . ووثقنا من عدم وجود أحد في البيت لكثرة ما أحدثنا من ضجيج . وقال قرة ما كنا نفكر فيه : هل ندخل ؟

ضغطتُ بطرف خنجر قرة غير الحاد على حديد قفل الباب فزعزعته ،

بعد ذلك أدخلتُ نصل الخنجر في شق الباب ، وملنا بثقلنا عليه فكسرناه . انبعث من الداخل تكاثف رائحة رطوبة ووسخ ووحدة لسنوات طويلة . رأينا في ضوء المصباح فراشاً مبعثراً وفوق فرش الجلوس أحزمة وصدارات وحذائين وقمصاناً وقاموس نعمة الله أفندي النقشبندي . . . فارسي - تركي ، وعلاّقة قبعات وقماشاً رخيصاً وإبرة وخيطاً من أجل الخياطة ، وصحناً نحاسياً مليناً بأعقاب التفاح ، وكثيراً من فرش الجلوس ، وغطاء فراش مخملي ، مبعثرة فوق الفرش ، وأصباغه وفراشيه ولوازم النقاشين كلها . وأوراق الكتابة على مسندها ، وورقاً هندياً مقصوصاً صفحات صفحات ، وعندما شرعت بالغوص بين الصفحات المنقوشة أمسكت نفسي .

لأن قرة أكثر فضولاً مني ، ولأنني أعرف أن عبث أستاذ نقاش بلوازم أستاذ نقاش أقل منه مهارة لن يجلب إليه الحظ . زيتون ليس موهوباً كما يعتقد ، أو صاحب إرادة فقط . يحاول تغطية نقص مهارته بإعجابه الشديد بالأساتذة القدماء . مع أن النقاشين الأسطوريين القدماء يوجهون الخيال فقط ، واليد هي التي تنقش .

وبينما كان قرة يبحث في سلال الألبسة الداخلية واصلاً إلى قعرها ، وفي الصناديق كلها ، والعلب ، كنت أنظر إلى منشفة زيتون البورصية ومشطه الأبنوسي ، ومنشفة الحمام الوسخة ، وزجاجات ماء الورد ، ومنزر مضحك ذي طبعات هندية ، وكنزاته ، وإلى معطف ثقيل قذر ذي فتحة خلفية ، وصينية نحاسية مطعجة ، وأغراضه الرخيصة نسبة إلى دخله ، وسجاداته الوسخة دون أن أمد يدي إلى شيء . إما أن يكون زيتون شحيحاً جداً ويخبئ نقوده في مكان ما ، وإما أنه يبددها في مكان ما . .

وبالهام قلت فيما بعد : « إنه بيت قاتل حقيقي . لا يوجد في بيته حتى سجادة صلاة » . ولكن لم يكن هذا في عقلي . فكرت ثم قلت : « هذه

أغراض من لا يعرف كيف يكون سعيداً . ولكن في زاوية من زوايا عقلي أشعر بأسى أن الحزن والقرب من الشيطان يفيد النقش » .

قال قرة : « كيف لا يستطيع الإنسان إسعاد نفسه على الرغم من معرفته كيف يسعد ؟ » .

أخرج من قعر أحد الصناديق مجموعة رسوم على ورق سمرقندي سمّك بلصق ورق سميك من خلفه ، ووضعها أمامي . إنها رسوم شيطان محبب خرج من تحت الأرض في خراسان ، وشجرة وامرأة جميلة وكلب ، إضافة إلى رسم الموت الذي رسمته . كانت الرسوم هي تلك التي كان يعلقها المدّاح المقتول عندما يحكي حكاية . وإزاء سؤال قرة أشرت إلى رسم الموت الذي أنجزته أنا .

قال : الرسوم نفسها في كتاب زوج الخالة »

لقد فهم المدّاح والقهواتي أنه من الذكاء إنجاز الرسوم التي تعلّق كل مساء على الجدار في المقهى على يد نقاش . كان يطلب منا نحن النقاشين رسماً مستعجلاً على ورق غليظ ، ويسألنا عن حكاياتها ويأخذ منا جزءاً من الممازحات الخاصة ، ويضيف من عنده ارتجالاً جزءاً آخر » .

« لماذا رسمت له رسم الموت هذا الذي قد رسمته من أجل كتاب زوج خالتي ؟ » .

« هذا رسم مستقل حسب طلب المداح . رسمته بسرعة وبحركة تلقائية وليس كما رسمت لكتاب زوج الخالة . الآخرون أيضاً عملوا هذا ، ولعلهم عملوه من أجل السخرية فقط ، فقد رسموا الرسوم بشكل أبسط مما رسموه من أجل ذلك الكتب السري » .

سأل : « من رسم الحصان ؟ الحصان المشروم الأنف » .

قرّبنا المصباح وتفرجنا على الحصان بإعجاب . إنه يشبه الحصان المرسوم

من أجل كتاب زوج الخالة ، ولكنه رسم بشكل أسرع وأقل اهتماماً ، ومخاطباً أذواقاً أدنى . كأن أحدهم أعطى النقاش نقوداً أقل فلم يكتف بالإسراع بالرسم فقط ، بل بدا أكثر فظاظة وتقدماً في السن .

قلت : لقلق أعرف بمن رسم الحصان . ولأن ذلك المخبول المعجب بنفسه لا يستطيع العيش دون سماع القيل والقال ، يذهب يومياً إلى المقهى . أنا واثق أن لقلقاً هو من رسم الحصان » .

* * *

٥٦

ينادونني لقلقاً

أتى فراشة وقرة في منتصف الليل ، وضعا الرسوم واحدة بجانب الأخرى ، وطلبا مني تحديد من رسم كل رسم . كنا نلعب في طفولتنا لعبة « الطاقية لمن ؟ » وهذه تشبهها : كنا نرسم على قصاصات الشيخ والفارس والمرأة والجلاد والمحاسب ، ويطلب جمعها إلى أسماء مكتوبة على أوراق أخرى مقلوبة .

قلت لهما : إنني رسمت الكلب ، وشاركنا كلنا بصوغ حكايته للمدّاح المقتول بسفالة . وصرّحت أن فراشة الحبيب المسند رأس خنجره إلى حنجرتي هو الذي رسم الموت الذي يتماوج ضوء المصباح عليه ، وأتذكر أن زيتوناً رسم الشيطان بهوس شديد ، ولعل حكايته ألفها المرحوم بنفسه . أنا بدأت برسم الشجرة ، والنقاشون الآخرون الذين دخلوا إلى المقهى كلهم شاركوا برسم أوراقها . ونحن حكينا حكايتها ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى (الأحمر) . وضع قطرة من اللون الأحمر على ورقة وقال المداح الشحيح : هل يمكن أن تكون هذه لوحة ؟ فقطرّنا مزيداً من اللون ، ولم يكتف النقاشون برسم شيء أحمر في زاوية الرسم فحكوا للمداح حكاية ما رسموه ليعيدها لنا ، وتذكرت أن هذا الحصان الجميل رسمه زيتون ، والمرأة المكدرة فراشة . في تلك اللحظة سحب فراشة الخنجر عن رقبتي ، وقال لقرة إنه رسم المرأة الجميلة فعلاً ، وهو

تذكر هذا الآن . ورسمنا النقود وسط السوق كلنا ، وطبعاً زيتون رسم الدرويشين الجوالين لأنه منحدر من سلالة درويش قلندري ، ويعتمد مذهب هؤلاء عى التسول ونيك الأولاد الحلوين . وكتب شيخهم أبو الهداية ابن الكرماني قبل مائتين وخمسين سنة كتاباً حول هذا الأمر ، وقال إنه يرى جمال الله في الوجوه الجميلة .

كدتُ أقول لأخويّ الأستاذين النقاشين : عفوكم لحالة الفوضى في بيتي لأنكما جئتما فجأة ، ولعدم استطاعتنا تقديم قهوة بالعنبر ، أو إخراج معقود النارنج لأن المرأة نائمة في الداخل . وكيلا يدخلا إلى الغرفة المجاورة فأضطر لتلويث يدي بالدم عندما لن يجدا ما يبحثان عنه باهتمام شديد في السلال حتى قعرها ، وقعر الصناديق ، وبين الأقمشة ، والخرق ، والأحزمة الصيفية من الحرير الهندي و(التلبنت) والقماش الأحمر العجمي ، والصدارة المفتوحة من الأمام . وتحت السجادات والفرشات ، وبين الصفحات المنقوشة ، وصفحات الكتب المنقوشة والمجلّدة .

أعترف أنني سررت لعدم تصرفي وكأنني لم أخف منهما كثيراً . تعتمد مهارة النقاش على الانتباه الشديد لجمال اللحظة تلك ، وتناول كل تفصيل بجدية من جهة وعلى التراجع خطوة إلى الخلف عن هذا العالم الذي يتناول نفسه بجدية أكثر من اللازم والنظر إليه بتعال ومعرفة كساخر ينظر إلى المرآة من جهة أخرى .

وجواباً على سؤالهما قلت : إنه كان هنالك مجموعة كبيرة في المقهى عند مداهمة الأرضروميين لهما كما في كل ليلة ، وكنت هناك أنا وزيتون والمسطّر ناصر ، والخطاط جمال ، ونقاشون متخرجون جدد ، ومجموعة من الخطاطين الشباب الذين يرافقونهم والتلميذ الرائع الحلاوة رحمي مع بعض التلاميذ الحلوين الآخرين ، وستة أو سبعة أشخاص بينهم شاعر وسكير

وحشاش ودرويش جوّال نجحوا باقناع القهواتي وصارت تلك المجموعة الساخرة والسعيدة تبلغ حوالي أربعين شخصاً . وحكيت لهما إنه عندما بدأت المداهمة ودبّت الفوضى وهرب هذا الجمع من البابين الخلفي والأمامي شاعرين بالذنب لم يخطر ببال أحد الدفاع بشهامة عن الرجل العجوز المدّاح في ثياب المرأة . هل أشعر بالكدر لهذا ؟ نعم! أنا المصور مصطفى الذي وهب حياته للرسم صرّحت بأنني أجد جلوسي مع الآخرين ولقلق وأخوتي النقاشين كل مساء وتبادل الحديث والمزاح والاستهزاء وترديد المقولات الجميلة والأشعار والحديث بتعابير تحمل كناية ـ أجد هذا ـ ضرورياً ، وقلت هذا وأنا أنظر في عيني فراشة الصغير العقل ، والمعاني من الغيرة كثيراً والداخل في أجواء الغلمان المعانين الباكين . كان فراشتكم الجميل العينين مثل طفل حساس جداً وذا بشرة رائعة عندما كان تلميذاً .

ورداً على تساؤلهما قلت : إن المداح العجوز كان يتجول على المدن والأحياء لإيجاد عمل ، وفي اليوم التالي لبدنه التلاعب اللفظي في المقهى الذي يرتاده النقاشون . علّق أحد النقاشين مع آخر ـ لعله سكير المقهى ـ على الجدار رسماً على أنه (لطيفة) وانتبه لهذا المدّاح الثرثار فبدأ يتكلم وكأنه لطيفة محاوراً رسم الكلب المعلق على الجدار ، وعندما لاقى هذ الأمر استحساناً ، استمرت عملية الرسم كل مساء على يد النقاشين ، كما استمر الهمس بالممازحات في أذن النقاش . وما شجع القهواتي (الأدرني) الوخزات الموجهة للواعظ الأرضرومي وامتاعها النقاشين الخانفين من غضب الشيخ ، وجلبها زبائن جدداً .

قال اللذان داهما بيت زيتون إنهما وجدا هذه الرسوم في بيته الفارغ وسألاني عن معناها . قلتُ لهما : إنه لا ضرورة لتفسيرها ، وإن القهواتي مثل زيتون درويش قلندري متسوّل لصّ وسافل ، وإن ظريف أفندي الذي

يرتعد من أحاديث الأفندي الشيخ ، ويقطب حاجبيه بشكل خاص من خطبة يوم الجمعة حاول شكايتهما للأرضروميين ، أو أنه عندما نبههما لكي لا يعملا هذا قام زيتون المنتمي إلى طينة القهواتي بقتل المذهب المسكين . ولعل الأرضروميين الغاضبين من هذا نتيجة حديث ظريف أفندي عن كتاب زوج الخالة اعتبروه مسؤولاً فقتلوه ، واليوم داهموا القهوة بانتقام آخر .

كم كان فراشة السمين وقرة الجاد (كان مثل شبح) المستمتعان بفتح كل غطاء ، ورفع كل غرض وهما يفتشان كل شيء مهتمين بما قلته ؟ عندما رأى فراشة في الصندوق الجوزي المنقوش نعليَّ الطويلي الساق ودرعي وتجهيزات الخروجِ إلى الحرب ، وظهرت في عينيه تعابير الغيرة الطفولية وأعلنت مرة أخرى الأمر الذي يعرفه الجميع : أنا أول نقاش مسلم خرج مع الجيش إلى الحرب ، ونظر بدقة إلى إطلاق المدافع ، وإلى أبراج وقلاع العدو ، وألوان ألبسة الجنود الكفار ، وتمدّد الجثث على طول الوديان ، وكومات الرؤوس ، واصطفاف الفرسان وسط الدروع ، وهجومهم ، ورسمتُ ما رأيته في ظفر نامة .

عندما طلب مني فراشة أن أريه كيف أرتدي درعي ، خلعت سترتي المغطاة بفراء أرنب أسود ، وقميصي وسروالي الخارجي والداخلي ، وارتديت تحت الدرع السروال الأبيض الطويل والقميص السميك من قماش الخام الأحمر الذي يُرتدى عادة تحت الدروع في البرد ، وجوربي الصوفي ونعليَّ المصنوعين من الجلد الأصفر ، وركّبت عليهما المهمازين مستمتعاً بفرجتهما عليَّ في ضوء الموقد . أخرجتُ الدرع من محفظته بمتعة ووضعته على صدري ، وكما يؤمر غلمان الخدمة جعلتُ فراشة يربط أحزمة الدرع بقوة ، وجعلته أيضاً يركّب كتافيتيه كأنني أصدر له أمراً . بعد ذلك أَدخلت ذراعيَّ في واقيتيهما ولبست القفازين ، ووضعت حزام غمد السيف المصنوع من وبر

الجمل ، وأخيراً عندما كنت أضع على رأسي القبعة العسكرية المطرّزة التي أضعها في المراسم ، قلتُ متباهياً : إن مواقف الحرب لم تعد ترسم كما كانت في الماضي . قلتُ أيضاً لم يعد بالإمكان رسم فرسان جيشين متقابلين في صفين من قالب واحد يُرسم كل مرة على وجه . بعد الآن سيرسم في نقش خانة آل عثمان مواقف الحرب بتداخل الجيوش والخيل والدروع والموتى المضرجين بالدم كما رأيتهم أنا وسمعتهم .

قال فراشة غيوراً : «النقاش لا يرسم ما يراه ، بل يرسم الرؤية الإلهية» .

قلت : «نعم ، ولكن الله يرى ما نرى نحن أساساً» .

قال فراشة وكأنه يؤنبني : «بالتأكيد إن الله يرى ما نرى نحن ، ولكنه لا يرى الشيء الذي نراه كما نراه نحن . الحرب التي نراها متداخلة نتيجة الدهشة يراها هو جيشين مصطفين بشكل منتظم على الرغم من التداخل لأنه قريب منهما» .

لديّ جوابي بالتأكيد . أردت أن أقول له : «علينا أن نؤمن بالله ونرسم ما يرينا إياه فقط ، وليس ما لا يرينا إياه» ولكنني سكت . لم أسكت خشية أن يتهمني فراشة بتقليد الأفرنج أو خشية أن يطعنني برأس الخنجر بشكل مؤلم في ظهري أو من فوق قبعتي بحجة أنه يجرّب الدرع . لقد أمسكت نفسي لأنني كنت أحسب أنني لن أتخلّص من فخ زيتون إلا إذا كسبتُ هذا الغبي الجميل العينين وقرة .

وعندما فهما أنهما لن يجدا ما يبحثان عنه أفصحا . ثمة رسم سرقه القاتل السافل... قلتُ لهما : إن هذا سبب تفتيش بيتي ، لذلك فإن القاتل الذكي سيخفي ذلك الرسم في مكان لا يمكن الوصول إليه (كان زيتون في ذهني) ولكن إلى أي حد انتبها ؟ وذكّرتُ قرة بالحصان المشروم الأنف ،

وشرح بالتفصيل عن الأيام الثلاثة التي منحها سلطاننا للأستاذ عثمان أنها على وشك الانتهاء . وعندما أصرَيت على قضية الحصان المشروم الأنف قال قرة : إن الأستاذ عثمان ربط هذا الدليل بزيتون ، ثم قال وهو ينظر إلى عينيّ : إن الأستاذ عثمان يشتبه بي لأنه واثق من حرصي .

للوهلة الأولى يبدو أنهما جاءا ليتأكدا أنني القاتل ، ولإثبات هذا ، ولكنني أرى أن سبب قدومهما هو أمر آخر . لقد طرقا باب داري نتيجة الوحدة والمأزق الذي يعيشانه . كان الخنجر الذي يشهره نحوي فراشة يرتجف عندما فتحت الباب . كانا خائفين من قاتل سافل لا يعرفانه بأي شكل ، ويخشيان أن يحصرهما في زاوية مظلمة بابتسامة صديق قديم ، ويقطع رقبتيهما . كما كان أيضاً اتفاق الأستاذ عثمان مع سلطاننا والخزندار الأكبر وتسليمهما للتعذيب يؤرقهما ، كذلك الأمر فإن جمع الأرضروميين الذين في الخارج يخرب معنوياتهما . كانا يريدان كسبي وسط هذا الانهماك . ولكن الأستاذ عثمان قال العكس . والآن عليّ أن أظهر لهما صحة عكس الكلام هذا كما يتمنيان في أعماقهما .

إذا قلت إن الأستاذ الكبير أخطأ وخرّف فهذا يعني أن أجعل فراشة ضدي فوراً . لأنني أرى في عيني النقاش فراشة الجميلتين المغرورقتين الطويلتي الأهدب اللهب الخافت للعشق الذي يكنّه للأستاذ الكبير وهو ينقر برأس الخنجر الذي بيده درعي . عندما كنت شاباً كانت علاقتهما ـ أي قرب المعلم من التلميذ ـ تؤجج غيرة شديدة لدى النقاشين الآخرين ، ولكنهما لم يأبها لأحد فكانا يتبادلان النظر طويلاً ، ويتشاممان على مرأى من الجميع . بعد ذلك يعلن الأستاذ عثمان بقسوة أن ألين قلم هو قلم فراشة ، وأقوى فرشاة تلوين هي فرشاة فراشة . وكان هذا الحكم الصحيح في أغلب الأحيان يفتح المجال أمام النقاشين الغيورين لاستخدام لفظات الأقلام ، والفراشي

والحقاق وعلب الأقلام في كنايات غير مؤدبة ، وتلميحات شيطانية ، واستعارات مكشوفة ، وألعاب لفظية لا تنتهي ، لهذا السبب لستُ الوحيد الذي يشعر أن الأستاذ عثمان يريد أن يوصل فراشة إلى رأس النقش خانة من بعده .

أنا أدرك منذ زمن طويل أن هذا ما يدور في رأس الأستاذ الكبير في الحقيقة عندما يتحدث عن مشاكستي وعدم انسجامي مع الآخرين ، وعنادي . ويعتقد محقاً أنني أكثر قرباً للأصول الأفرنجية من زيتون وفراشة ، وأنني لن أردَّ مطلقاً طلبات السلطان بقولي : «لم يكن الأساتذة القدماء ينقشون هكذا» .

أدرك في هذه النقطة أنني أستطيع إقامة علاقة مع قرة ، لأن العريس الجديد والمنفعل لا يريد إنهاء كتاب المرحوم زوج الخالة من أجل فتح قلب شكورة الجميلة وظهوره بمظهر القادر أخذ مكان والدها فقط ، بل لا بد أنه يريد هذا من أجل أن يملأ عين السلطان من أقصر الطرق .

وهكذا التقطتُ أول خيط هذا الأمر من حيث لا يتوقعان : فتحت الموضوع بأن كتاب زوج الخالة معجزة مفرحة لم ير مثلها . وعندما يتم إنهاء تلك الروعة كما أمر سلطاننا وأراد المرحوم زوج الخالة سيدهش العالم كله بقوة السلطان العثماني وغناه ، وبمهارتنا نحن معلمي النقش ومعارفنا . وسيخافون منا ومن قوتنا وبأسنا من جهة ، وسينظرون إلى أخذنا بعض الأمور من الأصول الأفرنجية ، وألواننا المبهجة ، ورؤيتنا أدق التفاصيل من جهة أخرى فيخافون مما يندر أن يشعر به أذكى السلاطين بأننا نقف في مكان وسط بين عالم الرسم الذي ننقشه ، والأساتذة القدماء جداً . في البداية كان فراشة ينقر مثل ولد يريد المعرفة : إن كان درعي حقيقياً أم لا ، بعد ذلك يضرب مثل صديق يريد تجريب سلامة درعي ، فيما بعد ، واعتماداً

على الذريعتين السابقتين بدأ يضرب مثل غيور منحوس يريد بشكل ما أن يثقب الدرع ويؤلمني . في الحقيقة لا بد أن يدرك أنني أمهر منه ، ويشعر بألم أن الأستاذ عثمان يعرف هذا . لقد منحتني غيرة فراشة غروراً أكبر لأنه أستاذ لا مثيل له بسبب الموهبة التي وهبها الله له : وشعرت أنني سأجعله يقبل أستاذيتي لأنني معلم بقوة قصبتي وليس بقوة الإمساك بقصبة معلمي .

رفعت نبرة صوتي ، وشرحت أنه مع الأسف ثمة من يريد الطعن بكتاب سلطاننا والمرحوم زوج الخالة المعجزة . والأستاذ عثمان أبونا جميعاً ، وتعلمنا منه كل شيء! ولكنه بعد أن اقتفى الأثر في خزينة سلطاننا ، وفهم أن القاتل السافل هو زيتون ، وعمل على إخفاء هذا الأمر لسبب لا نعرفه . وقلت : أنا واثق أن زيتوناً غير الموجود في بيته هو الآن مختبئ في التكية القلندرية المهجورة قرب (باب الفنار) ، وإن سبب إغلاق تلك التكية في عهد جد سلطاننا ليس كونه مأوى للرذيلة والسفالة بل بسبب الحروب المستمرة إلى ما لا نهاية مع العجم ، وذكرتُ أن زيتوناً كان يتفاخر في زمن ما أنه « يحرس » تلك التكية المغلقة . وإذا كانا لا يثقان بي ويعتقدان أن وراء كلامي مؤامرة فإن الخنجر بأيديهما ويمكنهما معاقبتي هناك .

ضربني فراشة ضربتين أخريين لا تحتملهما دروع كثيرة ، والتفت إلى قرة الذي وجدني محقاً وصرخ في وجهه بشكل طفلي . اقتربت من خلف فراشة ولففت ذراعي التي تلبس الدرع حول رقبته وجذبته نحوي . وبيدي الأخرى لويت ذراعه وأسقطتُ منه الخنجر . في الحقيقة لم نكن نتعارك تماماً ، ولا نتلاعب بكل معنى الكلمة . حكيت لهما عن موقف مماثل في الشاه نامة . إنه موقف يعرفه قليلون جداً :

بدأت الحكاية قائلاً : « في اليوم الثالث لمواجهة جيشي إيران وطوران المصطفين مقابل أحدهما الآخر بدروعهما وتجهيزاتهما كلها على سفوح جبل

هماران ، أنزل الطورانيون المحارب الناجح شنغيل إلى الميدان لمعرفة المحارب الإيراني العجيب الذي يقتل كل يوم محارباً كبيراً من جيشهم . عندما نزل شنغيل إلى الميدان تحدى المحارب الإيراني المدهش ، وقبل الآخر التحدي . وبينما كان الجيشان يتفرجان على القتال بين المحاربين المتلامعين تحت أشعة شمس الظهيرة وسط الدروع ممسكين بأنفاسهم ، احتك حصانا المقاتلين ببعضهما البعض إلى حد أن الشرر تطاير من الدرعين وبدأت بشرتا الحصانين تدخنان . استمر العراك طويلاً . رمى الطوراني سهماً ، واستخدم الإيراني سيفه وحصانه بشكل جيد جداً ، فأسقط الإيرانيُ الطورانيَّ عن حصانه بعد أن شده من ذيله ، بعد ذلك لحق به عندما حاول الهرب وهاجمه وهو لابس درعه ، وأمسك برقبته . عندما قبل الهزيمة الطوارني الذي يتوق لمعرفة المقاتل الإيراني المدهش منذ أيام ، سأله : « من أنت ؟ » قال المقاتل المدهش : « أنا اسمي بالنسبة إليك الموت » من كان ذلك المقاتل ؟ »

قال فراشة فرحاً مثل طفل : « رستم الأسطوري » .

قبلته من رقبته ، وقلت : « كلنا خنّا الأستاذ عثمان . علينا أن نتفق فيما بيننا من أجل أن نجد زيتوناً وأن نتخلّص من السم الذي في داخلنا قبل أن ينزل فينا العقاب ، ولنقف بقوة أمام أعداء النقش الأبديين والذين يريدون تسليمنا في لحظة للجلادين . ولعلنا عندما نصل إلى تكية زيتون المهجورة سندرك أن القاتل الظالم ليس بيننا » .

لم ينبس فراشة المسكين : مهما كان ماهراً ومدعياً وظهره قوياً فهو كالنقاشين كلهم يبحثون عن بعضهم بعضاً على الرغم من كرههم بعضهم البعض نتيجة غيرتهم . وفي الحقيقة كان يرتعد خوفاً من الذهاب إلى جهنم أو البقاء وحيداً في هذه الدنيا » .

في الطريق إلى باب الفنار كان ثمة ضوء غريب أصفر مائل إلى الخضرة

في الأعلى ، ولم يكن ضوء القمر . وبسبب هذا الضوء فقط أخذ مكان مشهد اسطنبول الليلي غير المتغير بأشجار سروها وقبابها وجدرانها الحجرية وبيوتها الخشبية وأمكنتها المحروقة مشهد قلعة عدو تبعث الغربة في النفس . عند صعودنا المرتفع رأينا حريقاً في البعيد الممتد حتى وراء جامع البيازيد .

عندما وجدنا عربة يجرها ثور ، نصفها محمل بأكياس الطحين متجهة مثلنا نحو الأسوار ، دفعنا قرشين وركبنا . ولأن قرة يحمل الرسوم جلس بانتباه شديد . وعندما انحنيت لأتفرج على الغيوم المنخفضة التي ينيرها الحريق سقطت القطرة الأولى من المطر على قبعتي .

وبعد مسير طويل ، عندما وصلنا إلى الحي المهجور أصلاً في منتصف الليل ، استفززنا كلاب الحي كلها عندما حاولنا معرفة التكية المهجورة . رأينا بعض المصابيح التي أنيرت بسببنا في بعض البيوت الحجرية ، ولكنها لم تفتح أبوابها عندما طرقناها ، ولم يفتح لنا إلا بعد طرقنا الباب الرابع ، وهنا ظهر لنا رجل مسنٌّ نظر إلينا كما ينظر إلى أشباح في ضوء المصباح دون أن يخرج أنفه بسبب المطر الذي صار غزيراً ، وأضاف مستمتعاً أننا سنواجه الجان والعفاريت والأشباح هناك .

في حديقة التكية واجهتنا رائحة الأوراق المتعفنة وأشجار السرو المغرورة غير الآبهة للمطر بسكون : عندما وضعتُ عيني على فتحة في جدار التكية الخشبي ووضعتها بعد ذلك على نافذة صغيرة رأيت ظلاً مخيفاً لأحدهم يصلي في ضوء القنديل أو أنه يقلّد المصلي بسببنا .

* * *

٥٧

يناودنني زيتوناً

ترى هل الصحيح هو قطع الصلاة وفتح الباب لهم بسرعة ، أم تركهم ينتظرون تحت المطر ؟ عندما أدركت أنهم ينظرون إليَ استمررت بصلاتي إلى النهاية دون خشوع . عندما فتحت الباب ووجدت أمامي جماعتي ؛ فراشة ولقلقاً وقرة انطلقت من بلعومي صيحة فرح ، واحتضنت فراشة بانفعال .

أسندتُ رأسي إلى كتفه وقلت : « يا لما جرى لنا! يا لما جرى! ماذا يريدون منا ؟ لماذا يقتلوننا ؟ »

بدت عليهم غبطة أنهم ينفصلون عن مجموعة النقاشين التي أراها بادية على كل معلمٍ نقاش في أثناء حياتي . كانوا لا يتفرقون حتى داخل التكية .

قلت : « لا تخافوا يمكننا الاختباء هنا لأيام طويلة » .

قال قرة : « إننا نخاف من احتمال وجود الشخص الذي يجب أن نخاف منه بيننا » .

قلت : « عندما أفكر بهذا أخاف أنا أيضاً لأنني سمعتُ هذه الشائعات » .

وصل كلام إلى جماعة النقاشين من رئيس الحامية ورجاله مفاده أنه لم يبق اسم قاتل ظريف أفندي والمرحوم زوج الخالة سراً ، ويقال أن القاتل بيننا نحن الذين قدمنا نور أعيننا من أجل ذلك الكتاب .

سألني قرة عن عدد الرسوم التي رسمتها من أجل كتاب زوج الخالة .

«الأول هو الشيطان . لقد رسمتُ له شيطاناً تحت أرضي كثيراً ما رسمه الأساتذة القدماء من نقش خانة ديار الغنم الأبيض . ولأن المدّاح كان من جماعة طريقتي فقد رسمت له درويشين جوالين . وأنا الذي اقترحت وضع هذا الرسم في كتاب زوج الخالة . وأقنعته بأن لهؤلاء الدراويش أيضاً مكاناً في الدولة العثمانية » .

سأل قرة : « هل هذا كل شيء ؟ »

عندما قلت لقرة إن هذا كل شيء ، ذهب نحو الباب نافخاً نفسه كأنه أمسك تلميذاً يسرق ، وأحضر مجموعة أوراق من الخارج لم تبتل بالمطر ، ووضعها أمامنا مثلما تضع قطة فرخاً جريحاً أمام صغارها .

عرفت تلك الرسوم وهي تحت إبطه . إنها الرسوم التي التقطتها من المقهى وهربت بها عند المداهمة . لم أسأل عن طريقة دخولهم إلى بيتي وأخذ الرسوم . وأشرنا لقلق وفراشة وأنا إلى الرسوم التي رسمناها من أجل المرحوم واحداً واحداً بشكل هادئ . وهكذا بقي حصان ، حصان جميل مطاطئ الرأس جانباً . لا علم لي برسم الحصان ، صدقوني .

قال قرة مثل أستاذ بيده عصا : « ألم ترسم هذا الحصان أنت ؟ »

قلت : « أنا لم أرسمه » .

« والذي في كتاب زوج خالتي ؟ »

« لم أرسم ذلك الحصان أيضاً » .

قال : « فُهم من الأسلوب أنك من رسم الحصان . والأهم من هذا أن الذي فهم هو الأستاذ عثمان » .

قلت : « ليس لي أسلوب أبداً . ولا أقول هذا متباهياً بمعارضة ما يهب الآن من ريح . كما أنني لا أقول هذا لإثبات براءتي . لأن من يمتلك أسلوباً

أسوأ من قاتل» .

قال قرة : «ثمة ما يميزك عن الأساتذة القدماء ، وعن الآخرين» .

لو أنني لم أبتسم له . بدأ يشرح لي ما أعتقد أنكم جميعاً تعرفونه . استمعت بانتباه شديد عن اجتماع سلطاننا والخزندار الأكبر وحدهما وبحثهما عن طريقة لإيقاف الجرائم ، والأيام الثلاثة الممنوحة للأستاذ عثمان ، والخيول المشرومة الأنوف ، ودخولهما إلى المعجزة الكبرى خزينة العرش ، والفرجة على تلك الكتب التي لا يمكن أن تطال . ثمة لحظات تمر في حياتنا جميعاً ندرك عند حدوثها أننا سنقضي فترة طويلة جداً دون أن ننساها . ثمة مطر حزين يهطل . فراشة متمسك بخنجره مكدراً كأنه حزين مع المطر . لقلق المبيضَ ظهره بالطحين دخل بجرأة إلى داخل التكية حاملاً المصباح . كان معلما النقش هذان ـ اللذان تحوم خيالاتهما على جدران التكية مثل الأشباح ـ أخوي ، وكم كنت أحبهما! وشعرت بالسعادة لأنني نقاش .

سألت قرة قائلاً : «هل تعرف معنى السعادة التي يحظى بها المرء بجلوسه إلى جانب الأستاذ عثمان أياماً ، والفرجة على روائع الأساتذة القدماء ؟ هل قبّلك ؟ هل داعب وجهك ؟ هل أمسك يدك ؟ هل أدهشت بمهارته ومعلوماته ؟ »

قال قرة : «لقد أثبت لي الأستاذ عثمان من خلال روائع الأساتذة القدماء أن لك أسلوباً . وعلمني أن الأسلوب ليس أمراً يختاره النقاش ، وأن الأسلوب يظهر عيباً في ذكرياته التي نسيها . وأراني كيف أن هذه العيوب السرية التي نخجل منها في زمن مضى ، ونخفيها لكي لا يميزوننا عن الأساتذة القدماء ستخرج فيما بعد مسمينها متباهين : «خصوصيات شخصية» و«أسلوباً» بسبب انتشار أصول الأساتذة الأفرنج في العالم أجمع . بعد هذا ، وبسبب المخبولين المتباهين بعيوبهم سيكون العالم أكثر ألواناً ولكنه أكثر

خبلاً ، ومن المؤكد أيضاً أنه سيكون أكثر عيوباً » .

إيمان قرة بما قاله يظهر أنه واحد من هؤلاء المخبولين الجدد .

سألته : « هل استطاع الأستاذ عثمان تفسير رسمي لمئات الخيول ذات المناظر الصحيحة من أجل كتب سلطاننا ؟ »

« بسبب الضرب الذي ضربكم إياه ، والعشق الذي منحكم إياه منذ صغركم غدا أباكم من جهة ، وحبيبكم من جهة أخرى فلم يدرك شبهكم ببعضكم البعض وبنفسه . هو لا يريد أن يكون لكم أسلوبكم ، بل يريد أن يكون للنقش خانة العثمانية أسلوبها . كنتم تنسون العيوب التي تأتي من داخلكم ، والأمور الخارجة عن القوالب والتمايزات بسبب إعجابكم بظله . أنت عندما رسمت من أجل كتبٍ وصفحات أخرى لن تراها عين الأستاذ عثمان أخرجت الحصان النائم داخلك منذ سنوات طويلة » .

قلت : « المرحومة أمي كانت أذكى من أبي . في إحدى المساءات التي كنت أبكي فيها في البيت يائساً ليس من ضرب الأستاذ عثمان في النقش خانة فقط ، بل من ضرب الأساتذة القاسين والعصبيين الآخرين ، ومن ضرب رؤساء المجموعات بالمساطر لإخمادنا ، قررت ألا أعود إلى النقش خانة ، قالت لي إن في هذا العالم نوعين من الرجال : الذين يبقون تحت تأثير العصي التي يُضربونها في طفولتهم ، ويسحقون ، وهؤلاء يبقون مسحوقين دائماً . لأن الضرب يقتل الشيطان الذي في داخلهم كما يراد . وثمة محظوظون يخرجون دون قتل شياطين دواخلهم ولكنهم يخوفونها ، ويروضونها . وهؤلاء لا ينسون ذكرياتهم السيئة تلك أبداً . ولكنهم لتعلمهم التعايش مع الشيطان يصبحون ماكرين ويتعلمون أكثر من الجميع كيف يكونون ماكرين ، ويعرفون غير المعروف ، ويعرفون العدو ، ويشعرون بالحبائل التي تحاك من خلفهم في وقتها ـ وطلبت مني ألا أخبر أحداً بهذا ـ وأنا أضيف أنهم ينجحون بالنقش

أكثر من الجميع . لأنني لا أرسم أغصان شجرة بشكل منسجم صفعني صفعة على وجهي جعلني أتخيلَ غابة أمام عينيَ اللتين كانتا تذرفان الدمع . وبعد أن قال لي : ألا ترى العيب في نهاية الصفحة ولكمني على رأسي غاضباً ، تناول المرآة بعشق ، ولكي أتخلّص من اعتياد العين وضعها فوق الصفحة وأسند خده إلى خدي وأراني عاشقاً الأخطاء التي ظهرت فجأة عندما انعكست الصفحة بالمقلوب ، وأنا لم أنس العشق ولا الجسد . بعد أن يضربني على ذراعيَ ويكسركبرياني وأبكي ليلاً ، كان في صباح اليوم التالي يقبّل ذراعيَ بحب ، وكنت أؤمن بعشق أيضاً أنني سأغدو نقاشاً أسطورياً في أحد الأيام . أنا لم أرسم ذلك الحصان » .

« سنفتش عن الرسم الأخير الذي سرقه النقاش الملعون ـ يقصد لقلقاً ـ هل رأيت أنت ذلك الرسم الأخير ؟ »

قلت : « كان شيئاً لا يقبل به سلطاننا ، ولا نقبل به نحن النقاشين المرتبطين بالأساتذة القدماء ، ولا يقبل به المسلمون المرتبطون بدينهم » وسكت .

فتح كلامي هذا شهيته أكثر . بدؤوا بمن فيهم لقلق يفتشون التكية قالبينها رأساً على عقب . اقتربت منهم مرة أو اثنتين من أجل تسهيل عملهم فقط . أشرت لهم إلى حفرة في إحدى غرف الدراويش التي يدلف سقفها كي لا يسقطوا فيها ، ولكي يبحثوا فيها إن أرادوا . قبل أن ينضمَ نزلاء هذه التكية إلى الطريقة البكطاشية ويتفرقوا ، في أثناء حياتها التي استمرت ثلاثين عاماً ، كان يقيم شيخها في غرفة صغيرة ، جلبت لهم مفتاحها الضخم . عندما دخلوا إليها بتوق شديد ووجدوا أن أحد جدرانها غير موجود ، والمطر ينزل إليها مباشرة لم يجدوا ضرورة للبحث فيها .

سررتُ لاتفاق فراشة معهما ، ولكنني أشعر أنه سيقتل مع الآخرين

عندما يوجد الدليل . تقارب لقلق وقرة كان نتيجة خوفهما من تسليم الأستاذ عثمان إياهما للجلاد ، واتفاقهما على ضرورة دعم كل منهما الآخر ، ووقوفهما أمام الخزندار الأكبر بهذه القوة . فهمت أن ما يوجه قرة في هذا الموضوع ليس إيجاد قاتل زوج خالته فقط وتقديم هدية عرس حقيقية لشكورة الجميلة ، بل إدخال نقش خانة العثمانيين في طريق أساتذة الإفرنج ، وإنهاء كتاب زوج الخالة بالنقود التي ستأتي من السلطان بتقليد الأساتذة الإفرنج (وهذا الكفر مضحك جداً) وبالتأكيد أنا مدرك أن لقلقاً يتخيل أن يصير كبير النقاشين في نهاية هذه المؤامرة (لأن الجميع يعرف أن الأستاذ عثمان سيطلب فراشة) وهو جاهز لتجريب كل شيء في المستقبل ، ولهذا يريد أن يتخلص منا ، وحتى من الأستاذ عثمان .

اختلطت الأمور في عقلي . فكرت مطولاً وأنا أصغي إلى صوت المطر . بعد ذلك أندسست قرب لقلق وقرة مثل رجل ينسلُ من بين الزحام ويقدم ورقة تمنٍ للوزير الأكبر الذي يمر مع الحاكم ممتطيين جواديهما ، وجعلتهما يعبران من موزع مظلم ثم من باب عريض وقدتهما إلى مكان مخيف كان مطبخاً في زمن ما . سألتهما عما إذا كانا قد وجدا شيئاً وسط الخراب ، وطبعاً لم يجدا . ليس ثمة أثر للقدور الضخمة والأوعية والمعالق حيث كان يطبخ للمساكين والفقراء . لم أحاول تنظيف هذا المكان المغطى بشبكات العنكبوت والغبار والطين وقذر القطط والكلاب وبقايا الهدم . في الداخل ثمة ريح شديدة تدور في المكان دائماً لا يُعرف مصدرها أخفتت ضوء المصباح وجعلت ظلالنا تخفت أحياناً وتغيب أحياناً .

استخدمت طرف يدي مثل مكنسة بحركة اعتيادية ، وكنست الرماد من داخل الخرابة التي كانت قبل ثلاثين عاماً موقداً ، وأمسكت غطاء الموقد الحديدي من حلقة وسحبته محدثاً صوتاً . وأمسكت المصباح عند فوهة الموقد

الصغيرة . لن أنسى أبداً هجوم لقلق قبل فراشة والتقاطه الأكياس التي في الداخل . كان سيفتحها هناك فوراً عند فوهة الفرن ولكنني عدت إلى الغرفة الكبيرة ، ولخوف قرة من البقاء وحده ومجينه معنا ، تبعنا لقلق بباقيه الرفيعين الطويلتين .

عندما ظهر في الكيس جورباي النظيفان ، وسروالي ، وسروالي الداخلي الأحمر ، وسترتي الأكثر أبهة وقميصي الحريري ، وموسى الحلاقة ومشطي وبقية أغراضي وقفوا لحظة محتارين . وظهر في الكيس الآخر الذي فتحه قرة ثلاث وخمسون ذهبية بندقية ، وورق الذهب الذي سرقته في السنوات الأخيرة من النقش خانة ، ودفتر النماذج الذي أخفيه عن أعين الجميع . وبين صفحاته ورق ذهب مسروق ، والرسوم غير المؤدبة التي رسمتها أنا وجمعت بعضها من هنا وهناك . وخاتم عقيقي بقي لي من أمي ، وخصلة من شعر أمي الأبيض وأفضل أقلامي وفراشي .

قلت بتباه أحمق : «لو أنني قاتل كما تعتقدون لما ظهرت هذه الأشياء في خزينتي السرية ، بل كنتم ستجدون الرسم الأخير» .

سأل لقلق : «لماذا ظهرت هذه الأشياء ؟»

«عندما فتش رجال آمر الحامية بيتي - كما فتشوا بيتك تماماً - وضعوا في جيوبهم بقلة أدب سافرة اثنتين من هذه الذهبيات التي جمعتها طوال عمري . وفكرت بإمكانية تفتيشنا مرة أخرى بسبب ذلك القاتل السافل ، وأنا محق في هذا . لو أن ذلك الرسم الأخير عندي لكان هنا» .

كان من الخطأ أن أقول الجملة الأخيرة هذه ، ولكنني شعرت أنهم ارتاحوا ، ولم يعودوا خائفين أن أخنقهم في زاوية مظلمة من زوايا التكية . هل صدقتموني أنتم أيضاً ؟

سيطر عليَ شعور بالقلق هذه المرة ، ولكن ما أرقني ليس معرفة

أصدقائي النقاشين والذين أعرفهم منذ الطفولة أنني أجمع النقود بشحٍ منذ زمن طويل ، وأنني آخذ ذهباً وأخبئه ، أو معرفتهم الأكثر من هذا وهي رسومي غير المؤدبة ودفاتري . في الحقيقة كنت أشعر بالندم لأنني فرّجت أصدقائي النقاشين على كل هذه الأشياء في لحظة ارتباك . لا يشهَر بأسرار شخص يعيش بشكل عشوائي إلى هذ الحد إلا بهذه السهولة .

بعد وقت طويل قال قرة : « ولكن علينا أن نقرر ما سنقوله لآمر الحامية تحت التعذيب قبل أن يقول الأستاذ عثمان أي شيء ، أو يشير إلى أحد منّا دون أي اهتمام » .

كنت أشعر أن فراغاً وخمولاً سيطر علينا . لقلق وفراشة يتفرجان على دفتر رسومي غير المؤدبة . كانا في جو يبدي لا مبالاتهما بشيء . حتى إنهما سعيدان بشكل مخيف . شعرت بإرادة قوية لمعرفة الصفحة التي ينظران إليها ، وتوقعتها بشكل جيد ، ونهضتُ من مكاني ، وانتصبت وراءهما ، ونظرت إلى الرسم غير المؤدب الذي نقشته أنا منفعلاً وصامتاً مثل من يتذكر حادثة سعيدة بقيت بعيداً جداً . فرجتنا نحن الأربعة على ذلك الرسم أراحتني من الداخل لسبب ما .

قال لقلق بعد مرور فترة طويلة : « هل يستوي الأعمى والبصير ؟ » هل يشير إلى متعة البصر التي أعطانا إياها الله ، المقدسة حتى لو كنا ننظر إلى رسم غير مؤدب ؟ ولكن لقلقاً لا يفهم في أمور كهذه ، ولا يقرأ القرآن الكريم أبداً . أعرف أن الأساتذة الهراتيين القدماء يستذكرون آية القرآن الكريم التي تحمل هذا المعنى . ويستخدم الأساتذة القدماء تلك الآية رداً على تهديدات أعداء النقش الذين يقولون إن الرسم محرم في ديننا ، وإن الرسامين سيصلون جهنم يوم القيامة . ولكنني لم أسمع هذه الآية المنزلقة على لسان فراشة على ما يبدو بتلقائية منه حتى تلك اللحظة السحرية » .

«كنت أريد أن أرسم ما يشير إلى أن الأعمى والبصير ليسا في سوية واحدة» .

قال قرة ببراءة : «من الأعمى والبصير ؟ »

قال فراشة : «إنها تفسير الآية : وما يستوي الأعمى والبصير» ثم أضاف :

«ولا يستوي الظلام والنور
ولا يستوي المكان الحار والظليل
ولايستوي الحي والميت» .

في لحظة ارتعشت من عاقبة ظريف أفندي وزوج الخالة وأخينا المداح المقتول هذه الليلة . هل خاف الآخرون أيضاً كما خفت ؟ لم يتحرك أحد في هذه الأثناء من مكانه . ما زال لقلق يمسك دفتري مفتوحاً بين يديه ، ولكن على الرغم من أننا ننظر إلى قلة الأدب تلك التي رسمتها ، يبدو أنه لا يراها!

قال لقلق : «وأنا أيضاً كنت أريد رسم يوم القيامة ، وبعث الموتى ، وفصل المذنبين عن الأبرياء . ولكن لماذا لا نستطيع رسم قرآننا الكريم ؟ »

في سنوات شبابنا الأولى عندما كنا نعمل في غرفة واحدة من غرف النقش خانة ، كنا نرفع رؤوسنا عن خشبة العمل أو الرحلة ونفتح موضوعاً آخر تماماً كما يفعل المعلمون المسنون من أجل إراحة أعينهم . وكما فعلنا الآن عندما كنا ننظر إلى الدفتر المفتوح أمامنا . كنا في ذلك الوقت لا ننظر إلى بعضنا بعضاً عندما نتحدث في أمور خطرت ببالنا بشكل تلقائي . لأننا كنا نوجه أعيننا إلى الخارج عبر النوافذ المفتوحة من أجل إراحتها . لا أدري إن كان بسبب الانفعال لتذكر جمالية أيام تلمذتي السعيدة ، أم بسبب الندم الذي شعرت به في تلك اللحظة بصدق لأنني لم أفتح القرآن الكريم وأقرأ فيه منذ مدة طويلة ، أم من روعة الجريمة التي شهدناها هذا المساء في المقهى ،

عندما وصل الدور إليّ اختلطت أفكاري وتسرعت ضربات قلبي كما يحدث عندما أكون في المواقف الخطرة ، وقلتُ تلقائياً لعدم تذكري أي شيء .

« ثمةآيات في نهاية سورة البقرة . كنت أرغب بشدة أن أرسمها : ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا » . وفجأة تهدج صوتي ، وخجلت من دموعي التي سالت بشكل مفاجئ . ولعل هذا بسبب خوفي من السخرية التي كانت جاهزة دائماً لدينا من أجل حماية أنفسنا منذ كنا تلاميذ ولإبداء حساسيتنا .

اعتقدتُ أن دموعي ستهدأ بسرعة ، ولكنني لم أستطع الإمساك بنفسي ، وبدأت أبكي مشهشهاً . ومع استمراري بالتحيب كنت أشعر أن كل واحد من الآخرين سيطر عليه شعور الأخوة والانهيار والكدر . سينقش في نقش خانة سلطاننا على طراز الأفرنج ، وستنسى حقيقة بالتدريج الكتب والأصول التي وهبناها عمرنا كما سينسى كل شيء ، وإذا لم يحاصرنا الأرضروميون ويسحلوننا سيجعلنا جلادو السلطان عاجزين... ولكنني في أثناء بكائي كنت أصغي إلى صوت قطرات المطر الحزين كما أصغي إلى شهشهتي ، وأشعر أن ما يبكيني الآن ليست هذه الأمور . إلى أي مدى ينتبه الآخرون إلى هذه الأمور ؟ أشعر أنني أبكي بصدق من جهة ، كما أشعر بالذنب لأنني أبكي بشكل ما كذباً من جهة أخرى .

اقترب مني فراشة وضع يده على كتفي . أبكتني هذه الصداقة بشكل أصدق ، وشعور أكبر بالذنب . لم أنظر إلى وجهه ، ولكن لسبب ما أوهمت نفسي بإحساس خاطئ بأنه يبكي . جلسنا معاً .

في هذا الجو استذكرنا كيف جلبنا إلى النقش خانة تلاميذَ في السنة نفسها ، وتذكرنا حزن الغرابة عندما انفصلنا عن أمهاتنا وبدأنا فجأة حياة

جديدة ، وألم الضرب الذي ضُربناه منذ اليوم الأول ، وفرحَ تلقينا أول هدية من الخزندار الأكبر ، وأيام عدنا راكضين فرحاً إلى البيت . في البداية كان هو يحكي وأنا أسمع مكدراً ، ولكن فيما بعد انضم إلى الحديث لقلق وعندما شارك قرة الذي كان يتردد على النقش خانة في سنوات التلمذة الأولى ، نسيت أنني أبكي قبل قليل ، وبدأت أحكي ضاحكاً .

تذكرنا كيف كان ينهض التلاميذ باكراً جداً في صباحات الشتاء الباردة ويشعلون موقد الغرفة الأكبر في النقش خانة ، ويمسحون الأرض بالماء الساخن . كما استذكرنا أيام كان إلهامنا لا يكفي إلا لرسم ورقة شجرة واحدة في يوم كامل ، وكيف كان يشير معلمنا محتاطاً إلى مكان الورقة عندما يرانا ننظر إلى الأوراق اليانعة الخضرة في الربيع قائلاً لنا : «ليس إلى هناك ، إلى هنا» . دون أن يضربنا منبهاً لنا للمرة المائة . وتذكرنا بكاء ولد يُسمع في النقش خانة كلها وهو يتجه نحو الباب حاملاً صرّته معاداً إلى بيته لأنه صار يدوخ من كثرة العمل . بعد ذلك تجلى أمامنا منظر صفحة اشتغل عليها ثلاثة نقاشين مدة ستة أشهر (الجيش العثماني الذي جاع عند طرف وادي قنق في طريق شروان ، وشبعه عندما حتل إريش) وكيف تفسخت فوقها حقة برونزية وانسكب حبرها الأحمر المميت ، وتفرجنا على المنظر مستمتعين (لأن الذنب لم يكن ذنبنا) وباحترام وظرافة تذكرنا عشقنا نحن الثلاثة وتبادلنا الحب مع چركز خانم الزوجة الأجمل لباشا في السبعين من عمره بعد أن نظر إلى فتوحاته وقوته وغناه أراد أن يعمل للسقف تزيينات مثل قصر الصيد لسلطاتنا . كما تحدثنا بتوق شديد عن لذة احتساء حساء العدس في صباحات الشتاء عند عتبة الباب الموارب لكي لا يليّن البخارُ الورقَ ، وعن الحزن نتيجة الابتعاد عن الأصدقاء والمعلمين عندما ذهبنا إلى مكان بعيد لنستمر بتعليمنا نتيجة فرض أستاذنا علينا ذلك . فجأة تجلت أمام

عيني صورة فراشة عندما كان في السادسة عشرة من عمره في أحلى أيامه وأكثرها حيوية : في أحد أيام الصيف سقطت أشعة الشمس الدافئة من نافذة مفتوحة على ذراعه العسلية اللون بينما كان يصقل الورق بسرعة بواسطة أداة من صدفة بحر . ووسط انهماكه في هذا العمل وهو شارد يقف فجأة ويقرِّب عينيه من عيب في الورقة ويفحصه بدقة ، وبعد أن يقوم بحركتين مختلفتين فوق تلك النقطة يعود إلى وضعيته السابقة ، وتذهب يده إلى الأعلى والأسفل بسرعة وسط خيالاته وهو ينظر إلى البعيد عبر النافذة . لن أنسى أبداً فيما بعد لو أن الآخرين يعملون ما أعمله ، ولو أن عيونهم لا ترقبني قبيل أن أنظر من النافذة إلى الخارج بفترة قصيرة جداً . لهذه النظرة معنى واحد يعرفه التلاميذ كلهم : لا يمر الزمن دون خيال .

* * *

٥٨

سيقولون عني قاتل

ستسمونني أليس كذلك ؟ عليّ ألا أخفي عنكم أنني هنا . لأن الصوت المتدفق داخلي يجعل حديثي حاجة لا تقاوم . أحياناً أضغط على نفسي كثيراً . لهذا أعتقد أن نبرة صوتي ستفهم . وأحياناً أغوص في أعماق نفسي ، وعندئذ تنطلق من لساني كلمات تشير إلى شخصيتي الأخرى ، ولعلكم انتبهتم إليها . يداي ترتجفان ، ويتعرق جبيني ، وأدرك فوراً أن هذه إشارات جديدة .

مع أنني سعيد جداً هنا! أجلس مع أخوتي النقاشين نسلّي بعضنا البعض ، وفي استذكارنا ذكريات خمسة وعشرين عاماً مضت ، ولا تخطر ببالنا العداوت بل جماليات النقش ومتعه . ثمة شيء خاص بنساء الحرم في جلوسنا ونحن نشعر بانتهاء العالم مداعبين بعضنا بدموع بعضنا البعض .

استعرت هذا التشبيه من أبي سعيد الكرماني الذي نقش حكايات أساتذة شيراز وهرات القدماء عندما دونوا تاريخ أبناء تيمور . قبل مائة وخمسين سنة تغلّب الشاه جهان على حاكم ديار الغنم الأسود وجيوش الخانات والشاهات أحفاد تيمور الصغيرة ، ودولهم ، وأسقطها ، وعبر بجيشه التركماني المظفر دولة العجم كلها ، ووصل إلى الشرق ، ثم تغلب على آخر أحفاد تيمور إبراهيم ابن الشاه روح في استر أباد ، وضمّ (كُرگاني) ثم قاد

جيوشه نحو قلعة هرات . وحسب رواية المؤرخ الكرماني فإن هذه ضربة قوية نزلت على آل تيمور الذين لم يحكموا إيران فقط ، بل حكموا نصف العالم من الهند إلى بيزنطة على مدى نصف قرن ، وهذا ما أجج رياح الكارثة والانهيار . لذلك غدت قلعة هرات مثل يوم المحشر . وكان الشاه جهان حاكم ديار الغنم الأسود يقتل دون شفقة كل من في القلعة التي يحتلها من أبناء تيمور ، ويختار نساء الشاهات والأمراء ويدخلهن إلى حرمه ، ويفرق النقاشين عن بعضهم البعض ، وجعل أكبر معلمي النقش تلاميذَ عند تلاميذهم ، وشرح هذا أبو سعيد بمتعة كبيرة ، وفي هذه النقطة انتقل بحكايته من أبراج القلعة والشاه وجنوده الذين يحاولون صد هجوم العدو إلى النقش خانة بين الأقلام والفراشي والنقاشين الذين ينتظرون نهاية الحصار الذي أصبحت نتيجته واضحة منذ زمن . وذكر أسماءهم واحداً واحداً وعرفهم العالم كله ، واليوم نسوا جميعاً ، فتعانق النقاشون ـ كما فعلت نساء حرم الشاه تماماً ـ متباكين ، وكَتَب أنهم لم يفعلوا شيئاً سوى تذكر الأيام الجميلة الخوالي .

ونحن كنساء الحرم المكدرات تذكرنا الحب الذي كان يبديه لنا الشاه قديماً ، وبعد أن يقبل هدايانا في الأعياد من صناديق منقوشة وملونة ومرايا وصحون ، وبيض نعام منقوش ، وبعض الأعمال الورقية ، ورسوم على صفحة واحدة ، ومرقعات مسلية وأوراق لعب ، وكتب ، يعطينا قفطانات ذات فراء وأكياساً من النقود التي يدفعها في اللحظة ذاتها . أين النقاشون المسنون الذين كانوا في تلك الأيام كثيري العمل منعزلين يكتفون بالقليل ؟ وفي أثناء انهماكي كي لا أدعهم يرونني كيف أرسم ، وكي لا تظهر غيرتي وأنني أعمل عملاً خارجياً لأنهم لا يجلسون في بيوتهم ، ويأتون كل يوم إلى النقش خانة . أين النقاشون الذين يقضون عمرهم كله برسم الزخارف على جدران

القصور في الرسم ، وكل منهم يختلف عن الآخر ، ولكننا إذا راقبناهم فترة طويلة نجد أنهم لا يختلفون ، ورهنوا حياتهم بتواضع شديد لرسم الأوراق في الأشجار ، ورسم أعشاب الحقول ذات الورقات السبع وفي الأمكنة الفارغة من الصفحة ؟ أين المعلمون المتوسطون الذين لا يغارون مطلقاً وقبلوا أن لله حكمته وعدالته في منح البعض موهبة ومهارة ، والبعض الآخر توكلاً وصبراً ؟ كلما استذكرنا أولئك المسنين الذين احدودبت ظهورهم ومنهم المبتسم دائماً ، ومنهم السارح السكران ومنهم الذي لم يستطيع تزويج ابنته فيحاول التحايل علينا لتزويجنا منها . كنا نحيي أمام أعيننا تفاصيل النقش خانة المنسية .

ثمة مسطر في طرف عينه حور عندما يسطّر يسند لسانه إلى خده ـ إذا كان الخط متجهاً نحو يمين الصفحة فلسانه إلى الخد الأيمن ، وإذا كان يتجه نحو اليسار فلسانه نحو الخد الأيسر ـ وكان ثمة نقاش صغير نحيل عندما يخرج معه الصِباغ خارج المساحة يقول : «يا صبر ، صبر ، صبر» ويضحك على نفسه بقهقهات خفيفة . كما كان ثمة معلم تذهيب في السبعينات من عمره يقضي ساعات في الحديث مع تلاميذ التجليد في الطابق الأسفل ، ويدعي أنه إذا دُهن الجبين بالحبر الأحمر فإن هذا يوقف تقدم السن ثمة أستاذ عصبي أيضاً عندما تمتلئ أظافر يده باللون الأحمر وهو يجرّب كثافته يوقف تلميذاً ما ، ويجرّب دهن الصبغ على أظفره . كما أنه ثمة نقاش سمين عندما نداعب لحيته برجل الأرنب ذات الوبر المستخدمة في جمع غبار الذهب الزائد عن التذهيب يضحكنا . أين هؤلاء ؟

أين أيضاً خشبة الصقل التي تغدو على مدى سنوات استخدامها جزءاً من جسد التلاميذ ثم ترمى جانباً ؟ وأين مقصات الورق الطويلة التي يخرّب التلميذ حوافها على أنها سيوف ؟ وأين خشبات الكتابة المزخرفة التي يكتب

الأساتذة الكبار أسماءهم عليها كي لا تتبدل ؟ والرائحة العطرة للحبر الصيني ؟ والقرقعة الخفيفة لأباريق القهوة التي تشرب بصمت ؟ وأين قطتنا الرقشاء التي كنا نعمل مختلف أنواع الفراشي من وبر آذان ورقاب جرائها كل صيف ؟ والأورق الهندية التي كانت تقدَم لنا بسخاء ونخربش عليها على أننا نقوم بتمارين مثل الخطاطين وعندما تستخدم المبراة ذات المقبض الفولاذي بإذن كبير النقاشين لتكون عبرة للنقش خانة كلها ، وأين مراسم هذه الأخطاء ؟

تذكرنا أن الخطأ الآخر هو تشغيل أساتذة النقش التابعين لسلطاننا في بيوتهم . كما تذكرنا الحلوى الساخنة الرائعة التي كانت تأتي من مطبخ القصر بعد أن تتعب أعيننا بالعمل في ضوء القنديل والشمع في مساءات الشتاء التي تأتي باكراً . وتذكرنا مبتسمين معلم التذهيب المسن والخرف الذي لم يعد يستطيع الإمساك بالورقة والقلم وزيارته النقش خانة مرة في الأسبوع جالباً (العوامات) التي تقليها ابنته من أجلنا نحن التلاميذ ، ودموعه . كما ذكرنا أيضاً كبير النقاشين الذي كان قبل الأستاذ عثمان وهو الأستاذ الكبير (قرة ممي) وغرفته التي بقيت فارغة أياماً ، وعندما أعيد ترتيبها ظهرت حافظة الورق تحت الفراش الذي كان يتمدد عليه بعد الظهر ليغفو قليلاً ، والصفحات الرائعة التي بين تلك الأوراق .

تحدثنا عن الصفحات التي نعتز بها مثل قرة ممي والتي لو استنسخت لأخرجناها في بعض الأحيان وتمليّنا منها ، وذكرناها واحدة واحدة ، عندما دهن القسم العلوي من رسم القصر المرسوم من أجل مهارة نامة ـ أي جزء من السماء ـ بماء الذهب وظهر منظر يذكر بنهاية العالم بين القباب وأشجار السرو ليس بسبب لون الذهب الطبيعي ، بل لتلوينها بما يجب من الألوان ، وتحدثنا عن ذلك الرسم .

وتذكرنا كيف رسم حضرة نبينا بألوان جدّية جداً على قمة المئذنة ، وصعوده إلى السماء يمسكه من ذراعيه ملكان ، وإمساكهما يدغدغ إبطه حتى الأولاد إذا شاهدوا هذا المشهد المبارك يخشعون بإيمان أولاً ، بعد ذلك يضحكون باحترام وكأنهم المدغدغون . حكيت لهم عن خروج الباشا وزيرنا الأول السابق إلى الجبال وإخماده العصيان ، وكيف رسمت الرؤوس المقطوعة في حافة الصفحة مصفوفة بعناية واحترام مدهونة بالأحمر ، وكيف جعلت حواجب تلك الرؤوس مقطبة للموت ، وشفاهها مكدرة وهي تسأل عن معنى الحياة ، وأنوفها التي تحاول سحب النفس الأخير وهي لا حول لها ، وعيونها المغلقة على الحياة وليس كل رأس هو رأس ميت عادي كما يعمل رسام شخصيات أفرنجي ، بل كل وجه يختلف عن الآخر ، وهكذا ينبعث من الرؤوس إلى الرسم جو مخيف .

وتذكرنا موقف العشق والحرب الأحب إلينا ، والجماليات الأورع ، والظرافة المدمعة للعين ، وناقشناها باعتبارها ذكريات لا تنسى ، ولا يمكن الوصول إليها . مرت من أمام أعيننا الحدائق الصامتة المليئة بالأسرار التي يلتقي فيها العشاق في الليالي ذات النجوم ، وأشجار الربيع ، والطيور الأسطورية والزمان المتوقف... تخيلنا الحروب الدموية القريبة قرب كوابيسنا والمخيفة خيفتها ، والمحاربين المشطورين من المنتصف ، والخيول التي غُطّت دروعها بالدم ، والناس القدماء الحلوين الذين يطعنون بعضهم بعضاً ، والنساء المتابعات ما يجري من النوافذ المواربة قليلاً جداً ، وأفواههن صغيرة ، وأيديهن صغيرة ، وعيونهن مرفوعة الأطرف ، ورؤوسهن مطأطئة... تذكرنا الغلمان الحلوين الممتنين والمغرورين ، والشاهات الوسيمين ، والخانات ودولهم وقصورهم التي سقطت وذهبت معهم منذ زمن طويل . ومثل النساء المتباكيات في حرم أولئك الشاهات نعرف أننا مررنا بهذه الحياة مثل ذكرى ،

ولكن هل نعبر مثلهن من التاريخ إلى الأسطورة ؟ سألنا عن مشاهد الموت الأكثر حباً لنا لكي لا يجرنا الخوف من الموت وظل الخوف من النسيان المروع إلى الهلع .

وبسرعة استذكرنا خداع الشيطان «الضحاك» وقتله أبيه . في زمن بداية الشاه نامة التي تذكر تلك الأسطورة . كان كل شيء بسيط إلى حد عدم الحاجة إلى تفسير ، لأنه لم يمض وقت طويل على خلق العالم . إذا أردت حليباً فتحلب المعزاة وتشرب ، تقول حصاناً فتركبه وتنطلق ، وإذا قلت سوءاً يأتيك الشيطان فيقنعك بجماليات قتل أبيك . وقتلُ الضحاكِ أباه العربي الأصيل مرداساً جميل لأنه دون سبب من جهة ، ولأن الجريمة ارتكبت في منتصف الليل في حديقة قصر رائعة رسمت تحت النجوم في ضوء خافت تبدو فيه أشجار السرو وأزهار الربيع الملونة من جهة أخرى .

بعد ذلك تذكرنا رستم الأسطوري الذي صارع جيوش أعدائه التي يقودها ابنه سهراب مدة ثلاثة أيام ، وقتله ابنه دون أن يعرفه . ثمة شيء أثر فينا جميعاً في قضيته لطم رستم لنفسه باكياً بعد أن استنتج أن سهراب الذي مزق صدره بضربات سيفه هو ابنه من السوار الذي قدمه لأمه قبل سنوات .

ماذا كان ذلك الشيء ؟

وبينما كان المطر ينقر سقف التكية حزيناً وأنا أذرع المكان ، انطلق لساني قائلاً :

« إما أن يخوننا أبونا وأستاذنا عثمان ويتسبب بقتلنا ، أو نخونه ونتسبب بقتله » .

سيطرت علينا الدهشة وسكتنا ، لا لأن ما قلته خاطئ ، بل لأنه صحيح . بينما كنت أذرع المكان منهمكاً بإعادة كل شيء كما كان في

الماضي قلت لنفسي : أحكي لهم قصة قتل أفراسياب لسياووش فيتغير الموضوع . ولكن تلك خيانة تتجاوز حدود خوفي منها . احك عن مقتل خسرو . حسنٌ ، أأحكيها كما رواها الفردوسي في الشاه نامة ، أم كما رواها نظامي في قصة خسرو وشيرين ؟ الأمر المكدر في الشاه نامة هو أن القاتل عندما دخل إلى الغرفة أدرك خسرو بدموعه شخصية القاتل! وكملاذ أخير يطلب من غلامه الذي بجانبه أن يجلب له الماء والصابون والثياب النظيفة ليصلي ، ولكن الغلام الغبي لا يفهم أن سيده يرسله لطلب النجدة ، ويذهب لجلب ما طُلب منه . عندما يبقى خسرو والقاتل وحدهما في الغرفة كان العمل الأول للقاتل هو إقفال الباب من الداخل ، بعد ذلك يوقعون بالقاتل ، ويصفونه حسب الفردوسي بقرف : رائحته كريهة ، مشعر ، بطنه كبير .

بينما كنت أذرع المكان كان رأسي مليئاً بالكلمات ، وكان صوتي لا ينطلق بأي شكل كما في الأحلام .

في تلك اللحظة شعرت أن الآخرين يتهامسون ، ويتحدثون عني بعداء وكأنني في حلم .

فجأة قفز الثلاثة فوقي ، وبينما كانوا ينزلون عليّ بقوتهم كلها ، رفعوا قدمي بسرعة عن الأرض ، وتدحرجنا نحن الأربعة . حدثت مدافعة ومعركة على الأرض ، ولكنها لم تستمر طويلاً . انقلبت متمدداً على ظهري بالأسفل . وهم صعدوا فوقي .

أحدهم جلس فوق ركبتي ، والآخر على ذراعي الأيمن .

أسند قرة ركبتيه في المكانين الذين يتصل فيهما ذراعي بكتفي ، وأسند مؤخرته بقوة ما بين بطني وصدري جالساً فوقي . لم أستطع التحرك في هذا الوضع . كلنا مندهش وأنفاسنا متلاحقة . تذكرت هذا :

كان لدى عمي المرحوم ولد مقرف أكبر مني بسنتين ، آمل أن يكون قد

قُبض عليه وهو يداهم قافلة ، وقطع رأسه منذ زمن . كان ذلك الحاسد يفتعل عراكاً بذريعة ما كلما شعر أنني أعرَف منه وأذكى وأظرف ، وإذا لم يستطع افتعاله يقول : تعال لنتصارع ، وخلال فترة قصيرة يضعني تحته ، ويضع ركبتيه بالشكل نفسه عند كتفي ، وينظر إلى عيني كما ينظر قرة الآن . بين شفتيه تسيل بصقة ، وبينما كانت تلك البصقة تتوجه ببطء نحو عيني كنت أحاول تحريك رأسي إلى اليمين واليسار بقرف خوفاً من سقوطها وهذا ما كان يسليه .

طلب مني قرة ألا أخفي شيئاً . أين الرسم الأخير ؟ اعترف!

كنت أشعر بكدر خانق وغضب من كل شيء : لأنني لم انتبه لاتفاقهم بين بعضهم بعضاً وتكلمت دون جدوى . وعدم تفكيري بإمكانية وصول الغيرة إلى هذا الحد ، وهربي قبل أن يحدث هذا .

قال قرة إنه سيقطع قصبة رقبتي إذا لم أعطه الرسم الأخير .

أمر مضحك . أغلقت شفتي بقوة كأنني إذا فتحتهما ستنطلق من بينهما الحقيقة . من جهة أخرى أفكر بأنه لا يمكن عمل شيء أيضاً . إذا اتفقوا بين بعضهم البعض ، وقالوا للخزندار الأكبر إنني القاتل سيخلّصون أنفسهم من هذه القضية . أملي الوحيد أن يشير الأستاذ عثمان إلى شخص آخر ونقطة أخرى . ولكن هل ما قاله قرة بحقه صحيح ؟ هل يستطيعون قتلي هنا ، بعد ذلك يلبسونني الجريمة .

أسندوا الخنجر إلى رقبتي ، وفوراً رأيت أن قرة لا يستطيع إخفاء متعته من هذا الأمر . صفعوني على وجهي . هل كان الخنجر يذبح ؟ صفعوني صفعة أخرى .

ولكن يمكنني أن أفكر وفق المنطق التالي : إذا لم أقل شيئاً فلن يحدث شيء! وهذا ما منحني قوة . لم يعودوا يخفون غيرتهم مني منذ كنا تلاميذ

لأنني طوال عمري ألوّن أفضل منهم بشكل جليّ ، وأرسم أجمل خط ، وأعمل أفضل نقش . كنت أحبهم لأنهم يغارون مني إلى هذا الحد . ابتسمت لأخوتي الأحياء .

أحدهم ، ولا أريدكم أن تعرفوا أياً منهم ، أقدم على سفالة . قبلني بحرارة كما يقبل حبيبته التي يتحسر منذ زمن طويل على تقبيلها . الآخران يتفرجان عليه في ضوء المصباح الذي قرباه . وأنا تجاوبت مع قبلة أخي الحبيب . إذا كان قد وصل كل شيء إلى نهايته فيلعرف أنني أنجز أفضل نقش . جدوا صفحاتي إن استطعتم .

أغضبه ردي على القبلة بقبلة فبدأ يضربني بانفعال ، ولكن الآخرين أمسكوا به ترددوا لحظة . أغضب قرة تدافعهما وتلاكزهما . كأنهم غاضبون من توجّه حياتهم وليس مني ، لهذا السبب كانوا يريدون توجيه انتقامهم إلى العالم كله ومن الجميع .

أخرج قرة من حزامه شيئاً . إنها إبرة طويلة ، رأسها مدبب جداً . في لحظة قربها من عيني ، تحرك حركة أبدى فيها إمكانية غرزها في عيني .

قال : «قبل ثمانين سنة أدرك أستاذ الأساتذة بهزاد عند سقوط هرات أن كل شيء انتهى ، ولكي لا يجبره أحد على النقش بطريقة مختلفة أعمى نفسه بشرف . وبعد زمن من إدخاله هذا المغرز في عينيه أنزل الله ظلامه الرائع على عبده الحبيب النقاش صاحب اليد المعجزة ببطء . انتقل هذا المغرز مع بهزاد الأعمى والسكران من هرات إلى تبريز ، ومن هناك أرسل هدية مع شاه نامته الأسطورية من الشاه طهماسب إلى والد سلطاننا . في البداية لم يدرك الأستاذ عثمان سبب إرساله ، ولكنه اليوم رأى المنطق الحق ، وتعقب السوء الكامن وراء هذه الهدية الظالمة . عندما رأى الأستاذ عثمان أن سلطاننا طلب نقش رسمه على طراز الأساتذة الأفرنج ، وأنكم ختمتموه بعد أن

أحبكم مثل أولاده ، أدخل هذا المغرز في عينيه في الليلة الماضية كما فعل بهزاد تماماً . والآن كم هو ضروري أن أعميك أيها الملعون الذي تقود نقش خانته التي وهبها عمره إلى الخراب ؟ »

قلت : « إن أعميتني أم لم تعمني فإننا في النهاية لن نستطيع إيجاد موقع لأنفسنا . إن عمي الأستاذ عثمان أو مات ، وإذا نقشنا بعيوبنا كلها وشخصيتنا وبدفع دواخلنا نحو التأثر بالأفرنج سنشبه أنفسنا ، ولكن لن نكون أنفسنا . وإذا قلنا إنه علينا أن ننقش مثل الأساتذة القدماء ، ولا يمكن أن نكون أنفسنا إلا إذا نقشنا مثلهم سيجد غيرنا سلطاننا الذي أدار ظهره حتى للأستاذ عثمان . ولن ينظر إلينا أحد ، وسيشفقون علينا فقط . ومداهمة المقهى بمثابة ملح وبهار الطعام ، لأننا سنُحمّل نحن النقاشين نصف مسؤولية تلك المداهمة لأننا نمد لساننا للواعظ الأفندي »

إذا كنت قد بذلت كلاماً طويلاً حول عدم فائدة سقوطنا ضد بعضنا البعض ، فإن كلامي لم يُجدِ . إنهم لا ينوون الاستماع إلي . إنهم منهمكون في اختيار واحد على عجل قبل الصباح لتقديمه مجرماً دون الاهتمام بصحة الاختيار أو خطئه لأنهم مؤمنون أن هذا سيخلصهم من القضية ، وكذلك أيضاً لن يعذبوا ، وستسير أمور النقش خانة كما كانت عليه لسنوات .

ولكن ما يهدد به قرة لا يعجب الآخرين . ماذا لو فهم أن المجرم رجل آخر ، ووصل إلى أذن سلطاننا أنهم أعموني دون سبب ؟ أخافهما قرب قرة من الأستاذ عثمان وحديثه عنهما بوقاحة . حاولا إبعاد المغرز الذي يمسكه قرة أمام عيني بغضب منفلت من حدوده .

سيطر على قرة خشية من سلبه المغرز واتفاقنا فيما بيننا . حدث شيء من التدافع . ولا أستطيع سوى رفع ذقني ودفع رأسي إلى الوراء للتخلص من الصراع على المغرز أمام عيني .

بعد ذلك حدث كل شيء بسرعة إذ لم أنتبه إلى ما حدث! شعرت بألم حاد ومحدود بعيني اليمنى وتخدر جبيني لحظة . بعد ذلك عاد كل شيء كما كان ولكن ترسخ في داخلي هلع . ابتعد المصباح . ، ولكنني أرى بالأحرى هذه المرة الإبرة تنغرز بتصميم في عيني اليسرى . كان الآخر قد اختطف الإبرة من يد قرة قبل قليل ، وهذه المرة كان أكثر دقة وانتباهاً . عندما شعرت أن الإبرة دخلت لم أتحرك لحظة ، شعرت بالحرقة نفسها . كأن الخدر الذي في جبيني انتشر في رأسي كله ، وتوقف هذا الخدر عند خروج الإبرة . والآن ينظرون مرة إلى عيني ومرة إلى رأس الإبرة . كأنهم غير واثقين مما حدث . عندما فهمت جيداً الأمر المخيف الذي وقع لي توقف التدافع وخف الحمل عن ذراعي .

بدأت أصرخ كالعواء . ليس من الألم ، ولكن لإدراكي فظاعة ما حدث لي . لا أدري كم صرخت . منذ البداية شعرت أن صراخي لم يرحني فقط بل أراحهم أيضاً . كان صوتي يقربنا من بعضنا البعض .

ولكن عندما طال صراخي رأيت أن هلعاً سيطر عليهم . ما زال الألم غير موجود . ولكن ما لا يفارق عقلي أن تلك الإبرة غرزت في عينيَّ .

لم أصر أعمى بعد . والشكر لله أنني ما زلت أراهم يتفرجون عليَّ بخوف وكدر ، وظلالهم تتحرك على سقف التكية بتردد ، وهذ أفرحني من جهة ، وساقني في الآن نفسه إلى هلع عميق . صرخت قائلاً : «اتركوني ، اتركوني لأرى كل شيء أرجوكم» .

قال قرة : «احك بسرعة . كيف تقابلتما أنت وظريف أفندي في ذلك المساء ؟ في هذه الحالة نتركك» .

«كنت عائداً من المقهى إلى البيت ، ظهر ظريف أفندي أمامي . كانت حالته منهارة جداً . في البداية أشفقت عليه . دعوني الآن ، سأحكي لكم

فيما بعد . عيني تعميان » .

قال قرة منهاراً : « لا تعميان بسرعة . شخّص الأستاذ عثمان الحصان المشروم الأنف بعينين مثقوبتين ، صدقني » .

« قال ظريف أفندي المسكين إنه يريد أن يتحدث معي ، وإنه لا يثق بسواي » .

ولكنني الآن لا أشفق عليه ، بل على نفسي .

قال قرة : « إذا حكيت قبل أن يملأ الدم عينيك يمكنك الفرجة على العالم حتى الشبع في الصباح . اسمع ، هاهو المطر يهدأ » .

« قلت لظريف أفندي : لنعد إلى المقهى . ولكنني فهمت بسرعة أنه غير مسرور من المقهى ، وهو يخاف من الذهاب إلى هناك . وهكذا كانت تلك المرة الأولى التي أدرك فيها أن ظريف أفندي قد انفصل عنا جيداً وابتعد بعد أن نقشنا معاً منذ كنا تلاميذ على مدى خمسة وعشرين عاماً . وعلى مدى ثمانية أو تسعة الأعوام الماضية أي منذ زواجه ، كنت أراه في النقش خانة ولكنني لا أعرف حتى ما يعمله . قال لي إنه رأى الرسم الأخير وإن فيه إثماً كبيراً ، وإنه شيء لا يستطيع أحد منا تحمل عبئه . لهذا السبب فإننا سنحترق جميعنا في جهنم . كان منهمكاً وخائفاً . كان يشعر بالانهيار كمن ارتكب ذنباً كبيراً دون أن يقصد » .

« ما هو الذنب الكبير ؟ »

« عندما سألته عن هذا حملق . وكأنه يقول : وكأنك لا تعرف . في تلك اللحظة اعتقدت أن صديقنا من عهد التلمذة قد تقدم في السن مثلنا . قال المسكين إن زوج الخالة استخدم المنظور بشكل سافر في الرسم الأخير . وإن الأشياء لا ترسم حسب أهميتها بالنسبة إلى الله ، بل رسمت كما ترى لأعيننا ، وكما يرسم الأفرنج . وقال إن هذه الخطيئة كبيرة . والخطيئة الثانية

رسم سلطاننا خليفة المسلمين بحجم واحد مع كلب . أما الخطيئة الثالثة فهي رسم شيطان بالحجم نفسه ، إضافة إلى رسمه بشكل قريب إلى النفس . أما الكفر الأكبر من هذا كله فهو إدخال الرسم في مفهوم الأفرنج ، ورسم سلطاننا بحجم كبير وبكل تفاصيله كما يفعل عبدة الأصنام... أو كما يعمل المسيحيون الذين لم يتخلصوا من عبادة الأوثان فيعلقون الرسوم الشخصية على جدران الكنائس ويسجدون لها . كان ظريف أفندي يعرف هذه العبارة التي تعلمها من الأفندي زوج الخالة جيداً ، وأن رسم الشخصية أكبر المحرمات ، وآمن محقاً أن الرسم الشخصي سينهي الرسم الإسلامي . ولأننا لم نذهب إلى المقهى لأنه المكان الذي تمتد فيه الألسن نحو أفندينا الواعظ ، ودييننا ، حكى لي هذا ، ونحن نسير في الأزقة . أحياناً كان يتوقف وكأنه يطلب عوناً ويسألني : هل هذا صحيح ؟ أليس ثمة حل ؟ هل سنحترق في جهنم ؟ كان يمر بلحظات ندم ، ويلطم نفسه حسرة ، ولكنني في لحظة شعرت أنني لم أصدقه أبداً . إنه مزور يتظاهر بأنه يلطم ويتحسر » .

قال قرة : « كيف فهمت هذا ؟ »

« نحن نعرف ظريف أفندي منذ صغره . إنه مستقيم ولكنه صامت ، وذابل ، وباهت مثل تذهيبه . يبدو أكثر خبلاً وبراءة وإيماناً ، ولكنه في الحقيقة سطحي » .

قال قرة : « ولكنه يقضي وقته مع الأرضروميين » .

قلت : « ليس ثمة مسلم يلطم نفسه حسرة لأنه ارتكب ذنباً دون أن يدري . المسلم الجيد يعرف أن الله عادل ومنطقي ، ويأخذ بالاعتبار نية عبده . ليس ثمة من يؤمن أنه سيذهب إلى جهنم لأنه أكل لحم خنزير دون علم سوى الجهلة صغار العقول . والمسلم الحقيقي يعرف أن جهنم ليست من أجل إخافته بل من أجل إخافة الآخرين . وهذا ما كان يعمله ظريف أفندي ،

يريد إخافتي . وزوج خالتك علّمه أن بإمكانه أن يعمل هذا ، لذلك فهمت . الآن قولوا لي الحقيقة يا أخوتي النقاشين الأحباء ، هل ينفر الدم إلى عيني ، هل تفقد حدقتاي لونهما ؟ »

جلبوا المصباح ، وقربوه من وجهي ، ونظروا إلى عيني بدقة طبيب وشفقته .

« كأنه لم يحدث شيء » .

هل سيكون آخر ما أراه في هذا العالم عيون هؤلاء الثلاثة وهي تنظر إلى عيني ؟ أنا أدرك أنني لن أنسى تلك اللحظات حتى نهاية عمري ، وعلى الرغم من ذلك أشعر بالندم ، ولكنني أشعر بالأمل .

« زوج خالتك هو الذي علّم ظريف أفندي ارتكاب المحرّم . فقد أغلق زوايا الرسم الأخير ، وفتح لكل منا زاوية ، وجعلنا نرسم رسماً مخبوءاً... وأعطى الرسم جواً من السرية والهوس ، وبث خوفاً من الحرام ، وبث هذا الخوف والوهم في أنفسنا أولاً ، وليس في نفوس الأرضروميين الذين لم يروا في حياتهم كتاباً . مع أنه من ماذا يمكن أن يخاف النقاش النظيف الضمير ؟ »

قال قرة بصفاقة : « صار هنالك أشياء كثيرة يخاف منها النقاش النظيف الضمير . نعم ، لا أحد يستطيع التكلم عن النقش ، ولكن الرسم ممنوع في ديننا . ولأن رسوم أساتذة العجم وحتى روائع الأساتذة الهراتيين لا ينظر إليها إلا باعتبارها في النهاية جزءاً من تزيين الإطار فهي تبرز جماليات الكتابة وروعة الخطاط ، لهذا لا أحد يتعرض إليهم . وأصلاً كم عدد الذين يتفرجون على رسومنا ؟ ولكن كلما أمعنّا بالاستفادة من قواعد النقش الأفرنجي سيخرج النقش الذي ننقشه أو فتات النقش مما هو فيه ويغدو رسماً بكل معنى الكلمة . وهذا هو الذي منعه القرآن الكريم ، وكرهه نبينا . سلطاننا وزوج خالتي يعرفان هذا جيداً . لهذا السبب قُتل زوج خالتي » .

قلت : «زوج خالتك قتل لأنه خاف . لأنه بدأ يدعي مثلك أن النقش الذي يعمله لا يخالف الدين والكتاب . وهذا ما يبحث عنه الأرضروميون الذين يلوبون على ما هو مناف للدين . ظريف أفندي وزوج خالتك منسجمان» .

قال قرة : «وأنت قتلتهما كليهما ، أليس كذلك ؟»

في لحظة شعرت أنه سيضربني ، وأدركت فوراً أنه زوج الحسناء شكورة الجديد ، وأنه لا يشتكي من قتل زوج خالته . لن يضربني ، ولو ضربني لما اهتممت .

قلت معانداً : «في الحقيقة بقدر ما كان سلطاننا يريد تحضير كتاب بتأثير النقاشين الأفرنج ، كان زوج خالتك يريد أن يتحدى الجميع وينجز كتاباً يمس الخوف من الذنب من أجل التباهي بالكبر . غدا أسير الإعجاب برسوم الأساتذة الأفرنج التي رآها في سياحاته ، وآمن إلى آخر حد بما شرحه لنا جميعاً على مدى أيام ـ لا بد أنه شرح لك ترهات المنظور والرسوم الشخصية ـ بالنسبة إليّ ليس في الكتاب ما هو مضر ، ولا ما هو مناف للدين... لأنه يعرف هذا كان يعطي نفسه انطباعاً بأنه يعمل كتاباً خطيراً ، وهذا ما كان يمتعه... وبالنسبة إليه فإن إقدامه على عمل خطير كهذا بإذن خاص من السلطان على درجة واحدة مع أهمية الإعجاب برسوم الأفرنج . إذا أنجزنا رسوماً تعلّق على الجدار فهذا حرام ، نعم ، ولكنني لم أشعر في أي رسم نقشناه لذلك الكتاب ما ينافي الدين ، أو ما يشير إلى الإنكار أو الزندقة ، أو حتى منعاً ولو غير واضح . هل شعرتم أنتم بهذا ؟»

فقدت عيناي شيئاً من قوتهما ، ولكنني أستطيع ولله الشكر أن أرى توجساً لديهم أحدثه سؤالي .

قلت بمتعة : «لا تستطيعون أن تعطوا قراراً ، أليس كذلك ؟ رغم أنكم

تفكرون سراً بوجود فكرة حرمان أو ظل إلحاد فإنكم لا تقبلون بهذا مطلقاً ، ولا تستطيعون قوله . لأن هذا يعني إعطاء الحق لأعدائكم الأرضروميين ورجال الدين الجهلة بإدانتكم . من جهة أخرى فإنكم لا تستطيعون القول بإيمان إنكم مثل ملعقة بيضاء خرجت للتو من الحليب ، لأن هذا يعني تخليكم عن التباهي المسكر بعملكم أموراً سرية أو ممنوعة . هل تعرفون كيف فهمت أنني أسوّق تباهياً كهذا ؟ بجلب ظريف أفندي المسكين في منتصف الليل إلى هذه التكية! لقد جئتُ به إلى هنا مدعياً أننا بردنا جداً بمسيرنا في الطرقات . وفي الحقيقة إنها بقايا قلندرية زنديقة ، والأسوأ من هذا أنني كنت مسروراً لرؤيته أنني من هؤلاء . لعله إذا عرف ظريف أفندي المسكين أنني آخر ممثل لطريقة تشتتت وكانت تتعاطى الغلمان والحشيشة والتشرد وكافة أنواع الرذيلة سيخاف مني أكثر ويحترمني ، ولعله سيمسك لسانه من الخوف . طبعاً حدث عكس هذا . وكما أنه لم يُسرَ من هذا المكان أبداً فإن صديق طفولتنا الصغير العقل قرر فوراً أن اتهامات الإلحاد التي تعلمها من زوج خالتك في مكانها . وهكذا فإن صديقنا من عهد التلمذة الذي جاءني في البداية قائلاً ساعدني ، اقنعني بأننا لن نذهب إلى جهنم لكي أنام هذه الليلة مرتاحاً... بدأ يقول بلهجة تهديد : نهاية هذا الأمر سيئة... وقال لي : ستصل إلى أذن الواعظ الأرضرومي أقوال إن الرسم الأخير ابتعد كثيراً عما أمر به سلطاننا ، وإن سلطاننا لن يعفو عن هذا . وصار إقناعه بأن الأمور على ما يرام ، مثل بستان ورد ، مستحيلاً . فهمت أنه سيبالغ بترهات زوج الخالة ، ويعطي وهم الكفر بالدين ، وإظهار الشيطان بمظهر محبب ، ويوصل هذا لأصدقائه صغيري العقول المأسورين للواعظ الأرضرومي ، وسيصدق أولئك تلك الافتراءات . أنتم تعرفون أن ظهورنا بمظهر موضع اهتمام السلطان القريب أصبح الحسد ذاته ليس عند أهل الحرفة فقط ، بل لدى المهنيين كلهم . والآن

سيصرخون معاً : النقاشون يكفرون . فوق هذا سيعتبر هذا الافتراء صحيحاً بسبب تعاون ظريف أفندي وزوج الخالة . أقول افتراءً ، لأنني لا أؤمن بما قاله أخونا ظريف حول الكاتب والرسم الأخير . ومنذ ذلك الوقت أنا لا أسمح بأقل تشويه للمرحوم زوج خالتك . كنت أجد أنه من المناسب نقل توجيهات سلطاننا إليه مباشرة دون الأستاذ عثمان ، لأنني كنت مؤمناً بالأساتذة الأفرنج وبما شرحه لي مطولاً حول رسومهم ، وإن كان هذا الإيمان لا يصل إلى مستوى إيمانه . أنا أعتقد أننا نحن نقاشي الدولة العثمانية يمكننا أن نأخذ هذا أو ذاك من القواعد الأفرنجية وما نراه جميلاً في سياحاتنا دون أن يكون لنا علاقة بالشيطان ، كما أن هذا لا يشكل أي بلاء لنا . كانت الحياة جميلة ، وكان المرحوم زوج خالتك بالنسبة إليَ أباً بعد الأستاذ عثمان في هذه الدنيا الجديدة» .

قال قرة : «لا تقفز إلى هناك ، احك كيف قتلت ظريفاً ؟»

قلت له : «قمت بهذا العمل» استخدمت عبارة : هذا العمل ، قاصداً عدم استخدام كلمة القتل : «قمت بهذا العمل ليس من أجلنا فقط ، أي ليس من أجل إنقاذ أنفسنا فقط ، بل من أجل سلامة النقش خانة كلها . فهم ظريف أفندي أنه أمسك بيده سلاح تهديد . دعوت الله العليَ أن يريني في أي درجة من السفالة هذا السافل . قبل الله دعائي ، وأراني أنه أرذل الأرذال . خطرت ببالي هذه الذهبيات ، ولكنني لفقت كذبة بإلهام من الله . قلت إن الذهبيات ليست هنا في التكية ، بل خبأتها في مكان آخر . خرجنا . سرنا في الأزقة الفارغة ، وفي الأحياء المتطرفة دون هدف أو حساب . لم أكن أعرف ما أريد عمله . وكنتُ خائفاً جداً . في نهاية مسيرنا الذي لا هدف له ولا جهة شك أخونا المذهب ظريف أفندي المقدم حياته وجسده عندما مررنا من زقاق كنا قد مررنا منه . ولكن الله أوجد أمامنا مكاناً محروقاً فارغاً ،

وقربه جب لا يرى له قرار» .

فهمت أنني لن أستطيع شرح بقية التفاصيل في هذه النقطة ، وأخبرتهم بهذا ، ثم قلت بجرأة : «لو كنتم مكاني لفكرتم ببقية أخوتنا النقاشين ، وقمتم بالعمل نفسه» .

عندما سمعتهم يعطونني الحق في عملي أحسست بداخلي أنني أريد البكاء . كنت سأقول إن الشفقة التي لا أستحقها رققت قلبي ، ولكن ليس هذا هو السبب . كنت سأقول أيضاً : سمعت مرة أخرى صوت ارتطام جسده في قعر الجب بعد أن قتلته ورميته فيه ، ولكن ليس هذا أيضاً . وكنت سأقول : كم كنت سعيداً قبل أن أغدو قاتلاً ، وكنت مثل الجميع ، وتذكرت هذا ، ولكن ليس هذا أيضاً . تجلى أمام عيني أعمى يمر من حينا الفقير عندما كنت طفلاً ، يُخرج من بين أثوابه القذرة شربة نحاسية أكثر قذارة من أثوابه ، ويوجه كلامه إلينا نحن الأولاد الذين نتفرج على سبيل الماء من بعيد ، ويقول : ياصغاري ، من منكم يملأ شربة الماء لعمه الأعمى من السبيل ؟ عندما لا يذهب أحد كان يقول : فيه ثواب ياصغاري ، ثواب! كانت ألوان حدقتي عينيه قد ذوت وغابت وصارت بلون بياضهما .

وأنا متوتر نتيجة شبهي بذلك الأعمى حكيت لهم على عجل ، ودون استمتاع كيف قتلت زوج الخالة . لم أصدق كثيراً ، ولم أبالغ في الكذب . وعندما وجدت حالة وسطاً بين الحالتين لا تضايق قلبي انتبهت إلى أنهم فهموا أنني لم أذهب إلى هناك من أجل قتل زوج الخالة : أردت قول إنني لم أقتله مع سبق الإصرار ، وفهموا هذا ، ولكنهم فهموا أيضاً أنني أريد القول إن من لم يكن له نية سيئة فلا يذهب إلى جهنم ، بحثاً عن عذر لنفسي .

قلتُ ممعناً بالتفكير : «بعد أن سلّمت ظريف أفندي للملائكة الله ، بدأت كلمات المرحوم الأخيرة تتحول إلى ديدان شك تأكل في قلبي . تلويث يدي

بالدم من أجل الرسم الأخير كبّر ذلك الرسم في عيني . ذهبت إلى بيت زوج الخالة الذي لم يعد يدعو أحداً منا من أجل الكتاب لكي يريني الرسم الأخير . ولم يرني الرسم الأخير ، وتصرّف وكأن كل شيء على ما يرام مثل حديقة ورد . ليس ثمة رسم أو أي شيء آخر فيه من الأسرار ما يدفع لقتل رجل! اعترفت له بأنني قتلت ظريف أفندي ، وألقيته في الجب لكي لا يستهين بي ، ويمنحني أهمية في نظره . منحني أهمية ولكنه استمر بالاستهانة بي . لا يمكن أن يكون ثمة أب يستهين بابنه . كان الأستاذ الكبير عثمان يغضب منا كثيراً ، ويضربنا كثيراً ، ولكنه لا يستهين بنا أبداً . لقد أخطأنا بخيانته يا أخوتي » .

ابتسمت لأخوتي المشدودين تماماً إلى عيني كمن سيستمع إلى آخر عبارات من هو على فراش الموت . وكما يشعر من يموت أخوه أرى أن صورتهم تتعكر ويبتعدون .

« قتلت زوج خالتك لسببين . لأنه أجبر الأستاذ الكبير عثمان على تقليد النقاش الأفرنجي سبستيانو مثل القرد . ولأنني سألته عما إذا كنت قد أظهرت ضعفاً ولي أسلوب ؟ »

« ماذا قال ؟ »

« لي أسلوب . ولكن هذا بالنسبة إليه ليس احتقاراً ، بل إنه مديح طبعاً . أذكر أنني فكرت فجأة خجلاً : ترى هل هذا بالنسبة إليّ مديح ؟ كنت أرى الأسلوب شيئاً من الانحطاط أو عدم الشرف من جهة ، وكان يأكل قلبي دود الشك من جهة أخرى . أريد ألا يكون لي أسلوب ، ولكن الشيطان يستفزني ، وهذا ما يجعلني فضولياً » .

قال قرة بغباء : « كل شخص يريد سرياً أن يكون له أسلوب ، وكل شخص يريد أن يكون له رسم شخصي مثلما أراد سلطاننا » .

قلت : «وهل هذا مرض لا يمكن الحيلولة دونه ؟ ومع انتشار هذا المرض فإنه لا يستطيع أحدنا الوقوف ضد قواعد الأساتذة الأفرنج .

ولكن لم يكن ثمة من يستمع إليّ . كان قرة يحكي حكاية السيد التركماني التعيس الذي أعلن عشقه لابنة السلطان باكراً فنفي إلى ديار الصين مدة اثني عشر عاماً . ولعدم وجود رسم شخصي لحبيبته التي يتخيلها على مدى اثني عشر عاماً نسي وجه حبيبته ، وتحول ألم العشق إلى معاناة عميقة أذاقها له الله . ولكننا جميعاً نعرف أن تلك الحكاية التي يحكيها هي حكايته .

قلت : «بفضل زوج خالتك تعلمنا جميعنا مصطلح رسم شخصي . إن شاء الله ستتمكن في يوم ما أن نحكي قصة حياتنا كما هي دون خوف» .

قال قرة : «الحكايات كلها حكايات الجميع ، وليست لإنسان بذاته» .

أكملت شعر الشاعر الهراتي هاتفي قائلاً : «والنقش كله لله . ولكن مع انتشار قواعد الأساتذة الأفرنج سيعتقد كل من يحكي حكاية غيره على أنها حكايته شطارة» .

«وهذا ما يريده الشيطان تماماً» .

صرخت بما أوتيت من قوة : «دعوني ، أريد أن أتفرج للمرة الأخيرة على العالم» .

عندما رأيت أنهم ارتعدوا خوفاً تولد في داخلي شعور بالثقة .

بداية استجمع نفسه قرة : «هل ستخرج الرسم الأخير ؟»

وجهتُ نظرة إلى قرة فهم منها بسرعة أنني سأخرجه . تركني وبدأ قلبي يخفق مسرعاً .

لا بد أنكم فهمتم منذ زمن هويتي التي عملت على إخفائها ، لا تندهشوا أيضاً لتصرفي مثل الأساتذة الهراتيين الكبار . هم أيضاً كانوا يخفون

توقيعهم وشخصياتهم ، لا لأنهم لا يريدون أن يُعرفوا ، بل يخفونها احتراماً لمعلميهم وقواعدهم . سرت منفعلاً ، حاملاً القنديل ، أشق لظلي الذاوي طريقاً بين غرف التكية المظلمة تماماً . هل بدأت ستارة الظلام تنزل على عيني ؟ أم أن تلك الغرف والموزع مظلمة إلى هذا الحد ؟ كم لدي من الوقت ، الأيام أو الأسابيع قبل أن أعمى تماماً ؟ توقفنا ، ظلي وأنا ، وسط أشباح المطبخ ، أخذت الأورق من الزاوية النظيفة لإحدى خزائن المطبخ المغبرة ، وعدنا مسرعين . تعقبني قرة حذراً ، ولكنه لم يجلب معه الخنجر . هل كنت أريد أخذ الخنجر وأعميه قبل أن أعمى ؟

قلت متباهياً : «أنا مسرور لرؤية هذا مرة أخرى قبل أن أعمى . وأريدكم أن تروه . انظروا! »

وهكذا فرجتهم على الرسم الأخير الذي أخذته من بيت زوج الخالة قبل أن أقتله . بداية تفرجت عليهم وهم ينظرون بتوق وخوف إلى الرسم الذي أخذ حجم صفحتين . عندما التفت وتفرجت معهم على الرسم ، كنت أرتجف بشكل خفيف ، وارتفعت حرارتي إما نتيجة دخول المغرز في عيني أو لأنني أصبت بالجذبة .

وزع زوج الخالة العناصر التي رسمناها جميعنا في مختلف أطراف هاتين الصفحتين خلال السنة الأخيرة من شجرة وحصان وشيطان وموت وكلب وامرأة وإن كان توزيعه ضعيفاً حسب الأصول الجديدة ، وجعلنا تذهيب المرحوم ظريف أفندي وإطاره نشعر أننا لا ننظر إلى صفحة كتاب بل عبر نافذة ، ونرى العالم كله . وفي مركز العالم حيث يجب أن يكون هنالك رسم شخصي لسلطاننا ثمة رسم شخصي لي تفرجت عليه متباهياً . كنت متضايقاً قليلاً لأنني شبهته بنفسي قليلاً بعد أيام من المحاولات والمحو والنظر إلى المرآة بشعور العجز ، ولكنني كنت أشعر بانفعال لا أستطيع ضبطه ، لا لأنني

وضعت نفسي وسط الرسم أو الصفحة أو في مركز العالم ، بل لسبب شيطاني لم أستطع تفسيره ، لأنه جعلني أكثر غرابة وعمقاً وتعقيداً مما أنا عليه . أريد أن يرى أخوتي النقاشون هذا الانفعال ، ويدركوه ، ويشاركوني به . كنت في مركز كل شيء مثل سلطان أو ملك من جهة ، وكنت أنا نفسي من جهة أخرى . وكان هذا الوضع يمنحني غروراً وخجلاً في آن واحد . ولأن هذين الشعورين الموازنين لبعضهما بعضاً يريحانني ، كنت أستمتع بوضعي الجديد في الرسم إلى حد السكر . ولكن لكي تكون تلك المتعة كاملة يجب أن ينفذ وجهي وألبستي بمهارة الرسامين الأفرنج وبكل تجاعيدها وظلالها ، والحبوب الجلدية ، وكل ما هنالك من اللحية إلى نسيج اللباس بألوانها وتفاصيلها الأدق ، تامة ودون قصور .

كنت أرى في وجوه أصدقائي الناظرين إلى الرسم نوعاً من الخوف والحيرة ، وذلك الشعور المنتشر بيننا جميعاً ويلتهمنا وينهينا ولا يمكننا التخلي عنه ألا وهو الشعور بالغيرة . مع شعورهم بالغضب والقرف ممن غاص في الحرام إلى فرقه كانوا يشعرون بالغبطة خائفين .

قلت : «عندما كنت أنظر إلى هذا الرسم هنا في ضوء القنديل شعرت أولاً أن الله تركني ، ولا يمكن إلا للشيطان أن يصادقني في وحدتي . لو كنت في مركز العالم حقيقة ـ كلما نظرت إلى الرسم أرغب بهذا كثيراً ـ سأشعر بالوحدة أكثر على الرغم من وجود هذه الأشياء التي أحبها حولي ، وحتى وجود المرأة التي تشبه شكورة ، والدرويشين صديقيَ ، وجمال اللون الأحمر الطاغي على الرسم . أنا لا أخاف من وجود شخصية لي وخصوصية ، ولا من سجود الآخرين لي ، بل على العكس تماماً ، أريد هذا »

قال لقلق بلهجة الخارج للتو من خطبة الجمعة : «أيعني هذا أنك لست نادماً ؟ »

«لا لأنني قتلت شخصين ، أنا أشعر شعور الشيطان لأنني رسمت نفسي هكذا . أعتقد أنني قتلت الشخصين لأستطيع إنجاز هذا الرسم . ولكن الوحدة الجديدة في وضعي الآخر تخيفني أيضاً . إقدام النقاش على تقليد الأساتذة الأفرنج دون الحصول على مهاراتهم يجعله أكثر عبودية . أريد الهرب من هذا الوضع . وفي الحقيقة إنكم أدركتم أنني قتلت الاثنين ليستمر كل شيء في النقش خانة كما كان ، ومن المؤكد أن الله أيضاً فهم هذا» .

قال عزيزي فراشة : «ولكن هذا سيفتح على رأسنا هموماً كبرى»

وفجأة التقطت رسغ المخبول قرة الذي كان ينظر إلى الرسم حتى تلك اللحظة ، وغرزت أظافري بكل قوتي في لحمه وضغطت ، ولويت ذراعه ، فسقط خنجره الذي كان يمسكه دون اهتمام شديد ، والتقطته من الأرض .

قلت : «فوق هذا لن تستطيعوا التخلص من همومكم وتسلموني للتعذيب» . وقربت رأس الخنجر الحاد من عين قرة ، وكأنني سأدخله فيها : «هات المغرز!»

أخرجه بيده السليمة ، ودسسته في حزامي . ونظرت بقوة إلى عينيه الناظرتين إليَّ كعيني الخروف .

قلت : «أنا أشفق على الحسناء شكورة كثيراً لأنها اضطرت في النهاية للزواج منك . لو لم أقل لنفسي : لأخلصكم من البلاء... وأضطر لقتل ظريف أفندي كانت ستتزوج مني وتسعد . أنا أفضل مَنْ فهم حكايات الأساتذة الأفرنج ومعارفهم التي حدثنا عنها أبوها . لهذا اسمعوا جيداً لما سأقوله في النهاية : لم يعد لنا مكان نحن النقاشين الذين نريد أن نعيش بمهارتنا وشرفنا ، وفهمت هذا . إذا حاولنا تقليد الأساتذة الأفرنج كما أراد المرحوم زوج الخالة والسلطان سيمنعنا الخوف الحق الذي في داخلنا حتى وإن لم يكن هنالك أمثال ظريف أفندي والأرضروميين ، لهذا لن نستطيع الاستمرار إلى

النهاية . وإذا حاولنا الخضوع للشيطان ، واستمررنا إلى النهاية خائنين الماضي كله لكسب أسلوب ، وشخصية على الطريقة الأفرنجية فلن ننجح بهذا كما لم تكف مهاراتي ومعلوماتي لعمل رسمي الشخصي هذا . بسبب بدائية الرسم الذي أعمله فلم أستطع تشبيهه بنفسي جيداً . لقد تعلمت مرة أخرى أن تعلّم مهارات الأساتذة الأفرنج يحتاج إلى عصور ـ وهذا في الحقيقة ما نعرفه كلنا دون إعطائه أهمية ـ لو أنهي كتاب زوج الخالة وأرسل إلى البندقيين ، سيبتسم الرسامون الأساتذة البندقيون ، وتنتقل ابتساماتهم إلى الدوق ، وهذا كل شيء . سيقولون إن العثمانيين يتراجعون عن عثمانيتهم ، ولن يخافوا منا بعد الآن . ما أفضله هو أن نذهب في طريق الأساتذة القدماء! ولكن لا حضرة سلطاننا يريد هذا ولا قرة أفندي الحزين لعدم وجود رسم شخصي لشكورته ، ولا أحد آخر . إذن اجلسوا هنا وقلّدوا أساليب الأفرنج على مدى مئات السنين ووقعوا الرسوم المقلدة متباهين! عندما كان يحاول أساتذة هرات القدماء نقش ما رآه الله لم يوقعوا ، وهذا ليس من أجل إخفاء شخصياتهم . ثمة مخرج من كل هذا ، ولعله طرق أبوابكم ولكنكم تخفون عني هذا . ينثر سلطان الهند ذهباً ومحبة أكبر ، ويجمع أمهر النقاشين في العالم حوله . أصبح الأمر واضحاً . سنلحق بكتاب الذكرى الألفية للإسلام في النقش خانة التي في (عكره) وليس هنا في إسطنبول » .

سأل لقلق : « أمن أجل أن يتظاهر النقاش بالعظمة مثلك يجب أن يكون قاتلاً ؟ »

قلت له غير مهتم : « يكفي أن يكون الأكثر موهبة ومهارة » .

صاح ديكٌ مغرور مرتين بعيداً . جمعت صرتي ، وذهبياتي ، ودفتر نماذجي ، ورسومي ووضعتها في الحافظة . كان يخطر ببالي أنني سأقتلهم جميعاً بالخنجر الذي أوجه رأسه الحاد نحو قرة . ولكنني الآن أحب أصدقاء

طفولتي الذين عشت معهم منذ التلمذة ، وحتى لقلق الذي غرز في عينيَ المغرز .

صرخت في وجه عزيزي فراشة عندما حاول النهوض ، وأخفته ، وأجلسته . عندما منحني هذا ثقة بإمكانيتي أن أخرج من باب التكية سليماً أسرعت ، وعندما صرت في الباب قلت بنفاذ صبر تلك العبارة الطنانة التي فكرت بقولها .

قلت : « خروجي من إسطنبول سيشبه خروج ابن شاكر من بغداد عند الاحتلال المغولي » .

قال لقلق الغيور : « في هذه الحالة يجب أن تذهب إلى الغرب وليس إلى الشرق » .

قلت بالعربية كما كان المرحوم زوج الخالة يقول : « الشرق لله ، والغرب لله » .

قال قرة : « لكن الشرق شرق ، والغرب غرب » .

قال فراشة : « على النقاش ألا يتباهى . وبدل أن يشتكي من الغرب والشرق عليه أن ينقش بالطريقة التي يمليها عليه داخله فقط » .

قلت لفراشة العزيز : « هذه عبارة صحيحة إلى حد أنني أردت تقبيلك » .

ولكن ما إن خطوت خطوة أو اثنتين نحوه ، قفز فوقي قرة بمهارة . في إحدى يديَ صرة ثيابي الداخلية وذهبياتي ، وتحت إبطي الحافظة المليئة بالرسوم . بينما كنت أحاول حمايتها لم أحافظ على نفسي . أمسك يدي التي تحمل الخنجر ، ولكنه لم يكن محظوظاً ، تعرقلت قدمه بالرحلة وعندما فقد توازنه بدل أن يمسك بذراعي تعلق به تعلّقاً . بينما كنت أرفسه بكل قوتي عضضت أصبعه ونفضته عني . لعل من حلاوة الروح ، دست على يده

نفسها هذه المرة فتألم بشدة ، وأشهرت الخنجر نحو الآخرين .

«اجلسا حيث أنتما» .

جلسا . أدخلت رأس الخنجر في منخر قرة كما فعل (كيكاوس) الأسطوري . عندما بدأ ينزف ، بدأت عيناه المتوسلة تذرف دموع الألم .

قلت : «احك الآن ، هل سأعمى ؟»

«حسب الأسطورة فإن الدم يملأ عيون البعض ، ولا يملأ عيون البعض . وإذا كان الله راضياً عن نقشك سيمنحك ظلامه الرائع من أجل أخذك إلى عنده . عندئذ لن ترى هذه الدنيا السافلة ، بل المناظر الرائعة التي يراها . إذا لم يكن راضياً عن نقشك فستستمر بالرؤية كما أنت عليه الآن» .

قلت : «النقش الحقيقي سأنقشه في بلاد الهند . لم أنجز بعد الرسم الذي سيحاكمني من خلاله الله» .

قال قرة : «لا تبن خيالات كثيرة على أنك تفكر بالهرب من القواعد الأفرنجية . أتعرف أن الخان أكبر يشجع نقاشيه جميعهم على التوقيع ؟ لقد أخذ الخوارنة البرتغاليون الرسم الأفرنجي وقواعده إلى هناك منذ زمن . إنهم الآن في كل مكان» .

قلت : «ثمة ما يعمل ، ثمة مكان يكون مناصاً لمن يريد أن يبقى أصيلاً في كل زمن» .

قال قرة : «لماذا ستبقى أصيلاً ؟ ابق مثلنا ، واندمج هنا»

قلت : «إنهم سيقلدون الأفرنج طوال عمرهم معتقدين أنهم سيحققون أسلوباً شخصياً ، ولن يكون لهم أسلوب شخصي لأنهم يقلدون الأفرنج» .

قال قرة بسفالة : «ليس ثمة ما يُعمل غير هذا» .

سعادته الوحيدة بالتأكيد الحسناء شكورة ، وليس النقش . سحبتُ الخنجر المدمى الرأس من أنف قرة المدمى أيضاً ، ورفعته فوق رأسه كجلاد

يريد أن يطيّر رأساً بالسيف .

أعلنت قائلاً : « أستطيع ضرب رأسك إن أردتُ الآن . ولكن يمكنني أن أعفو عنك من أجل سعادة شكورة وولديها . عاملها جيداً . لا تكن جاهلاً أو حيواناً معها . عدني » .

قال : « أعدك » .

قلت : « وهبتك لشكورة » .

لكن يدي تصرفت عكس معنى كلامي ، وأنزلت الخنجر على قرة بكل قوتي » .

في اللحظة الأخيرة نزل الخنجر على رقبته لأنني غيّرت مسار ضربتي من جهة ، ولأنه لم يتحرك من جهة أخرى . أنا أيضاً نظرت بخوف إلى ما عمله ذراعي تلقائياً . صار المكان الذي سحبت منه الخنجر المغروز باللحم أحمر قانياً صافياً . خفت مما عملت ، وخجلت في آن وحد . ولكنني أعرف أنني إذا صرت أعمى في وقت قريب ، . في السفينة ، أو في بحار العرب فلن أجد أحداً من أصدقائي النقاشين لأنتقم منه .

هرب لقلق إلى الداخل حيث الغرف المظلمة خوفاً أن يأتيه الدور ، وكان محقاً في خوفه هذا . ذهبت خلفه مع ظلي حاملاً المصباح ، ولكنني خفت فعدت . آخر ما عملته تبادل القبل مع فراشة متوادعين . لدخول رعب الدم بيننا لم أستطيع تقبيله من قلبي كما أردت ، رأى دمعاً يسيل من عيني .

خرجت من التكية وسط نوع من الصمت الذي يقطع أنين قرة . ابتعدت عن الحديقة الرطبة الطينية وعن الحي المظلم شبه راكض . ستبحر السفينة التي ستأخذني إلى نقش خانة أكبر بعد أذان الصبح . وفي ذلك الوقت سيذهب إليها آخر مركب من ميناء (قدرغة) . عندما كنت أركض كانت الدموع تذرف من عيني .

عندما مررت من (أقسراي) صامتاً مثل لص رأيت أولى أشعة الصباح بشكل مبهم . ومن بين الأزقة الفرعية والممرات الضيقة والجدران بدا لي قدامي مقابل صنبور الحي البيت الحجري الذي قضيت فيه أول ليلة في إسطنبول عندما جئت قبل خمسة وعشرين عاماً . وهناك من الباب الموارب رأيت الجب الذي أردت أن ألقي نفسي فيه شاعراً بالذنب لأنني بلت في الفراش في منتصف الليل حيث كنت نائماً على الفراش الذي فرشه لي قريبي البعيد والذي استقبلني جيداً ، وكنت في الحادية عشرة من عمري . وحتى وصلت إلى البيازيد وقف محيياً لي ولدموعي دكان الساعاتي الذي أتيت إليه كثيراً لتصليح مسننات ساعتي المكسورة ، ودكان بائع البلور الذي كنت أشتري منه زجاجات القناديل وكؤوس الشراب لأنقش عليها وأبيعها للأكابر بشكل خاص ، والزجاجات التي أنقش عليها أزهاراً ، والحمّام الذي كنت أتردد عليه لأنه رخيص وفارغ .

لم يكن ثمة أحد في المقهى الذي تحطم وأحرق ، ولا في بيت الحسناء شكورة التي تمنيت لها من قلبي كله أن تسعد مع زوجها الجديد الذي يموت الآن ، وفي جوار ذلك البيت .

كلاب إسطنبول كلها ، وأشجارها المظلمة والشرفات العمياء والمداخن السوداء والمكبرون المجتهدون التعساء الذين يهرعون إلى صلاة الصبح ، والأشباح التي كانت تنظر إليّ بعداء عندما كنت أسير في الأزقة بعد أن التاثت يداي بالدماء ، وصارت تنظر إليّ بحميمية منذ اعترافي بجريمتي وقراري بترك مدينة حياتي .

بعد أن عبرت جامع البيازيد ألقيت نظرة إلى الخليج من القمة . كان الأفق مضيئاً ولكن الماء مظلم . وببطء شديد يهتز مركبا صيادين ، وسفن الشحن المنزلة أشرعتها ، وسفينة منسية بتأثير الأموج غير المرئية ، وقالت

لي : لا تذهب ، لا تذهب . هل كانت الدموع التي تذرف من عيني بسبب الإبرة التي غرزت في عيني ؟ قلت لنفسي : تخيلَ الحياة الرائعة التي سأعيشها من مهاراتي الرائعة في الهند!

خرجت من الطريق ، وعبرت حديقتين طينيتين راكضاً ، واندسست في بيت حجري قديم وسط الخضرة . هذا هو البيت الذي كنت آتي إليه كل ثلاثاء أيام كنت تلميذاً لحمل حقيبة الأستاذ عثمان وحافظة صفحاته وعلبة أقلامه ومسند كتابته ماشياً وراءه على مسافة خطوتين لأصطحبه إلى النقش خانة . لم يتغير شيء هنا ، ولكن شجرات الدلب التي في الزقاق وفي الحديقة كبرت إلى حد كبير بحيث تبعث في النفس الإحساس بالعظمة والقوة والغنى .

ولأنني قريب من الطريق النازل إلى الميناء طاوعت الشيطان ، وسيطر عليّ هوس رؤية أقواس بناء النقش خانة الذي قضيت فيه خمسة وعشرين عاماً للمرة الأخيرة . وهكذا عبرت من الطريق الذي كنت أعبره أيام الثلاثاء وراء الأستاذ عثمان عندما كنت تلميذاً ، ومن زقاق (أوكتشولر) الذي يعبق برائحة (الإهلامور) المسكرة في الربيع ، ومن أمام المخبز الذي كان يشتري منه معلمي الفطائرباللحم المفروم ، ومن الطريق الصاعد الذي تصطف فيه أشجار الصنوبر والكستناء ، والمتسولون ، ومن أمام دكاكين السوق الجديد المغلقة ، ومن أمام الحلاق الذي يبادله معلمي التحية كل صباح ، ومن طرف البستان الفارغ الذي يأتي إليه البهلوانات كل صيف ينصبون خيمتهم ويقدمون عروضهم ، ومن تحت غرف العازبين التي تفوح منها رائحة القذر ، ومن تحت الأقواس البيزنطية التي تفوح منها رائحة العفن ، ومن جانب قصر إبرهيم باشا ، والعمود ذي الأفعى ، وشجرة الدلب التي رسمتها مئات المرات ، وفي كل مرة أرسمها بشكل مختلف ، ثم خرجتُ إلى ساحة الخيل ، ومررتُ من تحت أشجار الكستناء والتوت التي تأتيها في الصباح العصافير

والبلابل وتغرّد .

كان باب النقش خانة الثقيل مغلقاً . لم يكن أحد عند الباب أو في الرواق ذي الأقواس الذي يعلوه . لم أستطع النظر سوى لحظة إلى النوافذ العلوية المغلقة التي كنا نتفرج على الأشجار منها عندما نصل إلى حدود الانفجار من الملل ، فجأة أوقفني أحدهم .

صوته يحدث خنّة تخدش الأذن . قال إن الخنجر المدمى ذا المقبض المرصع بالياقوت له ، وقد سرقه ابن أخيه شوكت بالاتفاق مع أمه . وهذا يثبت أنني من رجال قرة الذين داهموا بيته واختطفوا شكورة . وهذا الرجل الغاضب ذو الصوت المصحوب بالخنة المدعي المعرفة استنتج أن قرة سيأتي إلى أصدقائه النقاشين والنقش خانة . وكان معه سيف طويل يبرق بلون أحمر ، وحسابات كثيرة قرر أن يصفيها ، وحكاية سيحكيها . لعلني كنت سأقول إن ثمة خطأ في الموضوع ولكنني رأيت في وجهه ذلك الغضب الشديد ، ورأيت في وجهه أنه سيقدم على حركة تقتلني . لو أستطيع القول : «الرحمة ، توقف! »

كان قد نفّذ تلك الحركة .

أما أنا فلم أستطيع حتى إشهار خنجري ، استطعت رفع يدي التي تحمل الصرة .

طارت صرتي في الهواء . قطع السيف الأحمر يدي أولاً دون إبطاء عابراً رقبتي من هذا الطرف إلى ذاك قاطعاً رأسي . أدركت أن رأسي قطع من الخطوتين المهتزتين اللتين خطاهما جسدي الذي تركني ، ومن هزّي الخنجر بشكل غبي ومن تدفق الدم من رقبتي مثل النافورة وانهياري على الأرض . رجلاي المسكينتان ماشيتان تلقائياً مثل تخبط حصان مسكين دون جدوى قبيل الموت .

لسقوط رأسي وسط الطين لم أستطع رؤية قاتلي ولا الصرّة المليئة بالرسوم الحاوية ذهبياتي والتي أريد التمسك بها بقوة . صارا خلف رأسي من طرف النزلة المؤدية إلى البحر وميناء (قدرغة) الذي لن أصل إليه أبداً . لم يستطع رأسي الالتفات إليهما وإلى القسم الباقي من الحياة . نسيتهما وفكرت بما يريده رأسي .

الأمر الذي فكرت فيه قبل أن يقطع السيف رأسي هو : ستبحر السفينة من (قدرغة) ، والتعلق بفكرة الإسراع ، وهذا تكامل مع كلمة أمي عندما كنت صغيراً : اسرع . يا أمي رقبتي تثقل ، ولا تستطيع الحركة .

يعني هذا هو ما يسمونه الموت .

ولكنني أعرف أنني لم أمت بعد . لا تستطيع حدقتاي الحركة ، ولكنني أرى جيداً بعيني المفتوحتين .

الشيء الذي رأيته على طرف الطريق شغل تفكيري كله . الطريق يصعد بشكل خفيف إلى الأعلى . جدار النقش خانة ، وسورها ، وسقفٌ وسماء .

كأن تلك اللحظة التي نظرت فيها قد استطالت ، وفهمت أن الذي أراه الآن نوع من التذكر . ما خطر ببالي عندئذ هو ما كنت أشعر به عندما أنظر إلى رسم جميل مدة ساعات : إذا نظرت طويلاً فسيدخل عقلك إلى زمن الرسم .

غدت الأزمنة كلها الآن ذلك الزمن .

كأنه لن يراني أحد ، وبينما تذوب أفكاري سينظر رأسي الماثل وسط الطين على مدى سنوات إلى هذا الطريق الحزين الصاعد ، والجدار الحجري وأشجار الكستناء والتوت البعيدة التي لا يمكن الوصول إليها .

فجأة صار هذا الانتظار غير المنتهي مؤلماً ومملاً ، وأردت الخروج من هذا الزمن .

٥٩

أنا شكورة

قضيتُ الليلة مؤرقة في بيت أقرباء قرة البعيدين الذي أرسلنا إليه لنختبئ . كنت أستطيع أن أغط في النوم وسط الشخير والسعال في الفراش الذي ننام فيه خيرية والولدين وأنا ، ولكن المخلوقات العجيبة المقطوعة الأطراف والمركبة بطريقة عشوائية والنساء اللواتي يلاحقنني في أحلامي القلقة توقظني . ومع الصباح استيقظت بتأثير البرد ، وغطيت شوكت وأورهان جيداً ، واحتضنتهما ، وقبلت شعرهما وتوسلت إلى الله أن يريني أحلاماً سعيدة كما كنت في الزمن الجميل أنام مرتاحة في بيت أبي .

ولكنني لم أستطع النوم . بعد صلاة الصبح رأيت عبر نافذة الغرفة الصغيرة المظلمة وأن أنظر إلى الزقاق ما كنت أراه دائماً في أحلامي السعيدة : رجل سقط منهاراً من الحرب والجراح التي جرحها ، وغدا مثل شبح ، وفي يده عصا مثل السيف دفع رجالاً معروفين واقترب مني بتوق . في أحلامي كنت أستيقظ في اللحظة التي سأعانق فيها الرجل باكية . عندما فهمت أن الرجل الذي في الزقاق هو قرة ، انطلقت من بلعومي تلك الصيحة التي لم أستطع إطلاقها بأي شكل في أحلامي .

ركضت وفتحت الباب .

تورم وجهه من العراك ، وصار لونه أزرق . تهشم أنفه المغطى بالدم .

في كتفه جرح كبير ممتد حتى رقبته . قميصه أحمر من الدم . كان يبتسم لي بشكل غير واضح لاستطاعته العودة إلى البيت كالزوج الذي في الأحلام .

قلتُ : «ادخل»

قال : «اندهي للأولاد ، نحن ذاهبون إلى البيت» .

«لا طاقة لك بالذهاب إلى البيت» .

قال : «لا تخافي منه بعد الآن . إنه ولي أفندي العجمي» .

قلت : «زيتون!... هل قتلت ذلك المسكين ؟»

قال : «هرب إلى الهند في سفينة تبحر من ميناء قدرغة» . وأشاح بعينيه لحظة لمعرفته أنه لم يؤد عمله كاملاً .

قلت : «هل تستطيع المشي إلى البيت ؟ ليخرجوا لك حصاناً!»

شعرت أنه سيموت عندما نعود إلى البيت ، وأشفقت عليه . لا لأنه سيموت فقط ، بل لأنه لم ير سعادة أبداً . وأرى من الكدر والتصميم الذي في عينيه أنه لا يريد أن يموت في هذا البيت الغريب ، وهو في الحقيقة يريد أن يغيب دون أن يراه أحد في هذه الحالة . أركبوه حصاناً بصعوبة .

في أثناء مسيرنا عائدين حاملين صررنا بأيدينا بين الأزقة الفرعية لم ينظر الولدان في البداية إلى وجه قرة من الخوف . ولكن قرة استطاع أن يشرح لهما كيف استطاع تخريب ألاعيب القاتل السافل الذي قتل جدهما ، وكيف تقاتلا بالسيف وهو على ظهر الحصان الذي يسير ببطء . رأيت أنهما بدءا يشعران بدفء نحوه ، وبدأت أتوسل إلى الله ألا يموت قرة .

عندما عدنا إلى البيت فرح أورهان كثيراً ، وصرخ : «وصلنا إلى البيت» . فشعرت في تلك اللحظة أن عزرائيل سيشفق لحالتنا وأن الله سيمنحنا مزيداً من الوقت . ولكنني لم أنجرف وراء الأمل كثيراً لمعرفتي من التجربة أن لا أحد يعرف متى سيأخذ الله العلي الروح ، ورح من سيأخذ .

أنزلنا قرة عن الحصان بصعوبة ، وساعدناه جميعنا بالصعود إلى الأعلى . أدخلناه إلى غرفة أبي ذات الباب الأزرق ، ومددناه . سخّنت خيرية ماء ، وجلبته . خلعنا عنه قميصه المدمى الملصوق بجسده ، وحزامه ، وحذاءه ، وألبسته الداخلية ، وحتى سرواله الداخلي ، وكل شيء خيرية وأنا ممزقينها أحياناً ، وقصاً بالمقص أحياناً . عندما فتحنا سحابات النوافذ ملأت شمس الشتاء اللطيفة المتراقصة على أغصان الأشجار في الحديقة الغرفة ، وانعكست على الأباريق والقدور وعلب الصمغ والحقاق والقطع الزجاجية والبرّايات وأضاءت بشرة قرة التي بلون الموت ، وأضاءت جراحه ولحمه الذي بلون الكرز الحامض .

وبقطع قماش الأغطية المبلولة بالصابون والماء الساخن مسحت جسد قرة بدقة كأنني أنظف سجادة قديمة قيمّة ، وبشفقة كأنني أعتني بأحد ولديَّ . نظفت له البقع الزرقاء التي في وجهه دون ضغط ، ودون تحريك الشق الذي في أنفه والجرح الذي في كتفه مثل حكيم . وكما كنت أعمل لولديّ وأنا أنظفهما عندما كانا صغيرين كنت أردد بعض الكلمات التي لا معنى لها على مقام ما . ثمة جروح في صدره وذراعيه . وأصابع يده اليسرى زرقاء داكنة بتأثير العض . كانت قطع القماش التي أمسح بها جسده تصبح مغطوطه بالدم . لمست صدره ، وتحسست نعومة بطنه بيدي ، ونظرت مطولاً إلى ذكره : كان يتناهى إلى أذني صوت الولدين من الأسفل . لماذا يسميه بعض الشعراء قلم قصب .

عندما سمعت صوت إستر المقرقع الاحتفالي المحمّل بالأسرار حينما تكون حاملة أخباراً جديدة وهي تدخل إلى المطبخ ، نزلت إلى الأسفل .

كانت إستر منفعلة إلى حد أنها بدأت تحكي لي دون عناق ، وُجد رأس زيتون عند باب النقش خانة مع صرته والرسوم التي تثبت جريمتيه

الســابقتين . كان سيهرب إلى الهند ، ولكنه قال لنفسه : لأذهب للمرة الأخيرة إلى النقش خانة .

هنالك شهود : عندما رأى حسن زيتوناً هناك سحب سيفه الأحمر وأسقط رأسه بضربة واحدة .

بينما كانت تحكي كنت أفكر بمكان أبي . علمي بأن القاتل نال جزاءه خلصني في البداية من الخوف . وشعرت أن الانتقام يمنح الإنسان شعوراً ممتعاً بالراحة والعدالة . صار عندي فضول لمعرفة كيف يعاش هذا الشعور حيث أبي ، وفجأة شعرت أن العالم عبارة عن قصر فيه عدد لا محدد من الغرف المفتوحة على بعضها البعض ، ولا يمكننا العبور من غرفة إلى أخرى إلا بالتذكر والتخيل ، ولكن أغلبنا يجعل هذه الغرف قليلة جداً نتيجة الكسل ، وينظر في الغرفة نفسها .

قالت استر : «لا تبكي يا روحي . انظري! كل شيء في النهاية صار جيداً» .

أعطيتها أربع ذهبيات . وضَعتْها في فمها واحدة واحدة وعضتها بحرص وإرادة ولكن بجهل .

قالت مبتسمة : «ذهب البندقية المزور صار في كل مكان» .

فور ذهابها قلت لخيرية ألا تدع الأولاد في الأعلى . صعدتُ ، وأقفلت الباب . اندسست بدقة كبيرة قرب جسده العاري ، وعملت ما أراد مني أن أعمله في بيت اليهودي المشنوق ليلة مقتل أبي المسكين بتوق أكثر من رغبة ، وبدقة أكثر من خوف .

وكما شبّه شعراء العجم على مدى عصور ذلك العضو بقلم القصب ، شبهوا فم المرأة بالحقة ، ولتكرار هذا التشبيه نسي مصدره ـ هل هو صغر الفم ؟ أم صمت الحقة المليء بالأسرار ؟ أم كون الله مصوراً ؟ ـ ولا أستطيع

القول إنني فهمت أصل هذا التشبيه تماماً . والعشق لا يفسر بمنطق امرأة مثلي تشغل عقلها دائماً من أجل حماية نفسها يجب أن يفهم باللامنطق .

إذن سأعطيكم سراً : لم يكن ذلك الشيء الذي في فمي يمنحني انفعالاً في تلك الغرفة التي تفوح منها رائحة الموت . ما كان يجعلني منفعلة وقوفي هناك هكذا ، وبينما أشعر أن ضجيج العالم كله في فمي ، أسمع صراخ ولديَ الفرح وتدافعهما وتبادلهما الشتائم .

بينما كان فمي مشغولاً إلى ذلك الحد استطاعت عيناي رؤية قرة وهو ينظر إليَ بشكل مختلف تماماً . قال إنه لن ينسى وجهي وفمي مرة أخرى أبداً . كانت تفوح من بشرته رائحة بعض كتب أبي القديمة والورق المتعفن . تغلغل في شعره غبار غرفة الخزينة كله ورائحة القماش . عندما فقدت سيطرتي ولمست جروحه وأورامه كان يئن مثل طفل . وبالتدريج ابتعد عن الموت ، وفهمت أنني سأرتبط به أكثر . وتبادلنا الحب بتسارع بطيء مثل أشرعة سفينة تنفتح للريح ، ويتجه بسرعة مثل السفينة إلى بحار مجهولة .

أدركُ من خلال سيطرة قرة على دفة السفينة حتى وهو على فراش الموت كم من النساء غير المؤدبات مررن به من قبل . وبينما كنت لا أدري إن كنت أقبّل ذراعي أم ذراعه ، أُدخلُ في فمي أصبعي أم حياتي كلها ، كان هو شبه سكران بتأثير جراحه ومتعته ، ويتابع العالم بعين واحدة نصف مفتوحة ، وأحياناً يتفرج عليه بإعجاب ، بعد ذلك تماماً ينظر إلى وجهي وكأنه وجه عاهرة (منغارية) .

في لحظة متعة أطلق صرخة كصرخة الأبطال الأسطوريين المشطورين قسمين في الرسوم الأسطورية التي تعرض تداخل جيشي إيران وطوران ، وما أخافني سماع الحي كله تلك الصيحة . ولكن اليد التي تمسك القصبة تحركت بأمر أوجده الله مثل أستاذ نقش حقيقي يستطيع حساب توزيع الصفحة كلها

في ذروة لحظة الإلهام ، وقرة في اللحظة القصوى لانفعاله كان يراقب بزاوية من زوايا عقله مكاننا في العالم .

قال وهو متلاحق الأنفاس : «تقولين إنك كنت تدهنين جروح أبيهما بالمرهم» .

لم تشكل هذه العبارة لون عشقنا المتخذ مكانه بين الحياة والموت ، المنع والجنة . اليأس والخجل فقط ، بل صارت ذريعته أيضاً . في الستة وعشرين عاماً التالية ، أي إلى أن سقط بجانب الجب ومات من القلب تبادلنا الحب ـ زوجي الحبيب قرة وأنا ـ أوقات الظهيرة في أثناء تسلل أشعة الشمس من شقوق سحابات النوافذ ، وفي السنوات الأولى ونحن نستمع إلى تغريد شوكت وأورهان ، وأسمينا هذا دائماً «دهن المرهم على الجرح» . وهكذا استمر ولداي بالنوم معي ليلاً في فراش واحد طيلة سنوات لغيرتهما ولأنني لا أريد أن ينسحقا أمام غيرة أب فظ حزين ومطالبه . وكل النساء العاقلات يعرفن أن احتضان الأولاد والنوم أجمل من الدخول في أحضان زوج مسحوق دعكته الحياة .

نحن ـ أي أنا وولداي ـ سعدنا ، ولكن قرة لم يسعد . ولهذا سببان ملموسان هما عدم شفاء الجرح الذي في كتفه ورقبته في أي زمن بشكل تام ، وقول الآخرين عن زوجي الحبيب ما سمعته أنا أيضاً أنه «ذو عاهة» وهذه عاهة لم تؤثر على شيء سوى مظهره ، وقد سمعت أن النساء اللواتي يرينه من بعيد يقلن إنه وسيم . ولكن كتف قرة الأيمن بقي نازلاً دائماً ، وبقيت رقبته مائلة بشكل عجيب . وقد تناهى إلى سمعي شائعات تقول إن امرأة مثلي لا يمكن أن تضاجع إلا رجلاً أقل منها ، وبقدر ما كانت عاهته سبب تعاسته ، فهي السبب السري لسعادتنا .

لعل في هذه الشائعة جزءاً من حقيقة كما في كل شائعة . وكما أشعر

بالنقص والفقر نتيجة عدم تحقيقي تشبيه إستر بأن أركب حصاناً رائعاً وأنا منتصبة على ظهره ومن حولي العبيد والجواري وأعبر إسطنبول ، عانيت أحياناً من افتقادي لزوج يرفع رأسه عالياً وينظر إلى العالم شاعراً بالانتصار مثل الأسد .

بقي حزيناً دائماً لسبب غير معروف . ولرؤيتي أن لا علاقة لكتفه بكدره كنت أؤمن أن في زاوية خفية من زوايا روحه جنيَ حُزنٍ يُحزنه حتى في أسعد لحظات تبادل الحب . ومن أجل تهدئة ذلك الجني كان يشرب الخمر أحياناً ، ويتفرج على الرسوم في الكتب ويهتم بالنقش أحياناً ، ويقضي أوقاتاً مع النقاشين ويلحق معهم الغلمان الحلوين . كما مرّ في مرحلة سلّى نفسه فيها بألاعيب النقاشين والخطاطين والشعراء بالكلام واستخدام الكلمات الجنسية ، والكلمات ذات المعنى المزدوج والكنايات والمجازات والغلمان الحلوين ، مر بمرحلة نسي فيها كل شيء عند نجاحه بالدخول في خدمة سليمان باشا الأعوج في شؤون المكتبة وكتابة الديوان . وتحوّل هوس قرة بالنقش بعد أربع سنوات عندما مات سلطاننا وجلس على العرش السلطان محمد وأدار هذا ظهره للنقش ـ تحول ـ من متعة ملاحقة المظاهر إلى سر يعيش وراء الأبواب وحده . أحياناً يفتح أحد الكتب الباقية من زمن المرحوم أبي على رسم نُقش في هرات في عهد ابن تيمور ، نعم ، على رسم شيرين العاشقة لخسرو من النظر إلى رسمه ، ولا ينظر إليها كجزء من لعبة مهارة سعيدة ما زالت تعيش في محيط القصر ، بل ينظر إليها كمن يقتفي سراً لذيذاً بقي في الذاكرة مصحوباً بالشعور بالذنب والكدر .

بمناسبة الذكرى الثالثة لجلوس سلطاننا على العرش أرسل له ملك انكلترا آلة موسيقية ذات منفاخ هي ساعة معجزة . وانقضت أسابيع والهيئة القادمة مع هذه الساعة الضخمة من انكلترا تعمل في القطع والمسننات والتصاوير

والتماثيل التي أخرجت من السفينة لتركب في المنحدر المطل على الخليج من الحديقة الخاصة . وقد رأت الجموع القادمة إلى منحدرات الخليج ، والقادمة بالزوارق من أجل الفرجة على تلك الساعة العظيمة أنها عندما تعمل تصدر موسيقى مخيفة وعالية الصوت ، وتدور فيها التماثيل والتصاوير في حركات ذات معنى ، وعلى وقع موسيقي وكأنها من صنع الخالق وليس المخلوق ، مصدرة صوتاً يشبه الناقوس معلنة الوقت على اسطنبول كلها .

ولّدت هذه الساعة عند العوام والمخبولين من أهالي إسطنبول إعجاباً غير محدود ، وصلت إليّ أخبار عن طريق قرة وإستر كل على حدة أن سلطاننا وفرقة المشايخ المتعلقين بدينهم اعتبروا أن الساعة تظهر قوة الكفار ، وهي مصدر قلق للعامة . وفي مرحلة ازدادت فيها هذه الشائعات سمعنا أن السلطان أحمد الذي جاء بعد السلطان محمد نهض من نومه في منتصف الليل بإلهام من الله ، وأغمض عينيه ونزل من قسم الحرم إلى الحديقة الخاصة ، وجعل الساعة كالغبار المنثور . وقال ناقلو الخبر والشائعات إن سلطاننا رأى في نومه وجه حضرة نبينا وسط النور ، وقد حذره رسول الله أنه إذا أفسح المجال لقومه بإبداء الإعجاب بالرسم ، وخاصة الذي يشبه الإنسان ، والذي يظهر التسابق مع الله في الخلق ، فإنه سيعتبر خارجاً عن أوامر الله ، ويضيفون أن سلطاننا قام بهذا العمل مغمض العينين وهو لا يزال يرى الحلم . وأملى سلطاننا الحادثة على مؤرخه الصادق بما يشبه هذا تقريباً . وقدّم أكياساً من الذهب للخطاطين لتحضير هذا الكتاب المعنون : « زبدة التواريخ » ولكنه لم يسمح للنقاشين برسمه .

وهكذا ذوت الوردة الحمراء لانفعال النقش والرسم القادم من دولة العجم والمتفتحة في إسطنبول على مدى مائة سنة . ولم تنته أو تصل إلى نتيجة صراعات النقاشين ، والصدام بين قواعد أساتذة هرات القدماء وقواعد

الأساتذة الأفرنج الذي يفتح الأبواب على أسئلة لا تنتهي . لأن الرسم قد ترك . لم يعد يُرسم لا مثل الغربيين ولا مثل الشرقيين ولم يغضب النقاشون ويتمردوا ، بل قبلوا الوضع تدريجياً بتوكل وحزن كما يقبل المسنون المرض بصمت . ولم يعودوا يتوقون لمعرفة ما يعمله كبار الأساتذة الهراتيين والتبريزيين أو يتخيلون هذا بعد أن كانوا يتابعونهم بإعجاب شديد ، أو معرفة ما يعمله الأساتذة الأفرنج الذين يعجبون بقواعدهم الجديدة بتردد ما بين الغيرة والكره ، وتُرك الرسم دون صاحب كما تغلق أبواب البيوت في الليل وتترك المدينة للظلام . ونسي دون رحمة أن العالم كان يرى بطريقة مختلفة .

مع الأسف لم يكمل كتاب أبي . وانتقلت الصفحات المنجزة من حيث أسقطها حسن إلى الخزينة ، وهناك أمر خازن كتب شغيل بتجليدها مع رسوم أخرى قادمة من النقش خانة ، وتوزعت على مختلف المجلدات المرقعة . هرب حسن من اسطنبول ، وفقد ، ولم يأت منه خبر . ولكن شوكت وأورهان لم ينسيا أبداً أن الذي قتل قاتل أبيهما هو عمهما وليس قرة .

أنا أردت كثيراً وبشكل سري ، وطوال عمري أن يرسم رسمان ، ولم أفاتح أحداً بهذا .

١ــ أردت أن ترسم شخصيتي ، ولكنني أعرف أنهم مهما بذلوا لن يستطيعوا ، لأنهم حتى لو رأوا جمالي على ما هو فإنه مع الأسف ليس ثمة نقاش في نقش خانة السلطان يؤمن أنه يمكن رسم فتاة جميلة دون أن يرسم عينيها وشفتيها مثل الصينيين . إذا رسموني كما يرسم معلمو هرات القدماء مثل حسناء صينية ، لعل الذين يرونها ويعرفونني يستطيعون استنتاج أن وجهي يكمن وراء تلك الحسناء الصينية . أما الذين سيأتون بعدنا فلن يستطيعوا استنتاج من تشبه حتى لو كانوا يعرفون أن عيني أصلاً ليستا

مرفوعتي الأطراف . واليوم وأنا عجوز أقضي أيامي بالتسلي مع ولدي كم كنت سأسعد لو كان لدي رسم أنجز أيام شبابي!

٢ـ أردت رسم السعادة وهي ما تاق لمعرفته الشاعر (الراني) : (ناظم صاري) في مثنويه الشهير . وأعرف كيف سترسم جيداً . أريد أن ترسم أمُ وليكن لديها ولدان ، الصغير تضعه في حضنها وترضعه ، ويبتسم سعيداً وهو يرضع من ثدي أمه الضخم ، بينما يشعر أخوه بغيرة حقيقية ويلتقي نظره بنظر أمه . ولتكن الأم في هذا الرسم أيضاً أنا ، وليظهر طائر في السماء يطير إلى ما لا نهاية ، ويبقى متعلقاً سعيداً إلى ما لا نهاية أيضاً ، وأريد أن ينجز هذا الرسم على طريقة الأساتذة الهراتيين القدماء الذين يوقفون الزمن . أعرف أن هذا ليس سهلاً .

ابني أورهان الغبي إلى حد أنه يجد نصائح لكل شيء بقي سنوات يذكرني أن الأساتذة الهراتيين الذين يوقفون الزمن لا يستطيعون مطلقاً رسمي كما أنا ، ويشرح لي أن الأفرنج يرسمون الأم الجميلة المحتضنة ابنها كثيراً ، ولكنهم لا يستطيعون إيقاف الزمن ، وأن رسم السعادة الذي أريده لن يرسم في أي وقت .

لعله على حق . الإنسان في الحقيقة لا يبحث عن الابتسامة في رسم السعادة ، بل عن السعادة في الحياة . النقاشون يعرفون هذا ، ولكن ما لم يستطيعوا رسمه هو هذا أيضاً . لهذا السبب يضعون سعادة الرؤية موضع السعادة التي في الحياة .

حكيت هذه الحكاية التي لا يمكن رسمها لابني أورهان لعله يكتبها . وأخرجت من صرتي الرسائل التي أرسلها لي قرة وحسن ، ورسم الخيول المتبدد حبره والذي كان مع ظريف أفندي المسكين وأعطيتها له . إنه عصبي ومزاجي وتعيس دائماً ، ولا يخشى أبداً من أن يظلم من لا يحب . لهذا إذا

قدم قرة تانهاً أكثر مما هو عليه ، وصور حياتنا أصعب ، وشوكت أسوأ ، احذروا من تصديق أورهان ، لأنه ليس ثمة كذبة لا يقدم عليها لتكون حكايته جميلة ونصدقها .

* * *

الفهرس

أورهان باموق

اسمي أحمر

